

وسط الجزيرة العربية وشرقها

تأليف: وليد جيفور بالجريف

ترجمة: صبري محمد حسن

المجلس
الأعلى
للثقافة



المشروع القومي للترجمة

270

الجزء الثاني

المشروع القومي للترجمة

وسط الجزيرة العربية وشرقها (المجلد الثانى)

تأليف

وليام جيفورد بالجريف

ترجمة

صبرى محمد حسن



الرحلة والإقامة فى وسط وشرقى الجزيرة العربية

الفصل العاشر

الحياة فى الرياض

ولكن الأخلاق Morolity بنفسها هناك
تضم الآراء كلها :
اسمع ، كيف يطلق الصرخة هناك
بين رفاقه الاثنين ؛
انظر ، كيف تسليخ الجلد وتسقط
مثل من كان يُقشَّر البصل !
الآن هناك - هم محزومون للجحيم ؛
ومطرودون من ممتلكاتنا ،
ومن يومها إلى يومنا هذا ،
بيرنز

جوهر أول مريض نفحصه - مكانته ، شخصيته ، ونفوذه - عبد الكريم -
تاريخه وشخصيته - زيارة منزله - غداء على طريقة العارض - التبخير - أسرته -
نقاش عن تقسيم الذنوب فى الدين الإسلامى - العقيدة العامة - الشرك وتدخين التبغ -

الأسباب التي ساقها عبد الكريم - خواص التبغ العربى - مزيد من الأسباب - مناورات عبد الكريم تحاشيا لدفع الأتعاب - خطبته - عبد الرحمن المطوع - مسكنه ، دراساته ، وتلاميذه - قصة ماموميت فى دمشق - غضب عبد الحميد - عبد اللطيف الوهابى - تاريخه وشخصيته - خطبته - طُرف عدالة السماء - عن مدخنى التبغ - التشدد الوهابى ونتائجه - العقوبات العربية - محمد ، شقيق عبد اللطيف - أفراد آخرون - استطراد عن علم تصنيف الأمراض عند العرب - حالة التصحاح فى الجزيرة العربية - بشكل عام - اختفاء أمراض بعينها - الأوبئة - سل الغدد الليمفاوية - أشكاله - الروماتيزم - الأمراض الباطنية والاستسقاء - العلاج العربى - الدوسنتاريا - الحمى - السكتة الدماغية - الشلل - الرقاص - التيتانوس - الهوس - رهاب الماء - الربو - الالتهاب الشعبى - الجذام والأمراض الجلدية - الرمد وأمراض العيون - انعدام التوتر العصبى بين العرب - إجراء عملية - الفروق الواضحة على ساحل الخليج الفارسى وفى عمان - شفاء جوهر - مكانتنا فى القصر - مقدمة لتاريخ الأسرة المالكة الوهابية .

وبرأ بوعده لعب أبو عيسى دوره مستفيداً من كل ما لديه من قوى التضخيم الذى تطلق عليه العامة اسم "النفخ" ، فى جلب المرضى والزبائن . وتكللت مساعى هذا الرجل بما يستحقه من نجاح ؛ إذ جلب لنا فى صبيحة اليوم التالى لانتقالنا إلى منزلنا الجديد ، مريضاً يكاد يكون لُقىة ومصادفة سعيدة .

هذا المريض ، كان هو جوهر ، بشحمه ولحمه ، وزير خزانة الملك فيصل ، ومن الإمبراطورية الوهابية . وسوف يندهش القراء عندما يعرفون أن ذلك الموظف كان شديد السواد ، بل أنه كان زنجياً ، فى حقيقة الأمر ، رغم أنه لم يكن عبداً ، إذ أعتقه الأمير تركى ، والد الملك الحالى . كان جوهر طويل القامة ، وأنيقاً ، قياساً على الزنوج ، ويبلغ من العمر خمسة وأربعين عاماً تقريباً ، يرتدى ثياباً فاخرة ، وهذه مسألة لا يغفلها الأثرياء الأفارقة ، بغض النظر عن معتقداتهم النظرية ، وكان يعلق فى وسطه سيفاً مقبضه من الذهب . ولكنه أبلغنى ، أن الذهب حرام إذا كان يشكل جزءاً من الثياب أو لمجرد الزينة ، ومع ذلك يمكن استعماله فى تزيين الأسلحة . ومبلغ ظنى ، "أن الوعّاظ قد بددوا وقتهم وقدرًا كبيراً من طلاقته فى إقناع السيدات بالاعتدال فى ثيابهن^(١) . ولعل هؤلاء الوعّاظ يجربون حظهم مع مجموعة مكونة من الزنوج الذين

(١) لعل الكاتب يلمز فى عبارته هذه إلى مسألة حجاب المرأة وهذا واجب شرعى وثابت بنصوص القرآن والسنة وعلى العلماء واجب البلاغ والتنبيه إليه دائماً حتى لا تخرج النساء متبرجات - (د . حلمى عبد المنعم) .

ينتمون إلى الطبقة فوق المتوسطة ، ومع إنى لا أعرف النتائج التى يمكن أن تترتب على مثل هذا العمل إلا أنى واثق أن "جبريل"^(١) "والوهابى قد فشلا فشلاً ذريعاً فى هذا الأمر . أما فيما يتعلق بالأمور الأخرى كلها ، فقد كان جوهر ممتازاً ، حلو الطبع ، ولكنه كان حاد المزاج إلى حد ما ، ومرن ، ويمكن انتمانه على الأسرار مثل معظم "أبناء جلده" ، كما يقول التعبير العربى .

كان المرض الذى يشكو منه جوهر يقلقه كثيراً ، وبخاصة أن الملك فيصل كان يود تكليفه ، على الفور ، بمهمة رسمية ، يوفده فيها إلى البحرين (التى التقيناه فيها فيما بعد) ، ولكن حالته الصحية هى التى تؤخر قيامه بهذه المهمة . من هنا ، فإن تحسين حالته ربما يُنظرُ إليه باعتباره خدمة وطنية . ونظراً لأن أبا عيسى ، كان يعرف جوهر منذ زمن بعيد ، بوصفه وزيراً للخزانة ، فقد قدمه لنا ، وأجلسه فى مكان موقر ، على سجادة مفروشة فى الحوش الخارجى ، مع اثنين أو ثلاثة أشخاص من أصحاب المال والجاه ، فى حين جلس أبو عيسى إلى جوار جوهر ، وراح يثنى على مهارتى الطبية بأوصاف إن أطلقت على كالين Cullen نفسه ، لاحتاجت منه إلى مؤهلات لإثباتها ؛ ومع ذلك فقد شجعت هذه الأوصاف جوهر مما جعله يتهاى لتقبل العلاج .

وبعد الترحيب وتناول القهوة ، اصطحبت مريضى الأسمر إلى غرفه الفحص ، وعن طريق الاستجواب وطرح الأسئلة وعن طريق الحدس - نظراً لأن الزوج مُقلِّين أكثر من العرب فى تعبيراتهم وأقوالهم - استطعت أن أحدد حالته المرضية . ومع أن مرض جوهر كان مؤلماً ، إلا أنه ، من حسن حظى ، كان من الأمراض التى تستجيب للعلاج البسيط الفعال ، إلى حد أننى أبلغته ، فى الحال ، بأن حاله سوف يتحسن خلال أسبوعين ، وأنه سوف يتمكن ، بعد ثلاثة أسابيع ، من القيام بمهمته إلى البحرين ، وأردفت قائلاً : إننى لا أستطيع مع شخصية بارزه مثل ، جوهر ، أن أدخل فى مساومة ، حول الأتعاب ومقدارها ؛ وأن مسألة تقدير أتعابى متروكة لكرمه . ويستأذن جوهر ، عائداً إلى مكتبه فى القصر ، وبرفقته مرؤسيه من الزوج .

(١) ماذا يقصد المؤلف بكلمة (جبريل) إذا كان يقصد بها أمين الوحي الذى ينزل على الأنبياء والرسول بكلام الله عز وجل وبالوحي الإلهى ، فهذا إسفاف وسخرية يتنزه عنها الملك جبريل عليه السلام ، لأن الشرع أوجب علينا الإيمان بالملائكة وعلى رأسهم جبريل ، ولهم كل الإجلال والاحترام . يقول تعالى فى كتابه الكريم «من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين» (البقرة : ٩٨) . (د. حلمى عبد المنعم).

وبذلك يكون الجليد قد ذاب ؛ إذ أسفرت ثقة مريضنا الأول بطبيبه ، ومركزه الرفيع وأهميته ، عن سمعة طيبة لنا فى كل من القصر والمدينة ، بل إن هذه المسألة كانت خبطه حظ لى ، نظراً لأن الزيون الأول كان من الزنوج ، والعرق الأسود ، باعتباره أقل من العرق العربى ، من حيث القوه الفكرية وثبات العزيمة ، لا يعانى من الشك الشديد والحسد الدفين الذى يشيع بين المواطنين البيض . والحقد هو نقطه البلاء عند العرب ، ومن يعيش بينهم فترة طويلة ، يقف ، عن طريق التجربة والمعاشرة ، على إدانتهم المتكررة لهذه الصفة الذميمة فى أدبهم . ولكنى لم أر فى أى مكان زرتة حسداً دفيناً ، مثل ذلك الذى رأيته فى العارض .

والشخص الثانى المهم الذى استقبلناه بعد جوهر ، كان من نوعية مختلفة ؛ إذ كان أقل مرونة من جوهر ، وأقل امتناناً ، ولكنه كان يصلح لرحلتنا فى الرياض ، من بعض النواحي . إنه عبد الكريم ، ولد إبراهيم الذى ارتبط مؤخراً بالأسرة الوهابية عن طريق المصاهرة ، والذى يزعم أنه من نسل أعيان العارض . كان عبد الكريم وهابياً متشدداً ، ونموذجاً لكل رذائل مذهبه ، فقد برزت شخصيته بشكل واضح ، مع مجموعة المطيعية الأولى ، عندما تأسست فى العام ١٨٥٥ الميلادى ؛ وقيل أيضاً إن وفاة الوزير السابق سويليم ، القاسية ، عزتها الشائعات إلى حقد عبد الكريم الشخصى وأهدافه الخاصة ، التى كانت تتستر بقناع الحماس الدينى . وهناك أعمال أخرى ، من القبيل نفسه ، تعزى إلى هذا الشخص نفسه ، وأنه تحول خلال فترة وجيزة من توليه السلطة ، إلى شخصية غير محبوبة ، إلى حد أن رفاقه من المطيعية اضطروا إلى الاستفادة من تدهور حالته الصحية ، فى إبعاده عن منصبه . وبعد أن كرمه أولئك الذين اعتبروه ضحية من ضحايا فضائله ، وبعد أن كرهته عامة الناس ، تقاعد ليقضى بقية حياته فى الحى الثالث من المدينة ، الذى حضر إلينا منه لأنه كان يعانى من التهاب شُعْبَى مزمن ، يشيع فى مثل هذا المناخ .

وقدم عبد الكريم نفسه لنا ، فى شىء من التواضع البشوش ، ولكنه ، قبل أن يتحدث عن مرضه ، دخل من قبيل التقديم فى خطاب أثبت به أنه أستاذ فى الشريعة الإسلامية . وفى منزلنا ، أعرب عن إعجابه بالمدرسة الدينية الدمشقية ، ولم يفت عليه أن يذكرنا أن ابن عبد الوهاب قد تلقى العقيدة السليمة وتعلمها فى عاصمة سوريا ، وأدخل فى أذهاننا أننا أيضاً لابد أن نكون على نفس المستوى من التقوى والعلم . وقد سعدنا لأننا ناقشناه فى موضوعات كان يتكلم فيها بلا أى عوائق أو تكلف ، وكان كلما كلنا له شيئاً من المديح ، يسارع إلى تثقيفنا ، ويشرح لنا كثيراً من نقاط المذهب

الوهابى وسلوكياته . وفى النهاية ، بدأ عبد الكريم ينتقل من المجالات المجردة إلى المجالات المادية ، ورجانى أن افحص صدره . وشخصت له مرضه ، ثم استأذن الرجل وذهب لحال سبيله ، بعد أن حصل منا على وعد بتشريف منزله بزيارتنا له ، وتناول الغداء فيه ، فى ساعة مبكرة ، من اليوم التالى . وبرغم أن هذه الألفة بعثت السرور فى نفس أبى عيسى إلا أنها استحثت فيه اليقظة والحذر . لقد انشرح صدر أبى عيسى ، لأن الدخول إلى دائرة شخصيه مرموقة ، من هذا القبيل ، فى عالم التقوى ، إذا ما استعملنا التعبير العام ، هو بمثابة وضع ريشه فى غطاء رأسنا ، وجواز سفر إلى الاحترام والتبجيل فى الأماكن الأخرى ؛ ولزم أبو عيسى اليقظة والحذر ، عندما أخذ بعين اعتباره احتمال الخيانة والشر من مضيفنا فى المستقبل . والواقع أن ذلك الشعور بلغ من السيطرة على أبى عيسى مبلغاً جعله ، يطلب منا عدم الذهاب إلى منزل عبد الكريم ؛ ولكنى رأيت من الأفضل عدم الاستسلام لهذا الحذر الزائد عن الحد .

وقبل ظهر اليوم التالى بفترة قصيرة ، حضر عبد الكريم وهو يرتدى ثوباً أبيض ورداء متواضعاً ، وفى يده عكازه ، إلى منزلنا ، وطلب منا الوفاء بالوعد الذى قطعناه على أنفسنا . ونهضنا من مكاننا ورافقناه فى المسير عبر السوق ثم من خلف القصر ، ثم مررنا بالشوارع الأنيقة المنظمة ، إلى أن وصلنا منزله . كان المنزل كبيراً ، وأشار إلينا عبد الكريم بالدخول إلى حوش المنزل ، ومن حوش المنزل اتجهنا إلى درج طويل يؤدى إلى الطابق الثانى ، حيث أدخلنا إلى ديوان أنيق حسن الإضاءة . وفوق باب ذلك الديوان ، نقشت بحروف نصف كوفية ، وهى الأحرف التى يشيع استعمالها فى نجد ، الأبيات التالية المأخوذة عن عمر بن الفارض الشاعر العظيم :

مرحباً بمن لا أستحق لقاءه ،

مرحباً بالصوت الذى يعلن الفرح بعد الحزن :

الترتيبات الجميلة لك ؛ ولتذهب ثياب الحزن ؛ اعلم

أنك مقبول ، وأنا بنفسى سوف أتحمّل كل ما يغضبك .

هذه الكلمات تحمل مغزى الزهد ، بل إن لها مضموناً مسيحياً ، إذا ما أدخلناها ضمن القصيدة التى اقتبست منها ، ولكن المستهدف من هذه الأبيات هنا هو التعبير عن مشاعر الكرم ، والود والصدقة . وهذه الأبيات شأنها شأن النقوش النجدية كلها ، كانت مرسومة وليست محفورة . وفى داخل هذا الديوان كان يجلس إبراهيم ، والد عبد الكريم المسن ، ورب هذا البيت ، ومعه مجموعة أخرى من أبنائه ؛ ومن أمامه

مجموعة من الكتب الشرعية ، والدينية ، وأجزاء من القرآن ، ومحبرة ، ومجموعة من أوراق الكتابة ؛ بعض هذه الأشياء ، كان موزعاً فى كل أنحاء الديوان ، والبعض الآخر موضوع فى الفتحات مثلثة الشكل التى تستعمل رفوفاً للكتب فى الجزيرة العربية ، وكل ذلك كان يوحى بالعلم والدراسة .

والمفترض فى العواصم أن تكون أكثر رقياً من حيث السلوكيات وارتفاع مستوى الحياة عن أى مكان آخر ، وقد لاحظت أن التشدد الوهابى لم يمنع الرياض من اتباع هذه القاعدة العامة . وقد استقبلنا إبراهيم وأسرته استقبالاً طيباً ، فقد قام أحد الأطفال ، فور وصولنا ، بإحضار طبق منتقى من التمر الممتاز ، تعبيراً عن حسن النية وتقديرنا لنا . وعندما ظهر الغداء ، فى الوقت المناسب ، بعد التماس كثير من الأعذار لبساطته - "أنتم أيها الدمشقيون كنتم ستعاملوننا أفضل من هذا لو كنا فى دياركم ، ولكنكم تعلمون إن نجد فقيرة ، ونحن نفتقر إلى الوسائل ، ولكن لا تعوزنا الإرادة والنية" ، وما إلى ذلك من هذه الاعتذارات - كان الغداء ، يشتمل ، علاوة على الأصناف الأخرى ، على طبق أدهشنى أن أراه وسررت أيضاً لرؤيته ، نظراً لأنه كان إشارة واضحة إلى أننا بدأنا نقرب من الساحل الشرقى . ولو قدر للقارئ ، حتى وإن كان من أهل الشرق ، أن يحذر مدة ساعة كاملة ، نوعيه ذلك الطبق الطيب الذى أمامنا ، فإنه سوف يصعب عليه ، من وجهة نظرى ، معرفة أن ذلك الطبق كان يحتوى على جمبرى مجفف ، أما صديقى السورى ، الذى لم يسبق له أن رأى ذلك الجمبرى من قبل ، فلم يكن يعرف كيف يتصرف ؛ أما فيما يتعلق بى أنا شخصياً ، فقد رحبت بذلك الصديق (الجمبرى) القديم ، برغم وجوده فى ظروف غير مواتية - إذ لم يكن طازجاً ، وأقل تجهيزاً وإعداداً مما لو كان على ضفاف نهر يارى Yare . وعندما سألت عن ذلك الجمبرى ، قيل لى أن هذا الجمبرى يجرى جلبه بصورة مستمرة من الأحساء ، وأن المصيد نفسه يتبع البحرين . ولكن فيما يتعلق بالمنتجات الكثيرة الأخرى التى تنتجها هذه الجزيرة ، فلم يكن يصل منها أى شئ إلى هذه البلاد ؛ والسبب فى ذلك هو عدم معرفة الناس هنا بطريقة الحفظ بالتمليح والتجفيف .

وبعد تناول الغداء ، غسلنا أيدينا بالبوتاس أو القالى كما يقولون له (ومن هذه الكلمة اشتقت الكلمة الإنجليزية alkali «قلوى») ، وهو المنظف المعتاد فى نجد ، ثم أعقب ذلك عملية الطيب والتبخير بالطيب . ولم تكن عملية التبخير بالطيب هذه

مقصورة على نجد فقط ، فقد سبق أن شاهدناها تمارس أحياناً فى جبل شومر ؛ زد على ذلك أنها تعدّ عملية يومية فى سدير ؛ ومع ذلك فقد نسيت أن أصف هذه العملية ، فى مرحلة سابقة ، ولذلك أجد أن الوقت والفرصة سانحة هنا ، لتناول عملية التبخير بالوصف . الواقع ، أن التطيب ، هنا ، فى منطقة العارض المتدينة ، يقل طابعه الدينى عن طابعة الأرسطقراطى ، ذلك أن النبى (ﷺ) قال عن نفسه بعبارات صريحة إنه محب للطيب ومحب للنساء ، وبذلك يكون قد ترك أثراً يحتذى أتباعه المخلصون . وبناء عليه ، يظهر بعد تناول الغداء ، أو شرب القهوة ، صندوق مربع صغير يشبه الزهرة اليانعة ، الجزء العلوى من جوانبه مُحَرَّم تخريماً زينياً ، فى حين يكون الجزء السفلى من هذا الصندوق ، على شكل ساق أو إن شئت فقل مقبض ، يبلغ طوله حداً يسمح للإنسان بالإمساك به دون أن يحرق الجمر أصابعه ؛ وهذا الصندوق مصنوع من الفخار ، ويملأ هذا الصندوق بالفحم النباتى ، أو بقطع من خشب الأثل المشتعل ، ويوضع من فوق الفحم أو خشب الأثل ثلاث أو أربع قطع من خشب الطيب ، من نفس النوعية التى رَشَوْنَا الوزارة بها فى الفصل السابق ؛ أو قد توضع ، بدلاً من خشب الطيب ، نتفاً من اللبان الجاوى أو إن شئت فقل : الميعة ، إلى أن يتصاعد الدخان العبق . ويتناول الحاضرون تناول هذه المبخرة المشتعلة ، ويمررها كل واحد منهم تحت ذقنه (التى ينبغى أن أقول : إنها خشنة فى نجد) ، ثم يرفع بعد ذلك طرفى غترته الواحد بعد الآخر ، ليصطاد بهما قدراً من ذلك العطر الثابت ، برغم أن فى ذلك مخاطرة بإصابة الأذن بالحروق إذا كان مستعمل المبخرة مستجداً على هذه العملية ، مثلما حدث معى أنا شخصياً ؛ وفى النهاية ، وبرغم أن ذلك ليس بصورة مستمرة ، يفتح الشخص صدر قميصه أيضاً ، ليسمح لدخان الطيب المعطر بالدخول إلى ملابسه الداخلية وتعطير جسده من الداخل . والسبب فى ذلك أن عبق الطيب فواح ، وقد يستمر ساعتين بعد التطيب . ولم أر نوعية الطيب الذى يستخدم فى أوروبا سوى مرتين أو ثلاثة ؛ ويقول النجديون عن الطيب ، إنه يجرى استيراده من حضرموت . ولكن هيا بنا نعود مرة أخرى إلى مضيفنا .

لا يزال ، إبراهيم المسن ، والد عبد الكريم مضيفنا ، يتذكر الغزو المصرى وحصار الدرعية . وقد حكى لنا الكثير من الأحداث عن هذا الموضوع ، وكان هو نفسه شاهد عيان فيها ؛ وسوف أورد بعضاً من هذه الحكايات فى الفصل الذى سوف أخصصه لأسرة آل سعود اليمفاوية . وقد لاحظت أيضاً أن اسم أبو نقطة ، الذى ورد

على لسان رفيق لاسكاريس Lascaris ، وهو يصف الغزو الوهابي للمنطقة الشمالية ، لم يكن غائباً عن ذهن إبراهيم والد عبد الكريم ؛ ولكن إبراهيم أعطى أهمية عسكرية كبيرة لبطل زنجي آخر ، اسمه الحارث : الذي سوف أورد الكثير عنه فيما بعد . وبينما كان إبراهيم يروي لنا هذه الأحداث ، زمجر وانفعل ، وبدأ عليه كما لو كان يستطيع أن يبتلع كل الكفار الأحياء على هذه البسيطة ، وأنا أقر أنه لم تكن تنقصه الشجاعة أو يفتقر إلى الجرأة ؛ والسبب في ذلك أن الجبن ليس من سمات النجديين .

واستمر عبد الكريم في زيارته لنا على نحو شبه يومي ، بينما كنا نرد زيارته من حين لآخر ، إلى أن تم شفاؤه في النهاية ، ولم يعد بعد بحاجة إلينا . ومبلغ ظني ، أن عبد الكريم لم يكن "واضحاً" إن جاز لي أن أستعمل هذه الكلمة التي يستعملها الصحابيون Quakers في إطار الدين المسيحي . يضاف إلى ذلك أن عبد الكريم ، عندما كان يحاول استدراجنا ، كان يكشف نفسه في أحيان كثيرة ، الأمر الذي كان يسعدني ويرضيني .

وفي إحدى المناقشات الحامية ، بيني وبينه ، طلبت منه ، ذات يوم ، أن يحدد لي من منظور المذهب الوهابي ، الخطايا الكبرى ، أو إن شئت فقل كبائر الذنوب ، بلغة العرب ، وأن يحدد لي أيضاً "الصغائر" (ولعل القارئ يعلم أن أتباع محمد (ﷺ) يقسمون الذنوب إلى "الكبائر" التي يحاسب المسلم عليها في الحياة الآخرة ، أو إن شئت فقل : التي يستحق العقاب عنها في الحياة الآخرة على أقل تقدير ؛ و"الصغائر" ، التي يعفو الله عن مرتكبها إبان حياته ، إن تاب منها^(١)) . وهذا يشبه إلى حد ما التقسيم الشائع بين المسيحيين : الخطيئات الكبرى والخطيئات العرضية . ومسألة التسوية بين كل هذه الخطايا أمر لا يرد على ذهن أي مسلم ، أو أي نجدي .

ونحن نسلم بمسألة التمييز الحقيقي بين هذا وذاك ، ولكن تبرز هنا مسألة ما هي الكبائر وما هي الصغائر ؟ وكل إنسان يعرف تباين الآراء الكبير بين علماء المسيحية ومن يقومون فيها على أمر فتاوى الضمير والسلوك والواقع أن علماء الإسلام يختلفون

(١) نعم الذنوب نوعان كبائر وصغائر ، والتوبة شرط في المغفرة أيّاً كان نوع الذنب ، والكبائر منها ما يكون فيه حد كالزنا والقتل والسرقة .. الخ ومنها ما لا يكون فيه حد كاليمين الغموس أو انفاجرة (شهادة الزور) والحدود على الكبائر تكون كفارة للذنوب فوق أنها زجر وردع للآخرين يقول عز وجل "الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم .. الآية (النجم : ٢٣) - (د. حلمي عبد المنعم) .

أيضاً حول الموضوع . فمن علماء الإسلام من يعتبرون الكفر ، والشرك ، وعدم اعتناق الدين الإسلامي ، من الكبائر - أو إن شئت فقل عدم الإيمان . ويبدو أن مسألة عدم الإيمان هذه كانت حكماً محمدياً ، إذ يشهد على ذلك العديد من النصوص القرآنية . بعض آخر من العلماء ، يركزون على تعبيرات محددة وردت في "الكتاب" (القرآن) ، ويضيفون إلى ذلك "قتل النفس" والربا ؛ وبعض ثالث ، يصل بعدد الكبائر إلى سبع ، وربما كان ذلك محاكاة للخطايا السبع الكبار المحددة عند المسيحيين ؛ وبعض رابع من العلماء ، يصل بهذه الكبائر إلى خمسين أو سبعين كبيرة ؛ وفي أحد المؤلفات العلمية التي رجعت إليها في مدينة حماه ، أصابني الذعر عندما وجدت أن عدد هذه الكبائر لا يقل عن أربعمئة . وأخيراً ، هناك بعض العلماء الذين يحلون هذه المشكلة بقولهم : إن الله وحده هو القادر على تمييز الكبائر من الصغائر ، وأن إرادته وحده هي الأساس في الثواب والعقاب .

وينبغي أن أضيف هنا ، برغم أن ما سأورده هنا يعد من قبيل الاستثناءات الخاصة ، إنه طبقاً للشرعية الإسلامية ، فإن عذاب الآخرة ، بكل صورة ، سيكون أبدياً لمن لا يتبعون دين محمد ؛ معنى ذلك أن أتباع محمد سوف ينجون في النهاية من نار جهنم ، إما عن طريق وساطة^(١) محمد (ﷺ) ، حسب اعتقاد الكثيرين ، أو بمرور الوقت ، أو برحمة من الله ؛ ولكنهم ، في النهاية ، سيدخلون الجنة إن عاجلاً أم آجلاً ، تاركين الكفار والمشركين وراءهم في النار . وهذه عقيدة تدخل السلوى والعزاء إلى النفوس ، وتنقسم بمقتضاها الحالة المستقبلية إلى قسمين : الجنة لأتباع محمد (ﷺ) ، وجهنم لكل من عداهم^(٢) . يضاف إلى ذلك ، أن جميع التفاسير على اختلاف أنواعها ، تضع المسيحيين ، واليهود ، وعبداء الأوثان ومن في حكمهم ، تحت واحد من هذين العنوانين القاتلين ملحد أو كافر . وهذا أسوأ لأتباع محمد (ﷺ) ؛ ولكن لا لوم في ذلك ، نظراً لأن القرآن يقول : "يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء" .

(١) التعبير الشرعي عن ذلك هو "الشفاعة" - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) نعم ، إن كل من علم ببعثة النبي محمد (ﷺ) ولم يؤمن به ويصدق برسالته فهو في الآخرة من الكافرين يقول تعالى "ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً" ويقول تعالى "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً قلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين" (آل عمران : ٨٥) - (د. حلمي عبد المنعم) ،

نعم في الدنيا : يطلق على اليهود والنصارى أنهم أهل كتاب ولهم معاملة خاصة من قبل المسلمين ، ويطلق على غير الكتابي أنه كافر أو ملحد ، ولكن في الآخرة الكفر كله ملة واحدة - (د. حلمي عبد المنعم)

قد يقول القارئ : ياله من توقع مرعب ! وعلى كل حال ، لابد أن أورد هنا ، و ذلك من قبيل الاعتذار لأصدقائنا من أتباع محمد ، وأصدقائنا النجديين ، إن هذه العقيدة ، من منظورهم هم ، ليست بهذا القدر من الوحشية ، مثلما تبدو لنا منذ الوهلة الأولى . والسبب في ذلك ، أن أتباع محمد ، وأصدقائنا النجديين ، بحكم جهلهم المطبق في الجغرافيا والإحصاء ، يتصورون أن دين محمد (ﷺ) هو دين كوني في كل أنحاء الدنيا ، وأن العقائد الأخرى ليس لها سوى قليل من الأتباع ، إذا ما قورنت بالإسلام . وهم يعرفون ، على سبيل المثال ، أن أوروبا مسيحية ، ولكنهم يعاملونها كما لو كانت بلداً واحداً ، لا أكثر ولا أقل ؛ وأن ملوكها السبعة - لأن هذا الرقم هو الدقيق ، أو عدّهم أنت إذا شئت - محبوسون ، داخل مناطقهم ، في نوع من الأقفاص الذهبية ، يتدبرون ويدرسون مسألة السلام المتبادل أو الحروب المتبادلة ، ومسألة التحالف أو التعاهد ، برغم أن ذلك يكون دوماً بأوامر من سلطان القسطنطينية ، وقد انغرس هذا الدرس الجغرافي والسياسي القيم في ذهني ليس مرة واحدة وإنما عشرين مرة أو أكثر ، عندما كنت في حمص ، وبغداد ، والموصل بل وعندما كنت في دمشق أيضاً . وعلى كل حال ، فقد كنت أتوقع ، للمعرفة شيئاً من القصور ، في الجزيرة العربية ، بل أن أهل هذه البلاد كانوا يسألونني مراراً "هل هناك مسيحيون أو كفار آخرون في العالم ؟" وليس هناك من شك أن ثلاثة أرباع أبناء آدم هم من أتباع محمد (ﷺ) على أقل تقدير . ومن ثم ، فإن أتباع محمد (ﷺ) عندما يحكمون على أغلبية تعيسة ، تصل نسبتها عشرة إلى واحد ، بنار لا تنطفئ ، فإنهم بذلك - طبقاً لنواياهم وتصوراتهم - يدخلون النار ، قطعاً لا يذكر من الكفار العنيدون ، الذين تناسوا القرآن حقداً منذ فجر نزوله ، والذي انتشر منذ ذلك الحين عبر آفاق الانسانية شرقاً وغرباً ، وهذه الفكرة ليست جديدة بأي حال من الأحوال ، ولكن فيها بعض الأشياء المنافية للعقل : فمن صالح البشر أن يكون قاضيهم إلهاً وليس بشراً^(١) . وهناك مثل هندوسى يقول : "الإنسان هو أسوأ شياطين نفسه" ؛ ولو قدر للمحكمة العليا Great Assizes أن يعهد بشئونها إلى مُحَكِّمٍ فانٍ ، من أى بلد ، أو من أى دين أو عرق ، بما في ذلك الأخيار أيضاً ، فإن الجنة ستعاني من الفراغ ، في حين ستعاني جهنم من العكس تماماً .

(١) إن الحكم الذي ذكرناه سابقاً ليس من حكم البشر ولا من كلام البشر وإنما هو حكم الإله العظيم الخالق لكل البشر والمحاسب لهم أجمعين ، فأيات القرآن هي كلام الله ، وليست كلام محمد (ﷺ) ولا كلام أتباعه - (د. حلمي عبد المنعم) .

وعلى كل حال ، فإن الكثيرين ، بل والكثيرين جداً ، من بين أولئك الذين يمكن أن أسميهم أتباع محمد (ﷺ) "الاسميين" ، وبخاصة أولئك الذين سافروا أسفاراً صغيرة أبعد من تلك التي وصل إليها أتباع محمد (ﷺ) الحقيقيين ، والذين شاهدوا بعضاً "من أشياء الأرض الكثيرة" ، أكثر من تلك الأشياء التي يحلمون بها في إطار الفلسفة المحمدية ، هؤلاء الأتباع الاسميين ، يحملون في باطنهم آراء وأفكاراً مختلفة تماماً وربما أكثر عقلانية من أفكار الأتباع الحقيقيين . وأنا أضيف إلى هؤلاء الأتباع الاسميين أعداداً كبيرة من أتباع المدرسة الصوفية العربية ، الذين يتفقون مع ابن الفارض^(١) في رأيه الذي يقول : "إذا كانت آيات القرآن تنير المسجد فإن كلمات الإنجيل لا تُظلم الكنيسة بأى حال من الأحوال" ؛ ويقول ابن الفارض بعد ذلك في موقع آخر : "وهذا ليس من قبيل الظرف أو التفكه ، لأن الله لم يخلق كل هذه المخلوقات كي يتخلص منها ، حتى وإن كانت أعمالهم وتصرفاتهم ليست على المستوى الأمثل" . بل إننى سمعت بعض المناطقة الشرقيين يذهبون إلى أبعد من ذلك في تفسير الظواهر التي تحير الأذهان والقلوب الضيقة غير المستنيرة عندما تقول : "أولاً وقبل كل شيء ، لا بد للحكم أن يتناسب مع المعرفة ، ولا يمكن للقوانين الوضعية Positive والعقائد الوضعية أن تكون ملزمة لأولئك الذين لم يعرفوها قط ؛ وأن التزامات الإنسان إنما تقاس بوسائله ، وأن من يُحسن التصرف سوف يعامل معاملة حسنة فيما بعد" ؛ تأكيداً للمعنى نفسه . ولكن هذه المعتقدات ، تتعارض تعارضاً مباشراً مع مذهب محمد^(٢) (ﷺ) وتعاليم القرآن ، وأن من يعتنقون هذه المعتقدات لا يمكن أن يقتدى بهم في الإسلام ، وإنما هم من قبيل الاستثناءات ، أو بالأحرى أعداء الإسلام .

(١) إن ابن الفارض ليس حجة في الإسلام بل هو متصوف له شطحات وأفكار لا يقرها علماء الإسلام بل يعتبره البعض من فلاسفة المتصوفة الذين خرجوا عن تعاليم الإسلام بأفكارهم الملحدة من الطول والاتحاد ووحدة الوجود ، واستشهاد المؤلف به لا يكون حجة له على ما يقول ، لأن مثله لا يستشهد به على القضايا الكلية الكبرى في الإسلام ، ولا على غيرها - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) ليس لسيدنا محمد (ﷺ) مذهب ، وإنما هو دين الله أو دين الإسلام ، ومحمد (ﷺ) هو الرسول الذي بلغ هذا الدين عن رب العزة والجلال فليس ما جاء به محمد (ﷺ) مذهباً شخصياً وإنما هو دين إلهي سماوي . ثم ما هو التعارض الذي يذكره المؤلف من معتقدات أهل السنة والجماعة مع ما جاء به النبي (ﷺ) ، نعم إن البلاغ بالإسلام والتعريف به والعلم به شرط في المحاسبة قال تعالى "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً" (الإسراء : ١٥) - (د. حلمي عبد المنعم) .

ونظرا لأننى كنت أعرف الآراء المختلفة السائدة بين أتباع محمد (ﷺ) فيما يتعلق بالتقسيم الثنائى للذنوب ، فقد كنت أود أن أعرف وأقف على موقع الخط الفاصل الذى يضعه الفكر الوهابى بين شقى هذا التقسيم الثنائى . وأنا على يقين أن القارئ يعلم أن الإجابة على هذا التساؤل لابد وأن تلقى بعض الضوء على الطبيعة الأخلاقية للمذهب الوهابى ؛ وربما كانت هذه النقطة هى أهم النقاط التى تعنى بها المعتقدات الوطنية . وبناء على ذلك ، أعربت لصديقى العالم ، عن القلق الكبير الذى ينتابنى ، والاضطراب الذى يصيب ضميرى ، جراء التخوف من ارتكاب الكبائر ، فى الوقت الذى أرى فيه أنها من "الصغائر" ؛ وأبلغته أيضاً أننى وجدت أن إجابات علماء الشمال على هذا التساؤل حيسية ، وغير واثقة من نفسها ، بل وغير مقنعة أيضاً ؛ ولكن ، نظراً لأنى الآن ، فى أكثر المدن تديناً وتقوى ، ونظراً أيضاً لأننى بصحبة أكثر أصدقائى علماً (ونظرت إليه نظرة تتم عن التواضع) ، فإننى أتطلع إلى الاستقرار ذهنى ، وأن أبت ، مرة واحدة وإلى الأبد ، فى هذا الموضوع الفائق الأهمية .

ولم يشك عبد الكريم أن أمامه باحثاً صادقاً ، وأنه لن يرفض مد يده لمساعدة إنسان يغرق . وعليه ، وبعد أن أضفى على نفسه مظهر العمق ، وبصوت يعبر عن الجدية التامة قال قولته التى مفادها : "أولى هذه الكبائر هى أن تضفى الصفات الإلهية على أى مخلوق من المخلوقات" . وهنا ، يتعين على أن أسوق ملاحظة مفادها : أن هذه الضربة موجهة إلى أتباع محمد (ﷺ) العاديين ، الذين يصف الوهابيون عقيدتهم التوسطية ، سواء أكان ذلك التوسط عن طريق محمد (ﷺ) أو عن طريق على ، على إنها وثنية مباشرة وصريحة^(١) . ولو قدر لشيخ دمشق أن يقول ذلك لاستبدل كلمة "الوثنية" ، بكلمه "الكفر" .

وأجبت عبد الكريم قائلاً : "هذا أمر مسلم به ، لأن جسامه هذا الذنب لا يرقى إليها أى شك . ولكن إن كانت هذه هى الكبيرة الأولى ، فلابد أن تكون هناك أيضاً كبيرة ثانية ؛ فما هى ؟"

(١) يتندر المؤلف على الشرك فى الاعتقاد ، وهذا أمر مقرر فى الإسلام فلا بد من سلامة التوحيد وتخليصه من الشرك بكل صورة سواء أكان شركاً فى توحيد الربوبية أو توحيد الألوهية أو توحيد الأسماء والصفات يقول تعالى "إن الله لا يغفر أن يشرك به" ويقول تعالى "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء" ، ويقول تعالى "فاعبد الله مخلصاً له الدين" والآيات والأحاديث فى تقرير سلامة التوحيد من الشرك كثيرة جداً وعلى ذلك فتكبر الكبائر هو الشرك بالله تعالى وعلى ذلك إجماع الأمة - (د. حلمى عبد المنعم) .

وأجابني عبد الكريم على الفور ، وبلا تردد : "إنها شرب المنكر" . وهو يقصد بذلك تدخين التبغ^(١) .

وتساءلت قائلاً : "وماذا عن القتل ، والزنا ، وشهادة الزور ؟"

وأجابني صديقي قائلاً : "إن الله غفور رحيم" ، بمعنى أن هذه الذنوب هي من الصغائر^(٢) .

وبرغم أني كدت أفقد السيطرة على انفعالاتي ، رددت عليه قائلاً : "إذن الكبائر اثنان فقط وهما : الشرك والتدخين" . ويرد عليّ عبد الكريم بكل جزم وتأكيد أن ذلك هو واقع الحال . ولكني أود ، قبل أن أترك هذه النقطة ، أن أضيف شيئاً من الشرح والتفسير .

فيما يتعلق بالرد على أولى هاتين الكبيرتين "الشرك" (معناه الحرفي "إشراك" أو وضع مخلوق آخر على قدم المساواة مع الخالق) ، فإن المذهب الوهابي ، الذي هو الروح الحقيقية للقرآن ، يعد كل شيء بسيطاً وخالياً من التعقيد . وقد سبق لي أن شرحت ، في فصل سابق ، الفكرة الريانية الحقيقية التي ينقلها القرآن كما شرحت أيضاً ذلك النظام الديني الشامل الذي يجعل الرب هو القاهر ، ويجعل مخلوقاته عبيداً له . وهناك استنتاج رائع ، ومع ذلك فهو نتيجة لوحدة وجود العمل كله ، والمسئولية كلها في الرب وحده . ولكن ، في مثل هذا النظام (الإسلام) ، ما الذي يمكن للمخلوق أن يفعله ، وكيف يزجي وقته ، سواء أكان يقتل ، أو يسرق ، أو يحنث في قسمه ، أو على العكس من ذلك ، في الأمور التي تعد صغيرة عند القاهر الأعظم Great Autocrat ، طالما بقي ملكه المقدس بلا مساس ومعترف به ؟ . القاهر الأعظم يرضى عن العبد ، إذا ما رضى العبد بعبوديته ، ولا يطلب القاهر الأعظم منه شيئاً غير ذلك . والتطبيق يسير وفقاً لهذه النظرية . هناك نوع من أنواع الحل الوسط بين الرب والإنسان :

(١) إن شرب الدخان أو التبغ قد أفتى أهل العلم بحرمة وذكروا كثيراً من العلل والحكم في تحريمه وقد أثبت الطب الحديث الضرر الذي يترتب على شرب الدخان وقامت حملات في كثير من الدول تدعو إلى تحريمه والإقلاع عنه وقد سبق الإسلام كل هذه الدراسات حينما حرم الخبائث ، وأم هذه الخبائث هي الخمر وكل المسكرات والمفترات وعلى رأس المفترات هو الدخان - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) ما أظن أن هذه الإجابة التي ذكرها المؤلف يقولها صبي صغير مسلم ، فحرمة الزنا والقتل وشهادة الزور هو من المعلوم من الدين بالضرورة ، ولا يسع مسلم كائناً من كان الجهل بها ويحرم منها ويكون كل واحدة منها كبيرة من الكبائر ، فكيف بعالم متبحر - كما نكره المؤلف ووصفه ، يفتي بأن الزنا من الصغائر ؟ إن هذا محض افتراء من المؤلف - (د. حلمي عبد المنعم) .

فالإنسان يقول : "أنا سوف أقر بوحدانيتك ، وتأدب وولاء كاملين مع الخالق ، الحافظ ، السيد ، إلهي ، كل شيء . ووفاء بهذا الالتزام ، سوف أصلي لك خمس مرات في اليوم ، تشتمل على أربع وثلاثين ركعة^(١) ، وسبعة عشر سورة من القرآن^(٢) ، وعدد مساو من الانحناءات ، على ألا أنسى أن أتوضأ قبل ذلك ، وضوءاً كاملاً أو تيمماً ، وأن أردد 'لا إله إلا الله' وما إليها من الذكر . وأنت من جانبك ، سوف تتركني بناء على كل ذلك ، أفعل ما أشاء طوال بقيه الأربع وعشرين ساعة ، وألا تفرط في مساءة لتي عن سلوكي الخاص والشخصي ؛ وبعد ذلك ، فإنك لن تفعل ما يقل عن إدخال الجنة التي ستزودني فيها 'بلحم طير مما يشتهون' (هذه الكلمات مأخوذة من القرآن^(٣)) ، وأشجار ظليلة ، وأنهار من رحيق ، وكئوس من نبيذ ، مقابل عبادتي لك طوال حياتي . وإذا كانت عبادتي لك ، ليست على الوجه الأكمل ، بين الحين والآخر ، فإن إيماني بك أنت ، وحدك ، مع قولي 'لا إله إلا الله' خالصة ، وأنا على فراش موتي ، يكفياني تماماً . هذا هو جوهر الإسلام وخلاصته ، بلغه انجليزية بسيطة وواضحة . واعتماد الرب نفسه لهذا الميثاق ، يجعل المسلم يتأكد من وعد الله له في القرآن "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" ٤٨ - النساء "أى أن الله ، يغفر لأولئك الذين هداهم "الصراط المستقيم" إلى الإيمان الحقيقي .

ولكن أتباع محمد (ﷺ) العاديين قد يندهشون تماماً عندما يجدون ، هنا ، كبيرة ثانية ، إلى جانب هذه الكبيرة الأولى ، هي شقيقه للكبيرة الأولى وغريمة لها . فلماذا التدخين على وجه الخصوص ؟ السبب هنا أيضاً راجع لوحدة الوجود^(٤) ، نظراً لأن ما يفعله الإنسان (طبقاً لهذا النظام الكوني) ، هو ما يفعله الله ، ومن ثم يصبح التدخين ، شأنه شأن السرقة والقتل ، نتيجة لأمر رباني واندفاع لا يقاوم .

(١) الصواب : سبع عشرة ركعة لأن الفرائض الخمس بدءاً من الفجر حتى العشاء تكون عدد ركعاتها على هذا النحو : ٢ صبح + ٤ ظهر + ٤ عصر + ٣ مغرب + ٤ عشاء = ١٧ ركعة - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) إن قراءة سورة أو بعض سورة بعد الفاتحة في الصلاة المفروضة إنما يشرع في الركعتين الأولى من كل فريضة وعلى ذلك فالمشروع في قراءة السورة بعد الفاتحة عشرة ركعات أى عشر سور أو بعض الآيات في الركعات العشر في الفرائض الخمس من الصلاة - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٣) إن المأخوذ من القرآن نصاً هو تلك الآية الكريمة ، فقط وهي "ولحم طير مما يشتهون" - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٤) عبارة المؤلف "وحدة الوجود هي عبارة غير صحيحة في شريعة الإسلام بل هي تشير إلى مذهب هدام من مذاهب التصوف الفلسفي الذي يرفضه الإسلام رفضاً قاطعاً ، وإنما الصواب : أن ذلك يرجع إلى وحدة الأمر الإلهي وأن الله وحده له الأمر كما له الخلق وأن ما ينهى عنه وما يأمر به ينبغى الأخذ به كله في المأمورات ، والترك له كله في المنهيات يقول تعالى "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" (الأنفال : ٣٩) - (د. حلمي عبد المنعم) .

وهنا نجد الخلاصة ، أو الرد المقنع الذى يقول : "هذه هى إرادة الله" . ومن ذا الذى يستطيع أن ينكر على القاهر الأعظم حقه فى أن يضع الذنب حيثما يشاء ، وأن يُعاقبَ عليه كما يشاء هو (سبحانه وتعالى) ؟

وعلى كل حال ، فإننا لا بد أن نبحث عن سبب آخر فى التقصى المعتاد ، وذلك عندما يطرح هذا السؤال على شخص لا يكون مستوعباً لمعتقدات هذه العقيدة . ومن هذا المنطق وجدتني أستطرد فى تواضعي وألتمس من عبد الكريم أن يشرح لى الشر الخاص الكامن فى أوراق التبغ ، على أكرهها وأتخلص منها فيما بعد . وسوف أورد هنا الأدلة والحجج التى أتى بها عبد الكريم ثم أتبعها أنا بسبب اعتبره حاسماً وقاطعاً فى هذه المسألة ، فى نطاق المذهب الوهابى ، وأثبت أن هذا السبب كان أكثر حسماً من الأسباب التى أتى بها عبد الكريم نفسه .

ويمضى عبد الكريم فى تثقيفى قائلاً : أولاً ، جميع المواد المسكرة محرمة فى القرآن . ولكن التبغ مادة مسكرة ؛ إذن ، فالدخان محرم .

وخطأته قائلاً : إن الدخان ليس مسكراً ، واستشهدت بتجربتي له . ولكن ما أدهشنى أن صديقى ، عبد الكريم ، كان قد خبر الدخان أيضاً ، وكانت لديه حكايات مخيفة عن أناس راحوا فى غياهب السكر بعد أن شربوا نفساً واحداً من الدخان ، وحكايا أخرى عن أناس آخرين انتابتهم حالة وحشية من جراء تعاطى الدخان . ولم تكن قصصه بلا مبرر كما يتصور الكثيرون . والتبغ العُماني ، كان أول تبغ يظهر فى جنوبى نجد ، عندما عرف الناس الدخان؛ وهذا النوع من التبغ قوى جداً . وأنا نفسى ، اندهشت جداً ، بل إثنى انخدعت مراراً ، بفعل تأثيراته المخدرة غير العادية ، عندما جربت أوراق هذا الدخان ، فى مقاهى البحرين وفى مقاهى صُوحار S.ohar . ولم يكن من قبيل المبالغة عندما أشرت إلى قوته باستعمال الرموز القياسية xx أو xxx .

وعلى كل حال ، لن أعترض على حجته هذه ؛ يضاف إلى ذلك ، أنتى حتى ذلك الحين ، لم أكن قد جربت نوعية التبغ التى كان يتحدث عنها ويقصدها . ولذلك وافقته ، دون أن أناقشه فى صحة الحقائق التى أوردها ، فى أن أوراق التبغ ، يمكن أن ننظر إليها قبل كل شئ ، على إنها من قبيل الاستثناءات أو الخصوصيات ؛ ووافقته أيضاً على أن الأشقياء الفاسدين ، ونحن الدمشقيون منهم ، فى المناطق الشمالية الأقل تنويراً ، نشاهد كل يوم مع شديد الأسف ، الانغماس فى تعاطى "المنكر" ، ولم نلاحظ

له أعراضاً فيما يتعلق بالسكر ، ولم نلاحظ أيضاً أن له مثل هذه الكوارث المأساوية ،
فى شكلها المباشر على أقل تقدير .

ولكن مُعلِّمى قلب على الموائد بأن راح يؤكد لى أن السكر هو القاعدة ، وأن عدم
السكر هو الاستثناء ، وأردف قائلاً : "وهذا ، مثل ما يحدث عندما يشرب بعض الناس
النبىذ دون أن يتأثروا به ، ومع ذلك فإن حال مثل هؤلاء الرجال لا يعفى ذلك الشراب
من التحريم المطلق ، الذى يبنى فى الأصل على تأثيره الطبيعى والمعتاد" . ومن هنا
وجدت أن من الأفضل ألا أرد عليه ، تحسباً لسبب جوهرى تماماً ، من منظور قياسى
المنطقى الشخصى ، الذى ربما يدخلنى فى مجال شك عبد الكريم بأننى أدافع عن
النبىذ أيضاً ، ومن ثم أكون قد زدت الطين بلة .

كان عبد الكريم ، حتى تلك اللحظة ، يشعر فى داخله ، شأنه شأن غالبية
المتصوفة ، أن السبب الأول الذى ساقه إلى لم يكن كافياً تماماً ، وهنا بدأ يقدم سبباً
آخر ، على أساس من الأثر أو التراث ، ومفاد هذا السبب ، أن المصادر تقول لنا : إن
محمداً (ﷺ) ، وأنا لا أعرف لذلك سبباً أو مكاناً ، أعلن على أتباعه عدم شرعيه
استعمال الشائط والمحروق فى الطعام . ولعل ذلك يكون واحداً من أسباب شيوع
استعمال اللحم المسلوق فى نجد ، مما أدى إلى استبعاد اللحم المشوى ، والمحمر ،
واللحم المقلّى ، اللهم إلا إذا كان ذلك من قبيل الجهل بطهى مثل هذه الأنواع من اللحم .
وعلى أى حال ، فالتحريم قائم ، ليبين أن دخان التبغ داخل فى هذا الإطار . يضاف
إلى ذلك أن تسوية اللغة العربية بين "الشرب" و"التدخين" يكفى أيضاً للتدليل على ذلك .

وقد عارضت إدخال التبخير ضمن هذه الحجة اللغوية ، ومن المعروف أن التبخير
أمر شائع فى نجد ، إضافة إلى أنه كان محبباً للنبي (ﷺ) . وقد جاء الاعتراض
تأسيساً على أن مادة "شرب" لا يصلح استعمالها فى إطار التبخير بالطيب . وهنا
تحولت إلى ما يطلق عليه النجديون اسم "الملة" ، أو إن شئت فقل الخبز ، أو بالأحرى
الخبز المخبوز أو المحروق فى جمر ملتهب ، الذى اتخذنا منه طعاماً لنا طوال المرحلة
السابقة من رحلتنا ، والذى يشيع استعماله فى كل أنحاء نجد ، وقد أصابت إشارتى
هذه المحز ؛ وهنا راح عبد الكريم يتكلم عن الخواص المخدرة للعشب .

ولكن القارئ العزيز ، قد يتساءل عن السبب الحقيقى والواقعى لذلك الخطر
والتحريم العرفى الذى يضعه المذهب الوهابى على التبغ ؟ ونحن لسنا بحاجة إلى

الذهاب بعيداً ونحن نبحث عن هذا السبب ؛ ذلك أن الميل إلى التميز المذهبي هو الذى يفسر هذا السبب تفسيراً تاماً .

ومبلغ ظنى ، أن قطع تاريخ المذهب الوهابى ، الذى رويته فى المجلد الأول ، قد أوضح للقارئ أن فكرة القهر والهزيمة كانت ما تزال تسيطر على موقف محمد بن عبد الوهاب ومريده سعود الثانى من فكرة العقيدة أو الهداية ، كلاهما وربما الثانى أكثر من الأول ، كان يتطلع لا إلى تأسيس مذهب وحسب وإنما إلى تأسيس إمبراطورية ؛ لم يكونا يتطلعان إلى ارتداد جيرانهم عن دينهم ، وإنما إلى إخضاعهم . لقد كان محمد بن عبد الوهاب وسعود الثانى رائدين متحدين من رواد الإسلام ، والسيف يرتبط بالإسلام بحكم الضرورة . والشرع فى تنفيذ هذا العمل ، يتطلب ذرائع مقبولة ومهذبة ، فى الوقت الذى يتحتم فيه أن يكون هناك شعار فريد يميز هذه الجماعة عن بقية الجماعات الأخرى . فالإقرار بوحدانية الله ، والمواظبة على الصلاة مثل سائر أتباع محمد من غير الوهابيين ، والبساطة فى الملبس والثياب والعبارات والمقولات الخاصة ، وكذلك غض البصر لم يكن كل ذلك كافياً لتحقيق هدف كل من هذا أو ذاك ، وضمان استعمال السيف ، أو تمييز أولئك الذين استلوا سيوفهم عن أولئك الذين أشهرت عليهم السيوف . ويرد على ذلك ، العدد الكبير من السكان الذين هاجمهم الوهابيون قائلين : "خلاصة القول ، نحن أيضاً من أتباع محمد مثلكم ، وليس هناك أى فارق جوهرى بيننا ؛ فبأى حق ، وبأى ذريعة ، تهاجمون إخوانكم ، وتقتلوهم وتستعبدوهم ؟" كان الأمر يحتاج إلى شئ إضافى ، وهنا قفز التبغ أمام الوهابى فى الوقت المناسب .

أضف إلى ذلك ، أن مسألة تعاطى الدخان على مستوى الكون ، كانت أمراً مؤكداً ؛ علاوة على أن مسألة تعارض هذه الحقيقة إلى حد ما ، مع النص الحقيقى للشريعة الإسلامية ، كانت أمراً مؤكداً كذلك . وبذلك يتضح أن البشر يحكمون حكماً صحيحاً ، فى أغلب الأحيان ، برغم عدم صواب الحجج التى يسوقونها . والحجج التى ساقها عبد الكريم ، قد لا تكون كافية ، حتى من وجهة النظر المحمدية ، لتأييد فرضيته ، ومع ذلك ، فإن احتمالية صدق هذه الحجج كبيرة جداً ، ولو قدر لمحمد (ﷺ) أن يعرف التبغ ، لحرم استغلاله ، من منطلق أسباب تحريمه لاستغلال العنب . والتدخين عادة اجتماعية ، وحضارية ، وهو يجمع الناس إلى بعضهم (ويؤسفنى أن أقول إن تأثيره ، على السيدات ، تأثير عكسى فى هذا الصدد ؛ ولكنهن إن تعاطينه لهذا السبب ، فإن ذلك سيحزننا) ،

والتدخين هو الذى يدفع البشر- وذلك على العكس مما يقوله كوبر Cowper- إلى تجاذب أطراف الحديث، وإلى الدعابة، وتبادل الأفكار ودياً بين الناس . وعلى كل حال ، فإن التدخين ، برغم أنه أساساً من المسكنات ، له أيضاً تأثير تحفيزي ، يجعلنا ندخله ضمن دائرة النبيذ والمشروبات الروحية . (أخيراً ، فإن التبغ ، لا يدخل ضمن اللهو الوحيد الذى أباحه محمد لأتباعه أثناء القتال وفيما بين أوقات الصلاة^(١)) . وتأسيساً على ذلك ، فإن الوهابيين يصبحون منسجمين مع أنفسهم ومنطقيين فى عدائهم لذلك النوع من اللهو Luxry ؛ ويجب علينا أيضاً أن نعتزف أن هناك فى الشرق الذى يدخله التبغ ، بعض الذرائع القليلة المهمة التى تتعارض مع ذلك ، وهناك أيضاً مزيد من الدلائل الواضحة المؤيدة لذلك . والواقع أن غالبية المواطنين السوريين ، والمصريين ، بل ومواطنى المناطق النائية فى الجزيرة العربية نفسها ، لا يجدون ما يقولونه عن هذه الأمور المذهبية ، إذا ما سألناهم عنها ، سوى أنهم يكرهون الدخان فى الداخل والخارج . وهذا لا يعنى أن الوهابيين لا مثيل لهم ، فى كراهيتهم للدخان ، وإن كان ذلك بدرجة أقل ؛ إذ هناك عدد كبير من أتباع محمد الملتزمين والزهاد ، من أهل السنة العاديين ، ومن قبلهم أتباع المذهب المالكي ، كلهم يرفضون شرب الدخان ، ويعتبرونه شيئاً لا يليق بالمؤمن الصحيح ، برغم أنهم لا يعزونه إلى أصل شيطاني ، أو يعتبرونه من الكبائر مثلاً هو محكوم عليه فى نجد . وفى وادى الدواسر ، نجد الناس أكثر تشدداً فى هذا الموضوع ، من أهل العارض ، والشئ نفسه ، إذا لم تخنى ذاكرتى يمكن قوله أيضاً عن جبل عسير .

هذا هو ما وصل إليه حوارى مع عبد الكريم فى ذلك اليوم ؛ وقد أوردت هذا الحوار مثلاً لحوارات أخرى كثيرة جرت فى أوقات متباينة . ومع ذلك ، فأننا لا يمكن أن أغفل أو ألغى ذلك الذى حدث بينى وبينه بعد أن عوفى تماماً من مرضه ، وبخاصة أن هذه المناسبة سوف تشد اهتمام القراء ، نظراً لمغزاها المهم جداً عند عبد الكريم وعند الناس الآخرين على حد سواء .

وفى خلال ثلاثة أسابيع اختفت الأعراض التى كانت تضايق عبد الكريم وتزعجه من قبل ، إلى حد أنه قال لى : إن حالته أصبحت جيدة ، وأنه أصبح على ما يرام .

(١) هذا محض افتراء من المؤلف ولم يثبت مطلقاً عن النبى (ﷺ) أنه أباح التبغ لا فى أثناء القتال ، ولا بين أوقات الصلوات ولا فى أى وقت آخر ، بل الصواب أنه نهى عن كل مسكر ومفتر - (د. حلمى عبد المنعم) .

ومع بداية العلاج ، كنا قد اتفقنا على دفع الأتعاب بعد الشفاء ، ونظراً لحلول موعد هذه الأتعاب ، فقد ذكرته ، بطريقة لطيفة ، بما تم الاتفاق عليه بيننا . ولما لم يلتفت إلى إشارتي الأولى ، أشفعتها بإشارة ثانية وثالثة كل منهما أوضح من سابقتها ، ولكنه لم يلق بالاً لهذه الإشارات . وفى الوقت نفسه ، قام عديد من السكان المحترمين ، لأننا كنا نجلس بين المواطنين ، بحث المطوع المتقاعد على الوفاء بالتزامه ، ومع أن إجمالى المبلغ المطلوب من عبد الكريم كان لا يتجاوز أحد عشر شلناً إنجليزياً ، إلا أن مماطلته كانت تبعث على السخرية وتوحى بالدناءة . وشعوراً منه بالخجل والتردد ، فكر الرجل فى الانصراف بسرعة ، من منطلق أن ذلك نوع من البراعة والعبقرية ؛ ولكن ذلك لم يكن فى صالحه .

وفى عصر أحد الأيام ، وبينما كنت أجلس وحدى فى مقهى منزلى ، سمعت طرقة غريباً على باب المنزل ، جعلنى أتوقف عن الاستمرار فى تدوين مذكراتى وأنهض لفتح مزلاج الباب ، ويدخل أربعة من أصدقائى فى المخدرة ، توحى وجوههم بأن لديهم طرفة يودون أن يقصوها على ، وما أن جلسوا على الأرض حتى راحوا يقصون على ذلك الذى شاهدوه . فقد كانوا عائدين لتوهم من المسجد الكبير أو الجامع بعد أن انتهى درس العصر . ولقد وصفت هذا الدرس عندما كنت فى حائل ؛ وليس هناك أى فرق بين درس العصر فى حائل ودرس العصر فى الرياض ، سوى أن درس الرياض أطول بكثير ، والجمهور الذى يحضره أكبر بكثير من جمهور حائل ، وأن هذا الدرس أو الموعظة ، يتركز مرتين من بين كل ثلاث مرات ، على خاصية من خصائص المذهب الوهابى . وفى هذه المناسبة ، وبعد أن فرغ قارئ الدرس من قراءته ، تقدم عبد الكريم ليعقب على ما قرئ ؛ وهذا التعقيب أمر لا يمكن إغفاله فى الرياض . واختار عبد الكريم لخطابه موضوع عدم كفاية المخلوقات وحتمية التوكل على الخالق وحده ، واستبعاد المخلوق . وعندما وصل عبد الكريم إلى التطبيق العملى ، راح يندد بأولئك الذين يثقون بالطب والأطباء ، ولا يثقون بالله وحده ، وأعلن على الحاضرين ، أن مثل هذه الثقة ، هى فى المقام الأول هرطقة ، وفى المقام الثانى ، خطأ فادح ، من منطلق أن السبب الوحيد للصحة أو المرض ، والحياة أو الموت ، إنما هو إرادة الله ؛ وأن الأطباء والدواء لا يمثلان شيئاً فى هذا الأمر من بدايته إلى منتهاه . وخلص عبد الكريم ، من كل ذلك ، إلى مواتية منطقية جداً مفادها أن هذه الأشياء والمخلوقات عديمة النفع ولا تستحق بأى حال من الأحوال ، المكافأة عليها ، بالمال أو الشكر من

المؤمن الحقيقي ، بل إنه أردف قائلاً : إن المريض إذا ما بدى أنه تحسن باستعمال الوسائل الطبية ، وأنه استعاد صحته أثناء استعماله هذه الوسائل ، فإن الشفاء الذى يكون من هذا القبيل ، هو مجرد مصادفة ، ولا علاقة له بالأسباب والمسببات ، وأن الطبيب لا يكون من حقه أى شئ بناء على ذلك ، والسبب فى ذلك ، أن الشفاء هنا لا يرجع إليه ، وإنما إلى الله وحده ، لا إله إلا الله ، ... الخ .

ويحتمل لهذه الدروس ذات الصبغة الدينية - التطبيقية أن تحظى بالتصديق والاستحسان لو أنها كانت فى لحظة ، أو مناسبة غير المناسبة التى نحن بصددنا ، وصادرة من فم إنسان غير عبد الكريم . ولكن من سوء الطالع أن عبد الكريم كان شخصية منافية للذوق العام ، وكنت أنا أيضاً كذلك . فكل جار من جيرانه كان يعرف قصة مرضه ، وقصة علاجه ، وقصة شفائه أيضاً مسيحية تامة . وترتب على ذلك ، أن مرموقة امتناعه عن دفع الأتعاب ، لأسباب يرجعها هو إلى الدين ، كانت تقوم فى أساسها على المشاعر الخاصة وليست المشاعر النبيلة ، يضاف إلى ذلك ، أن الجميع كانوا يعرفون أن الواعظ إنما كان مشغولاً بربط حبل كيس نقوده بدلاً من حل مشكلته الطبيعية . وانتشر اللمز والغمز فى كل مكان ؛ وبعد أن خرج المصلون من المسجد استمروا فى تعليقاتهم وفى ضحكهم على طريقتهم النائية . وقد تمتع أصدقاؤى بهذه النكتة ، وفى النهاية ، وعدوا بإحضار عبد الكريم إلى منزلنا ، فى اليوم التالى ، بطريقة أو بأخرى ، بعد أن اتفقنا على ما يجب قوله وعمله .

وبر الأصدقاء بوعدهم ، وفى ضحى اليوم التالى ظهر عبد الكريم وهو يبدو عليه الحرج ، ويحيط به كثير من الرفاق ، الذين كان من بينهم الأصدقاء الذين زارونا فى اليوم السابق . وبعد تبادل عبارات التأدب واللياقة ، وبعد أن وصل الحوار إلى النجدية المطلوبة قلت لعبد الكريم : "يا عبد الكريم ، إن أحداً لا يشك أن الصحة والشفاء يأتيان من الله وحده ، وأن الأطباء لا يستحقون فى ذلك سوى قليل من الثناء . وأنا أيضاً على نفس الشاكلة ، وبلا زيادة أو نقصان ، أثق بأن الله سوف يعطينى أكثر (ثم نطقت بالمبلغ المتفق عليه بيننا) مواتية لوسائلك السلبية ، وعندما يعطينى الله ذلك ، فإنك لن تستحق فى ذلك سوى القليل من الثناء أيضاً" . وضحك جميع الحاضرين ، وانهالوا على المطوع المتقاعد المسكين ، إلى أن بدأ يحس بالخزى والكسوف من نفسه تماماً . ويترك عبد الكريم المنزل ، على وعد بسداد المبلغ على وجه

السرعة ، وقبل غروب الشمس حضر أخوه الأصغر ومعه المبلغ المطلوب ، تحاشياً لمزيد من التهكم والتجريح . ولكن عبد الكريم لم يدخل دارنا قط بعد ذلك اليوم ، ونحن بدورنا لم نندم أو نأسف عليه .

ولدى عينة أخرى تنتمي إلى الطبقة المتعلمة أو شبه المتعلمة ، وتتمثل فى مريض ثالث هو من الأعيان ، اسمه عبد الرحمن ، مطوع القصر . وقد ظل عبد الرحمن يعانى عدة سنوات من نوبات حادة من الصداع العصبى ، والواقع أنه كان يعمل فى ظل نوبة حادة ألزمته غرفته ، وجعلته غير قادر على القيام بمهامه الدينية . وكان جوهر الذى أصاب تحسناً كبيراً فى حالته الصحية قد رسّخ سمعة طيبة وجيدة فى كل أنحاء القصر ؛ ولذلك أرسل المطوع بناء على توصية من جوهر ، يطلبنى على وجه السرعة .

كان سكن عبد الرحمن مقابلاً تماماً لمسكن محبوب ، وواسعاً ومؤثراً تأثيثاً جيداً ، وكان يضم علاوة على أشياء أخرى حوالى أربعين مجلداً ، ما بين مخطوط ومطبوع ، عن موضوعات مختلفة ؛ وهذه مكتبة جيدة جداً فى الجزيرة الطيبة ، وبرغم الألم ، فقد التزم التزاماً تاماً بقواعد النحو العربى عندما كان يعرض على شكواه ؛ وبعد أن تحسن حاله وشفى من آلامه ، بعد أيام تعيسة من العلاج المناسب ، اتضح لنا انه من المعارف المهمة ، وأنه أكثر أنساً ولطفاً وصراحة من عبد الكريم . وفى مسكن عبد الرحمن ، تعلمت الكثير عن مسيلمة ، وعن الوهابيين ، وعن دولة نجد المتدنية فى الأزمان القديمة ، بل تعلمت الكثير أيضاً عن موضوعات أخرى مماثلة ؛ وقد ضمنت قصتى بعضاً من هذه التفاصيل وسوف أضمنها الباقي فيما بعد . بل ، إن عبد الرحمن المطوع ، كان يحفظ عن ظهر قلب كثيراً من سور قرآن مسيلمة الكذاب ، كما كان يرتل تلك السور متمثلاً تماماً الضحك الرخيص الذى تنطوى عليه . وإلى مسكن عبد الرحمن ، كانت تأوى - مثلما تأوى إلى مركز عام - أفئدة من الشباب طلاب العلم فى الشريعة وأمور الدين التى أشرت إليها وكانوا يناقشون عبد الرحمن أمامى فى قضايا أخلاقية أو أحكام العقيدة على طريقتهم الخاصة ، والسبب فى ذلك أن عبد الرحمن لم يكن عالماً فحسب وإنما كان كثير الكلام ومتحدثاً بارعاً ، وأنه كان يجمع أولئك الصبية الشاحبين من حوله ، مما جعل الكثيرين منهم ينظرون إليه باعتباره مرشداً واستاذاً لهم .

وذات صباح أجلسونى على "البلاص" أو إن شئت فقل : سجادة نجدية خشنة ، بجوار عبد الرحمن ، فى حين كان يدور نقاش بين أفراد كثيرين من القصر .

وتطرق الخطاب ، بصورة أو بأخرى ، إلى دمشق ، أو "الشام" ، مما جعل الجميع ينحنون لها أدباً ، وراحوا يكيلون المديح لذلك الذى ظنوه بلدى وموطنى ، ويستشهدون من الأثر الشهير بزيارة محمد (ﷺ) لتلك المخدرة ، وهذه مجرد خرافة وتلفيق ، تقول بأن النبى ، عليه الصلاة والسلام ، انتوى دخول العاصمة السورية ، وأنه كان ينزل من على بعيره بالقرب من البوابة الجنوبية ، عندما جاءه جبريل ليقول له إن الله يترك له الخيار بين جنة هذه الدنيا وجنة أستطيع ؛ وبناء على ذلك ، إذا ما أصر محمد (ﷺ) على دخول دمشق ، فإن ذلك سوف يكون مشروطاً بالتخلى عن حدائق وحوار الترحيب ، وهنا عدل النبى عن خطته ، وفضل متاع الآخرة على بيارات ومياه نهر بردى ، وأعاد قدمه الشريفة إلى مكانها فوق سرج الجمل ؛ ورجع من حيث أتى ، وعلى كل حال ، وعلى العكس مما يقوله المشككون والكفار ، فإن أثر القدم النبوى الذى لامس التربة الصخرية بالفعل ، ما يزال موجوداً هناك ، وقد سعدت أنا بنفسى ، عندما شاهدت هذا الأثر فى ذلك المسجد الصغير الجميل الذى يخلد ذكرى هذه الرؤيا وذلك الاختيار ، بالقرب من بوابة البلدة الواقعة على طريق الخروج من حواران . وبرغم أن البعض يقولون : إن أثر القدم بأصابعه الخمسة لا ينتمى إلى محمد (ﷺ) وإنما إلى جبريل، الذى تمثل بشراً ، ولكن له رشاقة الملائكة، وأنه هبط على قدم واحدة فقط . وأنا بعيد كل البعد عن محاولة البت أو الفصل فى جدل كهذا ؛ والأمر متروك للقارئ نفسه .

ويغض النظر عن أثر القدم ، فإن هذه القصة حقيقة لا ريب فيها بين أتباع محمد^(١) (ﷺ) ، وقد ردها الحاضرون للمرة الألف ، من باب التحية لنا نحن "الشوام" أو الدمشقيين المزعومين . ولكن عبد الحميد البشاورى ، الذى سبق أن تناولته بالوصف ، كان ضمن الحاضرين ، ولم يطق أن يتحمل كل ذلك فى صمت . زد على ذلك ، أن الحقد الذى كان يضمرة لنا عبد الحميد ، كان وحده كافياً لاستثارة غضبه ، وأن عبد الحميد هذا نفسه باعتباره واحداً من أبناء أقاليم كشمير الجميلة ، تربى بين بيارات أجمل بكثير من حدائق دمشق ، ويجوار أنهار يعد نهر بردى قناة بالقياس

(١) هذا الكلام لا أساس له من الصحة، وليس من الإسلام فى شيء، ولكن الذى حدث بالفعل هو ذهاب النبى (ﷺ) فى غزوة تبوك على رأس جيش لملاقاة الرومان والقبائل الموالية لهم على تخوم الجزيرة العربية من ناحية الشمال ، ولكنه لم يحدث حرب ورجع النبى (ﷺ) بالجيش سالماً، بعد أن صالح بعض القبائل على الجزية هناك - (د. حلمى عبد المنعم) .

إليها . زد على ذلك أن عبد الحميد كان شيعياً خالصاً ، ومن هنا كان مذاق امتداح أكثر المدن تمسكاً بالسنة ، العاصمة القديمة لبنى أمية ، ومركز العداء والتصارع الحالى مع مذهب الشيعى ، مرأ ومريراً فى نفس عبد الحميد . وعليه "ينطلق عبد الحميد انطلاق الوحش قائلاً" : "ياله من هراء ذلك الذى تقولونه . تقولون جنة الأرض ! جنة الأرض ! وكل ذلك من أجل مجموعة قليلة من الأشجار القزمية وقليل من الماء المختلط بالطين ! لماذا كل هذا ! ألا تعرفون أن النبى وأصحابه لم يكونوا سوى بدو ، اعتادوا أن يمضوا كل حياتهم فى أرض الحجاز الجذباء الجافة ، وفى الصحراء ؟ ولذلك ، فإنهم عندما وصلوا دمشق شاهدوا ، لأول مرة ، مجموعة من الحدائق والأنهار الجارية ، استنتجوا أن تلك هى الترحيب وأطلقوا عليها هذا الاسم ! ومبلغ ظنى ، أنهم لو شاهدوا بلدى لغيروا رأيهم" .

وحملت كل العيون ، وانفجرت جميع الأفواه ، وقال الجميع "استغفر الله . لا إله إلا الله" ، ويحمر وجه عبد الحميد بفعل الانفعال والاستثارة ، ودخل فى طور من التهور ، وظهر على وجهه الغضب والاحتقار ، وتمتم ببعض اللعنات السائدة فى كابول Cabul . ولولا أن عبد الحميد كان من الأشخاص المحبين للملك فيصل ، لساعت الأمور بالنسبة له تماماً ، ولكن عبد الرحمن سرعان ما حول ، بحنكته ، مجرى الحديث ، الأمر الذى أنهى ثورة هذا الأفغانى العنيفة ، بدون المزيد من التعليق .

وينبغى ألا أشغل القراء من غير العاملين بالطب ، بتفاصيل الحالات التى فحصتها ، إذ توجد بأعداد كبيرة ، كما أن فرصة شفائها هنا أكثر من أى مكان آخر . فقد كان زوارى من الحضر ، وبعضهم من الغرباء الذين حضروا إلى الرياض بغرض التجارة والاتجار ، والمال والأعمال ؛ بعض المرضى كانوا من الأثرياء ، وبعضهم كانوا فقراء ؛ وقمنا ورددنا كثيراً من الزيارات ، ودعينا إلى الطعام مرات ومرات ورددنا هذه الدعوات . وفى بعض الأحيان ، كنا نجد أنفسنا متكئين على حشيرة داخل قهوة مفروشة فرشاً جيداً بالبسط والسجاد ، ومن أمامنا صف طويل من دلاء القهوة ، التى لا يستعمل منها سوى اثنين أما العشر الباقيات فللعرض والاستعراض ؛ كما جلسنا أيضاً فى مقاهى أخرى ، هى عبارة عن غرف سيئة الإضاءة توجد فى الطابق الأول ، من منازل الفقراء ؛ بل إنها تكون فى بعض الأحيان ، فى حديقة تبعد عن المخدرة ميلاً أو أكثر . وكنا نذهب إلى هذه المقاهى بناء على دعوة من الأصدقاء أو لفحص مريض .

ومرت الأيام سراعاً ؛ وأكاد أكون مخطئاً إذا لم يحسدنا أطباء لندن ، على انشغالنا الدائم، وعلى ذبوع شعبيتنا التي ربما كانوا أحق بها منا ، لو أنهم كانوا هنا بدلاً عنا . وعلى كل حال ، فأنا لا يمكن أن أغفل ذكر عبد اللطيف أكبر أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والذي يشغل الآن منصب قاضى العاصمة وعبد اللطيف ، فى واقع الأمر ، شخص يادى الأناقة ، حسن السمعة ، توحى سلوكياته بقدر معقول من الحضارة المصرية . إذ أنه عندما كان طفلاً ، أصدر الباشا الغازى أمراً بنقل أسرته إلى مصر ، التى تلقى فيها تعليمه . ومن مجتمع القاهرة ، ومن اتصاله برجالها الأكثر علماً والأقل تشدداً من علماء نجد والدرعية ، تعلم عبد اللطيف سلامة الحديث وتنوعه ، وهو أمر يدعو إلى الدهشة وبخاصة فى قاضى مدينة الرياض؛ وقد تمكن عبد اللطيف ، بفضل هذه السلسلة ، أن تكون له عباراته المستقلة الخالية من المصطلحات الخاصة والحشو الممل فى المذهب الذى يترأسه . ولكن هذه الليبرالية المظهرية هى مجرد شكل خارجى فقط ؛ ذلك أن اللسان قد يكون لسان مصر ، ولكن القلب والعقل هما دوماً : قلب نجد وعقل نجد ، وأنا أعتقد أن جبال وسط نجد ليس فيها رجل أخطر من عبد اللطيف ، أو رجلاً أشد كرهاً للتقدم الذى شاهده بعينه ، والذي شارك فيه إلى حد ما . وتوفيق باشا ، وعلى باشا ، وأبى باشا آخر ، من الذين عادوا إلى البسفور بعد قضاء سنوات بجوار نهر السين أو الدانوب ، وبداخلهم حقد دفين على الازدهار والحضارة التى شاهدوها ، والتى يشعرون أنها بعيدة عن متناولهم ، وكارهين لتفوق الغير عليهم ، وعاقدين العزم على استغلال المزايا الشخصية التى اكتسبوها هناك فى معارضة وإيذاء أولئك الذين لا يستطيعون ولن يستطيعوا تقليدهم أو محاكاتهم ، هؤلاء الباشوات ليسوا سوى أنماط لـ عبد اللطيف ، تلميذ القاهرة ، ورئيس المطاوعة الوهابيين ، وهذا العداء المتجسد للشر ضد الخير ، يتساوى على أقل تقدير ، مع العداء المتجسد للخير ضد الشر .

كنت التقى بعبد اللطيف من حين لآخر، ولكن أدبه الجم ومعرفتى به كانا يجعلاننى أترجع فى أحيان كثيرة ، عن هذه اللقاءات . وأنا لست بحاجة هنا إلى أن أقول : إن منزله كان قصراً ، وبساتينه من أوسع البساتين ، وعبيده كثيرون ؛ ولما كان عبد اللطيف يشغل منصب الرجل الثانى بعد الملك ، فقد كان بلا منازع الشخصية الأولى فى العاصمة ، وفى الإمبراطورية كلها . بل إنه ، من نواح كثيرة ، كان أقوى من الملك

فيعزل نفسه ، ولم يغلب عن ذهن عبد اللطيف الذى هيا له مركزه وأسرته ، ومنصبه ونفوذه أنسب الفرص للتمتع بكل ما يمكن التمتع به عملاً بالحكم القرآنى الذى يقول : "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم" فى الآية ٥٧ المائدة^(١) . فقد نزلت على هذا الرجل ضيفاً مرات ومرات لشرب القهوة : وأنا لا أعرف ، ذلك الذى جعله يحكم على من نبرات صوتى وموسيقاه أنتى لست دمشقية وإنما مصرى ، وتكلم معى عن طيب خاطر ، عن القصر العينى وعن جامع الأزهر . ولكنه أيضاً كان يعرفنى بصفتى مسيحياً ، وكان فى الوقت المناسب يكشف لى عن مشاعره الحقيقية تجاهى بوصفى مسيحياً .

كنت أحضر فى أغلب الأحيان ، محاضراته وتعليقاته العامة سواء أكانت فى مسجده الأنيق ، الذى يجاور منزله فى الحى الثالث من المدينة ، أم فى الجامع الكبير فى مدينة الرياض . وفى تلك المناسبات ، كان يحيط به عدد كبير من الطلاب المستمعين ، إضافة إلى هيئة كبيرة من أتباعه ومريديه الخصوصيين ؛ وأنا هنا لابد أن أعترف بأنه كان متكلماً واضحاً وسلساً ، ولديه من العلم ما يجعله جديراً بالمركز الذى يشغله . ولكنه مذهبى حرقى ومتشدد بصورة تزيد على ما ورد فى المسائل التى تشكل البنية الأساسية والجوهر الرئيسى لتعاليم مذهب وأحكامه ، ولم يحدث قط أن استمعت إلى هذه التعاليم أو الأحكام .

أذكر جيداً عصر أحد أيام شهر نوفمبر ، عندما كان الجامع الكبير مليئاً بالمستمعين ، ثم حدث شئ من الهرج والانفعال على أثر وصول أخبار جديدة من عنبره ، والانتصار الذى حققه "المسلمون" على الزامل الكافر هو وجماعته . كان الواعظ ، فى ذلك اليوم ، هو عبد اللطيف ، وكان موضوعه الالتزام بالإيمان الصحيح ، وخطر البدع الحديثة ، ولتأكيد موضوع الموعظة ، روى عبد اللطيف شيئاً من الأثر ، الذى ينص على أن محمداً (ﷺ) قد أخبر صحابته بنبأ عظيم مفاده أنه "مثلاً كان اليهود مقسمين إلى إحدى وسبعين مذهباً مختلفاً ، ومثلاً كان المسيحيون مقسمين إلى اثنين وسبعين نحلة" - (ربما كان يدور بخلد النبى فكرة مشوشة عن الاثنين وسبعين تابعاً الذين أرسلهم الرب للوعظ) - "فإن إخوانه فى الدين سوف ينقسمون إلى ثلاثة

(١) رقم الآية الصحيح هو ٨٧ من سورة المائدة - (د. حلمى عبد المنعم) .

وسبعين مذهبا ، وأن اثنين وسبعين فرقة من هذه الفرق سيكون مآلها إلى نار جهنم ، وفرقة واحدة هي التي سيكون مآلها إلى الجنة" . وهنا يتوقف الواعظ عن الكلام برهة صغيرة مثلما فعل ماسيلون Massillon "بعد أن مرت بقية إسرائيل ناحية اليمين !" وهنا سرت بين جمهور الحاضرين ، موجة من الفرح والنشوة . ويواصل عبد اللطيف حديثه بعد ذلك ، رافعا صوته ، ليروى للحاضرين كيف راح الصحابة ، بعد سماع الإعلان المخيف ، يسألون : "يا رسول الله ، ما هي علامات تلك الفرقة (المذهب) السعيدة التي ضمنت الجنة ؟" ويرد عليهم محمد (ﷺ) قائلا : "هم أولئك الذين يتبعونى أنا وصحابتى" ثم يردف عبد اللطيف قائلا بصوت خفيض يوحى بالاقتناع التام "وهؤلاء ، هؤلاء ، برحمة الله ، هم نحن ، أهل الرياض" (١) .

وهنا خطرت ببالي تلك الطرفة القديمة التي تقول : "الارثوذكسية معناها خليلتى ، والابتداع خليله رجل آخر" - هل يمكن للأمر أن يكون غير ذلك ؟ كان الجالس إلى جوارى واحداً من مرافقى النائب البغداديين ؛ وبعد أن استمع إلى هذه العينة الثمينة من الوعظ الدينى فى الرياض ، نهض من مكانه وشق طريقه بين الحاضرين إلى خارج المسجد ، وكاد يدوس الناس من فرط غضبه . ولكن النجديين كانوا مستغرقين فى كلام الواعظ إلى الحد الذى جعلهم لا يلقون بالاً لابتسامتى أو التجهم الذى كان على وجه حسن . وسرت فى كل أنحاء الجامع "أشهد أن لا إله إلا الله" ، ورفع كل واحد من الحاضرين سببته شهادة على وحدانية الواحد الأحد التى تضمن الخلاص للمؤمنين الحقيقيين ، وتأكيذا على لعنة المشككين والمشركين .

هذا الذى وصفته ليس سوى عينة محتملة من التلقين النجدى . وعلى امتداد شهر ونصف الشهر قضيتهما فى هذه العاصمة المتدينة لم أسمع مقطعا واحداً ، طوال فترة حضورى هذه المواعظ أو ترددى عليها ، عن الأخلاق ، والعدل ، والإنصاف ، والرحمة ،

(١) ليس هذا من التلقين النجدى أو المذهب الوهابى الذى يحمل عليه المؤلف دائماً ، وإنما هذا حديث صحيح فقد روى حديث افتراق الأمة أبو داود فى سننه كتاب السنة ، ورواه الترمذى فى سننه كتاب الإيمان ، ورواه ابن ماجه فى سننه كتاب الفتن ، ورواه أحمد بن حنبل فى المسند فى عدة مواضع من المسند ، ونذكر هنا نص روايه ابن ماجه فى سننه عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله (ﷺ) : "أفترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، فواحدة فى الجنة ، وسبعون فى النار ، والذى نفس محمد بيده ، لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، واحدة فى الجنة ، واثنان وسبعون فى النار ، قيل يا رسول الله من هم ؟ قال : "الجماعة" ومعنى الجماعة هنا : أى الموافقين لهدى النبى الصحيح وجماعة أصحابه والسلف الصالح من أهل العلم العدل . ولعل كلام الشيخ عن أهل الرياض بأنهم من أهل الجماعة هو من باب البشارة - (د. حلمى عبد المنعم) .

والصدق ، ونقاء السريرة وعفة اللسان التى تجعل الإنسان أفضل مما هو عليه . ولكنى سمعت الكثير عن الصلاة ، وعن شن الحرب على الكفار ، وعن أنهار الجنة ، وعن الحور العين ، وعن حفر النار ، وعن الشياطين والأغلال ، وعن أحكام الطلاق ، وعن التزامات التعدد المعقدة . وينبغى ألا يغيب عنا هنا ذلك الموضوع المتكرر ، كبيرة شرب الدخان ، بل إن هذه الكبيرة تؤيد بأحكام عينية ومخيفة ، تشبه ، على نحو غريب ، تلك الأحكام التى توردها الروح المسيحية الأدنى من اليهودية ، فى كتب التثقيف والتنوير الأوربية . من ذلك على سبيل المثال . يقال إن رجلاً عاش حياة صحيحة وأن إسلامه لم يكن يرقى إليه أى شك ، توفى ودفن فى بلدة سدوس ، تلك البلدة التى تقع على الحدود ، والتى سبق أن مررنا بها . وصلى الناس على ذلك الميت ، ودفنوه فى قبره على شقه الأيمن ووجهه متجه إلى الكعبة ، شأنه شأن أى مسلم آخر عندما يموت . وتصادف أن أحد جيران ذلك المتوفى ، عندما كان يساهم فى طقوس الجنازة والدفن ، سقط منه ، دون أن يدري ، كيس نقوده الصغير فى قبر الميت ، وبقي الكيس مغطى بالطين داخل قبر الميت . وعندما عاد الجار إلى منزله ، اكتشف ضياع كيس نقوده ؛ وبحث الرجل عن الكيس فى كل مكان ، ولكن دون جدوى ، ولكنه سرعان ما توصل فى النهاية إلى ما مفاده أن نقوده لابد أن تكون قد ذهبت إلى القبر قبل الأوان . ماذا يفعل الرجل ؟ ونبش القبور أمر مكروه وممقوت عند أتباع محمد وعند المسيحيين المعتادين . ولكن *Quid non mortalia pectora Cogis Auri Sacra Fames?* واستشار ذلك الفلاح قاضى القرية الذى أفتاه بأن نبش القبر فى مثل هذه الحالة لا يعد ذنباً ، ولكنه نصحه أن من الحكمة أن ينتظر إلى دخول الليل تحاشياً للفضيحة والقليل والقال . ويحل الليل ويبدأ "رجل البعث" المجاز عمله ، ويسترد كيس نقوده من قبضه الموت الباردة . ولكن هذا الفلاح اندهش وأصابه الرعب والفرع ، لأنه رأى الميت وقد تغير موضع وجهه عن الكعبة ، إلى وضع معاكس تماماً لذلك الوضع الذى سبق أن وضعه عليه . ويغطى الفلاح القبر بسرعة ، ويعود إلى القاضى ليخبره بهذه المعجزة . واتفق الاثنان على تغير وضع الميت بهذا الشكل ، لابد أن يكون نتيجة لموته على الكفر ، أو لارتكابه كبيرة من الكبائر ، وفتش الناس منزله السابق ، عليهم يجدون دلائل أو إشارات إلى أعماله الشريرة . وراح الكبار والصغار يفتشون ويدققون ، إلى أن اهتموا إلى غليون صغير من العظم ، كان مخبأ بعناية فى فتحة فى الجدار ، وعرفوا من أنبويه الأسود ورائحته الشيطانية أنه كان يستعمل مراراً وتكراراً ، مما أثبت نفاق صاحبه المخزى . ويتضح الذنب ، ويفسر العقاب العينى ، ومما لا شك فيه أن هاوى "مُنكر" Shameful الدخان ،

أصبح يصلى نارا حامية Sarve him right . وهذا شخص آخر تقطع إربا إربا ، وذلك ثالث وقعت على رأسه صخرة - إلخ . إن التعصب وحكاياته موجود فى كل المناخات ، وبكل لسان mutato nomine Fabula narratar .

يضاف إلى ذلك ، أن الأخلاقية الضعيفة فى هذه الأرض التى تتظاهر بالتقوى أقل مما هى عليه عند الشاعر روبرت بيرنز Burns فى قصيدته كيلمارنوك Kilmarnock ، أو السوق المقدس Holy Fair ، صحيح أن الأنوار تطفأ هنا ، بعد غروب الشمس بساعة واحدة ، وصحيح أيضا أن السير فى الشوارع محظور بعد الغروب ، ولا يسمح لأى طفل ، أثناء النهار ، باللعب على رصيف الطريق ؛ وصحيح أيضا أن الناس هنا لا يجاهرون بالضحك ، وصحيح أيضا أن الآلات الموسيقية الدنيوية لا تطفئ على الأصوات والهمهمة المنبعثة عن محاضرات القرآن الكريم ، وصحيح أيضا أن جماعات اللهو الدنيوى لا تؤذى العيون الملتزمة فى الأسواق والأماكن العامة . ولكن الخلاعة بكل أنواعها ، والتى تعاف اللغة ذكرها ، هنا ، أكثر مما هى عليه فى كل من دمشق وصيدا على وجه الخصوص ؛ يضاف إلى ذلك أن الاحتشام النسبى فى المدن العربية الأخرى، يبرز اسوداد الرياض ويجعلها تتناقص تناقصا قويا وغريبا مع تلك المدن^(١) . وليسمح لى القارئ بأن اقتبس واحدة من الملاحظات الجيدة التى وردت عند واحد من المؤلفين المحدثين ، والذي يقول فيها: "الحكومة التى لا تكتفى بقمع التجاوزات المشينة ، وتطالب رعاياها بالالتزام بالتقوى الصارمة المتقدمة ، سرعان ما تكتشف ، أنها وهى تحاول تقديم خدمة مستحيلة لقضية الفضيلة ، قد ساعدت فى حقيقة الأمر ، على زيادة الرذيلة" ، والواقع ، أن معظم الملاحظات التى أوردها ماكولى Macauley عن هذا الموضوع ، فى كتابه المعنون "مقالات نقدية وتاريخية" ، سواء أكان موضوعه يتعلق ببرلمان الأرداف Rump parliament والتزمت البيوريتانى أم عن رد الفعل الفظيع الذى ترتب على الانحلال الذى حدث فى زمن أواخر من جاعوا من عائلة استيوارت Stuarts ، يمكن أن ينطبق انطباقا حرفيا على الحال الراهن فى مملكه القديسين العرب ، فى الوقت الذى يتوقع فيه حدوث ذلك فى المستقبل القريب .

(١) يبدو من كلام المؤلف مدى الحقد والكراهية على أهل التدين والالتزام بعقائد الإسلام الصحيحة وتشريعاته ، ولا يترك فرصة إلا ويحاول تلطيخ سمعة أهل الرياض باعتبارها قاعدة الحركة الإصلاحية الوهابية ، فوق هجومه العنيف على الحركة نفسها وعلى رجالها الأفاضل - (د. حلمى عبد المنعم) .

وهناك حقيقة فريدة ، يجدر بنا أن نأتى على ذكرها هنا ، قبل أن نتحول عن هذا الموضوع البغيض ، مفادها أن الجرائم التى يكرها الجميع ، بحكم أن الطبيعة نفسها تدينها ولا ترضى عنها ، كانت هى بمثابة الجرائم الوحيدة التى يجرى العقاب عنها بالقهر والتعذيب طوال الحقبة السابقة للحكومة الوهابية . وقد سبق أن أشرت فى مرحله سابقة من هذا الكتاب إلى أنه فى الوقت الذى أصبح فيه الأتراك والفرس مصدرا للقلق والرعب بين الأمم جراء عقوباتهم الوحشية ، التى كان القتل على الخوازيق يعد شكلا رحيمًا من أشكالها ، فإن العرب ، اكتفوا فى تنفيذ أحكام الإعدام القليلة التى كانوا يصدرونها ، باستعمال السيف فى ضرب عنق المحكوم ، من منطق عدم شرعية تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان فى لحظات عمره الأخيرة ، عذابا سطحيًا ، وذلك بغض النظر عن الذنب الذى اقترفه^(١) . ومع ذلك كانت هناك بعض التجاوزات القليلة ، وذلك من قبيل التنديد والتشهير . ولكن المجتمع الغاضب ، كان يعبر عن استيائه من المجرمين الذين كانوا يُعلّقون من أعقابهم ورؤوسهم تتدلى نحو الأسفل ، إلى أن يفارقوا الحياة . وفى ظل الحكم الحالى يلتزم الناس بسماحة القرآن وتراحمه مع أمثال هؤلاء المجرمين . وهذه صورة لدولة إسلامية مثالية .

وعبد اللطيف لا يعد الممثل الأوحى لأسرته ؛ لأنه الأخ الأكبر من بين عدد كبير من الأشقاء ، غير أنهم جميعًا أقل منه موهبة وعبقرية . وأصغر هؤلاء الأشقاء هو محمد ، الذى كان شخصيه أصيلة . كان قد عاد لتوه من مصر ، التى قضى فيها عامين بين طلبة القصر العيني ، وكانت شخصيته ينطبق عليها المثل العربى الذى يقول : "ذهب حمارا وعاد حمارا"^(٢) . كان محمد (آل الشيخ) ضيق الأفق ، وضيق الصدر ، محبا لاكتناز المال فى العشرين مثل السير جون كتر John Cutler عندما كان فى الستين ، وحاملا لرذائل دخيلة من القاهرة ليطعم بها رذائل الرياض ، ولهجة غير واضحة مثل ذلك الذى "فقد" خلال سنى ترحاله "لغته الخاصة" ، ولم يكتسب شيئا عوضا عنها ،

(١) لعل المؤلف يلمز إلى إقامة الحدود فى الإسلام ومنها القصاص بقطع الرقبة بالسيف ، ومن المعلوم أن الحدود فى الإسلام هى صمام الأمن فى المجتمع ، وهى زواجر لكل من يروّع الناس فى أرواحهم بالقتل ، وفى أموالهم بالسرقة ، وفى أعراضهم بالانتهاك وفى دينهم بالردة ، وفى عقولهم بالإنكار والتغيب عن الوعى ، وهى رحمة من الله لعباده وحياة لهم - (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) ما هكذا تكون أخلاق الكتاب ، وقد نهى الإسلام عن الفحش فى القول وأمر بعفة اللسان ، ولم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشاً ولا متفحشاً ولا بذئاً اللسان ، وكان ينبغى على المؤلف أن يلتزم عفة القول فى التعبير بصرف النظر عن صدق كلامه أو عدم صدقه - (د. حلمى عبد المنعم) .

وقد كنت أشعر بأنس بالغ وأنا استمع إلى تجاربه المصرية ، وتعليقه على العرق الفرعوني ، وهو يتكلم بشكل غير لائق عن سكان الدلتا العظيمة . لقد استطاع أن يتابع المحاضرات التمهيدية فى كلية الطب ، ولكنه لم يفهم منها سوى القليل جداً ؛ وما أن حل ، فى النهاية ، موعد حضور مقرر التشريح ، ومشاهدة عجائب "المشرحة" ، حتى قال محمد (آل الشيخ) لنفسه ، إن عقيدته لا تستوعب أو تهضم تلك الأعمال التى تتعارض مع الإسلام الصحيح ، وترتب على ذلك أن ترك كلية الطب هى والعاصمة . كانت تلك هى روايته عن هذا الموضوع ؛ وأنا لدى شك فيما قال : إذ ربما كان الغباء أو سوء السلوك هما السبب الرئيسى وراء هذا الطرد الذى ألbesه محمد (آل الشيخ) قناع الانسحاب المحترم . والواقع أنه كان واحداً من الوحوش الضارية التى أسعدنى الحظ بلقائها ؛ وقد شرفت بكراهيته لى وتلطّيح سمعتى .

ولولا تخوفى من ضيق صدر القارئ ، لحكيت له حكاية الطويل Toweel ، ذلك الرئيس البدوى ، من عشيرة عتيبة ، الذى أحصيته ضمن مرضاى ، والذى تصرف البدو ، بعد أن استرد عافيته ، وهرب من الرياض دون أن يدفع الأتعاب ؛ وحكاية الثرى عبد الرزاق ومسكنه الأنيق على طريقه الرؤساء النجدين القدامى ؛ وحكاية فهد ، ذلك الحبشى البشوش ، الذى كان يتميز بكرمه وسخائه على جيرانه من العرب ؛ وحكاية الشاب حمود ، الذى جرح فى العمليات الحربية فى عنيزه ، وبذلك أصبح شبه شهيد ، وحكايات كثير من المرضى والأصدقاء الآخرين الذين بثوا الحياة فى مقامنا فى الرياض ، والذين يملأون كتابنا الآن ، بعد أن ملأوا حافظة نقودنا من قبل . ومع ذلك ، لا يزال لدينا الكثير الذى يجب أن نرويه للقارئ قبل أن نغادر العاصمة ، كما أن لدينا الكثير أيضاً الذى سوف نحكيه أيضاً بعد أن نغادرها ، كما ينبغي على ، أن أقوم على وجه السرعة ، بتقديم الاعتذار الواجب ، للأطباء من بين القراء أو لأولئك الذين يتمتعون بالفضول الفسيولوجى على أقل تقدير . والسبب فى ذلك أن القارئ لن يغفر له مسألة عدم التعرض للجانب الصحى فى الجزيرة العربية ، بعد أن لعبت فيها دور الطبيب على امتداد اثنى عشر شهراً ؛ ولذلك سوف أحدد بشكل سريع ، الخصائص البارزة للأمراض السائدة بين العرب ؛ ويكفينى فى هذا الصدد ، بضع صفحات قليلة . وبعد أن أنتهى من هذه المهمة ، سوف أعود ثانية إلى مريضنا جوهر ، وأجعله يفتح الطريق أمامنا على أحداث مهمة من الماضى ومن الحياة الحاضرة - أو إن شئت فقل يفتح لنا الطريق إلى الأسرة المالكة الحاكمة ، وإلى البلاط الملكى فى الرياض ، وإلى ما وقع لنا هناك .

وأنا عندما أتكلم عن الجزيرة العربية ، بشكل عام أقول : إن الهضبة الوسطى كلها ، التى تشتمل على المساحة التى يشغلها جبل طويق من ناحية الشرق ، ووادى الدواسر من ناحية الجنوب ، والحد الصحراوى أو طريق الحج من الناحية الغربية ، وصحراء النفود أو بحر الرمال فوق جبل شومر من ناحية الشمال ، وجميع المناطق الواقعة بين هذه الحدود الأربع ، كل هذه المناطق تشكل جزءاً من أهم المناطق الصحية فى العالم بأسره ، ومن ثم تكاد تكون خالية من أعراض الأمراض على اختلاف أنواعها ، وفى هذا الجو النقى تماما ، والمناخ الجاف ، ودرجة الحرارة المعتدلة ، ليس لدينا الكثير الذى يمكن أن نضيفه إلى ملاحظتنا عن "كلى برايت" أو إن شئت فقل "كبسولات أديسون فوق الكلوية" . يضاف إلى ذلك أن سكان هذه المنطقة لا يشكون من النقرس ، الذى لم أشاهد أو أسمع عن حالة واحدة منه ، على سبيل المثال ، بل إن السرطان أيضا على اختلاف أنواعه ، وأشكاله الكريهة ، مطرود من كل هذه المناطق ، كما تنعدم الهستيريا أيضا بين السيدات المخشوشات غير الحاملات فى هذه المناطق . وخلاصة القول : إن هذه المناطق تغيب عنها معظم الأمراض التى يبدو وأنا أقول "يبدو" لأن هذه هى الكلمة الصحيحة التى يمكن استعمالها هنا - إنها تعتمد على الجو غير النقى ، ونقص الضوء والهواء - وارتفاع مستوى المعيشة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الأمراض التى تصيب الإنسان خلال حياته ، وكذلك الأمراض التى تعتمد على اعتلال المزاج والتوتر العصبى ، غير موجودة فى هذه المناطق من شبه الجزيرة العربية ؛ علاوة على أن سكان هذه المناطق لا يعرفون أسماء هذه الأمراض ، وفيما يتعلق بالحمى الرجعية ، برغم أنى شاهدت منها حالة أو اثنتين ، ينبغى أن أقول : إنها تندر هنا تماما بكل أشكالها الثلاثية^(١) والرُّبعية أو غيرها. أما الحصبة فلم أرها ولم أسمع عنها؛ ولكنى أشك فى صحة ذلك ، نظرا لعدم دقة الرواة الذين حدثونى عنها ، فربما كانوا يخلطون بينها وبين الجدري ، أو الحمى القرمزية الموجودة هنا ، والتيفوس والتيفود غير معروفين فى كل أنحاء نجد ، إذا ما استعملنا هذا التعبير فى إطار دلالاته الجغرافية الواسعة . ولم تصل يداى أو أسمع أى شئ عن انتشار الطاعون ، الذى كان يفد من مصر أو من بلاد فارس ، فى هذه المناطق العالية من البلاد .

(١) الحمى الثلاثية : هى الحمى التى تحدث كل ٤٨ ساعة ، والرُّبعية هى التى تحدث كل ٦٤ ساعة - (المترجم) .

وعلى كل حال ، فمن الواضح أنه برغم غياب هذه الأمراض ، لابد أن تكون هناك أشكال أخرى من المرض ، والسبب فى ذلك أن قاعدة السبعين إلى الثمانين تنطبق على الجزيرة العربية مثلما تنطبق على أى مكان آخر من العالم ؛ ومبلغ ظنى ، أن الكثيرين هنا يتمتعون بطول العمر قياسا على أى مكان آخر ، لو كان الناس هنا يمسون سجلات للمواليد والوفيات ، لاستطعت التوصل فى هذا الموضوع ، إلى نسبة تقريبية صحيحة ؛ ومع غياب المعطيات الرسمية ، استطعت أنا ورفيقي ، بعد كثير من النقاش والملاحظة أن نتوصل إلى إجماع مفاده أنه إذا كانت نسبة وفيات الأطفال فى هذه المناطق أعلى منها فى الأماكن الأخرى التى يتوفر لها الإسكان الجيد، والملبس الجيد ، والوسائل المنزلية أو الصحية الجيدة ، فإن متوسط عمر أولئك الذين يفلتون من أخطار الموت فى سن الطفولة المبكرة يكون أطول من متوسط عمر أولئك الذين يعيشون فى الجبال السورية، التى تتساوى ظروفها مع ظروف هذه المناطق، فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولكن الناس سيموتون إن عاجلا أم آجلا ، كما أن الموت الذى لا يحدث نتيجة سبب مرضى مباشر ، أو نتيجة لما يطلق الناس عليه الوفاة بسبب الشيخوخة ، هو من الظواهر النادرة الحدوث ، هذا إن لم يكن ذلك من قبيل المعتقدات الشعبية . إن أسباب الوفاة قد تكون لاحقة ، ولكنها لا تقل واقعية وتحديدا ، برغم أننا قد لا نلاحظها فى بعض الأحيان . ترى ، ما هى المسارات المعتادة التى يسلكها الجنس البشرى ليخرج من الجزيرة العربية إلى مثواه الأخير ؟

فى البداية ، يمكن لنا أن نستنتج مما سبق أن الأوبئة والأمراض المعدية كانت تنتشر فى تلك البلاد بين حين وآخر وعلى ذلك ، فإن الكوليرا، عرفت طريقها إلى نجد ، برغم أنها جاءت متأخرة ، وبعيدة تماما عن طابعها ومداها الكونى ؛ ويبدو أن الكوليرا كانت مصحوبة بكل أعراضها ومخاوفها الشهيرة ، برغم أنها لم تعتبر الأراضى العالية التى تفصل القصيم عن جبل شومر ، تلك المنطقة ، التى نجت تماما ، بناء على رواية أهلها ، من ذلك الوباء الأسىوى ، فى حين عانى وادى الجوف المنخفض معاناة شديدة من هذا المرض الوبائى . والنجديون يعززون مجيئ الكوليرا إلى مصر ، ويحددون له مسارا من الغرب إلى الشرق . والجزيرة العربية تعرف مرض الجدري منذ قديم الأزل ، ولا يزال الناس يتطعمون ضد هذا المرض فى كل أنحاء نجد ، ولم يدانى أحد على تاريخ دخول هذا الطعم إلى نجد ، وأنا أكاد لا أصدق الطريقة التى وفد بها

هذا الطعم من القسطنطينية إلى نجد ، وليست هناك امرأة غربية من قبيل مارى ورتلى مونتاجو Wary Wortley Montague حتى يمكن أن تزعم مثل هذا الشرف . وقد جلب المغامرون الدمشقيون الطعم إلى منطقة الجوف ، ويقال إن طلال بن الرشيد ، راح يشجع بعد ذلك ، على نشر ذلك الطعم فى كل أنحاء جبل شومر ؛ وقد تعرقل وصول الطعم إلى الممتلكات والأراضى الوهابية نظرا لأنها كانت تنتشر فيها أهواء من قبيل تلك الأهواء التى كانت تنتشر ، فى يوم من الأيام ، بين سكان إنجلترا . وقد سبق أن أشرت إلى الحمى القرمزية ، ولكن الحالات التى شاهدها لم تكن من النوع المؤذى أو الضار .

ويعد الاستعداد الطبيعى لتقبل عدوى السل الليمفاوى (العنقى) الذى يشيع بين أفراد العرق العربى ، مصدرا عاما من مصادر الإصابة بالأمراض المختلفة . والضغط الذى ينتج عن سوء الامتصاص التكوينى يقع فى بعض الأحيان على التجويف الصدرى وأحيانا أخرى على تجويف البطن ، ولكنه يقع فى معظم الأحيان على تجويف البطن ، وربما يكون ذلك راجعا إلى اعتدال المناخ النسبى الذى تؤثر خلاله ، الأسباب المثيرة لذلك الراسب المميت ، على أعضاء التنفس ، أكثر منه فى مناخ أوربا الرطب ، فى حين ، قد يعرض الطعام المثير الذى يصعب هضمه ، من الناحية الأخرى ، الجزء السفلى من الأحشاء للأخطار بعد ذلك . ومن ثم قد اندهشت فى البداية للحالات التى كان السل الباطنى يشكل فيها العرض الرئيسى ، فى حين يجيئ العرض الصدرى فى المرتبة الثانية ، أو قد لا يوجد على الإطلاق ، على صورة المؤشرات الواضحة التى تدل عليه . وفيما يتعلق بالنوع الأول فقد شاهدت منه حالات كثيرة بين الرجال والنساء . ويبدو أن المرحلة السننية التى يهاجم فيها هذا المرض الجسم هى من سن العشرين إلى الأربعين ، برغم أنى شاهدت حاله ، كانت المريضة فيها امرأة ثرية ، يقل سنها قليلا عن الخمسين ، ومع ذلك فهذه الحالات نادرة تماما ، والسل الليمفاوى (العنقى) الذى يؤثر أيضا على غدد العنق ، ويسبب الوهن والضعف ، وتنتج عنه التشوهات التى نشاهدها فى أوربا ، يعد أيضا من الأمراض السائدة فى جنوبى نجد ؛ ولكنى لم أشاهد أى نوع من أمراض السل فى جبل شومر ، أو فى القصيم ، أو فى سدير . ولا يشيع فى نجد سل القصبة الهوائية ، أو بالأحرى ذلك السل الذى ليست له أعراض بارزة ؛ وقد شاهدت حالة واحدة منه فى الرياض . وبطبيعة الحال ، فإن العرب ليست لديهم أية فكرة عن معالجة مرضى السل ، اللهم إلا إذا حددناه نحن على أنه سل ،

حتى يتناول المريض أكبر قدر ممكن من الطعام . وفيما يتعلق بالجدرى وأمراض الطفح الأخرى ، فإن العرب ، مثلما كان الأطباء الأوربيون يفعلون فى عصر سابق ، يبذلون قصارى جهدهم ، لخنق ضحاياهم المساكين بالإكثار من الملابس ، والتدفئة ، والنوافذ المغلقة . وقد سبق أن تكلمت عن حميتهم من الكوليرا فى الفصل السابق ، ولم يكن لديهم شئ غير ما فعلوه .

وأكثر الشكاوى شيوعا وبخاصة بين البدو والقرويين الفقراء تتمثل فى آلام الروماتيزم بكى أشكاله ، وآلام أسفل الظهر وما يتصل بها من أمراض . يضاف إلى ذلك أن الأمراض الباطنية ، وكل ما يتصل بها ليست نادرة هنا ؛ فقد شاهدت حالات كثيرة تعاني من أمراض القلب ، التى لها علاقة بالأمراض الباطنية ، ومرض القلب غالبا ما ينتهى هنا بالاستسقاء ؛ ولقد شاهدت ذلك مرات ومرات هنا بين الكبار والصغار ، ومن الواضح ، أن هذا الاستسقاء ناتج عن مرض باطنى . وبإمكانى أن أضيف هنا أن ظهور مرض Anasarca بصورة عارضة ، يجعل العرب يفقدون كل أمل فى الشفاء . والعرب ، فى بعض الأحيان ، يحاولون علاج مرض القلب ، فى مراحله الأولى ، باستعمال النزف والمطهرات المسهلة ، وبذلك يحققون شيئا من التسكين المؤقت على حساب إحداث أضرار كبيرة . وفى بعض الأحيان ، أيضا ، قد يكوى ثدى المريض ، بالمياسم الحديدية الساخنة ، وهذا عمل بشع لا فائدة منه ، ولكنهم يدعون أن ذلك منصوص عليه فى الأحاديث النبوية^(١) ، وهم يعالجون الروماتيزم بالطريقة نفسها ، برغم أنهم قد يحققون ميزة الاحتكاك فى بعض الأحيان ؛ والأدوية المعرقة لا تستخدم هنا مطلقا . وأنا لا أذكر أنى شاهدت حالة واحدة من حالات الاستسقاء الكلوى .

والأكثر شيوعا هنا من الروماتيزم هو سوء الهضم والتهاب غشاء المعدة المخاطى . وليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب ، نظرا لأن التمر ، والخبز غير المخمور سيئ التسوية ، وتناول لحم الضأن سيئ الطهى من حين لآخر ، هو الطعام والغذاء الرئيسى هنا طوال ثمانية أو تسعة أشهر من العام ، وبخاصة فى الطبقة الوسطى والطبقة

(١) نعم جاء فى الطب النبوى بعض الأحاديث التى تشير إلى العلاج لبعض الأمراض بالكي بالنار ، وهو علاج ناجع فى بعض الأمراض إذا ما أحسن تشخيصها وتوفرت الخبرة فى العلاج يقول (ﷺ) فيما رواه البخارى فى كتاب الطب عن ابن عباس رضى الله عنهما : "الشفاء فى ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم ، وكية نار ، وأنهى أمتى عن الكى" وقد وصف النبى (ﷺ) الكى ، ثم نهى عنه ، لأنه كرهه لما فيه من الألم الشديد والخطر العظيم ، ولهذا كانت العرب تقول فى أمثالها "آخر الدواء الكى" ، وقد كوى النبى (ﷺ) سعد بن معاذ وغيره ، واكتوى غير واحد من الصحابة . انظر فى ذلك فتح البارى ج ١٠ ص ١٤٥ طبعة الريان - (د. حلمى عبد المنعم) .

الأدنى منها . وقرحة المعدة تبدو هنا شيئاً نادراً ؛ وهي تصيب النساء بشكل خاص ، وأنا على قناعة تامة ، أنه إذا ما أدخل هنا مبدأ تشريح الجثة لمعرفة سبب الوفاة ، فإن ذلك سوف يكشف أن هناك امرأة واحدة من بين كل ستين امرأة ، تموت بسبب تقرح المعدة . ومن خلال ممارستي القصيرة والمحدودة ، شاهدت حالتين من حالات الالتهاب الصفاق^(١) المفاجئ العنيف ، المصحوب بانفصال سريع ، يترتب على تعطيل المعدة فترة طويلة ، ولم يخالجنى أى شك ، فى أن ذلك كان نتيجة لحدوث ثقب فى المعدة . ومن بين ضحايا هذا المرض ، كانت هناك امرأة شابة ، زادوها ألماً على ألامها ، بأن راح بيطار يكوى بطنها بالنار ، برغم كل معارضتى له واحتجاجى عليه .

ويكثر المغص هنا أيضاً ، وهو ليس مقصوراً على المغص المعوى وحده . والصيدلية العربية ، ليس لديها ما تقدمه فى هذا الصدد . والدوستاريا هى والإسهال المزمن ، برغم أنهما قد يحدثان هنا فى بعض الأحيان ، إلا أنهما أقل بكثير جداً عنهما فى الهند . وقد كان الأفيون الذى لا يعرفه العرب كدواء ، معيناً كبيراً لى فى علاج بعض الحالات . وتعد البواسير والتشققات من الأمور اليومية التى يصادفها الطبيب ؛ والتشققات يشتكى منها عدد كبير من المرضى فى كل من شومر ونجد ، ولكن الشكوى من البواسير تزداد كلما اقتربنا من الخليج الفارسى . والممارسون العرب يعالجون البواسير بالاستئصال كلما أمكن ذلك أو بموعظة عن الصبر إذا لم يستطيعوا . أما فيما يتعلق بالدوستاريا ، فإنهم ليس لديهم علاج أو حمية غذائية لها ، ولذلك فإنها قد تودى إلى الوفاة ، فى بعض الأحيان .

سبق أن قلت إن الحمى الرجعية تندر هنا ، وهذا فيما يتعلق بتوطن المرض ؛ ولكن الحمى الرجعية بوصفها مرضاً وافداً ، يوجد فيها شكل يستمر شهوراً بل وحتى سنوات مع الأفراد العائدين من البصرة ، والأحساء ، أو القطيف . وهذه الحمى الرجعية تتسبب فى تضخم الطحال . وقد وردت على حالات كثيرة ، من هذا القبيل فى الرياض . وبعد أن استطعت وقف الحمى نفسها ، مع استمرار بقائها ، باستعمال حبوب الكنين ، اكتشفت أن سلفات الزنك كان لها تأثير ممتاز فى تقليل ورم الطحال . وأنا لا أعرف مدى استعمال هذا الدواء فى أوروبا ؛ فقد أحضرته معى من الهند ، وأدى لى خدمات جلية فى نجد .

(١) الصفاق : هو الغشاء المصلى الشفاف المبطن للتجويف البطنى فى الحيوان الثديى - (المترجم) .

وهناك حمى أخرى متقطعة من النوع البسيط ، وليست من النوع الخطير ، تنتشر فى كل أنحاء نجد وفى شومر ؛ وهى عبارة عن شكل بسيط من أشكال الحمى المتقطعة فى الهند . وقد تستمر هذه الحمى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على أكثر تقدير ؛ ولكنها تستجيب بسرعة للعلاج الصحيح . وقد أفدت من وصفة ماريوت ، التى تقول بخلط الطرطير بالانتيمون ، وإعطائه للمريض بجرعات صغيرة ولكن بصورة متكررة ، فى الحصول لنفسى على أتعاب من المرضى ، وشفائهم من المرض .

ويجب أن أسجل هنا ، أن الكنين برغم عدم معرفته فى الجزيرة العربية ، فإن استعمال المنشطات الأخرى ليست غريبة على أهل هذه البلاد . وأهل هذه البلاد يستخدمون بدلا من هذه المنشطات نباتا يسمى الشيح ، وهو نبات شديد المرارة ينمو فى كل مكان ، من الأراضى المرتفعة ، أو قد يستعملون الطهمام ، وهو عبارة عن عشب رفيع ذكى الرائحة ، يقتصر نموه على نجد وحدها ، وقد اكتشفت أن هذين العشبين كانت لهما فاعليتهما فى بعض الحالات الطفيفة .

ويشيع هنا بشكل مخيف مرض أنا فى حل من أن أذكر اسمه . والعرب شأنهم شأن الأمم الأخرى يعززون هذا المرض إلى الأجانب ، بل إنهم يصرحون أنهم لم يسمعوا عن هذا المرض فيما بينهم إلا بعد أن وفد عليهم من بلاد فارس عن طريق الإيرانيين . ومع ذلك ، فإن الاسم الذى يدل على هذا المرض "البلغ" Beleg ، عبارة عن كلمه عربية تماما ، ومن هنا فأنا أخشى أن يكون المرض نفسه غير محلى ، برغم أن خلاعة الزوار الإيرانيين بصفة خاصة ، ومرور قوافل حجههم خلال نجد أثناء ذهابهم إلى مكة وعودتهم منها - ربما تكون قد ساعدت على انتشار هذا المرض . هنا المرض ينتشر على مستوى جميع المساكن ، وزيادة هذا المرض وعدم السيطرة عليه تجعله الآن يشبه الوباء . والمواطنون يسلمون بأن فيروس هذا المرض لا ينتقل من شخص إلى آخر ، وأنه يقل انتشاره بين الناس عن كل من الجدري أو الحمى القرمزية . وأنا لا أستطيع أن أقطع إن كان ذلك صحيحا أم لا ؛ ومع ذلك فقد شاهدت بعض الحالات التى كان من الصعب تفسيرها بغير هذا التفسير . والزئبق معروف ويستخدم كعلاج محدد لهذا المرض ، ولكنه يستعمل فى شكل واحد فقط ، هو سلفات الزئبق ، أو إن شئت فقل : كبريتيد الزئبق الذى يباع ويشترى ؛ أما المستحضرات الأخرى ، مثل مرهم الكالوفيل على سبيل المثال ، أو ثانى كلوريد الزئبق فليس لها وجود هنا . وقد بذلت

قصارى جهدى لإدخال هذين المستحضرين ، كى تستفيد منهما هذه البلاد . وهناك علاج غريب لهذا المرض ، يتمثل أصلا فى حمية غذائية ، يطلقون عليها فى أوربا اسم "العلاج العربى" Arab ، ولا يستحق أن أطلق عليه هذا الاسم ؛ وأنا لم أسمع أى شىء عن هذا العلاج أو حتى عن اسمه ، هنا فى الجزيرة العربية ، ومع الحالة التى عليها علم العقاقير هنا ، يصعب على القارئ أن يسمع حتى عن اليود ، نظرا لأن الاسم نفسه لم يصل إلى هذه البلاد ، اللهم باستثناء الفترة التى قمت خلالها برحلتى .

نسيت أن أقول : إن استسقاء المبيض يعد من الأمراض الشائعة فى نجد . والسكان هنا يخلطون بين هذا الاستسقاء والحمل المطول ، بل إنهم يحدثونك عن نساء حوامل تتراوح أعمارهن بين أربع وخمس سنوات . وعندما كانوا يحضرون إلى مرضى من هذا النوع ، كنت أرفض القيام بعمل القابلة ، وأتمنى للمريضة ولادة سريعة .

والسكتة الدماغية تحتل مكانا متميزا على قائمة التراث الحزين الذى تركه آدم لأبنائه العرب ؛ وكذلك الشلل بنوعيه النصفى والكلى (وقد فحصت حالة غريبة من حالات الشلل فى حائل ولدى شك أن تسوس العظام كان وراء هذه الحالة) ، كما توجد أيضا بعض حالات من الشلل الطرفى أو إن شئت فقل الشلل العصبى ، وغرّة الوجه المؤلمة ، أو إن شئت فقل تقلصات الوجه المؤلمة ، هى وصداع الجمجمة فاقت كل توقعاتى نظرا لأننى شاهدت منها حالات كثيرة ، مرارا وتكرارا ، ولم تكن هذه التقلصات مقصورة على الموهوبين ، أو النساء السمرات اللاتى يمثلن هنا "الجنس اللطيف" . كما وقعت تحت يدي أيضا حالات شديدة جدا من الرُقاص ، ذلك الاضطراب العصبى الذى يتميز باختلاجات تشنجية فى الوجه والأطراف ؛ ومع ذلك لا يعد الرُقاص مرضا عاديا ، وقد سمعت عن التيتانوس ، ولكنى أشكر الله ، لأنى لم أراه . كما كان الناس يحضرون لى مرضى مصابين بالصرع من حين لآخر ، ولكنى لم أمكث فى أى مكان مطلقا ، فترة تكفى لعلاج حالة من حالات هذا المرض الخطير ، الذى ينشر الفزع هنا مثلما ينشره فى أوربا ، كما انه ينتهى فى آخر الأمر ، نهاية محزنة . وفى الرياض شاهدت أيضا حالات تعاني من المسّ ، ذلك النوع من الجنون الذى يتميز بالانفعال الشديد ، كما سمعت عنه فى أماكن أخرى . وهذه الأمراض كلها ، وبخاصة الصرع والمس ، يعالجها العرب ، مثل الروماتيزم ، بمزيد من الألم ، باستعمال الكوى بالنار . وقد شاهدت صبيا تعيسا مريضا بالصرع وقد اكتوى جسمه بالنار من رأسه

حتى قدميه ، ولم يسفر ذلك الكوى عن أى نتيجة ، بطبيعة الحال ؛ كما شاهدت أيضا مجنون الرياض التعيس ، ذلك الشاب كريم المحتد ، الذى كُوى فى رأسه إلى أن وصل الميسم عظم الجمجمة ، واصبح حرق رأسه يشبه حرق لوك Luke فى بوهيميا . ولو لم يكن ذلك الرجل مجنونا بالفعل ، لأصابه ذلك الكوى بالجنون .

رُهاب الماء ، أو إن شئت فقل الخوف المرضى من الماء ، الناتج عن عض الكلاب المسعورة ، معروف فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ؛ وقد سمعت قصصا عجيبة عن عشب يستعمل فى علاج هذا المرض ، ويقولون : إن أحد المرضى بعد أن تعاطى ذلك العشب تقيئ - وأنا التمس العذر والسماح من القارئ الكريم - العديد من الجراء الصغيرة ! ثم شفى بعد ذلك من هذا المرض . بل والأهم من ذلك ، أن راوى هذه القصة قال: إنه شاهد تلك الجراء الصغيرة العجيبة، كما وصف أحجامها ، وألوانها ، وأشكالها .. الخ وصفا تفصيليا . ولكنى عندما سألته عن ذلك العشب الذى يصنع المعجزات قال : إنه لم يعد ينمو فى أى مكان . والتينيا والأمراض الطفيلية الأخرى تندر تماما فى الجزيرة العربية ؛ وعندما يكون هناك شك فى الإصابة بهذا المرض ، فإن السكان هنا يعالجونه بمستخلص من جذور الرمان البرى الذى ثبت أنه علاج ناجح .

والازمة ، فى اعتقادى ، تنتشر هنا بين الناس ، أكثر مما هى عليه فى أوروبا ؛ ويبدو أن هواء الطويق شديد الجفاف يزيد من استعداد الناس للإصابة بهذا المرض المزعج . والداتوره تنمو هنا فى كل مكان ، ولكنهم لا يستعملونها فى العلاج ؛ وبرغم أن الداتوره قد تُستعمل سما فى أيدى بعض الأشرار إلا أنها قد تستعمل عقارا للمحبة فى أيدى الأخيار ؛ ومن المؤكد ، أن أى شخص فضولى ، وحتى أنا ، ينبغى أن لا يذهب تفكيرنا إلى أبعد من هذا .

وأنا لم أر أو أشاهد حالة واحدة من حالات الإصابة بالحصى ، ولكن يصعب أن أقول : إن الجزيرة العربية خالية من هذا المرض تماما .

وإصابات الجهاز التنفسى بدءا من نزلات البرد البسيطة واحتقان الحلق وانتهاء بالأمراض الشديدة المزمنة ، تشغل حيزا كبيرا من وقت الطبيب العربى . وبقدر ما تشيع هذه الأمراض وتنتشر تندر أيضا الأمراض الرئوية، ومرض ذات الجنب Pleurisy ليس شائعا هنا ، ولكنى لا أستطيع أن أقطع بعدم وجوده ؛ والعرب يستعملون الكوى بالنار فى علاج هذا المرض .

وأنا ليس لدى شئ أقوله عن السعال ، وأمراض الفم الأخرى التى تصيب الطفل الأوربي ؛ والسبب فى ذلك أن خبرتى الطبية كانت فى مجال الأشخاص الكبار . ولكن فيما يتعلق بالسعال الديكى لم يصل إلى علمى أن أحداً أصيب به فى أى مكان من هذه البلاد ؛ وربما يدخل المرض الثانى ضمن ما يطلقون عليه هنا اسم مرض الخناق ، والذي يقال عنه إنه يجعل الأطفال الصغار يعجلون بمواجهة هموم الحياة .

وقائمة الإصابة باضطرابات الجلد طويلة وتعافها النفس ، وهى أطول من القائمة الأوربية . وهى تبدأ بمرض الذئبة وتنتهى بالحصف impetigo . والجذام ، شهير وكثير هنا ؛ وهو فى بعض الأحيان يوجد هنا على شكل بقع غير خطيرة ، يطلق عليها اسم "البرص" ، ويوجد فى بعض الأحيان على شكل الجذام المخيف ، الذى تتورم المفاصل بسببه فى البداية ، ثم ينتشر بعد ذلك على شكل قرح بطيئة متأكسدة ، وفى النهاية تنفصل تلك التقرحات ، مخلفة وراءها التهابات مزعجة فى أجزاء مختلفة من الجسم فى كل من الظهر والأعضاء التناسلية ، إلى أن ينتهى أجل المريض ، برغم أن ذلك قد يطول . والبرص أيضا ، قد يؤدي إلى حدوث بعض التقرحات السطحية ، برغم أنه ليس من الأمراض التى تتسبب فى الوفاة . وعلى كل حال ، فإن الجذام والبرص لا يرقيان إلى المستويات التى نقرأ عنها فى مجلة "الأعداد" ، وبذلك يظل الجذام الذى يصيب اليهود مختلفا عن الجذام الذى يصيب العرب . يضاف إلى ذلك ، أن جذام العرب ، برغم شكله المقرز ، لا يصيب ضحاياها بالتلوث ، ولا يخطر على بال أحد هنا أن هذا المرض من الأمراض المعدية . وأهل هذه البلاد يعالجون الجذام باستعمال سلفات الزرنيخ ، أو إن شئت فقل الزرنيخ الأصفر ، كما يسميه العرب ، برغم ثبوت فشل هذا الدواء فى كثير من الأحيان . وفى بعض الأحيان قد يشفى مريض الجذام أو البرص من جراء تعاطى الزرنيخ الأصفر بجرعات كثيرة ، ولكن ذلك قد يؤدي فى بعض الأحيان ، إلى وفاة المريض . وهم لا يستعملون حامض الزرنيخيت العادى لعلاج هذين المرضين ، وإنما يستعملونه بوصفه سما .

والحكة ، هى والكبريت علاجها المفضل ، تنتشر فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ؛ ولكن نقص خبرة العرب فى استعمال الكبريت استعمالا صحيحا تجعلهم يفشلون فى استعماله فى علاج الحكة ، أو بالأحرى يصبح الكبريت فى أيديهم محايدا ، أى لا ينفع ولا يضر . وهذه الحكة تنتشر بين الجمال ، وهى غالبا ما تنتقل من الجمال إلى الإنسان .

والرمد، هو والتهاب العيون ، ينتشران بشكل مخيف هنا ، وبخاصة بين الأطفال ، ويصلان في حالات كثيرة إلى مراحل غاية في السوء . ولن أبالغ عندما أقول : إن واحدا من بين كل خمسة من الكبار قد أصيبت عينيه بالضرر ، بصورة أو بأخرى ، جراء هذا المرض . ومع ذلك ، فإن العرب الذين تقل عندهم موهبة الاختراع ، لم يفكروا مطلقا في إيجاد علاج لهذا المرض ، بل وحتى أبسط أنواع العلاج - ولا حتى في الأحماض الكاوية المخففة ، أو حتى فيما يستعمله غيرهم بطريقة ناجحة ، في البلاد المجاورة ، وبخاصة مصر . كما تشيع هنا أيضا المياه البيضاء Cataract ، والعمى الجزئى أو الكلى ليس قليلا في هذه البلاد : وهو قد يصيب المريض فجأة ؛ وأهل البلاد هنا يعززون الإصابة بالعمى الكلى أو الجزئى إلى التعرض لهواء الليل البارد ؛ ومن المؤكد أيضا أن الإسراف في الدرس والتحصيل والمذاكرة لا يؤدي إلى الإصابة بهذا المرض . وينتشر هنا أيضا ، كما هو الحال في الهند العمى الليلي ، أى ذلك العمى الذى يصيب العين بدءا من غروب الشمس إلى شروقها في اليوم التالى . والتهاب الجفون المزمن ، وتورم باطن الجفون الحبيبي يضايق الممارسين العرب ويفقدون صبرهم . أخيرا ، أستطيع أن أقول : إن كل مرض من الأمراض المدرجة في كتالوج أمراض العيون ، يمكن أن نجد له حالة أو أكثر من حالة في كل بلدة من البلدان متوسطة الحجم في منطقة نجد .

ويؤسفنى أشد الأسف ، أننى لم أستطع من خلال تجاربى وخبرتى ، تأييد أو إثبات الأحكام العديدة الخاصة بحدة السمع والبصر بين العرب بصورة عامة . وأنا أرى كلا من البدو والحضر ، متوسطين فيما يتعلق باستخدامهم لحواسهم ، وذلك قياسا على بقية أفراد الجنس البشرى - فهم أطول نظرا من الألمان على سبيل المثال ، ومدى بصرهم أقصر من مدى بصر اليونانيين ، والشئ الملحوظ جداً بين العرب هو ذلك القدر الكبير من بلادة الحس ، فى حساسيتهم العصبية بشكل عام . ففى أحيان كثيرة كنت أستعمل المشرط أو المادة الكاوية ، وكنت أندهش لبرود المريض وقدرته على التحمل . وعندما كنت فى الرياض ، جاعنى شاب يشكو من حبة رش استقرت فى ساعده ، وأبلغنى أن ذلك يؤلمه ويضايقه ، وأصر على أن أخرج له هذه الرشة . وكانت العملية ، بحكم قلة خبرتى ، صعبه جدا . إذ كان لابد من قطع العضل وصولا إلى العظم . وطوال هذه الفترة كان النجدى يفرد ساعده دون حراك ، كما لو كان ذلك الساعد ينتمى إلى شخص آخر ، ولم يتغير لون هذا الشاب ، اللهم باستثناء تلك

الحمرة التى علت وجهه عندما أخرجت الرشة من خلال الفتحة التى فتحتها فى ساعده ووضعتها فى يده . وبعد فترة قصيرة من تضميد الجرح وربطه نهض ذلك الشاب وانصرف عائداً إلى منزله ، حاملاً معه هديته المصنوعة من الرصاص . وقد رأيت وسمعت الكثير عن حالات من هذا القبيل ؛ والحق أن العرب ليسوا عرقاً عصبياً أو من السهل إثارتة .

وأنا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن كثير من الأمراض النادرة أو الأمراض ذات الأشكال الغامضة ، لا من حيث أن تلك الأمراض لا علاقة لها بالمناخ أو الناحية الفسيولوجية ، وإنما أيضاً من صعوبة إطلاق أحكام لا تكون مؤيدة بالتقصى الدقيق ، وبالتحرى التشريحي بعد الوفاة . وأنا أعتقد ، أن ما قدمته هنا ، يكفى أن يكون إيجازاً مفيداً عن الحالة المرضية فى نجد . وهنا سوف أتبع هذا الإيجاز ببعض كلمات قليلة عن الحالة المرضية فى كل من أقصى شرقى وجنوبى شبه الجزيرة العربية ، وعن جزر وشواطئ الخليج الفارسى ، انتظاراً منى ، لامتداد زيارتنا إلى هذه المناطق ، وتحاشياً منى للرجوع إلى هذا الموضوع مرة ثانية ، بعد أن أكون قد استقطعت فيه ذلك القدر الكبير من وقت القارئ الكريم .

وبناء على ما تقدم، فنحن عندما ننزل من حافة الهضبة الكبيرة فى اتجاه الشرق، ندخل منطقة الهواء الساخن الرطب فى الأحساء ، تبدأ ، فى الظهور ، أنواع كثيرة من الأمراض التى يندر أو لا توجد مطلقاً ، فى نجد . وتجيئ الحمى الرجعية فى مقدمة هذه الأمراض ، إذ تنتشر من حين لآخر ، وهى خطيرة فى كل الأحيان ؛ والمناطق الرئيسة التى تنتشر فيها هذه الحمى هى مناطق السبخ والمستنقعات فى القطيف ، ومع ذلك فهى تنتشر أيضاً ، بشكل أو بآخر ، خلال المنطقة الساحلية بكاملها والتى تمتد من الكويت إلى قطر ، وهى تسبب الوفاة فى معظم الأحيان . وحمى التيفود (وليست حمى التيفوس ، التى لا وجود لها فى هذه البلاد) تلازم السكان هنا بصورة دائمة ، وقد تشكل وباء حقيقياً فى بعض الأحيان . وأعراض هذه الحمى ، هنا لا تختلف عن أعراضها فى أوروبا ، والدوستارياً تنتشر هنا أيضاً ؛ كما أن البواسير من الأمراض المؤلمة والمتعبة هنا أيضاً ، وتنتشر بين الناس على نطاق واسع . وعلى الجانب الآخر فإن سل الغدد الليمفاوية بكل أشكاله ، وكذلك الأمراض الصدرية ، وأمراض العيون ، تعد من الأمراض النادرة هنا فى المنطقة الشرقية ؛ كما يقل فيها أيضاً

الروماتيزم . ومبلغ علمي أن هذه الملاحظات المختصرة صادقة إلى حد بعيد ، اللهم باستثناء بعض الحالات النادرة ، وأنها تنطبق على كل من الأحساء ، والقطيف ، وجزر البحرين ، وجعس Ge's ، وجشم Djishm وأرمز ormuz ، وكذلك ساحل لنجا Linja وساحل عُمان .، ولكن المناطق الجبلية في عمان تضارع كلا من سدير وشومر من حيث الجو الصحي النظيف . وقطر أيضا ملائمة للصحة ؛ وبعد أن انتهيت مما أردت قوله عن الحالة المرضية ، يتعين على أن أعود من جديد إلى سياق روايتي ، التي قاطعتها عندما زارني جوهر ، وزير الخزانة ، أول مرة .

وينسى جوهر مركزه الرفيع، ويحضر من منطلق طوعية الزنوج ، ليلتقى العلاج ، صباح ومساء كل يوم ، في منزلنا المتواضع ، برغم أن تحركه ، مع مثل هذا المرض ، كان يسبب له ألما كثيرة . وبانتهاء الأسابيع الثلاثة ، كان علاجه قد أسفر عن تحسن كبير ، بل إنه استطاع على أثر ذلك القيام برحلته على شاطئ الخليج ، دون أن يشعر بأى ألم . كان سروره كبيرا ، وهديه طيبة إلى نجد . وقد وصلت تكاليف علاجه إلى حوالي أربعين شلنًا إنجليزيًا تقريبا - ترتب عليها أن أثنى علينا وامتحنا اعترافا منه بالجميل ، وتحسن مركزنا لدى البلاط ، عند هذا الحد تحسنا كبيرا ، يضاف إلى ذلك أن (الأمير) عبد الله ، ولي العهد ، والحاكم الحقيقي للمملكة أصبح يؤازرنا ويساندنا . غير أن محبوب ، رئيس الوزراء ، بدأ ينظر إلينا ، منذ ذلك الحين ، نظرات كالحة باردة ؛ وأن شفاء والده هو الذي جعلنا نحظى في النهاية بعطفه ورعايته ، وحميميته فترة محدودة . وبدأت تتزايد زياراتنا للقصر ، وأصبح بوسعنا أن نتحدث عن سلاطين نجد، وأمراء نجد ووزراء نجد ، مثلما نتكلم "بنات الثالثة عشر عن الجراء الصغيرة" . وعلى كل حال ، وقبل أن أروي ما حدث لي في البلاط الملكي وفي القصر ، يجدر بنا أن أورد شيئا عن تاريخ الأسرة المالكة السعودية ، وتاريخ الشخصيات الرئيسية فيها ، وكذلك الأحداث الهامة . وهذا الموضوع مهم في حد ذاته ، وقد يساعدنا في تفسير بعض المشاهد التي سأوردها فيما بعد ، والتي أدت إلى تنويع الأسابيع التي أمضيته في الرياض .

سوف أتبع في الإطار العام الذي سوف أحده هنا للأسرة المالكة الوهابية ، هي وحروبها ، وثوراتها وازدهارها ثم قيامها من جديد ، على الروايات التي استمعت إليها من أهل هذه البلاد ، ولن أزيد على ذلك أو أنقص منه . ومسألة احتواء مثل هذا

التاريخ ، على العديد من التجاوزات من ناحية التواريخ ، بل وحتى فى الأشخاص ، واختلاف ذلك عن ما سجله أو نشره الآخرون عن مثل هذه الموضوعات ، مسألة أعرفها وأعيها جيدا ؛ يضاف إلى ذلك ، أننى لا أدعى أن هذه الروايات فائقة الدقة ، برغم أننى أرى أن هذه الرواية قد تكون أوضح بكثير عن الروايات الأخرى ، وتتطوى على كثير من الاحتمالات الجوهرية . زد على ذلك ، أن بعض الحقائق أو المحادثات التى يجرى تسجيلها ، فى هذه المناسبة أو تلك ، يمكن أن تكون أضعف من المعتقدات غير المسجلة ؛ ففى المعتقدات غير المسجلة يقوم الخيال بدور الذاكرة ، والتحيز لا يدخل ضمن الوثائق . ومع ذلك ، سأكون مخطئا إذا ما تغاضيت عن تلك المعتقدات أو حذفته شيئا منها ، والسبب فى ذلك أن هذه المعتقدات تعد أمثلة حية على مشاعر البشر والسلوكيات ، علاوة على أن هذه المعتقدات هى ، بصورة أو بأخرى ، بمثابة صيغة من الحقائق الأكثر تجريدا والحقائق ذات الصيغة التاريخية المهمة ، وتأكيدا لهذه النقطة ، فإننا نجد أن خطب كلا من جرمانيكوس Germanicu وأوثو Otho لا تشكل أى اتهام بالخيانة أو التقصير فى مواجهة صدق تاسيتوس Tacitus ، كما أننا لا نهمل الروايات التى قيلت عن الثورة الكورسيرية Corcyraean من منطق أن ثوسيديدس Thucydides جسد مشاعرا ثينيه ، أو ربما مشاعر شخصية ، فى أنواع الخطاب ، التى من المؤكد أنها لم تكن حرفية تماما مثلما وردت فى ذلك التاريخ المدهش الذى رواه . هذا الطلاق الكامل يبين حقيقة الواقع وحقيقة الخيال ، بين الخريطة وسطح الأرض ، بين المقال التاريخى والرواية التاريخية ، والذى يميز هذا الفرع من الأدب فى أيامنا هذه ، لاحظته اللورد ماكولى Macaulay ، وما يزال يلاحظه بكثير من الأسى الذى يقترب من اللوم والتقريع والاستهجان . والواقع ، أن القدامى إذا كانوا قد تساهلوا فى هذه المسألة ، ألا نكون نحن المحدثين قد أفرطنا فى وسواسنا ، وحساسيتنا الشديدة لهذا الطلاق ؟ واختصارا للحديث ، فإننى سوف أعرض فى الاستطراد التاريخى التالى كل ما سمعته دون مدح أو قدح ، ولن أدون سوى ما سمعت ، ولن أحاول تمحيصه أو تحليله أو تمييزه على غيره .

الفصل الحادى عشر

تاريخ الأسرة المالكة الوهابية ①

قرأت تاريخ الإنسان ، عصرأ بعد عصر ،
ولم أجد فيه سوى الخيانة والذبح .
لا الأوبئة ولا العقاريت يمكن أن تسبب نصف الشر
أو نصف الإقفار الذى يجره الإنسان على الإنسان -
شاعر عربى

قيام أسرة ابن سعود المالكة - السنوات الأخيرة من حكم سعود الثانى -
نصيحة سعود الثانى عند وفاته - حكم عبد العزيز - غزواته - الخنجر - الشيعى -
اغتيال عبد العزيز - حكم عبد الله - الحملة التى قام بها على مشهد حسين - غزو
مكة والمدينة - حملته على سوريا - تمرد الحريق - المذبحة السكانية - استعدادات
محمد على لمواجهة الوهابيين - طارسون باشا - وفاته - تعيين إبراهيم باشا قائدا
للحملة - الإجراءات التى اتخذها الأمير عبد الله - الرسالة التى أرسلها - عبد الله
إلى إبراهيم باشا - النتائج التى ترتبت على هذه الرسالة - مبعوث ناجح - مسيرة
إبراهيم باشا عبر الجزيرة العربية - سلوكه السياسى - معركة القرين - حصار
الدرعية - الاستيلاء على الدرعية - معاملة إبراهيم باشا للأسرة المالكة وللأعيان -
مجلس الرياض - الإيقاف المفاجئ للمجلس - إبراهيم فاتحا فى نجد - عودة إبراهيم
إلى مصر - حكومة إسماعيل باشا - قسوة إسماعيل باشا - تركى بن سعود - ظهور
تركى بن سعود من جديد - تمرد نجد - تركى يسترد العرش - إجراءاته الأولى بعد

المصنف: محمد بن سعود

أن أصبح ملكا - حملة حسين باشا - فشل الحملة - السنوات الأخيرة من حكم تركي -
فيصل ملكا - طرده بواسطة خورشيد باشا - تجواله - نيابة الملك واستقالة خالد -
فيصل أسيرا في مصر - نيابة ابن ثنيان عن الملك - سقوط ابن ثنيان ووفاته - عودة
فيصل - الأحداث التي وقعت في أواخر حكم فيصل - شيخوخة فيصل - أسرته -
نظرة عامة على المناطق التابعة لإمبراطوريته - ميول تلك المناطق - عسير - الأفلاج -
زيارتنا لتلك المناطق - وادي الدواسر - وادي نجران - الإحصاء العددي - المتحصلات
والدخل - إحصاء مملكه شومر - دخل ومتحصلات مملكة شومر .

أوردت في الفصل الثامن ، ضمن الموجز الذي كتبه عن محمد بن عبد الوهاب ،
ومكانته في البلاط السعودي ، الظروف التي ساعدت على قيام الأسرة السعودية في
الدرعية ، على يد (الأمير) سعود ، أول من حمل هذا الاسم بين الأمراء المستقلين ،
وقد ورد ذكر الدرعية في الحوليات التاريخية العربية ، قبل الأهمية التي أضفاها عليها
الحكام الوهابيون . كانت الرياض ، أيام مسيلمة ، وما بعدها عاصمة للعارض ؛ وبدأت
العيينة تحتل هذه المكانة في ظل حكم آل - معمر ؛ في حين بقيت منفوحة بمثابة المدينة
الرئيسية في اليمامة . وقد استولى سعود الكبير الذي يمتد نسبه إلى عنيزه ، وتربطه
قرابة الدم مع كل من وعيل ، وتغلب ، وشومر ، على القرية التي قدر لها أن تحكم
الجزيرة العربية ، إذا انتزعها سعود من آل - معمر وجعلها واحدة من إقطاعاته .
حدث ذلك قبل خمسين عاما تقريبا ، قبل أن يعتلي العرش حفيده الأكبر ، الذي كان
أول من حمل لقب الملك من بين أفراد الأسرة . ومع ذلك ، فإن سعود الكبير (الأول)
هو عميد هذه الأسرة ومؤسسها في نجد ، وبعد وفاة سعود الكبير خلفه ولده عبد
العزيز ، الذي خلفه هو أيضا ، سعود الثاني ، مريد الشيخ محمد بن عبد الوهاب
وراعيه . وقد أفضت في شرح طريقه اعتناق الملك سعود الثاني للمذهب الوهابي
وتحمسه له ونجاحه في نشره . دام حكم الملك سعود الثاني فترة طويلة ، دامت حوالي
خمسين عاما ، وشهد ، قبل وفاته ، امتداد حكمه وسلطانه على المنطقة فيما بين
شواطئ الخليج الفارسي وحدود مكة . واختفت أمام هذا الفاتح أسرة ابن طاهر المالكة
في الأحساء ، وأسرة الدعاس المالكة في اليمامة ، وأحفاد داريم في القصيم ، ووصلت
مساحة إمبراطورية سعود الثاني إلى ما يساوي مساحتها الحالية . ولكن سعود الذي
لم يقل حرصه عن مغامرته ، حرص على أن يتحاشى القيام بأي تحرش على الحدود
المتاخمة للقوى الكبرى المحيطة بإمبراطوريته الجديدة . فقد احترم هذا النجدي سيادة
إيران على البحرين ومحميتها في القطيف ؛ ولم يشترك ابن سعيد ، ملك عمان ، أو إن

شئت فقل سلطانها ، من العدوان أو القهر ، كما لم يتعد على الحدود المقدسة للحرم المكي أو ينتهكها ، ولم يخاطر باستعداد الأتراك أو المصريين . ويبدو أن سعود لم يظفر بالانتصار في الخارج ، وإنما ذاع أيضا صيته وشهرته في الداخل ؛ فقد كان راعيا للعلم والدرس طالما كانا متمشين مع مرتكزات مذهبهم ؛ وإذا كان سعود قد تعاون تعاوننا صادقا وقويا في نشر تعاليم المذهب الوهابي ، فإنه لم ينس أن يزور عاصمته ويزينها بآثار دينية ووطنية يتباهى بها رعاياه وتزيد من احترامهم وتقديرهم . فهذه بقايا قصر من القصور الضخمة ، وتلك بقايا مسجد من المساجد الضخمة أيضا ، في مدينة الدرعية ، ولا تزال إلى يومنا هذا ، شاهداً على عظمة ذلك الملك الذي كان يراها ويتعهدا ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه العاصمة القديمة تكشف وسط إقفارها الحالي ، عن دلائل توحى بانتظام وزينة أكثر من تلك التي تتباهى بها الرياض . كان سعود الثاني ، يعارض أيضا سفك الدماء بلا مبرر ، بل إنه كان إنسانا حتى في حروبه ؛ كانت منيرفا^(١) هي التي تقود حملاته بدلا من بللونا^(٢) Bellona^(٣) ، يضاف إلى ذلك أن حلول السلام في الوقت المناسب ، كان يحول في معظم الأحيان بينه وبين اللجوء إلى السيف ؛ ولم تسجل مضابط التاريخ النجدي أن ذلك الرجل نصب مذابح رهيبة أو دمر دمارا شاملا أية منطقة من المناطق التي ضمها إلى إمبراطوريته طوال سنين حكمه ، بل إنه لم يفعل ذلك أيضا في القصيم ، التي كنا نتوقع لها مصيرا سيئا . ولم يقف أمام سعود الثاني ، ويقاومه مقاومة شديدة ، سوى بنى خالد في الأحساء ، الذين خذلتهم غالبية السكان ، وتم إخضاعهم في النهاية .

وعندما كان سعود الثاني على فراش مرضه ، استدعى ولديه الكبيرين عبد العزيز وعبد الله ؛ وعين الأول خلفا له ، وأسند إلى الثاني مركزا محترما في الحكومة ،

(١) منيرفا : إلهة الحكمة عند الرومان - (المترجم) .

(٢) بللونا : إله الحرب عند الرومان - (المترجم) .

(٣) هذا اقتباس في غير محله ، فقد كان الأمير سعود مؤمناً موحداً يطبق تعاليم الشريعة التي لم تحرص على إراقة الدماء أبداً وإنما تحرص على نشر السلام والأمان ، ولم تحل الشريعة سفك دم مسلم إلا بحقه كما جاء في الحديث الشريف "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله . فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، ومن هنا فإن الذي كان يقود الأمير ليست هي إلهة الحكمة (منيرفا) وإنما الذي يقود الأمير في حروبه هو الإيمان بالله وتعاليم الشريعة الربانية - (د. حلمي عبد المنعم) .

وأوصاهما ، فى النهاية ، وشدد عليهما ، أن يسيرا على خطه السياسى ، وكرر على مسامعهما القول المأثور "إياكم والصخر" : بمعنى انهما يجب أن يحذرا استعداد جيرانهم الأقوياء ، وبخاصة الحكومة العثمانية ، التى قد تبدو ضعيفة من الناحية الشكلية ، ولكنها لها قوة ساحقة بحكم مواردها الهائلة .

وفى العام ١٨٠٠ الميلادى أو ما يقرب من ذلك (ولعل القارئ يسترجع هنا ما قلته مرارا عن التواريخ العربية) اعتلى عبد العزيز عرش البلاد ، ومع أن حكمه دام فترة قصيرة إلا أنه كان عامرا بالأحداث العظيمة والضارة أيضا .

ونظرا لأن عبد العزيز كان شخصية قلقة وجريئة ، مع أنه كان أقل حصافة وحرصا من والده ، فقد فتح ذراعيه صوب الشرق ، واستولى على القطيف ، التى نصب فيها مذبحه مروة للسكان ، واحتل البحرين هى والجزر المجاورة لها فى الخليج الفارسى ، وهاجم الساحل الشرقى أو إن شئت فقل بر فارس ، والذى انتزعه إلى غير رجعة من الحكم الفارسى ، ثم هاجم فى النهاية مملكة عُمان . وكان عبد الله ، شقيقه الأصغر الطائش والمتهور ، هو الذى قاد الحملة على عُمان . وأصاب النجديون نجاحا كاملا ؛ وبعد سلسلة من المعارك ، التى انتصر فيها عبد الله ، تمكن من الوصول إلى المرتفعات المطلّة على مسقط ، ووجه بطاريات المدفعية الموجودة فى القلعة ، صوب المدينة نفسها . وهنا استسلم السلطان سعيد للعاصفة ، ووافق على أن يدفع جزية سنوية ، كما وافق أيضا على وجود حامية وهابية فى الأماكن المهمة من مملكته ، كما أذن أيضا بإقامة المساجد الوهابية فى كل من مسقط والأماكن الأخرى .

غير أن هذه الفتوحات كانت وبالا على عبد العزيز ، الذى استثار بها أخطر وألد أعداء الإمبراطورية الوهابية . فقد كانت القطيف والبحرين محميتين فارسيتين ، كما كانت تربطهما ببلاد فارس روابط دينية أكثر منها مدنية . كما كانت عمان ترتبط بإيران أيضا ارتباطا حميما ، وقرر البلاط الملكى فى طهران أن يثأر لحلفائه من قاطع الطريق العربى . ومع أن مسالة المخاطرة بإرسال جيش إيرانى إلى قفار الجزيرة العربية كانت تنطوى على كثير من الأخطار ، وعديمة الجدوى ، إلا أنه كانت هناك وسيلة أسهل وأنجح ، تتمثل فى أداة تعرفها الشيعة فى كل العصور والظروف ، وهى ما يطلقون عليه اسم خنجر القاتل .

وبرغم تعدد وتفرق الفرق التى نشأت عن صراعات على "كرم الله وجهه" مع خصومه الذين أصابوا نجاحا كبيرا ، إلا أن هذه الفرق تتفق على نقطة واحدة -

إباحة وممارسة الاغتتيال . والشيعية الذين ينتمون إلى فرقه الإسماعيلية (وهم قتلة بلا منازع ، ومنهم استمدت بقيه الفرق أسماءها : الدروز ، والقرامطة ، والخوارج ، والمطاولة ، أو باختصار ، كل الأصدقاء والجيران والأنسباء بدءاً من الرافضى وانتهاء بالبابى فى زماننا هذا يجيزون خنجر القاتل ويستعملونه ، عندما يريدون تحقيق هدف من الأهداف أو التخلص من أحد المنافسين ؛ وخنجر القاتل هذا يمثل جزءاً أساسياً من معتقدات الشيعة العملية والنظرية . ويقول واحد من العرب : إن المسلم ، والنصرانى ، والسنى ، والملحد ، "ذاق" كل منهم طعم خنجر الشيعة متعدد الأشكال ، النمط الأعلى "للسواد" فى الشرق . وهنا تلقى عبد العزيز درسا ، دفع هو ثمنه ، مفاده أن "المذاهب السرية" فى آسيا لا يجب تجاهلها .

ومن منطقة غيلان^① ، المنطقة التى استطاع فيها عبد القادر قبل ستة قرون أن يجعل حماس أتباعه ومريديه أساساً للمكارم السماوية ، من هذه المنطقة تقدم شخص يعرض القيام بذلك العمل الدموى ، ويتلقى هذا الشخص التعليمات المطلوبة من طهران ، التى سافر منها إلى مشهد حسين ، مكة المذهب الشيعى . ومن مشهد حسين ، يحصل ذلك الرجل على فتوى مكتوبة تغفر له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر ، وعمل رئيسى معتمد ومتفق عليه ، يضمن له نعيم الجنة الأبدى ، إذا ما أفلح فى تخلص الأرض من الطاغية النجدى . وبعد أن يلف ذلك الرجل ، هذه الوثيقة حول ذراعه على شكل تميمة أو تعويذة ، يشق طريقه ، متنكراً فى زى تاجر ، إلى مدينه الدرعية التى راح يتحين فيها فرصة الحصول على المكافأة التى وعدوه بها لقاء غدره وخيانتة .

ولما كان عبد العزيز وهابياً خالصاً ، فإنه كان لا يتأخر مطلقاً عن حضور صلاة الجماعة فى الجامع الكبير فى المدينة . ونظراً لأن عبد العزيز كان أعزل من السلاح ، ونظراً أيضاً لأنه كان مستغرقاً فى أداء الصلاة التى لا تسمح له بالنظر يمينا أو شمالاً أو إلى الوراء ، فربما كان فريسة سهلة لتلك الجريمة المدبرة . كان الفارس يعرف كل ذلك ؛ وبعد أن التزم ذلك الفارس التقوى الشكلية والاتصال بالناس لمدة أسابيع ، مما أكسبه ثقة أهل المدينة ، دخل المسجد لصلاة العشاء ، واتخذ لنفسه مكاناً خلف (الملك) عبد العزيز مباشرة ، وبعد أداء الركعتين الأوليين ، وأثناء الركعة الثالثة ، غرس ذلك الفارس ، خنجره الخرسانى فى ظهر الملك عبد العزيز أثناء السجود . ويخترق حد الخنجر المنطقة بين كتفى الملك عبد العزيز ليبرز من ناحية صدره ؛ ويموت الملك عبد العزيز دون أنين أو مقاومة .

ويتناول حراسه السيوف التي كانوا قد فكوها لأداء الصلاة ، ويستولونها على القتال . وفى شجاعة اليأس ، يدافع الإيراني عن نفسه باستعمال خنجره الذى مازال الدم الملكى يتقاطر منه؛ ثم يسقط أرضاً ، ليقطعه حراس الملك إرباً على أرض الجامع ، ولكن بعد أن كان أجهز على ثلاثة من الحراس . وقد عثر الحراس على الوثيقة المكتوبة والموقعة من حاكم مشهد حسين ، مع جثة الميت ، ويقسم الأمير عبد الله الذى اعتلى عرش البلاد ، بعد عبد العزيز ، أن يكون أول انتقام لموت أخيه ، من تلك المدينة التى أوت ذلك القتال .

الملك
عبد العزيز

وقد وقعت هذه الأحداث وفقاً لما يقوله الرواة فى الفترة ما بين ١٨٠٥ و ١٨٠٦ . وينفرد عبد الله ، منذ ذلك الحين ، بالحكم ؛ ولم يكن لأخيه خالد الأصغر منه ، أو الثنيان ولد عبد العزيز ، أو بقية أفراد الأسرة أية صلة بالحكم أو السلطة الملكية . وقد أنجب خالد ولداً أسماه مشارى ، هو الذى سبق أن قلنا عنه فى هذه القصة إنه هو قاتل الأمير تركى . وهناك أيضاً ابن ثنيان وخالد آخر ، هو أيضاً ابن أخو عبد الله ، سوف يرد ذكرهما فيما بعد .

كان عبد الله قد ورث عن والده مهارته وشجاعته وقوة شخصيته ، ولكنه أضف إلى تلك الصفات الخطوة الرذائل المعتادة لأولئك الذين يولدون فى قصور السلطة والجاه؛ فقد كان طاغية ، وقاسياً ، وغادراً ، ومتكبراً بشكل يندر وجوده فى الشرق ، كما كان متعصباً إلى حد بعيد لذلك المذهب الذى نشأ وتربى عليه . وقد تمثلت تماماً فى ذلك الطاغية ، واتسمت كل إجراءات حكمه ، بكل الصفات الغريبة التى يندر ألا توجد فى الحاكم الإسلامى (المحمدى) المطلق - التباهى ، التهور ، سفك الدماء ، انعدام الإحساس بمعاناة البشر ، الإسراف الزائد عن الحد القائم على الظلم الجائر ، القسوة النزوية ، وكذلك الرحمة النزوية^(١) .

وعقب دفن أخيه مباشرة ، بدأ عبد الله يستعد للبر بالقسم الذى اقسمه بأن ينتقم من مشهد حسين ومن الشيعة الموجودين فى تلك المدينة الحدودية . وتحقيقاً لهذا

(١) هذه مغالطات تنم عن حقد المؤلف على الإسلام وبنى الإسلام وبحيث لا يترك فرصة إلا ويطلق فيها اللمز بالإسلام وأهله ، فقد أصدر حكماً بأن الصفات الوضيعة توجد بإطلاق فى كل حكم إسلامى أو محمدى - على حد تسميته . وهذا مخالف لتاريخ المسلمين ، فهل كان حكم عمر بن الخطاب الذى حقق العدل فى ربوع الأرض وضيعة ؟ وهل ما فعله صلاح الدين الأيوبي مع الصليبيين من التسامح والسلام يعد حكماً وضيعة ؟ كلا ، إن تاريخ الحكم الإسلامى مليئ بالفخار وتحقيق العدل والأمان . - (د . حلمى عبد المنعم) .

الهدف ، وضع نفسه على رأس جيش قوى ، واتجه صوب ضفة نهر الفرات الغربية .
وهدد وهو فى طريقة بالتهام بلدية الكويت الصغيرة ، التى بدأت تتزايد أهميتها
التجارية ، ولكن الخضوع فى الوقت المناسب هو والهدايا الكبيرة كانا يؤديان إلى
تحاشى أخطار مثل هذه الزيارة النجدية الكريمة . وبعد أن قضى عبد الله على
المقاومات التى اعترضت طريقه ، وزع قواته الم جمعة لبدأ الهجوم من الزبير ، وسوق
الشيوخ ، ومن سَمَوْه Samwah ، إلى أن وصل أمام بلدة مشهد على الكبيرة ، التى
حاصرها على الفور . وسواء أكانت وساطة ربيب محمد الإعجازية هى التى نشرت
الفوضى فى صفوف المهاجمين الوهابيين ، وذلك نقلا عما تقوله الشيعة إلى يومنا هذا ،
أم افتقار القائمين بالحصار إلى المهارة والقوة اللازمين لهدم وتدمير التحصينات ، فقد
ارتد عبد الله على عقبه متكبدا الكثير من الخسائر ، واضطر إلى التخلّى عن خطته
التي كان قد أعدها للهجوم على مشهد على . وبعد أن ترك عبد الله مشهد على
لمدافعيها ، اتجه شمالا ، وقلبه مملوء بالغضب ، صوب مشهد حسين ، أو إن شئت فقل
كربلاء ، الهدف الرئيسى لهجومه وحققه . وفى مشهد حسين طفى هجومه وفاق كل
شئ ، وعصف بالمدينة ودخلها ، وروت المذبحة المروعة التى نصبها عبد الله لحامية
المدينة وسكانها شعر عنق عبد العزيز . ودمر عبد الله ، القبر الحقيقى أو المزعوم لولد
فاطمة ، وهدم المسجد الضخم وسلبه ونهبه . ولقد شاهدت فى الرياض أشياء متباينة
من تلك التى نقلها عبد الله من ذلك المزار الشيعى ؛ ويتفق الجميع على أن المجزرة
كانت قاسية ، وأن السكان سواء أكانوا مسلحين أم عزلا قد قُتلوا بالسيف .

هذا النجاح الذى أصابه عبد الله ، جعله يتحدى نصيحة والده التى أسداها إليه
والى أخيه عندما كان على فراش موته ؛ فقد قرر عبد الله إكمال مخططات غزوه
بالاستيلاء على الأراضى المكية ناحية الغرب . واستعدادا لهذا الغزو حشد عبد الله
للمرة الثانية كل القوة المتيسرة له فى نجد ، وعبر حدود الحرم عند مغاصيل Meghasil ،
وخلال أيام قلائل ضرب خيامه ومعسكره أمام مكة ، التى يصعب عليها الدفاع عن
نفسها . واستولى عبد الله على المدينة المقدسة ، التى كانت جميع المذاهب تحميها من
الغزاة وتحترمها منذ أيام قرموط بن طاهر ، وأقام عبد الله مذبحة لحامية المدينة ،
وقتل إلى جانب الجنود الأتراك كثيرا من الأشراف والسعديين Seyyids كبار السن .
ودمر عبد الله أو أزال كل مظاهر الزينة ، وكل ما يتصل بالخرافات وما ليس له علاقة
بالتقوى والصالح العربيين ؛ وأعاد الكعبة إلى إطار العبادة الإسلامية الخالصة ،

كما حماها عبد الله من التلوث المستقبلي بأن قصر الدخول إليها على المتقين أو إن شئت فقل على المذهب الفاتح ، وعلى كل حال ، فقد اعتري ذلك التحريم قليل من التراخي مع بعض الحجاج الذين ثبت بالدليل المقنع أن آراءهم الدينية صحيحة ، بل إن عبد الله أمدهم بالإعانات المالية والعينية؛ ولم يسمح عبد الله لغير هؤلاء ، من السنة أو الشيعة ، بالاقتراب من مكة . كما كانت تحدث بين الحين والآخر نوبة من الحماس المتعصب فيما يتعلق بالذهب ومباهجه ، وكفر عبد الله عن حلوله الوسط التي كان يشتريها بالمال ، بأن رفض رفضاً باتاً السماح للأتراك بالمرور مهما كانت مناصبهم أو مراكزهم ، أو حتى مقاصدهم . وعلى سبيل المثال ، ففي مرة من تلك المرات أعيدت شقيقة السلطان ، من مكة "وهي تحمل الخزي والعار" قبل أن تقبل الحجر الأسود أو ترمى الجمار في وادي منى . وفي كثير من الأحيان ، كان حراس المدينة المقدسة الوهابيون يرضون عن سلب قوافل الكافرين الثرية ونهبها ، وذلك من منطلق وحدة الهدف والمصلحة ، ووحدة الحماس والغنيمة . إن الذكريات عن تلك الأيام الذهبية ، التي ولت سراعاً ، مازالت تعيش في أذهان أهل العارض وأهل نجد ، اللتين سمعت الناس فيهما يتحسرون على أيام الغزو الخوالي الجميلة ، أيام التشدد ، أيام الملك عبد الله.

شنَّ عبد الله حملته الثانية على المدينة المنورة . وقد جاءت هذه الحملة ، إن صحت الروايات التي رواها أهل مكة ، نتيجة لمناورة سياسية فريدة جرت في المناطق العليا . ويقال إن أشراف وشيوخ مكة الذين بقوا على قيد الحياة بعد مذبحة مكة ، بعد أن رأوا أن الله أمهل أولئك الذين اعتدوا على بيته الحرام وعلى سدنته في العاصمة ، فكروا في استنصار النبي نفسه في قضيتهم . ولكي يتحقق ذلك لابد أن يخطئ عبد الله في حق شخص النبي (ﷺ) ، وبذلك يستثير غضبه واستيائه . ولما كان احترامهم وتوقيرهم لحمد (ﷺ) يمنعهم من التعاون بصورة مباشرة في عمل من هذا القبيل ، فإنهم يمكنهم تدبير مثل هذا العمل بطريقة غير مباشرة ، وبشكل لا يقل مثقال ذرة عن الطريق المباشر . وبناء على ما تقدم ، ذهب أصحاب اللحى الموقرون من أهل مكة ، ذات صباح ، إلى الكعبة المنهوبة ودعوا الله أن يكشف الملك الوهابي ويجعله ينتهك قدسيه المدينة المنورة وقبر النبي ، وبذلك يغضب منه الرسول ويجر على نفسه غضب الحبيب محمد (ﷺ) . واستجاب الله دعاءهم ، واتجه عبد الله بجيشه صوب يثرب ، أو إن شئت فقل المدينة المنورة، ليتوج جرائمه فيها . وأنا على ثقة ، أن القارئ ، يجب ألا يغيب عنه هنا أنني هنا أقوم بدور الرواي ، ولا أقوم بدور المؤرخ .

وسقطت المدينة المنورة فريسة سهلة ، وواصل الوهابي المنتصر تطبيق المعيار الشهير من معايير مذهبه والذي يقول : "خير القبور الدوارس" ، واعتدى عبد الله على قبر النبي ، وقبرى صاحبيه أبى بكر وعمر . وبعد أن سوى بهذه القبور الأرض ، استرعى اهتمامه بعد ذلك النذور الثرية التي تجمعت منذ أجيال فى الجامع الذى يحوى هذه القبور . وأطلق عبد الله نكتة غير دينية إذ قال : "مات محمد ، وأنا ما أزال حيا ، وهذه الثروة ، يحافظ عليها الأحياء أفضل من الموتى" ؛ وأمر ، بعد انتصاره الديوى ، بإحضار ستين جملا ، لتحميل هذه النذور عليها ، وإرسالها إلى خزانة الدرعية .

وبرغم أن النبى لم يبال بما حل بالكعبة ، إلا أنه تأثر تأثرا شديدا بهذه الإهانة الشخصية الأخيرة . وسواء أكان النبى ، فى تلك اللحظة ، فى بال Baal (أى فى رحلة) أم ربما كان "نائما" ، ولابد من إيقاظه" ، فقد سكت عن هذا الأمر طيلة خمس سنوات^(١) . وفى الوقت نفسه ، وبعد أن أصبح الفاتح الوهابى ، ملكا على شبه الجزيرة العربية كلها ، باستثناء ركن صغير من اليمن وحضرموت ، وجّه عصاباته التى تشبه الجراد صوب الحدود الشمالية . واستسلمت كل من شومر والجوف ، ولكن المنطقة المكشوفة فيما بين كاراك Carac والميرا Palmyra تم سلبها ونهبها ، أو حرقها أو ذبح من فيها ؛ بل ؛ احتفى السكان الذين لا حول لهم ولا قوة بالقلاع والمدن الحصينة من بطش سيوف إخوانهم المتدينين . وعلى كل حال ، فإن عنزه الشمال لم يكونوا مبالغين ، بشكل عام ، إلى توحيد الهدف مع السلاب والنهاب القادمين من الجنوب ، ولذلك دارت بين عنزه الشمال وبين هؤلاء السلاب والتهاب بعض المبارزات ، مما جعل م . لامارتين يتحدث فى كتابه الشهير الذى كتبه عن الشرق ، عن صراع استمر سبعة أيام بين جيشين كان أحدهما بقيادة بنى شعلان والآخر تحت قيادة أبى نقطة ورفاقه . ولكن بالرغم من جميع التحريات والاستقصاءات التى قمت بها ، سواء بين بنى شعلان

(١) هذا الكلام مخالف لتعاليم الدين ، وفيه إهانة للنبى (ﷺ) فالرسول (ﷺ) قد انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن أكمل الله به هذا الدين ، ومات وترك أمته على المحجة البيضاء ، وكل معالم هذا الدين محفوظة فى الكتاب والسنة . ولم يطلب من النبى بعد وفاته أن يدافع عن حرمة الإسلام ، وإنما جنود المسلمين وحماة الدين هم الذين يدافعون عن الدين ومقدساته . والنبى فى قبره هو فى مقعد صدق عند ملك مقتدر وليس فى رحلة كما يهرف ذلك المؤلف ويخرف فى كلامه هذا مع تحفظى الشديد على هذه الروايات عن الأمير عبد الله والدعوة الوهابية ، فإن المؤلف على طول الخط يحمل عليها وعلى الإسلام ونبى الإسلام وينبغى أن تؤخذ مروياته بتحفظ شديد - (د. حلمى عبد المنعم) .

أنفسهم ، والروالة ، والسباع ، أو بين حصينة الشمال ، أو بين النجديين ، أو بين بني تميم في الجنوب ، إلا أنتى لم أعثر على أى أثر أو حادثة ؛ ولو قدر لمثل هذا الأثر أو تلك الحادثة أن تقع بمثل المبالغات الهائلة التى أوردها لامارتين ، لخلد ذكرها ما لا يقل عن خمسين من شعراء الصحراء والحضر .

وبينما كانت القوات النجدية الرئيسة مشغولة على هذا النحو على الحدود الشمالية للإمبراطورية ، إذ أدى ذلك إلى تخفيف الضغط إلى حد ما على الإمبراطورية من الداخل . وتهيأت الفرصة للاستياء والرفض أن يعبرا عن نفسيهما ، واندلعت ثورة عارمة فى نجد ، التى أدى جبروت عبد الله واستبداده فيها إلى كراهيته من رعاياه ومن أعدائه على قدم المساواة . وقد حدث ذلك بصفة خاصة فى المناطق الواقعة جنوب العارض ؛ ولكن المركز الرئيسى لرد الفعل كان فى منطقة الحريق ، ذلك الموقع المتقدم فى اليمامة ، الذى هبأ له بعده الفرصة كى يكون موطناً يتوالى منه السخط على الحكومة الوهابية والاستياء منها . وكان أهل الحوطة أول من وقف فى مقدمة تلك الثورة ، كما وقف إلى جوارهم أيضا كثير من أعيان هذه المنطقة ، الذين بدعوا يطالبون بأراضيهم .

ولكن عبد الله كان مستعدا لذلك أيضا ، علاوة على أن نيره كان يبلغ من الثقل حداً يصعب معه على انتفاضة جزئية من هذا القبيل أن تتخلص منه أو تلقى به بعيدا عن عنقها . وهنا جمع عبد الله قواته الاحتياطية من كل من العارض وسدير ، مستبديه . المخلصين ، وهاجم على الفور الثورة فى اليمامة قبل اندلاعها . وبعد المذبحة - نظرا لأن الحرب كانت أهلية وضروسا - وصل عبد الله إلى منطقة الحريق وشتتها هنا وهناك . ولكنه ادخر انتقامه الثقيل والمكثف لبلدة الحوطة - إذ أحرق جميع منازلها ، وذبح رجالها وأطفالها ، ولم يبق من سكان الحوطة الذين قدر عددهم بعشرة آلاف نسمة تقريبا ، سوى مائة وثلاثين نسمة ، يقال إنهم هم الذين نجوا من سيف عبد الله .

وبعد ذلك ، وبينما كان الغازى يجوب راكبا خلال أنقاض المدينة المخضبة بالدماء ومن حوله رفاقه المتوحشين ، طلعت عليه أرملة تكلت زوجها وولدها فى المذبحة ، واعترضت طريقه وصاحت قائلة : "يا عبد الله" . ورد عليها عبد الله قائلا : "سم" . وقالت له المرأة : "اذكر اسم الله" . وتعجب عبد الله منها قائلا : "يا الله" . واستطردت المرأة وهى تكمل العبارة : "يا الله ، إن كان عبد الله قد فعل خيرا بما فعله هنا ،

فكافئه بالخير . ولكن إذا كان فعله هنا ظلما وقسوة فقابله بما فعل" . ويمضى عبد الله إلى حال سبيله صامتا ، مكتئبا ويعذبه ضميره عائدا إلى الدرعية ، بعد أن خلف الحريق صحراء قاحلة . ولكن دعوة الأرملة كانت تلاحقه وتطارده .

واشتركت حكومة القسطنطينية مع محمد على ، وإلى مصر ، فى القيام بطرد الوهابيين من مكة ، وأن ينزل بهم العقاب المناسب . وكانت أولى العمليات العسكرية التى استهدفت تحقيق هذه الغاية ، بقيادة طارسون باشا ، ولد محمد على ، والأخ الذى يكبر إبراهيم باشا . وقد استغرق سفر طارسون باشا هو وقواته إلى أراضى الحجاز وظروف النجاح والفشل والتفاوض فترة من الزمن تتراوح بين عامين وثلاثة أعوام . وإن لم تخنى الذاكرة ، فإن بركخاردت Burckhardt وصف فى كتابه ، وصفا دقيقا ، الطاعون الذى انتشر بين أفراد الجيش المصرى ، كما وصف أيضا وفاة طارسون باشا ، وبعض الأحداث الأخرى .

وأعيد فتح مكة مرة ثانية ، ولكن الجيوش المصرية لم تتقدم إلى أبعد من ذلك ، ولم يكن لديها فكرة محددة للوصول إلى نجد نفسها . ولكن محمد على ، على العكس من ولده طارسون ، كان قد أعد خطة جريئة لا للقضاء على الصلف الوهابى فى نجد وحسب وإنما لاستبعاد أى احتمال لتكرارها مستقبلا ، وذلك عن طريق الاستيلاء على الدرعية ، حتى يقتل الدبابير فى عشها .

ولكن فى البداية (وأنا هنا أورد القصة من منظور الرواية النجدية) دعا محمد على ، فى القاهرة ، إلى عقد اجتماع عام حضره جنرالاته ، ووزرائه ، وضباطه ، وسياسيوه لمناقشة هذه الخطة . وبعد أن شرح محمد على لجميع الحاضرين الأسباب التى دعت به إلى عقد الاجتماع ، والهدف الذى ينتويه ، أشار محمد على إلى تفاحة كانت ملقاة على أرضية الديوان ؛ وكان قد تم وضع هذه التفاحة فى مركز سجادة كبيرة مفروشة على الأرض فى الصلاة من أمام الحاضرين . ثم قال محمد على : " من منكم يستطيع أن يناولنى هذه التفاحة بيده ، دون أن يضع قدمه على السجادة فى المكان الموجودة فيه التفاحة ، إن من سيفعل ذلك سيقود الحملة الموجهة إلى نجد" . وحبى كثير من البهوات الصغار وفربوا أجسامهم على الأرض ، جاعلين أعقابهم عند حافة السجادة ، ومادين أذرعهم عن آخرها فى اتجاه الثمرة ؛ ولكن المسافة كانت طويلة عليهم جداً ، مما ترتب عليه بقاء التفاحة فى مكانها دون أن يصل إليها أحد أو يمسك

بها . وجرب البهوات ، الواحد بعد الآخر ، خطة بعد أخرى ، ولكن باءت كل محاولاتهم بالفشل ، وانتهى الأمر بهم جميعا إلى الاستسلام من اليأس . وفى النهاية ، نهض إبراهيم القصير المتين ، وولد محمد على بالتبني ، وانحنى أمام والده ، وعرض القيام بتلك المناورة الصعبة . وضحك الجميع منه ، إذ لم يكن يراودهم أى شك فى فشله . ولكن سخريتهم سرعان ما تحولت إلى إعجاب عندما شرع إبراهيم باشا فى التنفيذ ، بأن راح يطوى السجادة من الحافة نحو الداخل إلى أن أصبحت التفاحة فى متناول يده ؛ ثم تناول التفاحة وسلمها إلى والده ، الذى فهم هذا اللغز البلاغى ، وعين إبراهيم باشا منذ ذلك الحين قائدا عاما للجيش المصرى .

وسواء أكانت هذه القصة حقيقة أم خيالا ، فإن الفكرة التى تقوم عليها تتعلق بطبيعة البلاد التى سيجرى غزوها ، كما تتعلق أيضا بأتسبب الوسائل التى تضمن نجاح هذا الغزو ، ومن هنا لا يجب التقليل من قيمة وأهمية هذه القصة بأى حال من الأحوال . لقد كانت العقبة الكؤود فى هذه الحملة المقترحة ، تتمثل فى تسيير جيش نظامى عبر منطقة صحراوية شاسعة تحيط بنجد من كل جانب . وقد ثبت أن أذرع كثير من الغزاة عجزت عن الوصول إلى نجد بفضل هذه الصحراء ، فى حين أقنعت هذه المحاولة كثيرا من القادة بأن يفلتوا وينجوا بجلودهم ، - المقصود هنا هو الاتصالات العسكرية الموجودة فى المؤخرة ، - من حتمية الاتصال بالقاعدة الأمنية . ولكن الهضبة الوسطى بحد ذاتها ، إذا ما تم الاستيلاء عليها ، فلن تشكل مقاومة تذكر ، شأنها شأن أى تفاحة عندما تقع فى قبضة الأصابع التى تمسك بها ، ولكن كيف انتوى إبراهيم باشا طى السجادة كي يصل إلى الجائزة ؟ إن حملة إبراهيم باشا سوف تكشف لنا الحل العلمى لذلك اللغز : وأنا يتعين على فى الوقت نفسه ، أن أنقل القارئ بضع لحظات إلى التربة العربية ، لدى تلك الاستعدادات التى أعدها عبد الله استعدادا لملاقاة العدو المنتظر .

وبينما بقى إبراهيم باشا فترة من الوقت فى مصر ، راح خلالها يجمع قواته وذخائره ، وصلت ظلال هذه الحرب المخيفة إلى الملك عبد الله فى عاصمته . وكانت قوات نجد قد استدعيت للخدمة العاملة منذ فترة قصيرة ، فى الحرب التى شنها طارسون باشا ، التى وقع عبئها الأكبر على سكان جبل عسير المحاربين كثيرى العدد ، تحت قيادة ابن سعدون . والقارئ عندما يعود إلى الخارطة يتبين أن منطقة عسير الجبلية تقع إلى الجنوب مباشرة من منطقة مكة ؛ وتقدر المبالغات النجدية عدد مقاتلى

جبل عسير بحوالى سبعين ألف مقاتل ، ونحن إذا ما قدرنا هذا العدد بحوالى الثلث فقط ربما نكون قد قاربنا على المتوسط الحقيقى . وسكان عسير من الوهابيين المتشددين والملتزمين ، وهم إلى جانب ذلك ، حلفاء لنجد ، وليسوا من رعاياها . وبذلك يكون سكان جبل عسير قد كُونُوا أول مانع صعب فى مواجهة الغزو المصرى . ولكن عبد الله كانت لديه مخاوف من ألا تتمكن عسير وحدها من وقف مد الحرب المتقدم .

وكتب الملك عبد الله رسالة يشجع فيها ابن سعدون ويوعده بالعون والمساعدة ، وراح هو نفسه يجهز استعدادات عسكرية على نطاق غير عادى . ولكنه اختار ، فى الوقت نفسه ، من بين أهل الدرعية واحدا توسم فيه أن يقوم بدور الجاسوس ، وأرسله إلى مصر متنكرا ، ليكتشف ذلك الذى يجرى هناك على قدم وساق ، وكلفه الملك عبد الله ألا يترك شاردة أو وارده إلا ويلاحظها ؛ على أن يكون ذلك فى سرية كاملة . وعاد المبعوث بعد فترة من الوقت . وهنا عقد الملك عبد الله اجتماعا عاما أمام بوابة قصره ، واستدعى المبعوث ، وطلب إليه أن يحكى للمجتمعين ذلك الذى رآه وسمعه ، وبدأ ذلك المبعوث التعيس ، الذى تركت القوة العسكرية المصرية هى واستعراضها التنظيمى وجيوشها انطبعا كبيرا على خياله ، بدأ يسرد أمام أعين إخوانه المواطنين تفاصيل تلك الصورة المخيفة لذلك الباشا العنيد هو وقواته ، ومدافعه ، وكتابته ، والقوات الراكبة والراحلة ، وأن ذلك كله كان من أجل غزو نجد . واصفرت الوجوه ، ولكن الملك عبد الله قاطع رواية ذلك المبعوث ، وأمر باقتياده وضرب عنقه بالسيف فورا جزاء "تخويفه المسلمين وترويعه لهم" .

ومع أن الملك استطاع إلى حد ما أن يسكت مخاوف المجتمعين ، إلا أنه لم يستطع التخلص من مخاوفه الشخصية . وربما كان من الأفضل له أن يوفد سفيرا إلى المصرى ، يتفاوض معه على السلام تحاشيا للخطر قبل فوات الأوان ، ولكن الملك لم يستطع بعد العثور على من يمكن أن يضطلع بمثل هذه المهمة ؛ فقد تراجع جميع الحاضرين ، خوفا على أنفسهم ، ولم يكن خوفهم بلا مبرر ، فقد شاهدوا بأنفسهم مصير المبعوث الأول . وفى النهاية تقدم أحد الحاضرين للاضطلاع بهذه المهمة ، ولكن بشرط أن يسمح له سلفا أن يقرأ محتويات الرسالة التى سيحملها - وهذا تحوط حكيم ، وتمت مناقشة جميع الأمور المتعلقة بهذه المهمة .

كان عبد الله قد كتب ، بالطريقة الوهابية ، على قصاصة مربعة من الورق القذر بنى اللون ، رسالة قصيرة غير لائقة تماما لإبراهيم باشا . وقد تضمنت هذه الرسالة بعد البسملة ما يلي: "نحن ، عبد الله بن سعود ، نحى ، إبراهيم باشا" . دون ألقاب ، أو مجاملات ، أو مقدمة ، ثم أتبع ذلك بسلسلة من النصائح الحكيمة ؛ واستشهادات من القرآن ، وعرض بارد بالصدقة ، شريطة أن يبقى كل طرف من الطرفين فى مكانه حيث هو ، يضاف إلى ذلك ، أن الكبرياء الوهابى يحول دون الدخول فى المفاوضات بغير هذه الطريقة . ولكن المبعوث بعد أن طلب الاطلاع على هذه الرسالة غير الدبلوماسية ، وبعد أن قرأها ، ألقاها جانبا وقال : "إن حملى لهذه الرسالة يساوى قطع رأسى تماما . وينبغى أن تتركنى أنا أكتب الرسالة باسمك أنت ؛ وبهذه الطريقة يمكننى أن أحمل الرسالة ، أما غير ذلك فلا" . وأجاب عبد الله ، الذى كان يعرف أن مسألة المبعوثين أمر نادر ، قائلا : "أكتب" . وسأل سفير المستقبل الملك عبد الله قائلا : "ولكن هل تضمن لى سلامتى بوعده حقيقى منك وهل تضمن لى أيضا أن أكتب ما أرى ؟" وأعطاه الملك عبد الله وعداً . وبناء على هذا الوعد طلب ذلك النجدى الذى خبر الأسفار الطويلة ، وعرف عن الدنيا وأحوالها أكثر من سيده الذى تربى فى القصور ، إحضار ورقة بيضاء كبيرة ، وبرى ريشة ممتازة . ثم قام بعد ذلك بكتابة بضعة أسطر بخط يده ، كلها من قبيل التحية والمجاملة ، وتلك هى الديباجة الشرقية المعتادة فى الرسائل الرسمية ؛ وأغدق سفير المستقبل ، على الكافر المصرى ألقاب "السيد ، لورد ، حاكم" .. الخ - وهذه كلها من قبيل الوثنية فى نظر الوهابيين إذا ما أطلقت على أى إنسان غير الخالق . وتلى ذلك عرض بالصدقة والتحالف ، مغلف بعبارات يستشتم منها الخضوع والإذعان ، ولا يشتم منها المساواة والتهديد والوعيد ؛ وأنهى السفير رسالته بالتماس بتواضع يقول فيه : "سيدنا (إبراهيم باشا) هل تتفضلون بقبول - هكذا كتب السفير على مسئوليته - بقبول الهدايا المصاحبة لهذه الرسالة .

وبعد أن انتهى المبعوث من كتابة الرسالة سلمها إلى الملك . وتعجب المستبد قائلا : "والله ، لولا أننى أقسمت ووعدت بسلامتك ، لدفعت حياتك ثمنا لهذا الكفر" . وعلى كل حال ، لم يكن هناك مفر من ذلك ، وختم عبد الله الوثيقة الكريهة ، وأضاف إليها هدية عبارة عن ستة خيول رشيقة من الخيول النجدية . وبعد أن تزود السفير بالرسالة والهدية شق طريقه فى اتجاه الغرب .

وعبر السفير من جده إلى القصير في مصر ، التي التقى فيها ، قبل أن يقطع مسافة كبيرة داخل البلاد ، الجيش وعلى رأسه إبراهيم باشا ، متجها من القاهرة صوب البحر . وانتظر مبعوث الملك ثلاثة أيام قبل أن يلتقى إبراهيم باشا . وسمحوا له في اليوم الرابع بلقائه .

وقال له إبراهيم باشا بلهجته القاهرية العامية التي لم يتخلَّ عنها طوال حياته : "حسن ، أيها الرجل ، ما الذي أحضرته لنا من كلب نجد سيدك ؟" . وقدم السفير الرسالة التي يحملها . وتناول الباشا الرسالة ، وحملق بعينه في محتوياتها ، وانفجر في ضحكة تشبه ضحكة الحصان .

"وعليه - سيدي ، ومولاي ! خادمك المطيع ! يا ولد " (ناظرا إلى الخادم) ، أحضر الرسالة التي وصلتنا قبل أربعة أيام من السعدون ، كلب عسير" .

وأحضر الخادم الرسالة . كانت الرسالة عبارة عن إعلان بالخضوع وتوكيد للولاء ، في حين أضاف إليها رئيس عسير ، من باب إخلاصه للباشا ، تلك الملاحظة التي كان الملك عبد الله بن سعود قد أرسلها له منذ فترة قصيرة .

قال إبراهيم باشا : "اسمع ما يلي ، يا خنزير" وراح يقرأ بصوت مرتفع الوثيقة الوهابية الثانية ، وهو يوزع لعناته على الخط النجدي : "بسم الله الرحمن الرحيم ، نحن عبد الله بن سعود ، نحیی ابن السعدون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد : لا يَخْدَعُكَ حمار مصر ولا نهيقه ، لأنه لا يستطيع أن ينفعك أو يضرك في شيء ، ونحن بمشيئة الله سنكون المنتصرين ، وأنا أقول لك : احذر تباهي الكفار ؛ خزايم الله ، لأنهم هم الخاسرون بكل تأكيد ، ونحن على استعداد لمساعدتك بالراكبين والراجلين ، والنصر من الله ، والنصر قريب ، والسلام عليكم ورحمة الله" .

وهنا أيقن النجدي أنه لم يعد هناك مجال للاعتذار أو الدبلوماسية ، ولذلك لم يحاول اللجوء إلى أي منهما ، ولكنه اصطحب معه خيوله وأبحر ثانيه من القصير ، ومنها إلى جدة على وجه السرعة .

وعندما وصل المبعوث إلى جدة ، بدأ يفكر في الطريقة التي يمكن أن يظهر عليها في الدرعية بعد ذلك الصدم ، والرد الذي يحمله : فالرد ينطوي على ما يطيع بمائة رأس بدلا من رأس واحدة . وعلى كل حال ، فإن العربي الحقيقي لا يعدم وسيلة في إيجاد

الذرائع . وباع المبعوث الخيول ، التي كانت مقدمة قربانا للسلام . بسعر طيب ، واشترى بثمن الخيول اثني عشر عبدا نوبيا ، ألبسهم جميعا لباسا أنيقا ، ثم اصطحبهم معه على الطريق إلى داخل البلاد ، وراح يشيع في كل مكان يصل إليه أن هؤلاء العبيد هدية من إبراهيم باشا إلى سلطان نجد ، وقربانا للتحالف والصداقة ، بل إشارة إلى الخوف .

ويصل المبعوث إلى الدرعية بهذا المظهر ، ويدخل المدينة خلال فترة العصر ؛ وبالتحديد عندما كان المؤذن يرفع أذان العصر . وقصد المبعوث الجامع الكبير ومعه هذا العدد من العبيد السود الذين يرتدون ثيابا أنيقة ، ثم انضم إلى المصلين ؛ كان الملك عبد الله يصلي في الصف الأول ، وكان المصلون على وشك الدخول في الصلاة . وعندما دخل المبعوث إلى الجامع ، اتجهت إليه وإلى العبيد السود جميع الأنظار ، وأثبتت الرغبة أنها أم الفكر ، واستخلص الجميع بما فيهم عبد الله نفسه ، نتيجة واحدة مما شاهدوه . وسرت خلال هذا الجمع مهمة كبيرة مثل مهمة البحر : " لا إله إلا الله ! الله مع المسلمين ، العظمة لله وحده ؛ الحمد لله " وبرغم أن عبد الله كان أكثر ابتهاجا ، في قرارة نفسه من أي إنسان آخر ، بتلك الأخبار الطيبة المرتقبة ، إلا أنه فرض الصمت بإشارة من يده ، وأدى الجميع الصلاة . وبعد أن انتهى المصلون من أداء الصلاة استدعى الملك مبعوثه ليحكي أمام الجمهور المحتشد عن مهمته والهدف منها وما أسفرت عنه .

قال المبعوث إن العاهل المصري استقبله استقبالا طيبا ، وأنه منزعج لحب نجد للحرب وبسالتها فيها ، وأنه قبل الهدايا المقدمة بكل سرور ، وأنه قابل تلك الهدايا بهدية العبيد الموجودة أمام الجمهور ، وأعلن عن صداقته وأكد تحالفه ، وأشياء أخرى كثيرة ؛ وبذلك تكون هذه الكذبة الهائلة التي جاءت في وقتها ، قد انطلت على كل من الملك والشعب . ويردف الملك عبد الله بعد أن ينتهي المبعوث من سرد الأخبار الطيبة التي اختتمها الجمهور بقول : " الله أكبر " ، يردف قائلا : " دعونا نطلع على رسالة الكافر " . ولكن المبعوث أعطى إجابة مفادها أن الرسالة تشتمل على أمور تحتم أن يطلع عليها مجلس خاص فقط ، والتمس إلى الملك عبد الله أن يؤجل ذلك إلى الوقت المحدد . ويوافق الملك الذي كان رائق المزاج بشكل غير عادي ، على التأجيل ، ويصطحب المبعوث معه ، ويتحرك على الفور داخلا إلى القصر ، ومن حوله وزراؤه وحاشيته ، ومن خلفهم العبيد في المؤخرة .

وبمجرد أن دخل الملك عبد الله الديوان ، طلب الرسالة المزعومة من المبعوث للمرة الثانية . ورد عليه الدجال قائلاً : "إنها ذات طبيعة سرية جداً ، وأنها لا يمكن أن يراها أو يسمعها أحد غيرك" . واضطر عبد الله ، الذي اعتراه شيء من الدهشة ، أن يخرج مستشاريه من الديوان .

وهنا قال المبعوث الذي اضطر في النهاية أن يمسك بالثور من قرنيه : "لم أحصل على أي رد على مقترحاتك غير ذلك الرد الذي سوف يعطيه لك إبراهيم باشا بنفسه في الدرعية . وبعد كل ذلك ، إذا كنت رجلاً بحق ، فعليك بالاستعداد للحرب" . ثم كشف المبعوث بعد ذلك للملك عبد الله عن كل ما شاهدته وما سمعه ، واعتذر له عن الخداع المؤقت الذي لجأ إليه تحاشياً لتثبيط الهمم ومنعاً للذعر من أن يعرف طريقه إلى العاصمة . وينتهي المبعوث حديثه قائلاً : "ولكن الخطر محقق ، ولا بد أن تتوقع شن حملة على نجد نفسها" .

ولم يكن أمام الملك شيء سوى أن يشكر لخادمه مهارته ، وصرفه ورأسه على جسده . وكرس عبد الله نفسه لاستدعاء وحشد كل القوات الموجودة في الإمبراطورية ، وصمم على انتظار عدوه بهذه القوة ، عند مداخل الممرات النجدية الداخلية بالقرب من الكويج 'Kowey' ، وهي المنطقة التي يدخل عندها طريق مكة إلى وديان التيه في الطويق ، قبل أن يصل الطريق إلى وادي حنيفة وقلب نجد . وظن عبد الله أن قواته الجديدة والكاملة ، سوف تدافع عن بلادها على ترابها الوطني ضد عدو سيصل منهاك ومرهقا ومنزعجا من عبور الصحراء الفاصلة ، وربما تقل قوة اندفاعه وتتحطم وينقص عدد قواته بسبب حرب العصابات التي يشنها عليه البدو والقرويون الذين ينتشرون على خط سيره . ولم يكن هناك أي شك في أن حسابات الملك عبد الله كانت على قدر كبير من المهارة والحدق ، وربما أصابت نجاحا مع مهاجم أقل حنكة ومكرا من إبراهيم باشا .

ولكن إبراهيم باشا كان قد بدأ تطبيق خطته الخاصة ببطى السجادة العربية ، واثبت بالحقائق وليس بالنظريات ، مدى خطورة الحملات التي قام بها كل من قمبيز Cambyses وكراسوس Crassus ، بل ونايليون ، وذاع صيتها بشكل مؤسف ، وأنها كانت وبالأعلى من قاموا بها سواء أكان ذلك في سكاثيا السفلى ، أم في الصحراء السورية . أو حتى بين ثلوج روسيا . وجدير بنا أن نسجل هنا الأسلوب والطريقة التي لجأ إليها إبراهيم باشا في شن هذه الحملة ؛ وهذه الحملة تعد مثالا جيدا على

العمليات الحربية التى تجرى فى أسيا ، وبخاصة عندما تشن هذه العمليات على نطاق واسع . وفى العمق والمناطق الداخلية .

وبعد أن عبر إبراهيم باشا البحر بقواته ووصل إلى جده ، استسلم له ابن سعيون رئيس جبل عسير ، وتقدم إبراهيم باشا على رأس قوته الرئيسية عبر الوادى الرملى الطويل الذى يصل بين مكة ونجد ، تاركا صحراء النفود على يساره فى منطقة القصيم ، وذراع جبل طويق المنخفض (يطلق عليه فى بعض الأحيان اسم جبل العارض) عن يمينه ، وبذلك يصبح مساره بعيدا عن أذى جبل الدواسر وسكانه المتشددين . ولم يكن أمام إبراهيم باشا فى ذلك المسار من يواجهه أو يشتبك معه سوى سكان القرى المبعثرين هنا وهناك ، وغير مسلحين تسليحا جيدا من ناحية ، وكذلك قبائل حرب ، وعتيبة ، وعنزة وقحطان البدوية ، فى حين كان يجرى الحصول على الماء بشكل يومى ، وفى أضعف الأحيان ، من الآبار التى توجد على مسافة مسيرة زمنية تقرواح بين أربعين وخمسين ساعة ، فى المسار نفسه .

ويتقدم إبراهيم باشا ، فى ذلك المسار على شكل صديق وليس على شكل فاتح . فقد كان إبراهيم باشا يدفع فورا ثمن كل دلو من الماء الذى كان السكان يقدمونه للقوات ، كما كان يدفع على الفور أيضا ثمن كل ثمرة ، وكل عود حطب يقدمه السكان لقواته ، ومنع إبراهيم باشا ضباطه وجنوده منعا قاطعا من إهانة أو استئثاره السكان العزل المستسلمين ، بأى شكل من الأشكال . وراح إبراهيم باشا يتجاوز قرية بعد أخرى ، وقبيلة إثر أخرى من القبائل التى أصابها الخوف والفرع من ذلك العرض العسكرى ، الذى انجذبوا إليه على أمل تحقيق الأرباح والمكاسب ؛ وتأثرت هذه القرى وتلك القبائل بالفارق الكبير بين النظام المتحضر والحماية الوهابية الوحشية المهينة ، مما جعل هذه القرى وتلك القبائل تدين بالولاء للقائد المصرى وترفض الحكم النجدى . ورحب إبراهيم باشا بالمستسلمين ، بغض النظر عن نوعياتهم أو عشائريهم ترحيبا طيبا ومشرفا . وبقيت هناك أقلية رفضت أن تستبدل حكومة "المسلمين" بسيادة "حمار مصر" . ولم يلجأ إبراهيم باشا إلى استعمال العنف المباشر مع هذه الأقلية ، ولم يسفك دم أى إنسان ، وكل ما فعله إبراهيم باشا مع تلك الأقلية ، كان عبارة عن إصدار أمر رحيم منه إلى هؤلاء السكان بترك مساكنهم ، وأن يسبقوه إلى وسط نجد ؛ وقال لهم ، فى تهكم شديد ، اذهبوا إلى هناك "كى تزيدوا من حجم جيوش المؤمنين" ،

ولكن إبراهيم باشا كان يرمى ، من وراء ذلك ، إلى استنفاد موارد الملك عبد الله من ناحية وإحباط شجاعته عن طريق عبء إضافي من خليط مشترك من البشر الذين لا نفع فيهم ولا طائل من ورائهم . واندفعت العشائر البدوية بلا استثناء تحت لواء الباشا عندما عرض عليهم تقديم المقابل المالى ومقدارا كافيا من التبغ لجميع البدو ، مقابل توفير الجمال لنقل الماء وإرشاد القوات على الطريق . وبذلك يكون الباشا قد "طوى نجد" ، كما يقول التعبير العربى ، خطوة بخطوة ، وأخذ يتقدم فى سهولة ويسر نحو المرتفعات الوسطى ، بلا متاعب ، مع تأمين احتياجات الجنود ، ودون أن يخسر أو يهدر قطرة دم واحدة على الطريق ؛ وخلف إبراهيم باشا وراءه اتصالات آمنة مع الشاطىء ، وحلفاء مواليين له ، وساق أمامه جمهورا جائعا ، لا نفع منه ، كما ساق أمامه أيضا الرعب والفرع الذى ينتج عن اتحاد القوة مع كل من الانتظام الكامل والاعتدال من جانب السلطة الواعية .

وبالقرب من الكويج 'Kowey' اصطدم إبراهيم باشا بمواقع الجيش النجدى الأمامية أو أن شئت فقل الحامية الأمامية . كان الملك عبد الله قد أرسل مبعوثا إثر مبعوث لمهادنة الغازى أو تحاشيه ؛ ولكنه حصل على رد واحد على جميع العروض التى تقدم بها ، مفاده أن ذلك كله سوف يسوى "فى الدرعية" . ولكن ابن سعود ، برغم كل عيوبه ، لم يكن جبانا ؛ فقد قرر أن يدافع عن مداخل جباله دفاعا ضاريا ، ويكلف من يدخلها ثمنا غاليا . وسرعان ما اجتاحت الطواوير المصرية المواقع النجدية الأمامية ، واستطاع إبراهيم باشا بعد قليل من الاشتباكات الوصول إلى شقراء ، إحدى المدن التجارية مثلما هى عليه حاليا ؛ وفتحت شقراء بواباتها للباشا طواعية واختيارا . ولكن على بعد فراسخ قليلة من شقراء كانت تتمركز فى القرين K.oreyn قوة نجد الرئيسة وعلى رأسها الملك عبد الله نفسه ؛ فى حين كان الحارث ، الذى لا يقهر يتولى منصب القائد الثانى ، الذى ورد ذكره فى الأثر على أنه أشرس القادة الوهابيين القدامى والمحدثين قاطبة .

ودارت فى القرين معركة ، أعادت إلى الأذهان تلك المعركة التى دارت بين خالد بن الوليد ومسيلمة . ويقال أن هذه المعركة دامت يومين ، وأن مدفعية الميدان المصرية حسمت تلك المعركة لصالحها فى مساء اليوم الثانى . وقيل إن الحارث ومعه حملة الحراب اخترقوا صفوف العدو ، ووصلوا إلى الباشا نفسه ، ولكن عندما رفع النجدى

سيفه لينهى الحرب بضربة واحدة ، جاءه تركى من الخلف ، أثناء القتال ، وضربه بسيفه الضالع فى خاصرته ، سقط الحارث على أثرها ، ميتاً من فوق حصانه ، ومع ذلك واصل رفاق الحارث القتال بلا خوف إلى أن فصل حلول الليل بين المتحاربين . ويقال أن أحلام إبراهيم باشا ، ظلت لفترة طويلة ، يسيطر عليها كابوس ذكرى ذلك الخطر المحدث الذى كاد أن يودى بحياة إبراهيم باشا فى ذلك اليوم ، وقيل أيضاً أنه ظل ، طوال عدة سنوات ، بعد ذلك ، يصحو من نومه وهو يردد اسم الحارث .

وفى النهاية ، أدت المدفعية التى كان قد تم سحبها إلى إحدى المرتفعات الحاكمة ، الدور المطلوب منها . وانسحب عبد الله مع قواته المدحورة ، ليتخذ لنفسه مواقع فى الدرعية ، وأصبح وادى حنيفة مفتوحاً أمام المصريين . ويتقدم المصريون بحرص بالغ ، بعد أن نشروا بعض القوات لتأمين الطريق ، ويصلوا فى النهاية إلى أبواب العاصمة .

وجرى اقتحام الدرعية على الفور ، ولكن حاميتها صدت ذلك الهجوم . ونظراً لأن سياسة إبراهيم باشا بعيدة النظر ، كانت تتحاشى سفك الدماء ، فقد أصدر أوامره بعدم تكرار الهجوم ، واكتفى بتوزيع قواته من حول أسوار المدينة ، ليقطع اتصالاتها الخارجية ، وراح يدعو أهل المدينة للاستسلام . ولم يتجاوب أهل الدرعية مع نداءات إبراهيم باشا . وحاصر المصريون المدينة عشرين يوماً دون أن يطلقوا أو تطلق عليهم طلقة واحدة ، والسبب أن الوهابيين قرروا المحافظة على قوتهم كاملة استعداد للهجوم الحاسم ، ولم يقوموا بأى هجوم ، أو الرد بأى شكل من الأشكال والتزموا الصمت إزاء نداءات إبراهيم باشا لهم بالاستسلام . وفى الوقت نفسه تجمعت قوة وهابية احتياطية فى سدير ، وتوجهت لفتح حصار العاصمة . وعلم إبراهيم باشا بتحريك هذه القوة ، وأرسل مفرزة قوية لمواجهة تلك القوة والهجوم عليها ، والتقت هذه المفرزة مع تلك القوة فى سدوس ، وانتصرت عليها بسهولة ويسر ، وتشتت السدايرة ومعهم آخر آمال الملك عبد الله فى الإسعاف والمعاونة . وبعد ذلك ، وفى اليوم الحادى والعشرين ، أصدر الباشا للمحاصرين إنذاره الأخير بالاستسلام المشرف أو عن طريق الهجوم ، إيماناً منه أن سوء الطالع الأخير لابد وأن يكون قد أثر على كبرياء الملك النجدى ، وبالتالي يضطره إلى قبول العرض الرحيم المقدم من الباشا . ولكن الملك عبد الله ، لم يستسلم رغم كل ذلك ، وعاد المبعوث بلا أى رد أو جواب . وأصدر إبراهيم باشا أوامره بنصب المدفعية حول العاصمة .

ومع غروب الشمس بدأ ضرب العاصمة بالدفعية ، واستمر القصف طوال الليل وحتى شروق شمس اليوم التالي . ويقال أن المدفعية ضربت العاصمة المتدنية بستة آلاف دانة وقذيفة ، فى تلك الليلة . ويطلع النهار وقد انهارت الجدران ، والقذائف تنهال على أكوام الحطام التى انهارت على من ماتوا ومن لا يزالون يعانون سكرات الموت تحت أنقاض منازلهم التى تنهار عليهم ، وعلى الباقين على قيد الحياة الذين لم يعد لهم حول ولا قوة .

دخل إبراهيم باشا الدرعية بلا تفاوض أو معارضة . وكان همه الأول إلقاء القبض على عبد الله وأفراد أسرته ، وحاشيته والرؤساء والأعيان الآخرين الذين تجمعوا داخل العاصمة . وإذا كان الجنود قد قتلوا القلة القليلة التى قاومت ؛ فقد أحنّت الغالبية رأسها امتثالاً لمشيئة الله واستسلمت . وأسر إبراهيم باشا أيضاً كلا من علماء الدين ، وكبار أفراد العائلة الوهابية الكبيرة ، كما أسر أيضاً القاضى والإمام والمطوع وكل أولئك الذين كانوا يشكلون قوة تلك الجماعة العقائدية ووضعهم جميعاً تحت حراسة مشددة . ثم أصدر الباشا عفواً عاماً شمل بقيه السكان الآخرين ؛ وباستثناء ساعات تعد على أصابع اليد الواحدة ، من السلب والنهب ، أصدر إبراهيم أوامره إلى الجيش المنتصر بتجنب العنف بكل صورته وأشكاله . كما أصدر فى الوقت نفسه أوامره بتشديد الحراسة على الشوارع التى تربط المدينة بالجبل ، ومراقبتها مراقبة جيدة . ولم تغلج فى الهرب ، أثناء المراحل الأولى من الاستسلام ، سوى قلة قليلة من المواطنين ، كان من بينهم الأمير تركى ، أكبر أبناء الملك عبد الله ، وولى عهده .

وبعد أن انتهى كل شئ ، وبعد التحوط من سكان المدينة الذين بقوا على قيد الحياة ، والتحوط من أخطار تشددهم ، لجأ إبراهيم باشا إلى السهل الموجود خارج أسوار المدينة ونصب فيه خيمته ، وأصدر أوامره بإحضار عبد الله ومعه كل أقاربه . وبدون تهديد أو وعيد أو لوم قال إبراهيم باشا لـ عبد الله : "أنا خادم سلطان القسطنطينية ، وهو الذى سيقاضيك ، وليس أنا . وفى الوقت نفسه ، وانتظارا للمزيد من رضاه ، سوف تصحبني إلى مصر ، التى ستعامل فيها معاملة كريمة ؛ وبعد أن تصدر أوامر السلطان ، يتعين عليك الانصياع لها". ولم يجب عبد الله سوى بعبارة قرآنية واحدة والانصياع . وتصرف إبراهيم باشا بنفس الكياسة واللين مع بقية أفراد الأسرة المالكة، ومع كل أولئك الذين كانوا يقومون على أمر السلطة المدنية والعسكرية . ولم يقتل إبراهيم باشا أحداً منهم أو يسيئ معاملتهم طوال مقامه فى نجد .

وفى الوقت الذى كان إبراهيم باشا يحاول فيه إلحاق قوة تلك البلاد الفطرية على حكومته ، كان يود أيضا ، وللأسباب نفسها ، استئصال ذلك التشدد الذى لا يناسب استقرار تلك الحكومة. إن القومية النجدية يمكن أن تقف إلى جانب النظام، والتجارة ، والتقدم ؛ ولكن التعصب النجدى يستحيل أن يفعل ذلك ؛ بل إن هذا التعصب سيظل بمثابة البذور الضارة للتمرد والعصيان اللذين لا ينتهيان . وهنا قرر إبراهيم باشا إنهاء كل ذلك مرة واحدة وإلى الأبد .

وبعد أن أمر إبراهيم باشا بوضع الأسرة المالكة وحاشيتها تحت الحراسة المشددة الكريمة ، أمر بإحضار المطوع ، وعلماء الدين ، وأساتذة الشريعة : ويقال أن عدد هؤلاء كان يزيد على خمسمائة فرد . وأبلغهم أنه يود تحديد الفروق الدينية التى بينهم وبين أتباع محمد (ﷺ) المعتادين وأن تناقش هذه الفروق وتدرس دراسة مستفيضة ؛ وأبلغهم أيضا أنه أحضر معه ، من أجل هذا الهدف ، علماء كبارا من علماء الدين فى مدرسة القاهرة ، وأنه سوف يعقد فى الجامع الكبير مؤتمرا بهذا الخصوص ، وأنه سوف يحضر هذا الاجتماع ليرى ويستمع إلى ما يدور ويجرى حول هذه القضية .

وبطبيعة الحال فإن دعوة المنتصر لا ترد ولا يلتمس لها عذر وعليه بدا مجلس الرياض يستأنف جلساته ، ودامت هذه الجلسات ، إن صحت الرواية ، ثلاثة أيام ؛ ناقش أعضاء المجلس خلالها نقاط الخلاف مناقشة مستفيضة ، ومما لاشك فيه ، أن كل طرف من الطرفين حقق الانتصار الكلامى فى رأى مؤيديه ، وترأس إبراهيم باشا ، الذى لم يكن يهتم مثل جاليليو بهذه المشاعر ، هذه الجلسات ، وصبر عليها كثيرا ، بل إنه كان يصغى إليها باهتمام وصمت فى بعض الأحيان .

ولكنه فى اليوم الرابع ، وسواء أكان صبره قد أوشك على النفاذ ، أم لأنه كان يظن أن الجدل قد وصل إلى مرحلة تتطلب تدخله ، فقد طلب إبراهيم باشا الكلمة ؛ وبعد أن حصل من علماء الدين النجديين على الإعلان الدينى ، الذى يشيع بين من لا ينتمون إليهم ، والذى مفاده "بما أن هناك إله واحد ، فبالتالى لا بد أن يكون هناك أيضا إيمان واحد ، وأن هذا الإيمان هو إيماننا" ، وكننتيجة منطقية لهذه المقولة يصبح الخلاص خارج نطاق حدودهم أمرا مستحيلا تماما ، ويواصل إبراهيم باشا جدله بلهجته العامية المصرية المعتادة ويقول :

"حسن ، وماذا تقولون عن الجنة أيها الخنازير ؟ ما هى حدودها ؟" وأتباع محمد (ﷺ) يجيبون عن هذا السؤال ، بإجابة واحدة فقط ، تتمثل فى كلام القرآن ، 'جنة عرضها السماوات والأرض ، أعدت للمتقين' . وأجاب النجديون بالإجابة نفسها .

وكرر إبراهيم باشا الآية نفسها قائلا: تقولون "جنة عرضها السماوات والأرض !" وأردف قائلا : "وإنكم ، أنتم النجديون ، فى الوقت نفسه ، إذا ما دخلتم الجنة برحمة من الله ، فإن شجرة واحدة ، من أشجار بساتينها تكفى لتظلكم جميعا ! إذن لمن تكون بقيه الجنة ، جزاكم الله خيرا ؟"

ويصمت النجديون . وينادى إبراهيم باشا على الجنود الواقفين خلفه ويقول : "امسكوهم ، واقتلوهم" . ويتحول جامع الدرعية خلال دقائق معدودات إلى قبر دموى للمذهب الوهابى .

وأنا لن أقول هنا أن إبراهيم باشا تصرف تصرفاً سليماً فى تلك المناسبة ؛ وإنما أؤكد أنه تصرف تصرفاً حكيماً ، مع هذه البلاد على أقل تقدير . فالتسامح مع الجماهير يكون من قبيل الصواب والحكمة^(١) ؛ ولكن التسامح مع المتعصبين والمتحمسين والمسيئين ، ربما يكون من قبيل الصواب ، ولكنه بكل تأكيد ليس من قبيل الحكمة . وأستطيع أن أزيد هنا أن التشجيع الإيجابى المطلق للمناهج والعقائد التى تتعارض مع الهدوء ، والاستقرار والصحة والتقدم الوطنيين لا يكون من قبيل الصواب أو الحكمة ؛ وهذا الكلام ينطبق على الشرق بكل تأكيد . ولكن هيا بنا نعود إلى سياق موضوعنا .

بعد أن - وأنا هنا اقترض التعبير العربى - جعل إبراهيم باشا سكان الدرعية يتجرعون "كنوس حالوته وكنوس مرارته" ، أقبل على فعل عمل بارز ، إن لم يكن فريداً بين أعمال كل من جاءوا قبله ومن جاءوا بعده فى الشرق ، إلا وهو التوحيد والدعم والتقوية بعد الغزو . قام إبراهيم باشا شخصياً بزيارة المناطق المجاورة ، وسار فى جميع الأماكن التى زارها ، على نفس الخط السياسى الذى انتهجه أثناء تقدمه من مكة ، والذى انتهجه أيضاً فى العاصمة ، والدرعية ، كان يسترضى الرؤساء الوطنيين ويستميلهم ويعاملهم برفق ، هم وعامة الناس ، فى حين كان يلتزم الشدة والقسوة مع القائمين على إمبراطوريته العتيدة الدينية ، كما كان يعمل من أجل توفير النظام

(١) هذه النتيجة التى خرج بها المؤلف خاطئة مائة فى المائة ، لأن غزو الأمنيين فى أوطانهم بغير حق جريمة فى الشرع ، وقتل المتمسكين بدينهم وبسنة نبيهم جريمة أكبر ، فإبراهيم باشا هو فى الحقيقة فئة باغية ، لأنه نازع الأمر أهله ، ولا تملك إلا أن تقول يرحم الله أهل الدرعية وأنزلهم منازل الشهداء المخلصين - (د. حلمى عبد المنعم)

والتقدم ، وسداد الحقوق ، وتحقيق العدل للجميع . ويجب ألا ينصرف ذهن القارئ إلى أنني أثنى ثناء خياليا على ذلك الباشا العظيم ، يجب أن يعلم القارئ إننى أعيد هنا ذلك الذى سمعته فى نجد ، وفى الأراضى التى غزاها إبراهيم باشا . وهناك نقطة واحدة فى إدارة إبراهيم باشا الحكيمة ، أعترف بأنى كنت شاهد عيان عليها وعلى النتائج التى ترتبت عليها . كانت هذه النقطة تتمثل فى اهتمام إبراهيم باشا اهتماما خاصا بتحديد النقاط القوية فى هذه البلاد وتحصينها تحصينا تاما ، وأنها عند المدخل الغربى لوادى حنيفة ، وفى حريملاء فى المرتفعات الوسطى فوق الدرعية ، وفى أماكن أخرى كثيرة . كما أرسى إبراهيم باشا ، فى الوقت نفسه أساس التقدم الزراعى ، بأن أمر بحفر آبار جديدة فى الأماكن التى يحتمل وجود الماء بها ولكنها لم تستغل بعد . وقد فشلت جهوده فى هذا الصدد ، فى تلك العملية كما سبق أن أوضحنا؛ وسوف نلاحظ تذكارا مماثلا من تذكارات المشروع المصرى فى وادى فاروق . وشاع فى الوقت نفسه استعمال الملابس الحريرية ، والخواتم الذهبية ، وانتشر استعمال التبغ فى نجد ، وجاء ذلك بمثابة دليل وبرهان محزن على ضعف البشر ، بمعنى أن السنوات المتواصلة من التقوى والتشدد الدينى لم تفلح تماما فى استئصال النتائج السيئة التى ترتبت على فترة قصيرة من الحرمان من الملذات والأهواء الذاتية .

انشغل إبراهيم باشا بهذه الأمور طوال عدة أشهر فى نجد ؛ وعند عودته إلى القاهرة اصطحب معه عبد الله والجزء الأكبر من أسرة ابن سعود ، علاوة على عدد كبير من الرهائن الذين اختارهم من بين كبار أعيان البلاد . وكان إبراهيم باشا ، يرمى من وراء ذلك الإجراء الذى لجأ إليه مؤخرا ، إلى هدف محدد ، يتمثل فى تنشئة رجال جدد ، لـ نجد ، يكون تعليمهم أفضل ، ورؤاهم أوسع من ذلك التعليم الذى تتيحه لهم بلادهم ، وبذلك يكون إبراهيم باشا قد مهد الطريق أمام هذه البلاد للمضى قدما على طريق التقدم الحقيقى والمستمر . وخابت آمال إبراهيم باشا نتيجة لحماقة وعجز أولئك الذين جاعوا من بعده ، وعناد الشخصية النجدية من الناحية الأخرى . وبعد أن غادر إبراهيم باشا الدرعية ، خلف وراءه ، مثلما تفعل تلك القلة القليلة من الغزاة مع الشعوب المغزوة ، إحساسا بالثقة ، والانتماء ، والخوف ، الممزوج بالإعجاب القائم على الاحترام ؛ وإلى يومنا هذا ، لا يزال اسم إبراهيم باشا واسم عائلته شائعا فى كل أنحاء وسط الجزيرة العربية بين جميع سكانها ، باستثناء أولئك الذين يبالغون فى تعصبهم وفى تشددهم ، ويخشون حدوث زيارة مصرية ثانية يعقبها انعقاد مؤتمر عقائدى من قبيل المؤتمر الأول الذى انعقد فى جامع الدرعية الكبير .

وعندما غادر إبراهيم باشا نجد، ترك واحداً من ضباطه ، اسمه إسماعيل باشا ، ليقوم بدور النائب المُنَّاب في هذه البلاد . وشغل إسماعيل باشا ذلك المنصب طوال عامين ، زار خلالهما الاحساء ، التي فرحت فرحا عظيما لتخليصها من نير الوهابيين ، كما زار أيضا كلا من اليمامة ، والحريق والقصيم ، وراح يوزع الحاميات المصرية في كل مكان. ولكن إسماعيل باشا، بدأ ، على العكس من ولد محمد على ، يشبع رغباته ، وسمح لضباطه بأن يشبعوا رغباتهم من منطلق أنهم غزاة ، الوهابية إلى أن أدت هذه الصلافة وذلك القمع إلى إحياء الكراهية الوطنية القديمة - التي كانت قد هدأت مؤقتا بفعل اعتدال إبراهيم باشا وأضرت بالأسس التي تقوم عليها الحكومة المصرية - العربية .

وعلى أية حال ، لم تحدث خلال هذين العامين ، اضطرابات مهمة ذات بال ، ويعود إسماعيل باشا إلى مصر ، بعد انتهاء العامين ، بعد أن ترك وراءه خالد باشا ، في منصب الحاكم . واتضح أن الحاكم الجديد أكثر استبدادا وأشد قسوة من إسماعيل باشا نفسه . وقد أدت عقوبتا الإعدام على الخازوق والإعدام بالحرق ، اللتان أدخلهما خالد باشا إلى نجد ، إلى تفاقم غضب السكان واستيائهم إلى الحد الذي جعلهم مستعدين للإطاحة بذلك الاستبداد والطغيان المصرى . ولم يكن هؤلاء السكان يفتكرون إلى الوسائل أو الرجال اللازمين لتحقيق هذا الهدف .

سبق أن قلت : أن تركيا ، ولد الملك عبد الله ، كان قد أفلح (وأنا هنا أكرر ما قيل لى) فى الهرب من الدرعية لحظة الاستيلاء عليها . وهرب تركى إلى سدير ، ونظرا لأنه يئس من العودة إلى بلاده واستعادة العرش طوال وجود إبراهيم باشا وخلفه إسماعيل باشا فى نجد ، فقد أمضى عدة سنوات من حياته جاثلا على الحدود الخارجية للبلاد . وأخيرا وصل تركى إلى البصرة ، وبقي فيها ، أو فى المناطق المجاورة لها متتكررا فترة من الزمن . فى الوقت نفسه ، كانت كل الأخبار التى تصله تبث كل أماله المستقبلية . وفيما يتعلق بوالده، الملك عبد الله ، فقد استدعاه السلطان ، بعد فترة أسر قصيرة فى مصر ، (عامله محمد على خلالها معاملة طيبة) إلى القسطنطينية ، التى أعدمه فيها فور وصوله إليها . كما أمر السلطان أيضا بإيداع كل إخوانه وأقاربه ، مع من بقوا على قيد الحياة من العائلة الوهابية القديمة ، وكثيرا من الرؤساء ، البارزين فى السُّجُن المشدد فى مصر . ولم يعلن ، أى رد فعل ، عن نفسه فى نجد أو المناطق التابعة لها حتى ذلك الحين ؛ بينما راحت الحكومة المصرية تحكم قبضتها يوما بعد يوم على وسط الجزيرة العربية .

وفى ضوء الأخبار التى ذاعت عن قسوة خالد باشا وظلمه ، تعلم تركى كيف يتطلع إلى إحياء تلك المشاعر العربية القديمة ، التى لا يمكن أن تخمد إلى الأبد بأى حال من الأحوال ، برغم أن التصرفات الحكيمة من جانب المصريين قد تودى إلى التقليل من خطورة اندلاع الثورة . كانت نجد تشعر بالقلق ، وبحاجة إلى زعيم . كان ولد مليكها الذبيح ، الوريث الشرعى للعرش ، ما يزال طليقا على قيد الحياة ، ولكنه كان فى المنفى . وأُرسل المبعوثون إلى تركى ، الذى كان قد وصل إلى حدود سدير ؛ ولم يتردد الأمير المنفى لحظة واحدة فى قبول الدعوة التى وجهها إليه رعاياه . وسرعان ما أعلنت عصابات السلب والنهب ، التى كانت تنزل من جبل طويق ، هى والهجمات المفاجئة التى كانت تشنها على المواقع المتقدمة المصرية ، عن وجود الأمير تركى على حدود وادى حنيفه .

وأدى تغير الأحوال إلى إرباك خالد باشا ؛ وسمح خالد باشا فى البداية بتقسيم قوته ، مما أدى إلى تبديدها فى حرب العصابات ، التى كانت طبيعة الأرض ، ومساندة القرويين ، والسكان الوطنيين ، والإرادة القوية كلها لصالح الأمير تركى . وزادت خطورة الموقف يوما بعد يوم ، إلى أن حدثت فى النهاية انتفاضة عامة بين النجديين ، الذين كانوا قد تعلموا ليس كراهية سادتهم المصريين فحسب وإنما احتقارهم أيضا . واشتعلت المنطقة كلها من القصيم حتى شواطئ الخليج الفارسى . وهاجم الناس الحاميات الموجودة فى كل من الاحساء ، واليمامة ، والحريق وذبحوا أفرادها ، ولم ينج من الجنود سوى قلة قليلة ، عن طريق تعاطف الأفراد معهم ، وأفلحت قلة قليلة أخرى فى الهرب . وخشى خالد باشا ، وكان محقا فى ذلك ، أن يجد نفسه ، خلال فترة وجيزة ، معزولا عن مصر ومحاصرا فى وادى حنيفه . وهنا انسحب خالد باشا ومعه البقية الباقية من قواته إلى منطقة القصيم ؛ ونزل الأمير تركى إلى الوادى الأوسط الكبير ، ونادى به الجميع سلطانا على نجد ومجددا للإمبراطورية الوهابية .

كان هم تركى الأول اختيار عاصمة جديدة ، نظرا لأن حطام الدرعية المخضب بالدم وكذلك ذكريات الهزيمة تجعل هذه المدينة غير صالحة لإحياء أسرة مالكة جديدة وسطوع نجم جديد . وبحس سياسى سليم ركز تركى اهتمامه على الرياض ، مركز نجد قديما أيام مسيلمة ، والتى حمتها السماء حتى من سيف خالد بن الوليد^(١)

(١) كيف ذلك وقد انتصر المسلمون على بنى حنيفة وقتل مسيلمة وأعمل المسلمون السيف فى المرتدين أتباع مسيلمة حتى تم لهم النصر ، وعلا الحق ، وأندثر الباطل ومات مسيلمة مقتولا فى المعركة - (د. حلمى عبد المنعم) .

يضاف إلى ذلك أن الرياض كانت تصلح من جميع النواحي لأن تكون العاصمة ، فضلا عن إنها تقع وسط رقعة من الأرض التي تتمتع بخصوبة غير عادية ؛ والعيب الطفيف الذي يتمثل في عدم صحة مناخها يمكن التغاضي عنه في ظل اعتبارات وحسابات أخرى يأخذها السياسى العربى بعين اعتباره . وفى مدينته الرياض ، أسس الأمير تركى بلاطه الملكى ، وبدأ فى تشييد ذلك القصر الكبير الذى يسكنه حاليا ولده فيصل . ثم بدأ بعد ذلك فى تحصين المدينة ، وإنشاء المسجد الكبير ، أو إن شئت فقل الجامع . ونظرا لأن الأمير تركى ، كان يعى تماما أن التحمس للدين كان بمثابة المصدر الرئيسى لحكمه فى نجد ، وكان الذريعة الوحيدة التى تذرعت بها تلك الغزوات الاجنبية التى فكر فيها الأمير تركى وتأملها تأملا جيدا ، فقد راح يكشف عن نفسه ، فى جميع المناسبات ، على أنه المجدد الغيور على مذهب والده ، والباعث الجديد لامبراطوريته .

واعترف الناس بسلطة تركى كسلطان (ينذر استعمال مصطلح الإمام ، نظرا لكونه عرضة للغموض والمواربة ، وينطبق على المسجد أكثر من العرش) فى كل أنحاء العارض والوشم ، وسدير ، والافلاج ، إلى ، الحريق ، وفى وادى الدواسر ، وفى كل أنحاء المنطقة الوسطى على سبيل الاختصار . ولكن القصيم : العليا والسفلى ، كانت لا تزال فى قبضة خالد باشا ، فى حين انضمت التوابع الموجودة فى شمالى القصيم وغربها إلى السلطان الوهابى . وكانت الاحساء والقطيف قد طردتا الطغاة المصريين ، ولكنهما لم تكونا على استعداد لاستقبال حكام نجديين يحلون محل المصريين ؛ وراح الرؤساء الوطنيون يستأنفون من جديد سلطتهم السلفية على أراضى هاتين المنطقتين الخصيبتين . وفى النهاية كانت عمان قد عادت إلى سيادة سلطانها سعيد بن سعيد .

وبدأ تركى بداية حكيمة بأن أعاد تنظيم كلا من الإدارة المدنية والإدارة العسكرية داخل نجد نفسها ، ولكن أثناء انشغال تركى بهذه الأمور ، وقبل أن يحاول إخضاع مناطقه المتناثرة ، هبت عليه عاصفة جديدة من ناحيه الغرب ، التى أرسل محمد على منها جيشا جرارا بقيادة حسين باشا ، لاستعادة أملاك مصر فى الجزيرة العربية .

ونظرا لعدم قدرة ولد عبد الله على صد الهجوم الذى شنته القوات النظامية ، فقد قرر الانتظار والاستفادة من الأخطاء التى يقع فيها عدوه . وهرب تركى من الرياض ، ولجأ مع أنصاره الرئيسيين ، إلى مرتفعات طويق ، فى المنطقة خلف

حريملاء ، ومن هذه المنطقة راح يراقب تقدم المصريين خلال الوديان الجنوبية . وحقق حسين باشا نجاحا كاملا فى فترة من القترات ، وفتحت له المدن والقرى أبوابها ، واستسلمت له الحاميات النجدية أو تشتتت . وتجمع بعض الهاربين من حول تركى فى الجبال ؛ وعبر بعض آخر من الهاربين وبأعداد كبيرة ، منطقة اليمامة ، وركزوا قوتهم فى منطقة الحريق التى كانت تضرر ألد العداء للحكم المصرى .

وفى الوقت ذاته ، وفى غياب مقاومة تركى ، قام حسين باشا باحتلال الرياض ، وجزء كبير من وادى حنيفه ، وربما استطاع ذلك منذ فترة طويلة لو أنه كان قد تصرف تصرفا حكيما . ولكن تعجل حسين باشا جعله يسارع إلى سحق المعارضة كلها منذ البداية ، كما تهور أيضا وسارع بالهجوم على الهاربين فى منطقة الحريق ، مبقيا على تركى وسدير لحين عودته .

وتلى ذلك ، وقوع عمل من أعمال الخيانة المدروسة غير الشائعة فى نجد على الإطلاق ، ويندر أن تحدث فى بقية الجزيرة العربية ، ويصعب تبريرها حتى من منطلق قضية الاستقلال والتحرر الوطنيين . فقد كان من الطبيعى للجيش المصرى ، أن يتخذ لنفسه مرشدين ، قبل أن يصل إلى الحريق ، يدلونه على الطريق ، وبخاصة أن الجيش كان سيتعين عليه عبور ذراع من أذرع الصحراء الكبرى ، وهو بالتحديد ذلك الذراع الذى يفصل الحريق عن اليمامة ، وينتهى فى وادى سليح ناحية الشمال . ويحث حسين باشا عن مرشدين له ولجيشه ؛ ولكنه عثر على خونة .

وتحت ذريعة إرشاد المصريين خلال مسارات وطرق أقصر وأمن ، ضيَّع النجديون المصريين وأضلّوهم خلال الكثبان الرملية الموجودة فى جنوب غربى الحريق ، وتركوهم يموتون من العطش فى تلك المتاهة الحارقة . الواقع ، أن المصريين هلكوا جميعا ؛ وعندما عبر القرويون ، الذين كانوا على بعد مسير ساعات قلائل عن مكان الحادث ، سلسلة التلال الرملية ليشاهدوا عمل الموت ، لم يجدوا (روى لى هذه الحكاية شاهد عيان) سوى جثث ، تتشنج وتتلقى من سكرات الموت عطشا ومن اليأس . وأحصى القرويون عدد أولئك الموتى ووجدوا أنهم يزيدون على أربعة آلاف . وهناك رواية تقول إن جثة حسين باشا كانت بين الضحايا ؛ وهناك رواية أخرى ، وهى الأكثر احتمالا ، تجعل حسين باشا يهرب ومعه الاحتياطى الرئيسى الذى كان قد تركه فى اليمامة ، التى انسحب منها إلى القصيم ، ثم بعد ذلك إلى مصر .

وبعد أن تخلص تركي من الغازی ، على هذا النحو ، ظهر ثانية في الرياض ، واعتلى عرش مملكته عدة سنوات دون أدنى تحرش من مصر أو من أي مكان آخر . أما فيما يتعلق بالحملة التي نظمها وشنها على الاحساء ، وفيما يتعلق باغتياله بيدي مشاري ابن عمه ، وفيما يتعلق بالدور الذي لعبه عبد الله بن الرشيد في الاقتصاص من المفتصب ، وأيضا ما يتعلق بتنصيب فيصل ملكا على العرش الذي خلى بوفاء والده ، فقد أوردت كل ذلك بصورة مفصلة في الفصل الثالث من هذا الكتاب ، ولذلك فأننا أحيل القارئ الكريم إليه .

كان فيصل عندما اعتلى العرش وقمة السلطة بهذه الصورة المفاجئة يبلغ من العمر حوالي ثلاثة وثلاثين أو أربعة وثلاثين عاما . ومع أن الأحداث أخذته على حين غرة إلى حد ما ، إلا أنه كان لديه من الصفات والخصائص ما يجعله قادرا على تحمل صعب منصبه الجديد . فهو من حيث صفاته الشخصية كان شبيها لوالده تركي أكثر من جده الملك عبد الله . كما كانت ميوله طبيعية ومحبية إلى النفوس ، كما كان حصيفا ، وحذرا بشكل مبالغ فيه ، ومعتدلا في آرائه ، وموهوبا في بعد نظره وبصيرته ، وواسع الأفق ، طليق اللسان ، مظهره يسترعى الانتباه ، أي أنه كانت فيه خصال كثيرة استحوذت على حب وولاء رعاياه له ، إضافة إلى أن تلك الخصال كانت تبشر أيضا بحاكم جيد وقوي . ولكن تعليمه الوهابي ، وتعصبه المذهبي ، وتأثير ذلك الذي يمكنني أن أطلق عليه ، برغم أن ذلك لن يكون بدون تلميح أوربي بعيد ، اسم الحزب النجدي الديني الأعلى High orthodox Nejdean party ، وقد تضافرت كل هذه المزايا على تبديد تلك الآمال الجميلة إلى حد بعيد . وأدى تقدم الملك فيصل في السن إلى ترسيخ آثار التعصب الوهابي أكثر فأكثر ؛ وانتهى الملك فيصل في سنوات حياته الأخيرة إلى أن أصبح مجرد أداة في أيدي كل من مستشاريه ضيق الأفق وولده العنيف ، الذي كان يحكم المملكة باسم الملك القديم ، ويستمد من ضعف شيخوخة والده موافقة سهلة على أشد أنواع القمع وأفظع الجرائم . ومع ذلك ، كانت تلوح بين الحين والآخر ، بوادر طيبة ، خلال سحب الحكم المطلق والفساد الشديد الذي كان يحيط بأواخر أيامه ؛ وربما كانت تلك البوادر إشارة طيبة إلى أن ولد تركي ربما يصبح ملكا ممتازا لنجد على أقل تقدير ، إذا ما تهيأت له ظروف أخرى ، وتعليم أفضل ومستشارين أفضل أيضا .

وبعد أن نودى بفيصل سلطانا على نجد ، كرس نفسه لاستعادة النظام فى المناطق الوسطى ، التى انتشرت فيها الفوضى عقب وفاه الملك تركى ، واغتصاب مشارى العرش . ولم يسعفه الزمن بأكثر من ذلك . والسبب فى ذلك ، أن الحاكم المُناب المصرى ، استغل تلك الفرصة المواتية ليثأر ، من ناحية ، للهزيمة التى نزلت بالمرحوم حسين باشا ، ويعيد تأكيد سلطته على وسط الجزيرة العربية من الناحية الأخرى . ولذلك أرسل الحاكم المُناب ، قائدا جديدا اسمه خورشيد باشا ، ومعه قوات كبيرة إلى نجد . وكانت القصيم طوال تلك الفترة فى يد المصريين ، ولذلك فقد وفرت للمصريين دخولا آمنا إلى وادى حنيفه خلال فترة وجيزة وانقض خورشيد باشا على الملك الجديد على حين غره ، وأفلح فيصل فى الهرب إنقاذا لنفسه ، وتم أسر العديد من أفراد الأسرة المالكة وأرسلوا من جديد إلى القاهرة ، ونصب خورشيد باشا شخصا يدعى خالدا ، سلطانا بديلا على عرش نجد . وخالد هذا ليس حفيدا من أحفاد عبد العزيز ، وإنما هو حفيد من أحفاد واحد من إخوانه ، ضاع اسمه من ذاكرتى ؛ ثم عاد خورشيد باشا بعد ذلك إلى القصيم، التى كان مناخها يناسبه أكثر من مناخ العارض.

وانتهز فيصل ، بعد أن طرد من عاصمته الفرصة كى يتفرج على العالم ، لأنه لم يكن ميالا ، إلى شن حرب عصابات على الغزاة ، مثلما فعل والده ؛ وبعد أن أدى فريضة الحج - متنكرا بطبيعة الحال - اتجه شمالا إلى دمشق ، وزار المسجد الأقصى فى القدس ، كما زار أيضا كثيرا من مدن الساحل السورى ، والمؤسف أن الملوك المنفيين يندر أن يستفيدوا من ترحالهم فى الخارج ، وأنا لا أستطيع أن أقطع إن كان ذلك راجعا إلى أن أذهانهم تكون مشغولة بالأضرار الحقيقية أو غير الحقيقية التى لحقت بهم ، أو إلى تلك العبقرية الشريرة التى لازمتهم يوم أن كانوا على العرش ولا تزال تصاحبهم خلال أسفارهم ؛ ولكن هذا هو واقع الحال فى أغلب الأحيان ؛ وأصدق مثال على ذلك هو أمل دايونيسيوس Dionysius من الزمن القديم ، وشارل الثانى من القرن السابع عشر ، وكومت دارتوا Comte d'Artois فى عصرنا الحالى ، لم يعد أحد منهم إلى وطنه سيرا قوصه Syracuse ، أو لندن ، أو باريس وهو أكثر حكمة وتعقلا مما كان عليه قبل أن يترك بلاده . إنَّ واحدا فقط ، وهو من المحدثين ، هو الذى استفاد من دروس المحنة ، تلك الاستفادة التى حولته إلى إمبراطور . وهذا استثناء شاذ تماما ، بل أنه أكثر شذوذا بسبب ندرته .

ولكن دعونا نعود إلى فيصل مرة ثانية . فقد استطاع سد العجز والقصور فيما يتعلق بالتعصب عن طريق الارتواء من مياه زمزم المعدنية من ناحية وعن طريق الارتواء الروحي من المحاضرات التي كان يلقيها علماء المذهب الحنبلي والمذهب الشافعي في دمشق من ناحية أخرى . وقد دامت هذه العقبة التي حالت دون تحول النجدي إلى وهابي ، عامين تقريبا . ثم وصلت فيصل بعد ذلك معلومات تطلب إليه أن يعود إلى حدود نجد . كان خالد الذي بدأ يضيق ذرعا بمركزه الزائف الغريب كمجرد أداة مصرية - وهو أحد أبناء سعود ووهابي خالص - وبدأ يعرب عن رغبته في التخلي عن منصب الحاكم المناب غير الأمن الذي لا يحسد عليه . لقد كان خالد بحق شخصا هادئا وعاقلا ، وبرغم أن مواطنيه كانوا يحترمونه حبا في أسرته إلى الحد الذي جعلهم لا يتألبون عليه ، إلا أنهم كانوا يتعاطفون معه في قلقه واضطراب مشاعره ، وساندوه في طلب إعفائه من منصبه . ويظهر فيصل على الحدود من جديد ؛ وينسحب خالد إلى القصيم ، ومنها إلى مصر ، وبعد أن قضى عدة سنوات على ضفاف النيل ، عاد إلى مكة التي عاش فيها حياة هادئة وعامرة بالاحترام ، إلى أن حظي في العام ١٨٦١ الميلادي بامتياز ينذر أن يحدث في أسرته ، الوفاة الطبيعية في فراشه . وَيُنَصَّبُ وَلَدُ فيصل نفسه مرة ثانية مكان والده في قصر الرياض ، دون مصاعب أو معارضة .

ولكن خورشيد باشا ، لم يكن موافقا على التزام الصمت إزاء التغييرات التي كانت تحدث على العكس مما يريد . وعن طريق المناورة المفاجئة ، طوَّق خورشيد باشا عاصمة العارض وأجبر فيصل على الاستسلام نزولا على رغبته ، ثم أرسله بعد ذلك مباشرة إلى مصر ، لا كسائح وإنما أسير . وأمر محمد علي بوضع الأمير المخلوع تحت الحراسة المشددة في قلعة تقع في المنطقة بين القاهرة والسويس ، التي بقي فيصل محصورا فيها إلى أن توفي محمد علي باشا .

وفي الوقت نفسه نصب خورشيد باشا ، ابن ثنيان ، أحد أبناء عم خالد ، وحفيدا أيضا من أحفاد عبد العزيز بن سعود ، نصبه حاكما منابا على نجد . كان ابن ثنيان ، الملك الجديد أو بالأحرى الإقطاعي الجديد ، على العكس من خالد ، سعوديّا خالصا ، تأصلت فيه كل خصال العرق الملكي النبيلة ، وكل الخصال السيئة أيضا . كان ابن ثنيان أنيقا ، كريما ، جسورا ، بعيد النظر وطويل اليد ، فقد كان ينتمي إلى طائفة الرجال "الدمويين المخادعين" ، الذين ينذر ، سواء أكانوا في عصر داود أو في

عصرنا ، أن "يعيشوا نصف حياتهم" . وما أن تولى ابن ثنيان العرش حتى بدأ يحكم المملكة بطريقته الخاصة ، دون الاعتماد بشكل كبير على راعيه المصرى ، وكان أول عمل جيد يقوم به ابن ثنيان ، هو قمع البدو ، الذين كانوا قد استعادوا خلال تلك الفترة المضطربة سطوتهم ووقاحتهم القديمة . كانت مطير وعتيبه أكبر وأقوى قبيلتين بين بدو نجد ؛ ولكنهم لُقنوا درسا فى تحاشى سيف ابن ثنيان والخوف منه واعترفوا به ملكا . وبعد أن انتصر ابن ثنيان على البدو ، قام بإخماد تمرد قام به سكان وادى الدواسر الهمجيين . ويقال إن مشاهد القتل الذى دار فى وادى الدواسر ، كانت تعيد إلى الأذهان مشاهد الرعب الذى حدث على يدى كل من جليْنصو Glencoe وأركوت Arcot ، ومع ذلك فقد كانت تلك الأعمال ضرورية للبلاد ومن مصلحتها . وأكمل ابن ثنيان أيضا كثيرا من الأعمال المعمارية التى كان الملك تركى قد بدأ يقيمها فى العاصمة ؛ ووسع ابن ثنيان قصر الرياض ، وشيد مبانى داخل أفنيته ، كما خاطر ابن ثنيان أيضا ، بإقامة مخزن البارود الحالى والترسانة الحالية داخل القصر أيضا .

كان النجاح والسلطة سموم شخصيته المتكبرة ، ولذلك بدأ يستبد برعاياه ؛ وجدد ابن ثنيان قسوة خالد باشا ، وكان يعدم على الخازوق دون محاكمة أولئك الذين كانوا يغضبونه أو يستفزونهم على أى نحو من الأنحاء . ومن ثم فإن أذهان رعاياه ، الذين كانوا قد رضوا عنه فترة من الوقت بفعل مظهره الأنيق ، وكرمه الحاتمى ، وحيويته الدافقة ، واستقلال حكمه ، إلى حد ما ، عن الحكم المصرى ، بدأت تنصرف عنه فى النهاية ؛ وتوترت الحبال بين ابن ثنيان ورعاياه وأوشكت أن تتقطع بفعل الضربة الأولى .

كان ابن ثنيان قد مضى على حكمه فى نجد خمس سنوات عندما مات محمد على ، الذى خلفه حفيده المعتوه عباس باشا . وقد سبق أن أفضت فى شرح خطط ذلك الداعر المجنون الخاصة بالجزيرة العربية ؛ وما أن وصل عباس باشا إلى العرش حتى خطى الخطوة الأولى فى تنفيذ خطته الخاصة بالجزيرة العربية ، وتمثلت فى إطلاق سراح فيصل ورفاقه وتحريرهم من الأسر . ونظرا لتخوف عباس باشا من أن يفعل هذا العمل علانية دون الحصول على إذن من القسطنطينية ، الذى كان يعلم أنه لن يحصل عليه أو يجرؤ على طلبه ، فقد لجأ إلى تنفيذ هذا العمل الأحمق عن طريق المكر والخداع ، بأن قلل عدد حراس القلعة وأبعدهم عنها ، وزود الأسرى بالحبال والوسائل

الأخرى التى تمكنهم من الهروب . ويحصل الأسرى على هذه الحبال والوسائل ، ويتسلقون جدران القلعة فى إحدى الليالى المظلمة ، ليصلوا بعد ذلك إلى القصير على وجه السرعة ، وفيها يحمدون الله ويشكرونه ، مثل الوهابيين المخلصين ، ويسخرون من عباس باشا .

ومن القصير ، أرسل فيصل جواسيسه تتحسس له طريقه إلى العرش مرة ثانية . ولم ينتظر فيصل فى القصير وقتاً طويلاً ، وما أن علم الناس فى نجد ، بإطلاق سراح فيصل مرة ثانية ، حتى انهالت عليه فى القصير الدعوات وعروض الولاء . وقال الناس : إنَّ خورشيد باشا وابن ثنيان مكروهان ؛ وإذا ما عاد فيصل فإن الناس سوف تتضمن تحت لوائه . وفى الوقت نفسه أدرك الباشا المنحوس الخطر المحدق ، وحاول دون جدوى أن يطلب من عباس باشا تزويده بالمساعدات والإمدادات ، ولكن عباس باشا كان قد صمم على خيانة قضيته وخادمه . وبعد أن فقد خورشيد باشا الأمل فى وصول أى شئ من القاهرة ، وجد أن من الحكمة أن يجلوا عن القصيم ويخليها قبل أن تثور عليه المنطقة ؛ وبذلك ينتهى الحكم المصرى فى الجزيرة العربية ، بعد أن دام سبعة وعشرين عاماً متصلة .

وبعد أن ترك خورشيد باشا أهل القصيم لحال سبيلهم أيقن كبارهم وصغارهم ، والرؤساء وعامة الناس ، أنهم سئموا مقام الأجانب الطويل فى بلادهم ، وبدعوا يبعثون إلى فيصل رسائل يستحثونه ويرجونهم فيها أن يكون ملكاً وسيداً عليهم . ومن واقع الأحداث التى أوردتها فى الفصول السابقة ، فإن القارئ الكريم ، يعرف أن تصرفاً كهذا ، إنما يثبت القصة القديمة التى تدور حول الأشجار وشجرة العُليق . ولم يتردد فيصل فى قبول هذا العرض ؛ وأبحر من القصير إلى ينبع ، ليظهر فجأة ، فى منطقة القصيم ومعه بعض أتباعه ، وأحاط حماس أهل القصيم الدافق (الملك) فيصل بعدد كبير من الاتباع وجيش كبير . ونظم فيصل هؤلاء الاتباع وذلك الجيش ، وتقدم بجيشه وأتباعه إلى مدينه شقراء ؛ ومن شقراء أرسل مبعوثاً إلى ابن ثنيان ، يطلب إليه تسليم التاج إلى صاحبه الشرعى .

ولم يكن ابن ثنيان من أولئك الرجال الذين يتنازلون عن أشياءهم من الوهلة الأولى . فقد عقد اجتماعاً لرؤساء نجد المحليين ، وطلب منهم أن يساندوه ويؤيدوه . ولكنهم ردوا عليه على مرأى ومسمع منه ، بأن أحداً منهم لن يرفع إصبعاً واحداً تأييداً لقضيته ؛

وتنفيذا لما قالوه انصرفوا عنه واحدا بعد الآخر لينضموا إلى فيصل في القصيم ، وبقيت مع المقتصب مجموعة منتقاة من الأتباع الموالين له ، قادها واتجه بها إلى شقراء لملاقاة خصمه وغريمه . ولكن مع اقتراب ابن تركي ، بدأ الهروب يعمل عمله بين أفراد حاشية ابن ثنيان الذي اضطر إلى العودة ، بدون قتال ، إلى الرياض ، التي ينس فيها ، وحصن نفسه في القصر ، ومعه البقية الباقية من أولئك الذين حافظوا على ولائهم للملكهم التعيس المذنب .

ويدخل فيصل الرياض ، ويطلب من ابن عمه الاستسلام المشرف ، ويوعده بالحفاظ على حياته وإطلاق حريته ، ولكن ابن ثنيان رفض التنازل عن منصبه ، وأصر على موقفه نظرا لأن المدفعية الوحيدة في الرياض كانت في حوزته وتحت إمرته وداخل القصر . ونظرا لأن فيصل لم تكن لديه ماكينات حصار من هذا القبيل ، فلن يخاطر هو وأتباعه بالهجوم على أسوار القصر السميكة المحروسة حراسة جيدة ؛ ولم يكن أمامهم من شيء سوى محاصرة القصر . وعلى امتداد شهر كامل كان هناك ملكان في نجد ، أحدهما داخل القصر ، والثاني خارجه . ويكرر ولد تركي نداءه بالاستسلام والعفو يوما بعد يوم ، ولكن دون جدوى ؛ وفي النهاية يعلن ابن ثنيان انه على استعداد للتنازل عن العرش نظير الحفاظ على حياته فقط .

وفي إحدى الأمسيات ، أي بعد غروب الشمس بوقت قصير ، وصل المقتصب المحاصر ، أثناء تجواله مكتئبا خلال ممرات القصر ، إلى فتحة جانبية تطل على غرفه صغيرة ، كان يجلس فيها بعض أفراد حاشيته ويدور بينهم حديث خثير . ويقترب ابن ثنيان من الفتحة ليصيح السمع ، ولكنه ، مثل سائر المتنصتين ، لم يسمع خيرا . إذ كان الخطاب يدور على النحو التالي - أن الله قد تخلى عن حفيد عبد العزيز ، وأن الوقت قد حان ليرضخوا هم أنفسهم إلى مشيئة العناية الإلهية ، وأن يفتحوا أبواب القصر ليسمحوا بدخول فيصل ، ويحصلون على عفوه ومكافأة منه عندما يقدمون له رأس غريمه . وهنا أدرك ابن ثنيان أنه لا يمكن أن يثق بحاشيته بعد كل ما سمعه - لقد ضاع كل شيء ، وتحت ستر الليل ، يمرق ابن ثنيان من الباب السري ويهرب من القصر . وبعد أن أضناه اليأس ، وبدلا من أن يلوذ بالأمن في مكان بعيد ، اتجه إلى منزل أحد الأعيان الأثرياء ، اسمه ابن سويليم ، الشخص نفسه الذي ضربه المطيعة بعد ذلك بعدة سنوات ، ضربا أفضى إلى موته ؛ ويجلس ابن ثنيان في قهوة ابن سويليم ، وقد وضع غترته على وجهه .

ويتعرف المضيف ضيفه ويتعجب متسائلاً : "ابن ثنيان ؟" ويتحول الصمت إلى أبلغ دليل . ويرد ابن سويليم قائلاً : "هل جئت تطلب حمايتي ؟" والسبب في ذلك أن طبيعة "المجير" في الجزيرة العربية تبلغ من القداسة والتقدير مبلغاً يجعله يجير ابن ثنيان ولا يتخلى عنه . ولكن ابن ثنيان المنكوب يرد عليه متهوراً من فرط يأسره قائلاً : "لا" . ويسأله رب البيت قائلاً : "إذن ، ما الذي جاء بك إلى هنا ؟" إن كلمة واحدة كانت كفيلة بضمان أمنه وسلامته ؛ وظل ابن ثنيان صامتا ، وكرر رب البيت السؤال على ابن ثنيان مرة ثالثة ولكن دون جدوى .

وتأسيساً على هذا الرد أبلغ ابن سويليم الملك فيصل أن غريمه موجود تحت سيطرته . وأوفد فيصل جنوده على الفور إلى منزل بن سويليم ؛ والقوا القبض عليه في المكان الذي كان يجلس فيه بلا حراك ، وأحضروه أمام الملك الشرعي . وسأله فيصل "هل جئت تطلب مني أن أجيرك ؟" ولورد ابن ثنيان قائلاً : "نعم" لأنهي بذلك كل الحقد والغل ؛ وسواء أكان ذلك كبيراً أم إحساساً بالذنب ، أم شعوراً بالدمار فقد رد ابن ثنيان على فيصل : "بلا" وينظر فيصل إلى كل الحاضرين من حوله ويقول : اشهدوا يا جميع الحاضرين ، أن الله قد سلمه لي بلا قيد أو شرط " . ويستولى فيصل بعد ذلك على القصر المفتوح بطريقة سلمية ، ويودع ابن عمه المنحوس "زنزانة الدم" ، ليموت فيها بعد أيام قلائل يأسا وكمداً كما يقول البعض ، أو بدس السم له بأوامر من فيصل كما يقول البعض الآخر ، وهذان الاحتمالان واردان . وقبر ابن ثنيان يقع بالقرب من قبر تركي في المقبرة الكبيرة ؛ ولا يزال بعض من أبنائه يعيشون في الافلاج ، التي لا تبعد سوى مسير أيام قلائل عن العاصمة .

وبذلك يصبح فيصل ملكاً أوحده لا ينازعه أحد على وسط الجزيرة العربية . ولكن الأحساء رفضت الاعتراف بصولجان فيصل ؛ وكانت عُمان أيضاً قد تخلصت ، منذ زمن بعيد ، من التدخل الوهابي . والسبب في ذلك أن قبيلة عجمان كثيرة العدد وشديدة البأس كانت قد أعلنت تمرداً الصريح في منطقة الحدود الشمالية الشرقية ، واستنجدت بكل من بني هجر وبني خالد الأقل بأساً . وتجمعت قوات هذه القبائل وهددت بغزو نجد ، يضاف إلى ذلك أن أحداً من الرؤساء المحليين لم تكن لديه القوات التي تكفي لمواجهة مثل هذا الخطر . وخلاصة القول ، أن فيصل أصبح يمتلك امبراطورية متقلصة ، تهزها من أعماقها ثورات متكررة ومتطاولة .

ولم يكن السلطان نفسه محارباً بمعنى الكلمة ، أو بارعاً في استعمال الأسلحة الدبلوماسية أو العربية ؛ زد على ذلك ، أن الملك بدأ يعاني من ضعف البصر ، نتيجة المياه البيضاء Opthalmia التي أصيب بها في مصر ، وأصبح تقدم المرض يهدد بفقدان البصر تماماً . كما أصيب بهذا المرض أيضاً بعض من رفاق الملك في الأسر ، وقد عزا بعض النجديين المتشككين الإصابة بهذا المرض ، إلى سم الأعين الذي قالوا إنه دُس للملك ورفاقه بناء على أوامر الحاكم المُناب في القاهرة .

ولكن فيصل كان لديه بالفعل عوضاً كاملاً عن نقائصه العربية في ولده الأكبر عبد الله . وأياً كانت عيوب ذلك الأمير ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض هذه العيوب الفظيعة ؛ وبغض النظر عن كبره ، وبذاعته ، وخيانتته ، وقسوته ، فإننا يجب أن نثني على شجاعته العظيمة ، ومهارته في التكتيك الحربي ، الذي يعد أمر غريباً على العرب ؛ وينبغي علينا أيضاً ألا نبخسه حقه في هذه الأمور . ومن هنا فقد أسند الملك فيصل الإدارة العربية إلى ولده عبد الله ، على حين بقي هو في عاصمته يدير وينظم أمور إمبراطوريته .

وشن عبد الله حملته الأولى على بدو عجمان ؛ الذين كان جيشهم القوي عدداً وعدة ، قد تمركز واحتشد بالقرب من الكويت ، وأوشك أن يهجم على نجد ، التي كان يتوقع أن يحقق انتصاراً سهلاً عليها . وبينما كان بدو عجمان يتخيلون ، في أمنهم المزعوم ، أن عبد الله كان بعيداً عنهم في العارض ، أطبق عليهم فجأة . وبثلاثمائة خيال فقط هجم عبد الله على فرقتهم المتقدمة وردها على أعقابها مرتبكة إلى القوة الرئيسية . وفي اليوم التالي جمع كل طرف من الأطراف قواته استعداداً للدخول في معركة فاصلة . وطبقاً للعادات والتقاليد ، كانت الحدائية تجيء في مقدمة الجيش البدوي ؛ والحدائية فتاة من أسرة طيبة تتمتع بالشجاعة ، تركب جملاً ضمن الصفوف الأولى ، ومهمتها توبيخ الجبان وإثارة الشجاع عن طريق أشعار الهجاء أو المديح . ولقد سمعت ولكني نسيت اسم الفتاة التي قامت بذلك الدور في ذلك اليوم المشهود ؛ ويقال عنها إنها كانت فارعة الطول فصيحة اللسان ، وأنها يجدر بها أن تُدرج ضمن أولئك اللاتي جرت عليهن مشيتهن ووقفتهن ، وجلستهن الرشيقة ، الملاحظة التالية التي وردت على لسان الأميرة في إحدى قصائد الشاعر تينيسون Tennyson ، "ما هذا ! هل كل بنات أرضك فارعات الطول مثلك ؟" وعلى كل حال ، فإن إله الحرب Mars

لم يبق على إلهة الحرب Bellona العربية ، ويقال أن وفاتها بطعنة رمح نجدى هي التي تسببت في هزيمة جيش عجمان هزيمة منكرة . وتابع عبد الله انتصاره بمطاردة حامية استأصل بها قلوب أعدائه ، وشن حملة قضى بها على ثلثي سكان عجمان من الذكور ، وأخضع بها قبائل الشمال إلى أبد الآبدين . وحول الغازي ذراعيه بعد ذلك ناحية بدو الغرب - مطير ، والعنزة ، وعتيبة وأنزل بهم ذلك الذي أنزله ببدا عجمان .

ثم قام عبد الله بعد ذلك بإخضاع الأحساء ، ولكن بعد معركة شرسة ، كما أخضع القطيف أيضاً ووضع فيها من جديد حامية نجدية . وبعد أن أصاب عبد الله نجاحاً في كل مكان ، بدأ يشق لزيارة عُمان . ولكنى لن أتكم هنا عن الحملة العمانية الكبيرة ، أو عن مجرياتها ، أو نتائجها ، أو كل ما يتعلق بموقف حكومة الرياض والحكومة العمانية من هذه الحملة ، وإنما سوف أتناول كل ذلك بالتفصيل فيما بعد ؛ يضاف إلى ذلك أنني لن أتطرق هنا إلى سرد الحقائق إلا عندما تصل الرحلة إلى مرحلة تصبح عندها هذه الحقائق أمراً مألوفاً في جنوب شرقي الجزيرة العربية .

وأنا لا أعرف متى تم ضم وادي السليل إلى الطرف الجنوبي الغربي من الامبراطورية الوهابية ، ولا أدري أيضاً أكان الضم بطريقة سلمية أم عن طريق الحرب . ولكنى لا أتصور أن منطقة صغيرة من وادي السليل ، الذي يشغل موقعا متوسطا بين وادي الدواسر من ناحية ، وجبل عسير من الناحية الأخرى ، وهما منطقتان لا تقلان تزمنا عن العارض نفسها ، يمكن أن يكونا مصدر قلق بالنسبة للرياض . وربما يكون وادي السليل قد سار على خط وادي الدواسر ، وبخاصة أن وادي السليل يعد في واقع الأمر ملحقا أو امتدادا لوادي الدواسر ، ويشترك معه في خصائصه الأرضية وسميته السيئة .

هذه الأحداث ، التي أوجزتها هنا ، دامت حوالي عشر سنوات ، انشغل الملك فيصل خلالها بالمسائل المدنية والدينية والإصلاحات ، ولم يلعب دورا فاعلا في الحروب التي خاضها ولده المتهور ، علما بأن الملك فيصل زار المناطق التي غزاها وأخضعها ولده ، وحدد الضرائب التي ستجبي منها ، والجزية ، والإدارة المحلية . وعقب عودة عبد الله من عمان ، بدأت سلسلة الأحداث المؤسفة التي تناولتها في الفصل الرابع من هذا الكتاب . ومع ذلك ، فإن أنظار الملك فيصل لم تتحول قط عن الخليج الفارسي ، الذي أدت الحضارة والتجارة إلى تراكم الثروات على شاطئيه بشكل كان يستثير

مطامح الملك الجشعة . وبعد المهادنة الزائفة التى حدثت فى العام (١٨٥٥-١٨٥٦) الميلادى بين حاكم الرياض المطلق والزامل ، رئيس عنيزه ، تم فى القطيف تجهيز حملة وهابية بناء على أوامر من الملك فيصل ، وأبحر مقاتلوا نجد بأسطولهم لأول مرة تحت اسم الامبراطورية الجديدة ، لغزو البحرين واحتلالها ، وسوف أوْجَل النتائج التى ترتبت على هذه الحملة إلى فصل لاحق .

أما فيما يتعلق بجبل شومر والمناطق التابعة له فكان قد تم فصله فعلا عن نجد بفعل الحيوية والنشاط اللذين دبا هناك فى الأسرة المالكة المناوبة والتى كانت ممثلة فى شخص عبد الله بن الرشيد ، وعلى كل حال ، فقد حاول فيصل أن يبذر بذور النزاع والفرقة بين أعضاء الأسرة المالكة ، عن طريق عملائه المنافقين ، إلى أن تحين الفرصة التى تسمح له بالتدخل المسلح ؛ وهذا أمر ممكن إذا ما سارت الأمور على ما هى عليه .

ويتقدم السن بالملك فيصل ، فى الوقت ذاته ، ويفقد الرجل بصره تماما ، فى حين جعلته السمنة المفرطة ، وهذه ظاهرة نادرة فى التكوين الجسمى العربى ، عاجزا عن الأداء النشط . زد على ذلك ، أن الجبن ، والإيمان بالخرافات الذى يصاحب الجبن فى معظم الأحوال ، بدأ يسيطر عليه بصورة متزايدة يوما بعد آخر ، إلى الحد الذى جعله يتنازل تماما ، خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من حكمه ، عن إدارة الأمور وتوجيهها لولده عبد الله ، وقسمَّ الجزء الباقى من حياته بين الوعظ والحريم . والملك فيصل لا يقابل الشعب مطلقا ، اللهم باستثناء زيارة قبر والده فى ساعة مبكرة من كل صباح يوم الجمعة ، أو قد يظهر إذا ما وقع حادث غير عادى يضطره إلى الظهور أمام شعبه دقائق معدودات ليس إلا . وكلمة عبد الله هى العليا خارج القصر ، ولكن محبوب ومعه بعض العبيد الزنوج ، والذين لهم حق الاتصال بالمستبد العجوز ، هم الذين يسيرون الملك المسن على هواهم وحسبما يشاؤون . يضاف إلى ذلك ، أن المطيعية المتعصبين ، الذين لا يقوى الملك على مقاومة نفوذهم المادى والمعنوى ، ولا يجرؤ على رفض ذلك الذى يملونه عليه ، مهما كانت خطورته على الامبراطورية ، هؤلاء المطيعية هم وحدهم فقط الذين لهم حق الاتصال بالملك والدخول عليه . وأصبح الجشع والبخل "تلك الرذيلة الطيبة التى ترافق كبر السن" يسيطران على شخص فيصل شأنه فى ذلك شأن الكرام الآخرين الذين يسيطر البخل عليهم عندما يتقدمون فى السن ؛

كما اكتمل نفاقه وغدره بفعل الممارسة الطويلة . وخلاصة القول ، أخشى أن يكون كل ما بداخله من خير قد اختفى تماما ، وأن تكون عواطفه وعقله وفكره وإرادته قد بدأت كلها تتحول إلى خرافة تناسب مستبدا في سن السبعين .

ويكفى ما قلته من قبل عن أكبر أولاده ، عبد الله ، وعلى كل حال ، يجدر بنا أن نضيف هنا أن والدته عبد الله (وكتاب الملوك يتعرض دوماً لأمهات ملوك اليهود) تنتمي أيضاً إلى العائلة السعودية . ولكن والدته ابنة الثاني ، الذي سمي باسم سعود المؤسس الأول للعرق السعودي ، ليست من العائلة السعودية ، ولكنها من قبيلة بنى خالد . وعبد الله يتجسّد فيه مثل عربي ، نظراً لأن الصفات التي ورثها عن أمه أكثر من تلك أخذها عن أبيه . فبينما نجد أن عبد الله ، مثل والده ، قصير القامة ، ومتينا ، وكبير الرأس ، وغليظ العنق، ويشبه الثور في مظهره، نجد أن سعوداً فارح الطول ، نحيفاً ، وأنيقاً ، ولا يدل حياة على بداوة مفرطة . وسعود صريح وكريم ، ومتيم بالاستعراض والفروسية ، وهو محبوب من الجماعة "الليبرالية" ، التي تطلق عليه اسم "أبو هلا" ، التي معناها الحرفي "أبو الترحاب" ، وهذه التسمية مأخوذة من التعبير "يا هلا" ، الذي يحيى به سعود كل من يفد عليه . في حين يقف عبد الله على رأس الجماعة المتدينة ، التي تتطلع إليه وتعهده عونها الرئيسي وأملها المستقبلي .

ومع أن الشقيقين ، يكادان يتساويان في العمر ، إلا انهما متناقضان ومتنافران ولا يهادن أحدهما الآخر . ومنعا لتكرار الصدام بين الشقيقين ، عين الملك فيصل ولده "سعود" حاكماً على كل من اليمامة والحريق ، على أن يتخذ من السالمية مقراً لإقامته ، وبذلك يكون قد أبعد عن الرياض ، في حين أبقى الملك فيصل عبد الله في الرياض بصفته حاكماً خاصاً للمدينة . واستطاع سعود ، في ذات الوقت ، أن يستحوذ بفضل بسلطته وسلوكه الليبرالي ، على قلوب رعاياه المقربين منه ، وقلوب أولئك الذين يعارضون التشدد والتعصب في مناطقهم . ومن ثم ، فمن المسلم به أن وفاة الملك فيصل سوف تكون بمثابة الإشارة إلى بدء حرب دموية وغير متكافئة بين كل من رموليوس Rumulus وريموس Remus ، أو إن شئت بين كل من دون هنري Don Henry ودون بدرو Don Pedro في نجد . وطالما أن هناك مستبدين ، وشرين يسمحان بالخيار من بينهما ؛ فإن كل أمانى الطيبة تتجه صوب سعود . والملك فيصل ، على كل حال ، يفضل ولده الأكبر وذلك من باب التقوى والتدين وربما من باب التعاطف معه أيضاً ،

ولذلك فهو يحاول أن يكون ولده سعود في مؤخره الصورة دوما . ولم يحدث سوى مرة واحدة ، أن عين الملك فيصل ولده سعود قائدا للحملة التي كان على وشك أن يشنها على وادي الدواسر ، على إثر بعض الاضطرابات والمتاعب التي نشأت هناك .

ولكن سرعان ما ندم الملك فيصل على إعطاء ولده سعود فرصة الظهور على الملأ ، وبخاصة عندما عاود سعود ، بعد تلك الحملة القصيرة الناجحة ، الظهور في الرياض وبصحبه مائتي رجل اختارهم هو بنفسه ، وكانوا جميعا يرتدون زيا فارها أنيقا قرمزي اللون ، مطرزا بالذهب ، وسيوف مزينة بالفضة ، وزخارف غالية الثمن ويركب كل واحد منهم حصانا يتراقص" ، وسط عظمة وأبهة لم تشهدها أيام الملك عبد الله الأول ، الجد ، الأمر الذي أغضب الوالد المتعصب واستشار حقد الشقيق . وصدرت الأوامر إلى سعود ، بالعودة إلى السالمية على وجه السرعة ، التي سنلحق به فيها ، ثم أروى للقارئ الكريم ذلك الذي حدث في الاجتماع الثلاثي الذي ضم كلا من سعود وعبد الله وفيصل .

كان محمد ، الابن الثالث للملك فيصل ، من سيدة نجدية ، والذي كان يشبه والده وأخاه الأكبر من حيث الشكل والمظهر ، ما يزال يحاصر مدينة عنيزه ، كما سبق أن أوضحنا في الفصول السابقة . وعبد الرحمن ، هو الابن الرابع والأخير من أبناء الملك فيصل، وهو صبي يبدو عليه أنه مثقل بالهموم ، ولا يزال يسكن في جناح حريم والده . وأنا أرى أن عمره يتراوح بين عشر واثنى عشر عاما : والناظر إليه لا يتوهم له مستقبلا واعدة . وقد سبق أن تحدثت عن تلك الفتاه العجوز ، ابنة الملك فيصل التي لم تتزوج ، وسكرتيرته الخاصة . وأنا على ثقة ، أنها جميلة جدا ، ولكني لم أتمكن قط من النظر إليها خلسة من خلال ذلك الرداء الأسود الذي تلف نفسها فيه ، مما يجعلها تشبه كومة من القماش أكثر منها ابنة ملك . وأنا أتوقف هنا ، إذ يكفي ما أوردته عن أسرة نجد الملكية .

ولكن قبل أن أعود إلى سياق قصتي وأروى ذلك الذي حدث بيني وبين أفراد هذه الأسرة المالكة ، قد يكون من المفيد أن أستعرض بشكل موجز الوضع الحقيقي لهذه الامبراطورية، سواء أكان ذلك داخل حدودها، أم مع جيرانها ، أو حلفائها أو أعدائها .

وفيما يتعلق بالوضع الحقيقي لهذه الامبراطورية داخل حدودها ؛ فإنه يتكون من عنصرين ، مختلفين جداً ، ويتعارض كل منهما تعارضا شديدا مع الآخر : والعنصر

الأول يشتمل على أولئك الوهابيين الأشداء الحقيقيين ، أولئك الرجال الذين قال عنهم كرمويل العجوز إنهم "يحكمون الضمير فى أعمالهم" ؛ ولكن العنصر الثانى يتكون من أولئك الرجال الذين هم وهابيون من باب الخضوع ، وليس أمامهم خيار غير ذلك . والتعبير الألمانى يُصَنَّفُ الوهابيين إلى وهابين و"وهابيين بالإكراه Must - be - Wahhabees .

وطبقة الوهابيين الحقيقيين هى التى تسيطر على المناطق الستة : العارض ، الوشم ، سدير ، الافلاج ، الدواسر ، واليمامة . وهذا لا يعنى أن الوهابيين بالإكراه ليسوا موجودين فى هذه المناطق ، وذلك لأنهم يشكلون أقلية محددة ، تتكون فى معظمها من أسر الرؤساء السابقين الذين جردتهم السلطة الحالية من سلطتهم ، ومعهم الحاشية التى كانت قريبة منهم . أما بقية سكان هذه المناطق فهم موالين مخلصين للنظام السعودى وللأسرة المالكة السعودية ، برغم أن سبب ودرجة ولاء هؤلاء السكان ليست واحدة بأى حال من الأحوال . إذ يصل هذا الولاء إلى أقصى مدى له فى العارض ، التى تدعم الروابط الدينية فيها التعاطف الدينى ؛ فالسعود هم أبناء هذه الأرض ، وهم رؤساؤها المكرمين منذ زمن طويل ، إلى الحد الذى يجعل الحكومة هنا تحظى بشعبية كبيرة ، أو إن شئت فقل : إن الشعب يرفعها عاليا . يضاف إلى ذلك ، أن نزعه القلق والحرب ، هى والفقر المحلى ، يجعلان طبيعة النظام الحالى والنتائج المترتبة عليه ، تروق تماما لسكان أعالي العارض . ومع ذلك ، توجد فى هذه المنطقة جماعة رجعية ، بمعنى مجموعة من الرجال الذين يودون مزيدا من التبغ وقليل من الصلاة . إلا أن هذه المجموعة أيضا لا ترغب فى تغيير الأسرة المالكة ، مع أنهم إذا ما توفى الملك فيصل سوف يفضلون سعود على عبد الله . ولكن أتباع عبد الله بشكل عام هم والمتدينون المتشددون تصل نسبتهم سبعة إلى واحد فى كل أنحاء العارض . ومنطقة العارض هى أهم ، بل وستظل أهم المناطق جميعا من الناحية السياسية ومن الناحية المعنوية أيضا .

والشعور الشعبى فى اليمامة لا يختلف كثيرا عن ذلك ، برغم أنه يتخذ شكلا مخففا إلى حد ما ؛ إذ يسود هنا الاحترام الوراثى الشديد للأسرة الحاكمة ، ومع ذلك إذا كان محبو سعود بن فيصل أكثر من محبى شقيقه عبد الله ، فإن هذه الصورة على النقيض مما هو حاصل فى العارض . وهذا يمكن تفسيره عن طريق تواجد الأمير سعود بن فيصل بصفة شخصية ، والتخفف نسبيا من التشدد فى المنطقة الجنوبية . والمعروف أن كلا من العارض واليمامة هما منطقتان وهابيتان بالضرورة .

وفى الحريق ، تركت الحروب القاسية ، والنزاع القديم وكذلك الذكريات الأليمة ،
أثارها على هذه المنطقة ، الأمر الذى جعل كثيرا من الأسر ساخطة لا على الوهابيين
بشكل عام وإنما على عائلة ابن سعود بشكل خاص . كان هذا هو الحال منذ سنوات
قليل ؛ وفى الوقت الراهن ، استطاع سعود عن طريق زياراته المتكررة إلى مدينة
الحوطة ، وعن طريق التأدب مع أهلها بصفة خاصة ، أن يكسب حب غالبية السكان ،
ويوم أن ينشب الصراع الحتمى بين الشقيقتين ، فإن عبد الله لن يكسب إلى جانبه
سيفا أو خنجرا واحدا من سيوف أهل الحريق أو خناجرهم .

والافلاج، لكونها من المناطق القفر غير المتحضرة، يشبه سكانها سكان العارض ،
اللهم باستثناء أن دوافعهم الدينية تشكل رابطة أقوى من رابطة الشعور السياسى .

وهذا فى الواقع هو حال وادى الدواسر ، الذى يصل الحماس الدينى فيه إلى حد
التعصب الأعمى فى أبشع صوره ، إذ يشيع السلب والنهب . هنا أكثر من العارض .
وأكثر الناس احتقارا وأبشعهم ازدراء من بين أفراد العرق العربى ، إن صح ما ورد
عنهم فى التاريخ وفى الشعر وفى الهجاء (وأنا هنا أكتب من واقع تجربتى الشخصية)
هم أهل ومواطنى أو سكان وادى الدواسر ، أو إن شئت فقل آل - عمار ، إن أردنا
أن تسميتهم باسمهم الحقيقى ، والذين خلدهم المتنبى فى أشعاره الموجهة القاسية ،
ويقفون على رأس السلم الوهابى وينحطون إلى الدرك الأسفل من السلم الوطنى . ومع
أن أهالى وادى الدواسر كانوا لا يشكلون شيئا ولا وزن لهم ولا قوة على امتداد أجيال
طويلة ، إلا أنهم الآن ، وهذا من سوء حظ جيرانهم ، استطاعوا بفضل انضمامهم إلى
هيئة الوهابيين الكبرى ، أن يكون لهم وزن وشأن ؛ وهم الذين ينطبق عليهم المثل
العربى العامى الذى يدور حول شحاذ يركب حصانا ويرضى بالذهاب إلى أى مكان
آخر غير الأماكن التى يوجد فيها الخضيريه وآل - عمار فى وادى الدواسر . وأنا لست
بحاجة إلى القول : إننا يجب أن نفتش عن قوات وادى الدواسر المهلهلة ، فى الأماكن
التي يجرى فيها السلب والنهب ، سواء أكان ذلك لحساب سعود أم لحساب عبد الله .

والوشم منطقة مختلفة تماما . إذ تشيع التجارة فى هذه المنطقة ، وتنتشر فيها
الروح التجارية ، والعبارة التى تقول : "روحى هى السبب ، روحى هى السبب" ، يتردد
صداها خافتا فى قلوب أهل الوشم أكثر من أى مكان آخر فى كل أنحاء جبل طويق .
ولكن نزعة أهل الوشم غير العربية التى تميل إلى الهدوء هى التى تمنعهم من أن يكونوا

أى شئ آخر ، غير مواطنين صالحين فى ظل حكومة تعتمد أرباحهم الكبيرة فى أساسها ، على وجود هذه الحكومة ، التى تضاعف لهم قوافل الحجاج إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف عددها على طريق مكة ، وتملاً متاجر المدن والقرى على جانبى الطريق ، وبخاصة شقراء ، بكل أنواع البضائع التى تمر من المنطقة الغربية إلى نجد ، ومنطقة الوشم ، تتحول فى الحروب ، إلى مصدر للتمويل والتموين بدلا من الانضمام إلى صفوف القتال ؛ ومع ذلك فإن سكان الوشم وهابيون صالحون ؛ وإن كان من بينهم قلة قليلة من "المطيعية" ، فذلك ترتب عليه إيجاد قلة قليلة من السخط والاستياء .

وسدير هى أكبر كل هذه المناطق الستة ، وصيتها هو الأكثر ذيوعا . وروح المغامرة التى يتميز بها سكان جبل شومر هى التى تزيد من كرم هذه المنطقة وتقوى من شجاعتها وروح المثابرة وطول البال ؛ ولكن أهل سدير يتفوقون على كل جيرانهم من الناحية البدنية ؛ كما توجد فى سدير أيضا أقدم المدن العثمانية على الإطلاق ، وأقدم العائلات العربية ، وكذلك الذكريات القديمة والمشرفة . والسديرى هو عين أعيان نجد . والسكان فى معظمهم من الوهابيين ، ويلتزمون بمبادئ هذا المذهب التزاما وثيقا ، وبخاصة فى الأجزاء الجنوبية من الجبل ؛ يضاف إلى ذلك ، أن اتصالهم من ناحية الشمال ، بكل من الكويت ، والذبير ، وجبل شومر قد زعزع آراءهم إلى حد ما . زد على ذلك ، أن الولاء السياسى لأبناء سعود هنا يقل عنه فى المناطق الأخرى من نجد ؛ والكثير من الرؤساء هنا يتحسرون على استقلالهم السابق ، والناس هنا يتحرقون شوقا إلى حكومة وطنية محلية . والأمر لن يحتاج إلى صدمة عنيفة جدا تمكن أهل هذه المنطقة من الانفصال عن الأسرة المالكة فى الرياض ؛ ولكنهم لن ينفصلوا عن تعاليم المذهب الوهابى أو يتخلصون منها .

وعدد البدو فى هذه المناطق الستة قليل نسبيا ، وهم ينتشرون فى كل أنحاء الهضبة الكبيرة ووديانها المختلفة . والبدو عن بكرة أبيهم متيمون بتلك الفوضى المدنية والدينية ، التى يمكن الدخول فيها بسهولة والخروج منها بسهولة ، قياسا على قوة أو ضعف الحكومة القابضة على السلطة ؛ والبدو هم مخلوقات اليوم ، وهم أيضا من الأدوات المستعدة للغزو أو القهر ، ولإثارة الاضطرابات والخروج على النظام ، بغض النظر عن شخص من يقبل على المزايدات التى من هذا القبيل .

والى هنا ، يكفى ما قلته عن كل من نجد ، وعن الحريق ووادى الدواسر . وتجئ بعد ذلك ثلاثة مناطق أخرى كبيرة ، تتبع نجد لسبب واحد رئيسى ، مؤداه أن هذه المناطق الثلاثة لا تستطيع تحرير نفسها من قبضة نجد ؛ وأنا أعنى بهذه المناطق كلا من الأحساء ، والقطيف ، والقصيم .

وسبق أن قلت الكثير عن سكان القصيم مستهدفاً بذلك تفسير ميولهم واتجاهاتهم سواء أكانت سياسية أم دينية . ويكفى أن تكون حرب عنيزه مثالا على ذلك . وأهل القصيم ربما يسعدون ، وسوف يسعدون فى يوم من الأيام ، عندما يتحالفون مع القوة الأولى ، بغض النظر عن هويتها ، التى ستثبت لهم إنها هى التى تحميهم ، سواء أكانت تلك الحماية حجازية ، أم قاهرية ، أم عثمانية أم مصرية . وأغلبية السكان فى هذه المناطق من المسلمين ، وليسوا وهابيين ؛ وبعض هؤلاء السكان ، حوالى الربع تقريبا لا يستقرون على مذهب بعينه سواء من حيث النظرية أو التطبيق .

سوف أتعرض بشئ من التفصيل ، فيما بعد ، لكل من الأحساء والقطيف . وسوف يتضح أن وحدتهما مع نجد غير مستقرة ورغما عنهما وذلك على العكس من القصيم . وسوف نقف فيما بعد على تأثير كل من المذهب الوهابى ونجد على البحرين ، التى تقع على الضفة الفارسية المقابلة ، أو إن شئت فقل : بر فارس ، وعلى الكويت فى الشمال ، وعلى عُمان فى الجنوب - والتأثير فى هذه المناطق نابع من الخوف وليس من الحب، ولكن يستثنى من ذلك ثلاثة مناطق محلية ، هى على وجه التحديد بر فارس ، وجزء من قطر ، وساحل القواسمة .

وعسير حليف دائم لنجد ، ولكنها ليست امتدادا أو تابعا لها ، وأنا لم أزر منطقة عسير الجبلية التى تقع إلى الجنوب من مكة ، وأذكر القارئ الكريم إنها لا تبعد كثيرا عن شواطئ البحر الأحمر . ولكنى استمعت إلى بعض المواطنين وهم يتحدثون عن منطقة عسير قبل وأثناء رحلتى إلى وسط الجزيرة العربية . وتشدد أهل عسير يشبه تشدد النجديين، وبخاصة أن أهل عسير يلتزمون بالتعاليم النجدية من جميع النواحي . ومن حيث الخصال والصفات العربية يقال أنهم أقل ثباتا من النجديين فى الحرب كما يقلون عنهم أيضا فى قوة الإرادة والعزيمة - وخلاصة القول : أن أهل عسير يشبهون أعراق الحجاز الذى يعيشون على حدوده . ولكن ، فى جميع الأحوال ، فإن عدد سكان عسير ، وأهمية موقعها الجغرافى ، بحكم قربها الشديد من مكة ، ووجودها

على أحد أجناب المسار الذى يسير فيه الغزو المصرى ، هو الذى يجعل من هؤلاء السكان حليفا نافعا لقضية لا نفع منها أو طائل من ورائها .

واستهدافا لمنع مقاطعة استمرار المضى فى سرد أحداث قصة الرحلة التى قمت بها إلى الرياض ، سوف أورد هنا بضع كلمات عن رحلة قصيرة قمت بها مع بركات إلى الافلاج . تلك المنطقة التى تحددها معظم الخرائط ، وأنا لا أعرف سبب ذلك ، على إنها تبعد حوالى مائتى أو ثلاثمائة ميل عن العارض ، برغم إنها تجاوز العارض ، فى واقع الأمر ، وتفصلها عن وادى الدواسر . والواقع أن الافلاج ، هى عبارة عن كتف الجبل ، أو إن شئت فقل إنها النتوء البارز من حائط جبل طويق العظيم ؛ وعلى كل حال فإن ارتفاع ذلك النتوء الذى تقع عليه الافلاج أقل من ارتفاع بقية سلسلة الجبال ؛ ومن خلف هذا النتوء يبدأ مستوى الأرض فى الانخفاض تدريجيا - وهذا هو ما قاله الرحالة العرب وأنا أؤكد صحة ذلك - إلى ما يقرب من مسيرة ثلاثة أو أربعة أى (حوالى ستين أو سبعين ميلا) من قلعة بيشه . ومن قلعة بيشه يبدأ مستوى الأرض فى الارتفاع من جديد فى اتجاه جبل عسير . وقد غادرت الرياض مع رفيقى بركات فى الأسبوع الثانى من شهر نوفمبر ، وسرنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، وعبرنا وادى حنيفه ، ووصلنا فى الليلة نفسها إلى قرية صفراء على حدود العارض . وكان مرشدنا من مدينه نجران ، واسمه بداع^١ ، أو إن شئت فقل "الهرطقه" وهذه تسمية سيئة وغير موفقة لإنسان سيزور أكثر البلدان تدينا ؛ ومع ذلك فقد كان حامل ذلك الاسم رجلا حسن الطبع بشكل ملموس ، مستدير الوجه ، وعريض المنكبين ، ويعمل تاجرا جائلا ، ومحبا للمتعة والتنويع . كان بداع قد تناول معنا القهوة مرارا فى قهوتنا فى الرياض ؛ وكانت الرحلة التى نقوم بها الآن من اقتراحه هو ؛ وقد أعطتنى ممارسة مهنة الطب ذريعة مناسبة لمصاحبتة أثناء هذه الرحلة .

وبعد أن خرجنا من وادى حنيفه ، اكتشفنا أن الهضبة الجنوبية أكثر تكسيرا وتعرجا من الهضبة الشمالية ؛ ولكنها تشبهها من بعض الجوانب الأخرى ، إذ أن الهضبتين تتكونان من الحجر الجيرى أو إن شئت فقل ؛ إنهما مكونتان من تركيب كلسى واحد . وكان الطريق ، أو بالأحرى المدق ، الذى سلكناه يصعد ويهبط بين قمم الصخور التى يضرب لونها إلى البياض ، وعلى كل حال فإن أشجار السدر والمرخ ، وكذلك العشب كانت تكفى لرعى الأغنام ، والمحافظة على المنظر الطبيعى من الإقفار والجذب .

وعلى امتداد عدة أميال كانت مجارى سيول الشتاء تتجه صوب وادى حنيقة ، ثم اتجهت بعد ذلك لتشق لنفسها طريقا فى اتجاه الجنوب .

وفى قرية الصفراء استقبلنا الناس استقبالا طيبا على الطريقة النجدية . وقد أعطانا صفر حجم القرية ، التى لا يزيد عدد منازلها على ستين منزلا ، مبرراً لعدم بقائنا فيها إلى ما بعد صبيحة اليوم التالى . وكانت بعض منازل هذه القرية مصنوعة من جريد النخل ومن القش ، وهذه كلها مؤشرات ودلائل على المناخ الحار ؛ أما الأسوار التى كانت تحيط بالقرية (ويصعب أن اسميها تحصينات) فقد كانت مصنوعة من اللبن ، وتبدو عليها آثار التخريب والدمار . وعوضا عن ذلك ، كان المسجد الذى كان الجميع يداومون على إصلاحه وترميمه بصورة مستمرة ، جديدا وأنيقا .

وفى اليوم التالى ركبنا جمالنا ، وجلنا عدة ساعات وسط ذلك الذى يطلق عليه الإنجليزى الذى يزور الشرق اسم "الوديان" Denes ، التى تتخللها ، من حين لآخر ، وديان رملية تنحدر بشكل متدرج وملحوظ من ناحية الجنوب الغربى . ثم تصل إلى الافلاج ؛ وقبل الظهر تجاوزنا قرية المشَلح الكبيرة - ووقع هذه الكلمة نذير شؤم وسوء عند الرحالة ؛ وباستثناء القمصان ، فقد كانت القطع الثلاثة الصغيرة تناسب هذا الغرض تماما) ، وفى قرية المشلح أمضينا فترة حرارة الظهيرة فى منزل صغير ، مع بعض السكان الذين تعرف بداع عليهم عن طريق تجارته الجائلة . ومظهر السكان فى تلك القرية يوحى بالفقر المدقع . وبرغم كبر مساحة بيارات النخيل ، إلا أن أشجارها كانت متناثرة وغير كثيفة فضلا عن أن آبار المياه لم تكن غزيرة الإنتاج . وزراعة القطن فى هذه المنطقة أكثر من العارض ، كما تكثر هنا حقول الدخن الأبيض بدلا من حقول العدس التى تكثر وتنتشر حول الرياض . ومن حيث الملابس والأموال الأخرى يتشابه الرجال والنساء هنا مع رجال ونساء العارض ، باستثناء أن القمصان هنا أكثر منها فى العارض ، كما يشيع هنا استعمال السكين الثقيل المستقيم الذى يسمونه "البريم" ويعلقه الرجال فى أحزمتهم .

والطريق من المشلح إلى الخُرقة يقع فى معظمه وسط ممر ضيق عميق إلى حد ما؛ وقاع هذا الممر الضيق الحجرى يدل على أنه مجرى لسيل من سيول الشتاء غير أنه يجف فى هذا الوقت من العام ؛ وعلى جانبى هذا الممر الضيق توجد مراعى ممتازة

وقطعان كبيرة من الأغنام ؛ وفي أسفل هذا الممر يوجد عدد قليل من بيارات النخيل التي أقام البساتنة أكواخهم إلى جوارها ؛ وهذه المنطقة تعاني من التخلخل السكاني ، وبخاصة عندما نقارنها باليمامة أو حتى بمنطقة سدير . ويرخى الليل سدوله علينا قبل أن نصل إلى الخرفه ، ونقضى فترة الراحة في سهل رملي تتخلله أشجار النخيل بالقرب من أسوار القرية . وحاكم المنطقة الذي يسكن في هذا المكان ، من أهل العارض ، وهو من الوهابيين المتشددین . ويرفض بداع أن نقوم بزيارة هذا الحاكم ، ولم يحبذ الذهاب دون تقديم أنفسنا له . وبلدة الخرفة ، كما يسمونها ، تحتوي على ثمانية آلاف مواطن أو أكثر ؛ والماء وفير في الخرفة ، وتوجد البساتين فيها أكثر من أي مكان آخر في الأفلاج . ويتساوى عدد الخضيري ، أو إن شئت فقل المولدين مع عدد السكان البيض ؛ والسكان البيض شأنهم شأن أقاربهم الزنوج يرفضون الاعتراف بالقميص العربي ، ويكتفون بلف فوطة من حول خصرهم . وكرم أهل هذا البلد هزيل جداً ، والناس هنا يفتقرون إلى العلاقات الاجتماعية ، وسلوكياتهم تفتقر أيضاً إلى التحضر ، مما ذكرني بوادي الدواسر ، الذي لا تبعد حدوده عن هنا سوى خمسة عشر أو عشرين ميلاً فقط في اتجاه الجنوب . وبقينا في الأفلاج إلى ما بعد الظهر ، وعدنا منها إلى الرياض ، ومن نفس الطريق الذي سلكناه إليها .

وكان من الطبيعي أن يتركز الحديث الذي جرى في كل من الصفراء ، والمشلح ، والخرفة عن حرب عيزه بصفة أساسية ، والتي اشترك فيها حوالي ثلث الرجال المقاتلين من هذه المنطقة . ولكن الموضوع الثاني الذي جذب اهتمامي بصفة خاصة ، كان يتمثل في البلاد وحركة المرور بين الأفلاج واليمن ، ذلك الموضوع الذي ساعد وجود بداع على إثارته . ومن خلال الحديث الذي دار استطعت أن أجمع المعطيات التالية ، عن طريق السماع ، دون التشكك في صحة هذه المعطيات بشكل عام ، إضافة إلى أنني لا يمكن أن أقطع بدقة التفاصيل التي وردت ضمن هذه المعطيات .

كانت تلك المعطيات على النحو التالي : أولاً ، أن التاجر أو الرّحال المتجه إلى اليمن ، عندما ينطلق من جنوب الخرفة ، يدخل وادي الدواسر ، الذي يصفه أهل الأفلاج بأنه طويل وممل ، ورملي ، وأن جبل طويق يحفُّ بهذا الوادي من الناحية الشمالية (وهم يسمون هذا الجبل هنا ، باسم الجزء الأوسط منه ، أي جبل العارض أو جبل نجد ؛ ولكن هذين الاسمين غير صحيحين من الناحية الجغرافية) ،

ويقولون أيضا إن وادي الدواسر تحيط به الدهناء أيضا من الناحية الجنوبية . والناس يقدرّون طول هذا الوادي بمسير حوالي عشرة أيام ؛ أي بما يقدر بحوالي مائتي ميل . ومنازل القرى مصنوعة في معظمها من سعف وجريد النخيل، وهي تتناثر هنا وهناك ، على طول الطريق ، والماء يكثر هنا في كل مكان . وأنا هنا أعتبر هذه المنطقة نوعا من المناطق الموجودة جنوبي وادي السرحان . والمسافر عندما يصل إلى نهاية وادي الدواسر ، يدخل منطقة القورا K.ora ، وهي منطقة واسعة ولكنها مغلقة السكان ، وشبه صحراوية ؛ وهي تقع خلف كل من الطائف وجبل عسير . والمدينة الرئيسة في هذه المنطقة هي قلعه بيشه ، والتي تبعد مسير يومين (أو أربعين ميلا) عن وادي الدواسر . والسير مسافة ثلاثة أيام أخرى في اتجاه الجنوب يفضي في النهاية إلى وادي السليل ؛ ولم أتمكن من معرفة اسم عاصمة ذلك الوادي ، إن كانت له عاصمة . وقد حدثنا بداع عن ذلك الوادي بأنه منطقة فقيرة ، مليئة بالكثبان الرملية ، ويقل فيها الماء . ومسير يومين آخرين يفضي بالمسافر إلى وادي نجران ؛ وإن صحت رواية بداع ، فإن خصوبة ذلك الوادي تتسم بالطابع اليمني أكثر منها بالطابع النجدي ؛ ووادي نجران زراعته جيدة ، ويسكنه عدد كبير من السكان المتحضرين ، وتموره من النوع الممتاز ، وقمحه من النوع الممتاز أيضا ، وهو من مناطق السلام والخير الوفير . ومن وادي نجران يمر الطريق المتجه إلى صنعاء ، التي يعتمد أمير وادي نجران على أميرها اعتمادا كبيرا .

وسكان وادي نجران يقولون عن أنفسهم إنهم شيعيون ؛ والنجديون يكتفونهم "بالكفار" . وعندما استشعر بداع أنه بعيد عن تنصت الوهابيين ، لم يخف مذهبه ولا مذهب بني وطنه . وسكان وادي نجران ، شأنهم شأن سكان كل من الأحساء وعمان ، ينتمون إلى مدرسه القرامطة ، وهي مدرسه مشابهة للمدرسة الفارسية ، وهي تنقسم إلى البياضية^١ والدروز ، والاسماعيلية وإلى طوائف و فرق أخرى كثيرة . ومبلغ علمي أنه لا توجد ، في غربي الجزيرة العربية ، مستوطنة قرموطية ، غير وادي نجران . ووادي نجران هو التذكار الوحيد المتبقى الذي يذكرنا بالثورة التي اندلعت خلال القرن الثالث الإسلامي . والطريق الذي يمر بكل من وادي الدواسر ووادي السليل هو الطريق الذي يسلكه ، في معظم الأحيان ، تجار اليمن عندما يقصدون السفر إلى نجد ؛ وهذا الطريق مباشر تماما ، ولا يمر خلال الممرات الجبلية أو العوائق الموجودة في جبل عسير .

وقد سمعت الكثير من أولئك الذين كانوا يقطعون الطريق الشهير الذى يمر من خلال وادى حنيفة إلى شمالى الافلاج ، ثم منها إلى شقراء ، ثم جنوبا إلى الطويق ومنها إلى مكة ، وسمعت منهم الكثير عن قوافل ذلك الطريق ، وأماكن الراحة فيه . وقد جاء كلام هؤلاء الناس مطابقا لما هو موقع على الخريطة الألمانية التى نشرت فى جوتا Go'taa فى العام ١٨٣٥ الميلادى، بعد الأبحاث التى قام بها كل من نيور ، واهرنبرج ، وروبل Rüpel . وهذا هو الطريق العلوى فى وسط الجزيرة العربية . وعند شقراء يتفرع من هذا الطريق طريق آخر مباشر يؤدى إلى كل من عنيزه والقصيم .

ومن شمالى الرياض هناك طريق واحد فقط هو الطريق نفسه الذى سلكناه كى نصل إلى الرياض ؛ ولكن هذا الطريق يتفرع عند زلفة إلى ثلاثة طرق : أحدها يؤدى إلى القصيم ناحية الغرب ، والثانى يؤدى إلى جبل شومر فى الشمال الغربى ، والثالث إلى الزبير فى الشمال الشرقى . ومن شرقى الرياض هناك طريق واحد مطروق ينطلق من وسط الرياض إلى المناطق المحيطة بها؛ وسوف نسلك ذلك الطريق بعد فترة وجيزة. ومن ثم فإن نجد تبدو وكأن لها أربع من خطوط الاتصال مع المناطق الخارجية ومع السواحل ، وأن هذه الخطوط الأربعة تتفق إلى حد ما ، مع الجهات الأربع الأصلية فى البوصلة ، وأن هذه الطرق الأربع يتعين عليها فى مرحلة من المراحل أن تعبر شريطا صحراويا ، برغم أن الطريقين اللذين يقفان ناحية الجنوب الغربى ، وناحية الغرب يصادفان رمالاً أقل من الطريقين الآخرين . والمسار الذى سلكناه إلى الرياض كان أطول هذه المسارات ، وأشققها ، وأقلها ارتياداً ، وبالتالي كان ذلك الطريق ، ومن منطلق هذه الأسباب نفسها ، أفضل الطرق وأكثرها أمنا وأمانا بالنسبة لنا .

والصحراء الكبرى تقع إلى الجنوب من وادى الدواسر وشرقى نجران ، وهى تمتد أيضا من بعد اليمامة والحريق على شكل عائق مهجور وخال من الطرق والمدقات ، ويصعب اجتيازه ، وينطبق عليه الكثير من ذلك الذى كتبه شايلد هارولد Child Harold ، فى المقطوعات الأخيرة ، من قصيدته التى كتبها عن المحيط ؛ ولكنى سوف أتكلم بالتفصيل عن الصحراء الكبرى ، عندما أزورها فيما بعد .

وخلاصة القول ، إننا يحق لنا أن نقول : إن الإمبراطورية الوهابية عبارة عن حكومة محكمة منظمة تنظيما جيدا ، والمركزية فيها مفهومة فهما جيدا وتنفذ تنفيذا جيدا أيضا ، وأن القوة والتشدد هما حلقتا الوصل والمحركان الرئيسيان فى هذه

الحكومة ، وليست هناك أية عوائق دستورية أمام الملك أو رؤسياه ، سوى ما تمليه الضرورة أو ما ينص عليه القرآن (الكريم) . والمناخ السائد هنا ، إن جاز لى أن أتكم بطريقة الاستعارة، هو الاستبداد الشديد والفريد سواء أكان أخلاقيا، أم فكريا ، أم دينيا ، أو بدنيا . وهذه الامبراطورية لديها القدرة التى تمكنها من توسيع حدودها ، ومن هنا فهى تشكل خطرا على جيرانها ، الذين بدأت تبلع البعض منهم الآن ، بل إنها سوف تبتلع المزيد منهم فى المستقبل ، إذا لم يجر منعها من ذلك . ونظرا لعجز هذه الإمبراطورية عن تحقيق التقدم الداخلى الحقيقى ، ونظرا أيضا لمعاداتها للتجارة ، ونظرا أيضا لعدم رضاها عن الفنون بل وعن الزراعة أيضا ، وفى ضوء رفضها وظلمها الشديد ، فإنها سوف لا تحسن من نفسها ، ولن تفيد الآخرين ؛ فى حين نجد أن النظام والهدوء التى تنشرهما فى الأراضى التى تغزوها ، ينطبق عليهما الوصف الذى ورد على لسان المؤرخ الرومانى ويستشهد به فى معظم الأحوال : إنهم يصنعون الوحدة للمدينة ويدعونها سلاماً . *ubi solitudinem Faciunt pacem appellant* . ونحن نضيف هنا أيضا أن أخطر نقاط ضعف هذه الامبراطورية تتمثل فى المنازعات العائلية والتصارع على تولى الحكم ، والتى إذا ما أضفناها إلى رد الفعل المعادى للوهابية فى كل أنحاء هذه الامبراطورية ، فلربما أدت فى يوم من الأيام إلى تفكيك هذه الإمبراطورية النجدية وتبعثرها ، وهذا لا يعنى القضاء عليها كليا . وإبراهيم باشا وحده هو الذى استشرف الوسائل الحقيقية لتخليص الجزيرة العربية وجيرانها من سموم ذلك التشدد المستبد ، وهو الذى بدأ العمل فى هذا الاتجاه ولكن نزوات وأهواء وحماسة من جاعوا بعده هى التى أحبطت هذا العمل وأوقفته . ولكن طالما بقيت الوهابية فى وسط الجزيرة العربية وفى الأجزاء المرتفعة منها ، قلّت ، فى واقع الأمر ، فرص التحضر ، والتقدم ، والرفاه الوطنى أمام أفراد العرق العربى .

وأنا فى النهاية ، أضيف إلى هذا الفصل قائمة عديدة حصلت عليها من سجلات الحكومة فى الرياض ، وهى إلى حد ما من المعلومات المحلية ، وتحتوى على المدن أو القرى الرئيسية ، وعدد السكان ، والقوة العسكرية ، فى كل أنحاء الإمبراطورية الوهابية . كما أورد أيضا قائمة ثانية تقدم شيئا مماثلا عن البدو داخل المناطق المختلفة .

رقم مسلسل	اسم المنطقة	عدد المدن أو القرى	عدد السكان	القوة العسكرية
١	العـارـض	١٥	١١٠٠٠٠	٦٠٠٠
٢	اليمامة	٣٢	١٤٠٠٠٠	٤٥٠٠
٣	الحـرـيق	١٦	٤٥٠٠٠	٣٠٠٠
٤	الافـلاج	١٢	١٤٠٠٠	١٢٠٠
٥	وادي الدواسر	٥٠	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠
٦	السـلـيل	١٤	٣٠٠٠٠	١٤٠٠
٧	الوشـم	٢٠	٨٠٠٠٠	٤٠٠٠
٨	سـدـير	٢٥	١٤٠٠٠٠	٥٢٠٠
٩	القـصـيم	٦٠	٣٠٠٠٠٠	١١٠٠٠
١٠	الاحـساء	٥٠	١٦٠٠٠٠	٧٠٠٠
١١	القـطـيف	٢٢	١٠٠٠٠٠	—
الإجمالي		٣١٦	١٢١٩٠٠٠	٤٧٣٠٠

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أمرين . أولهما ، عدم تناسب عدد السكان مع عدد القرى . ربما يكون ذلك راجعا إلى تباين أحجام القرى وأهميتها ، وذلك في ضوء الظروف السياسية والظروف الأخرى لكل منطقة من هذه المناطق كل على حده . وعلى سبيل المثال ، نجد في وادي الدواسر ، الذي لا توجد فيه مدن كبيرة ، ومراكزه السكانية عبارة عن مجرد كفور (هجر) ؛ أن إجمالي عدد السكان يساوي عدد سكان القصيم تقريبا ، التي يوجد فيها مدن كبيرة مثل عنيزة ، وبريده ، والحاكية ، والرس وما إلى ذلك ، يضاف إلى ذلك أيضا خصوبة تربة البلاد بشكل عام ، وكل ذلك يؤدي إلى زيادة إجمالي عدد السكان إلى ثلاثة أضعاف سكان وادي الدواسر .

ثانيا ، إن حصة القوات العسكرية تظهر بينها تفاوتات كبيرة . وهذا يرجع بدرجة كبيرة إلى المناطق المدرجة على هذه القائمة ، من ذلك مثلا أن القطيف ، برغم زيادة

الكثافة السكانية فيها ، لا تزود الجيش بأى شئ من الأفراد ، وذلك لأسباب سوف أشرحها وأوضحها فيما بعد ؛ فى حين أن سكان العارض التى تقل فيها الكثافة السكانية ، يملأون صفوف المقاتلين النجدين . وكثير من هذه التناقضات لها تفسيرات كثيرة فيما أوردته من تفاصيل طوال هذه الرحلة .

وفيما يلى إحصائية عن السكان البدو ، ذلك العنصر الذى تناقص بشكل كبير فى وسط الجزيرة العربية .

رقم مسلسل	القبائل	عدد السكان
١	عجمان	٦٠٠٠
٢	بنو هجر	٤٥٠٠
٣	بنو خالد	٣٠٠٠
٤	مطير	٦٠٠٠
٥	عتبية	١٢٠٠٠
٦	الدواسر	٥٠٠٠
٧	السباع	٣٠٠٠
٨	قحطان	٦٠٠٠
٩	حرب	١٤٠٠٠
١٠	عنزه	٣٠٠٠
١١	آل مره	٤٠٠٠
	أسر متناثرة	١٠٠٠٠
الإجمالى		٧٦٥٠٠

من المعروف أن القوة العسكرية فى القبيلة البدوية تقدر بحوالى معشار العدد الإجمالى لهذه القبيلة . وهذا يجعلنا نقدر إجمالى قوة المقاتلين البدو بحوالى ٨٠٠٠ مقاتل تقريبا ، ينضون تحت لواء ابن سعود المكون من اللونين الأبيض والأخضر .

وأنا هنا ، أود أن أذكر القارئ (الكريم) ، برغم أننى شرحت ذلك من قبل ، أن بنى خالد الذين ورد ذكرهم ضمن هذه القائمة هم ينتمون إلى الأصل نفسه الذى

تنتمى إليه هذه القبيلة فى سوريا : وأود أن أذكر القارئ أيضا أن عنزة نجد وسباع نجد ليسوا هم عنزة أو سباع سوريا ؛ وأود أيضا أن ألفت انتباه القارئ أن عشائر قحطان وآل مرة أكثر عددا فى واقع الأمر ، مما هم عليه فى هذه القائمة ، إذا أن من ورد عددهم هنا هم أولئك الذين يكونون رهن إشارة الملك الوهابى ؛ كما أود أن ألفت الانتباه أيضا إلى أن العجمان ، وبنى خالد ، وبنى هجر هم أولئك الذين أنزل بهم سيف عبد الله كثيرا من الخراب والدمار .

ثالثا ، وأنا أدرج هنا أيضا قائمة الجزية التى كانت المناطق المختلفة تدفعها لخزينه الرياض كل عام ، هذا بخلاف المساهمات الطارئة غير المعتادة . وأنا أورد هذه التقديرات من واقع القوائم الموجودة لدى جوهر ، كما أحدد المبلغ هنا بالريال أو بالدولار الأسبانى ، اللذين يستعملان هنا ، كما يستعملان على نطاق واسع أيضا فى الشرق ، باعتبارهما مقياسا نقديا موحدا ؛ والريال الأسبانى أو الدولار الأسبانى ، طبقا لسوق النقود فى نجد ، يساوى خمسة شلنات وست بنسات من النقد الإنجليزى .

رقم مسلسل	المنطقة	الجزية بالريال
١	العارض	٥٠٠٠
٢	اليمامة	٦٠٠٠
٣	الحريق	١٠٠٠٠
٤	الأفلاج	٢٠٠٠
٥	وادي الدواسر	٤٠٠٠
٦	السلييل	٣٠٠٠
٧	الوشم	٦٠٠٠
٨	سدير	٧٠٠٠
٩	القصيم	١٢٠٠٠٠
١٠	الاحساء	١٥٠٠٠
١١	القطيف	٥٠٠٠٠
الإجمالى		٣٦٣٠٠٠

= أى ما يعادل ١٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزى .

ويتعين علينا أن نضيف إلى هذه المبالغ ما يلي : أولا ، جزية سنوية أو إن شئت فقل ابتزازا يقدر بحوالى ٨٠٠٠ ريال ، أو ما يعادل ٢٢٠٠ جنيه إنجليزي تجبى سنويا من البحرين . ثانيا ، جزية مماثلة مفروضة على المناطق الغربية من عمان ، وتقدر بحوالى ٢٠٠٠٠ ريال سنويا ، أى ما يعادل ٥٥٠٠ جنيه إنجليزي . وإذا ما أضفنا هذه المبالغ إلى إجمالى الجزية السابقة، يصبح إجمالى هذه الجزية حوالى ٣٩١٠٠٠ ريال، أى ما يساوى ١٠٧٠٠٠ جنيه إنجليزي .

وتقدر المدفوعات الطارئة غير المعتادة ، هى والغرامات ، والهدايا ، وغنائم الحرب وما إلى ذلك بمبلغ يساوى هذا المبلغ تقريبا ؛ ومع ذلك فإن إجمالى المتحصلات السنوية قد يصل إلى ١٦٠٠٠٠ جنيه إنجليزي ، وقد يزيد عن ذلك . ونظرا لأن هذه الإمبراطورية لا تحتفظ بجيش نظامى ، وليس لها أسطول باستثناء سفينتين أو ثلاث سفن قديمة فى (القطيف) ، ونظرا لأن الملك ليست له حاشية كبيرة ، فى نجد ، فإننا نقول إن الحكومة الوهابية ليست معرضة للوقوع فى براثن الدين الوطنى ، وأن هذه الحكومة يمكن اعتبارها من الحكومات الغنية فى إطار بلادها والظروف المحيطة بها .

وسوف أضيف على ذلك تقديرا تقريبا لهذه العناصر نفسها فى مملكة طلال ابن الرشيد . وكان من المفروض أن أورد هذه الجزئية فى مرحلة سابقة من هذا الكتاب ؛ ولكنى استهدف من ذلك وضع التقديرين جنبا إلى جنب ؛ كى تنهيا للقارئ فرصة تبين بعض الاختلافات المهمة فيما يختص بالسكان والأمور الأخرى بين منطقتى نجد وجبل شومر :

رقم مسلسل	المنطقة	عدد المدن أو القرى	عدد السكان	القوة العسكرية
١	جبل شومر	٤٠	١٦٢٠٠٠	٦٠٠٠
٢	الجوف	١٢	٤٠٠٠٠	٢٥٠٠
٣	خيبر	٨	٢٥٠٠٠	٢٠٠٠
٤	القصيم العليا	٢٠	٣٥٠٠٠	٢٥٠٠
٥	تييماء	٦	١٢٠٠٠	١٠٠٠
الإجمالى		٨٦	٢٧٤٠٠٠	١٤٠٠٠

القبائل البدوية الخاضعة ل - طلال :

رقم مسلسل	القبيلة	الأجمالى
١	<u>شومر</u>	٨٠٠٠٠
٢	الشرارات	٤٠٠٠٠
٣	الحويطات	٢٠٠٠٠
٤	بنو عطية	٦٠٠٠
٥	<u>معاذ</u> ①	٤٠٠٠
٦	الطائى	٨٠٠٠
٧	<u>الوحيدية</u> ②	٨٠٠٠
الإجمالى		١٦٦٠٠٠

تقدر القوة العسكرية بحوالى ١٦٠٠٠ رجل

إجمالى السكان ٤٣٠٠٠٠ نسمة ، والقوة العسكرية ٢٠٠٠٠ رجل

ولعل القارئ الكريم يلاحظ نسبة البدو الكبيرة فى الشمال . ولم أتمكن من الحصول على تقدير دقيق بالمدخلات التى يحصل عليها طلال بن الرشيد ؛ ولكنى اعتمادا على حالة الزراعة والتجارة فى مملكه ابن الرشيد ، أقدر تلك المداخل بما يعادل حوالى ربع المداخل التى يتحصل عليها فيصل كل عام .

الفصل الثانى عشر

بلاط الرياض - الرحلة إلى الهفوف

دعنى أتناول

درهم سمّ ، تلك الآلة سريعة الانتشار

والتي ستنتشر نفسها خلال جميع الأوردة

ويتخلص البدن من النفس

فجأة مثلاً يفعل البارود المستطلق

متعجلاً عندما يخرج من رحم المدفع المميت

شكسبير

التعارف مع عبد الله أول مرة - جمائله - شخصيه ذلك الأمير- زيارة الإسطنبول
الملكى - الحصان النجدى - تفاصيل السلالة - محبوب رئيس الوزراء- تاريخه ،
شخصيته ، وسلوكه - مصر ونجد - استقبال النائب الإيراني فى البلاط - مضايقات
النائب الإيراني - زيارة المطيعية الصباحية - نتائج الزيارة - مناورات النائب مع
حكومة الرياض - اختتام المفاوضات - الاستعداد لعنيزة - المراسلات الرسمية -
وصول سعود مع الحامية الجنوبية - استقبال سعود والحامية فى الرياض - المنازعات
بين سعود وعبد الله- مقابلة سعود - شخصيته - الوضع النسبى لكل من الشقيقين -
شيخوخة عبد الله وتشككه - مقترح إقامة منشأة فى الرياض - الهروب من المقترح -
علاج الاستراكتين - طلب الأمير عبد الله - رفض الطلب - مشهد ليلى فى القصر -
موقف حرج - هدوء مؤقت - الهروب من الرياض - توديع العاصمة - ثلاثة أيام فى

وادی سلّیع - رحله مع أبی عیسی والغنام - الأراضی العالیة شرقی الطویق - اللقیات - آخر حدود الطریق - المناظر الطبّیعیة - آبار الأویسیط - الدهناء ، أو الصحراء الكبرى - لحظه خطیره - رجمة أبی عیسی - آل مرّه - انفصال أبی عیسی عن الغنام - الطریق الصحراوی - وادی فاروق - مرتفعات الغار والغویر - انحدار الساحل - الجراد - حلول اللیل فی الهفوف .

بعد أن مرت العاصفة الأولى ، بدأت الأمور تبشر بالهدوء وسلامة مقامنا فی العاصمة ، طوال المدة التي نود قضاءها فیها . فقد استطاع جوهر أن يجعل صیتنا یذیع بین الناس ، وبدأت أعداد المترددين علینا طلبا للفحص تزدید يوما بعد یوم ، وزادت علی أثر ذلك معارفنا ، وكانت غالبیة أولئك الذین تعرفنا علیهم من أصحاب الشخصیات المرموقة . وكان الملك فیصل ، الذی هدأت مخاوفه إلى حد ما ، قد عاد إلى قصره ، واستجمع ، بعد شئ من التأخیر ، شجاعته بما یسمح له بمقابلة النائب الإیرانی ، مقابلة خاصة فی الدیوان الداخلی . وبرغم ذلك ، لم یكن محمد علی الشیرازی سعیدا بذلك الاجتماع أو ذلك الاستقبال ، ولم یستطع تفسیر ذلك البرود الذی استقبله به ذلك "البدوی" (هذا هو اللقب الوحید الذی كان الشیرازی یطلقه علی الملك) هو وقائمة الإهانات الطویلة التي تقدم بها إلیه ؛ یضاف إلى ذلك أن محبوب لم یكن متحمسا للوصول بهذه المسألة إلى أبعد مما وصلت إلیه . ونحن من جانبنا ، اتفقنا مع أبی عیسی ووافقناه علی ألا نطلب الاجتماع (بالملك) فیصل ؛ فقد كان ذلك الرجل المسن مجرد أداة فی أیدی وزرائه وأیدی طائفة "المطاوعة" ؛ وإذا كنا لا ننتظر نتائج طیبة من وجودنا فی دیوان الملك فیصل ، فإن ذلك الوجود قد یكون باعثا علی إثارة شكوك الحقد والنقد المغرض .

ولما كان عبد الله ، لا تراوده مخاوف الشیخوخة التي كانت تعتمل فی صدر والده ، فلم یكن یود أن یطول مقامنا فی البلاد دون أن ننال شرف التعرف علیہ شخصیا . والقارئ الکریم یعلم ، أننا كنا قد فضضنا بالفعل رسالة عبید إلى ذلك الأمير وقرأنا محتویاتها ؛ یضاف إلى ذلك أن محتویات تلك الرسالة لم تشجعنا علی التقرب إلى أي من طرفیها . والأهم من ذلك ، أن كل ما وصلنا عن شهرة ولی العهد وما سمعناه عن شخصيته ومیوله لم یكن مغناطیسا یجذبنا إلى أحضان ذلك الأمير . كان عبد الله ، بصفته حاکما للبلاد ، یحضر اجتماعین شعبیین كل یوم ؛ ولم یكن من الصعب الاتصال به أو الدخول إلیه فی قصره . ولكننا حاولنا جاهدین تحاشی ذلك الجزء من الشارع الجانبی الذی كان أفراد الجمهور یقولون عنه ، إنه یمكن من رؤیة الأمير ، وكنا نكتفی برؤیة منظر الأمير ، من بعد ، ومعه خدمه وحاشيته .

وعلى كل حال ، فقد وصلتنا ، خلال أيام قلائل ، رسالة من الأمير تطلب إلينا المثل أمامه . وكان حامل دعوة صاحب السمو ، سَمِيًّا للأمير عبد الله ، وواحدًا من أولئك النجديين الذين ينتمون إلى أشد الطبقات تزمًا وتعصبًا ؛ كان حامل الرسالة رجلاً واهى الساقين ، شاحب الوجه ، ومسنًا ؛ ومع ذلك فقد كان ذكياً بحق ونشيطاً ، وشخصية مقبولة بأي حال من الأحوال . وقد أبلغنا ذلك العليم أن صحة عمه (كلمة استعملها الرجل تأدياً بدلاً من اسم الأمير) كانت متوقعة إلى حد ما ، وأن ذلك هو الذى دفعه لاستشارة الطبيب . وأنهى الرجل كلامه بأن طلب إلينا بالألا نتأخر فى تحقيق الرغبة الملكية .

وهنا ارتدينا ملابس خارجية نظيفة واتجهنا إلى قصر الأمير عبد الله . وفى القصر تحتم علينا أن نتجاوز فناءين خارجيين ، قبل أن نصل إلى ردهة مسقوفة كانت قهوة الأمير عبد الله الخاصة عند مؤخرتها . وكانت للأمير قهوة أخرى ، ولكنها كانت لعامة الناس ؛ وكانت تلك القهوة فى الفناء الثانى ؛ كما كانت أبعاد تلك القهوة كبيرة ، ويصل حجمها الإجمالى إلى ضعف حجم غرفة ضيافة الملك فيصل . فى حين كانت القهوة الخاصة ، على العكس من القهوة العامة ، صغيرة ، ولا تتسع إلا لحوالى عشرين أو خمسة وعشرين فرداً على أكثر تقدير ؛ ومؤثته تأثيثاً جيداً ، ولكنها لم تكن جيدة الاضاءة تماماً . كانت فترة الصباح قد انتهت ، وأخذت درجة الحرارة ترتفع بشكل خانق داخل المبنى . وكان عبد الله يجلس على سجادة مفروشة فى الردهة ومعه ثلاثة أو أربعة من حاشيته إلى جواره . فى حين كان هناك كثيرون منهم الأبيض ، والأسود ، ويلبسون الملابس البسيطة المعتادة ، ولكنهم ، بلا استثناء ، كانوا مسلحين ، ويقفون أو يجلسون إلى جوار الباب ، وفى الألفية الخارجية ؛ لقد كانوا يشكلون منظراً غير لطيف ، وبخاصة النجديين الحقيقيين منهم .

ولولا مظهر التعالى والصلافة ، وميله الشديد إلى السمنة والبدانة - إذ يبدو أن ذلك عيباً وراثياً ، فى بعض أفرع الأسرة - لبدا عبد الله رجلاً مقبولاً . وعبد الله ، بالصورة التى هو عليها ، يشبه إلى حد بعيد هنرى الثامن فى كثير من ملامحه ، يضاف إلى ذلك أن هاتين الشخصيتين لا تختلفان عن بعضهما اختلافاً تاماً . وعندما دخلنا إلى مجلس الأمير عبد الله حاول أن يستجمع شكلاً من أشكال الكياسة الجافة ، واستقبلنا استقبالا مشجعاً ، برغم أننى سرعان ما اكتشفت أن طريقة استقباله

البدنى لنا كانت من قبيل إشباع فضوله ليس إلا . وكان من الطبيعى ألا يرد على لسانى ذكر عبيد أو رسالته . وبدأ الأمير عبد الله يستفسر بشكل عام عن جبل شومر ، والسبب فى ذلك ، أنهم كانوا قد أبلغوه بزيارتنا لتلك المنطقة ، وأوضح الأمير عبد الله أمامنا ، عدم رضاه عن طلال ، وسب ولعن المدافعين عن عنيزة ، كما سب الزامل ولعنه أيضا . ثم دخل الأمير بعد ذلك ، فى سلسلة من التساؤلات الطبية عن المزاج - الصفراوى ، اللنفراوى ، والدموى ... الخ . وكان يتشوق ، بشكل خاص ، إلى معرفة نوعية مزاجه ، وقد زاد تقديره لى بشكل كبير عندما أكدت له أن مزاجه إنما هو خليط من تلك الأنواع الأربعة . وتلى ذلك ، أن أكد الأمير عبد الله مرارا على حمايته لنا ورغبته الطبية تجاهنا ، وأنا لم أشك أبدا أن ذلك كان من قبيل النفاق ، نظرا لأنه ، حتى ذلك الوقت ، لم تكن تراوده الشكوك بالنسبة لنا . وفى النهاية ، أمرنا بدلا من أن يطلب إلينا ، بالحضور إليه فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ومعنا كتبنا الطبية ، معربا عن رغبته الأكيدة فى تعلم فن الطب : ودارت بخاطرى ، وبخاطر القارئ الكريم المقولة التى تقول : "هذا تلميذ واعد" .

وعلى كل حال ، كان الأمير عبد الله متشوقا ، عندما وصلنا فى صبيحة اليوم التالى إلى قهوته الخاصة ، وتناولنا القهوة وتطينا على نحو يعكس كثيرا من الاحترام والتقدير ؛ ويجلس الأمير معنا ساعة كاملة نقرأ ويقرأ لنا ، من كتابى القديم المطبوع فى بولاق ، أو من مخطوط قديم مجهول التاريخ من مكتبة صاحب السمو ، كان يحتوى على بعض الوصفات النبوية العلاجية (مما أثبت للأسف ! معرفة ولى العهد الهزيلة بالطب) ؛ وهذه الوصفات عبارة عن تعاريف قديمة وتذاكر مسروقة من ترجمة غير دقيقة لكتاب جالينوس فى الطب ، وقد أتلها سارقها بأن خلطها ، أو إن شئت فقل لخبطها ، مع بعض الأسماء الفارسية لبعض النباتات والمزروعات التى تحمل أسماء من صعيد مصر ، الأمر الذى يجعل حتى (النبي دانيال) عاجزا عن تفسير هذه التعاريف . وكان من الطبيعى أن نعامل ذلك الكتاب بكثير من الاحترام والتبجيل، وحاولنا تطعيمه ، بصورة أو بأخرى ، ببعض التفسيرات الأصيلة ؛ وأنا لا أدري مدى ما أصابه ذلك الكتاب من نجاح بعد هذه الإضافات . وفى جميع الأحوال ، فقد نجحنا فى اكتساب ثقة ولى العهد بنا إلى حد بعيد ، وأصبحنا عندما نمر على خدم القصر وحراسه يضحكون فى وجهنا إن كانوا من البيض ، ويكشرون إن كانوا من السود ، إلى أن بدأنا نألف القصر ونتألف مع ساكنيه والعاملين فيه .

ويستمر الحال على هذا المنوال المحبب ثلاثة أسابيع . إذ كانت تصلنا كل يوم تقريبا دعوة عامة أو خاصة لزيارة الأمير ، ونمضى ساعتين أو ثلاثة كل مساء أو أثناء الليل وسط هذا الجو الملكي . ولم يكن سموه متحفظا منى على الإطلاق . وكان يتكلم فى السياسة ، كما كان يهزأ من منطلق الجهل المتغطرس بتلك الدول التى سحقت إمبراطورية أجداده منذ سنوات ، والتى أعدمّت واحدا من أجداده ، ونفت آخر ، بل وأسرت والده فترة طويلة . وعلى كل حال ، فإن القسطنطينية والقاهرة لم تكن تشكلان أى شىء فى نظر عبد الله ، وعندما سألته ذات مرة ، وبطريقة عابرة ، إن كان قد زار مكة فأجابنى قائلا : "سوف أزورها ، ولكنى سوف أذهب إليها راكبا جوادا" ؛ بمعنى إننا قد نشاهد ذلك ونحن على قيد الحياة . ثم بدأ يتكلم بعد ذلك عن الخطط الفظيعة التى وضعت للاستيلاء على عنيزة ، وكيف سيتم ذلك الجدران والأسوار والمدافع ، أو بالأحرى إزالتها بالماء عن طريق آلة ضخمة ، نظرا لأنها مصنوعة من اللبن ؛ كما حدثنا أيضا عن الطريقة التى سوف يقطع بها رأس الزامل ، الخ . يضاف إلى ذلك أن سلسلة انتصاراته على البدو الغزاة وعلى جيرانه المسالمين ، جعلت الأمير يظن أن الجيش النجدى هو أول الجيوش ، وأنه هو نفسه أول قائد على وجه الأرض . والواقع أن الأمر هنا ليس فحسب من قبيل التباهى وإنما لأن الفرصة مهيأة لـ - عبد الله داخل حدود شبه الجزيرة العربية ، أن يكون مهيمنا وطاقيا على من عداه أيا من كان ؛ يضاف إلى ذلك أن مصر لا يتهيا لها كل قرن شخصية من طراز إبراهيم باشا حتى تقود جيوشها .

وقد تمكنت خلال هذه الفترة من مشاهدة الإسطبل الملكى ، وتلك فرصة كنت أتحينها وأتحرق لها شوقا . والسبب فى ذلك ، أن الحصان النجدى لا يقل عن سائر أنواع الخيول العربية التى تتفوق كل سلالاتها على السلالات الفارسية ، وسلالة رأس الرجاء الصالح ، والسلالة الهندية . ونجد هى الموطن الحقيقى للسلالة العربية ، أو إن شئت فقل النمط الأعلى ، أو النوع الأصيل . هذا هو ما سمعته ، وبالتالى هذا هو أيضا ما أعرفه من واقع خبراتى وتجاربى ؛ برغم علمى بأن المصادر الرسمية لها رأى يخالف هذا الرأى . وعلى أى حال ، فإن مجموعة خيول الملك فيصل ، قياسا على المجموعات الأخرى ، تحتل المرتبة الأولى بلا منازع ؛ ومن يشاهد هذه المجموعة ، فإنما يكون قد شاهد أرقى أنواع الخيول وأكملها لا فى الجزيرة العربية وحدها وإنما فى العالم كله .

حدث أن فرسا كانت قد أصيبت بجرح فى كتفها من الخلف ، من أحد الخيالة ؛ ونظرا للإهمال فى علاج الجرح وعدم العناية به ، فقد تلوّث وتحول إلى ورم أحر أكثر البيطريين النجدين خبرة ومهارة . وذات يوم ، وبينما كنت أجلس مع بركات فى قهوة الأمير الخاصة ، دخل صبى ، كعادته كل يوم ، على الأمير عبد الله ليحكى له عن أحوال الإسطبل . ونظر إلى (الأمير) عبد الله ، وسألنى إن كنت أستطيع علاج جرح الفرس . وقبلت العرض بكل سرور وطلبت زيارة المريضة ، برغم أنى قصرت خدماتى فقط على مسألة الفحص ليس إلا ، وامتنعت عن التدخل فى كل ما يدخل فى نطاق عمل الطبيب البيطرى . ويصدر الأمير تعليماته الخاصة بذلك الموضوع ؛ ثم يحضر إلينا فى المساء صبى حسن الطبع ، كما هى عادة الصبية ، ويرافقنى إلى الإسطبل مباشرة .

وإسطبل الملك يقع خارج المدينة ، ناحية الجنوب الشرقى ، وإلى اليسار قليلا من ذلك الطريق الذى وصلنا الرياض منه أول مرة ، كما لا يبعد ذلك الإسطبل عن بساتين عبد الرحمن الوهابى (آل الشيخ) . والإسطبل يشغل مساحة مربعة طول ضلعها حوالى ١٥٠ ياردة ، وغير مسقوفة من الوسط ، وبداخلها حظيرة تمتد بطول الجدران الداخلية ؛ ويتم ربط الخيول إلى أوتادها ، أثناء الليل ، فى هذه الحظيرة ، وبخاصة أن عدد هذه الخيول ، عندما شاهدها ، كان يصل إلى حوالى ثلاثمائة حصان ؛ ويتم فك هذه الخيول أثناء النهار لتتجول فى كل أنحاء الإسطبل . كان الجزء الأكبر من هذه الخيول غير مربوط عندما ذهبت مع الصبى إلى الإسطبل ؛ وعلى كل حال ، كانت قلة قليلة من تلك الخيول ، مربوطة إلى معالفها ؛ وكان البعض ، وليس الكثير منها قد وضع على ظهورها قطعا من القماش (عراقات) . فلم يكن الندى الغزير الذى يسقط فى وادى حنيفة يسمح ببقاء تلك الخيول معرضة ومكشوفة أثناء الليل ؛ وقيل لى أيضا أن الريح الشمالية التى تهب على هذه المنطقة ، بين الحين والآخر ، تؤذى هذه الخيول ، مثلما تفعل الريح البرية فى خيول الهند . شاهدت ما يقرب من نصف خيول الإسطبل الملكى ولكن بقية الخيول كانت ترعى ؛ ويقدر عدد خيول الملك فيصل بحوالى ستمائة رأس ، أو ما يزيد على ذلك .

والعرب لا يفكرون فى ربط الخيل من أعناقها ؛ وإنما هم يستعملون طولا بدلا من الحكمة ؛ ويتم وضع حلقة حديدية خفيفة حول رسغ قدم من قدمى الحصان الخلفيتين ، ويتم قفل هذه الحلقة بقفل من الحديد ، متصل بسلسلة من الحديد طولها يصل إلى حوالى قدمين ، وتنتهى بحبل ، مثبت فى الأرض على بعد مسافة قصيرة ، بواسطة وتد

حديدي ؛ وهذه هي الطريقة المتبعة في ربط الخيول داخل الإسطبل الملكي . أما إذا كان الحصان من النوع المتعب دائم الحركة ، فيتم ربط واحدة من قدميه الأماميتين بالطريقة نفسها . ومن المعروف أن الخيول في الجزيرة العربية أقل عنادا وشبقا منها في أوربا ، ولعل هذا هو السبب في عدم لجوء العرب إلى الخصي برغم أنه معروف لديهم . ولم أعتثر على أى سبب خاص يمنع العرب من القيام بعملية الخصي ، وكل ما في الأمر إن هذه العملية تعد نادرة جدا ، لأنها ليس لها ما يبررها ، علاوة على أنها ، في رأيهم ، تقلل من قيمة الحيوان .

ولكن هيا بنا نعود إلى الخيل التي أمامنا ، لم يحدث أن شاهدت أو تخيلت أننى سوف أشاهد مجموعة من الخيول لها مثل هذا القدر من الجمال . كانت قامة هذه الخيول منخفضة إلى حد ما ؛ ولا أعتقد أن قامة أى منها تزيد على خمس عشرة قبضة^(١) ، وأنا أرى أن متوسط ارتفاع هذه الخيول لا يزيد على أربع عشرة قبضة ؛ ولكن أشكال هذه الخيول وصلت من الدقة والكمال حدا أصبح معه افتقارها إلى الحجم لا يعد نقیصة أو عيبا على الإطلاق ، وأكفـال هذه الخيول ممتلئة ، وأكتافها تنحدر بطريقة جميلة تجعل الإنسان ، كما يقول الشاعر العربی "يتشوق جنونا إليها" ؛ وظهورها صغيرة ، بل وصغيرة جدا ، لتحمل سرجا صغيرة أيضا ، ذلك الانحناء الطفيف الذى يوحى بالمرونة فى غير ضعف ؛ ورأس عريض من الأعلى ، ومستدق من ناحية الأنف الذى ينطبق عليه قول الشاعر العربی "يشرب من وعاء سعته ثمن جالون" ، إن قدر لمثل هذا المكيال أن يكون موجودا فى نجد ؛ ومظهر الحصان النجدى يوحى بالذكاء والتفرد ، وعيناه كبيرتان ، وأذنه صغيرة تشبه الشوكة ، ورجلاه الأماميتان والخلفيتان تبدو وكأنها مصنوعة من الحديد المطروق ، والحصان النجدى نظيف جدا وهو مفتول العضلات ؛ وحافره مستدير وأنيق ، وهذا هو ما يصلح للأرض الصلبة ؛ وذيله يمتد على شكل عقْدٍ كامل ؛ وشعر ناعم ولامع ، وخفيف ، وشعر عنق الفرس ، أو إن شئت فقل عرقه ، طويل بشكل معقول ولكنه ليس كثيفا ؛ ومظهر الحصان النجدى ومشيته تبدو كما لو كانت تقول : "ناظرنى ، فهل أنا لست شعراً ؟" إن مظهر هذه الخيول يؤكد شهرتها وذیوع صيتها ، وقيمتها ، وكل ما قيل فيها من أشعار . واللون الغالب على هذه الخيول هو اللون الكستنائى أو الرمادى ؛ ويندر هنا اللون الكستنائى

(١) القبضة : وحدة تساوى أربع بوصات لقياس ارتفاع الخيل خاصة - (المترجم) .

الفتاح ، واللون الحديدي ، واللون الأبيض ، وكذلك اللون الأسود ؛ واللون الكستنائي الحقيقي ، وكذلك اللون الرمادي المنقط بنقط ضاربة إلى الحمرة ، وكذلك اللون الأرقط غير موجود هنا بالمرّة. ولكن إذا سألتني سائل عن المميزات الخاصة بالحصان النجدي، فإنني سوف أرد قائلا هي : انحدار الكتف ، ونظافة الساق ، واستدارة الكفل ، برغم أن كل جزء من أجزاء هذا الحصان فيه جمال وانسجام (لم تشهده عيناى) فى أى مكان آخر .

وغنى عن القول أننى التقيت هنا مرارا ، وطوال هذه الرحلة ، كثيرا من أنواع الخيول ودرستها بطريقة علمية ؛ ولكنى أجلت التعرض لهذا الموضوع إلى هذه المرحلة من الرحلة . وفى حائل وجبل شومر عثرت على أمثلة ممتازة لما يمكن أن أسميه الحصان العربى ؛ وهى سلالة جيدة ، يقبل على شرائها ، بين الحين والآخر ، الأمراء الأوربيون ، والنبلاء ، بل وعامة الناس أيضا ، ويدفعون فيها أثمانا باهظة . وهذه السلالة تأتى من فرس من جبل شومر أو من المنطقة المجاورة له ، يقوم بتلقيحها حصان نجدي ، ويحدث العكس فى بعض الأحيان ؛ ولكن يستحيل أن تكون (برغم أنى هنا ، قد أكون معرضا للنقد من منطلق "الحقائق المنطقية") هذه السلالة نجدية الطرفين تماما . وهذه الخيول ، برغم كل هذا التميز ، ليست رائعة الجمال ، وأنا لا أذكر أننى شأهت أى حصان من هذه الخيول دون أن أكتشف فيه نقطة ضعف معينة؛ وقد تكون نقطة الضعف هذه على شكل ثقل قليل فى الكتف ، أو على شكل ترهل قليل فى الكفل ، أو على شكل انكماش فى الحافر ، أو صغر العين بشكل ملحوظ . وقامة هذه الخيول النجدية تتباين بشكل كبير أيضا ؛ فبعضها يصل ارتفاع قامته إلى ست عشرة قبضة ، والبعض الآخر ينخفض إلى أربع عشرة قبضة . وكل الناس يعرفون الفروع التقليدية لشجرة أنساب الحصان العربى فمنها : المنافى ، والشقالوى ، والحمدانى ، والطريفى .. الخ ؛ وقد سبق أن قمت بإعداد قائمة بهذه الأسماء ، أثناء مقامى عدة سنوات ، قبل هذه الرحلة ، بين بدو السباع والروالة ، ولم أجد أى فارق يستحق الذكر بين ما قيل لى والروايات التى وردت فى كتب الرحالة بل والمؤلفين المتخصصين فى هذا الموضوع . ولم يغب عن بال البدو أن يتغنوا بأساطيرهم المتكررة عن إسطنبول سيدنا سليمان .. الخ . ولكنى أميل إلى اعتبار الجزء الأكبر من هذه السلالات ، بل ولازلت أنظر إلى عراقة أصل هذه الخيول ، على إنها أمور ما تزال حديثة ، وليس لها شأن كبير ، وإنها دخلت إلى أسواق الخيل عن طريق البدو أو عن

طريق الحضر . زد على ذلك أن الفرس القهلانية لا تعد بأى حال من الأحوال ، ضمانا لحصان قهلانى ؛ والسبب فى ذلك أن تهجين السلالة أمر يحدث كل يوم ، وشومر ليست استثناء من ذلك . وأنا عندما وصلت إلى شومر لم أسمع أى شيء عن الحصان الشقلاوى ، أو الدلهامى ، أو عن أى اسم آخر من هذه الأسماء النسيبة ؛ يضاف إلى ذلك أن إسطبيلات الملك سليمان لم تكن أشهر من إسطبيلات أو جيوس Augus . وفى نجد تأكدت أنهم ليس لديهم شجرة نسب لهذه الخيول ، وأن كل ما يهتمه فيما يتعلق بالسلالة هو التأكد من نسب الأب ونسب الأم ؛ وأردف الصبى قائلا : يبدو أن سليمان أخذ منا الخيول ولم نأخذها نحن منه ؛ وهذه الملاحظة تثبت أن قائلها كان لديه قدر كبير من النقد التاريخى . وخلاصة القول ، إن من يريد أن يكون خيالا جيدا فى نجد لابد أن يتمتع بنفس القدرة على التحرى والتقصى ونفس المعرفة التى يتمتع بها أهل يوركشير Yorkshire ، ولا أكثر من ذلك ولا أقل ؛ بل وربما يكون أقل منهم فى إلمامهم بالكتب المكتوبة عن الخيول .

والسلالة النجدية الأصيلة ، فى ضوء ما توصلت إليه ، يمكن العثور عليها فى نجد نفسها ، بل إن أفراد هذه السلالة لا يوجدون بكثرة فى نجد أيضا ، ولا يحوز هذه الخيول أو يمتلكها سوى الرؤساء أو الأثرياء أو أصحاب المنازل الرفيعة . بل إن هذه الحيوانات ، لا تباع أو تشتري مطلقا ، كما يقول الناس هنا ؛ وعندما سألت عن طريقة اقتناء جواد من هذه السلالة أجابونى بأن ذلك يكون عن طريق "الحرب" ، أو الوراثة ، أو عن طريق الإهداء . وأنه عن طريق الإهداء فقط يمكن لحصان من هذه السلالة أن يغادر نجد ، مع أن ذلك يعد مسألة نادرة أيضا ؛ وفى الحالات السياسية التى يجرى فيها إهداء خيول من هذا القبيل إلى مصر أو إيران ، أو إلى القسطنطينية (وقد شهدت بنفسى مناسبتين من هذا القبيل وسمعت عن حالات أخرى كثيرة) ، فإن الإناث تستبعد تماما من عملية الإهداء ، ولا يرسل سوى الذكور الهزيلة ، التى ينظر إليها فى الأماكن الأخرى على إنها من الخيول الجميلة بحق ، والتى يجرى انتقاؤها فى مثل هذه الأحوال .

ويحتفظ كل من عبد الله ، وسعود ، ومحمد بخيولهم فى إسطبيلات مستقلة ، يحتوى كل واحد منها على ما يقرب من مائة حصان . وبعد كثير من التحرى والملاحظة ، توصلت أنا وزميلي إلى نتيجة مفادها أن إجمالى عدد الخيول النجدية لا يزيد على

خمسة آلاف حصان ، بل انه ربما يقل عن ذلك العدد . أما مسألة أن عدد الخيالة في الجيش يقل بدرجة كبيرة عن عدد الجمال فيمكن تفسيرها تفسيراً قاطعاً ، من منظور أن الخيول النجدية لا تستعمل مطلقاً إلا في الحرب أو الاستعراض ، في حين تستعمل الجمال وأحياناً الحمير في السفر وكل الأعمال الحقة الأخرى .

وهناك قصص جميلة تروى عن الألفة التي بين العرب، البدو على وجه الخصوص ، وخيولهم ؛ وكيف أنهم يحملون المهر الوليد ، عند مولده ، بين أيديهم ولا يسمحون له بالسقوط على الأرض، وكيف أن هذا المهر الوليد يلعب مع أطفال الأسرة داخل المنزل ، وكيف يأكل ويشرب مع صاحبه أيضاً، وكيف يعتنى به صاحبه عندما يتوعدك، انتظارا ، بلا أدنى شك ، أن يرد هذا الجواد ، الجميل لصاحبه عندما تسنح له الفرصة بذلك . وحكى الناس لى أيضاً أن الحصان العربى أجمل والطف وأذكى بكثير جداً ، من حصان "إنجلترا السعيدة" الذى يبقى حبيس الأسطبل مربوطاً ، والذى توضع على عينيه ، غمامتين ، ويظل سجيناً طول الوقت . وأنا أقر بذلك وأعترف به تماماً ؛ المؤسف أن الأمور لا يمكن أن تكون غير ذلك . وتنشئة الحصان العربى على الاتصال الوثيق بالإنسان ، وإتاحة الفرصة له كي يستعمل حواسه وأطرافه بما يرضيه ، يهين لهذا الحيوان فرصة الاستفادة إلى أبعد حد ممكن من مشاعر وغرائز أصله الطيب ، وهذا أمر قل أن يفشل فى معظم الأحيان . وعلى كل حال ، فنحن عندما نتناول الظروف الخاصة بحياة الحصان العربى ، والتي سبقت الإشارة إليها ، نجد أنها لا تشكل قاعدة عامة أو أسلوباً خاصاً فى تنشئة الخيول وتربيتها ، يضاف إلى ذلك أن العربى لن يكون مخطئاً عندما يضرب فرسه على أنفها عندما تدس أنفها فى طعامه ، أو عندما يسمح للطبيعة أن تقوم بدور القابلة ، عندما تكون الفرس بحاجة إلى ذلك . ومع ذلك ، فأنا لا أود القول إن الطرف والنكات القيمة التى ترد على صفحات كثير من الكتب قد لا تحدث هنا أو هناك ، وإنما ، يهمنى أن أقتبس ما قاله أحد الشعراء العرب " أنا لم أر قط شبيهاً لهذا الجواد ، أو سمعت عنه " . أما فيما يخصنى أنا شخصياً ، ومن واقع تجربتى الشخصية ، فأنا لم أطمع الحصان العربى إلا من يدى ، وليس من صحنى ، وسيطرت عليه ، أكثر من أولئك الذين يسيطرون على أرواح الهوة السحيقة ، إذ كان يأتى إلى كلما ناديته ؛ وأنا لا أستطيع تصنيف بقية ما قيل عن هذه الخيول ، ولكنى لن أتردد فى إضافته إلى حكايات الصحراء الكثيرة الأخرى .

وبعد أن أمضيت ساعة كاملة ، رحت أتجول خلالها بين هذه المخلوقات الجميلة ، وبصحبتي هؤلاء الصبية المحترفون المدربون والذين يستشعرون لذة لحوم الخيل ، فحصدت الفرس المصابة ، وفحصت فرسا أخرى كانت لا تقبل على الطعام ، ووصفت لهما علاجا لن يضر إذا لم يفد ، وغادرت الإسطبل ، وأنا أتحرق شوقا إلى معاودة رؤية هذه المخلوقات ، التي شاهدتها مرارا بعد ذلك من منطلق كونى طبييا .

وكما بعدنا ومضيئنا قدما ، وتخطينا حدود جبل طويق الشرقية والجنوبية ، نجد أن هذه السلالة العربية تتدهور من ناحية الجمال والاكتمال ، والحجم والقوة . وأنواع السلالات المحلية التي شاهدتها في عُمان تشبه إلى حد بعيد خيول "التاتوز" tattoos الموجودة في الهند ؛ ولكن نقص الخيول في الركن الشرقي من الجزيرة العربية يعوضه انتشار الذلول في تلك المنطقة .

والخيول النجدية مشهورة بسرعتها الفائقة ومقدرتها على تحمل التعب ؛ والواقع أن الخيول النجدية تنفرد بهذه الخاصة الأخيرة . ومسألة أن يمضى الجواد النجدى أربعاً وعشرين ساعة سيرا على الطريق دون طعام ودون تبرم أو احتجاج أمر له مغزاه؛ كما أن مسألة التوقف عن الطعام وأداء العمل نفسه ، في جو الجزيرة العربية المحرق ، مدة ثمان وأربعين ساعة تنفرد بها أيضا هذه السلالة من الحيوانات . زد على ذلك ، أن هذه الحيوانات ، تنفرد بميزة معينة ، لا علاقة لها بأفواه هذه الخيول ، إذ من السهل ركوبها بدون شكيمة أو لجام ، وإنما بالاعتماد على إحساس هذه الحيوانات بحركات الركبة ووخزات الركاب ، واستجابتها لأقل وخزة من ناحية وصوت راكبها من ناحية أخرى ، ومن هنا فإن الخيول النجدية تتفوق بكثير جدا على كل ما تعلمه مدارس الفروسية للخيول الأوربية برغم أنها مزودة بالشكائم ، واللجام بل وبكل شئ . وقد ركبت هذه الخيول النجدية مرارا بناء على عروض من أصحابها ، وكنت أركبها بدون سرج ، أو لجام ، أو ركاب ، وكنت أنطلق بها بأقصى سرعة لها ، وأستدير بها فجأة ، وأجعلها تتوقف فجأة توقفا كاملا ، وكان ذلك يتم بأقل قدر من الصعوبة وبأقل قدر من التوافق بين حركات الحصان وما أريده أنا ؛ والذي يركب هذه الخيول يحس وكأنه يركب قنطوراً^(١) ، أو إن شئت فقل : يستشعر أنه مخلوق عجيب ومتميز . وهذا يرجع في معظمه إلى نظام التنشئة العربية للخيول ، والذي يتفوق على النظام الأوربي من

(١) القنطور : كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس - (المترجم) .

حيث إنه يغرس فى هذه الحيوانات غريزة المرونة والطواعية . وعلاوة على ذلك ، فإن سرعة الجواد لا قيمة لها إذا لم تكن مرتبطة بهاتين الخاصيتين ، والسبب فى ذلك أن " الارتداد " المفاجئ وليس "المضى قدما" ، سواء أكان فى سباق للخيول العربية فى المطاردة والحرب ، هو القاعدة وهو الأساس . وهذه النوعية من التدريب مطلوبة أيضا لمسابقة الجريد ، ذلك الدورى الذى يقام فى الشرق ، والذى شاهده فى نجد ، ووجدت انه لا يختلف فى شئ عن العروض المماثلة التى تقام فى كل من سوريا ومصر ، باستثناء أن الجريدة نفسها تكون أخف قليلا . وينبغى أن أشير هنا أن هضاب نجد الصخرية تحتم "بيطرة" حوافر الخيل بصورة دائمة ، ولكن حدوة الفرس هنا من النوع البدائى الثقيل ؛ وهم يقومون هنا بتقشير الحافر بعض الشئ ، كما أنهم يثبتون الحدوة بستة مسامير . ولولا جودة الحوافر ، لأفسدت البيطرة النجدية كثيرا من هذه الخيول الجميلة .

وأنا أتحول عن موضوع الخيول وكلى أسف ؛ ولكن عزائى الوحيد فى ظل ما وصلت إليه عند هذه المرحلة ، يتمثل فى المقولة : "ذلك الحيوان الأنبل" التى قالها كوبر فى إحدى المناسبات ، عندما كان يقارن الجواد بصاحبه الذى يسير على قدمين . وأنا أتصور أن كوبر كان ينبغى أن يستعمل الصفة "نبيل" بدلا من أفعل التفضيل "أنبل" ؛ وبذلك يكون الشاعر قد أخطأ فى هذا الاستعمال ؛ وسبب ذلك أن الإنسان برغم ردايته فى بعض الأحيان ، وبرغم وضاعته فى بعض الأحيان أيضا ، إلا أنه يكون فيه دوما جانبا خيرا إنسانيا ، جانبا يستحق الحب والتقدير ، جانبا يستحق الاحترام . والوهابيون بشر مثاليون بما لا يدع مجالا لشك ، ولا تزال حاشيتهم وبلاطهم مثالى أيضا ؛ ومع ذلك يظل الإنسان دوما شبيها بربه ، برغم اختلاف بنيته الدنيوية البدنية أو الأخلاقية من حين لآخر .

وبينما راحت تنهال علينا أفضال عبد الله ، وبينما كنا نكتب وصفات طبية لحيواناته من ناحية ولخدمه وموظفيه من الناحية الأخرى ، وافق محبوب ، بفعل تأثره بمدائح والده ، على أن يزورنا ، وهو الأمر نفسه الذى دفعنا حرصنا إلى تجنب القيام به تحسبا للتوقعات . رئيس الوزراء محبوب ، وما أدراك ما رئيس الوزراء ! ومن حسن حظى أن أبا عيسى كان قد وصف لى صورة سعادته فى أحيان كثيرة ، مما جعلنى أتعرفه فور دخوله إلى منزلنا ، غير أن رفيقى بركات ، لم يكن يصدق مطلقا أن الشخص الذى أمامه هو العمود الرئيسى فى نجد بل وفى الامبراطورية الوهابية كلها .

ولما كان محبوب ابن أمة جورجية Georgian ، أهداها عباس باشا للملك فيصل عند اعتلائه العرش ، فإن عمر محبوب يقدر بحوالى خمسة وعشرين عاما ، وكان مظهره صبياني جدا ، وغير نجدى ، وغير عربى أيضا مما أثار دهشتى . ووالد محبوب هو جوهر ، مريضنا الأسود - وأنا أقصد بذلك والده القانونى ، والسبب فى ذلك ، أن هذه البشرة البيضاء ، وهذا الشعر الملون الناعم ، وهاتان العينان الزرقاوان ، وهذه الأطراف المتناسقة لا يمكن بأى حال من الأحوال عزوها إلى والد أسود ، اللهم إلا إذا كانت دراستى وكتبى وملاحظتى مزيفة ولا أساس لها من الصحة . والواقع أنه إذا كان اللسان الرسمى ، من قبيل الحرص الذى سوف التزمه طوال كتابة هذه القصة - يجعل جوهر أبا لرئيس الوزراء ، فلا أحد ، سواء أكان كبيرا أم صغيرا ، ينكر أو يخامره أى شك فى أن فيصل هو صاحب الحق أولا وأخيرا فى منح هذا اللقب العزيز . وأنا هنا فى غنى عن الدخول فى تفاصيل أسرار البلاط الملكى أو فضائحه ، إن قدر للفضائح أن تجد لها مكانا فى نجد ؛ وهنا ينبغى على القارئ الكريم ، أن يثق بأتنى على يقين من أنه طالما أن المرأة الجورجية هى أم محبوب ، فإن فيصل سيدها الأول ومالكها ، لا بد أن يكون والد محبوب أيضا .

ومحبوب شاب ماهر ذكى ، بلا أدنى شك ؛ وهو جريء وجسور أيضا . وتذوقه للأدب بصفة عامة ، وحبه للبحث يدلان على أصله القوقازى ، ويظهران عليه بشكل واضح . ومع ذلك فإن الغرور ، والصفافة ، والتباهى ، والقسوة الاستبدادية ، والسلوك الطائش الذى يتناقض مع الوقار والرزانة المعتادة فى الرياض ، كل ذلك فى شخص محبوب ، وليس فى ذلك ما يثير الدهشة أو العجب ، إذا ما أخذنا أصله وتربيته فى القصر بعين اعتبارنا . وعلى كل حال ، فإن هذه العيوب تعدُّ مستورة ومقنعة إلى حد ما ، بل إنها تكاد تكون لائقة ومقبولة ، فى ضوء استقلاله الفكرى ، والسلوكى القوى ، ونغمته الصريحة ، وبشاشته الصادقة فى بعض الأحيان ، والتى يفتقر إليها كثير من النجديين المحيطين به . وأخيرا ، وليس آخراً ، فإن محبوباً وسيم بشكل ملفت للنظر ، وجميل ، وجورجى تماما ؛ والخلاصة هى أن محبوباً عبارة عن شخصية أرنولد التى أوردها الشاعر الإنجليزى بايرون Byron فى الحلم الغريب فى قصيدته " ممسوخ مشوه " De Formed Trans Formed تلك الصورة التى كانت تقفز إلى ذهنى ، فى معظم الأحيان ، وأنا أتحدث مع محبوب الخلاسى . هذه البسطة فى العقل وفى الجسم تجعل هذا الغلام القوقازى المولد ، وهو فى سن يجاهد فيها الإنجليز الخالص فى

المدارس ، أو يعملون عازقى أبواق أو ضباط صف فى البحرية ، يقود طاغية نجد العجوز من أنفه ، ويرهب ابنه المخيف بالصياح والعبوس ، ويتحكم فى عبودية أفراد البلاط ، وفى الرؤساء ، وفى المطاوعة ، كما أنه هو وحده الذى يتحكم فى مصير أكثر من نصف شبه الجزيرة العربية .

كانت زيارة محبوب الأولى لنا فريدة ومتميزة . فقد خلت من الرسميات ، وغلب عليها الود والألفة ، وكان يجرى خلالها توالى الأسئلة قبل اكتمال الإجابة ، وجرى خلالها أيضا فحص كل شئ على وجه السرعة - مثل الكتب ، والعقاقير ، والملابس ، وكل شئ ؛ وتناول محبوبُ خلالها فنجالا سريعا من القهوة ، وقال لنا بعض الكلمات المشجعة وبعض كلمات الرعاية والحماية ، وصافحنا بطريقة أوروبية خالصة ، وودعنا على أمل لقائنا فى مرة قادمة .

وبدأ أبو عيسى ، الذى لم يكن له مثلنا سند فى البلاط الملكى سوى محبوب ، والذى أصبح مصيره مرتبطا بمصيرنا أيضا ، بدأ هذا الرجل يشعر بالقلق البالغ من تلك الحميمية الوثيقة التى أتبعته ذلك اللقاء الأول ، يضاف إلى ذلك ، أننى أيضا لم أتردد مطلقا فى أن أخلو إلى نفسى وأدرس هذه الشخصية الفريدة والمهمة فى نفس الوقت . واستهدافا منى لهذه الدراسة ، قمت برد الزيارة فى صبيحة اليوم التالى ومعنى أبو عيسى .

كان محبوب يجلس فى ديوان جوهر ، وكشف أمامى عن كل مظاهر الفتنة مع أبى عيسى بوصفه راعيا له منذ زمن بعيد ، وبدأ يقدم لى المزيد من هذا التلاحم . ولكنه ، خلال هذه الزيارة ، وجه أسئلته واستفساراته وجهة أخرى ، وهنا اكتشفت أن الوزير بدأ يكرمنى على اعتبار أننى أنتمى إلى الأصل الذى ينتمى هو نفسه إليه ، أى أننى مصرى الوطن ، ولكنى من أصل جورجى أو شركسى . وقد كان لهذه الفرضية أثر غريب فى الرياض وتأثير كبير على الأحداث التى وقعت بعد ذلك .

كانت مصر فى بعض الفترات صديقة لنجد وعدوة لها ؛ فقد كانت نجد تخشى مصر ، عندما يكون لدى نجد مبررا لشكوكها فى مصر . وشكوك نجد الحالية تفوق مخاوفها ، ومع ذلك فالشك والمخاوف قائمان . ونجد لا تخشى إيران أو تخافها ، والسبب فى ذلك أن جيوش الشاه يصعب عليها أن تعبر الخليج الفارسى ، يضاف إلى ذلك أن نجد لا تخشى أو تخاف وقوع هجوم أو غزو مباشر عليها من القسطنطينية .

والسبب فى ذلك أن القوات التركية ستعمل ألف حساب وحساب للمانع الطبيعى الذى يتمثل فى التلال والجبال الرملية التى تتوسط المسافة بين القسطنطينية ونجد ؛ ولو حاولت القوات التركية شن مثل هذا الهجوم أو القيام بمثل هذا الغزو ، فإن قلة قليلة من تلك القوات هى التى يحتمل لها أن تصل إلى جبل طويق . وفيما يتعلق بالدول والأمم البعيدة ، وذلك باستثناء دولة واحدة فقط ، فإن أسماء هذه الدول يغلفها غموض ضبابى ، يضاف إلى ذلك أن الخبرة المتكررة ، إن لم تكن خبرتهم ، فهى خبرة جيرانهم على أقل تقدير ، قد علمت النجديين أن مسألة هبوب عاصفة رعديّة بين الحين والآخر ، من الغرب West تعدا أمرا نادرا ، وإن حدثت فإنها لا تكون دوما مصحوبة بعاصفة خطيرة . والخليج الفارسى وحده ، الذى يفتح الطريق إلى البحر الهندى ، وبذلك يجعل الخط الساحلى من الأراضى الوهابية قريبا جدا من أراضى الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، هذا الخليج هو السبب فى مخاوف (الملك) فيصل ، الأمر الذى يجعله يتخوف من أولئك الذين ذهبوا ، فى البداية ، إلى الهند بوصفهم تجارا ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى غزاة وحكام لها . ومع ذلك ، فإن مصر هى التى تشكل المصدر القريب للخوف بصورة مستمرة : " فالإنسان يستطيع أن يُعيد فعل ذلك الذى سبق أن فعله " ؛ والواقع أن أعلام القديس جورج يمكن أن ترفرف على الشواطئ وعلى السواحل ، ولكن أعلام مصر المنتصرة ترفرف الآن وسط عواصف وادى حنيفة . ومن هنا فإن أهل الرياض ينظرون إلى المصرى سواء أكان طبيبا ، أم حاجا ، أو تاجرا ، بشئ من الاحترام ومزيد من الشك ، ينظرون إليه على أنه شخص لا يمكن إهماله أو الوثوق به ، ينظرون إليه على أنه ضيف خطر وغير مرغوب فيه ، ومع ذلك لا يجب التخلص منه بنفس الطريقة السريعة التى يتخلص بها أهل نجد من الأشخاص الآخرين .

كان محبوب مقتنعا فى قراره نفسه أننا لسنا سوى مجرد جاسوسين ، موفدين من الحكومة المصرية ، وربما فى أمر يتعلق بحرب القصيم ، وحصار عنيزة . ولم يكن ذلك تحذيراً سيئاً من جانب محبوب ؛ وكانت دوافع هذا التحذير تتمثل فى المسار الذى سلكناه إلى الرياض ، والكتب التى كانت فى حوزتنا ، وحقيقة تفوقنا (النسبى) عليه فى المعرفة الطبية ، فضلا أيضا عن طريقتى فى النطق ؛ كل هذه الأسباب جعلته يصل إلى مثل هذه الفكرة . ولم يعرب محبوب عن ذلك بصورة صريحة أو علنية ، وإنما كان من السهل علينا أن نلاحظ ذلك فى الانحراف الذى طرأ على أفكاره ، كما لاحظناه فى

تصرفاته المستهترة غير المترابطة . زد على ذلك أن محمداً (آل الشيخ) ، ولد عبد اللطيف (آل الشيخ) ، كان قد أذاع كذبة كبيرة مفادها أنه كان قد تعرف على شخصيا عندما كان في مصر ، وأشاع أيضا أنه يعرف تاريخي الماضي ونواياي الحالية ؛ مجموعة من الأقاويل المتناقضة - المتضاربة بحق ، ولكن ليس من السهل محوها أو التخلص منها .

وبعد أن التقيت محبوا في قهوة جوهر ، بدأ محبوب يفتح لي قهوته الخاصة التي رحت أمضى فيها ساعات طوال خلال الأيام التي تلت ذلك ، كانت مكتبة محبوب أغزر المكتبات التي شاهدها في الجزيرة العربية ؛ إذا كانت تحتوي على دواوين كبار الشعراء وأشهرهم ، مثل أبي العتاهية Ben-El-'Atiheeyah ، والمتنبي ، وأبي العلاء Abu-I-'ola ، إضافة إلى ديوان الحريري ، والحماسة ، وأعمال أخرى من الأدب العربي القديم ؛ إضافة إلى أبحاث في الشريعة والدين كتبها مؤلفون من المالكية والحنابلة ؛ كما كانت المكتبة تحتوي أيضا على تعليقات على القرآن ، وكتب عن الرحالة ، وكانت كل هذه اللمسات توحى بأن تلك المكتبة تم تشكيلها منذ زمن غير بعيد ؛ كانت في المكتبة أيضا أبحاث جغرافية ، تقسم العالم إلى ستة أقاليم ، كانت الجزيرة العربية تجيء في مقدمتها ، بل وأكبرها أيضا ، وأن هذه الأقاليم متشابهة إلى حد بعيد . وأهم الكتب التي لفت انتباهي مخطوط الامبراطورية الوهابية التاريخي ، الذي يحتوي أيضا على مخطط عام لحوليات التاريخ العربي ؛ والقسم المعادي للإسلام يشبه إلى حد كبير ذلك الذي أورده أبو الفدا ، وربما يكون ذلك القسم منسوخا من كتب أبو الفدا ؛ والفترة في ما بين حروب خالد بن الوليد وقيام الأسرة المالكة السعودية مخصصة لـ - نجد وحدها ؛ وهذه الفترة كانت سيئة الأحداث ، وقد جسدت في هذه القصة الجزء الأكبر مما وقع خلالها من أحداث ؛ وسوف أورد ، فيما بعد ، ذلك الجزء القليل المتبقى من تلك الأحداث ، وكانت السجلات المحاسبية ، وسجلات الوحدات والجنود ، وكذلك المراسلات الرسمية ، وما في حكمها ، كل هذه الأشياء كانت محفوظة في دولا ب كبير ، ولكن أبواب ذلك الدولا ب كانت مفتوحة ، وبذلك كنت أستطيع ، بين الحين والآخر ، أن ألقى نظرة على هذه المستندات ، التي تعد الإحصائيات التي أوردتها في الفصل السابق جزءا منها . والواقع أن محبوا لم يعارض ولم يجد أي حرج في الملاحظات التي كنت أدونها والمقتطفات التي كنت أنسخها ، وبخاصة من الكتب الأدبية ؛ وأنا نادم أشد الندم لأنني فقدت بعضا من هذه الأوراق بسبب الأحداث التي وقعت خلال الجزء المتبقى من الرحلة .

ووعدنا رئيس الوزراء بالكثير ووفى بشيء منه . فقد حرص رئيس الوزراء على ضرورة أن نحصل من القصر ، على الكماليات النجدية - اللحم الطازج والبن - كما قدم لى أيضا هدية قيمة من النقد السائل ، قبلتها منه أملا فى تخفيف الشكوك التى تشغل باله . ومع ذلك فقد كانت عينا محبوب على دوما ، وكائنات توحيان بإنسان حائر يطيل النظر إلى شيء فى أعماق الماء ، هو لا يستطيع تحديد طبيعته أو معرفة كنهه ؛ وعلى كل حال ، فإن تعاطفه العرقى المزعوم كان يجعله ودودا معى .

وفى الوقت ذاته كان كل من محبوب وعبد الله يسخران من النائب شفاء ؛ وكان النائب بدوره يسخر منهما . وعندما أدرك النائب الإيراني أن فيصل ينظر إلى قضيته ببرود شديد، قرر أن يقوم بزيارة ولده وولى عرشه ، وبعد أن ارتدى النائب أبهى ثيابه ، اتجه إلى قصر الأمير . وبعد أن دخل النائب القهوة ، وجد (الأمير) عبد الله مسترخيا على السجادة على طريقة البدو ، وظهره مفرد إلى الأعلى ، ومن تحت كوعيه مخدة ترفعه إلى الأعلى ، ويشبهه إلى حد بعيد منظر الكلب عندما يضع خطمه^(١) بين مخالبه وينظر إليك^(٢) . "مرحبا" ، قالها الأمير المهذب للسفير الذى دخل عليه ، ثم أشار إليه بالجلوس ، ودون أن يغير من جلسته التى لا توحى بالاحترام . وبعد أن يطيل (الأمير) عبد الله النظر إلى النائب يسأله قائلا : "هل تصبغ لحيتك ؟" وهنا ينبغى أن أنوه إلى أن الوهابيين يعدون تلوين الشعر وصباغته انتهاكاً غير شرعى لحقوق الخالق الذى يهبها لمخلوقاته ، وانه (ﷺ) هو الذى يختار هذه الألوان^(٣) . وهنا يجيبه النائب بشيء من الضيق ، أن لحيته مصبوغة بالفعل ثم يسأله قائلا : وهل هناك ضرر من صبغها ؟ ويرد عليه عبد الله قائلا : "لأننا نعد مثل هذه الأعمال غير صالحة بدرجة كبيرة" . ويرد عليه النائب قائلا : إن الإيرانيين لا يوافقون على ذلك ولهم رأى آخر . ويسأله الأمير بعد ذلك قائلا : "وهل أنت سنى أم شيعى ؟" وهنا يوشك صبر النائب على النفاذ ، بل يصل فعلا إلى نهايته ، ويرد على الأمير قائلا : "أنا شيعى ، ابن شيعى ، وكان جدى شيعيا أيضا ، بل إننا جميعا شيعيون ؛ ولكن قل لى

(١) الخُطْم : بفتح الخاء وتسكين الطاء ، هو أنف الحيوان وفكاه الناتان - (المترجم) .

(٢) هذا تشبيه سخيف يدل على بذاءة المؤلف وقد علمنا الإسلام عفة اللسان ، وحسن البيان ولم يكن (ﷺ) فاحشاً ولا متفحشاً ولا بذئاً اللسان - (د. حلمى عبد المنعم) .

(٣) نعم فقد أباح النبى الصبغ بغير السواد مثل الحناء - (د. حلمى عبد المنعم) .

يا عبد الله هل أنت أمير أم مطوع ؟" قال النائب كل هذا بلغته العربية المكسرة الأمر الذى جعل الغضب شيئاً لا بد منه . ويرد عليه عبد الله متشامخاً : "أنا أمير ، بطبيعة الحال" . ويرد عليه النائب : "لأننى ظننت ، من أسئلتك ، أنك مطوعاً ؛ وإن كنت كذلك بحق فإذهب إلى المسجد ، لأن ذلك هو المكان ، وليس القصر ، هو الذى يليق بمن يتكلمون بطريقتك هذه " . ويتفجر عبد الله ضاحكاً ، ويعتذر اعتذاراً أقبح من الذنب ، بأن تظاهر بجهله الأعراف والاحترام الدبلوماسيين ، اللذين يجب الالتزام بهما مع السفراء ، ثم غير عبد الله لهجة الخطاب بعد ذلك . كان كل ذلك من قبل الطيش والاستخفاف من جانب عبد الله ؛ كانت هذه الصلافة نتيجة لحسابات باردة ومديرة ، تهدف إلى الوصول بذلك الإيراني إلى النتيجة المسبقة التى سبق الاتفاق عليها بين فيصل وولده . ويخرج النائب غاضباً من ذلك البدوى ، ويحاول أبو عيسى أن يثنيه عن مغادرة العاصمة فى اليوم نفسه .

ولم ينجح النائب مع محبوب أيضاً ، برغم أنه زاره كثيراً من الزيارات الودية ، على أمل أن يستفيد من نفوذه لدى الملك المسن ، كما سمع أيضاً من محبوب ما يسيئ إلى الإيرانيين وإلى الشيعة . هؤلاء الشيعة ، من بين تخيلاتهم الكثيرة ، يكونون احتراماً مبالغاً فيه ويصل إلى حد الخرافة لأسماء الشخصيات الصالحة ، ويعدون التعريض ، عن قصد ، بهذه الأسماء جريمة بغیضة . وفى إحدى المرات ، بينما كان النائب الإيراني موجوداً فى الديوان ، تسلم محبوب بعض الرسائل ، التى تحمل البسملة المعتادة فى أعلاها . وبعد أن قرأ محبوب هذه الرسائل ، مزقها وألقى بها ، على رأى ومسمع من النائب الإيراني ، فى المدفأ المشتعلة . ولم يقل توسل محمد على الشيرازى لدى محبوب بألا يحرق الأوراق التى تحمل البسملة ، عن توسل كل من الناثان El-Nathan ، ودليا Delaiah ، جيماريا Gemariah ، إلى يواقيم Jehoiakim بألا يحرق الورقة التى كتبت عليها النبوة . بل إن النائب كاد يغمى عليه من هول ما رأى . ولكن حدث بعد ذلك ما هو أفظع وأبشع . كان الشيرازى يحمل معه كوباً فضياً من الطراز الفارسى . يستعمله فى شرب الماء ، وكان مزيناً عند حافته بالأسماء الخمسة التى يحترمها الإيرانيون ويوقرونها - محمد ، على ، فاطمة ، الحسن ، والحسين . كان النائب قد حمل هذا الكوب معه ، إلى القصر ذات يوم " ليدersh بها المواطنين " . ويتناول محبوب ذلك الكوب ، ويديره بين يديه ، وبعد أن قرأ النقوش الموجودة على حافة الكوب تساءل قائلاً : " ما تلك النقوش الكريهة ؟" ثم ألقى بالكوب

على الأرض . والأفضل لنا هنا أن نتخيل مشاعر النائب بدلا من أن نصفها . وخلال ساعات المساء الهادئة التي كنا نقضيها معه في مسكنه العالى البارد ، وهو يدخل نرجيلته ويسترجع معنا الأحداث التي وقعت له أثناء النهار ، كنا نستمع منه إلى سرد لكل هذه الأحداث ، وكثيراً من الأحداث الأخرى المماثلة ، التي كان يرويها بلغة عربية مكسرة أو بلغة هندوستانیة رشيقة في بعض الأحيان .

ونقلا عن الرواة ، فقد وقع في ذلك الوقت حادث فكاى ، جعل الأمور تتفاقم وتصل إلى حد الأزمة ، ولكن سخط هذا الحادث أنقذ النائب من انفجار المزيد من الغضب على المشاعر الشيعية . سبق أن ذكرت أن قوائم الصلاة الصباحية والمسائية كانت تتلى في سائر المساجد الموجودة في كل أحياء المدينة ، وكان المتقاعسون عن الصلاة يعاقبون عقاباً عملياً على تخلفهم عن الصلاة، على أمل المدوامة عليها مستقبلاً. وكان من الطبيعى ألا يشغل النائب أو رجاله أنفسهم بمسألة الحضور هذه ، من منظور أنهم من الشيعة ، وكان من الطبيعى ، ألا أشغل نفسى أنا وبركات بمسألة الحضور هذه من منظور إننا مسيحيان . وذات صباح قرر " المطوع " المشرف على المسجد ، الذى يتبعه محل إقامتنا ، إننا سواء أ كنا كفارا أم غير كفار فإنه يجب علينا أن نفعل مثلاً يفعل المسلمون المتقون : " كن رومياً عندما تكون في روما " . وبناء على ذلك ، تلى اسمانا واسم النائب ومن معه ، مع بقية أولئك الذين لم يحضروا الصلاة ، ولكن لم يكن هناك أحد أو أى صوت يثبت وجودنا . وتأسيساً على ذلك ، قام المطوع الغاضب بتجميع مجموعة من الأتقياء مسلحة بالعصى والعكاكيز ؛ وقبيل شروق الشمس بقليل ، يصل المطوع إلى باب دارنا ، وهو أقرب الأبواب للمطوع . ومن حسن حظنا أن الباب كان مقفولاً بالمزلاج من الداخل ، فى حين راح بركات وأبو عيسى وأنا معهما ، بدلاً من الصلاة والوضوء ، يدخلن غليون الصباح ومعه فنجال من القهوة الممتازة . وعندما سمع أبو عيسى الطرق على الباب ، وتعرفه بوحى من إحساسه الداخلى ، تملكه خوف شديد ، لأنه يعرف من واقع الخبرة والتجربة أن التشدد الوهابى عندما يستثار فإن الأمور تتفاقم. وشحب وجه الرجل ، وطلب منا ألا نرد على الطارق ، وأن نختبئ في غرفة من الغرف الداخلية . ولكن بركات ، على النقيض من كل ذلك ، وبكل شجاعة أهل مدينة زحلة ، صمم على مواجهة الخطر ، واتجه مباشرة إلى الباب ، وفتح فجأة ، وخرج منه ثم صفعه بعده بشده كى لا يترك فرصة للآخرين كى يدخلوا منه . ثم سمعنا الحديث التالى فى الشارع بين بركات والمطوع وجماعته .

" لماذا لم تحضر صلاة الصبح ؟ " لقد صلينا الصبح ؛ هل تعدونا موحدين من طائفة غير التي تنتمون إليها ؟ " أذن ، فلماذا لم ترد عندما تلونا اسمك ؟ " . وقد أوجت إجابة بركات السريعة على أسئلة المطوع ، أوجت له بأننا ربما كنا فى المسجد بصورة أو بأخرى . ويرد بركات على المطوع قائلاً : " لقد ظننا أنكم أيها الوهابيون لديكم اجتماع خاص بكم ولا يهمننا نحن الأجانب ؛ كيف لنا أن نعرف كل عاداتكم وتقاليديكم ؟ " . ويسأله المطوع قائلاً : " ومن الذى كان على يمينك عندما أقيمت الصلاة ؟ " ويرد عليه بركات قائلاً : " بدوى من البدوان فأنا لا أعرفهم جميعا ؛ وهل من مهمتى أن أتعرف كل بدوان الرياض ؟ " ويسأله المطوع قائلاً : " ومن الذى كان عن يسارك ؟ " ويرد عليه بركات قائلاً : " الجدار " . قالها بركات بطريقة توحى بالبراءة وعدم الاكتراث ، الأمر الذى أثار حاملى العصي وجعلهم عاجزين عن التصرف . وعليه ، فسرو الشك لصالحنا ، مثلما يفعل العرب الحقيقيون ، ومضوا إلى حال سبيلهم بعد أن أنذرونا بالمداومة على الفروض الدينية . ويرد عليهم بركات ، بذلك الرد الدينى الغامض قائلاً : " إن شاء الله " .

ويترك السرب المقدس بابنا إلى باب دار النائب . وتسمع طريقة تشبه الرعد على الباب ، ويرد على ، أحد خدام النائب ، بأن يفتح الباب على مصراعيه بحسن نية . لا مكان للإيرانيين : " اطرحوه أرضا ، واضربوه ، ونقوا جلده وطهروه " ، تردد هذا الصياح من جميع الجوانب ، وطُرحَ المطوعُ الشيعي المشدوه لينزل به العقاب الشرعى . ولكن عليا كان صبيا قويا ، ولم يقع على الأرض بسهولة ؛ وسرعان ما يخلص نفسه من أولئك الجلادين الطيبين ، وينطلق مسرعا إلى داخل المنزل طالبا العون والمساعدة من شقيقه حسن . ويخرج حسن وفى يديه مسدسان ، فى حين أحضر على خنجرا وراح يلوح به تخويفا للجميع ، ويستيقظ النائب المسن من غرفة نومه فى الطابق الثانى ، وينظر من الدور العلوى وهو يرتدى ثياب النوم ، شأنه شأن والد شيلي Shelly ذلك المستبد الأشيب ، وراح يصرخ من أعلى لاعنا ومهددا باللغة الفارسية . ويرتد المطاوعة خائفين مذعورين : وراح كل من على وحسن يجريان خلفهما ، وقد حمل على خنجرا فى يده ، أما حسن فقد كان يحمل مسدسين كلا منهما فى يد ، وراحا يضربان هذا ، ويركلان ذاك ، ويتركان ثالثا يتمرغ فى التراب .

ويرتدى النائب ملابسه على الفور ، ويتجه مباشرة إلى القصر يطالب بالعدل فى مسألة العدوان على حرمة المنزل من قبل أولئك الذين قاموا بذلك ، وليحتج احتجاجاً شديداً على سخافة إجبار الناس على أداء العبادات قسراً . ووجدنا من الأفضل لنا ألا نذهب مع النائب إلى القصر ، نظراً لأن مشكلتنا كانت قد انتهت بسلام ، ولكن أبا عيسى الذى رافق النائب ، تكلم نيابة عنا . وكانت النتيجة أن أصدر الملك أمراً للمطاوعة بالآلا يشغلوا أنفسهم بعد اليوم بنا أو بما نفعله ؛ فى حين بدأ محبوب وجماعته يعاملون السفير الفارسى ، منذ ذلك الحين فصاعداً ، بمزيد من الأدب والاحترام ، تعويضاً له عن الإهانات السابقة .

قد يكون من المفيد أن أروى هنا بقية الأشياء التى وقعت لـ - محمد على الشيرازى فى الرياض . وبعد شهر من الشد والجذب ، والتعجيل فى يوم والتأجيل فى يوم آخر ، دون الاقتراب من الموضوع الرئيسى ، كرر أبو عيسى على مسامع النائب ذلك الذى سبق أن قاله له مراراً بوضوح تام ، أكثر من مرة ، ولكن النائب لم يلق لذلك بالاً - كان أبو عيسى قد قال للنائب : أن النقود ، والنقود وحدها فى العاصمة الوهابية التى تجعل الفرس تجرى ، وأنه إذا كان يريد حلاً سريعاً ومنصفاً لمشاكله ، فما عليه إلا أن يقدم بعض العطايا المعتبرة وبعدها سيكون كل شىء على ما يرام .

كانت تلك أنباء سيئة لـ - محمد على الشيرازى ، الذى كان ممسكاً كما هى عادة الإيرانيين ؛ ومع ذلك ، فلم يكن أمام النائب أى خيار آخر . وفى صبيحة اليوم التالى قدم النائب البندقية ذات الماسورتين للأمير عبد الله ، وأرسل ماكينة عمل الشاى إلى محبوب ، كما شقت ياقوتة جميلة زرقاء طريقها إلى غرفه فيصل الداخلية ، أنا أظن أن ابنة الملك الجميلة ، سكرتيرة مجلس الوزراء ، حصلت أيضاً على نصيبها من تلك الهدايا . وكان لتلك الهدايا تأثير يشبه السحر . وعلى الفور تم تحرير خطاب اعتذار رقيق عن " الأحداث السابقة " ، موجه إلى الشاه وموقع عليه من فيصل ، وألقى فيه باللائمة كلها ، فى كل ما حصل ، على أبو بطين الذى أصبح الآن لاجئاً بين "كفار" عنيزة ؛ ولكن عندما يوقعه الله فى يد المؤمن كى يقتص منه ، فإن ذلك الملعون سوف يربط بالسلاسل ويرسل إلى طهران كى يمثل بنفسه أمام جلالة شاه إيران ، اللهم إذا لم يقتل قبل ذلك ، وهذا هو المتوقع والمنتظر . ولم تتعرض الرسالة إلى مهنا من قريب أو بعيد . كما أنها لم تتعرض مطلقاً (فقد قرأت هذه الوثيقة بنفسى) للتكاليف

أو الأضرار ، باستثناء ذلك الذى يتعين على أبو بطين أن يعيده لأصحابه - عندما يتم الإمساك بالأرنب البرى ، وهو ما سيكون قريبا بمشيئة الله .

وفى النهاية ، وجدوا أن أفضل وسيلة لقفل فم النائب ، ومنعه من تقديم شكاوى عاجلة عن مدى السلب والنهب الذى حل بأتباعه ، هى تقديم بعض الهدايا للنائب . وأهدوا للنائب حصانا عجوزا ، لا يساوى فى سوق بومباي أكثر من مائة روبية أو ما يقرب من ذلك ؛ كما أهدوا له جملا أيضا ، والجمال فى نجد لا يساوى أكثر من ستة أو سبعة ريالات ، أى ما يقرب من جنيهين إنجليزين ، كما أهدوه أيضا ثلاثة أو أربعة مشالح من مصنوعات الاحساء ، ولكنهما من الدرجة الثانية ، ألقوها له كما لو كانت غميسة^(١) أُلقيت إلى سيربيروس^(٢) الذى ابتلعها بنهم شديد . ولم يكن النائب خبيرا فى لحوم الخيل أو لحوم الإبل ؛ يضاف إلى ذلك أن المشالح هى الأخرى ، كانت جديدة عليه ، ولذلك فإنه كان يُسَلِّم أن الحصان والجمال اللذين أهديا إليه كانا الأفضل فى نوعيهما . وفى مقابل ذلك ، تعهد النائب بأن يدوام الحجاج الإيرانيون على استعمال طريق نجد ، وأن يدفعوا أيضا رسوم المرور فيه . وكانت المسألة مسألة نذالة من بدايتها إلى منتهاها . ولم يكن فيها أى نوع من الشرف لسلطان نجد الشرائى وأتباعه أو لذلك النائب الفارسى الذى باع بلده عامدا متعمدا - باع حقوق الناس ، ومصالح حكومته لقاء حصان عجوز ، وجمال عجوز ، وبعض المشالح القديمة .

وحصل أبو عيسى لنفسه، كمنتجة طبيعية لهذه المناورات ، على مرسوم ملكى ينص على أنه هو كبير المرشدين فى المنطقة ما بين الساحل الإيرانى ومكة ، لجميع قوافل الحجاج ، وبذلك يصبح أبو عيسى بلا منافس فى تلك المنطقة ؛ وقد ضمن هذا الإجراء للإيرانيين قدرا معينا من المعاملة الطيبة وهم فى طريق عودتهم ، كما مكّن ذلك الإجراء صديقنا (أبا عيسى) من الحصول على تعويضات تكفى لمواجهة بذخه الزائد عن الحد وكرمه الذى يقوم على التباهى .

كانت تتبقى أمام محمد على مشكلة واحدة كان لابد من حلها والبت فيها ، وتتمثل فى الطريق الذى يتعين عليه أن يسلكه أثناء عودته وصولا إلى مشهد (على)

(١) غميسة : قطعة من الخبز تغمس فى سائل ما قبل أكلها - (الترجم) .

(٢) سيربيروس : كلب ذو ثلاثة رؤوس زعمت الميثولوجيا الكلاسيكية أنه يحرس باب الجحيم -

(الترجم) .

ومنها إلى بغداد ثم إلى طهران . كان فصل الشتاء قد بدأ ، ويحتمل أن يكون مسار الطريق البرى ، الذى يمر خلال المناطق المرتفعة ، باردا جدا ، حتى فى الجزيرة العربية نفسها . ولعل هذا السبب وبعض الأسباب المنطقية الأخرى هى التى دفعت النائب إلى تفضيل المسار الأسهل ، الدافئ الذى يمر بمنطقة الأحساء ، ثم الانتقال بالسفن عن طريق الخليج الفارسى إلى شط العرب ثم إلى مشهد على ، بدلا من السير فى الطريق المرهق الذى يمر خلال جبال سدير وزلفة ، ثم بعد ذلك خلال الأراضى المرتفعة من البلاد . ومع ذلك فقد كان محمد على شيعيا أصيلا ، وبالتالي كان لابد فى البداية أن يستخير الله باستعمال مسبحته . وقد عرف محمد على ، من خلال الاستخارة التى أجراها ثلاث مرات أن الإنذار السماوى يلفت انتباهه إلى عدم سلوك الطريق الأول ، والسير فى الطريق الثانى ، وهذا هو ما فعله محمد على الشيرازى بالفعل ، مما أدى إلى إضاعة الكثير من الوقت وزيادة النفقات والمتاعب .

وينبغى على القارئ الكريم أن يعرف (إذا لم يكن يعرف ، لأن هذا الأمر يستحق المعرفة) أن الإيراني ، أو الشيعى بشكل عام ، لا يمكن له أن يشرب فنجالا من القهوة أو يشعل النرجيلة ، دون أن يستخير حظه باستعمال مسبحته . وهذه عادة كريهة يستنكرها الوهابيون عن حق ، يضاف إلى ذلك أن كراهية الوهابيين لكل من السحر ، والتعاويذ ، والشعوذة إلى آخر هذه القائمة ، تمتد أيضا لتشمل الرجم بالغيب والفأل بكل صورته ، وتفسير الأحلام وأيام السعادة وأيام التعاسة ، وما إليها ؛ وهذه شهادة حق يسعدنى أن أشهد بها للوهابيين .

وخلال الأسبوع الأخير من شهر نوفمبر ، اتجه محمد على ومعه كل خدمه إلى سدير ، وقد فرحت فى الربيع التالى عندما علمت أنه وصل هو ومن معه إلى بلاده سالما .

وقد حصل الشحاذان المكيان ، اللذان رافقانا من حائل إلى هنا ، على قميص لكل منهما وقطعة نقود من فئة الريالين ، وقد أفاد أحدهما من هذه الهدية القيمة ، بأن ذهب إلى البصرة ، التى انتحل فيها اسم سعيد Sey,yid ، واشترى لنفسه عمامة كبيرة ؛ بينما اتجه زميله ناحية الغرب - ولا أعرف له مقصدا أو مقاما . وهنا أجدنى أعود من جديد إلى مجرى الأحداث الطبيعى .

طوال هذه الأيام الأربعين كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق فى نجد لتوجيه ضربة حاسمة إلى عنيزه . وحتى ذلك الوقت ، لم تكن القوات والحملات التى

شنت على عنيزة سوى جماعات للمناوشة ، وكانت تضم عددا محددا من رجال الافلاج وسدير ، ومن زلفة ومن شقراء ، مع قليل من محاربي العارض واليمامة وذلك لرفع الروح المعنوية لدى بقية القوات ، كما عين محمد ولد فيصل الأصغر قائدا لهذه الحملات . وكانت خطة المجلس الوهابي ترمى إلى إضعاف العدو عن طريق الهجمات المتفرقة وعن طريق الحصار ، ثم الهجوم عليه بعد ذلك باستعمال القوة المركزية والقوة الجنوبية ، بالاشتراك مع قوات المناطق الشرقية ، وأن قيادة ذلك الهجوم الرئيسى سوف توكل إلى (الأمير) عبد الله السفاح الذى لا يقهر .

ويقترب الموعد المحدد للهجوم ، وتصدر الأوامر لكل من اليمامة والحريق بإرسال قواتهما ، وتطلب السلطات من السليح ووداي الدواسر أن يرسلوا ميليشياتهما الوقحة ، وطلب من الاحساء إرسال المبلغ المفروض عليها ، واستدعيت مدفعية القطيف ، ليكون كل ذلك جنبا إلى جنب مع قوات العارض نفسها ، واستكمالا لعدة وعتاد الجيش الذى يحاصر عنيزة . ترى ماذا يتبقى لمدينة معزولة ، مهما كانت قوتها ، وهى تواجه هذا الحشد من قوات الهجوم ؟

ويستشعر الزامل هو وأتباعه أن مسألة سحقهم لم تكن مدبرة وإنما مؤكدة بالفعل . ولم يعد يتبقى لهم أى أمل فى شريف مكة ، إضافة إلى أن مصر كانت بعيدة عنهم ، وكان حالهم مثل حال بنى إسرائيل القدامى ، مجرد قصب مكسّر . من هنا ، راح الزامل وأتباعه يرسلون لفيصل رسائل الاستسلام والخضوع ، بل رسائل التضرع ، وعرضوا عليه الولاء التام له ، ودفع الجزية ، والطاعة والولاء له ، وجددوا مساندتهم للدين ، واستنقروا فيه أخوة الإسلام ، وأخيرا استرحموا سلطان نجد أن يراعى الله فى الأخطار التى سوف تترتب على الحرب واقتحام المدينة . وقد أثرت هذه الرسائل فى (الملك) فيصل ، وأثنته عن هدفه ، وكان على استعداد لقبول هذا الخضوع الذليل ، وكان على علم أيضا بأن رفض مثل هذا العرض قد تترتب عليه مسئولية مخيفة . ولكن محبوب ، على العكس من فيصل ، كانت له تطلعات طموحة ، فى ظل القوة الصاعدة ، تتعلق بزيادة الامتيازات والنفوذ والتوسع الوهابى بعد سقوط عنيزه . فى حين أن عبد الله الذى كان يتوقع الانتصار بشكل ضارٍ وشديد جداً ، لم يكن ميالا إلى أن يفلت منه درس واحد من دروس فنه ، أو ورقة واحدة من إكليل نصره ، وألا يقل عن ذلك الذى يقول التاريخ عنه أنه خاض معركة نيمويجين Nimwegen وفى جيبه معاهدة أترشت utrecht .

وكان المطاوعة ، من جانبهم ، يحاصرون الملك المسن المتردد ، ويحثونه على القسوة الشديدة التي لجأ إليها النبي والتي ورد ذكرها في إحدى سور القرآن الشهيرة ، آخر السور نزولاً من حيث التوقيت ، والتي تحمل اسم " التوبة " ، والتي أبدى عنها أبو بكر ملاحظة مفادها أن اسم " الانتقام " هو الأنسب لهذه السورة^(١) . ودارت في القصر مشاورات مطولة ، أرسل على أثرها ، إنذار الملك فيصل إلى الزامل وأتباعه . يقول الإنذار : " سلم نفسك يا زامل ، سلم نفسك يا خياط ، وليسلم بقية زعماء التمرد أنفسهم ، وعندئذ ، وليس قبل ذلك ، سوف أنظر في مسألة السلام " . كان الموت أرحم لرجال عنيزة من الوفاء بمثل هذه الشروط ، ولذلك لم يرد الزامل وأتباعه على ذلك الإنذار . وقد اطلعت ، عن طريق محبوب ، على الرسالة التي وردت من عنيزة ، وعلى الرد أيضاً ، برغم أنني لم يسمح لي بحضور المجلس ، الذي اعتمدت فيما كتبته عنه ، على التقارير التي كانت متدولة في ذلك الوقت .

وكشف عبد الله عن سروره بالحملة ، وكان مستعداً للرحيل على وجه السرعة . وأرسل الملك فيصل ، في الوقت نفسه ، إلى ولده من زوجته الثانية ، سعود ، وطلب إليه إحضار قوات الحريق ، وأن يسلم هذه القوات ، عندما يصل إلى الرياض ، إلى أخيه الأكبر عبد الله ، الذي سيحل سعود محله في رئاسة مدينة الرياض ، أثناء وجوده في عنيزة . ويصل سعود على وجه السرعة ، ومعه قوات الحريق التي تقدر بحوالي مائتي خيال ؛ في حين كانت بقية القوات من الجمالة ويقدرون بأكثر من ألفي رجل .

وعندما دخلت قوات الحريق الرياض ، ظهر فيصل لأول وآخر مرة ، طوال مقامنا في الرياض ، عند بوابة القصر . كان المشهد يحتاج إلى رسام فنان . كان الطاغية العجوز الضريع ، المتين المقعد ، يجلس مهيباً ، رافعا جبهته العريضة الكبيرة ، بلحيته البيضاء ، وعلى وجهه مسحة من التفكير والتأمل ، مرتدياً أبسط الثياب الوهابية ؛

(١) نعم إن سورة التوبة هي آخر ما تنزل من سور القرآن كما جاء ذلك في صحيح البخاري من حديث البراء يقول : آخر آية نزلت " يستفتونك كل الله يفتيكم في الكلالة " وآخر سورة نزلت براءة (يعني التوبة) وأما عن أسمائها فهي تسمى براءة لأن الله ورسوله تبرأ من المشركين وتسمى الفاضحة ، والبحوث وتسمى المبعثرة ، أما الفاضحة فلأنها كشفت أسرار المنافقين ، وأما البحوث فلأنها تبحث عن أسرارهم . والمبعثرة من البعثرة وهي البحث . ولكنني لم أقف على ما ذكره المؤلف من أسمائها وهو " الانتقام " ، ووصف الكاتب النبي (ﷺ) بأنه كان قاسياً فهذا وصف خاطئ لأنه (ﷺ) كان موصوفاً بالرحمة بل هو نبي الرحمة قال تعالى " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " وقال تعالى " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " .

وكان يتدلى من جانبه ذلك السيف ذو المقبض الذهبى ، الذى كان بمثابة الشئ الوحيد الذى يميزه عن الآخرين . وإلى جانب الملك ، كان يجلس الوزراء ، وموظفو البلاط ، وجمع من الأعيان والأثرياء . ولم يغب عن هذا الاجتماع الشعبى سوى الأمير عبد الله وحده . ويظهر (الأمير) سعود ، ويبدو كما لو كان ضابطاً من ضباط الهوصار^(١) وكان يرتدى شالا من الكشمير ، وشاحاً قصيراً جداً مشغولاً بالذهب ، ويأتى بعد ذلك الرجال واحد بعد الآخر ، على شكل فرسان يرتدون ملابس حمراء ، ورماحهم فوق أكتافهم ، وسيوفهم تتدلى من أجنابهم ؛ كما كانت تتدلى من سرج حصان كل محارب ، بندقية فتيل ؛ يضاف إلى ذلك أن خنجر الحريق الحاد كان يتلألأ فى أحزمة الفرسان . وبعد الفرسان ، يحيى الجنود العاديون راكبي الجمال أو الذلول ، وقد تسليح بعضهم بالرماح فقط ، والبعض الآخر بالرماح والبنادق ، إلى أن امتلأ الميدان العام بالرجال والمتفرجين ، طوال الفترة التى استغرقتها القوات فى الاصطفاف أمام ذلك الحاكم المطلق ، ثم ينزل سعود عن حصانه ويقبل يد والده ، " الله ينصر فيصل ! الله ينصر جيوش المسلمين ! " تردد هذا الهتاف من جميع الأجناب ، وعلت جميع الوجوه ابتسامة الحماس الشديد والإحساس بالقوة . وينهض (الملك) فيصل من مكانه ويجلس ولده إلى جانبه . وبعد برهة قصيرة يدخلان القلعة سوياً ، فى حين تنصرف القوات إلى ثكناتها ، فى الخجيك Khajik بصفة خاصة .

كنت قد قلت أن عبد الله لم يظهر . وبرغم أنه كان فرحاً بأن ذلك كان حدثاً من الأحداث التى ستساعد على تحقيق أهدافه ، إلا أن حقه الشخصى لم يسمح له بالمشاركة فى استقبال أخيه . وفى اليوم التالى ، وبينما كان (الملك) فيصل يجلس فى ديوانه الخاص مع ولده سعود ، سأل إن كان التقى بأخاه الأكبر ، وعندما أجابه سعود بالنفى ، طلب منه أن يزور أول ما يزور ، أخاه عبد الله . ويرد سعود على والده قائلاً : " أنا الضيف الغريب فى حين عبد الله هو من سكان المدينة ، وبالتالى ينبغى عليه هو أن يقوم بزيارتي أولاً " . ويلح (الملك) فيصل فى أوامره ، ولكن دون جدوى ؛ ويصر سعود على رفضه . ويفقد الملك المسن سيطرته على نفسه ، وينهض بمساعدة عبيدين زنجنين ، ليضرب ولده سعود . ويمد سعود كتفيه ناحية والده قائلاً : " اضرب ، فأنا موجود أمامك ، ومع ذلك لن أذهب إلى منزل أخى " . ويتدخل العبدان ، ويشعر (الملك) فيصل بالخجل لسوء تصرفه ، ويأمر سعود بالابتعاد دون أى تعليق منه بعد ذلك .

(١) الهوصار : جندي فى وحدة من الوحدات العسكرية الأوربية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغارى الخفيف فى القرن الخامس عشر - (المترجم) .

وبعد ذلك بساعات قلائل ، ركب الملك الضرير ، حصانا ، وشوهد وهو يعبر الشارع المؤدى إلى قصر الأمير عبد الله . وبعد أن وصل إلى القصر ، حكى لابنه ما حدث ، وطلب منه أن يقوم هو بالزيارة الأولى . ولكن الابن الأكبر أثبت أنه أكثر شموساً من الابن الأصغر ، برغم أن أعذاره كانت أقل . وفى النهاية يقول فيصل لولده عبد الله : "الخطأ كله عندى أنا ، فأنا الذى أسأت معاملة أخيك . لقد كان على صواب ، ونحن جميعاً على خطأ ، ولابد من تصحيح هذا الخطأ بأى حال من الأحوال . فهلاً أتيت معى إلى القصر ، ونقوم أنا وأنت بزيارته فى مسكنه ؛ إن زيارتك سيكون لها طعم آخر وأنا معك ، وسوف تعود المياه إلى مجاريها المعتادة" . وهنا لم يقو عبد الله على الرفض ؛ وأمكن بذلك فرض عادات الأدب والاحترام بين الشقيقين ، وبذلك أمكن تحاشي أخطار حدوث فضيحة عامة شائنة . وكان قد تم إبلاغ محبوب بكل ما حدث . ويسأل محبوب فيصل : "هل تفهم حقيقة ما يدور الآن ؟ والله ! ما أن تموت حتى يسمع الناس صليل السيوف فيما بين العارض وسدير" . وتنهّد فيصل تنهيدة عميقة ؛ ولكن ما هو العلاج ، عندما ينتقل الصراع من الأمهات إلى الأبناء ، ويزداد الأمر سوءاً عندما يتصارع الأبناء على الملك ؟

ولم تمض على سعود ، فى مسكنه الجديد ، داخل القصر ثلاثة أيام ، حتى جاعنى خادم طويل أنيق، بعد عودتى بمنتهى الرقة والأدب، من حضرة سيده ، والذى قال لى ، إن سيده يعانى من ألم فى أسنانه أو من صداع ، لقد نسيت أيهما ، وأنه بحاجة إلى مساعدتى العاجلة له . وعندما دخلت مسكن الأمير ، استقبلنى استقبالا حاراً وبطريقته الودية المعتادة التى يشتهر بها ، وضحك بصوت عالٍ عندما سألته عن أوجاعه . ويرد على قائلاً : "أنا على ما يرام مثلك تماماً" . إن كل ما أريده كان مجرد ذريعة لإحضارك إلى هنا " . ثم يدخل (الأمير) سعود ، معى ، بعد ذلك فى حديث ودى ، وأعرب ، أو نوه فى أقل الأحوال ، عن تعاطفه الكبير مع مصر . والواقع أنه ، نظراً لأن سعود كان عدواً لدوداً لـ - عبد الله ، واستشعاراً منه لحقيقة صراع غير بعيد ، فإنه كان يود عن طيب خاطر ، طلب المساندة من حكومة ينتظر منها أن تكون مشاعرها غير ودية بشكل عام ، تجاه أخيه الوهابى المتزمت . وتكرر استدعاؤه لى ، طوال فترة مقامى فى الرياض ، وعبر لى عن كثير من وده ، الحقيقى ، فى ظل فكرة مفادها إننى كنت مبعوثاً من مصر ، ومن منطلق هذه الفكرة أيضاً راح يحرص على عبد الله ، بالطريقة التى سوف أرويها هنا .

فى البداية رأينا كيف أن كل شىء كان يسير على ما يرام وبلا منغصات مع ولى العهد ، ولكن مع مرور الوقت ، بدأ النجاح الذى تحقق يثير الحقد هنا وهناك ، كما بدأت المراقبة اللصيقة تثير الشكوك ، إلى أن بدأت السماء الصافية تتلبد بالغيوم ، وبدأت تظهر نذر عاصفة على وشك الهبوب ، وقد بلغت هذه النذر من الكثرة حداً جعلنا نحتاط ونأخذ حذرنا ، وليتنا كنا أكثر حذرا ، مما كنا عليه . والحقيقة تضطرنى هنا إلى أن أعيد ذكر أكثر من حماقة ، أنا على يقين أنها ستشبع رغبات القارئ الأوربى أكثر من رغبات سموه فى الرياض . وأنا أورد الظروف هنا حتى يمكن لى توضيح أسباب الأحداث وعلاقاتها .

وعليه ، ففى إحدى الأمسيات أزعجنى عبد الله ، عندما طلب واقيا من المرض ، لألم فى أسنانه يعاوده من حين لآخر ، ويضايقه إلى حد بعيد . واقترحت عليه واقيا أو اثنين ، ولكنه لم يوافق عليهما . وأخيرا قلت له أنه لم يعد يتبقى سوى دواء ملكى واحد ، وأنه لابد وأن يحتفظ به سراً . ويسألنى الأمير بشغف : " وما هو ذلك الدواء ؟ " وأجبتة قائلاً : " إنه الدخان ، بعد أن يتم مضغه ووضعته على السن ، مع إشعال الغليون واستعماله لزيادة فاعلية الدخان " . ولم يقل الوهابى شيئاً ، ولكن جبهته كانت تقول الكثير ، وشعرت إننى تجاوزت الحدود معه إلى حد بعيد .

وفى مرة أخرى ، طلب منى (الأمير) عبد الله أن أباشر خيوله بصورة دورية وعلمية . وحاولت أن أفعل ذلك فترة من الوقت ، ولكن دون جدوى ، عله يفهم أن الطبيب البشرى إنما هو شىء واحد فقط ، وأن الطبيب البيطرى شىء مختلف أيضاً : والحق هو إننى كنت متخوفاً من ارتكاب أى خطأ مع أفراسه وخيوله . ومع ذلك ، لم يقبل عبد الله أى عذر من الأعذار التى كنت أسوقها إلى أن حسمت الأمر قائلاً : " سوف يسعد سموك أن تتذكر أننى هنا فى عاصمتك أعمل طبيباً للمغفلين وليس الخيول ^(١) ؛ واستوعب الأمير الإصابة ، ولم يكن راضياً عنها ؛ ثم ابتسم ابتسامة صفراء ، وغير مسار الخطاب .

ثم حدث بعد ذلك ، ما هو أسوأ من ذلك . كنا فى القصر ، فى إحدى الليالى ، وكان من عادة عبد الله ، أن يؤخرنى حتى منتصف الليل ، ويروح يزعجنى ويضايقنى

(١) استعمل المؤلف هنا كلمة Asses التى معناها القريب "جحوش" ولكن معناها البعيد "مغفلون" - (المترجم) .

بالأسئلة الطبية العلمية ، ويخص نفسه بمقرر منظم من المحاضرات الصيدلانية دون دفع الأتعاب . وكنت متعبا وأغالب النوم ، وكان من الأفضل لى أن أذهب إلى المنزل لأخذ قسطا من النوم . ورغبة منى فى تصعيد الأمور إلى حد الأزمة لزمّت الصمت ، وتعمدت أن أترك أسئلة سموه تمر دون أن أجيب عليها . ويسألنى الأمير : "فيم تفكر ؟" وبعد إجابة رائعة أو اثنتين ، أجبته أننى كنت أفكر فى قصة من القصص التى تدور عن الخليفة هارون الرشيد ومزأحه الشهير ، ورفيق مجلسه أبو نواس . ولكن عبد الله ، الذى كان مثل سائر العرب ، لا يستسيغ شيئا سوى قصص الملوك والخلفاء ، سألنى عن مضمون هذه الحكاية . فقلت له : كان من عادة هارون بن الرشيد أن يظل ساهرا إلى ساعة متأخرة من الليل ، وأنه كان من عادته أن يجعل من أبى نواس رفيقا له فى سهره ، فى الوقت الذى يفترض فيه أن يكون أبو نواس نائما . وذات ليلة وبينما كان هارون الرشيد يتكلم على نحو سريع ، فى حين كان أبو نواس صامتا كما لو كان غارقا فى أفكاره . وسأله الخليفة : " فيم تفكر يا أبا نواس ؟" ويرد أبو نواس : " أنا لا أفكر فى شيء يا أمير المؤمنين ؟" ، ثم يلوذ بصمته مرة أخرى . ويكرر الخليفة السؤال عليه مرة ثانية ، ويجيب عليه أبو نواس بنفس الإجابة . ولكن عندما كرر الخليفة السؤال للمرة الثالثة ، رفع أبو نواس رأسه ، ونظر وحملق فى وجه صاحب الجلالة خليفة بغداد ، وقال : " أنا أفكر فى هذا " . (ويؤسفنى أن أقول تلك الكلمة العربية التى سوف أعبر عنها بالعبارة العربية : التى تؤذى أذن المتزوجين) "الشهوانى البهيمى ، الذى لا ينام ولا يدعى أنام " .

ويحملق عبد الله ، ويتردد فيما بين الغضب والضحك . ويغلب عليه الضحك فى النهاية . ثم قال لى : " تصرف على راحتك " ، وهنا استأذنت وذهبت لحال سبيلى .

وفى هذه المرة لمست أنه على وشك الاستياء منى ، وقد بلغنى بعد ذلك أن القاضى عبد اللطيف (آل الشيخ) ومعه بعض أمثاله ، انتهزوا هذه الفرصة وراحوا يجعلونى محطا لشكوك الأمير . وكان أول عمل حميمى نلقاه يثير كثيرا من العجب .

ومسألة دخول الأجانب إلى الرياض عملية صعبة ، ولكن مسألة الخروج منها أشد صعوبة ؛ ولو قدر لـ - رينارد Reynard نفسه أن يكون حيا ، لما خاطر بالدخول فى هذا الكهف الملكى . وفى العاصمة النجدية هناك طريقتان متفق عليهما لسد الطريق فى وجه أولئك الذين تتور من حولهم الشكوك ويريدون الخروج من العاصمة . وأولى هاتين

الطريقتين وأسرعهما هي تلك الطريقة التي يكونونها بقولهم " الميت ليس له رفاق " . ولكنهم عندما يجدون أن قبور الموت غير سريعة ، فإن قيود هيمان^(١) والإقامة في الرياض قد تقوم من حين لآخر بأعمال قيود الموت . وقد حاول عبد الله ، بل وقرر تقييدنا بذلك النوع الأخير من القيود .

وبناء على ما تقدم ، حضر إلى منزلنا ذات صباح ، خادم من خدام القصر ، وعلى وجهه ابتسامة ، إشارة إلى أنه يحمل شيئاً طيباً ، وكان كلامه جميلاً . وبعد أن سألنا عن صحتنا وأحوالنا ، وأمورنا ، وارتياحنا . . الخ أضاف أن عبد الله ظن أننا ربما نكون بحاجة إلى شراء هذا الشيء أو ذاك ويأمل أن نقبل هذه الهدية البسيطة ، كانت الهدية عبارة عن مبلغ معقول من النقود ، ضعف ذلك المبلغ الذي سبق أن حصلنا عليه كتعبير عن حسن النية، كان المبلغ على وجه التحديد، أربعة ريالات بدلا من اثنين . ثم ينصرف الخادم بعد ذلك . وكان أبو عيسى موجوداً أثناء هذه المقابلة ؛ وهنا قال أبو عيسى " خذا حذركما ، هناك خطأ ما " .

وفى مساء اليوم نفسه ، أرسل عبد الله في طلبى ، وأبلغنى بعد كثير من الإطراء والوعود الطيبة ، أن الرياض لا يمكن أن تخسر طبيبا قيما من هذا الطراز ، وأنى بناء على ذلك ، لابد أن يكون لى منزل ومقر دائمين فى العاصمة ، التى يجب أن أعتمد فيها على حمايته ورعايته لى ، وأن أعتمد عليه أيضا فى كل الأمور الطبية الأخرى ؛ كما أبلغنى أيضا أنه قد قرر بالفعل إعطائى منزلا ويستانا ، وحددهما لى ، فضلا عن أثاث مناسب ، ووجه حسن يشاركنى الحياة فى ذلك المنزل ؛ واختتم الأمير عبد الله كلامه بتوجيه الدعوة إلى بالذهاب فورا لمعاينة المسكن الجديد ، واستلامه .

وحاولت مرارا وتكرارا رفض ذلك العرض بشتى الطرق ؛ فقد حدثته عن قيامى بزيارة الشاطئ فى غصن الشتاء ثم أعود فى فصل الربيع ، وتذرعت بهذا العذر مرة وبذاك العذر مرة أخرى ؛ ولكن ذلك لم يُجْدِ فتىلا ، واستمر (الأمير) عبد الله على إصراره . واستهدافا لإسكاته ، وافقت على الذهاب لمعاينة المنزل الجديد ، واستعداد لأغنية الكاليسسو كانت لدى بعض الحجج التى استقيتها من الشريعة المحمدية (الاسلامية) ، والتى تجعل هذه الاغنية غير قابلة للنقاش ، ولكن شرح هذه الحجج

(١) هيمان : إله الزواج عند اليونان - (المترجم) .

وتفسيرها يحتاج منى مساحة أكثر مما تستوعبه هذه الصفحات . ويكفى أن أقول أن هذه الحجج كانت قاطعة وحاسمة، ومكنتنى من وضع نهاية حاسمة " لعرض " الأمير . ومع ذلك ، فقد بقى المنزل والدخل المقدم خارج نطاق هذه الحجج . ففى هاتين المسألتين كان عبد الله لا يتوقع حدوث أى رفض من جانبى ، وأنا لا أظن أن هناك أى تشريع فى العالم يمكن أن يكون ذريعة لرفض دخل طيب من هذا القبيل . وعليه ، فقد أصدر عبد الله أوامره لواحد من الخدم ليذهب معى كى أعاين المنزل الجديد ، ووعدته أنا بدورى ، أن أعطيه رداً محدداً فى صبيحة اليوم التالى .

كان المنزل ممتازاً بحق ، ويناسبنى تماماً ، وبجواره بستان صغير ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال الاعتراض عليه بأى شكل من الأشكال . ولو كان هناك طبيب عربى، من أولئك الأطباء الطوافين لنهش، إن جاز لى أن أستعمل هذه الكلمة السوقية ، هذا العرض . ولكن المسألة هنا تتمركز فى " أكون أو لا أكون " ، إضافة إلى أن المصاعب إذا كان لابد من وقوعها ، فذلك يحتم مواجهتها .

وفى لقائنا فى اليوم التالى أبلغت عبد الله أننا كنا مدركين تماماً للتكريم والمعروف الذى صنّع فىنا ، ولكن المشكلة تتمثل فى أننا كنا قد ارتبطنا من قبل على الذهاب إلى الاحساء ، وأننا لا يمكن لنا أن نتحلل من هذا الارتباط ، وأن مسألة عودتنا إلى الرياض فى فصل الربيع تكفى ، وأنه طالما أن عبد الله سيقود بنفسه الحملة الموجهة ضد عنيزه ، فمن الأفضل لنا أن ننتظر عودته قبل أن نقيم فى العاصمة بشكل دائم ، وذلك تحسباً لحدوث بعض المصاعب لنا أثناء غيابه عن الرياض ؛ وخلاصة القول : أننا أبلغنا عبد الله بأننا لا يمكن أن نقضى فصل الشتاء فى نجد ، ولكننا كنا نتطلع إلى زيارة ثانية تستمر فترة أطول فى العام الثانى . وبغض النظر عن لطف الرفض لم يكن مقبولاً ؛ ولكن عبد الله قبل هذا الرفض فى شىء من التردد الواضح والشك المقنع .

كان فصل الشتاء قد بدأ ؛ إذ كنا فى الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر . وهبت عاصفة رعدية ، هى أول عاصفة ، من نوعها ، نشاهدها فى وسط الجزيرة العربية ، وتسببت فى انخفاض درجة الحرارة وبرودة الجو فى وادى حنيقة . وينهمر المطر غزيراً بعد هذه العاصفة ، وتنهل السيول على مجارى السيول الجافة فى الوادى ، محولة تجاويفه ومنخفضاته الكبيرة إلى خزانات مؤقتة للمياه . وعلى كل حال ، لم يكن أى مجرى من تلك المجارى يتجه ناحية البحر ، ولا يمكن لها أن تصل إلى البحر ، والسبب

فى ذلك أن هذا الجزء من نجد مطوق من ناحية الشرق بسلسلة جبال طويق . ورحب السكان بالأمطار الغزيرة ، التى تنبئ بخصوبة ونماء فى العام المقبل ، فى حين أحدثت هذه الأمطار نفسها فى عنيزة ، أثرا ممتازا ، أتحدى أن يعرفه القارئ أو يقف عليه ، كان الجيشان المتعاديان ، بقيادة الزامل ومحمد بن سعود ، يواجه كل منهما الآخر ، وعلى وشك الدخول فى معركة شرسة ، عندما هبت العاصفة عليهما ، وعندما أدت الأمطار إلى إطفاء البنادق القتالية ، لدى كل جانب من الجانبين ، تسببت فى منع خروج الطلقات وتدفق الدم. وعندما وصل هذا الخبر إلى الرياض، قال لى أبو عيسى : " لا تنس عند عودتك أن تذيع ذلك فى أوربا ، فقد يساعد ذلك على إعطاء فكرة عن العمليات الحربية العربية "

كانت مشكلات النائب قد أوشكت على الانتهاء ، وكان أبو عيسى قد حصل أيضا على تراخيصه الحكومية . وبدأنا الاستعداد للاتجاه شرقا ، ولكن لم نكن قد حددنا بعد اليوم الذى سنرحل فيه عن نجد ، وهنا حدث انفجار مفاجئ لنية ملكية مبيتة ، جعلتنا ننهى ترددنا ، وحثمت علينا أن نعجل بالرحيل عن الرياض .

كانت طبيعة مريض واحد من المرضى ، قد دفعتنى إلى تجربة مادة علاجية قوية برغم خطورتها وهى الاستركتين تلك المادة السامة ، وترتب على استعمال هذه المادة حدوث تحسن سريع وفريد . ومبلغ ظنى أن مسالة حدوث تحسن دائم لم تكن هى السبب ، وإنما النجديون الذين لم يروا شيئا سوى هذه النتيجة الحالية ، لم يكونوا ولا يمكن أن يكونوا ، قضاة ، فى مثل هذا الموضوع ، فى حين أن المريض نفسه ، وقد كان ذا منزلة عالية ، ورئيسا مسنا لأحد البلدان ، هو الذى لفت الانتباه إلى هذه الحقيقة . وراح الجميع يتكلمون عن هذا الموضوع ، وذاع الخبر وانتشر إلى أن وصل القصر .

كان عبد الله قد قام بزيارته الاضطرارية إلى أخيه سعود ، وكان التصارع المتبادل بين الأخوين ، الذى بدأ يزداد بحكم اقترابهما من بعضهما ، قد أوشك على الانكشاف ، أو بالأحرى انكشف وبان للعيان ولكن فى حدود رسميات وشكليات اللياقة الاجتماعية . وبدأت رائحة المؤامرات ، والخianات ، بل والعنف نفسه يفوح من خلف جدران القصر ؛ ولم يعد التفكير فى الاغتيال ، سواء أكان بالخناجر أم بالفناجيل ، أو بالأحرى بفناجيل القهوة ، يدهش أحدا فى القصر . بل وإن محبوبا أيضا الذى كان

كارها دوما ل - عبد الله ، بدأت تزداد ، عند هذه اللحظة ، كراهيته ل - عبد الله أكثر من ذي قبل ، ومن موقعه كوزير استطاع أن يتبين الخطر الذى يمكن أن ينزل به هو شخصيا ، عندما يضع الزمن السلطة الكاملة المطلقة بين يدي شخص طالما كان يرهبه بالصياح والعبوس ويعطله على الدوام. ومن هنا انضم محبوب إلى جانب سعود، وأدى بفعلته هذه إلى تسخين مشاعر عبد الله الغاضبة إلى سبعة أضعاف ما كانت عليه . وانقسم أعيان البلاد ، بل وغربائها بين مؤيد لهذا الأخ ومعارض لذاك ، ومع أن حياة (الملك) فيصل ، كانت مثل ذلك الخيط الحريري الذى كان يلف الوحش فى رواية ترايرمين Triermain ، التى عنوانها "صالة الخوف"، وكانت تبعد النمرين عن بعضهما ، إلا إنها لم تكن كافية لمنع حدوث وثبة مفاجئة أو بمعنى أصح انفجار سرى .

كان عبد الله قد تعلم من خلال محاضراته الثقافية قدرا من المعلومات التى تمكنه من تعرف خصائص المواد السامة وبخاصة الاستراكنين ؛ وبرغم أن عبد الله لم يكن على دراية كاملة بالأعيب المجرمين الأوربيين ، فإنه كان منافسا لهم فى الشرق . كان العلاج ، أو الشفاء على أقل تقدير ، الذى سبقت الإشارة إليه ، قد حدث فى السادس عشر من شهر نوفمبر ، أو فى الوقت الذى كنت قد أبلغت فيه عبد الله برفضى القاطع للعروض التى قدمها ، وبالتالى كان لا يعرف ماذا يفعل بعد ذلك . وبعد ذلك بيوم أو يومين أرسل إلى عبد الله ، وأعرب عن أسفه لأننا قررنا مغادرة العاصمة ، والتمس منا أن نترك بعض الأنوية النافعة حتى يفيد منها الناس ، وطلب منا ، أن نعهد إليه قبل كل شئ ، بذلك العقار القوى الذى بدأ الجميع يعبرون عن إعجابهم بنتائجه الباهرة .

والغريب فى الأمر أن عبد الله رفض رفضا قاطعا كل ما قلته عن عدم جدوى ، بل والخطر الهائل، الذى يترتب على تداول الأيدى الجاهلة غير المتعلمة للمواد الصيدلانية . وفى النهاية ، وبعد كثير من الحض ، أنهى الأمير كلامه بأن قال لى أنتى يمكن أن ألغى جميع العقارات باستثناء عقار الاستراكنين الذى يتحتم أن أعطيه إياه ، وإنه على استعداد أن يدفع ثمنه أيا كان .

وهنا اتضح لى هدفه تماما ، ولم يخطر ببالى أن أمد له يد العون ، حتى ولو كان ذلك بطريقة غير مباشرة ، فى مخططاته الشيطانية ، ولم أجد أمامى سبيلا آخر غير الرفض بحزم وأدب . واستكمالا للرفض ، تظاهرت بأننى لا أشك فى نواياه ، ورحت أركز على طبيعة الاستراكنين الخطرة ، إلى أن اثنيته مؤقتا عن طلبه ، ثم غادرت القصر بعد ذلك .

وفى صبيحة اليوم التالى جدد عبد الله مطالبه ، ولكن دون جدوى . والتقيته للمرة الثالثة ؛ وكان ذلك فى اليوم التاسع عشر أو العشرين من الشهر (نوفمبر) . وبعد أن أشار إلى بالجلوس إلى جانبه ، أصر إصرارا قاطعا على الحصول على هذا السم على أن يكون فى حوزته هو ، وأخيرا ، وبعد أن تخلى عن جميع الأعذار ، بدأ يوضح لى الأسباب الداعية لذلك، برغم أنه لم يوضح ذلك الشخص الذى كان يريد السم من أجله، وأبلغنى أنه لن يقبل أى عذر سواء أكان أخلاقيا أم غير ذلك .

كان عبد الله ، فى ذلك الوقت ، يجلس فى الطرف القصى من القهوة ، بينما كنت قريبا منه ؛ فى حين كانت تفصلنا عن أفراد الخدم والhashية الحاضرين مسافة لا تمكنهم من استراق السمع على حديثنا ، وبخاصة عندما نتناجى . ونظرت من حولى كى أتأكد أن أحدا لا يسمعنا أو يسترق السمع علينا ، وعندما قابل رفضى الصريح برفض صريح من جانبه وإصرار على طلبه، اتجهت إليه مباشرة، ورفعت طرف غترته ، وهمست فى أذنه قائلا: " يا عبد الله، أنا أعرف جيدا السبب الذى تريد السم من أجله ، وأنا لا يخطر ببالى أن أكون لك شريكا فى جرائمك ، ولست على استعداد أن يسألنى ربى عما يجب أن يسألك عنه . أنا لن أعطيك هذا السم مطلقا " .

ويسودُّ وجه الرجل وينفجر غضبا؛ أنا لم أر قط شيطانا مثلك من قبل أو من بعد . وتردد لحظة فى صمت ، ثم تما لك نفسه ، ثم تغيرت نبرات صوته فجأة وراح يتكلم عن أشياء لا علاقة لها بالموضوع . ثم نهض بعد ذلك بلحظات ، ثم عدت أنا إلى المنزل .

وفى المنزل عقدت مجلسا مع كل من أبى عيسى وبركات لفرى ماذا نفعل . وخلصنا إلى أن هبوب العاصفة خلال وقت قصير أصبح أمرا مؤكدا ، ومن الخطر أن ننتظر هبوب العاصفة ، ولكن كان من الخطر أيضا أن تغادر المدينة بصورة مفاجئة ، ولم يكن من المفيد لنا أيضا أن تغادر المدينة دون أن نحصل على إذن بذلك . وأجمعنا رأينا على أن نواصل بقاءنا فى المدينة عدة أيام قلائل نتحرك خلالها بهدوء وحذر ؛ وأن نعطي إشارة للبلاط بأننا سنرحل ، وأن نودع الذين نعرفهم فى قصر فيصل ، ونجعل محبوبا يودعنا (ولم يكن ذلك بالأمر الصعب) . ثم ننسلخ بعد ذلك دون أن نلفت الانتباه إلينا . ومع ذلك ، فإن مصيرنا لم يكن بهذه السهولة واليسر .

وفى مساء اليوم الحادى والعشرين ، سهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وكنا نتحدث عن الاستعدادات اللازمة للرحلة ، ونشرب القهوة مع بعض من الحضر ،

طبيب المعشر ، الذين لم يكونوا من معارضى الدخان المحظور ؛ هذه العملية التي كان منزلنا قد اشتهر أو لم يشتهر بها منذ فترة طويلة ، وفجأة سمعنا طرقا على الباب يعلن وصول عبد الله ليس عبد الله الأمير وإنما سَمِيَهُ وكاتم أسرارهِ . وسألناه ، ونحن غير راضين عن زيارته لنا : " ما الذى جاء بك إلى هنا فى هذه الساعة من الليل ؟ " .

ويرد علينا الرجل رداً قصيراً قاطعاً قائلاً : " الملك " (وهذا هو اللقب الشائع فى عامية الرياض ويطلق على ولي العهد) " يطلبك ؛ هيا معى على الفور " . وسألته وأنا انظر إلى رفيقى : " هل أحضر بركات معى ؟ " ويرد على المبعوث قائلاً : " إن الملك يريدك وحدك " . وسألته : " هل أحضر معى واحداً من كتبى ؟ " ويرد قائلاً : " لا داعى لذلك " . وقلت له : " انتظر بضع دقائق حتى تشرب القهوة التي أعدناها لك " .

ومن الأدب ألا يرفض ذلك الطلب الأخير . وأثناء فترة تناول القهوة انتهزت الفرصة وتبادلت بعض الكلمات مع كل من أبى عيسى وبركات . ووافق الاثنان على توديع الضيوف ، وأن يظلا مستعدين لنتائج هذه المهمة الليلية ، والتي يتضح منها إنها مهمة تهديدية ، وربما خطيرة أيضا . ومع ذلك ، فإن حقيقة عدم استدعاء بركات ، كنت أعتبرها ضمناً لعدم حدوث عنف مفاجئ .

وغادرت منزلنا بصحبة مبعوث الملك ، وسرنا فى صمت خلال الظلام عبر الشوارع المتلوية إلى أن وصلنا إلى قصر عبد الله . وبعد أن وصلنا إلى هناك ، دار حديث قصير بين المبعوث والحراس ، الذين استأنفوا مهمتهم بعد ذلك ، فى حين مضى المبعوث إلى داخل القصر ليبلغ الأمير بوصولى ، وتركنى دقيقة أو اثنتين أبرداً فيهما نفسى ، فى هواء الليل ، فى الفناء . ويظهر بعد ذلك عبد (زنجى) ، يشير إلى بالدخول .

كانت الغرفة مظلمة ، ولم يكن فيها أى ضوء غير ذلك الضوء الذى كان ينبعث من الحطب المشتعل فى المدفأة . وفى الطرف البعيد من الغرفة كان يجلس عبد الله ، صامتا ومحزونا ؛ وفى مقابله ، كان يجلس عبد اللطيف ، سلف محمد بن عبد الوهاب ، وبعض الناس الآخرين ، أظن أنهم كانوا من المطاوعة ، أو ممن ينتمون إلى جماعتهم . كان محبوب يجلس إلى جانب عبد اللطيف ، وكان حضوره بمثابة الظرف المواتى الوحيد منذ الوهلة الأولى . ولكنه أيضا كان يبدو عليه التجهم . وفى الجانب الآخر من تلك الصالة الطويلة ، كان هناك عشرة أفراد مسلحين ، أظن أنهم كانوا نجدين أو زنوجا .

وعندما دخلت الغرفة ، لم يتحرك أحدٌ ، ولم يردوا على التحية . وحييت عبد الله ، الذى رد على التحية بصوت خفيض ، وأشار إلى بالجلوس على بعد مسافة قريبة منه ، ولكن فى نفس الجانب من الديوان . ولعل القارئ يقتنع بأنى لم أكن ، فى تلك اللحظة أتطلع إلى ذلك الجوار الحميمى .

وبعد شئ من الصمت ، استدار عبد الله قليلا ناحيتى ، قال لى بصوت واضح وعميق وقد علت وجهه نظرة سوداء : " أنا أعرف جيدا الآن من أنتما ؛ أنتما لستما أطباء ، أنتما مسيحيان ، جاسوسان ، وثوريان (مفسدان) ، جئتما إلى هنا لتخريب ديننا ودولتنا لصالح أولئك الذين أوفدوكما . وعقاب أمثالكما هو الموت ، وأنت تعرف ذلك ، وأنا مصمم على قتلكما على الفور " .

وخطر ببالى أن " عمر الشقى بقى " ولم أجد أى حرج فى الحفاظ على الهدوء الذى كنت أحسه بالفعل . ونظرت إلى وجهه نظرة باردة وقلت له : " أَسْتَغْفِرُ الله " فهذه العبارة التى تقال لمن يكون قد قال شيئا فى غير محله .

وجاء ردى عليه مفاجئا ؛ وبادرنى قائلا : " لماذا ؟ "

ورددت عليه قائلا : " لأنك قلت الآن شيئا سخيفا تماما . تقول إننا " مسيحيون " ، وهذا مقبول ، ولكن جواسيس ، ومفسدون كما لو كنا غير مشهورين أو معروفين من كل من هم فى المدينة ، على أننا أطباء ، ولا أكثر من هذا ولا أقل ! ثم تتكلم بعد ذلك عن إعدامى ! وأنت لا تستطيع أن تعدمنى ، ولن تجرؤ على فعل ذلك .

ويرد على عبد الله : " ولكننى أستطيع ذلك وأجرؤ عليه ؛ ومن الذى سيمنعنى من ذلك ؟ سوف تعرف ذلك حالا وتدفع الثمن " .

ورددت عليه قائلا : " أنت لا تستطيع ولا تجرؤ على فعل ذلك ، نحن هنا ضيوف على والدك وضيوف عليك مدة شهر أو أكثر ، وقد عرفتمونا على هذا النحو واستقبلتمونا على هذا النحو أيضا . ترى ما هذا الذى فعلناه ويعد خرقا لأصول الضيافة والكرم فى نجد ؟ يستحيل عليك أن تفعل ما تقول ، " استطردت فى كلامى وأنا اعتقد أن ذلك أمر يسير جداً ثم قلت له : إن شين وعار مثل هذا العمل سيكون كثيرا جداً عليك " .

وتأمل عبد الله الأمر لحظة ثم قال : " وكما أن أحداً لن يكون بحاجة إلى معرفة من فعلها ، فأنا لدى الوسائل ، وبوسعى أن أتخلص منك بدون كلام أو شائعات ، إن من يأترون بأمرى يستطيعون أن يجدوا الوقت المناسب والمكان المناسب لذلك ، دون أن يذكر اسمي ضمن هذا العمل كله .

كان من الواضح ، عند هذه المرحلة ، أن لغتي كانت هي الراجحة ، وتابعت الحديث ، ثم قلت بابتسامة هادئة " أنت ليس فى وسعك شىء من هذا القبيل . ألسنت أنا معروفا لدى والدك ، ويعرفنى أيضا كل من هم فى القصر ؟ ألسنت أنا معروفا أيضا من أخيك سعود من بين كل هؤلاء الآخرين ؟ أليست حقيقة هذه الزيارة معروفة من كل أولئك الذين هم خارج بواباتك ؟ أم أنك تحسب أن أحدا ليس موجوداً هنا ؟ " قلت له ذلك وأنا أنظر إلى محبوب ، " ويستطيع أن يبلغ ما قلته أنت هنا إلى الأماكن الأخرى ؟ من الأفضل لك أن تتخلى عن هذا الكلام الذى لا معنى له ؛ هل تظننى طفلا عمره أربعة أيام ؟ " .

وتمتم عبد الله وهو يكرر تهديده . ورفعت صوتى حتى يسمعه كل الجالسين فى أنحاء الغرفة قائلاً : " اشهدوا يا كل الحاضرين هنا ، أننى ورفيقي إن أصابنا أى شىء فى المنطقة من الرياض إلى شواطئ الخليج الفارسي ، فإن ذلك كله سيكون بفعل عبد الله . وإنه سوف يتحمل جميع النتائج المترتبة على ذلك ، وستكون النتائج أسوأ مما يتوقعه أو يحلم به .

ولم يرد الأمير على ما قلت . وصمت الجميع ؛ وركز محبوب عينيه على المدفأة ؛ وزادت نظرات عبد اللطيف ولم ينطق بكلمة واحدة .

ونادى عبد الله على الخدم " صب قهوة " ، وقبل مضي دقيقة واحدة ؛ كان عبداً أسود قد حضر وفى يده فنجال واحد ، فنجال واحد لا غير ، من القهوة . وبإشارة ثانية من سيده ، وصل العبد أمامى وقدم لى فنجال القهوة .

وبطبيعة الحال من الممكن للقارئ أن يظن الأسوأ فى تناول جرعة وحيدة وغير معتدة من هذا القبيل . ولكنى ظننت أن الأمور لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى مثل هذه المرحلة من الإعداد الدقيق ؛ زد على ذلك ، أن السبب الرئيسى وراء غضب عبد الله كان رفضى إعطائه السموم ، وهذا معناه أنه لم يكن لديه أى شىء من هذه

السموم حتى يستعملها ، وعليه " سميت باسم الله " ، وتناولت الفنجال ، وأطلت النظر إلى عبد الله ، ثم قلت للعبد " صب لى فنجالا ثانيا " . ويصب العبد لى فنجالا ثانيا ؛ شربته دفعة واحدة ثم قلت له " لقد اكتفيت " .

وتحققت النتيجة المطلوبة . وظهرت الهزيمة على وجه عبد الله ، بينما راح باقى الحاضرين يتهامسون . ونظر الأمير إلى عبد اللطيف وراح يتكلم عن الأخطار التى تتهدد البلاد من الجواسيس ، والخطط الشريرة التى يحيكها الكفار من أجل تدمير مملكه المسلمين . ويقاطع القاضى ورفاقه الحديث ويروحون يتكلمون ويعلقون على قصة الرحالة الدرويش مستعار الاسم الذى قتل فى الدرعية ، وقصة رحالة آخر (ولكنى لا أعرف من هو ؛ وربما كان فارسيا ، الذى قال عنه عبد الله ، إنه ضبط متلبسا بالتآمر ، ولكنه هرب إلى مسقط ، وفر من العقاب الذى كان يستحقه على جرائمه) . ويتكلم محبوب أخيرا ، لا لشيء سوى التهكم من هذا التخويف . وقال محبوب : " هذا الأمر بحد ذاته غير محتمل ؛ ولو قدر لهذا الأمر أن يحدث ، فما هو الضرر الذى يمكن أن يفعلانه ؟ " وبذلك كان محبوب يقصدنى " أنا ورفيقي .

وهنا طلبت الكلمة ، وقلت ذلك محادثة عامة ، حاولت خلالها تفجير فكرة الجواسيس والتجسس ، واستشهدت فيها بسلوكنا الهادئ القويم ، كما أثرت خلالها مسألة استيائى الأخلاقى من استبدال الشر بالخير وبخاصة بعد الخدمات التى أديناها لكل من الحاشية والمدينة كما استشهدت بآيات من القرآن تتعلق بحماقة إضمار الشك الذى لا أساس له والحكم بدون دليل واضح . ولم يرد على عبد الله رداً مباشرا ؛ زد على ذلك أن الآخرين ، مهما كان تفكيرهم ، لا يمكن أن يؤيدوا اتهاماً ، تخلى عنه سيدهم .

والشيء الذى سرنى كثيرا هو أن الأمير الوهابى ، كان على وجه التقريب قد دق على المسمار الصحيح ، وأننى كنت انتهره لوصول الظن به إلى مثل هذا الحد . ولم أكن أتمالك نفسى ، ولكنى شعرت بالسعادة عندما رأيت أن الأمير برغم عدم تغيير رأيه فىنا ، ألا أنه بلغ من التخوف حداً حثم أن يكون أرجاء تنفيذ الحكم أمراً مؤكداً ، ومن ثم تصبح مسألة هروينا أمراً ممكناً أيضاً .

ويستمر الحال على هذا المتوال فترة من الوقت ، جلست خلالها عامدا متعمدا فى مكانى ، لأثبت اطمئناني إلى البراءة ، إلى أن أشار لى محبوب إشارة فهمت منها أننى

يمكن أن أنصرف وأعود إلى منزلنا في سلام . وهنا استأذنت من عبد الله وغادرت القصر دون أن يرافقني أحد . كان الوقت يقترب من منتصف الليل ، ولم يكن ينبعث أى ضوء من المنازل ، ولم ينبعث من الشوارع أى صوت ، كما كانت السماء أيضا مظلمة وملبدة بالغيوم ، إلى أن اعترانى لأول مرة شعور بالخوف والوحدة ، وأنا أعترف بأننى التفت خلفى أكثر من مرة تحسبا أن يكون هناك من يتبعنى وفى يده " الشر " كما يقول العرب . ولكن لم يكن هناك أحد يتبعنى ، ثم وصلت إلى الحارة الهادئة ثم إلى الباب الخفيض الذى كانت تنبعث من خلال شقوقه ومضات ضوء خافت مما يدل على انتظار رفاقى القلق ، الذين فتحوا الباب الرئيس وفرحوا بعودتى سليما معافا من تلك المساءلة الحرجة .

وسرعان ما انتهينا من خطتنا المستقبلية . لم يكن أمامنا فى الرياض سوى يوم أو يومين على أكثر تقدير ، وذلك تحسبا أن توحى العجلة بالخوف ، ومن ثم تُشجّع الغير على مطاردتنا . ولكننا تحاشينا الذهاب إلى القصر خلال هذين اليومين ، كما تحاشينا أيضا التنزه فى الحدائق ، أو السير أثناء الليل ، والتزمنا دارنا إلى أبعد حد ممكن . وفى الوقت نفسه قام أبو عيسى بتجهيز الإبل المطلوبة ، ووضعها فى فناء مجاور للمنزل الذى نقيم فيه ، استعدادا لتحميلها فى أقل وقت ممكن .

كانت هناك قافلة من المسافرين ، قد قررت مغادرة الرياض إلى الأحساء بعدنا بأيام قلائل . وأشاع أبو عيسى أنه على استعداد لمرافقة هذه القافلة إلى الهفوف ، فى الوقت الذى كنا نود السفر عن طريق المسار الشمالى أو أن شئت فقل : طريق سدير ، هو نفس الطريق الذى سلكه النائب مؤخرا ، بعد أن ودعناه وودعنا ، وأكدنا له وأكد لنا على صداقته الدائمة ، إذا ما شاعت الظروف أن نلتقيه مرة ثانية . وكان مبيريك Mobey reek ، الخادم الأسود الذى يستلم أجره من أبى عيسى ، يشغل نفسه بتغذية الإبل ، على البرسيم والبيقية اللذين يجودان فى الرياض ، استعدادا لرحلتها الطويلة ؛ فى حين واصلنا نحن تقديم خدماتنا الطبية ، فى هدوء ، دون أن نترك المنزل . كان القصر كله مشغولا بسفر قوات الحريق ، التى كانت قد اتجهت إلى عنيزة عن طريق شقراء ، ولكن هذه القوات رحلت ، على العكس مما كنا نتوقع ، بدون عبد الله ، ذلك الأمير الذى أخر نفسه لحين وصول المدفعية ، التى كانوا ينتظرون وصولها فى أى يوم من الاحساء ، تحت قيادة محمد السديرى . ووسط هذه التحركات والجلبة لم يكن هناك

متسع من الوقت أمام أى أحد كى يسأل أو يستفسر عنا ؛ وأعقت هبوب العاصفة فترة من الهدوء ، وكان من مصلحتنا أن ننتهز هذه الفرصة ونستفيد منها قبل أن تثور عاصفة جديدة أسوأ من سابقتها .

وفى عصر اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر أحضرنا ثلاثة من إبل أبى عيسى وأدخلناها فى فناء بيتنا ، وأغلقتنا الباب الخارجى ، وحزمتنا أشياءنا وحملناها على الجمال . ورحنا نترقب دخول صلاة العشاء ؛ ويدخل وقت صلاة العشاء وتنطلق أصوات المؤذنين تدعو الوهابيين الطيبين ، ومعهم حرس المدينة ، إلى التوجه إلى المساجد المختلفة . وبعد مضى عشر دقائق ، التى من المفروض أن يكون الناس قد دخلوا بعدها فى صلاتهم ، فتحنا بابنا . ونظر مبيريك فى الشارع ليتأكد من خلوه من المارة ، ثم أخرجنا الجمال . ورافقنا أبو عيسى . وتجنبنا منا للشوارع الرئيسية ، سرنا فى الحارات الجانبية والممرات الفرعية قاصدين واحدة من بوابات المدينة ، هى الأقرب إلى منزلنا ، وتؤدى إلى اتجاه الشمال . وصادفنا شخصا تأخر عن الصلاة ، راح يسير معنا فى طريقه إلى المسجد ، وأثناء مروره علينا (دعانا لأداء الصلاة . ولكن أبا عيسى أجابه على الفور : " لقد عدنا لتونا من الصلاة ، " وتحسباً من مسائلنا الذى خشى أن يكون قد تأخر عن الصلاة مما سيعرضه للتوبيخ والعقاب ، اندفع إلى أقرب مصلى ، تاركاً الطريق خالياً أمامنا . لم يكن هناك أحد عند البوابة . وتجاوزنا البوابة ، ثم اتجهنا شرقاً ، وفى ضوء الفجر الكاذب وصلنا إلى سلسلة صغيرة من الكثبان الرملية ، أوينا إليها حتى تطلع النجوم ، وإلى أن يسدل " جنح الليل " مثلما يقول الشاعر العربى ، سواده على المدينة والبلاد .

والتقطنا أنفاسنا ، كما لو كنا قد خرجنا لتونا من الزنزانة ، وحمدنا الله على كل ما مر بنا . وبعد أن أمضينا أول ساعة من ساعات الليل ، وبعد أن توقف مرور عابرى السبيل ، وبعد أن تحررنا من التحدى والإجابة ، شربنا نارنا ، وشربنا أنعش فنجال من القهوة ، وأشعلنا الغلايين ، ورحنا نضحك من كل ذلك الذى حدث لنا مع كل من عبد الله وفيصل .

ومع ذلك لم أنم إلا قليلاً فى تلك الليلة . فقد تراحمت على ذهنى كثير من الأفكار الخطيرة بل والمحزنة ، عندما كنت أتخيل ذلك السور الخارجى المعتم وذلك البرج الذى يقبع بين ظلال الوادى ؛ ومر على خاطرى أولئك الذين يطوقهم ذلك السور ، كما دار

بخاطري أيضا ذلك التأثير الذي مارسه ، بل والذي قد يمارسه على شبه الجزيرة العربية كلها ؛ كما مر على خاطري أيضا حدة ذلك الطغيان وصبيانيتها ؛ كما مر على خاطري أيضا مدى خطورة إشعال ذلك التشدد المحترق ؛ مر بخاطري أيضا ذلك النبع الجديد الذي ينضج مياها إسلامية مرة؛ ولم يغب عن بالي ذلك الحماس خاطئ التوجه؛ كما مرت بخاطري أيضا تلك الشجاعة والمثابرة الشديديتين ولكنهما يساء استعمالهما ؛ كما مرت بخاطري أيضا النهاية التي يمكن أن تؤول إليها كل هذه الأمور ! وفى وسط كل ذلك أمضينا خمسين يوما ، تحت أسقف وعلى موائد أولئك ، الذين لو قدر لهم أن يعرفوا حتى ولو لساعة واحدة ، حقيقة أمرنا ، وحقيقة مقصدنا ، لكانت هذه الساعة قد أنهت رحلتنا وقضت علينا ؛ زد على ذلك ، إننا كنا مثار شك ، ومتهمين ، وكانوا يقاضوننا ، وكنا شبه متهمين ، ومع ذلك فقد هربنا من تلك المخالب ، التي مات بينها أناس آخرون ، وأصبحنا الآن فى مأمن نسبى منها ، وخارج تلك الأسوار المخيفة - وهل مقدر لنا أن نراها مرة ثانية ؟

ومع ذلك ، كانت لا تزال أمامنا بعض الصعوبات . فقد أصبح من الضرورى لنا ، أكثر من ذى قبل ، أن نخرج من نجد دون أن يلاحظنا أحد ، وأن نجعل الصحراء حائلا بيننا وبين كل من البلاط والحاشية الوهابية من ناحية والعاصمة من الناحية الأخرى ؛ وكان من غير الضرورى أيضا أن يبدو أبو عيسى ، بحكم ارتباطه الوثيق بكل من الرياض ، وحكومتها ، متورطا ، بأى حال من الأحوال ، فى رحيلنا غير الرسمى ، أو أن يكون له أية صلة أو علاقة بتحركاتنا . وخلاصة القول ، لابد أن يكون هناك شكل من أشكال الافتراق الظاهرى أو الشكلى ، بيننا وبينه ، قبل أن نلتقى به مرة ثانية ونستكمل بقية استكشافاتنا .

وتنفيذا لذلك ، وحفاظا على سلامتنا عن طريق ذر قليل من التراب فى أعين الوهابيين ، اتفقنا على أن يعود أبو عيسى قبل شروق اليوم التالى إلى مدينة الرياض وإلى المنزل نفسه الذى كنا نساكن فيه ، كما لو أن شيئا لم يحدث ، وأن ينتظر فى المدينة لحين رحيل القافلة التجارية الكبيرة التى أتينا على ذكرها فى الصفحات السابقة ، والتى تتكون فى معظمها من رجال من الاحساء ومن القطيف ، والتى سوف تتجه إلى القطيف تحت إرشاد أبو ظاهر الغنام . كان مقررا لتلك القافلة أن تتحرك خلال ثلاثة أيام على أقصى تقدير .

واتفقنا فى الوقت نفسه على أن يتواجد صديقنا (أبو عيسى) بشكل واضح فى قصر فيصل وفى قصر عبد الله، وإذا سألوه عنا فإن عليه أن يعطيهم إجابات غامضة، وأن يتظاهر بأننا لا نهتم فى كثير أو قليل . كما اتفقنا على أننا ينبغي أن نقيّد إلى أبعد حد ممكن من سفرنا خلال هذه الفترة المرحلية ، التى سيقوم خلالها مبيريك بإرشادنا إلى وادى السليع ، الذى سنختفى فى مكان محدد فيه إلى أن يلحق بنا أبو عيسى ويتولى أمر إرشادنا بعد ذلك .

وبعد أن اتفقنا على كل ذلك ؛ ومع طلوع الفجر استأذن أبو عيسى ، وركب بركات ومبيريك وأنا معهما ، جمالنا مرة أخرى ، ووجهنا رؤسها صوب الجنوب الشرقى ، وجعلنا سلسلة الكتبان الرملية بيننا وبين الرياض ، التى لم نعد نراها بعد . وأوصلنا مسارنا إلى الأرض الخفيضة المتموجة ، التى تعد استمرارا لوادى حنيفة ، إلى أن أصبحنا بعد ، أربع ساعات من المسير ، على أبواب منفوحة ، تلك المدينة المهمة التى كانت تحيط بها بساتين لا تقل فى مساحتها أو خصوبتها عن بساتين الرياض ؛ ولكن تحصيناتها ، التى كانت قوية فى يوم من الأيام ، تفككت وتحطمت بفعل حسد وغيره العاصمة المجاورة لها . كانت منفوحة ، من زمن بعيد ، تتبع اليمامة وليس العارض ، كما كان من ضمنها أيضا وادى الدعاس^① المنافس الأول لـ - ابن سعود . وفيما يتعلق بالمناخ تعد منفوحة أفضل من الرياض ، والسبب فى ذلك أنها تقع على أرض مرتفعة ، ويبعدا عن الشبورة الضبابية التى تتجمع فى منخفضات الوادى ؛ ولكنها من وجهة النظر العسكرية تعد أقل من الرياض ، والسبب فى ذلك أن موقعها أكثر انكشافا وتعرضا وليس من السهل الدفاع عنها . وتجاوزنا منفوحة دون أن ندخلها ، ثم بدأ مسار طريقنا فى الانخفاض من جديد ، ثم وجدنا أنفسنا بعد ذلك فى وادى السليع ، وهو عبارة عن وادى طويل ، يبدأ من الصحراء التى بين الحريق واليمامة ، ويتجه ناحية الشمال ، إلى أن ينتهى فى ما بين أراضى الطويق العالية عن مستوى حريملاء ، إلى الخلف من جبل عطا الله مباشرة . ولكن وادى السليع ، على العكس من وادى حنيفة ، به أبار قليلة ، ولا يوجد فيه أى شئ سوى بعض القرى الصغيرة غير المهمة . ووادى حنيفة يصل مداه ناحية الشرق إلى ما بعد منفوحة ، يضاف إلى ذلك أن سلسلة الجبال التى اجتزناها تشكل حدا جغرافيا وحدوديا فى الوقت نفسه .

وبعد أن تجولنا هنا وهناك فى وادى السليع الواسع ، وصلنا إلى المكان الذى حدده أبو عيسى لنختفى فيه . كان المكان عبارة عن منخفض رملى صغير ، يقع بعيدا

عن المسار المطروق ، وسط الكثبان الرملية وأشجار الأراك ، وخالٍ من المياه : التي ملأنا منها قربا تكفيها ثلاثة أيام . توقفنا في ذلك المكان ، وقررنا الاصطبار والانتظار .

وأَمْضينا في ذلك المكان يومين موحشين تماما . كنا نتشوق خلالهما إلى وصول مرشدنا ، ولم يكن هذان اليومان خاليين من الخوف . ففي إحدى المرات عثر علينا مصادفة بدوى ضال ، اندهش من تخييمنا في ذلك المكان الجاف . وفي بعض الأحيان الأخرى كنا نترك جمالنا ترعى ونختبئ بين الأشجار ، في حين نروح نحن نتجول في الوادي ، ونتسلق صخور جبل الطويق الجيرية العالية ، الموجودة في الناحية الشرقية ، وكنا نتعسس حولنا حتى نكوّن فكرة واضحة عن الأرض ، وعن مرتفعاتها ومنخفضاتها ، عن خصوصيتها وجذبها ، وإلقاء نظرة على سلسلة جبال الحريق الزرقاء مثلمة القمم في أقصى الجنوب ، وإلقاء نظرة أيضا على سلسلة جبال الطويق البيضاء الموجودة ناحية الشمال وناحية الشرق . أو إننا كنا نراوغ قطعان الغزال كثيرة العدد ، لا سعيا إلى الإمساك بها وإنما لمجرد تمضية الوقت ، وشغل أذهاننا التي كانت الظنون تستحوذ عليها . وتمر الساعات على هذا المنوال ، إلى أن بدأ اليوم الثالث الذي قصر الانتظار وزاد القلق ؛ ويزداد القلق مع غروب شمس اليوم الثالث ، إلى أن غابت الشمس في النهاية ؛ ومع ذلك لم يظهر أبو عيسى . ولكن بعد أن أطبق الظلام علينا ، بينما كنا نجلس وروحنا المعنوية متدنية ، إلى جوار نارنا الصغيرة ، نظرا لأن هواء الليل كان باردا ، ظهر أبو عيسى فجأة ، وتحول كل شيء إلى تساؤلات وإجابات ، وضحك وسرور .

وحكى لنا أبو عيسى ، من بين النكات والترحيبات ، كيف أنه قام ، في نفس اليوم الذي رحلنا فيه ، بزيارة عبد الله ، وكيف أجاب على سؤال عبد الله الذي يقول : " ماذا حدث لهذين المسيحيين ؟ " بأن أجابه بفرضية غير مبررة مفادها إننا ربما كنا في طريقنا إلى الزبير ؛ وحكى لنا أيضا أبو عيسى أن محبوب سأل عنا أيضا ، وأنه أعطاه إجابة مثل تلك التي أعطاها لـ عبد الله ، وروى لنا أيضا التعليقات التي سمعها عنا ، وفيها الصالح والطالح ، كما حكى لنا أيضا عن الخرافات المبالغ فيها ، التي دارت بين الناس عن أصلنا وعن أهدافنا ؛ وروى لنا أن البعض ظنوا إننا مبعوثان من القسطنطينية ، وظن بعض آخر إننا من مصر (ومن حسن حظنا أن أحداً لم يتطرق إلى ذكر أوربا) ؛ كما حكى لنا أشياء أخرى كثيرة من القبيل نفسه ، مما أسعدنا وأدخل السرور إلى أنفسنا . كان ظاهر الغنام ، قد توقف مع قافلته على بعد مسافة قريبة منا ؛ واتفقنا على أن ننضم إليهم في صبيحة اليوم التالي .

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، واصلنا مسيرنا خلال شجرة الوادى غير الكثيفة ، وسرعان ما التقينا رفاق الطريق . كانت القافلة تضم عددا كبيرا وأنا هنا استمىح القارئ عذرا فى أن يسمح لى بشيء من الوصف ، نظرا لأن هذه القافلة لا تفرق كثيرا عن تلك القوافل التى سبق أن وصفناها والتقينا بها . وأهم رجال هذه القافلة كانوا ثلاثة ، درسناهم أنا وبركات دراسة دقيقة ، فقد كانوا جميعا من مواطنى وادى الدواسر ؛ كان أحدهم ضريرا ويعمل "مطوعا" ، وكان جاهلا ، ومتعصبا ، ووضيعا بشكل لا يخطر على البال ؛ وكان ثانيهما ، حضريا من المنطقة نفسها ، ولم يكن أفضل حالا من رفيقه ومطوعه ، وكان الشخص الثالث ولد الثانى ، وكان ، مثل غلام فولستاف Falstaff ، له بلا أدنى شك ملاكا حارسا ، غير أن الشيطان يملكه أكثر من أى شيء آخر . ولكن أغلبية أفراد القافلة كانوا من التجار ، ولم يكن لديهم أى شيء يقولونه عن أنفسهم ؛ ولم يكن معنا بدو ضمن هذه القافلة ، ولم نندم على غيابهم .

وبانتهاء اليوم الأول كنا قد تجاوزنا وادى السليح^(١) . وعبرنا الحدود الخارجية لمزارع السالمية^(٢) ، تلك القرية الكبيرة المحصنة ، والتي يصل حجمها إلى حجم المدينة ، والتي كانت فى يوم من الأيام عاصمة لليمامة ومقرا لعائلة الدعاس . وقرية السالمية اشتهرت باسم الخورج^(٣) Khorj ، كما اشتهرت المنطقة المحيطة بالسالمية بهذا الاسم أيضا . وإطلاق هذه التسمية دون تمييز على المدينة الرئيسة فى المنطقة وعلى المنطقة كلها أيضا ، يعد مصدرا لكثير من الخلط والارتباك فى الجغرافيا العربية ، فى كثير من الأحيان . وترتبط على ذلك فإن كلمة " الشام " تعنى كلا من دمشق وسوريا كلها . زد على ذلك ، أن الأسماء الأخرى مثل تيماء ، ونجران ، والجوف ، والاحساء تنطوى على غموض من هذا القبيل . هذه الأسماء هى والنوع الوصفية ، التى يتكرر استعمالها ، والتي منها " روضة " بمعنى حديقة أو بستان ، و " قلعة " بمعنى حصن ، وكلمة " ثنية " بمعنى مجاز أو ممر ، تُضعف الأسماء والمسميات العربية ، وتجعل منها واحدة من أضعف التسميات فى الدنيا كلها^(٤) . إن منظومة الأسماء والمسميات كلها سيئة ، ويبدو أنها تستهدف صعوبة التعرف على الأماكن .

(١) إنى الملح فى كلام المؤلف هنا أنه يلزم اللغة العربية ويشير إلى فقرها وعدم دقة دلالتها ، وهذا حكم لا يقوله إلا جاهل باللغة العربية واشتقاقاتها ودلالاتها فهى من أوسع اللغات فى العالم ومن أخصبها فى الاشتقاق ، وعندما تبحث فى وضعية ، أية كلمة فى اللغة العربية تجد ثروة هائلة من الدلالات والمعانى الدقيقة ، إن فى لسان العرب وحده ثمانون ألف مادة ، وكل مادة تشتق منها عشرات الكلمات - (د. حلمى عبد المنعم) .

والخروج أو السالمية هي المقر المعتاد (للأمير) سعود ، صديقنا السابق ، وولد فيصل من زوجته الثانية ، عندما يكون في هذه المنطقة ، وهذا هو المتبع أيضا في كل من الحوطة والحريق . والريف المحيط بالسالمية هو أخصب أراضي اليمامة ، وهو فردوس نجد ؛ ولكن الحياة النباتية ، والأشجار والنباتات لا تختلف كثيرا هنا عنها في وادي حنيفة ، اللهم باستثناء امتداد الخضرة وعمقها . والقطن وحده هو الذي يشكل استثناء في هذه المنطقة التي تنتشر فيها بيارات النخيل ، وحقول الذرة ، والدخن أكثر من أي مكان آخر . وقد سبق أن وصفت طبيعة السكان في هذه المنطقة ، واتجاهاتهم السياسية والدينية ؛ والسكان هنا ألطف وأرق وأنس من سكان الرياض أو الدرعية . ومع ذلك ، فهم ، باستثناء قلة قليلة ، من الوهابيين المخلصين ؛ إذ كانوا في يوم من الأيام أتباعا لـ - مسيلمة المنحوس .

ومما زاد في حزني وأسفى ، أن قافلتنا مرت بالسالمية دون أن نتوقف فيها ، ثم انحرفنا قليلا ناحية اليسار ، لدخل بعد ذلك ، في ممر جبلي بين حوائط جبل طويق المكونة من الحجر الجيري ، ثم صعودنا بعد ذلك مسافة تقدر بحوالى ثلاثمائة قدم ، إلى أن وصلنا إلى طريق واسع منحدر ، حيث كانت توجد مراعى هزيلة متناثرة ، تصبغ لون التربة الجيرية باللون البنى هنا أو هناك ، وكانت تربي عليهما قطعان من الماعز الشبيهة بالأغنام ، أو إن شئت فقل الأغنام الشبيهة بالماعز ؛ وقد ذكرتني مرتفعات ومنخفضات هذه المنطقة ببعض مناظر اسكتلنده ، فيما عدا أن المنطقة هنا تفتقر إلى أشجار الصنوبر وأشجار التَّنُوب . وقد أمضينا وقتا طويلا في عبور تلك الأرض الجرادء، إلى أن وصلنا قبل حلول المساء إلى بقعة من الأرض أكثر اخضراراً ، وفيها مجموعة من الآبار ، ويطلق عليها اسم اللقيات ، التي خيمنا فيها لنقضى فيها ليلة باردة .

وفي صباح اليوم التالى كانت تلف الريف كله ، بتلاله ووديانه ، وأشجاره وأجماته غلالة من الضباب الكثيف ، تناسب مدينة سيري Surrey (البريطانية) أكثر من الجزيرة العربية ، إذ بلغ الضباب من الكثافة حداً جعلنا نضل طريقنا ، ورحنا نتحرك بطريقة عشوائية ، ونحن نصيح ويتنادى بعضنا بعضا ، ونقود بوابنا مرة في هذا الاتجاه ومرة أخرى في ذاك الاتجاه ، فوق أرض مكسرة وبين شجيرات متداخلة ، إلى أن قوى ضوء الشمس ، وقشع بخار الماء ، وكشف لنا عن المسار الصحيح الذى كان

يقع على بعد مسافة قصيرة ناحية اليمن. وقبل أن نقطع مسافة كبيرة من ذلك الطريق، شاهدنا كتله سوداء قادمة من ناحية الشرق فى اتجاهنا . كانت تلك الكتلة السوداء عبارة عن الفرقة الأولى من قوات الاحساء ، وهى فى طريقها إلى الرياض ؛ وكان عدد هذه الفرقة لا يقل عن أربعمائه أو خمسمائة مقاتل . ومثل العرب الخُص ، كانت تلك القوات تتحرك بدون أى تنظيم أو انتظام - بعضها يمشى ، وبعضها يجرى ، وبعضها يغنى صياحا ، وبعضها يسير على انفراد ، والبعض الآخر يسير على شكل جماعات ، كل حسب ما يتراعى له . وتبادلنا بعض الكلمات القلائل مع هؤلاء الشباب المسرعين ، الذين أبلغونا أن قائد اللواء محمد السديري ، ومعه قوة الجيش الرئيسة والمدفعية ، كانوا قد بدعوا التحرك بالفعل ، ولكنهم متأخرون عنهم يوماً أو يومين . وقد أقسم لنا هؤلاء الشباب، بدون خجل أو تردد، أنهم لو كان الأمر بيدهم ، لآثروا البقاء فى بلدهم ، وأن الضرورة المفروضة عليهم ، وليس العمل الدينى أو العسكرى ، هى التى تقودهم إلى ميدان القتال . وضحكنا وتمنينا لهم أن يظفروا برأس الزامل ، أو يظفر هو برؤوسهم ، وضحكوا من أعماقهم وراحوا يصيحون ، ويمضون فى طريقهم .

وبينما كنا فى تلك المنطقة ، شاهدنا منظراً رائعاً لمدينة الحريق ، من الناحية الجنوبية ، وبخاصة إننا كنا مقابلين لها فى هذه المنطقة ، برغم أننا كانت تفصلنا عنها سلسلة متتابعة من الصحراوات . ويظهر أن تلال تلك الصحراء كانت من الجرانيت (وأنا استميت القارئ أن يعذرني دوماً ، وألا يغيب عن ذهنه أنني لست جيولوجياً أو عالم نبات ، " ولو زاد الأمر عن ذلك فإنه سيدعو إلى الأسف ") وهى تنتشر ناحية الشرق وناحية الغرب على شكل سلسلة مهلهلة غير متصلة ، وقد يزيد طولها على ستين ميلاً . ولما كانت الحريق محاطة بالصحراء فلا بد أن تكون منطقة شديدة الحرارة ؛ والواقع أن اسمها يدل على ذلك ، إضافة إلى أن لون بشرة سكانها البرونزى يؤيد هذه الحقيقة . ومن هذه المسافة البعيدة لم نستطع تمييز أية مدينة من مدن الحريق ، أو أية قلعة من قلاعها بصفة خاصة ؛ ولم نميز سوى مدينة الحوطة عاصمة الحريق ، التى حددها لنا ، عن طريق الإشارة ، أولئك العارفون للمنطقة ، والذين كانوا معنا فى نفس القافلة. وكان من العجب أيضاً أن نرى جبل طويق وهو ينتهى بالاندماج فى الصحراء، متحولاً إلى سلسلة سريعة من المنحدرات الوعرة الشديدة ، التى يذوب آخرها فى الرمال الجداء . وهكذا يتحول جبل طويق فى هذه المنطقة إلى حجر جبرى ، ولكن الحديد موجود أيضاً فى بعض مناطق جبل الطويق ، كما يوجد به أيضاً بعض من

النحاس ، وقد أشار أبو عيسى إلى أحد الجبال التى تحتوى على النحاس ، مشيراً إلى أن الأوربيين لو كانوا فى هذه المنطقة لاستفادوا من هذا الخام .

ومضينا فى طريقنا ، خلال منطقة كانت مناظرها أكثر تنوعاً عن المنطقة التى سرنا خلالها فى اليوم السابق ، كما تمتعنا " بجمال الموقع فى كل من التلال والوديان " ، التى كانت عامرة ببيارات صغيرة من أشجار السدر ، وأجمات من أشجار المرخ كثيرة الأغصان ، إلى أن وصلنا إلى سفح صخرة بيضاء عالية ، تشبه صخرة دوفر ؛ ولكن هذه الصخور ، بدلاً من وجود البحر عند سفحها ، كانت تطل على وادٍ واسع مليء بالأشجار ، وتبدو عليه آثار سيول الشتاء العنيفة التى تتجه من الشرق إلى الغرب ؛ وكانت تلك المجارى خالية من المياه . وتوقفنا فى هذه المنطقة لنمضى فيها ليلة خالية من الهموم ، لم يعكر صفوها " سوى هواء زمهرير شهر نوفمبر " الذى لا يقل عن زمهرير ضفاف نهر إير Ayr ، برغم أن هذا الهواء يهب هنا على خط عرض ٢٥ وليس خط عرض ٥٦ .

وقبل أن يذوى ضوء النجوم مختفياً من سماء الصباح البارد كنا قد صحونا من نومنا وبدأنا تحركنا استعداداً لمشوار طويل ينتظرنا . وبعد تفاوض قصير ، مع الجبل ، إن جاز التعبير ، تسلقناه عن طريق مسار متعرج منحدر ، يَشُقُّ على الجمال تسلقه ، والذى يجيب العرب عندما يسألون عن أيهما أفضل : صعود التل أم نزوله ، بقولهم : " لعنة الله على هذا وذاك " . والإيطاليون يقولون لذلك : Maledetto l'ottimo . وعند شروق الشمس وقفنا على آخر وأعلى صخرة مرتفعة من تلك الصخور البيضاء فى جبل طويق ، تلك الصخرة التى هى عبارة عن جدار طويل من الطباشير ، وتحيط بنجد وتحميها من ناحية الشرق ؛ ومن خلف هذه الصخرة ، أو إن شئت فقل : ذلك الجدار الطويل ، توجد الصحراء ومن بعدها ساحل الخليج . كان المنظر من أمامنا مترامياً تماماً ، وكان الهواء البارد يجعل ارتفاعنا فوق مستوى السهول البعيدة أمراً حساساً ، وبخاصة أن تلك السهول كانت تبدو لنا كما لو كانت مثل سطح البحر الخالى من الأمواج ناحية الغرب . ولم نر حولنا بشراً أو دواباً أو أشجاراً أو شجيرات ؛ كانت الهضبة كلها مكونة من المرل والحصى ، وكلها جافة وقفر ومكشوفة للبرد الشديد والشمس الحارقة .

وبعد أن سرنا ثلاث ساعات فى الطريق المرتفع بدأنا ننحدر مرة ثانية ، ولم يكن الانحدار مفاجئاً فى هذه المرة وإنما متدرجاً ، ثم وصلنا عند الظهر ، إلى منخفض عجيب ، هو عبارة عن حوض طبيعى ضخم ، على شكل تجويف فى صخور الحجر الجيري ، وبه مسارات تشبه الخنادق العميقة ، تؤدى إليه من جميع الجوانب . وفى قاع ذلك الوادى ، كانت هناك حوالى عشرة آبار أو أكثر ، مأوها وفير لدرجة أنها كانت تفيض فى أحيان كثيرة على المكان كله وتشكل بحيرة صغيرة ؛ وكانت مياه هذه الآبار رائعة وجيدة ، ولكن لم يكن هناك أى شئ ، فى المنطقة كلها ، فى هذا المسار كله ، سوى هذه الآبار ، وذلك بدءاً من هذه النقطة إلى مدينه الاحساء . وعند هذه الآبار التى أكسبها موقعها الجغرافى اسم " الأويسيط " ، وهو تصغير " أويسط " بمعنى "الوسط" تلتقى عدة طرق ؛ منها طريق الحريق القادم من الجنوب ؛ وطريق اليمامة وجنوبى نجد - وهو الطريق الذى سلكناه - من ناحية الغرب ، وطريق جبرين والواب ، المؤدى إلى وادى السُّليع ، والقادم من الشمال الغربى ؛ ومدق جبلى ضيق ، لا يسلكه سوى الرعاة وقله قليلة من الناس ، ويسير بحذاء سلسلة الجبال فى اتجاه الشمال إلى أن يتصل بطريق الكويت والزيبر ؛ وأخيراً يجىء الطريق المتجه شرقاً ، والذى يؤدى إلى الاحساء والهفوف ؛ والذى سوف نسلكه الآن . وتلجأ قطعان الماشية والأغنام من المناطق الجبلية المجاورة إلى هذه المنطقة طلباً للسقى .

وأخذنا قسطاً من الراحة ، وأعددتنا فنجالاً من القهوة ، وملأنا قرب الماء عن آخرها ، وبمهارة الرجال الذين عقدوا العزم على القيام بمسيرة طويلة ؛ وركبنا إبلنا وخرجنا من هذا المنخفض عن طريق المخرج الشرقى . وقضينا بقية النهار فى الهبوط من ذلك المنحدر المتدرج الواسع الذى ذكرنى جده الشديد ورتابته الميتة بالأراضى المرتفعة المكونة من الحصى بالقرب من مَعَان ، على الجانب المقابل من شبه الجزيرة العربية ، التى عبرناها وتجاوزناها منذ سبعة أشهر . وغربت الشمس ، ثم دخل الليل ، وكان كثير من المسافرين على استعداد للتوقف عن طيب خاطر ، ولكن أبا عيسى أصر على مواصلة المسير . وأصبحنا الآن على بعد عدة مئات من الأقدام أسفل عرف الصخرة التى تقف خلفنا ، وكان الهواء ساخناً ومحملاً بالرطوبة ، إلى أن لاحظنا أن الأرض ، التى كانت صلبة من تحت أقدامنا ، بدأت تتحول بصورة متدرجة إلى رمل خفيف بدأ يغطى التربة الصخرية . كانت الرمال ضحلة فى البداية ، ثم بدأت تزداد عمقا ، ثم بدأت بعد ذلك بفترة قصيرة تكشف عن سلسلة التموجات الرملية الشهيرة

التي يتميز بها محيط الرمال البرى عندما يصل عمقه إلى عدة فراسخ . وراحت أقدام دوابنا تغوص في الرمال ؛ وكان الليل مظلماً ، ولكن النجوم كانت ساطعة ؛ واستطعنا أن نميز خلال الظل وميضاً أبيض لطيفاً من أطراف التلال الرملية التي بدأت ترتفع حولنا من جميع الجوانب ، ولكن لم تكن هناك مدقات أو دليل على الطريق .

كان ذلك هو وميض صحراء الدهناء الكبيرة ، أو إن شئت فقل : الصحراء "الحمراء" ، بعبع البدوى الجائل ، ولم يحدث أن عبرها قط عابر سبيل عادي بدون خوف ، كان يسفر في معظم الأحيان عن حوادث مميتة . ورمال الدهناء دقيقة جداً ، وكثيرة أيضاً ؛ ونسماتها هي التي تشكل تلك الكثبان الرملية وتعيد تشكيلها كل يوم لتحولها إلى تلال ووديان متحركة ، ويترتب على ذلك ضياع آثار الرحالة السابقين التي يمكن أن يهتدى بها الرحالة اللاحقون ؛ في حين أن الحرارة الشديدة ، والوهج الشديد الذي ينعكس على جميع أجانب هذه الصحراء ، هما والجفاف والجذب يربكان المغامر ويضايقانه إلى أن تضيق منه بوصلته ويسير على غير هدى سيرا عشوائياً ، هنا وهناك وسط هذه الأرض الخراب إلى أن تصبح له قبراً . لقد مات الكثيرون بهذه الطريقة ؛ بل إن هناك أنباء أكيدة عن اختفاء قوافل بكاملها في الدهناء دون أن تترك أثراً واحداً ؛ وقد أدى ذلك إلى ذبوع الحكايات العربية ، المبالغ فيها ، عن الشياطين التي تحمل هؤلاء المغامرين ، أو الغيلان الذين يبتلعونهم ، مما جعل الذين يألّفون هذه الأمور في الأماكن الأخرى ، يضحكون عندما يستمعون إلى مثل هذه الحكايات ويسخرون منها . ومع كل ذلك ، فإن أولئك الذين ينتقلون بين منطقة الاحساء كثيفة السكان ونجد الامبراطورية ، سواء أكانوا تجارا أو مغامرين ، أو مبعوثين أو جيوشا - سوف يتعين عليهم ، شاعوا أم أبو ، أن يعبروا هذه الصحراء ، سالكين في ذلك خطاً محدداً ، نظراً لأن الدهناء كلها وبلا استثناء غير مطروقة إلا من هذا المسار فقط . والواقع أن الطرق على جانبي بحر الرمال هذا ، محددة تحديداً واضحاً ويسهل التعرف عليها ، ولكن المشكلة كلها تتمثل في المسافة الواقعة بين هذين الجانبين . وتخفيفاً من مخاطر هذه الصحراء ، قام أبو عيسى منذ عامين ومن منطلق روح الخدمة العامة ، التي يندر أن تجدها في الشرق ، قام بتحميل عدد من الجمال بالعديد من الأحجار الضخمة ، ونقلها إلى منتصف الطريق في تلك الصحراء الرملية ، ليكوّمها هناك على شكل "رجم" كما يسميها العرب ، أو إن شئت فقل : على شكل أهرامات صغيرة ، يصل ارتفاع الواحد منها إلى خمس وعشرين أو ثلاثين قدماً ، مشكلاً بذلك علامة أرضية مهمة في

هذه الصحراء الخالية من الدروب . ويصعب على التأثيرات التي تحدثها الرياح والعواصف في الرمال أن تؤثر على هذه الأكوام الكبيرة ؛ وإن حدثت وغطت الرياح واحدا من هذه الأكوام ، فإن عاصفة أخرى لابد أن تكشف الرمال وتزيلها عن هذه النواة الصخرية ، وقد دعا كثير من الناس بالخير لأبي عيسى لأنه أقام هذه الرجم ، التي أسدت خدمات جليلة للرحالة والمغامرين . والأجمل من ذلك ، أن أبا ظاهر الغنام ، الذي نحن بصحبته اليوم ، والذي تضطره مهمة عمله أن يعبر ذلك المكان الموحش ، تملكته روح التنافس الشريف ، وأقام كومة صخرية أخرى ، أصبحت تعرف باسم رجمة الغنام، مثلما تعرف الأولى باسم رجمة أبي عيسى. وبرغم هذه المواقع الإشارية ، لا يزال طريق الدهناء خطرا ، ولم تكن قافلتنا في مأمن تماما من إضافة صفحة جديدة إلى فصل الحوادث الطويل .

وبعد أن أمضينا ثلاث ساعات ونحن نسير أثناء الليل ، أو بالأحرى ونحن نخوض في أمواج الرمال ، إلى أن أوشك الرجال والدواب على حد سواء أن يغوصوا في الرمال نتيجة التعب والإرهاق ، نشبت مشاجرة حادة بين أبي عيسى والغنام ، فقد كان كل منهما يقترح مسارا مختلفا عن الآخر . وتوقفنا كلنا لحظة واحدة ، وأشحنا بأعيننا التي توحى بالتعب والإرهاق ، لنتبين من من الاثنين على صواب ، وأنا لن أنسى ، قبل مضي وقت طويل ، ذلك الانطباع الذي اعترائني في تلك اللحظة . كانت السماء من فوقنا شديدة السواد ، وتتخللها نجوم ضخمة لها بريق لا يتوفر إلا في هذه المنطقة العربية ، إضافة إلى أن ما يعد مجرد شعاع من الدرجة الثالثة في الأماكن الأخرى ، هو هنا من الدرجة الأولى وسط هذا الفراغ الهوائي الخالي من الضباب وبخار الماء ؛ ومن حولنا كانت تلوح لنا سلاسل الجبال المرتفعة ، التي كانت تعزلنا من أمامنا ومن خلفنا بحدودها الخارجية البيضاء التي كانت تتراعى لنا مثل الأشباح ؛ ومن تحت أقدامنا كانت الرمال الخالية من الحياة ، كما كان الصمت يخيم علينا من جميع الجوانب ويبدو لنا كما لو كان من عالم حالم غريب لا يجرؤ أي إنسان على الاقتراب منه . ومد أبو عيسى ذراعه ليحدد اتجاهها ، ومد الغنام ذراعيه ليحدد اتجاهها آخر ، وكان الاتجاهان خاليين من الممرات أو المخارج . وبعد برهة قصيرة ، حسم أبو عيسى الأمر ، بأن رفع صوته ، مناديا الجميع أن يتبعوه ، ثم قادنا برغم معارضة الغنام الشديدة ، إلى اتجاه على شكل زاوية حادة ناحية اليسار ، إلى أن وصلنا في النهاية إلى ما يشبه الوادي حيث كانت بعض الأدغال القليلة التي تغير منظر الرمال ، وأنزلنا أمتعتنا كي ننال قسطا من الراحة ؛ وكانت فترة الاستراحة أدفا من سابقتها .

واستأنفنا مسيرنا فى الصباح التالى ، ولكن تحت إرشاد أبى عيسى وحده ، الذى وافقت القافلة بالإجماع على أن تسلم نفسها له ، ثقة منها فى قدرته الفائقة على تعرف هذه المنطقة الموحشة ، والى أن يصل بنا إلى الجانب الآخر من الدهناء . ومن الصعب على أن أحكى للقارئ الطريقة التى استطاع بها مرشدنا توجيهنا ؛ موهبة تشم الاتجاه الصحيح عندما تعجز العينان والأذان عن تقديم العون ، وأنا على يقين ، أن هذه الموهبة ، هى واحدة من القوى الكثيرة الكامنة فى الطبيعة البشرية ، ولا يمكن استنفارها إلا عن طريق الظروف والتدريب المطول . وعندما كنا قريبين من منطقة الدهناء ، صادفنا قلة قليلة من البدو ، تنتمى إلى قبيلة آل - مره ، التى تسكن وحدها فى هذه الصحراء ؛ كان هؤلاء البدو ، يرعون ماعزهم فى أماكن صغيرة تتناثر فيها الأعشاب والأدغال ، التى تعيش حياة متأرجحة بين منخفضات الرمال . وقطعان الماعز نفسها ، يمكن أن تصبر على (الماء) بحكم قدرتها على تحمل العطش طوال أربعة أو خمسة أيام ؛ وعندما تصبح سقيا هذه القطعان أمرا ضروريا ، فإن الرعاة يقتادونها إلى الأويسيط أو إلى بعض الآبار المالحة الأخرى الموجودة على حواف جبل طويق ، والتى لا يعرفها البشر العاديون .

ولم أر فى حياتى مخلوقات أكثر بدائية من بدو آل - مرة ؛ فشعرهم عبارة عن جدائل مثل جدائل شعر الجن ، وملابسهم عبارة عن خرق ، ووجوههم مغطاة بالسخام ، ونظراتهم عبارة عن وحشية متجسدة . ومن حيث الكلام ، تلك الخاصية التى تميز الحيوان الإنسانى ، فهم لا يثبتون أنهم بشر ورجال ، وإنما رجال يتميزون أيضا بطلاقة اللسان . ولهجة آل - المرة كانت مختلفة تماما عن لهجة الشمال ، بل وعن لهجة نجد أيضا ؛ وقد أحارتنى تلك اللهجة فى البداية ؛ وعندما بدأت أتسودها ، اكتشفت أنها تنتمى إلى ذلك الشكل القديم ، أو إن شئت فقل البدائى ، من أشكال اللغة العربية ، الذى يجب أن أحيل القارئ للاطلاع على عينات منه ، مثل تلك العينات التى وردت فى أمثال الميدانى ، والتى دونها الباحث فريتاغ Freytag بلغة لاتينية غريبة . ولهجة آل - مرة هذه أغنى من حيث المفردات ومفاصل الكلام ، من لهجة القرآن التى تشبه الحديد الزهر ، والتى تشكل دقتها الهندسية ، وقوافيها الرتيبة ، الحدود المميزة للغة العربية الحديثة ؛ وصرفيات هذه اللهجة هى من التعديل القديم الذى سبقت الإشارة إليه فى فصل سابق ؛ وجذورها يندر أن تتفق مع جذور اللغة العربية أو السورية ؛ وهذه الخصائص الغريبة تتفق وتنسجم مع كل من الأصل الداخلى ، والجنوبى ،

وربما الأفريقي الذي تعزوه الدراسات التاريخية إلى هذه اللهجة ، قبل عصر (سيدنا) إسماعيل وهجرة قبائل الحجاز الشمالية . وقبيلة آل - مرة نفسها واسعة الانتشار ؛ وجزء صغير من هذه القبيلة هو الذي يعترف بالتأثير الوهابي عن طريق جزية يدفعونها من حين لآخر وصلاة مشوهة وغير صحيحة يؤدونها ؛ والجزء الأكبر من هذه القبيلة من الكفار ، وهم فيما يتعلق بأمور الدين والسلوك يشبهون بدو الشرارات إلى حد بعيد ، بالشكل الذي أوردناه في الفصل الأول من هذا الكتاب . وسمرة آل - مرة تكاد تقترب من السواد ؛ وأسلحتهم عبارة عن رماح وسكاكين ، والسبب في ذلك أن بندقية المشاة لم تنتشر بينهم بعد . ولم يتبق لهم من تراث قحطان سوى طلاقة اللسان ؛ وفيما عدا ذلك فهم مجرد أفضاظ ، ولكنهم ليسوا همجاً ؛ وقد اكتشفت أنهم حسنوا الطبع برغم أنهم وقحون وسلابون ونهابون ، مثل بقية البدو .

وصحراء الدهناء التي يعيش فيها آل - مرة هي أكبر الصحراوات في المنطقة الممتدة من نجد إلى حضر موت ؛ وليس معنى ذلك أن آل - مرة يغطون في واقع الأمر هذه المساحة الهائلة ، التي تمثل ربع مساحة شبه الجزيرة العربية ؛ وإنما المقصود هو أن آل - مرة لهم حرية الحركة ولا ينازعهم أحد في الواحات الموجودة في تلك الصحراء ، والتي تتجمع فيها الأعشاب ، والحشائش وأشجار النخيل القرمة حول بعض الآبار التي تنتج ماء مالحة شحيحاً . وهذه الواحات كثيرة لكنها لا تكفي سوى بدوي واحد أو اثنين من البدو الضالين ، ولكنها لا تصلح أن تكون نقاطا برية مميزة على طريق منتظم يمر من وسط الدهناء . ويبرز من محيط الرمال هذا ذلك الذراع الطويل العريض الذي نجتازه الآن ؛ وهذا الذراع له سمات وخصائص الصحراء الجنوبية ، وتستمر تلك السمات والخصائص الوهابية إلى أن يصل الذراع إلى الشمال في المنطقة المحصورة بين جبل طويق وساحل منطقة الاحساء ، وينتهي ذلك الذراع بعد ذلك في سهل الزبير خلف الكويت ، ليصبح بعد ذلك موازيا للطرف الشمالي من الخليج الفارسي .

وحصل أبو عيسى من آل - مرة على بعض التوضيحات للطريق الذي ينبغي أن نسلكه ، وبالتالي تمكنت القافلة من التقاط أنفاسها مدة خمس دقائق ، لكن نون أن ننزل من على جمالنا . وبعد ذلك بساعة وصلنا إلى رجم أبي عيسى ، ذلك العمل الذي تكلف جهدا ومالا كثيرا ، وبذلك يكون الرجم قد أكد لنا من جديد أننا نسير في الطريق

الصحيح ، وهنا بدأنا نسرع الخطى ، ونحن مرهقون من شدة الحر ، ومع ذلك لم نكن نود التوقف فى تلك المنطقة الخطيرة، وعندما دخل وقت العصر شاهدنا ناحية الشرق ، وعلى مقربة منا من الناحية اليسرى ، شيئاً شبيهاً بقطيع كبير من النمل الأسود ، ويبدأ ذلك القطيع فى الاقتراب منا ، وعرفنا أنه القوة الرئيسية القادمة من الاحساء ، وتجبر معها خلال الرمال مدفعين ثقيلين مرسلان من القطيف للاشتراك فى حصار عنيزه . كان عدد هذه الفرقة ، أكبر بكثير من الفرقة التى شاهدناها من قبل ، إذ لم يكن يقل بحال من الأحوال عن سبعمائة أو ثمانمائة رجل ؛ ولكننا لم نلتق هذه الفرقة ، نظرنا لأن طريق سيرها كان يبعد عنا حوالى ربع ميل ناحية الشمال ؛ زد على ذلك ، أن أحداً من الجانبين لم يكن على استعداد أن ينحرف عن مساره طلباً للصخب والهزر .

وبعد غروب الشمس وصلنا إلى الرجم الثانى ، أو إن شئت فقل : الركام الثانى إن جاز لنا أن نطلق هذا الاسم على مجموعة من الأحجار ليس مدفونا أحد تحتها ؛ وهذا الرجم الثانى هو ما يطلق عليه رجمة الغنام . وعند هذه الرجمة بدأ منظر الصحراء يتغير ، إذ أصبحت الرمال تختلط بالحصى ، وبدأت تتماسك من تحت أقدام دوابنا . وتوقفنا لنشب النار كى نتناول العشاء ؛ وهنا يحق لى أن اسميه إفطاراً ، نظرنا لأننا لم نتناول أى شئ طوال اليوم . وفرح الجميع لأننا تركنا الدهناء وراء ظهورنا . ولكن نجاح أبى عيسى ، الذى أرشد القافلة على نحو أفضل من المرشد الرئيسى ، أوغر صدر الغنام وأتباعه ، وأثار فيهم شعور "الاستحسان ولكن ظلاله كانت تطاردهم" ، على نحو لا مثيل له إلا فى الجزيرة العربية . ولا بد أن أعترف هنا أن ذلك الشعور الكريه يفسد ، إلى حد ما ، مقارنتى بين العرب والإنجليز - وليس معنى ذلك أن الإنجليز أو الأوربيين ليس لديهم هذا الشعور ، أو أنهم بريئون منه تماماً ، ولكن الحسد الغربى لا يقارن بالحسد الشرقى على الإطلاق. وبغض النظر عن كل ذلك، فقد حدث شقاق صريح بين المرشدين المتنافسين ، ونظرنا لأن بقية الطريق كان من السهل اجتيازها ، فقد افتعل الغنام ذلك الشجار . ووقف بعض أفراد القافلة إلى جانب هذا المرشد ، بينما وقف البعض الآخر إلى جانب ذاك ؛ وتبادل المرشدان كلمات لا لزوم لها ، وأوشكنا على أن يكون اليوم "يوماً" ، مثلما يتحدث العرب عن المشاجرة . وتدخلت أنا وبركات، واقترحنا على أبى عيسى أن من الأفضل لنا أن يواصل هو معنا، مع كل أولئك الذين يودون مرافقتنا ، وأنه إذا ما وصل بنا إلى الهفوف قبل الغنام ، فإنه سيكون قد حقق انتصاراً كاملاً عليه . وكأمر واقع ، بدأنا نتحرك ومعنا اثنين أو ثلاثة من أفراد القافلة ؛ وخلفنا منافسينا وراءنا فى خزيهم يشربون القهوة .

وبدأت الأرض ، التي أصبحت تستحق أن نطلق عليها هذا الاسم نظرا لأنها تتكون هنا من نسب شبه متساوية من الحصى ، والمرل ، والرمل ، تنحدر نحو الشرق وبدأت تتلألاً عند الأفق البعيد على شكل إبيضاض قفر وجذب ، تتخلله هنا وهناك سلسلة من الأدغال الشوكية ، وأوينا إلى واحد من هذه الأدغال ، لنقتنص قسطاً من الراحة ، التي أعقبها مسير يوم كامل في ذلك السهل الرتيب ، وسط ارتفاعات وطبيعة مشابهة لارتفاعات وطبيعة اللهجة السابقة . والتغير الوحيد الذي شاهدناه على مدى مسير أربعة عشر ساعة ، كان يتمثل في تلك القلة القليلة من المسافرين الذين التقيناهم وهم قادمون من مدينة ^١جون في الاحساء ، والذين ظنوا أننا لصوصاً وكادوا يموتون خوفاً . وبطبيعة الحال ، لم نصادف على طريقنا قري ، أو ظلاً أو آباراً ؛ ومن حسن حظنا أن الحرارة هنا كانت أكثر احتمالاً مما كانت عليه وسط الرمال .

وأضينا معسكراً ليلياً آخر ، ثم صعدنا بعد ذلك إلى السهل الأبيض المتحدر . ثم بدأ المنظر يتغير بعد ذلك ، فهذه تلال من الحجر الجيري ، وهذه ممرات ضيقة تحد طريقنا ، إلى أن صادفنا في قاع أحد المنخفضات شجرة وحيدة كبيرة أشواكها أكثر من أوراقها ، وتعيش وحدة مثل وحدة النسك ، وأبلغنا أبو عيسى : " في هذا المكان أمر إبراهيم باشا بحفر بئر وصل عمقه إلى ما لا يقل عن ستين قدماً ، على أمل العثور على الماء ، ولكن جهود الحفارين باءت بالفشل " . وهكذا بقيت هذه الحفرة الجافة بعد أن امتلأت بالأحجار والرمال لتكون شاهداً على هذه المحاولة . ولو نجحت محاولة إبراهيم باشا ، لقلت مشاكل الاتصالات بين نجد والساحل الشرقي .

وبعد مسافة قصيرة ، دخلنا الوادي الكبير ، المعروف باسم وادي فاروق ^٢ . وهذا الوادي ، شأنه شأن الخصائص الجغرافية البارزة في هذا الإقليم ، سواء أكان جبلاً أم سهلاً ، يتجه من الشمال إلى الجنوب ؛ والسمة الغالبة على هذا الوادي هي سمة الدهناء ، التي يمكن اعتبار هذا الوادي جزءاً منها وموازيها . وبحكم أن هذا الوادي عميق وواسع ، فهو يحتوى على متاهة من الكثبان الرملية ، يضل خلالها ، كثير من المسافرين طريقهم ، بل ويموتون فيها بين الحين والآخر . ولكن الذي يسيئ إلى سمعة وادي فاروق بصفة خاصة ، هو وجود أعداد كبيرة من قطاع الطرق ، الذين ينتمون إلى آل - مرة في بعض الأحيان ، وإلى بدو المناصير في بعض الأحيان الأخرى ؛ والمناصير قبيلة من القبائل التي سوف نتعرف عليها في المنطقة الشرقية ؛ والبديل

الذى يقدمه "الصوص الفجرة" لرواد هذا الطريق الشرفاء يتمثل فى العبارة التالية :
" أيها الكلاب ، أرواحكم مقابل أكياس نقودكم " . وقد حاول الوهابيون ، الذين يكرهون
جميع اللصوص باستثناء أنفسهم ، إخماد عصابات وادى فاروق مرارا ولكنهم لم
يحققوا نجاحا كبيرا ، ولا يزال آل - مرة يحتفظون بعصاباتهم الخاصة بهم كما أن
جيرانهم يحتفظون بمثل هذه العصابات أيضا ، فى بعض الأحيان .

ونزلنا فى وادى فاروق قبل دخول وقت الظهر ، وتجاوزناه كله ونحن نحس بالقلق ،
وقبل غروب الشمس صعدنا إلى الضفة المقابلة ، وبدأنا المسير خلال سلسلة الجبال
الساحلية فى الاحساء . وتفصل الصحراء عن البحر هنا سلسلة من الكثبان الرملية
الجرداء القاحلة ، التى تكاد تحيط بالجزيرة العربية كلها ، بدءا بالعقبة فى الشمال
الغربى ، ثم تمتد بعد ذلك بطول البحر الأحمر ، ثم إلى كل من عدن ونقب الحجاز أمام
المحيط الهندى ، إلى أن تصل إلى رأس الحضض ، ثم تسير بعد ذلك بحذاء الساحل
العمانى والخليج الفارسى إلى أن تصل إلى طرفه الشمالى . وقد توجد ضمن هذا
الحزام من الكثبان الرملية بعض الفجوات ، غير أن ذلك أمر نادر تماما ؛ وارتفاع هذا
الحزام لا يعتد به فى الجزء الأكبر منه ، ولا يزيد ارتفاعه بأى حال من الأحوال عن
ألف قدم ؛ ولكن هذا الارتفاع قد يصل إلى ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر ،
فى حين تتسع سلسلة هذه الكثبان الرملية لتكون ، فى الوقت نفسه ، منطقة جبلية
واسعة . ويصل ارتفاع هذه التلال ، فى المنطقة المقابلة لوادى فاروق ، حسب تقديرى
الشخصى ، إلى حوالى ألف وأربعمائة قدم فوق مستوى سطح البحر وإلى حوالى
أربعمائة قدم فوق مستوى الصحراء من ناحية الغرب ، وبذلك يصل ارتفاعها إلى
حوالى ألف قدم عن مستوى الساحل . وجبال الاحساء فيها قدر من الحجر الجيرى
هنا أو هناك ، ولكنها مكونة أصلا من الجرانيت والحجر الرملى ، كما توجد فيها أيضا
صخور الكوارتز والبازلت . وفى أغلب الأحوال تتآكل حواف هذه الصخور وتتحول إلى
كهوف ، يستثير منظرها الخيال ويوحى بالوحشة .

عند هذا الحد ، كان قد انقضى على تزودنا بالماء ثلاثة أيام ونصف اليوم ، وكان
أبو عيسى يطمع إلى إنهاء الرحلة على وجه السرعة . وكانت هناك أسباب مماثلة
تضغط على الغنام ورفاقه ، وبخاصة أنهم استطاعوا عن طريق مضاعفة معدل سيرهم
أن يلحقوا بنا ؛ وبدأنا جميعا نستحث الخطى ، وبدأنا نعبر التلال التى كان لها بريق
مثل بريق الذهب أثناء انعكاس أشعة الغروب عليها . وعندما أرخى الظلام سدوله علينا

كنا قد وصلنا إلى المرتفعات الأشد بعدا والتي يطلق عليها اسم "ثنية غار" ، بعد أن كنا قد انطلقنا نحوها من قرية صغيرة مخبأة بين مرتفعات الجبل ، ومن ثنية غار رحنا ننظر إلى سهول الاحساء ، ولكننا لم نستطع تمييز أى معلم من معالمها بسبب أشعة القمر الخادعة ؛ وبدا لنا كما لو كنا نحملق فى محيط لبنى واسع . وبعد أن توقفنا مدة ساعة تناولنا خلالها العشاء ، واصلنا مسيرنا ، مرة إلى الأعلى ، وحينما إلى الأسفل ، ومره عبر الأرض المفتوحة وأخرى عبر الممرات ، إلى أن وصلنا إلى منخفض يشبه المسمار المحوى يؤدى إلى جبل شاطئ الخليج شديد الانحدار ، وبعد أن قطعنا ألف قدم أو ما يقرب من ذلك ، وصلنا إلى مستوى الاحساء المنخفض ، وأصبحنا وسط هواء الساحل الدافئ المحمل بالرطوبة .

كانت الأرض تتلأأ بيضاء بفعل ضوء القمر ، وبدأت تزداد صلابة من تحت أقدام جمالنا ، التى استشعرت خفة حركتها وراحت تشارك راكبيها فرحتهم ، ونفهم أيضا أن موعد الراحة قد اقترب . والواقع أننا جميعا كنا سعداء ونتطلع إلى الراحة المنزلية والأسرية ، ولما كانت مدينة الهفوف ، هدفنا المبتغى ، لا تزال على بعد حوالى خمسة عشر ميلا فى الاتجاه الشمالى الشرقى ، فقد وجدنا أنفسنا لا نلقى بالا لفترات الراحة التى يمكن أن نقضيها فى أكواخ الغوير^١ Ghowger عند سفح الممر ، أو فى قرية الشعاب^٢ Sha'abah ، التى تبعد حوالى خمسة أميال ناحية اليمين ، وضغطنا على أنفسنا وواصلنا المسير فى اتجاه العاصمة . والواقع ، أننا ، كان من المقرر لنا ، أن نصل جميعا إلى العاصمة ، قبل طلوع الفجر ، لولا وقوع حادث فريد أدى إلى تأخير الجزء الأكبر من أفراد القافلة .

وبعد أن تجاوزنا الصخور والجروف التى ربما لن نراها بعد سنين أو إلى الأبد ، وبعد أن اختفت عن أنظارنا صحراء ووسط الجزيرة العربية ، وبينما كانت تطالعنا وتنتشر من حولنا أمواج الرمال الواضحة ، وانكسارات سهل الاحساء العظيم ، وبينما كنا نسير على ضفة منحدر ، شاهدنا ، على بعد مسافة قصيرة أمامنا ، بقعا سوداء كبيرة ، يتناقض لونها مع لون التربة البيضاء التى تحيط بها ، كما استرعى انتباهنا ، فى الوقت نفسه ، أزيزا غريبا يشبه أزيز الزنابير الهاربة ، بالقرب من الأرض ، فى حين راحت الجمال تطفر وهاجت كما لو كانت قد أصابها جنون مفاجئ . وكان سبب كل ذلك ، سرب من الجراد ، كان قد حط فى هذه المنطقة فى رحلته صوب الشمال

قادمًا من موطنه في صحراء الدهناء ؛ كان معكسر ذلك السرب من الجراد يمتد هنا وهناك إلى مسافة بعيدة ، وكان مجيئنا قد أقض عليه مضاجعه . ومن المعروف عن هذه الحشرات أنها تحط على سطح الأرض بعد غروب الشمس ، ونظرا لأن برودة الليل تؤثر عليها ، فإنها تظل على الأرض في انتظار أشعة شمس الصباح ، التي تبعث الدفء في أوصالها وتدفعها إلى التحرك مرة أخرى ، ولكن جمالنا قامت بدور الشمس في هذه المرة ، ولا أدري من الذى كان أكثر خوفا من الآخر : الجمال أم الجراد . وقد ضحكت من أعماقي عندما وجدت حيوانا ضخما مثل الجمل يفقد صوابه خوفا من طيران حشرة لا تلدغ ولا حول لها ولا قوة ؛ "سفينة الصحراء " هو الأجن من بين كل المخلوقات الجبانة .

ولكن إذا كانت الإبل قد خافت ، فإن أصحابها لم يخافوا ؛ بل أظن أنهم كادوا أن يجنوا من الفرع . والجراد هنا ، مادة من مواد الغذاء ، بل هو عنصر فاخر من عناصر الغذاء ، والناس هنا يتوجهون إلى الله عله يرسل عليهم سربا طيبا من الجراد ، وذلك على العكس من استنكار هذه الحشرة في كل من الهند أو سوريا . ويمكن أن نرد اختلاف هذا الإحساس إلى عدة أسباب ؛ ويتمثل أهم هذه الأسباب في تباين هذه الحشرات نفسها . وجراد وسط الجزيرة العربية يختلف عن كل أنواع الجراد التي شاهدها في الأماكن الأخرى . وجراد المنطقة الشمالية صغير ، ولونه أخضر شاحب ، ويشبه القبوط في بريطانيا ، إلى حد كبير . وعلى حد معرفتي ، فإن البدو وأهل القرى السوريين وكذلك سكان أراضى الرافدين وأهل العراق لا يأكلون هذا النوع من الجراد مطلقا ، وأنا بدورى لا أحسب أن ذلك النوع من الجراد يصلح للأكل تحت أى مسمى من المسميات أو تحت أى ظرف من الظروف ، اللهم باستثناء حالات الجوع الشديد . والجراد مثل النحل، له ملكة أيضا، ويتناسب حجمها مع جلالها ؛ ولكن ملكات الجراد ، مثل ملكات النحل، ليست هي التي تقود أسراب الجراد ، ولكنها تكون في حالة تقاعد . وجراد الجزيرة العربية ، على العكس من الجراد الآخر ، عبارة عن حشرات لونها بني يميل إلى الأحمرار، ويصل حجم الواحدة منه إلى ثلاثة أضعاف حجم جرادة الشمال، وهي تشبه حبة الجمبرى الكبيرة من حيث الشكل . ويصل طول الواحدة من هذا الجراد إلى طول الإصبع الخنصر ، كما يصل سمكها أيضا إلى سمك الإصبع نفسه . وأنا لم أسمع عن ، ولم أر بين هذا الجراد أية ملكة من الملكات ، وهذا العيب يجعلنى أصنّفها ضمن جراد "الاربه " Arbah الذى ورد ذكره في الإنجيل ، كما ورد ذكره على

لسان (سيدنا) سليمان ، إن كان ذلك صحيحا - فى القسم الأخير من سورة الأمثال .
والعرب لا يميزون بين الاسمين ، جندب وجراد عندما يطلقونهما على هذه الحشرة ،
ولكنى أعتقد أن كلمة " جندب " هى الشائعة . والعرب يطلقون على رجلى الجراد
الخلفتين اسم " الكراغين " .

ويقال إن هذا الجراد عندما يسلق أو يشوى يكون لذيق الطعم ، وبناء على ذلك
فقد سلقوه وشووه إلى أبعد حد ممكن . ومع ذلك ، لم تطاوعنى نفسى على الاقتراب
منه ، برغم كل الدعوات التى وجهت إلى من سكان هذه الأرض ، وهم يمصصون
شفاههم وينظرون إلى تلك الأطباق المليئة بهذا الطعام الفاخر ، أملا فى أن يجعلونى
أشاركهم الطعام . وخاطر بركات وتذوق واحدة على سبيل التجربة ، وقال إنها شاحمة
ومنفرة ، وتثير الاشمئزاز ، ولم يتناول بعدها شيئا على الإطلاق : إنها تشبه الكفيار
عند أولئك الذين لم يعتادوا أكل هذا النوع من الجراد .

كان سرب الجراد الذى أمامنا الآن ، بمثابة عطية من عند الله لهؤلاء العرب ،
ويجب ألا يهملوها بأى حال من الأحوال . ونسى أفراد القافلة عطشهم ، وإرهاقهم ،
وقفز الراكبون من فوق جمالهم ؛ هذا واحد يفرد مشلحه ، وهذا آخر يفتح خرج السرج ،
وذاك يفرد قميصه من فوق هذه المخلوقات التعيسة على أمل الاستفادة بها فى وجبة
الصباح . ويطير بعض الجراد مندفعاً بين أقدامنا ، فى حين أمسك الرجال ببعض
الآخر ويحزمونه فى قطع من القماش والجولات ؛ واندفع الغنم ومن معه يحصدون فى
الجراد . وبرغم كل ذلك ، لم يكن لدى أو لدى بركات أى ميل للاشتراك فى هذه
المطاردة ، ولم نكن نرغب فى تحويل ثيابنا أو ملابسنا الداخلية إلى مستودعات لهذا
الصيد الحى . ومن حسن الحظ أن أبا عيسى لا يزال يحتفظ بتربيته التى نشأ عليها
فى شمالى سوريا ، ولذلك كان رأيه من رأينا . من هنا ، فقد تركنا رفاقنا مشغولين
بصيد الجراد ، ووجهنا إبلنا الخائفة ناحية الهفوف ، وواصلنا مسيرنا بأقصى سرعة
ممكنة عبر السهل .

وبعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر ميلا انضممنا جميعا إلى بعضنا ، ومررنا بقرية
عين نجم الصغيرة ، التى كانت ظلال منازلها تنعكس ، بفعل ضوء القمر ، على
الصخور البيضاء عند أسفل الغوير . وتوجد فى هذه المنطقة عين كبريتية ، شهيرة
بأنها تشفى الأمراض الجلدية ، وهذه حقيقة يسهل تفسيرها وفهمها ، كما تشتهر

أيضا بأنها تشفى من الشلل ، برغم أنى أتشكك فى مدى صحة هذه المقولة ؛ وربما تكون بعض حالات الشفاء قد حدثت من قبيل المصادفة ، مما جعل الناس يعزون إلى هذه العين الشفاء من الشلل . وطبقا للمعتقد الشعبى فإن عين نجم دواء عام لجميع الأمراض . وقد شيدت الأجيال السابقة قبة كبيرة من فوق هذه العين ، وانشأوا من حولها أحواضا للاستحمام . وتندفع الحشود والجماهير إلى هذه العين ، بحثا عن الشفاء والصحة التى ينشدونها فى معظم الأحيان ؛ ولذلك فقد تحولت منطقة العين إلى منتجع وملتقى لكل من يعيشون فى المناطق القريبة ، كما بدأت تستثير شكوك حكومة الرياض . وبناء على ذلك ، صدر أمر ، قبل ثلاث سنوات من تاريخ زيارتنا ، بتدمير القبة ، والحمامات ، وسد فوهة العين بالأحجار ، تحسبا ، وأنا هنا أقتبس كلام مطاوعة فيصل الأتقياء "من أن يثق الناس بالمياه بدلا من الله (سبحانه وتعالى) ، وهذا النوع من عبادة الأصنام " . ونُفذ المرسوم الإمبراطورى ، ولا يزال حطام القبة أو إن شئت فقل الضريح ، هى والنبع الحار الذى لا تزال مياهه تتسرب من خلال أكوام الزباله التى وضعت عليها ، لا يزال كل ذلك شاهدا على قدرة الخالق وعظمته وضيق أفق الوهابيين الغبى ، وحظ هذه الأرض التعيس ، التى يحكمها المتعصبون . وهذه حكاية قديمة ، لا تقتصر على الجزيرة العربية وحدها .

وعن بعد شاهدنا قرية صغيرة أخرى نسيت أن أدون اسمها . ومع أنوار الصباح الأولى شاهدنا أمامنا بيارات النخيل الضخمة التى كانت تحيط بمدينه الهفوف على شكل صفوف سوداء طويلة وواضحة المعالم . وبعد ذلك ، سرنا من بين حقول الأرز والقمح ، وتركنا عن يميننا قلعة مهجورة (سوف نصفها مع طلوع النهار) ، ثم مررنا ببعض الفيلات المتناثرة ذات الحقائق ، لنصل فى النهاية إلى أسوار المدينة المهدمة ، وندخل من البوابة الجنوبية ، التى كانت مفتوحة وبلا حراس . وبعد أن تجاوزنا بعض الشوارع وصلنا أمام منزل أبى عيسى ، ذلك المكان الذى اخترنا أن نحصل فيه على قسط من الراحة .

الفصل الثالث عشر

من الهفوف إلى القطيف

مكان له مثل هذا القوم

أولا لاحظ ، له مثل هذه الكميات التي نشاهدها ؛

لم تبق منها سوى ذكرى كلامية زاوية ؛

اسم فارغ كتابى هو المتبقى ؛

فلتشر

منزل أبى عيسى - الطابع العام لسكان الاحساء - كراهيتهم للوهابيين - نشأة حركة القرامطة وانتشارها فى الجزيرة العربية - طبيعة هذه الحركة ونتائجها - الأنواء التى توالى على الاحساء - المساكن التى أقمنا فيها فى الهفوف - وصف المدينة - الكوث - القيسارية - الرفيعية - النعثار - التحصينات - الخطيم - المناطق المجاورة للهفوف - الينابيع الحارة - الزلازل - طبيعة المنطقة - الحياة النباتية - تدهور الزراعة ، والصناعة ، والتجارة - المناخ - الشعر النبطى - الأنباط - أصل الأنباط - ملاحظات عن الخطأ فى استعمال الأسماء - الأدب فى الاحساء - الملابس والثياب - الزينة - حفلات سمر المغور - حياتنا الخاصة فى الهفوف - أمسيات فى المجتمع - كراهية الإسلام والحكومة الوهابية - التآمر على الحكومة الوهابية - أبعاد هذه المؤامرة ومدى نجاحها - الجواسيس النجديون - سوق فى الهفوف - زيارة الميرز - القلعة والمدينة - منزل من الداخل - بساتين ومزارع - تمر الخلاص - زيارة أم سبيع - وصف النافورة - طلعه عربية - مياه الاحساء - النساء - العملة العربية - العملات فى الاحساء - التخطيط لزيارة عُمان - مغادرة الهفوف - حادث - الكلابية - طريق

شمالي الاحساء - خصائص الريف - جبل مُشهر - البدو - العازمية - تلال القطيف - السهل - قناة جرّ المياه - مدينه القطيف - القلعة - البحر - وصف الميناء - بحريه فيصل - فرحات ، حاكم القطيف - قصر القرموط - قهوة فرحات - المناطق المجاورة للقطيف - الآثار - عشاء شبه فارسي - حياة النجديين في القطيف - الرحيل إلى المحرق .

كان الوقت ما يزال ليلا . كل شيء صامت في الشارع وفي المنزل الذي نقف عند مدخله في هذه اللحظة ، والواقع ، أن من بداخل المنزل لا ينتظرون من أحد أن يطرق بابهم ، في مثل هذا الوقت ، سوى رب البيت نفسه ، يضاف إلى ذلك ، أن أهل الدار لم يكونوا يتوقعون وصول أبي عيسى في هذه اللحظة بالذات . وحاول أبو عيسى ، بصعوبة بالغة ، إيقاظ أهل الدار ؛ وسمعنا بعد ذلك صوت ربة المنزل ينبعث من الداخل ونبراتة تحمل إمارات الفرحة والترحاب ، وينفتح الباب في النهاية ، ويدعونا أبو عيسى للدخول عبر ممر مظلم لاحظنا فيه مصباحا غازيا مشتعلًا ، وبواسطة هذا المصباح دخلنا إلى القهوة . وفي القهوة شربنا نارا ، وبعد قليل من الانتعاش السريع ، راح الجميع يغطون في نوم عميق ، ولم يصحوا إلا قبل ظهر اليوم التالي .

كان مقامنا في الهفوف شيقا ومبهجا ، لا بسبب الأحداث الشخصية والنجاة الغريبة - مثلما حدث لنا في الرياض وفي الأماكن الأخرى - وإنما لأن ذلك المقام كان حافلا بالمعلومات التي اكتسبناها هنا ، من ناحية ، وفي الطابع الروائي لكل ما يحيط بنا سواء أكان طبيعة ، أم إنسانا أم فنا . وكان من رأى أبي عيسى أن نشاهد أكبر قدر من الأرياف ، ووفر لنا كل الوسائل اللازمة لتحقيق ذلك ، في حين بددت أقامتتنا في منزله ، هي والاحتياطات التي اتخذها أو التي اقترحها علينا ، بددت كثيرا من الأخطار والمضايقات التي سبق أن مررنا بها في مراحل سابقة من هذه الرحلة . زد على ذلك ، أن ميول سكان الاحساء بصفة عامة ، تختلف عن ميول أولئك السكان الذين التقيناهم في نجد بل وفي شومر أو الجوف ، علاوة على أن سكان الاحساء مؤهلون لجعل الغريب يشعر كما لو كان في منزله . ونظرا لأن أهل الاحساء ، هم من سكان السواحل ، فإنهم يتطلعون بصفة أساسية ، إلى البلاد الأجنبية وإلى المحيط طلبا للرزق والتجارة ، ولذلك فقد اعتادوا أن يروا بينهم ، في كثير من الأحيان ، رجالا يلبسون ملابس مختلفة عن ملابسهم ، ويدينون بدين غير دينهم ، وسلوكيات غير سلوكياتهم ، فضلا عن أن الكثيرين من أهل الهفوف أنفسهم من المترجلين والجاثلين الذين يسافرون إلى البصرة ، وبغداد والبحرين ، وعمان ، بل وإلى أماكن أخرى أبعد من هذه البلاد ،

ولذلك فهم متحررون من مشاعر الدهشة والعجب والشكوك التى يتصادف أن يستثيرها منظر الغرباء فى نفوس سكان المنطقة الوسطى المنعزلة التى تحيطها الصحراء من كل جانب ؛ وقصارى القول : أن التجربة والخبرة ، التى هى سيدة الأسياد ، قد لعبت دورها فى القضاء على دروس الجهل ، والتشدد ، والكراهية الوطنية . والواقع أن التواصل والاتصال الحر مع الأعراق الأخرى حقق فى جميع البلدان ، اللهم إن لم أكن مخطئاً ، هذه النتيجة الممتازة ، التى مفادها أن هذا التواصل ، إذا كان يقلل ، بلا أدنى شك ، بل إنه يقوى المشاعر القومية والوطنية ، فهو يشجع ، فى ذات الوقت ، على نشوء أسلوب فكرى وطريقة عمل أكثر كرماً واعتدالاً مع الأفرع الأخرى فى العائلة الانسانية الكبيرة ، إضافة إلى أن مثل هذا التواصل ، يضيف على الناس المزيد من النزعة الاجتماعية ، دون أن يؤدى إلى إحداث تفكك بين أفراد الشعب الواحد أنفسهم . وأكبر دليل على ذلك ، هو تاريخ الأمم التجارية والمدن البحرية ، سواء أكان هذا التاريخ مسجلاً فى المضابط أو مقروئاً بواسطة المراقبين فى كتاب الحياة الكبير الذى تشكل الدول صفحاته .

فى الاحساء أيضاً ، وبغض النظر عن الظروف الخارجية والظروف المحيطة التى سبقت الإشارة إليها ، نجد طبيعتهم النفسية تميل إلى الخصوصية والقسوة إلى حد ما . والمذهب الوهابى موجود بالفعل ، ولكنه لا ينتشر إلا بين تلك القلة القليلة التى تكون الطبقة المهيمنة المكروهة من الناس ؛ فى حين أن وجود المذهب الوهابى يساعد ، بحكم رد فعله الطبيعى ، على جعل السواد الأعظم من الناس يعادونه ، من منطلق أنهم لا يعرفون شرور هذا المذهب من الناحية النظرية فقط ، وإنما من واقع خبرتهم المريرة الطويلة معه . بل إن عقيدة محمد نفسها ، برغم إنها تلمع على السطح ، فإنها ليست فى أعماق الناس ، إضافة إلى أن أعداد أولئك الذين يكرهون الإسلام فى شكله المعتاد ، لا تقل عن أعداد من يكرهون الإسلام فى شكله الوهابى ، كما أن هؤلاء وهؤلاء لا يلبسون ذلك القناع السطحى . إذن ، ما هى النغمة السائدة والاتجاه العقدى الذى تجرى ممارسته هنا ؟ الاجابة على هذا السؤال ليست سهلة ، علاوة أيضاً على أن الاجابة نفسها قد يصعب فهمها ، دون أن يكون لدينا قدر معين من المعلومات والأبحاث السابقة ، وتشمل على قدر كبير من التفاصيل الدقيقة لأبعاد هذا العمل ، وعلى كل حال ، سوف أبذل قصارى جهدى ، برغم أن ذلك سيكون بطريقة مختصرة ، لاكشف للقراء مجموعة من الخيوط التى سوف تشكل عبئاً ليس بالقليل على الذهن .

منذ فترة الانقسام الكبير التي أسفرت ، خلال القرن الهجرى الأول ، عن تقسيم أمة محمد إلى قسمين مختلفين - هما على وجه التحديد السنة ، أو السلفية والشيعة أو إن شئت فقل حزب على وأسرته ، أى الحزب الذى يضم كل أولئك الذين ينتمون إلى ذلك العرق ، وينخرطون ضمن عقيدته التصوفية العجيبة - نجد أن الاحساء ، ومعها جميع الأراضي المجاورة لها والتي تمتد شمالا بطول ضفاف الفرات ودجله ، قد ألحقت نفسها بالقسم الثانى أو إن شئت فقل الحزب الشيعى ، وشاركت ، إلى حد ما ، فى التقلبات الفكرية والمراحل الفكرية التى مرت بها الأسرة الفاطمية هى وأتباعها ومريدوها . ولكن إذا كانت جيوش الأمويين ، هى وقسوة الحجاج ، مصاص الدماء ، سيئ السمعة ، قد تمكنا من قمع الشيعة وكسر شوكتهم فى كل من الكوفة والبصرة ، إلا أن الاحساء ، وهذا من حسن حظها ، استطاعت بفضل احتمائها بالصحراء التى كانت تفصلها عن أهل السنة ، أن تبقى على حالها ، كما احتفظ سكانها أيضا بأحكامهم وأساليبهم المميزة دون تحرش من أهل السنة المنتصرين . وبناء على ذلك ، فقد لجأ إلى الاحساء كل أتباع مسيلمة الذين تم نفيهم ، كما لجأت إليها أيضا كل قوات أبو النعمان^(١) القطرى المدحورة ، كما لجأ إليها أيضا جنود شبيب أبو الذوقحاك ، كما لجأت إليها أيضا فلول معجزات وقلعة عطا الخرسانى الذى اشتهر باسم المقنع ، أو إن شئت فقل النبى المقنع) - كما لجأ إلى الاحساء أيضا أناس كثيرون لهم أيضا عقائد ومصائر مماثلة ، ومعروف أن كل جماعة من هذه الجماعات التى توالى وصولها إلى الأحساء كانت تحمل المزيد من العداء للإسلام بصفة عامة ، وكراهية البدو أمر للعقيدة المحمدية والحكم المحمدى .

وقد شجع أيضا اختلاف الأصل القومى على انفصال الاحساء عن الجسم الكبير الذى كان عرب الحجاز فيه بمثابة المنظرين والعمود الفقرى . والمعروف أن أول من استوطن هذه السواحل هم بنو خالد وبنو حجر ، وكلتاهما من القبائل القحطانية ، وبالتالى فهم لا يتعاطفون مع العرب الذين ينسبهم التاريخ أو الأساطير إلى إسماعيل^(١) . وأضيفت إلى هاتين القبيلتين عائلة الفزاره Fezarah كثيرة العدد ، وهى من أصل

(١) إن نسبة العرب إلى قبيلة جرهم العربية والتى تزوج منها إسماعيل عليه السلام ، وكان منها النسل العربى أمر ثابت تاريخياً وليس من قبيل الأساطير ، وفى الحديث النبوى الشريف الذى يقول فيه الرسول عن نفسه "أنا ابن الذبيحين" ما يثبت ذلك - (د. حلمى عبد المنعم) .

نجدى ، ولكنها طردت من نجد بسبب الحروب الطويلة وعداء أهل نجد المرير لها ، علاوة على أن هذه العائلة لم يكن لديها أى ميل لمؤاخاة الحجازيين وخلفائهم أو القحطانيين أنفسهم . أخيرا فإن عشائر كلب (أعداء قريش اللدودين) وقبائل البيلي Belee ، وقبائل تنوخ ومختلف فروع قضاعة ، التى تمثل أنبل وأرقى أبناء قحطان ، كانت قد انتشرت فى كل أنحاء الساحل الشرقى فى المنطقة من قطر إلى البصرة ، بل أنها وصلت إلى أبعد من ذلك فى اتجاه الشمال . وكانت هذه القبائل ، دونا عن سائر القبائل العربية الأخرى ، آخر من دخل فى الإسلام ، وأول من ارتد عنه ، يضاف إلى ذلك ، أن مجاورة الاحساء لبلاد فارس ، جعلها تستشعر الجو المسمم والتصوف الغريب الذى كان يجرى فى هذه البلاد ؛ ويبدو أن ذلك كان هو الجو السائد فى الأزمان القديمة التى يلقي عليها وميض الشك الأسطورى كثيرا من الضوء الذى يخلصها من الشك والغموض . وقصارى القول ، أن الاحساء ، التى كانت من قبل مثل عمان معقلا من معاقل السبئية ، وأصبحت الآن راعيا من رعايا الإسلام ، ولا أقول : دخلت فيه ، لم تكن قبل ذلك سوى تربة خصبة للعقيدة والولاء للمحمدين .

وقد حدث فى هذه المنطقة اختمار للأفكار ، كما حدث أيضا كثير من الحركات الجزئية ، التى لم يكن لها فاعلية كبيرة ، وذلك خلال القرنين الهجريين الأولين ؛ ولكنى سوف أتجاوز هذين القرنين لأصل إلى الثورة الأولى التى قادها أبو سعيد الجنابى الذى كان الناس يعرفونه باسم القرموط ، ذلك الاسم الذى يجمع العالم كله على غموضه ، وعدم معرفة أصله ، ومن ثم جاء المصطلح الأوربى "Carmathian" ولم تنجح الحملة التى أرسلها خليفة بغداد ، المعتضد بالله ، فى العام ٢٨٧ الهجرى ، فى القضاء على هذه الثورة ، برغم أن تلك الحملة كانت تضم أشجع القادة والجنود ؛ وتقطعت أوصال جيوش المسلمين ، فى معركة جبل مغازى على أيدي القرامطة الغاضبين ، الذين دفعتهم كراهيتهم لعقيدة محمد ، إلى إحراق جميع الأسرى ، ولم يستبقوا منهم سوى ضابط واحد فقط ، طردوه ليعلن على بغداد المصير الذى آل إليه رفاقه، ويندفع أبو سعيد القرموط ، الذى لم يعد يخشى العسكرية العباسية أو يخافها ، قدما نحو الاحساء ومعه أتباعه ، ليمتد تخريبه وسلبه ونهبه ، إلى جزء كبير من بلاد الرافدين وإلى سوريا نفسها . والناس يعزون إلى هذا الأمير تشييد القلعة الكبيرة والقصر الكبير فى منطقة القطيف ، بعد أكثر من ثمانمائة عام على غرار معقل عرقه الذى ينتمى إليه . ولكن الحملات التى قام بها ولده أبو طاهر سليمان ، حجبت ظلالها الحملات التى قام بها والده .

ونشبت بعد ذلك تلك الحروب الهائلة والمدمرة التي اختتمت انهيار العقيدة الحمديّة وسقوطها في حواري ثلثي الجزيرة العربيّة ، بل وهددت وجود هذه العقيدة في بقية العالم الشرقي . ويستل أبو طاهر القرموط سيف سلفه جاعونات القطرى (أول رئيس للخوارج في العام الستين من الهجرة) ، ويتسلح بأشعار هذا الجاعونات - تلك الأشعار التي قال عنها ابن خليكان "إنها تبث الشجاعة في أعظم جبان خلقه الله (سبحانه وتعالى)" - ويحتجز أبو طاهر القرموط الخليفة ، الذي كان يرتعد خوفاً ، أسيراً في بغداد ، ثم يتوجه لتهديد قلعة حلب ، ويملاً أروقة الكعبة ويتر زمزم بجثث أتباع محمد . وقد حاولت في فصل سابق أن أعبر بالانجليزية عن بعض أصدااء أغاني الحب العربيّة . وأنا لا أعتقد أن القارئ سيعترض على بعض الأبيات القليلة التي اقتطعتها من صرخة الحرب التي كان يطلقها كل من جاعونات وأبو طاهر سليمان ؛ وهذا يزيد أيضاً في أهمية الشعر التاريخيّة :

قلت لنفسي عندما ضربها الخوف لحظة ①

في وجود السرايا المعادية ، عار عليك ، لماذا تخافين ؟

أليس عليك أن تبذلي قصارى جهدك لتطيلي حياتك يوماً واحداً

إلى ما بعد الزمن المخصص لك ، ضاع كل ذلك هباءً ؛

تشجعي ، عندئذ ، وسط دوامات الموت ، تشجعي ،

خلود الحياة رغبة لا تتحقق .

طول الأيام ليس عباءة شرف لمن يرتديها ،

ولتكن هذه العباءة رداء يلف خافت القلب ، الجبان ؛

الموت هو هدف الحياة ، وجميع مساراتنا توصلنا إليه ؛

الموت ملك ، ومناديه ينادى الواحد والجميع ؛

ومن لم يميت في الدم يحمل الخطأ والضعف ،

إلى أن يبتريه الموت من الحياة ومن الوجود .

الحياة ليست بركة للإنسان ، ولا تستحق الاقتناء ،

عندما تضعه الشيخوخة ضمن الأشياء التي لم يعد لها نفع أو فائدة .

هذه القصيدة هي من
لاكنها حرفت بعض الكلمات

ومع ذلك ، فإن الحروب ، والنجاحات والانتكاسات التي أصابت ذلك المذهب القوى الذي سمي باسم القرموط ، تدخل في نطاق التاريخ العام . ويمكن الوقوف عليها ودراستها دراسة مستفيضة من مضابط الحوليات التاريخية في الشرق . لقد بذل العقل البشري جهدا كبيرا كي يحطم الشكليات الدينية والقدرية الدينية ، ويعيد من جديد تأكيده على حريته الوطنية وحركته غير المقيدة ؛ وقد تجاوز ، هذا الجهد العقلي البشري ، مثل سائر الجهود الأخرى ، الهدف المحدد له . ولكن بعد صراع دام أكثر من مائة عام ، وبعد أن أصبحت يد الإسلام هي العليا ، وبعد أن تم غسل الحجر الأسود في ماء الورد وإعادة إلى الكعبة ، وبعد أن انتصرت عقيدة التوحيد على عدوها العقلاني الشرس ، بعد كل ذلك كان من الطبيعي أن ينجم عن ذلك الصراع ، الإطاحة بكثير من الأشياء ، التي لم يمكن استعادتها فيما بعد ، إضافة إلى ذلك الدمار الكثير الذي لا يمكن إصلاحه عن طريق السلطة أو التشريع . وعلى رأس كل ذلك ، ظلت بؤرة الثورة أو إن شئت فقل مركزها ، مثلما يحدث غالبا في مثل هذه الظروف ، ضائعة طوال حركه الإنقاذ الثانية . ويمكن لذا هنا أن نستشهد بكل من جبال فاليز ، وغابات بوهيميا ، وشمالى سكسونيا ، وكذلك المناطق المجاورة لباريس باعتبارها أمثلة لأوطان حديثة ليس لها تاريخ طويل ، مثل الأماكن التي نتحدث عنها هنا . وفي الجزيرة العربية اعترفت كل من الأحساء والقطيف بقانون مجريات الأحداث . وبقيت منطقة الأحساء والقطيف غريبة على الإسلام ، مجرد كومة من الحطام الدينى والأخلاقى ، مجرد كومة من المعتقدات القرموطية والمعتقدات السرية ، تم فيها خلط النزوع الطبيعي أو إن شئت فقل العمل الطبيعي ، إن جاز لى أن أستعمل مصطلحا حديثا لأعبر به عن شئ قديم ، بالنزوع المادى أو العمل المادى ، وتشويش كل ذلك بخلطه أيضا مع التقمصات والمجسّدات الدينية الشيعية ، كما جرى تشويش ذلك أيضا بخلطه بآثار السبئية القديمة التي أخذت تنتعش من جديد ، واختلط كل ذلك أيضا بالفتشية^(١) التي بدأت تنتشر بين الطبقات الدنيا غير المتعلمة فى كل أنحاء الدنيا ، برغم أن ذلك قد يتباين من حيث الشكل والتسمية ، من مكان إلى آخر . ولم يحدث قط أن وضعت المسيحية أقدامها على أرض الأحساء ، ولكنها غزت جزر البحرين المجاورة وسيطرت عليها فى يوم من الأيام ؛ ومع ذلك فنحن لا نستطيع أن نتبين سوى بعض الآثار المسيحية الطفيفة ، فى تاريخ هذا الساحل ، أو بين السكان الأصليين الذين يعيشون عليه .

(١) الفتشية : الإيمان بالافتاش والبرود ، والفتش : شئ كانت الشعوب البدائية تعتقد أن لها قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته - (المترجم) .

وفى الوقت ذاته انتعشت الصناعة ، والتجارة ، والزراعة ، والفن ، واستفادت من موقع الأحساء الجغرافى ومواردها المحلية ، واستحوذت هذه الأنشطة على عقول السكان ، الذين كانوا راضين عن انفصالهم عن كل من مكة وبغداد ، وراحوا يتمتعون بمزايا الاستقلال الدينى والسياسى . والآثار التذكارية ، التى يرجع بعضها إلى تاريخ سابق والبعض الآخر إلى تاريخ لاحق ، تغطى منطقة الأحساء ، وتشهد على الازدهار المادى الذى شهدته منطقة الأحساء ، فى الأزمان الخالية . والوهابية عندما ظهرت أول مرة فى نجد ، كان ألد أعدائها وأبعدهم نظرا ، هم حكام الساحل الشرقى ، كما سبق أن أوضحنا . ولكن نظرا لعدم قدرة هؤلاء الحكام على التعامل مع القوات الأكثر عددا ، وافتقارهم إلى المهارة العسكرية ، انهزموا فى النهاية ، ولجأ الرؤساء المحليون الذين نجوا من سيف بن سعود ، إلى إيران ، ومنهم من لجأ أيضا إلى الصحراء المجاورة للكويت ، ولأن جزء كبير منهم بمنطقة الحريق ، وتركوا بلادهم وراءهم بلا حول أو قوة نهية لأهل الداخل متسلقى الجبال الأشداء . وهنا أصبح الإسلام أمرا مفروضا فى كل أنحاء الأحساء والقطيف ، وشيدت المساجد فى كل مكان ، وأقيمت الصلاة بواسطة أولئك الذين ولوا وجوههم شطر مكة ، وارتفعت أصواتهم بتلاوة آيات القرآن ، فى حين كانت قلوبهم مليئة بالعنات للنبي ، وكتابه ، ودينه^(١) ؛ - وكانت الهمسات تنكر ما تؤكد الكلمات .

وما إن بدد إبراهيم باشا ذلك الشئ النجدى الضخم ، حتى أعادت الأحساء التأكيد من جديد ، على استقلالها المدنى والدينى . وبعد أن اطمأن سكان الأحساء ، إلى ضمان حريتهم المدنية والدينية ، من خلال الحماية المصرية ، أصبحوا على استعداد للتحالف مع إسماعيل باشا ، أثناء قيامه بزيارة الساحل الشرقى . ولكن حكام الأحساء الجدد ، غرهم النجاح ، ونسوا فى الجزيرة العربية ، دروس الاعتدال ، التى وعتها القاهرة ، وأسسوا فى الأحساء نظاما يشبه إلى حد كبير نظام الممالك وليس نظام محمد على . وراحوا يعاملون السكان كما لو كانوا عبيدا مهزومين ، وليسوا رعايا طائعين ، وفرضوا عليهم رسوما عرفية ، وجردوا المنازل من ثرواتها ،

(١) هذه جرأة من المؤلف فى التعبير بتلك العبارات الجارحة وقد خرج من أسلوب المؤرخ إلى أسلوب الحاقد الحائق على الإسلام ونبيه ، وفوق ذلك فإن هذا الوصف ليس دقيقا فإن المسلم حينما يدخل قلبه الإيمان يمتلأ بحب الله ورسوله وكتابه وكيف بمن يقرأ القرآن ويتوجه إلى الكعبة فى صلاته يكون كما وصف المؤلف ؟ إن وصفه بتلك العبارات فيه مبالغة حاكمة - (د. حلمى عبد المنعم) .

وسجنوا أعيان البلاد بسبب أعذار واهية ؛ ولم يقفوا عند هذا الحد ، إذ كانوا يتباهون بفرض القيام بالأعمال الوضيعة التي تحط من القدر ، على وجهاء القطيف ، كما أنهم كانوا يسبون النساء ويلعنوهن في شوارع المدينة . ولم يدم ذلك النظام طويلا ، فقد أدى التمرد الدموي الذي حدث هناك ، إلى طرد المصريين إلى الأبد من تلك المنطقة التي كانوا قد بدعوا ينشرون طغيانهم فيها ، واستردت الأحساء استقلالها السابق ، ولكن لفترة قصيرة .

وبعد ذلك بسنوات قلائل بدأت الأسرة المالكة الوهابية التي أعاد تأسيسها (الأمير) تركي ، وبعد أن أعاد إليها استبداد فيصل الحذر شيئا من طاقتها الأولى ، بدأت تتطلع من جديد ، بل واستطاعت في النهاية إخضاع الأحساء ، ولكن بعد حرب طويلة دامية ، أتذكر بحق ، أن فيصل شخصيا ، ناصر فيها ولده عبد الله في العمليات العسكرية التي قام بها . وهدمت أسوار القطيف هي والمدن الأخرى ، في بعض أجزائها ، وفككت القلاع ، ودمرت قرى بأكملها . وفي مقابل ذلك ، أعيد بناء المساجد ، وشيدت مساجد جديدة ، ونُشِرَ طلاء الدين الأبيض من فوق العرى الديني في هذه البلاد . وبقيت الأمور على ما هي عليه منذ ذلك الحين . وفي الوقت ذاته ، كانت تيران رد الفعل القرموطي تستعر سرا من تحت الرماد ، وكانت تنتظر فرصة سانحة تندلع من خلالها لها حارقا يكفي ، وربما للمرة الأخيرة ، للقضاء على البنية الفوقية لكل من الوهابية والإسلام . وبحكم أن اتساع الجزيرة العربية كلها كان يفصل الأحساء عن مصر ، وبحكم عدم تعاطفها مع الحكم التركي في بغداد ، وبحكم بأسها من الحصول على العون والمساعدة من الفوضى الفارسية العاجزة ، كان لابد على رؤساء الأحساء أن ينتظروا الوقت الملائم ، وأن يكونوا على استعداد للترحيب بمن يخلصهم ، والذي لم يكونوا يعرفون ، على وجه اليقين ، من أين سيأتي ، وأن يدرسوا ويتأملوا خطط الثورة والتحرر ، التي تجعل قوة نجد الغالبة تنفيذهما أمرا مستحيلا في ظل انعدام العون والمساعدة . وأنا أرى أن ما قدمته هنا يكفي أن يكون إطارا عاما للمنطقة فيما يتعلق بخصائصها وسماتها الهائلة ؛ ولكن التفاصيل التي حصلنا عليها أثناء مقامنا ، في هذه المنطقة ، سوف تجعل الصورة أكثر اتضاحا واكتمالا .

بعد أن استيقظنا على إفطار فاخر - ذلك الترف الذي لم نره منذ أن كنا في غزه - مكون من دجاج مشوي ، وأرز ، وحلوى ، قامت بإعداده ربة المنزل الحبشية الماهرة في

طهى الطعام ، زوجة أبى عيسى تلك السيدة حلوة الطبع الطائشة مثل سائر نساء الريف ، رحنا ننظر حولنا ، ووجدنا أنفسنا فى منزل مريح ، يناسب تماما طبيعة الحياة الهادئة التى اعتزمنا أن نحيها هنا بضعة أسابيع . كانت قهوة أبى عيسى صغيرة ، ومغطاة بالهباب ، ولا تتسع لأكثر من عشرين فردا ؛ وإلى جانب هذه القهوة ، كان هناك ملحق كبير ، خصصه أبو عيسى لنا ، كى نقيم فيه بطريقتنا الخاصة ، وكان مدخل هذا الملحق يفتح على حوش المنزل ؛ وكانت تتصل بهذا الملحق غرفتان واسعتان ، وضع أبو عيسى واحدة منهما تحت تصرفنا ، فى حين كانت الغرفة الأخرى مخصصة للطفل ، وكانت أيضا بمثابة المسكن الذى تعيش فيه هذه السيدة السمراء مع طفلها المولّد وولى العهد . وكان فى المنزل أيضا مطبخ وغرفتان منفصلتان لم يكن مسموحا للجنس الخشن بالاقتراب منهما ؛ وبذلك يكون الدور الأرضى قد اكتمل ؛ وكان الطابق العلوى يحتوى على ثلاثة غرف مؤثثة ، إضافة إلى سطح واسع ، كان يطيب لنا أن نجلس عليه فى الصباح والمساء . وكنا فى وقت فراغنا نتأمل " تلك الجمال الصبورة وهى تجتر طعامها " ، مثلما وصفها سوزى Southey فى إحدى قصائده الشهيرة التى استطاع خياله الحى فيها أن يستعيد شوقه إلى تجربته الشخصية مع كثير من المشاهد الشرقية . أخيرا ، كان الهدوء التام يخيم على المناطق المجاورة كمنزل أبى عيسى ، ولم يكن محطا للشكوك مثل الأماكن الأخرى .

ومدينة الهفوف ، التى كانت تحتوى خلال الجيل الأخير على ما يقرب من ثلاثين ألف نسمة ، انخفضت الآن إلى ما يتردد بين ثلاث أو أربع وعشرين ألف نسمة ، تنقسم إلى ثلاثة أحياء أو إن شئت فقل مناطق - هى حى كوت Kot ، أو إن شئت فقل القلعة (وأظن أن القراء الهنود من منطقتى بومباى أو مدراس سوف يتعرفون هذه الكلمة ، التى استوردها الناس فى هذه البلاد من شواطئ كشنا Kishna والتبتى Taptee) ، التى يسكنها الحاكم الوهابى ومعه حاشيته وأتباعه ؛ وحى الرفيعة ، الذى يسكنه قسم كبير من أسر الأعيان العريقة ؛ وثالثا ، حى النعاثار^① Naáthar ، وهو أكبر هذه الأحياء الثلاثة ، ويضم تشكيلة مختلطة من الحضر ، ومن الأثرياء ، والفقراء ، والتجار والحرفيين . كان المنزل الذى نقيم فيه يقع فى هذا الحى ؛ زد على ذلك ، أن المنزل كان يقع فى الجزء البعيد عن الكوت وعن آثاره السيئة ، فى حين أنه كان يبعد أيضا مسافة لا بأس بها عن منطقة المتاعب القريبة من حى الرفيعة ، والتى تمثل مركز الحركات المعادية للوهابية ، والتى يثير مجرد ذكر اسمها الشك والقلق فى أذهان النجديين .

والشكل العام للمدينة بيضاوى كبير ، والساحة الرئيسة ، التى هى عبارة عن مستطيل طوله حوالى ثلاثمائة ياردة وعرضه حوالى ربع هذا الطول ، هى بمثابة النقطة التى تلتقى عندها الأحياء الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها ؛ والكوت ، أو القلعة ، تقع فى شمال شرقى هذه الساحة ، والرفيعة فى الجنوب الغربى والغرب ، فى حين يقع حى النعثار ناحية الشرق والجنوب .

والكوت ، عبارة عن قلعة ضخمة ، يحيط بها خندق عميق ، وأسوار وأبراج ارتفاعها غير عادى وسمكها غير عادى أيضا ، وهى مبنية من اللبن الذى تتخلله الأحجار من حين لآخر ، وهى من عمل الحكام القرامطة ؛ والكوت ، القلعة ، مربعة الشكل تقريبا ، ويصل طولها إلى حوالى ثلث ميل تقريبا وعرضها يصل إلى حوالى ربع الميل . وثلاثة من أجناب هذه القلعة مزود كل منها ببوابة رئيسة ؛ وفى الجانب الرابع ، أو إن شئت فقل: فى الجانب الشمالى توجد قلعة صغيرة أخرى متينة تستعمل حصنا ؛ وهذا الحصن مربع الشكل ، ويصل ارتفاع أبراجه إلى أكثر من أربعين قدما ، أو حوالى ستين قدما إذا ما قسنا المسافة من قاع الخندق الذى يحيط بالكوت . ويسكن هذه القلعة الحاكم النجدى ؛ وقد كان محمد السديرى حاكما ، قبل الحاكم الحالى ، الذى هو واحد من عبيد فيصل اسمه بلال ؛ وهو عبد جيد ولكنه حاكم سيئ ، إن صح الاستياء الذى يعم المدينة . وفى حى الكوت يقع أيضا المسجد الدينى النموذجى ، الذى تجرى الصلاة فيه على الطريقة الوهابية الصحيحة ؛ كما يسكن فى هذا الحى أيضا المطاوعة ورجال الدين الموفدون إلى هذه المدينة ، من الرياض ، كما يقيم فى هذا الحى أيضا بعض النجديين من أهل العارض ، ومن الوشم ، ومن اليمامة . ويسكن داخل القلعة بشر يتراوح عددهم بين ألفين وثلاثة آلاف نسمة ؛ والمكان كله ، بما فى ذلك الخط الداخلى للأسوار ، يزدحم بالسكان ؛ وحى الكوت مقسم عن طريق شوارع طولية تمتد من بوابة إلى أخرى ، ومن جانب إلى آخر .

ويتردد عدد الأبراج على كل جانب من جوانب القلعة ، بين خمسة عشر وستة عشر برجاً ، وهى فى معظمها مستديرة الشكل ، ومزودة بدرج لولبى ، ومزاغل ، ومتاريس مكواه توجد أسفل الشرف المفرجة التى تستخدم فى إطلاق النار ؛ والجدران التى تتوسط المسافة بين الأبراج توجد بها تحصينات دفاعية من هذا القبيل أيضا . والخندق الخارجى يظل فارغا معظم الوقت ، ولكن يمكن ملؤه بالماء ، إذا دعت

الضرورة لذلك ، من أبار المياه الموجودة فى البستان الموجود فى الخلف ؛ وبوابات القلعة متينة وعليها حراسة جيدة .

وعلى الجانب المقابل من الساحة ، وبالتالي يتبع حى الرفيعية ، يوجد السوق أو إن شئت فقل " القيسارية " ، وهذا الاسم هو الذى يطلق على الأماكن التى من هذا القبيل اعتبارا من هذه المنطقة إلى أن نصل إلى مدينة مسقط نفسها ، برغم أنى لا أعرف الطريقة التى شقت بها هذه الكلمة اللاتينية طريقها عبر شبه الجزيرة العربية لتصل فى النهاية إلى مناطق لم تكن لها سوى علاقة تجارية طفيفة مع الإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية ، وهذه القيسارية من حيث الشكل عبارة عن مبنى مقنطر يشبه البرميل ، له بوابة فى كل من واجهتيه ؛ والأبواب المنطوية التى من المفروض أن تحمى هذه المداخل ، منزوعة فى الهفوف ، وذلك على العكس من الأماكن الأخرى . وجوانب هذه القيسارية مكونه من دكاكين ، مقسمة ومخصصة للبضائع غالية القيمة ، أو لكل ما ينظر إليه على أنه غالى القيمة ؛ والسلع المتدواله هنا فى القيسارية هى من قبيل : الأسلحة ، والاقمشة ، والمطرزات ، والذهب والحلى الفضية والذهبية . ومن حول القيسارية توجد عدة شوارع وحارات ، مسقوفة بجريد النخيل منعا للحرارة ، وهى موازية لبعضها ؛ وفى دكاكين هذه الشوارع والحارات نشاهد البضائع البحرينية ، والعمانية والإيرانية ، وكذلك البضائع الهندية ، وكلها معروضة للبيع بالمنتجات المصنوعة محليا ؛ كما نشاهد فى هذه الدكاكين أيضا الورش ، وورش المعادن ، وورش النجارين وصناع الأحذية ، وما إلى ذلك . وفى الساحة العامة نفسها توجد أكشاك صغيرة لا تحصى ولا تعد ، تباع التمور ، والخضراوات ، والخشب ، والجراد المملح ، وكثيرا من السلع الصغيرة متعددة الأنواع . وعلى كل حال ، فإن التبغ (الدخان) الذى كان فى وقت من الأوقات واحدة من السلع الشائعة التى تباع وتشترى ، أصبح محرما من قبل رجال الدين الوهابيين ، وأصبح يؤذى العين ؛ ومحلات الدخان وتجارته تجرى فى الخفاء ؛ وطبقا للمثل الذى يقول : " الماء المسروق حلو " أو إن شئت فقل : " الممنوع مرغوب " ، فإن الدخان يوجد بكميات كبيرة وسوقه تعج بالنشاط والحيوية . والمزادات العامة تقام بصفة دائمة فى هذه الساحة العامة ؛ وفى هذه الساحة العامة أيضا نجد الحلاقين وهم يمارسون مهنتهم ، كما يكثر الحدادون وصناع الأحذية . فى هذه المنطقة أيضا ، وذلك بالرغم من وجود الحدادين وصناع الاحذية فى أجزاء أخرى من المدينة . ومع ذلك ، وبرغم الآثار القاتلة للاستبداد والطغيان والتعصب ، فإن الكثير من النشاط والحيوية يدب بين هؤلاء السكان المهرة والمجدين .

وتغطي الرفيعة ، أو حى الأعيان ، مساحة كبيرة ، من المساكن المقبولة ، والتي يتسم بعضها بالأناقة فى بعض الأماكن . ويرجع جمال العمارة المنزلية فى الهفوف إلى استعمال العقود ، التى اختفت على امتداد المسافة من مُعان إلى الأحساء ، ثم يبدأ فى معاودة الظهور مرة ثانية ، لتضفى على الانشاءات فى هذه المنطقة خفة وتنوعا لم تعرفهما المنشآت الثقيلة والرتيبة والتى تشبه الأكوام فى كل من نجد وشومر . وثمة فارق آخر يتمثل فى أن الجدران فى الهفوف سواء أكانت مصنوعة من اللبن أم من الحجر أم من خليط منهما ، وهذا هو الأغلب الأعم ، تغطى بقشرة من المصيص الأبيض ، الأمر الذى يجعلها تشبه " الشونام " فى جنوبى الهند ؛ كما يجرى فى الهفوف أيضا تزيين مداخل المنازل ، والنوافذ التى لها رؤوس تشبه حرف الـ S ، وقد يتم الاستغناء عن هذه الزينة فى بعض الأحيان . وشوارع حى الرفيعة ، فى هذه المدينة الحارة ، واسعة ونظيفة جدا ؛ وشوارع دمشق أو بريده لا تصل إلى ربع هذا الاتساع أو النظافة . وحى الرفيعة صحى تماما ؛ وهو يقع على ربوة مرتفعة نسبيا ، وبذلك يكون اسما على مسمى ، ويهب عليه نسيم الخليج ، الذى ينشط هنا بشكل ملحوظ فى بعض الأحيان .

وحى النعثار ، هو أكبر الأحياء ؛ وهو يشكل نصف المدينة تقريبا ، ويكمل شكلها البيضوى . وفى هذا الحى توجد أنواع كثيرة من المساكن - منها بيوت للأثرياء ومنازل للفقراء ، وأخرى لعلية القوم وبعض آخر لعامة الناس ، وفيها القصور وفيها أيضا الأكواخ . وفى هذا الحى ، ولكن بالقرب من الكوت ، أمرت السياسة الدينية بتشيد المسجد الكبير ، الذى تضفى عليه العقود المعمارية المغربية ، والأروقة الخفيفة المعمدة ، والمصيص الناعم ، والحصير المفرد على أرضية المسجد ، مظهرا أكثر وقارا من كاتدرائية الرياض ، إن صح التعبير . ومع كل ذلك ، فإن عدد أتباع المذهب الوهابى ، فى حى النعثار ، ليس كبيرا . ويسكن فى هذا الحى كثير من التجار والحرفيين ورجال المال والأعمال ؛ كما يسكن فى هذا الحى أيضا الغرباء الذين جاءوا من بلاد فارس ، أو من عمان ، أو من البحرين ، بل ومن الحريق وقطر أيضا ؛ كما يعيش فى حى النعثار أيضا النساجون وأصحاب الحرف اليدوية ويزاولون فيه أعمالهم . ومن المهم للقارئ أن يعرف أن الرحالة الدرويش سبى الحظ ، الذى سبق أن وصفت مشهد وفاته فى الدرعية ، أمضى بضعة أسابيع فى منزل من منازل حى النعثار ، وقد أشار لنا أبو عيسى إلى المكان الذى عاش فيه ذلك الرحالة تعيس الحظ .

وقد كشف ذلك الرحالة التعيس نفسه عندما اختار لنفسه أن يقيم فى أحد المنازل ،
والمعروف أن الدرويش الحقيقى ليس له مكان يقيم فيه سوى المسجد :

غريب ، ولا أبحث عن مُضيف ؛

غريب ، ولا أمضى ليلى داخل جدران المنازل .

غريب ، وليس لى عيال أو أطفال ،

وليس لى من يقودنى إلى مأوى الإنسان ،

المسجد الضيق ، هو ملجئى ومكان ارتياحى ،

ذلك هو مبتغى قلبى ، هو قدرى ومصيرى إلى الأبد .

هذا هو ما يتغنى به الشحاذ فى الإسلام .

وفى النعثار ، دونا عن الحيين الآخرين ، قد نجد بستانا صغيرا هنا أو هناك
بين منازل الحى ، وقد تصادف من حين لآخر شجرة تضيف حياة على جانب الطريق
بفضل مجموعها الخضرى واسع الانتشار . وأكثر الأشجار شيوعا هنا هى أشجار
التين وأشجار الفواكه .

كانت تحصينات مدينة الهفوف ، قوية وعالية فى يوم من الأيام ، ولكنها الآن
لا تعدو أن تكون مجرد أكوام من الحطام ، والأبراج المهدمة ، والدرج الطرزونى الذى
لا يُوصَل إلى شئ ، ويحيط بهذه التحصينات خندق ، مملوء بالماء من ناحية حى النعثار ،
ولكنه جاف من ناحية حى الرفيعية ، والسبب فى ذلك أن القنوات التى تصل بينه وبين
آبار المياه فى الخلف كانت قد قطعت أو ردمت ، وربما كان ذلك عن قصد ، وربما كان
أيضا بسبب الإهمال . وخارج أسوار المدينة توجد البساتين والمزارع ، التى تمتد ناحية
الشمال وناحية الشرق على امتداد البصر ؛ وتكون هذه البساتين حلقة ضيقة من
ناحيتى الجنوب والغرب . وعلى مقربة من البوابة الجنوبية توجد تلك القلعة المنعزلة التى
كنا قد مررنا بها ليلة وصولنا إلى مدينه الهفوف ؛ وهذه القلعة عبارة عن مبنى جيد
الإنشاء ، وقد اختير موقعها بعناية كى تشرف على جميع مداخل المدينة من ناحيتى
الجنوب والغرب ؛ ويطلق على هذه القلعة اسم " خطيم " الذى يوضح طبيعتها والهدف
منها . وهذه القلعة حديثه العهد ؛ فقد شيدها رئيس الهفوف فى القرن الماضى كيما

تكون كابحا لجماح الهجوم الوهابى الطائش المتهور ، عندما تتدفق جحافل نجد عبر ممرات الغوير الضيقة ، وتقرب من عاصمة المنطقة من هذا الاتجاه نفسه . ولكن وا .. أسفاه ! فقد انكسر الخطيم ولم يفد اللجام . وهاهى القلعة ، وقد تفككت ، وأصبحت مجرد صفحة من صفحات السياسة القديمة، شأنها شأن قلعة كونوى Conway Castle ، أو إن شئت فقل الدراشنفلز Drachenfels .

وهناك قلعة أخرى أصغر من تلك القلعة ، أو بالأحرى برج من أبراج المراقبة ، فى هذه المنطقة أيضا . وهذا البرج مبنى أيضا من اللبن ، مثل قلعة الخطيم ، وقد زادت صلابته بمرور الزمن إلى أن أصبح يشبه الحجر . فقد تحملت تلك الجدران ، على امتداد ما يتردد بين سبعين وثمانين عاما ، أمطار الشتاء ، وعواصف الربيع ، دون أن تفقد بوصة واحدة من ارتفاعاتها أو يحدث ثقب واحد فى جوانبها .

من هذا المكان ، وفى اتجاه الجنوب المنظر عبارة عن أرض جرداء صحراوية ، تنحصر بين منطقتى الاحساء وقطر ، وبذلك تصبح هذه المنطقة حداً طبيعياً لا يتفق مع الحدود الصناعية التى تفصل بين منطقتى نجد وعمان المتعاديتين . ولو قدر أن يكون هناك خط للحدود ، فإن ذلك الخط لا بد أن يصل إلى حوالى عشرين ميلاً جنوبى الهفوف . ومن ناحية الجنوب الشرقى نجد أن الكثبان الرملية تحجب الرؤية عن كل من خليج البحرين وميناء العجير ، الذى لا يبعد كثيراً عن خليج البحرين ؛ وفى الناحية الجنوبية الغربية توجد مرتفعات الغوير ، ومن خلفها عين نجم وقرية أخرى . وقرية شقبة نفسها بعيدة عن مرمى البصر ، ولكننا نستطيع أن نميز فوقها آخر نتوءات المنحدر الجبلى فى سلسلة الجبال الساحلية ، التى تنخفض فى هذه المنطقة لتكون بحراً متموجاً من الرمال ثم تميل بعد ذلك ناحية الشرق لتتصل بعد ذلك ، بكثبان قطر الرملية ، ثم تستمر بعد ذلك إلى أن تصل إلى عمان دون أن يعترضها أى شىء .

وإذا ما اتجهنا غرباً ، نجد أمامنا العديد من المجارى المائية ، التى لا تشبه أبار نجد ، وإنما هى مجارى مائية حية تنساب بين بيارات النخيل العميقة ، كما نجد أيضاً حياة نباتية من النوع شبه الهندى الذى يقتصر على هذا الجزء من الجزيرة العربية . وهناك كثير من القرى الصغيرة التى تنتشر فى هذا السهل ، إلى أن تتصل ، بعد مسافة تتراوح بين خمسة وستة أميال فى اتجاه الجنوب الغربى ، بكهوف صخور جبل المغازى ، أو إن شئت فقل " جبل الحملات العسكرية " ، الذى اندحرت فيه جيوش العباس ، القائد العام فى عهد الخليفة المعتضد بالله ، أيام أبو سعيد الجنابى ،

أول ملوك القرامطة ، الذى سبقت الإشارة إليه منذ قليل . ومع ذلك ، فإن سلسلة الجبال هذه تمتد إلى ما لا يقل عن مائة ميل ناحية الشمال ، وتنتهى هذه السلسلة فيما وراء مدينة الواب Wáb بمياهها الوفيرة . وتوجد شمال وشرق الهفوف كتلة خضراء من النباتات الزينية المتمايلة ، وذلك باستثناء المناطق التى يشكل فيها فيضان هذه المياه ، بين الحين والآخر ، تلك الظاهرة التى لا تخطر على بال رجل إنجليزي متيم بالشرق - مستنقعا حقيقيا ، ينمو فيه القصب ، والسَّمار^(١) والطيور المائية السابحة طويلة الأرجل . بارك الله فيها جميعا ! وأنا لا أستطيع التعبير عن سعادتي عندما رأيت هذه المخلوقات بعد فراق طويل ؛ ومن حول حواف هذه المستنقعات والبحيرات تقف أشجار النخيل شامخة ، محملة بأفضل رطب الجزيرة العربية ، أو بالأحرى أفضل رطب الدنيا كلها . وهذه تلة رملية وحيدة مخروطية الشكل ، فلتة من فلتات الطبيعة ، ترفع نحو الأعلى ناحية الشمال الشرقى ، من أرض هذا السهل المنبسط غزير المياه ؛ وعلى قمة هذه التلة يوجد أثر يذكرنا بالتحصينات القرموطية . وأنا على يقين ، أن هذه التفاصيل تعطى القارئ فكرة معقولة وجيدة عن مدينة الهفوف والمنطقة المجاورة لها . والشكل العام لمدينة الهفوف يشبه عقيقة يمانية تجمع اللونين الأبيض والأصفر ، موضوعة فى إطار من الزمرد الأخضر ؛ إن اسم "الHFوف" شأنه شأن الاسم ونشستر الذى تحمله جزيرتنا ، معناه التلألأ والجمال .

وربما يكون القارئ، بعد أن وصل برفقتى إلى هنا ، قد بدأ يتعطش إلى الحرارة ، حتى فى شهر ديسمبر ، الحرارة شبه الخانقة ، وإلى السماء الصافية كما لو كنا فى شهر يونيو أو شهر يوليو . لذا ، هيا بنا ندخل إلى تلك المزرعة المعشوشبة ، التى يوجد بها ست من الجاموس يرطبون جلودهن فى ماء البحيرة وتشربن من النبع الذى يزود هذه البحيرة بالماء . ولكن تصور ! أن ماء البحيرة دافئا ، بل يكاد يكون حاراً ، لا تندهش ، فكل عيون وآبار الاحساء من هذا القبيل ، تقريبا ؛ ويصعب على الإنسان أن يضع يده فى بعض هذه العيون ؛ وبعض آخر منها تصل درجة حرارة مياهه إلى ما يزيد على درجة الحرارة المعتادة ؛ ومن حين لآخر يظهر طعم الكبريت بشكل واضح فى هذه المياه . والواقع أن هذه النار الجوفية يمكن أن تقف عليها فى أى مكان من الهفوف بدءا من طرفها الشمالى عند حدود الكويت إلى أقصى حدودها الجنوبية عند

(١) يقال له أيضا الأسل وهو نبات تستعمل أوراقه الأسطوانية الطويلة فى صنع مقاعد الكراسى - (المترجم) .

مدينة شعبة . وتختفى تلك النار الجوفية مرة ثانية في قطر وعلى طول الساحل إلى منطقة رأس مسندم ، ولكنها تعاود الظهور من جديد ، إلى أن نجدتها أيضا في باطنه Batinah ، أو أن شئت فقل في المنطقة الخفيضة في عُمَان . وقد سبق أن تحدثت عن عين نجم وحماماتها . وسوف يتعين علينا أن نزور أم السباع ، تلك المدينة الأقل شهرة . والصخور هنا أيضا يغلب عليها أن تكون من صخور التوفو المسامية أو من البازلت ، وهذه دلالة أخرى على الأصل الناري لهذه الصخور . أخيرا ، لقد أبلغني السكان أن الهزات الزلزالية الطفيفة - وهذه ظاهرة غير معروفة ، على حد معرفتي ، في سجلات نجد العليا التاريخية أو الموروث الحي لهذه المنطقة - غير شائعة هنا بأي حال من الأحوال . ومن بين الأخطار غير المعتادة ، ذلك الخطر الذي تعزى إليه الشقوق والصدوع التي أصابت الجدران العالية والطوابق العليا في كثير من المنازل التي لا تزال تقف شاهدا على ذلك ، ويقال أن ذلك الخطر حدث منذ حوالي ثلاثين عاما . وربما صادفت تلك الهزة ، الكارثة الشهيرة التي وقعت في العام ١٨٣٦ الميلادي ودفنت سكان مدينة صافد تحت أنقاض المدينة ، وتسببت في انهيار الأحجار في قلعة الجيش (جيسكالا) وسقوطها في الوادي ، وتسببت في زلزلة أسوار قلعة حلب المتينة . والواقع أن الاحساء بموقعها الساحلي ، بحذاء الخليج الفارسي ، تدخل ضمن ذلك الوادي الكبير ، الذي ينزل في بعض أجزائه إلى ما تحت مياه الخليج نفسه ، والذي يرتفع في بعض أجزائه الأخرى ليكون حوض نهر دجلة والفرات ، ويمتد من شواطئ بلوختان وعمان حتى يصل إلى قاراداغ Kara Dagh وجبال أرمينيا ، إلى أن يصل إلى طرف المنطقة التي يشيع فيها حدوث الزلازل بشكل كبير . ووحدة مناخ هذا الوادي هي التي تشهد على امتداده واستمراريته ؛ ومناخ هذا الوادي يشكل مدخنة هائلة من الهواء الساخن ، وترتكز قاعدة هذه المدخنة على المناطق المدارية ، في حين تصل أطرافها إلى ٣٧ درجة شمالاً . ومن هنا ، فإن ريع السموم ، التي لا تعرفها الأجزاء البعيدة من المناطق الجنوبية في كل من سوريا وفلسطين (وأنا على ثقة أن القارئ ، لديه من العلم ما يجعله يقع في الخطأ الشائع الذي يخلط بين رياح السموم الغازية ورياح الشيلوك أو السيروكو التي تهب على كل من سوريا ومالطة ، بل وعلى إيطاليا أيضا) ، تهب من حين لآخر على كل من الموصل وجزيرة عمر ، في الوقت الذي يسجل فيه مقياس الحرارة ، في بغداد ارتفاعا ، في فصل الصيف ، يكفي لزعة اعتقاد الشخص الهندي الحقيقي ، وبخاصة إذا كان من بومباي على أقل تقدير .

ومسألة حدوث وحدة طبيعية فى جوف الوادى وتكون مماثلة للوحدة السطحية ، ليس فيها ما يتعارض مع الإطار النظرى ، علاوة على أن جميع الحقائق التى سبق أن أشرنا إليها تدعم ذلك وتؤكدده ولكن ينبغى أن أسلم هنا ، بأن ذلك هو مجال الجيولوجيين ، وأنتى يجب أن أسير على هداهم ، وأترك لهم مسألة البحث فى هذه الدلائل ، وربما يرفضونها ؛ وعلمى أو جهلى لا يمكن أن يصل بى إلى أبعد من ذلك .

ومنتجات الاحساء كثيرة ومتنوعة؛ الحياة النباتية العربية الرتيبة، بنخيلها الأبدى ، وإثلها ، أو الأثل والنخيل ، تتباين هنا فى الهفوف تباينا واضحا إذ تشاهد غطاء نباتيا جديدا ونباتات غير معروفة فى نجد أو شومر . صحيح أن النخيل لا يزال هو السائد فى الهفوف ، بل انه هنا يصل إلى ذروة اكتماله وكماله . ولكن شجرة النبق ، بأوراقها المستديرة ، وثمرتها التى تشبه التفاح ، والتى تعد مجرد دغل فى وسط الجزيرة العربية ، تتحول فى الاحساء إلى شجرة فارعة ضخمة ؛ كما توجد فى الاحساء أيضا ، شجرة الباباى التى يذيع صيتها فى شرقى شبه الجزيرة العربية ، وهى تظهر ، برغم ندرتها ، وبرغم تبعثرها ، ضمن بعض الأشجار الأخرى التى يشيع نموها على الساحل فى المنطقة من كتش Cutch إلى بومباى ؛ وسوف أعدد هذه الأشجار هى وأوصافها فى فصل لاحق . كما تزرع هنا أيضا أشجار النيلة ، ولكنها لا تصلح لاستغلالها على نطاق تجارى ؛ كما يزرع القطن على نطاق واسع فى اليمامة ؛ وتكثر أيضا حقول الأرز ، علاوة على زراعة قصب السكر ؛ برغم أنى أعلم ، أن ذلك لا يدخل فى صناعة السكر ، ويبيع الفلاحون فى الاحساء ، أعواد القصب على شكل حزم فى الأسواق، والناس يشترونه ويعودون به إلى منازلهم كى يمسوه ، فى وقت فراغهم . والقمح ، والذرة ، والدخن ، والسليفة بكل أنواعها ، والفجل ، والبصل ، والثوم ، والبازلاء ، أو اختصارا كل الخضراوات والحبوب باستثناء الشعير (لأنى لم أر أو أسمع عن أى شىء منه) ، تغطى السهل ، ويمكن أن تصل إلى عشرة أضعاف إنتاجها ، فى ظل الاداره الجيدة . ولكن الضرائب الثقيلة والمساهمات العرفية هى التى أحبطت كلا من المزارع والتاجر . ولقد شاهدت ، بنفسى مساحات كبيرة من الأرض ، يمكن أن ينفجر منها الماء غزيرا ووفيرا بمجرد الحفر فيها بالفأس أو الكوريك ، ولكن الناس يتركونها جافة جرداء . وعندما سألت الناس عن أسباب عدم القيام بهذا الجهد البسيط الذى سيعود عليهم بعائد ثمين ، كانوا يجيبونى قائلين : " ما الذى سيعود علينا من ذلك؟ إن كل ذلك سيؤول إلى خزانة فيصل" أو " الأفضل أن نترك الأرض لخالقها ، بدلا من أن نفلحها لصالح أولئك الوهابيين الكلاب " .

وعلى كل حال ، إذ كان الفلاح لديه من الأسباب ما يجعله يصرخ ويصيح ، فإن التاجر لديه من هذه الأسباب ما يجعله يعوى ؛ والسبب فى ذلك أن التاجر هو الأكثر معاناة. وقد ظلت الاحساء، على امتداد قرون ، تتجر اتجارا مزدهرا مع كل من عمان ، وإيران والهند على الجانب الأيمن ، والبصرة ، وبغداد على الجانب الأيسر ، بل كانت تتجر مع دمشق نفسها برغم العداء السياسى وبعد المسافة . والسبب فى ذلك أن المشالح المصنوعة فى الاحساء ، وكذلك المطرقات التى تدخل فى صناعتها وهى أيضا من إنتاج الاحساء ، ولا مثيل لها فى أى مكان آخر ، زد على ذلك أن هذه الدقة فى العمل ، وروعة التصميم ، لا مثيل لها إلا فى كشمير فقط . والصوف الذى يستخدم لإنتاج المشالح من النوع الفاخر جداً ، وعندما يجرى تطعيمه بالحرير ، يشكلان نسيجا متينا يقاوم البلى ويسر الناظرين ؛ فى حين أن حاشيته المكونة من خيوط الذهب والفضة التى تنسجم مع الألوان المرحية ، تثير حسد الحاسدين ، ولكن ليس لها مثيل فى سوريا أو إيران . وفيما يتعلق بصناعة المعادن الثمينة ، وتزيين مقابض السيوف ، أو القوارير ، أو الخناجر أو النراجيل ، فإن حرفى الاحساء ، برغم أنهم أقل شهرة من حرفى عمان ، لا يخشون من منافسه دمشق وبغداد لهم . وفى مجال مشغولات النحاس الأحمر والنحاس الأصفر ، يعرف سكان الاحساء أيضا كيف يمزجون الاناقة بالاستعمال ، ومن هنا فإن دلال القهوة المصنوعة فى الاحساء تفوق تلك الدلال التى نصادفها فى شمال البصرة . كل هذه المنتجات هى وأشياء أخرى مماثلة كانت ، فى يوم من الأيام ، سلعا رائجة وصالحة للتصدير ، ونحن عندما نضيف هذه المنتجات إلى تجارة تمرور الخلاص التى لا تخسر مطلقا ، والتى تقتصر على منطقة الاحساء وحدها ، ويسيل لها اللعاب فى المنطقة ما بين الموصل وبومباى ، إضافة إلى حزم قصب السكر وما إليها ، كل ذلك كان يشكل تجارة تصديرية ممتازة . وفى مقابل الصادرات كانت تصل الاحساء واردات من قبيل الأقمشة العادية تماما ، والسكاكين ، والمشغولات الحديدية ، والسيوف ، والرماح ، والأواني الفخارية ، والحرير ، وخيوط الذهب ، وخيوط الفضة ، وأكثر من مائة سلعة أخرى من هذا القبيل . ومن هنا جاءت ثروات تجار الاحساء الكبيرة ، وثروة الحكومة المحلية ، ومن هنا أيضا جاءت تلك التذكارات التى تقف شاهدا على هذه الثروة . لقد ضاع كل ذلك ؛ أن النجدي يأكل شحم ونخاع هذه الأرض ؛ فى حين أنه ، عن طريق حربه الطائشة التى يشنها على من يود أن يصب عليه جام تعصبه ، باسم محاربة الترف - الحرب على الدخان والحرير ، والزينة

والثياب - يبتز فرعا مهما من فروع التجارة المفيدة ، كما يتحين الفرص كي يزجر ويحبط التاجر غير المتدين الذي يفضل السفن على المساجد ، ويفضل باللات البضائع على " الله " وعلى " القرآن " (١) . وتنفيذا لهذه الغاية النبيلة ، فإن المهنا الذي أتينا على ذكره في الفصل الذي أوردته عن القصيم ، كان كلما صدر أمر بتجهيز حملة من الحملات ، أو بالتجنيد ، يبدأ في تطبيق سياسته المؤذية على نطاق واسع في الاحساء ، التي كان أول من يحمل البندقية فيها ، وأول من يضع الرمح على كتفه هم التجار الأثرياء ، وأصحاب المحلات الراححة ، والحرفيين الأجواد ؛ مما كان يتسبب في كساد الأعمال التي كانوا يقومون بها . كان ذلك هو النظام الذي انتهجه فيصل عند حدوث الحرب ؛ وعندما وصلنا الهفوف وجدنا أن أكثر من نصف سكانها المفضلين ، قد أجبروا على الاشتراك في حرب تتمثل نتيجتها الوحيدة في إحكام النير الوهابي الكريه على أعناقهم هم أنفسهم .

سبق أن قلت ، إن مناخ الاحساء مختلف تماما عن مناخ الأراضي المرتفعة وأنه ليس مناخا صحيا أو صالحا للنشاط البدني . ومن ثم ، فإن طبيبا مثلي ، وأنا هنا استميت القارئ أن يسمح لي باستعمال هذا اللقب ، سوف يجد الكثير من العمل ويحصل أيضا على الكثير من الأتعاب المجزية ؛ ومسألة الأتعاب المجزية هذه ترجع إلى حجم النقود السائلة التي يجري تداولها هنا ، كما ترجع من ناحية أخرى إلى القيمة المرتفعة التي يحددها للطبابة هنا أناس هم أرقى فكرا من أولئك النجديين الذين يجاورونهم . وسكان الاحساء من حيث المظهر ، بنياتهم قوية بشكل عام ، وأجسامهم متناسقة ، ولكن وجوههم شاحبة إلى حد ما ، وليسوا مفتولى العضلات مثل بقية السكان في الداخل ؛ وبرغم أن قسماتهم من النوع المعتاد ، إلا أنها ليست محددة وواضحة تماما مثل قسمات النجديين ، ولا تظهر عليهم تلك السحنة التي تشبه سحنة اليهود إلى حد ما ؛ وسكان الاحساء ، على العكس من أهل نجد ، فيهم شئ يذكر الناظر إليهم بالراجبوت Rajpoot أو الجوزيراتي Guzeratee . وأهل الاحساء متيمون بالأدب والشعر ، سواء أكان عموديا أم نبطيا ، أو إن شئت فقل الشعر النبطي .

(١) وهل الإسلام يمنع العمل والسفر والتجارة ، وهل الإسلام يطلب من المسلم الانقطاع في المسجد أو الرهبة ، إن هذا الكلام يدل على جهل بالإسلام وتعاليمه ، فالإسلام يرفض الرهبانية ، ويحث على العمل ويجعل تسعة أعشار الرزق في التجارة ، والمسلم أثناء عمله هو عابد لربه في كل حركة وفي كل مكان - (د. حلمي عبد المنعم) .

هذا الشكل الأخير من أشكال الشعر ، الذى تصادفه فى نجد بين الحين والآخر ، بل ونادرا ، يكثر هنا فى الأحساء ، بل إنه فى واقع الأمر أكثر من الشعر العمودى ، الذى يختلف عنه من حيث التقطيع العروضى والوزن والقافية ، وفى الشعر النبطى الذى يحكم التقطيع العروضى هو النبر، وليس الكم؛ والوزن متغير فى الشعر النبطى ، حتى فى داخل المقطوعة الواحدة ؛ والقافية تبادلية وليست مستمرة . خلاصة القول ، إن هذه النوعية من الشعر بينها وبين الأغنية الشعبية Balled الانجليزية تشابه قوى من حيث الشكل ؛ والشعر النبطى شأنه شأن الأغنية الشعبية الانجليزية ، هو الأسلوب الشعبى السائد فى الريف .

ولكن كيف التصق الاسم " نبطى " بهذا النوع من الشعر ، وما هى الفترة وما هى الظروف التى واكبت دخوله إلى الجزيرة العربية ، ومن هم هؤلاء الأنباط ، وما هى علاقتهم بهذا الجزء من العالم ، لم يستطيع أحد أن يقول لى شيئا عن هذه الأمور . وهذه نتيجة مؤسفة وشائعة جدا من نتائج التقصى التاريخى فى الشرق . وفى الوقت نفسه، فإن هذا الشكل الأدبى العجيب وغير العربى، والذى يمكن العثور عليه فى نجد ، ويكثر فى الأحساء ، يصبح شائعا ومهيما فى عمان ، التى لا نجد فيها أى شىء غير الشعر النبطى ، وإذا أردنا أن نجد لهذا النوع من الشعر وطنا فإننا نقول : إن الشعراء ، فى عمان ، يستعملونه فى كل من الباطنة وجبل أخضر .

سأل الحجاج السفاح المؤرخ العربى تعيس الحظ أيوب بن القرئيه ، وهو يمسك بخنقه معلقا بين الحياة والموت : " ما جنسية سكان البحرين ؟ " ورد عليه المؤرخ العربى قائلا : " إنهم أنباط تحولوا إلى عرب " . وسأله الحجاج : " وما جنسية سكان عمان ؟ " فأجابه المؤرخ قائلا : " عرب تحولوا إلى أنباط " . دار هذا الحوار ، مع أكبر قدر من الاهتمام ، وبصورة مطولة يتعذر إيرادها هنا ، فى العام ٧٠٠ الميلادى ، إن صح ما قاله ابن خليكان ، أى فى العام الرابع والثمانين الهجرى ، وهو ما يترتب عليه الرجوع بالعرق والنفوذ النبطيين على هذه الشواطئ ، إلى تاريخ بعيد جدا . ويجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الأنباط ، أو إن شئت فقل " النباط " أيا كان نوعهم ، كانوا ، من ناحية ، ينتمون إلى تلك الفئة من الناس التى كانت تعبد النجوم أو الشمس ، وأن كلا من الأحساء وعمان ، كانتا من الناحية الأخرى ، فى عهد محمد (ﷺ) ، موطننا أكيدا لذلك الشكل من الدين فى الجزيرة العربية ، علاوة على أن لدينا شاهدا آخر غير مباشر ، على التأثيرات التى أحدثتها الأنباط فى هذه المنطقة .

وإذا كان من حق كل إنسان أن يدلك على صدق نظريته ، فأنا على يقين أن القارئ لن ينكر على هذا الحق الكونى . هؤلاء الأنباط الذين توجد آثارهم فى المنطقة التى تمتد من ضفة نهر الأردن الشرقية إلى ضفة نهر دجلة ، ومن شمالى الرافدين ، تلك المنطقة التى لا يزال يمثلهم فيها "الشمسية" أو بالأحرى عبدة الشمس فى ماردىن - إلى راس الحصن Ras-el-h.ad.d، وما بعدها ، إلى أى عرق ينتمون ؟ وإلى أى أسرة من أسر الجنس البشرى ينتسبون ؟ إن التحزير المضحك الذى يحدد هؤلاء الأنباط على إنهم هم النيباجوث الذين ورد ذكرهم فى الكتاب المقدس (الإنجيل) لا أساس له من الصحة تماماً ، وتشهد على ذلك أوليات علم أصول الكلمات فى اللغة السامية ؛ والكلمتان الساميتان Naba.t (نبط) و Nebajoth (نيباجوث) تمثلان اختلافاً مزدوجاً من حيث الصوامت والصوائت ، ولا يمكن تسوية هذا الخلاف مطلقاً عن طريق رده إلى أصل هذه الطائفة Community؛ ناهيك عن ذكر أسباب أخرى هى واضحة وبينة أمام أعين الباحثين المدققين . هذه النظريات الانجيلية المبالغ فيها - وأنا لا أجد لها اسماً أفضل من ذلك - تليق بتلك الأذهان التى تبحث عن أبناء هاجر ، خليفة إبراهيم^(١) ، بين بنو هاجر فى الأحساء ، وتقرأ أسفار موسى الخمسة على صخور صحراء سيناء . إن أحلام اليقظة تفيد أصحاب الخيال الخصب أكثر من معرفة أولئك الذين يعيشونها أو الأحكام التى تصدر عنهم . هناك بعض آخر من الباحثين الأكثر علماً الذين يميلون إلى دمج الأنباط مع الكلدانيين ؛ بعض ثالث من الباحثين يجعل الأنباط شعباً متميزاً ، والمقرىزى ، يصنفهم ، فى واحد من كتبه ، مع الفرس .

وأنا من جانبى ، ينبغى أن أتعامل مع الاسم نبط أو نبطى على إنه اسم يصطبغ بالصبغة التقليدية أكثر من الصبغة الوطنية أو القومية ؛ والواقع أن هذا الاسم عبارة عن تسمية عامة ، يندرج تحتها ، فى واقع الأمر ، سكان كل من سوريا ، وفلسطين ، والجزيرة العربية ، الذين كان يندرج ضمنهم مختلف السكان الذين كانوا يعيشون فى مناطق دجلة والفرات ، سواء أكانوا من أصل آشورى ، أو كلدانى أو بابلى ؛ وتأسيساً على ذلك فإن الكلمة (نبط) Nabat. يمكن أن تشتمل على العديد من الأسر المالكة ، ومن الحكومات ، والأعراق ، المتميزة عن بعضها ، ولكنها متجانسة بالقدر الذى يجعلها

(١) هذا تدليس وكذب وجهل ، فإن هاجر لم تكن خليفة وإنما كانت خليفة نبي الله إبراهيم عليه السلام وولدت له إسماعيل جد العرب - (د. حلمى عبد المنعم) .

تكوّن كلا واحدا عندما نقابل بينها وبين أولئك الذين يطلّون عليها من الخارج . وسوف أحاول تفسير ذلك .

أنا أرى أن العالم الشرقي ، يمكن لنا أن نتحدث عنه بلا تهور أو اندفاع على أنه قد انقسم في التاريخ القديم على أساس من الدم ، والدين ، والجغرافيا ، إلى ثلاثة قطاعات رئيسة . ففي الغرب يوجد السوريون ، واليهود ، والعرب - أمم قريبة الشبه ، برغم وجود فروق ملحوظة فيما بينها ، ويجمعها إلى بعضها العديد من نقاط التشابه أو إن شئت فقل : الوجه ليس واحدا لكل ، ولا هو مختلف عن ذلك . *Faces non omnibus una, necd iversa tamen* وفي أقصى الشرق كان يسكن الفرس والفرس الميديين *medo-persians* الذين قدر لهم أن يمتزجوا سويا ليكونا إمبراطورية واحدة قوية ، ويختلفون تماما من الناحية البدنية والاخلاقية عن الأعراق الغربية . وبين هذين الشكّلين من أشكال الاتحاد ، إذا ما أخذنا المصطلح هنا بمعناه الواسع ، كانت توجد منطقة كبيرة ، تسقى من فرعى الشط ، دجلة والفرات ، وكانت فيها عائلة ثالثة ، على العكس من العائلتين السابقتين ، مقسمة في واقع الأمر تقسيما داخليا ، إلا أنها كانت تمثل في إطار المحددات الأوسع للدين ، والمؤسسات والسياسة ، والأخلاق مجتمعا له من الحدود الخارجية ما يجعل هذه المجتمعات الثلاثة تبدو في أعين جيرانهم الغربيين على إنهم عرق واحد ، أو كلّ واحد على أقل تقدير . وهذا على النقيض تماما من جميع النواحي بالنسبة إلى أولئك الذين يعترفون لسيدنا إبراهيم والدا ونسبنا لهم ، فهم خصومهم الدائمون في الحرب ، وفي العبادة ، وفي المشاعر الداخلية ، وفي التنظيم الاجتماعي ، وهذا العداء وتعميم الكراهية الفطرية قد يبدوان فرقين صغيرين في إطار العداء الكلي ، ويحددان اسما واحدا عاما لأولئك الذين أدرجهم ذلك العداء ضمن خوف وعداء مشترك . وبمرور الزمن ، وهذا يتضح في الاستشهاد المأخوذ من ابن خلّكان ، فإن المصطلح " الأنباط " الذي كان غريبا ، في البداية على فرع بعينه من السلالة الكلدانية ، أصبح ساكنو سوريا يتصلون به اتصالا وثيقا ومتكررا ، ثم امتد ذلك المصطلح بعد ذلك ليشمل كلا من القوميتين الآشورية والبابلية ، إلى أن أصبح وبالإمكان تطبيقه على أولئك الذين اندرجوا تحت التصنيف الأول ، بحكم أن ذلك المصطلح يمكن أن ينطبق على كل أولئك الذين لهم نفس العادات والتقاليد التي نشأت أساسا في بابل ؛ وبذلك يصبحون مقلدين لعبادة النجوم عند الكلدانيين ، أو مقلدين لأعمال ممثلة ، هي عند العرب وطبقا لأفكارهم تكون مساوية لأن يكون المرء نبطيا

أو انباطيا . ويغض النظر عن كل ذلك ، فإن الاستدلال التاريخي ، برغم أنه ليس له سند من الوثائق الدقيقة ، يسلم بوجود مستوطنة كلدانية ، ومستوطنة قاصدية Casdee ، أو إن شئت فقل مستوطنة كوشية ، وربما أيضا مستوطنة كردية curdee في البحرين ، تلك الجزيرة التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمصبات الشط (شط العرب) بحكم موقعها وعن طريق التجارة ؛ وليس من الصعب علينا أن نتصور الطريقة التي استطاع بها أولئك المستوطنون أن يشقوا طريقهم إلى الأحساء ، بل ويتغلغلون في داخل الجزيرة العربية ، في الوقت الذي انتشروا فيه على ساحلها الشرقي . والشعب التنظيمي يمارس سيادة فريدة على الشعب الذي تكون ملكاته الخيالية أكثر من ملكاته التركيبية (وأشهر مثال على ذلك في الغرب يتمثل في الساكسون من جانب ، والسيلت Celts في الجانب الآخر) ، ومن هنا فإن ذبوع صيت التجارة الكلدانية أو النبطية ، وانتشار النفوذ الكلداني أو النبطي ، وربما الدين النبطي أيضا ، لا بد وأن يعقبه تعديل مماثل في كل من الأدب والشعر ، اللذين يبدأ توظيفهما ، لتحقيق أهداف جديدة ، أو استعمالهما ، على أقل تقدير ، في التعبير عن أفكار جديدة ، وتحولات فكرية جديدة أيضا . والأصمعي أعلم علماء عصره يقول : " الشعر هو أدب العرب "؛ من هنا فإن الشعر لا بد أن يكون أول من يستشعر انطباعات ذلك العمل الأجنبي أو " النبطي " ، وهو أيضا الذي يداوم على تسجيل هذه الانطباعات ، والاحتفاظ بالاسم ، بل أنه يصبح في النهاية مخطئا في استعمال الاسم ، برغم أنه يستعمل في البداية تعبيرا عن حقيقة .

ولدينا أمثلة كثيرة ، في أيامنا هذه ، على تسميات من هذا القبيل ، وبخاصة في الشرق غير الدقيق . من ذلك ، على سبيل المثال ، أن سكان كل من سوريا والجزيرة العربية ، بعد كل تلك الخبرات التي اكتسبوها ، خلال قرون من الاتصال ، يصرون على أن يطلقوا على جميع الأمم المسيحية التي في الغرب كله ، اسم " الإفرنج " ، وهذه التسمية ترجع في أصلها إلى الفرنكيين Franks أو إن شئت فقل الفرنسيين French من الصليبيين crusades . ومع ذلك ، فإن مواطني نينيفه Nineveh لم يكونوا يختلفون كثيرا عن سكان شينار Shinar أو سنعار Sena'ar البابلية ، أو عن اختلاف الفرنسيين عن الألمان أو الإنجليز أو الإيطاليين . لا تقلق ؛ فكل هؤلاء " إفرنج " ، عند العرب . وفي المقابل ، فإن الغربيين يضعون تحت اسم " العرب " ، كل الأعراق التي تعيش في الإقليم أو المنطقة التي تمتد من حلب إلى أسوان Asowan ، ومن البحر المتوسط والنيل

إلى نهر دجلة والخليج الفارسي ؛ برغم أن الأراضي الداخلة في هذه المنطقة أو هذا الإقليم - مصر ، سوريا ، الرافدين ، العراق ، الجزيرة العربية الخ الخ تسكنها قبائل وسكان يختلفون عن بعضهم البعض من جميع النواحي النُسبِيَّة ، والتاريخية ، والقومية ، وهذه التصنيفات الكاسحة التي تشيع بين الناس وتنجم عن أسباب كثيرة توجد في كل العصور ، القديمة والحديثة ، ومن المحتمل أن يكون مغزى كلمة " نبطي " من هذا القبيل أيضا ، معنى ذلك ، أن هذه الكلمة ربما كانت ، في الأصل ، اسما لعلم ثم تحولت إلى اسم جنس من حيث التطبيق . ويتشابه مع ذلك تماما ، التصنيف الذي اتبعه المؤرخ شمس الدين الدمشقي ، عندما يؤكد لنا أن الكلدانيين ، والقاصديين Casadees ، والجرامهة Djerámihah ، والجنبان Ganban ، وكذلك الكنعانيون كانوا جميعا سبئيين ، ويردف هذا المؤرخ قائلا : ذلك يعني أن كل هؤلاء كانوا يعبدون النجوم . زد على ذلك أن مصطلح " سبئي " Saba' , Sabaean ينطوي أصله على دلالة محلية مجددة إذ لم يكن يدخل ضمنه الكلدانيون أو الكنعانيون ، الذين دخلوا ضمنه بعد ذلك بحكم استعماله استعمالا عاما في فترة لاحقة .

وبوسعنا أن نضيف المزيد إلى هذا الموضوع الذي استحوذ على اهتمام العديد من المستشرقين البارزين ، ولن يكلفنا ذلك مالا أو جهدا ؛ ولكن عذري الوحيد هو أن الصفحة سوف تتحول إلى فصل ، والفصل إلى مجلد . وربما يوحى ما أوردته هنا ، برغم عدم اكتماله ، بمفتاح يساعد على تذليل الصعوبات التي تلازم تحريا واستقصاء هو معقد بحد ذاته ، بل إنه يزداد تعقيدا بحكم طابع المذكرات العربية غير النقدي بشكل عجيب ؛ وأنا لن أندesh أو أتعجب إذا ثبت أن ما قدمته كان مجرد اقتراب من الحقيقة .

وأنا أود هنا أن أضيف بضع كلمات على مثال له علاقة بتلك التناقضات الفنية التي تحدث في أغلب الأحيان ، ويترتب على حدوثها أخطاء غريبة وكثير من التطبيقات الضارة . والجمهور الأوربي غارق في طوفان حكايات العادات العربية ، والتقاليد العربية ، والصفات العربية ، والمنازل العربية ، والملابس العربية ، والنساء العربيات ، والمحاربين العرب ، وأشياء أخرى كثيرة ، والجزء الأكبر من مادة هذه الحكايات مأخوذ من سوريا ، ومن بلاد الرافدين ، ومن مصر ، ومن العراق ، وربما من تونس ، والجزائر والمغرب ؛ أو في أفضل الأحيان من جدة على شاطئ البحر الأحمر .

وفى بعض الأحيان ، نجد أن الروح الرومانسية تقدم بعض المشاهد بين بدو بالميرا Palmyra المولدين ، على اعتبار أن تلك المشاهد عبارة عن صور من الحياة العربية ؛ وفى بعض الأحيان الأخرى تدعونا هذه الحكايات إلى دراسة المجتمع العربى من خلال ديوان فى القاهرة أو حلب . والحكايات التى من هذا القبيل ، مهما كانت دقيقة ، فيما يتعلق بالأمكن والأعراق التى تتحدث عنها ، لا يمكن أن تنطبق على لقب العرب المحدد تحديدا صحيحا وكذلك العادات العربية المحددة أيضا تحديدا صحيحا . والمسألة تبدو لى كما لو كنا نورد وصف ساكن الغابات النائية فى أوهايو لنقول إنه صورة أمينة لفلاح من يوركشير Yorkshire ، أو نقول عن عادات وتقاليد كونوت Connaught إنها صورة عامة للحياة والسلوك فى نورفولك Norfolk والمعروف أن مصر، وبالميرا، وبغداد ، والموصل والجزائر إلى حد ما ، ليست هى الجزيرة العربية . والسكان الذين أشرنا إليهم هم خليط من الأكراد والتركمان ، والسوريين والفينيقيين ، والأرمينيين ، والبربر ، والإغريق ، والأتراك ، والأقباط ، والألبان ، والكلدانيين ، ناهيك عن بقايا الأعراق القديمة ، مع قليل ، بل وقليل جداً من الدم العربى ، بنسبة واحد إلى عشرين ، فى أفضل الأحوال ، بل إن هذه النسبة القليلة من الدم العربى قد خُفَّت بفعل التأثيرات المحلية والإقليمية . وكون هذه البلاد كلها تقريبا تتكلم اللغة العربية لا يعطيها الحق فى أن تدرج نفسها ضمن العرب ؛ شأنها فى ذلك ، شأن من يتكلم انجليزية سيئة ويزعم أنه من مواطنى كونوت Connaught أو تكساس . ويجب أن أضيف إلى الشكل العام للبدوى ، إنه إن قدر له أن تُصَوَّر . وهذا يندر أن يحدث - على أنه من بدو الجزيرة العربية الحقيقيين ، فلن يكون من العدل أن نقدمه (البدوى) على أنه مثال للحياة العربية والمجتمع العربى ؛ وبذلك نكون كمن ينشر رواية " بيكويك " أو " نيكولاس نيكلبى " ونضع على الغلاف اسم " مشاهد فى الحياة الراقية " أو " حكايات آل - هوارد " . والواقع أن أولئك البدو التعساء الذين يجرى الحديث عنهم كثيرا فى الصحراء السورية التى ، يطلق عليها من باب الخطأ أيضا ، اسم الصحراء العربية ، ليسوا سوى سكان مولدين ، هم سكان خلاسيين عن طريق التهجين بين القبائل التركمانية والقبائل الكردية ، وليس فيهم سوى القليل جداً من الدم العربى ، بل إن هذا الدم العربى ليس من النوع الممتاز ، والحال هنا يشبه كأسا من نبيذ البورد الفرنسية ، تم سكبها على كأس من الماء . وخلاصة القول ، إنه لا يوجد عرب خلص بين هذه الأعراق ، سواء أكانوا بدو أم حضرا . والمعروف أن الجزيرة العربية والعرب يبدأون

من جنوبي سوريا وفلسطين، ومن غربي البصرة والزبير، ومن شرق كيرك والبحر الأحمر . وإذا رسمت خطاً يمتد من قمة البحر الأحمر إلى قمة الخليج الفارسي ، فإن كل الذي سيكون أسفل ذلك الخط هو العربي فقط : بل إن حتى طريق الحج لا يدخل ضمن هذه المنطقة أيضاً ، لأن نصف هذا الطريق تركي ؛ ولا تدخل المدينة (المنورة) ضمن هذه المنطقة أيضاً ، لأنها مركز حضري ؛ ولا يدخل الساحل الشرقي لليمن ضمن هذه المنطقة أيضاً لأنه هندي - حبشي ؛ بل ومكة أيضاً لا تدخل ضمن هذه المنطقة ، والمعروف أن مكة هي الملتقى العام لأتباع محمد من جميع الأنواع ، ومن جميع الأمم ، والبلدان ، وأن كل أثر من آثار الشخصية العربية - قد انمحى من هذه المدينة بفعل فسوق وفساد الأجيال المشوشة ولا بد هنا من وضع مسقط والقطيف مع المخا وعدن ضمن قائمة الاستثناءات .

ولكن هيا بنا نعود إلى الأحساء ، التي سَحَبْنَا الأنباط منها إلى طريق طويل وغير مباشر . وشكل الشعر المعتاد في الأحساء هو الذي دفعنا إلى تتبع أثر هؤلاء الأنباط . وبينما كنت في الهفوف ، استمعت إلى كثير من القصائد النبطية ، وقليل من الشعر العربي العمودي ، الذي لا يزال مؤلفوه على قيد الحياة ، والواقع أن هذه القصائد والأشعار كانت على درجه كبيرة من الأصالة والجودة . فقد استمعت إلى قصيدة يرثي صاحبها فيها قرية عين نجم والدمار الذي حل بها ، واستمعت إلى قصيدة عن الحملة التي قامت على البحرين ، واستمعت إلى قصيدة ثالثة من الشعر القطري ، الذي يعرفه الباحثون العرب ، وقد شددت تلك القصيدة انتباهي باعتبارها من المؤلفات التي لها قيمه حقيقية ؛ كما استمعت أيضاً إلى قصائد وأغاني عن الحب ، وهذه بدورها كانت كثيرة جداً وجميلة جداً . وقد دونت أنا وبركات سبعاً أو ثمانية من هذه الأغاني ؛ ولكن يا أسفاه ! فقد ابتعلت مياه المحيط الهندي ، بعد ذلك بثلاثة أشهر ، كل كنوزي ولم تترك لي شيئاً . وقد ظهر لي أن مستوى الشعر في الأحساء أعلى بشكل قاطع ، عنه في نجد . وعلى الجانب الآخر ، فإن لغة التخاطب العادية في الأحساء ، هي دون اللغة السائدة في الأراضي العليا الداخلية من حيث الغزارة ، والنقاء والمرونة . واللهجة السائدة على هذا الساحل الشرقي لا هي باللهجة الاسماعيلية السائدة في نجد أو اللهجة القحطانية السائدة في عُمان ، وإنما هي خليط من اللهجتين ، الأمر الذي يضر بهذه وبذلك ؛ زد على ذلك أن الأذن المدربة تستطيع أن تميز في هذه اللهجة شيئاً طفيفاً من الامتزاج الفارسي ، ذلك العنصر الفاحش من عناصر الكلام في الأفواه العربية ،

والذى يتجلى بشكل واضح فى كل من القطيف والبحرين . وعلى كل حال ، فإن انحطاط لغة الاحساء يعوضه تفوقها من ناحية الفكر ؛ كما تفوق أهل الهفوف على أهل الرياض وأهل حائل فى ذلك الذى يمكن أن نسميه الحديث المنطقى وكذلك التفكير المرتب . وإذا كان اتصال أهل الأحساء بالأجانب ، قد تلف قدرتهم النحوية ، إلا أنه ارتقى بفكرهم ؛ وربما كانت دقتهم هذه شىء فطرى وراثى فيهم ، برغم أن الظروف المحلية هى والظروف الأخرى قد دعمت وأيدت هذه الدقة .

والملابس والثياب التى يرتديها الناس هنا متنوعة الأشكال والألوان ، وتبعث على الملل والسأم بسبب الأعراف الرتيبة ، السائدة بين الرجال والنساء على حد سواء ، فى المنطقة من الجوف إلى اليمامة . ففي الهفوف ، والقرى المحيطة بها ، نجد أن السكان يستبدلون ، فى أغلب الأحيان القميص الأبيض الواسع ، أو أن شئت فقل السَّمَق^(١) بالصُدْرَه العمانية المجسمة ، المصبوغة باللون البرتقالى الأصفر ، والمطرزة بالحريز ، وهذه الصُدْرَه تعيد إلى أذهاننا الآنغى Anghee أو إن شئت فقل الآنغوركا Anghurka التى يشيع ارتدؤها بين الناس فى غربى الهند ؛ كما يلبس الناس بدلا من القفائية ، عمامة ، تكون كبيرة وبيضاء حيناً ، وملونة وضيقة الثنيات حيناً آخر ؛ ومبلغ علمى ، أن المشلح الأحمر الخفيف يقتصر على الساحل الشرقى ، ولذلك فهو يختلف عن المشلح العربى الأسود ، فى حين يستعمل الناس هنا النعال البحرينية أو العمانية الانيقة حمراء اللون بدلا من النعال النجدية الرديئة والتى تجمع بين اللونين البنى والأصفر . كما نشاهد هنا بين الحين والآخر ، الخناجر المعقوفة ، ذات المقابض الفضية وهى تتدلى من أحزمة الناس ؛ ويشيع استعمال هذا النوع من الخناجر كلما اقتربنا من الحدود العمانية . وقد استحوذ ذلك على إعجابنا ، نظرا لأن ذلك يعطى شكلا واحدا وموحدا ، برغم أنه بسيط وبدائى .

وقبل إخضاع الأحساء للحكم الوهابى ، كان التزين والاستعراض هو الأساس فى هذه المنطقة ، بل إن الحريز ، إلى الآن ، هو والمطرزات ، يظهر فى كثير من الأحيان ، وذلك على العكس من تعاليم الإسلام . وخلال فترة الإصلاح العظيم الذى حدث فى الرياض فى العام ١٨٥٦ الميلادى ، قامت مجموعة من الوعاظ المتشددىين بزيارة الهفوف ، وردوا احتمال انتشار الكوليرا إلى تجاوزات السكان ومخالفاتهم

(١) السَّمَق : ثوب خارجى فضفاض يُرتدى لوقاية الملابس من الاتساخ - (المترجم) .

وعصيانهم ، وراحوا يلقون خطبهم ويركزونها على الملابس والثياب المرحية ، وعلى غرور الدنيا . وعندما وجد هؤلاء الوعاظ أن هؤلاء الخطائين لم يستجيبوا لهم ، امتدت الأيدي لتحقيق ذلك الذى عجزت عنه الأفواه والألسن . وفى الوقت الذى تردد فيه فقه الأحساء ومجرميها فى تمزيق أشيائهم التافهة الرخيصة الآثمة والتخلص منها ، ساعدهم على ذلك النجديون المتدينون ، وهذا نقلا عن ما أكدته لى أحد شهود العيان ، على فعل ذلك ، إلى أن غطت أشلاء الحرير الممزق والمطرزات أرضيات الشوارع . وجرى ، فى الوقت نفسه أيضا ، شن حملة ضارية على الدخان ، الذى بدأ يقتصر ، منذ ذلك الحين ، على دوائر الحياة الخاصة .

وفى الوقت نفسه ، جرى إلى حد ما ، القضاء على عمل آثم آخر ، كان شائعا بين طبقات المجتمع الراقية ، ومع ذلك لم يتم القضاء عليه قضاء مبرما . فقد كان من عادة التجار والحرفيين فى كل من الهفوف والمبرز - اعتقادا منهم أنهم ليسوا حيوانات أو آلات ، وبالتالي يستطيعون أن يتمتعوا بأشياء أكثر تنوعا من تلك التى أقرها النبى لأتباعه - من قديم الأزل أن يقيموا حفلات للسمر ، وبخاصة خلال أيام العطلة التى لا يمارسون خلالها أعمالهم . كانت فترات الاسترخاء الاجتماعى هذه تستمر ، فى أغلب الأحيان ، أسبوعا أو أسبوعين فى المرة الواحدة ، وكانت تقتصر على فصل الربيع فقط . وفى شمال شرقى الأحساء كانت هناك سلسلة جبال طويلة منعزلة ، مكونة من الكتبان الرملية وصخور البازلت ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى أربعمئة قدم ؛ كما كانت تتخلل هذه الصخور كهوف طبيعية كبيرة ، كانوا يطلقون عليها اسم " المغور " أو إن شئت فقل " الكهوف " ، إلى حد أن الجبل نفسه كان يسمى بهذا الاسم . والهواء ، داخل هذا المغور ، بارداً ، فى أحرّ شهور السنة ؛ كما أن الماء العذب ينساب ، بكميات وفيرة عند سفح هذا الجبل . ومن ثم ، فإن تجار الأحساء ورجال الأعمال فيها كانوا يذهبون إلى تلك الأماكن ، كلما أرهقتهم حساباتهم ودفاترهم ، ويقضون فيها مع بعضهم أياما قلائل ، يتجاذبون خلالها الأحاديث الودية ، على الموائد الحافلة ، وعلى أنغام الموسيقى ، والرقص ، وما إلى ذلك من المتع التى تبيحها العقول المفكرة لأصحابها عندما ترهقهم أعمالهم الشاقة التى تتطلب الجلوس فترات طويلة . وهنا يتضح ، أن ما سبق أن قلته يصلح أن يكون دليلا وبرهانا ، أن هذه المتع تتعارض تماما مع روح الإسلام النقى الصحيح ؛ ومن ثم فإن النجديين كانوا ينظرون إلى حفلات السمر التى كانت تقام فى جبل المغور نظرة تخوف لا تقل عن تلك الإثارة التى

تحدث فى جلاسجو نتيجة لما يسمعه اللاهى أو السامر فى الشوارع العامة ليلة الأحد .
وهنا أصدر فيصل أوامره بالقضاء تماما على تلك الأشياء البغيضة ؛ وألقى القبض
على بعض هؤلاء المجرمين ، وفرضت الغرامات على البعض الآخر ؛ ولكن بقايا هذه
المخالفات ، لأنها ما تزال مستمرة إلى الآن ، تدور فى الخفاء ، أو بالأحرى لا يقبل
عليها سوى القلة القليلة ، ولكن فى ظل احتياطات مشددة . وسوف يهيب لنا مقامنا فى
الهفوف رؤية مناسبة من تلك المناسبات .

كان هناك تطلع إلى أن تنتصر الفضيلة بفضل هذه القوانين والقواعد المنظمة .
ولكن تأسيسا على ما سمعته عن الفضائح الخاصة والأعمال الداخلية المشينة ، لا يبدو
أن هؤلاء " القديسين " قد حققوا هدفهم على نحو أفضل مما فعله إخوانهم الذين
سبقوهم فى عهد كالفن فى جنيف ، أو فى عهد ريمب Rump فى لندن . هذا هو القانون
العام ؛ ولكن الاستفادة من الخبرة والتجربة ينذر أن يكون من نصيب الحكومات أكثر
منها الأفراد .

سبق أن قلت إننا كنا نحاول جاهدين فى الأحساء أن نلاحظ ونراقب دون أن
يلاحظنا أحد أو يراقبنا ، وأن لا نُضَيِّع وقتنا فى الأحداث والنواب ، وهذا لا يعنى أننا
ذهبنا إلى الاتجاه المعاكس ورحنا نعيش حياة تقاعد تام خالية من الأحداث . وقد
حاول أبو عيسى منذ البداية أن يجعلنا على اتصال بأفضل عائلات المدينة وأكثرها
تقدما ، زد على ذلك أن مهنتى الطبية لم تحظ ، فى أى مكان آخر ، بمثل ما حظيت به
من انتشار ، وممارسة ، أو نجاح فى منطقة الهفوف ، وكانت تنهال علينا كل يوم
دعوات لتناول الغداء أو العشاء ، وجلسنا على موائد كانت تحفل بالأسماء - ولم نعد
نتناول الجمبرى المملح ، التى كانت توحى لنا أننا أصبحنا على مقربة من الساحل ؛
وقد أوحى لنا الشعيرية ، هى وأنواع الحلويات والمعجنات الأخرى ، بتأثير الفن
الفارسى على المطبخ فى الهفوف. زد على ذلك ، أن التدخين كان شائعا داخل المنازل ؛
ولكن النرجيلة كانت تحل هنا محل الغلايين العربية القصيرة ؛ كما يشيع أيضا
استعمال الطبيب هنا على نحو لا يقل عن استعماله فى نجد . ويجب أن أنوه هنا إلى
أن الأثاث المنزلى أكثر تنوعاً ورقياً من ذلك الأثاث الذى يزين منازل سدير والعارض ؛
إذ توجد هنا المقاعد المستديرة ، وموائد الطعام المنخفضة ، صوانات الأكواب ،
والأرفف ، وبدائل الأسرة ، التى تشبه إلى حد كبير تجهيزات منزل هندى فى بارودا
أو فى جامباى Gambay . ويشيع فى الأحساء أيضا حفر الأخشاب ؛ الذى يشيع

استعماله فى أبواب المنازل وإطارات النوافذ ؛ أخيرا ، فإن الأشكال الزينية التى ترسم على الجدران ، والتى لا ترقى إلى مستوى الصور الجدارية الجصية ، عند كل من جيوتو Giotto أو جيرلانداجو Ghirlandajo ، تضيف على الغرف مزيدا من البهجة ، وأنا أستمح القارئ أن يأذن لى باستعمال التعبير ، الذى يقول إن هذه الصور تضيف على الغرف مساحة مسيحية أكثر من تلك الطبقة الجصية التى تجمع بين اللونين البنى الكالج والأبيض ، والتى تزين بها جدران الغرف فى كل من العارض والقصيم . وقبل كل شئ ، وبغض النظر عن التذوق الفنى بشكل أو بآخر ، ما هى منازل الرجال ، الذين يندرج السواد الأعظم منهم تحت مسمى الوحوش أو البهيميين ؟ ولكنى لن أثقل على القارئ بالمزيد من التأمل والتفكير ، خشية أن أستوقفه فى قراءة هذه الرحلة فترة أطول من تلك التى أمضيها فى القيام بها .

وعلى كل حال ؟ فإن ما يميز منازل الأحساء بصورة قاطعة عن منازل وسط الجزيرة العربية هو استخدام العقود ، التى لا يمكن أن يتحقق البناء أو الإنشاء بدونها . والعقد الحساوى سواء أكان كبيرا أم صغيرا ، مقتصر على نافذة ، أو يشمل المسكن بأكمله ، لا يمكن أن يكون قوسا من دائرة واحدة بأى حال من الأحوال ، وإنما هو قوس من دائرتين ؛ وهذا العقد وَسَطُ بين العقد التيودورى القوطى Tudar Gothic والعقد البلانطاجينى^(١) . وأنا لم أشاهد هنا منحنى حدوة الحصان الذى يطلقون عليه اسم العمارة المغربية Moresco ؛ والعقد الحساوى عبارة عن عقد بسيط وعريض ولكنه مدبب ، داخله عبارة عن مثلث متساوى الأضلاع ، وأحيانا مثلث منفرج الزاوية ، ولكن يستحيل أن يكون مثلثا حاد الزوايا . ويصاحب استعمال هذا العقد مزايا أخرى كثيرة؛ أولها أن المنزل بكامله يصبح أكثر انتظاما ، وتصبح غرفه أكثر اتساعا ، ويصبح ترتيبه العام أكثر تناسقا ، ويتدفق عليه الضوء والهواء بكميات كبيرة وبطريقة سهلة ؛ فى حين يتسم السقف بشئ من الخفة والزبركية التى تسر أعين رجل وصل لتوه من الرياض ، بدلا من أن يكون مجرد كتلة ثقيلة من الخشب محملة من منتصفها على أعمدة تشوه المنظر .

تحت أسقف هذه المنازل ، وبالقرب من النار المشبوبة ، وأثناء دوران فناجيل القهوة ، وإلقاء الشعر ، وسرد الحكايات عن هذه البلاد ، والذى كانت تتخلله الفكات

(١) نسبة إلى الأسرة المالكة التى حكمت إنجلترا من عام ١١٥٤ - ١٤٥٨ - (المترجم) .

التي كانت تضحكنا من الأعماق من حين لآخر، كانت تمضي بنا ساعات الليل سراعا ، وتتهيا لنا فرصة الوقوف على ذلك الذي نسميه ، في بعض الأحيان " الوجه الآخر من الميدالية، وذلك أيضا الذي أتفق مع العرب فيه، ويطلقون عليه "ما تحت البساط "، هنا ، في الهفوف ، يكيل الناس لفيصل عشر لعنات مقابل كل ثناء واحد عليه ؛ وفي مقابل كل تمن طيب " للمسلمين " هناك ، تجد في مقابله هنا لعنات مريرة . وقد سمعت في الهفوف ، ولأول مرة في الجزيرة العربية ، وليست آخر مرة ، مجملا للشعور المعادي لـ محمد (ﷺ) في عبارات من قبيل : " بغضنا الله والإسلام " ، والتي معناها الحرفي " كرهنا الله والإسلام " ، وهو ما يقابل في الانجليزية العبارة التي تقول " يسقط Downwith أو العبارة التي تقول : " الموت : لـ ... Death to ؛ وكانوا يشفعون هذه العبارة بقولهم : " تفؤ على المسلمين " (الذي يعنى بالانجليزية بسيطة " ابصقوا على المسلمين ") ، كانوا يطلقون هذه العبارات ، وهم يعضون أسنانهم ، ومصحوبة بإشارات لا يقل معناها عن معاني هذه العبارات . كانت كلمة " لا اله إلا الله " لا وجود لها هنا تماما ، كما أن كلمة "الإسلام " كانت مرادفا للعيب والعار ، بل إنها كانت تثير الرعب والفرع Horresco refers ، وغالبا ما كان الناس يشفعونها هنا بذلك الخير البذيء " الكلاب" (١). وكان الناس هنا يكيلون الثناء والمديح للنظام الجيد والرفاه السائد في كل من بومباي وكراشي ، هاتان المدينتان اللتان زارهما كثير من أهل الاحساء ؛ وكانوا يشفعون هذا الثناء بمقارنات أبعد من أن تكون في صالح الحكم الوهابي أو الحكم التركي . زد على ذلك ، أن الزيارات التي كان أهل هذه المنطقة يقومون بها إلى كل من البصرة وبغداد قد مكنت الكثيرين منهم من التعرف على الإدارة العثمانية ، وأن يقيموها تقييما صحيحا .

وفي أحيان كثيرة ، كانت تتعقد تحت جناح الليل ، في بعض المنازل البعيدة عن الطريق العام ، أو من حول مدفأة أبي عيسى اجتماعات كثيرة كان يحضرها قدامى

(١) لقد خلط المؤلف بين علاقة الناس بالإسلام وعلاقتهم بالقادة والحكام في الرياض . نعم قد يتذمر الناس من حكاهم ، لكن هل ذلك مرده إلى الدين ؟ إن الإسلام ينبذ الظلم ، وينبذ التكبر والقهر على الناس والإسلام جاء ليخلص الناس من كل أنواع الشرك والقهر ويقر بالحرية والعدل والمساواة ، وإذا كان المؤلف قد سمع في حينه وفي أحد المجالس هذا السب واللعن للإسلام فالحال بين أمرين إما أنه خلط بين تذمر الناس من حكام الرياض وإما أن هؤلاء فسقة وفجرة وأهل نفاق وشرك لا يريدون الانصياع لهذا الدين وتعاليمه لأنه يكبح جماح شهواتهم وينقى المجتمع من رذائلهم وهم أصحاب فطر فاسدة يكرهون الحق والخير - (د. حلمي عبد المنعم)

الرؤساء هم وأتباعهم . وقد حضرت اثنين من هذه الاجتماعات بوصفى ضيفا عابرا ، ومن هذه الاجتماعات استطعت أن أقف على مدى تشعب التآمر على الوهابية ، أو إن شئت فقل التحالف ضد الوهابية . والقوة الرئيسية في هذا التآمر ، تتمثل في كل من الأحساء وعمان ؛ زد على ذلك ، أن طلال بن الرشيد ، وكل المتعاطفين معه في كل أنحاء جبل شومر على استعداد لتقديم العون من الناحية الشمالية ، وهناك أيضا أنصار عديدون أيضا لذلك التآمر في كل من الحريق وسدير ؛ وثلاثة أرباع سكان القصيم يرحبون بهذا المشروع . والبدو يشاركون أيضا في هذه الحركة وبلا استثناء .

ومن السهل على الشعراء الذين أمكنهم ، عن طريق الدراسة والملاحظة ، الوقوف على مدى وعمق الشعور القبلي والوراثي بين أفراد العرق العربي أن يفهموا ، في سهولة ويسر ، الأسباب التي تجعل هذه الحكومة - التي جردت أكبر أعيان الجزيرة العربية من ممتلكاتهم ، وطردتهم أو قتلتهم في كل مكان - وهذا مجرد سبب واحد ، ناهيك عن الأسباب الأخرى التي سيكشف عنها هذا الكتاب - محطا لحقد وكراهية لا نظير لهما ، وهدفا للانتقام أولئك الذين يطغى ويتجبر عليهم : والعربي لا يعفو حتى إلى الجيل العشرين أو ما بعد ذلك ، عن تلك المظالم التي حاقت بأسلافه . زد على ذلك ، الكراهية القومية والتراثية Hereditary ، تلك الخاصة Crasis من خصائص الدم إن جاز لي أن أستعمل هذا التعبير - وهذه مسألة فسيولوجية بحق وليست لمجرد التوكيد ؛ يضاف إلى ذلك ، الضغط الناشئ عن الإخضاع الفعلي والحكم السيئ الواضح في معظم الأحيان ؛ وأخيرا يجيء العداء الفطري العربي لكل ما هو متشدد ، وكل ما يعبر عنه بالصيغ والتراكيب الحرفية، والقارئ ربما يندهش ، لا من مدى رد الفعل الوهابي ، وإنما لأن رد الفعل هذا لا يكون على نطاق واسع ؛ ولا من حدة هذا الرد ، وإنما لأنه لا يمكن أن تمر عليه ساعة واحدة حتى يبدأ عمله من جديد . والبدو شأنهم شأن الحضر ، فيهم أيضا الكثير من الدم الذي يحضهم على الانتقام من ناحية والتأكيد على حقوقهم الكبيرة من الناحية الأخرى ؛ وإذا كان حب الحرية هو الذي يبث الحياة في سكان الأحساء والقصيم الأكثر ذكاء ، فإن حرية العمل والتصرف تتقد داخل كل من العجمان وبنو خالد . ومن ثم إذا ما حدث شيء من التمرد أو العصيان فإن العجمان وبنو خالد سيكونون سببه الرئيسي . وبرغم أن التمرد أمر مؤكد ، إلا أنه ليس أنحاء قيمه ، وذلك للأسباب التي سبق ذكرها ، وبخاصة تلك الأسباب التي أوردتها في الفصل الخامس . والإكراه والتهديد والوعيد هم الذين يحققون مثل هذا

التمرد ، ويكفى أن يقوم البدو بذلك ؛ فأنا لم أسمع قط مثل ذلك السب واللعن الذى كالوه لكل من فيصل وحكومته .

وإن جاز لى أن أعكس العبارة التى استعملها الكلبى فأنا أقول : إن الرجال جاهزون ولكن الساعة لم تحن بعد ، ويرغم كل أسباب هذا الاستياء وعناصره فإن الخوف الحقيقى من القوة المتمركزة فى نجد ، وبخاصة عندما تكون بين يدى عبد الله بن سعود المخيف ، الذى يجرى الهجوم عليه مرارا ، والذى يداوم الهجوم بصورة مستمرة ، والذى ينتصر دوما ، سواء أكان قاتلا أم مقتولا ، هذا الخوف الحقيقى هو الذى يقيد ذلك التمرد المنتظر ويكبح جماحه ، ولا تزال الجماعة الرجعية تنتظر فى صمت اللحظة التى يدب خلالها الوهن فى الداخل أو عندما يجيئ عدو قوى من الخارج ، ويستحوذ على انتباه الطاغية الحاسد ، وبالتالي يخفف من وطأة سلاحه . ولقد سبق أن قلت ، وأنا أقولها هنا مرة ثانية ، إن العرب ، أولا وقبل كل شئ ، عرق حصيف وحكيم ، وتنفيذ عمل من هذا القبيل لا يحتاج إلى كثير من هذه الحصافة وتلك الحكمة . زد على ذلك ، أن جواسيس فيصل ، الذين ينتشرون فى كل أنحاء الجزيرة العربية من الجوف إلى مسقط ، لا يسهون عن مراقبة أية حركة وأى عرض والتبليغ عنه . وبالتالي ليس أمام أحياء الحرية من شئ سوى الأمل ، والكراهية والخضوع .

كان قد مضى علينا فى مدينة الهفوف ، أسبوع ، عندما دخل علينا أبو عيسى من الباب الجانبى ، حيث كنت أجلس مع بركات ، نتمتع بلحظة من لحظات الهدوء ، ونحن ندون بعضا من الشعر "النبطى" ، ثم قفل أبو عيسى الباب خلفه ، وأبلغنا أبو عيسى ، ونبرات صوته وقسمات وجهه ، تعبر عن قلق بالغ ، أن اثنين من الأتباع النجديين فى حى الكوت ، قد دخلا القهوة ، منذرين بأنهما جاءا لتوقيع الكشف الطبى عليهما ، ولكنه قال ، إنهما جاءا أصلا بهدف التحقق من شخصية الغرباء . وهنا ارتدينا مشالحننا - إجراء مبدئى من إجراءات اللياقة يشبه غسيل الوجه والأيدى فى أوروبا - ومثلنا أمام الباحثين عنا ونحن تبدو علينا البراءة والجدية العلمية ، ودار بيننا وبينهم حديث ؛ وتناول حديثنا الذى تكلمنا خلاله ، من واقع علمنا عن البشرية الصفراوية والبشرة الحمراء القانية ، وتكلمنا أيضا عن عروق الرأس ، وعن العقاقير الهندية ، وكنا نستشهد بالقرآن ، ونطلق العبارات التى تنم عن الولاء ل - فيصل ، إلى حد أن أبا عيسى نفسه كاد يطير فرحا ؛ وبعد أن تلقى الجاسوسان شيئا من الوصفات الطبية

المكونة من أقراص الخبز والماء المعطر ، غادرا وهما لا يقلان عقلا عما كانا عليه . وراح أصدقائنا ، وهم كثيرون الآن ، يتفكرون فيمن نكون ، وذلك من منطلق مظهرنا ، من ناحية ومن منطلق شخصية مضيفنا المعروفة ، من الناحية الأخرى (والذي ينطلق عليه مقولة هوميروس الشهيرة : "إن الرب دائماً يوجه المثل إلى المثل"*) وراحوا يفعلون كل ما فى وسعهم كى يذروا التراب فى أعين الوهابيين ، وسارت الأمور سيرا طبيعيا هينا . ومن نعم الطب ! أنه لا توجد مهنة أخرى غيرها تشيع الثقة والصدقة فى كل مكان .

وثمة عادة غير معروفة فى شومر أو نجد ، ولكنها تشيع فى أجزاء أخرى كثيرة من الشرق ، هى تحديد أيام بعينها من أيام الأسبوع لإقامة أسواق شعبية فى هذا المكان أو ذاك ، والتي تقصدها السكان أو بالأحرى القرويون ، من جميع المناطق المجاورة لكى يبيعوا ويشتروا ، كما تقام فيها المزادات العامة ، والألعاب الرياضية ، وإلقاء الشعر ، والسباق ، وما إلى ذلك من طيش البشر . وهذا عمل جيد بشكل عام ، وهذا ليس بالشئ الغريب على أوربا . وهذه الأسواق ، كانت تقام فى الجزيرة العربية منذ زمن بعيد جدا ، وكانت تستمر أسبوعين ؛ ويشهد على ذلك سوق عكاظ ، الذى يقال عنه إنه شهد إلقاء المعلقات السبع أول مرة ؛ وكان هناك أيضا سوق صنعاء فى اليمن ، وأسواق أخرى ورد ذكرها عند المؤرخين القدماء .

هذا الاقتناء نفسه موجود منذ الأزل فى منطقة الاحساء ؛ إذ نجد أن سوق الهفوف الأسبوعى يقام يوم الثلاثاء ، من كل أسبوع ، أما سوق المبرز تلك القرية الكبيرة التى تقع إلى الشمال من الهفوف ، فيقام يوم الاثنين . وقد حرص أبو عيسى الذى كان يود أن يعطينا فكرة جيدة عن بلده الثانى Adopted ، ومن ثم راح يتحين الفرص كى يطلعنا على الجزء الأكبر منه وأحسن ما فيه على أن يجعلنا نتعرف كل أنحاء السوق . وقد ذهبنا إلى ذلك السوق ، وأمضينا فيه عدة ساعات بين الكبائن التى كان الناس يقيمونها فى مثل هذه المناسبات ، وكنا نتناقش مع الحضر ومع القرويين ، وسط مشاهد حية تضارع مشهد إبسوم فى اليوم الذى يقام فيه سوق ديربى Derby ، أو مشهد فرانكفورت أثناء انعقاد " المسوش " Messwoche . كان مكان السوق على

(*) ترجم هذه المقولة الشهيرة من مقولات هوميروس الأستاذ ديمترى من سفارة اليونان بالقاهرة - (المترجم) .

الأرض الواسعة الموجودة خلف البوابة الشمالية ؛ وإلى الخلف مباشرة من أسوار الكوت . كان الباعة معظمهم ، إن لم يكن كلهم ، من القرويين ، الذين أحضروا معهم بضائع تغرى الناس بشرائها لرخص ثمنها بدلا من أناقتها ؛ فيها هى نعال ثقيلة ، وهذه مشالح مخاطة بطريقة بدائية ، وتلك بنادق عتيقة وخناجر عتيقة أيضا ، وهذه أواني مستعملة مصنوعة من النحاس الأصفر، هذا إلى جانب الجمال والإبل، والذلول ، والحمير، وقليل من الخيول . وهاهم، أناس آخرون ، يمتهنون البيع عن طريق التجوال ، ولا يغيبون مطلقا عن التجمعات التى من هذا القبيل ، وهذه أساور مصنوعة من الزجاج معروضة فى الكبائن ، وتلك خلاخيل للأذرع ، وهذه خلاخيل للأرجل ، وهذه أختام من النحاس ، وتلك عقود من الخرز مخصصة لأعناق البنات (ويؤسفنى أن أقرن الاسم التالى بأسماء البنات) والحمير ، ونرى بين الحين والآخر بعض كؤوس الشراب الأوربية ، جرى استيرادها عن طريق الكويت أو البصرة ، وتلك مرايا ، ربما وفرت انعكاساتها المشتتة ، على النسوة الجميلات ، مشقة قلب شفاهن تعبيرا عن الاحتقار والازدراء . كانت هذه الكبائن مرتبة ترتيبا نمطيا على وجه التقريب ، وكانت منظمه على شكل شوارع وساحات ؛ ففي الساحات كانت توجد أكوام كبيرة من الخضراوات والتمور ، على شكل أكوام أمام الباعة والبائعات ، وهذه أكياس من الجريش وتلك أكياس من الدقيق ، وهذه أكوام من فحم الخشب ، وتلك أكوام من الحطب ، وهذه حزم من قصب السكر، من أجل الأسنان الجميلة فى الهفوف . ومن حول هذا المكان توجد ، الحمير المقيدة ، وهاهى الجمال سخيصة المنظر ترفع رؤوسها فى الهواء ، وهؤلاء ست من شباب المدينة يثيرون الغبار عن طريق الجرى بالخيول متذرعين بأنهم يجربونها استعدادا لشرائها . كانت الطرف والنكات تنبعث من هنا ومن هناك ، ونسيت الصرامة العربية نفسها وسط هذا الجمع المختلط فى العراء .

وعندما حل يوم الاثنين ذهبنا إلى سوق المبرز ، على ظهور الحمير المزودة بسروج جانبية - وأنا أجد لزاما على هنا أن أعتذر للقارئ عن هذا الظرف ، تحسبا منى أن يعتبروا ذلك اعتداء صارخا على حقهم وامتيازاتهم ؛ ولكن يجب أن يكون معلوما أن السرج الجانبى هو الذى يستعمله راكبو الحمير فى كل أنحاء الأحساء ، سواء أكانوا رجالا أم نساء . وبعد أن ركبنا الحمير على هذا النحو ، اتجهنا صوب القرية ، التى يطلق عليها ما لا يقل عن عشرين ألف من السكان اسم المدينة . ولكن هذه القرية بلا أسوار ، كما أن قلعة هذه القرية مبنية على ربوة عالية تقع على بعد مسافة قصيرة

ناحية الغرب . وقد أعجبت بموقع هذه القلعة ، والمجهزة على نحو يمكن من اكتشاف رصد العدو القادم من أى اتجاه من السهل المستوى الذى يحيط بها ، أو لقمع أهل القرية نفسها فى حالة الهياج ؛ ومزاغل القلعة فى متناول طلقات البنادق التى تنطلق من المنازل الموجودة أسفل القلعة . ومبنى القلعة مربع الشكل ، وهو يشبه كوت الهفوف من جميع الجوانب ، فيما عدا الحجم والمساحة ، التى لا تزيد على ربع أو خمس مساحة القلعة الموجودة فى العاصمة .

كان السوق يقام بالقرب من تلك القلعة ؛ والتشابه الذى بين هذه القلعة وقلعة الهفوف يجعل وصفها أمرا لا لزوم له . والشئ المهم والرئيسى فى مدينة المبرز هو ذلك المسجد الكبير الأنيق ، الذى أقامه مؤخرًا (الملك) فيصل بسبب خوفه وقلقه على الرفاه الروحى لرعاياه . وقد أنشئ هذا المسجد على حساب الملك الخاص ؛ ولكن المساهمة غير العادية التى تم تحصيلها فى العام التالى ربما تكون قد عوضت خزانة الرياض بأكثر من ذلك الإنفاق الدينى . وشكل مدينة المبرز غير عادى ، فهى تحتوى على الكثير من المنازل الأنيقة ، التى تتخللها الأكواخ البائسة ؛ وسكان المبرز يختلفون إلى حد ما ، عن سكان الهفوف ، باستثناء أن فئة ملاك الأرض أكثر من أولئك الذين يمارسون التجارة . ومن بين أفراد المجموعة التى كانت معنا ، هناك شخص يدعى عبید ، كان له قريب حضرى فى تلك المدينة ، حضر إلينا وانتهن هذه المناسبة ليدعونا إلى تناول الغداء على مائدته ، التى شاهدت عليها غسل النحل للمرة الأولى بعد غياب طويل . كان منزل مضيفنا من قبيل منازل أفراد الطبقة المتوسطة فى كل من حمص أو حماه ، وكانت غرف المنزل من النوع الصغير المفروش بالحصير ، أما نوافذه فقد كانت من النوع المنخفض ، وكان حوشه صغيرا ، كما كان به بئرا أيضا ، وكان مظهره يوحى بالعزلة والخصوصية ، برغم أنه كان فى منتصف الشارع ، مما يثير دهشة القراء الذين قدر لهم أن يدخلوا منزلا من منازل الأصدقاء (الوطنيين بطبيعة الحال) فى سوريا ، أو فى الموصل ، أو بغداد . والواقع أن منطقة الأحساء ، تقترب مما يمكن أن نسميه الحى المختلط ، برغم أن العنصر العربى هو الغالب فيها .

والمسافة التى تفصل الهفوف عن المبرز ، وتقدر بحوالى ثلاثة أميال ، عامرة بالبساتين ، والمزارع، وينابيع الماء الفاتر . وفى هذه المنطقة وعلى امتداد عدة فراسخ ، يزرع نخيل تمر " الخلاص " ، - تلك الكلمة التى تدل ترجمتها الانجليزية الدقيقة على

"الخلاصة" Quintessence - وهو نوعية تقتصر على الأحساء وحدها ؛ كما أنها فريدة في نوعها ، وثمره تمر الخلاص أصغر من ثمرة تمر القصيم ، ولونها كهرمانى ثرى ، يميل إلى الاحمرار وشبه شفافه ، ومن الصعب ، بل ومن السخف أيضا أن أحاول وصف مذاق تمر الخلاص عن طريق الكلمات ؛ وأنا أرجو القارئ الهندي أن يصدق أن مانجو " الماسيجوم " Massigaum ليست أرقى من المانجو "الجنجلى" Junglee ، على أن يصدق أن تمر الخلاص أرقى وأحلى من التمر الموجودة فى كل من الأسواق السورية والأسواق المصرية ، وخلاصة القول : إن تمر الخلاص هى أفضل أنواع التمر ، والنخلة التى تنتج هذا النوع من التمر يمكن التعرف عليها من جذعها ، الذى يعد أنحف من جذع النخلة العادية ، كما أن مجموعها الخضري أقل من مجموع النخلة العادية أيضا، أنحاء إلى أن لحاءها أنعم من لحاء النخلة العادية. وهناك نوعية أخرى ، من التمر تقتصر على هذه المنطقة أيضا هى تمر الركاب ؛ وهذه النوعية تجيئ على رأس التمر كلها فى كل المناطق الأخرى . وطوال مقامى فى الجزيرة العربية أحصيت حوالى اثنى عشر نوعا من التمر ، التى يتميز بعضها عن البعض الآخر ؛ وأنا لا أشك فى أننى لو طال مقامى فى الجزيرة العربية لتعرفت على اثنى عشر نوعا آخر . وفيما يتعلق بتمر الخلاص بصفة خاصة ، فإن زراعته تعد من أهم الأعمال الزراعية التى يمارسها سكان الأحساء ؛ ومحصول نخيل الخلاص يعد مصدرا من مصادر الثروة ؛ زد على ذلك ، أن تصدير تمر الخلاص ، الذى يمتد من الموصل فى الشمال الغربى ، إلى بومباى فى الجنوب الشرقى ، بل، حسب اعتقادى ، إلى ساحل زنجبار فى أفريقيا ، يشكل فرعا أساسيا من فروع التجارة المحلية .

هيا بنا مره أخرى إلى طريقنا : فهو عبارة عن طريق مرتفع يقع بين منطقتين من مناطق الرى العميق على الجانبين ، وتتخلله من حين لآخر برك أو مستنقعات صغيرة . وإذا كان أحد من القراء قد تجول فى المنطقة المجاورة لكل من فيلور ، وتانجور ، أو نيجابتام ، فلربما ذلك بالطرق السريعة هناك ، وبالتالي يكون فكرة معقولة عن طرق الأحساء . والعجيب أن نرى ، وسط كل هذه الخصوبة والنماء ، وعلى مقربة من المبرز ، بحيرة صغيرة ، مأوها منقوع ، أو إن شئت فقل مشبع بالملح ، لدرجة أن الملح يغطى حواف هذه البركة، أنحاء إلى أن الأرض المجاورة لهذه البركة تكاد تكون جرداء تماما . وتتناثر هنا وهناك بصورة متكررة ملاحات أخرى ؛ والغريب فى الأمر ، أن التربة التى تتخلل المسافات التى بين هذه الملاحات من النوع الخصب وخالية من الأملاح .

وعلى مسافة حوالى مائة ياردة ، إلى الخلف من المبرز ، فى الناحية الشمالية ، توجد عين جميلة ، تشكل بحيرة صغيرة عميقة ، أضفت عليها سخونتها اسم " السخنة " وماء هذه العين ليس له مذاق المياه المعدنية ، ولكن درجة حرارة هذه البحيرة الصغيرة لا تقل عن ٩٥ إلى ٩٠ درجة فهرنهايتيه . ويجيئ أهل المبرز إلى هذه البحيرة طلبا للاستحمام ؛ ولقد حذونا حذوهم ، وبعد أن أخذنا حماما جيدا عدنا لتناول الغداء فى منزل قريب عبيد ، عمه على ما أعتقد . وكان المنزل مفروشا بالسجاد .

وفى يوم آخر اقترح أبو عيسى علينا أن نقوم برحلة إلى أم سبع . قد يتخيل القارئ أننا سنقوم بزيارة لعقيلة محترمة لها أسرة كبيرة ؛ ولكن فى الأحساء أيضا ، وبرغم أن القيود المفروضة هنا على الجنس اللطيف ، أخف من تلك التى فى نجد ، فإن القيام بزيارة أية امرأة زيارة خاصة يعد أمرا غريبا . والواقع أن اسم أم سبع عبارة عن عين ساخنة كبيرة ، تنبثق من أعماق الحوض الطبيعى ، وتتفرع منها سبعة ينابيع ، هن بنات هذه الأم المثمرة ؛ وهذه الينابيع تنساب فى اتجاهات مختلفة وتنتشر الخصب والتماء على نطاق واسع . وأم سبع تبعد حوالى ثمانية أميال عن مدينة الهفوف ، ناحية الشمال . وعندما حان الموعد تجمعنا ، حوالى اثنى عشر رجلا ؛ وكان رفاقنا من بين كبار الشخصيات ، وميالىن إلى البهجة والسرور . كانت القائمة التى تضمنا على النحو التالى : بركات وأنا ومعنا خمسة رجال أجواد (وهم يستحقون هذه الصفة) من الهفوف ، ورجلين خلاسيين أو مولدين ، وعبد ، وصبيين . وبقي أبو عيسى فى الهفوف ليتولى أمورنا المنزلية ؛ كما قامت زوجته بتزويدنا بالدجاج المسلوق ، والفتائر ، والمولاس ، والقهوة وأشياء أخرى جيدة . وركبنا الحمير ، وسرنا فى طريقنا ، وحرصنا على أن لا نمر من وسط البلدة حتى لا يرانا أحد من المراقبين النجديين . وبدلا من السير فى الشوارع ، اتجهنا إلى خارج أسوار المدينة ، وسط الحقول وخزانات المياه ، وكدنا نخاطر بالوقوع من الطريق المرتفع على ظهر واحدة من الجاموس الذى كان يتمرغ فى الوحل ، ويسابق الحيوانات التى كنا نركبها ، ويثبت عن طريق التجربة الواقعية أن العرب ، فى حفلات المرح ، بوسعهم أن ينافسوا تلاميذ الغرب فيما يقومون به أثناء العطلات . وتجاوزنا المبرز ، بقلعتها وعينها ، فى جانب من الجوانب ، ثم قطعنا بعد ذلك مسافة تقدر بحوالى ثلاثة أو أربعة أميال على السهل الواسع ، الذى كانت أشجار النخيل تحيط به من الناحية اليمنى ، فى حين كانت سلسلة جبال الأحساء الجرداء الرائعة على الجانب الأيسر ، وكنا نشاهد ، بين الحين

والآخر ، على الطريق ، أبراجا للمراقبة ، وقلاعا مهجورة ، يفعل الزمان فعله فيها . ثم يبدأ الطريق يضيق بعد ذلك ، ويمر بنا بين قريتين متوسطتين ، ثم يمتد بعد ذلك إلى الأمام ، وسط المزارع وخزانات المياه ، إلى أن نصل فى النهاية ، عن طريق اندفاع المياه ، إلى مجرى مائى تكسو الحشائش ضفتيه ، أوصلنا هو بدوره أيضا إلى أم سبع .

هذه النافورة ترتفع على شكل تجويف دائرى قطره حوالى خمسين قدما ، وعميقة جدا ، وتنبتق من مركزها مياه حارة ، لا يجرؤ أحد على الغطس المفاجئ فيه دون أن يؤذى قدميه وذراعيه بسبب سخونة المياه . وحوض هذه النافورة مملوء حتى حوافه ، كما تنبتق من الفتحات السبع فى الحافة الصخرية سبعة ينابيع هى التى أعطت هذه النافورة ذلك الاسم ، وهذه الينابيع واسعة وعميقة وتكفى لإدارة الطواحين المائية لو قدر لها أن توضع فى مجراها . وبعض القنوات هنا طبيعية ، ولكن من الواضح أن إجمالى القنوات السبع هو من صنع السحر Art^(١) ؛ وأنا لا يمكن أن أقطع إن كان ذلك ، بفعل النجوم أم لا ؛ غير أن شيئا مشابها سوف تراه فيما بعد فى أحواض الساحل الفارسى ، وله ، بما لا يدع مجالا للشك ، أصل دينى أو خرافى ، يجعلنا تميل إلى حد ما ، إلى تطبيق الاقتناء نفسه على أم سبع . ومن الواضح أن الأعمال الحجرية التى تحيط بالبحيرة قديمة تماما ، ولكن هذه الأعمال لا تحمل نقوشا تاريخية ، وقد لاحظت أن هذا الشئ يكاد يكون عاما فى وسط الجزيرة العربية وشرقها . ومن حول هذه العين تنمو أشجار النخيل ، وتنتشر ظلال أشجار النبق على شواطئ هذه العين المعشوشبة ؛ والكتل النباتية الكبيرة هنا ، تحول دون رؤية المنظر البعيد ، كما تحجب الرؤية أيضا عن قرية الرُّخَّة الصغيرة ، التى تبعد مسافة ربع ميل تقريبا ناحية الشرق . والماء ينساب من أم سبع صيفا وشتاء على حد سواء ، والسماك والضفادع ، والأحياء المائية الأخرى لا يمكن أن تعيش داخل هذا الحوض الحار ، ولكن هذه الكائنات تتزايد كلما بعدنا عن العين الأم .

(١) ليس شئ من صنع السحر أو النجوم وإنما هى قدرة الخالق الذى جعل الماء يتفجر بين الصخور كما قال تعالى "وإن من الحجاره لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء" وقد حذر الإسلام من السحر وحرّم نسبة الأحداث إلى النجوم وجعل ذلك كفراً صريحاً فقال (ﷺ) "من قال مطرنا نبوء كذا فقد كفر بما أنزل على محمد" - (د. حلمى عبد المنعم) .

الشمس الآن ساطعة فى منتصف مسارها ؛ وكان النسيم عيلا ؛ وشاهدنا النافورة الأم بكل خصائصها ، وتحمنا فيها ، وسبحنا فيها ، وتصارعنا ، وشربنا القهوة ، وتحادثنا ، وتناولنا الغداء ، ودخنا ، ثم نمنا ، ثم تحمنا مرة ثانية . ومر كل شئ مرورا سلسا وجميلا ، إلى أن اكتشفنا أننا ، بحكم النسيان الذى يحدث أثناء القيام بالرحلات ، لم نحضر معنا فناجيل القهوة ، ولم نلاحظ هذا الشئ إلا عندما جهزنا القهوة وكنا قد أوشكنا على أن نشربها ، ولم يكن أمامنا بد سوى أن نشرب القهوة من دلة القهوة التى يغطيها الهباب الأسود . ومن حسن حظ أحد أفراد هذه الجماعة ، ولأنه كان أذكى من الجميع ، فقد خطر بباله أن يختبر كرم بيوت الزخة ، وركب الحمار وخاطر بالاتجاه صوب القرية ، التى عاد منها ومعه حمل حمار من فناجيل القهوة . قد يظن البعض أن هذه أمور تافهة ؛ وأنا أروى ذلك هنا من قبيل الموازنة بين الأوصاف الكثيرة المطولة والمبالغ فيها ، والتى تنطوى على كثير من الحشو ، وتعج بها حياة الشرق بصفة عامة ، والحياة العربية بصفة خاصة . وهنا يدخل وقت العصر ؛ وطبقا للعرف العام كان لابد من إقامة صلاة العصر ، التى ركبنا بعدها حميرنا وعدونا عائدين إلى منازلنا ؛ وقد انقلب البعض منا على الطريق ، ووقف بعض آخر لمساعدتهم ؛ وفى النهاية وصلنا بسلام إلى الهفوف ، متأخرين ومتعبين ، ولكن روحنا المعنوية كانت مرتفعة ، كما سعدنا أيضا بالقيام بهذه الرحلة .

وصفت بالتفصيل اثنين من عيون الأحساء الحارة ؛ وهناك ثلاثمائة عين أخرى من هذا القبيل ، فى المنطقة ، وذلك نقلا عن رواية أبى عيسى . وأنا لا أضمن دقة هذه المقولة العددية ؛ ولكنى على يقين من وجود الكثير من هذه العيون ، وخاصة أننى شاهدت منها قرابة اثنى عشرة عينا خلال مسافة قصيرة ؛ منها عين على وجه الخصوص ، تقع على مسافة ثلاثة أميال شرقى الهفوف ؛ ينبثق منها ماء أكثر من ذلك الذى ينبعث من أم سبع نفسها برغم أن درجة حرارة هذا الماء يمكن تحملها . ودرجة حرارة الماء الذى ينبعث من هذه العيون تتباين من عين لأخرى ، ولكنها لا تتوقف مطلقا ، وهذا يرجع لأسباب تتعلق بجوف الأرض ؛ ولكن الماء فى الأراضى الداخلية لا بد من الحصول عليه من الأراضى المرتفعة ، ومن الطويق على وجه الخصوص . والبحيرات والسيول التى تتكون خلال فصل الشتاء على هضاب جبل طويق ، أو التى تفيض وتملأ وديان هذا الجبل ، سرعان ما تنتشر بها التربة الرملية والرملية ، وتبدو للناس وكأنها ضاعت إلى الأبد ومعها النماء والحياة . ولكن الأمر غير ذلك ؛ لقد غاصت هذه المياه فى الداخل لتظهر على السطح من جديد ، لتغوص على الساحل ذلك الذى لم تفعله فى الداخل . إن قلة قليلة من الرحالة الذين تنقلوا داخل سوريا ، وبخاصة فى اتجاه

الشرق والجنوب اللذين سبق أن قلت عنهما فى مناسبة سابقة ، إن خصائص تربة الجزيرة العربية تكشف عن نفسها فيهما لابد وأن تكون سرعة السيول ، والمجارى المائية بل والأنهار قد استترعت انتباههما وهى تختفى تحت سطح الأرض فى التربة المتشققة فى الأرض الجرداء . ولكن قد يتبادر إلى الذهن ذلك السؤال الذى يقول : ولماذا لا تتفجر مياه الطويق مرة ثانية بالقرب من سطح الجبل ، بدلا من أن تقطع مسارا مقداره ستون أو ثمانون ميلا لتظهر من جديد فى الأحساء ؟ وأنا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال من باب التحزير الذى له أسسه وقواعده . فالرطوبة التى تنفذ خلال طبقات جبل الطويق الجيرية ، تواصل ضغطها على هذه المياه إلى أن تصل ، على حسب علمى ، إلى عمق كبير ، أثناء انحنائها ناحية الشرق ، إلى أن تصل هذه المياه إلى التركيب الساحلى حيث توجد طبقة من صخور الجرانيت التى لا تسمح بنفاذ الماء ، وهذه الطبقة نفسها ساخنة بفعل ما هو موجود أسفلها . وعند هذه الطبقة ، لا يستطيع الماء أن يصل إلى عمق أكثر مما هو عليه ، فيضطر إلى الصعود مرة ثانية ، بفعل قانون مستوى السائل ، ليتخلل الصخر المكسر الموجود أعلاه ، ويصل إلى سطح الأرض مرة ثانية حاملا معه حرارته إشارة ودليلا على رحلته الطويلة . ومما لاشك فيه ، أن القارئ يعلم ، أن الجرانيت والبازلت تشيع فى التكوينات الساحلية فى الجزيرة العربية ، فى حين أن الحجر الجيرى والطباشير ، وما إلى ذلك من المواد الأخرى هى التى تسود فى وسط الجزيرة العربية .

وقبل أن نغادر الأحساء ، أود أن أضيف بعض الملاحظات كى أكمل بها الصورة التى رسمتها لهذه المنطقة هى وسكانها ؛ ونظرا لأن الفرصة لم تنتهيا لى ، من قبل ، كى أضيف هذه الملاحظات ، فسوف أوردتها هنا ، فى هذه المرحلة من الرحلة .

قد يفرح القارئ الكريم عندما يعلم أن الحجاب والقيود الأخرى المفروضة على الجنس اللطيف من قبل التشدد الإسلامى ، ناهيك عن سوءها^(١) ، هى أقل شيوعا ومن

(١) كدأب المؤلف دائما حينما يجئ شئ من تعاليم الإسلام يكثر همزه ولمزه ، وهو هنا يلمز الحجاب للمرأة المسلمة ، ويصفه بالسوء ، وهذا لعمري مغالطة كبيرة ، لأن الحجاب صيانة وتكريم للمرأة ، وقد قال الله تعالى لنساء المؤمنات عامة "ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها" وفسر كثير من العلماء أن الاستثناء هو الوجه والكفان ، وقال تعالى "يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين" وكان تكشف المرأة يسقط من كرامتها ويجعلها عرضة للأذى ، وهذا ما يصدقه الواقع فى الغرب حينما تكشف المرأة وتعرت أصبحت سلعة رخيصة ، وفقدت كرامتها وعزتها ، وأصبحت المرأة فى الدرجة الأولى شهوة تقتنص وفريسة لكل صائد وداعر . والحمد لله على نعمة الإسلام وصيانيته للمرأة - (د. حلمى عبد المنعم) .

السهل التخلص منها في الأحساء ؛ في حين أن سيدات هذه المنطقة تتمتعن بنصيب وافر من الهبات الطبيعية التي لا يمكن أن تمنحها المركبات أو مستحضرات التجميل لأية واحدة منهن ، وأنا أعني بذلك جمال الوجه ورشاقة الشكل ، وإذا جاز لي أن أخاطر بعملية إنشاء مقياس متدرج للجمال في الجزيرة العربية ، وأنا أقول مرة ثانية ، في الجزيرة العربية وحدها ، فإنني أضع البدويات عند الرقم صفر على هذا المقياس ، أو عند النقطة أ على أكثر تقدير ؛ وفوق ذلك بدرجة واحدة أضع النساء النجديات ، وفوق نسوة نجد تجيئ نسوة جبل شومر ، وفوق نسوة شومر تجيئ نسوة الجوف ، ولكن المرتبة الخامسة أو السادسة تحتلها نساء الأحساء ؛ في حين تشغل النساء القطريات المرتبة السابعة ؛ وأخيرا ، وبعد أن ترتفع عشر درجات ، على أقل تقدير على هذا المقياس ، نجد المرتبة السابعة عشر أو الثامنة عشر يتربع عليها الجمال العماني الصارخ . وسوف نتعرف على قطر وعمان فيما بعد . والشعراء العرب يتحرقون شوقا إلى ساحرات الحجاز ؛ وأنا لم أر فيهن أي سحر على الإطلاق ، ولكني لم أتجول إلا على حدود منطقة الحجاز فقط ، وكل شيء يشهد على انعدام الجمال بين النساء في اليمن ؛ وأنا تراودني الشكوك حول ما إذا كانت النساء المولدات أو نوات البشرة السمراء في حضر موت عندهن من الجمال ما يتباهين به . ولكن الرجال القادم من نجد يستطيع أن يقف على التحسن الواضح الجلي ، في هذا الموضوع ، في منطقة الأحساء ، وسوف ينشرح صدر مثل هذا الرجال أكثر ، لأنه سوف يكتشف أن الكاليسيات^(١) هنا مختلفات ، وإن حديثهن هنا مختلف أيضا عن تلكم اللاتي خلفهن وراءه في سدير وفي العارض .

وفي منطقة يغلب الطابع التجاري عليها أكثر من الطابع الزراعي ، ربما يتوقع القارئ مني أن أورد شيئا عن المحاريث والزحافات والفئوس والمدارس البدوية . ولكن من المعروف أن نيبور العظيم ، وصف في كتابه العظيم عن الجزيرة العربية ، الأدوات المعتادة التي يستعملها الناس في فلاحه الأرض هناك ، وبذلك لم يترك لي شيئا أضيفه عن هذا الموضوع . زد على ذلك ، أنني لست بحاجة إلى وصف الفلاحين ، إذ أنه هو نفس الفلاح الموجود في كل أنحاء العالم ؛ ولست بحاجة أيضا إلى وصف منازل الفلاحين التي هي عبارة عن أكواخ مصنوعة من الطين أو جريد النخيل ؛ وهذا النوع

(١) الكاليسو : أغنية تغنى ، في ظرف خاص ، والكاتب يشير بهذه الكلمة هنا إلى السيدات - (المترجم) .

الأخير هو الأكثر شيوعاً في الأحساء . ولكنى يجب ألا أمر مر الكرام ، على الماشية المستعملة هنا وأعدادها الآخذة في التزايد ، والماشية ذات الحدبات ، والثيران البراهمانية التى يقدمها الهنود ؛ وهذه الماشية كلها تستعمل فى جر المحارث ، برغم أنها كلها قد تستبدل بالحمير فى بعض الأحيان ؛ ولكنها لا تستبدل بالخيول مطلقاً . وفيما يتعلق بالخيول ، ينبغى على أن أورد هنا ، أن السلالة الموجودة فى الأحساء ، هى من السلالة نفسها الموجودة فى جبل شومر ، أو إن شئت فقل إنها سلالة مهجنة من الخيول النجدية . والإبل ، وبخاصة الذلول موجودة بكثرة فى الأحساء وأسعارها رخيصة ؛ ولكن ذروة الذلول الممتاز تتمثل فى إبل عمان وحدها .

لم أصادف ، طوال رحلتى ، إنتاجاً حقيقياً للعملة المعدنية ، إلا فى الأحساء والناس فى الجوف وشومر يستعملون العملة التركية أو الأوربية ، وهى تكاد تكون ماثلة تماماً مع العملة المدنية المستعملة فى كل من سوريا ومصر ، والعراق ، والعملة المستعملة فى الجوف لا تعدو أن تكون واحدة من هذه العملات . أما فى نجد ، حيث توقف تداول العملات التركية ، وكذلك العملات الفرنسية والألمانية ، التى من قبيل الفرنك والفلورين ، فإن الريال الإسباني والجنيه الإنجليزي هما المفضلان بقيمتيهما النقدية . وأهل سدير ، والعارض ، واليمامة يستعملون على سبيل الفكه الصغيرة ، عملة يطلقون عليها اسم " الجديدة " ، ومما لا شك فيه أنهم يسمونها بهذا الاسم لأنها جديدة عليهم ، رغم أنها موجودة من زمن بعيد ؛ و" الجديدة " قطعة من الفضة المغشوشة ، يصل حجمها إلى حجم قطعة النقود المعدنية التى تساوى ستة بنسات ، وهى تحمل نقوشاً خافتة مميزة يتعذر حل شفراتها ، برغم أن مثل هذه النقوش لا يتبقى منها أى شئ فى معظم الأحيان ، ويبدو أن هذه القطعة المعدنية مسكوكة فى مصر فى تاريخ سابق لأسرة محمد على . وقيمة الجديدة تساوى "قرشين" سوريين ، ومن هنا فإنها تتراوح بين القطعة الانجليزية التى تساوى أربع بنسات وتلك التى تساوى أربع بنسات ونصف البنس . وأصغر العملات المعدنية فى نجد يطلق عليها اسم " خورده " ، والخورده لها عدة أشكال وهى عبارة عن قطع من النحاس الأحمر غير منتظمة الشكل ، وهى تكون مربعة حيناً ، ومستديرة حيناً آخر ، ومثلثة الشكل حيناً ثالثاً ، وهى تكون كثيرة الأضلاع فى معظم الأحيان ؛ والخورده من إنتاج دار سك النقود فى البصرة ، منذ حوالى مائتى أو ثلاثمائة عام مضت . والنقش الذى تحمله قطعة العملة المعدنية هذه ، مكتوب بالخط الكوفى ، ويدل على اسم الحاكم

المحلى ، وأحرف هذا الخط كثيرة الزوايا وغير مصقولة ، والجديدة تساوى ثلاثين "خورده" ، وبالتالي فإن قيمة الخورده الواحدة تتراوح بين ثلث وربع فارذنج^(١) ولكن "الجديدة" والخورده قطعتان من قطع العملات المعدنية الأجنبية ؛ إذ لم يحدث أن كانت للحكومة الوهابية دار لسك النقود .

ولكننا وجدنا فى الأحساء عملات محلية أصيلة ، هى "الطويلة" أو أن شئت فقل القطعة المعدنية الطويلة ، واسمها مأخوذ من شكلها . وهذه القطعة عبارة عن ساق من النحاس الأحمر تشبه المسيمير المتين ، طولها حوالى بوصة ، ومفرجة عند أحد أطرافها ، وهذه الفرجة مفتوحة إلى حد ما ؛ كى تشبه حرف الواى Y المضغوط . وتوجد بعض النقوش الكوفية على وجه واحد من وجهها ، وهذه النقوش تدل على اسم الأمير القرموطى الذى أنتجت فى عهده تلك القطعة التى تنتمى إلى علم النُميات^(٢) العربية ؛ ولا توجد أية نقوش أخرى ، غير هذا النقش ، على "الطويلة" ، فضلا عن أنها لا تحمل تاريخا أو شعارا . والقرش Gorsh يساوى ثلاثة طويلات ، وبالتالي فإن كل مسمار من النحاس الأحمر قد يساوى ما يقرب من ثلاث فارذنجات . وهذه العملة موجودة فى الأحساء ، موطنها الأصلي ؛ ومن هنا جاء المثل العربى الذى يقول : " زى طويلة الحسا " ، بمعنى " مثل طويلة الأحساء " ، والذى يضرب للشخص الذى يجعل لنفسه قيمة فى وطنه " . وقد صدرت قطعة الطويلة بشكلها الفضى والذهبى أيام عظمة القرامطة ؛ ولكن هاتين القطعتين بدأ صهرهما منذ زمن طويل . وإلى جانب الطويلة النحاسية ، التى تعد آخر معلم نقدى من معالم أيام الاستقلال ، يوجد أيضا "الثمان" الفارسى ، وهو يصنع من الذهب أو الفضة ، كما توجد أيضا الروبية الانجليزية - الهندية ، والآنه^(٣) ، والبایس^(٤) ، وكلها تقتصر على الأحساء فقط . والنقود التركية أو الفرنسية لا يجرى تداولها فى الأحساء ، كما لا يجرى أيضا تداول الخورده أو الجديدة اللتان يجرى تداولهما فى نجد . والنقود تتوفر فى منطقة الأحساء بحكم طبيعة سكانها التجارية ، وبذلك تقل قيمتها الاسمية قياسا على المنطقة الداخلية . وهنا قد يستخلص القارئ أن المقايضة أمر شائع فى كل أنحاء الجزيرة العربية وبخاصة بين القرويين ،

(١) قطعة نقد بريطانية تساوى ربع بنس - (المترجم) .

(٢) علم النُميات : علم جمع أو دراسة النقود المعدنية - (المترجم) .

(٣) وحدة النقد السابقة فى بورما والهند وباكستان وهى تساوى ١٢/١ من الروبية - (المترجم) .

(٤) البایس : عملة هندية سابقة تساوى ١/٦ من الروبية - (المترجم) .

بل وحتى بين فقراء الحضر ؛ وذلك على الرغم من أن ملاحى الأحساء قد يخفقون ، فى كثير من الأحيان ، فى حساب قيمة التمانات الفضية أو الطويلات المصنوعة من النحاس الأصفر. ومع ذلك، فإن الحساب باستعمال الوسائط الاصطناعية ، بين البدو ، بل وحتى بين القرويين فى نجد ، يتفوق تفوقا كبيرا على القدرات البشرية المعتادة .

وخلال مقامنا فى الهفوف لم يترك أبو عيسى فنا من فنون البلاغة أو الإقناع العربيين إلا ولجأ إليه كى يحتثنى على زيارة عمان ، مؤكدا لى مرارا وتكرارا أن كل ما رأيناه ، حتى فى منطقة الأحساء ، لا يعد شيئا إلى جانب ذلك الذى سنراه فى ذلك البلد البعيد . وكان رفيقى ، الذى تعب من رحلتنا الطويلة ، وراح يفكر فى المسافة الطويلة التى أصبحت تفصله عن وطنه فى سوريا ، والتى لم تعد تتحمل أن يضيف إليها مزيدا من الفراسخ، كان رفيقى هذا، غير مبال للقيام بمهمة تكميلية لهذه الرحلة . والواقع أننى ، عندما أخذ بعين اعتبارى مسألة الارتباط القوى الذى يشد سكان وسط سوريا ، وبخاصة المسيحيين منهم ، إلى أرضهم الأم ، وصعوبة إقناعهم بمغادرة ذلك الوطن ، حتى وإن كان ذلك ، على شكل رحلة خطيرة مثل التى نقوم بها حاليا ، عندما أضع كل ذلك فى اعتبارى أجد أن بركات قد وصل إلى مسافة لا يود أن يذهب إلى أبعد منها أو يزيد عليها . والإنجليز ، على العكس من السوريين ، رحالون بحكم سلالتهم وعاداتهم ؛ من هنا كنت قد عقدت العزم على زيارة عمان مهما كانت الأخطار المترتبة على ذلك ، وسواء صحبني بركات أم لم يصحبني فى هذه الزيارة . وفى الوقت ذاته كنا قد رسمنا خططنا للقيام بالمرحلة العاجلة التالية من المسار الذى نسير فيه . كنت قد قررت أنا ورفيقي أن نغادر الهفوف سويا ، تاركين أبا عيسى خلفنا مدة أسبوع أو أسبوعين فى الأحساء ، على أن نتجه شمالا إلى القطيف التى نستقل منها سفينة إلى مدينة المنامة فى البحرين . وكان مقررا لأبى عيسى أن يلحق بنا فى هذه المدينة ، لا عن طريق القطيف ، وإنما عن طريق العجير ، ذلك الميناء القريب من الهفوف ؛ وبخاصة أن هذا الميناء البحرى يبعد مسافة سير أربع وعشرين ساعة جنوب شرق ثم شرقا على شاطئ الخليج . وكان السبب الرئيسى وراء هذا الانفصال فى التحركات ، من حيث التوقيت والتحركات ، هو تحاشى انكشاف أمر تنسيقنا بشكل صارخ فى وقت كنا لا نزال فيه على أرض تحكمها حكومة وهابية ، ومليئة بالجواسيس الوهابيين والمخبرين الوهابيين ، وبخاصة بعد الشكوك التى بدأت تدور من حولنا فى الرياض . وقررنا تأجيل الترتيبات الخارجية بزيارة عمان إلى أن نجتمع سويا فى

المنامة . وكانت طبيعة أبى عيسى ، بصفته مرشداً للحجاج تسمح له بزيارة البحرين أو التردد عليها ، كى يقوم هناك بعمل الترتيبات اللازمة لنقل رفاقه فى المستقبل . ومن البحرين كان ينتقل، عن طريق البحر ، إلى بوشهر ، الملتقى المعتاد للحجاج الإيرانيين ، والنقطة التى ينطلقون منها إلى مكة ، والزمن الذى تستغرقه قافلة الحجاج لتصل من بوشهر إلى مكة ، عن طريق نجد ، يقدر بحوالى شهرين ، بما فى ذلك عبور الخليج من الشاطئ الإيرانى إلى شاطئ الجزيرة العربية ؛ وهذا يحتم تجميع الحجاج واستعدادهم فى أبوشهر مع نهاية الأسبوع الأول من شهر شوال (الشهر التالى لرمضان مباشرة) على أكثر تقدير .

أعددت العدة ، أنا وبركات للرحيل ؛ واشترينا لذلك قليلا من الأشياء المحلية التى تثير الفضول، وحصلنا على مستحققاتنا عن الخدمة الطبية التى أديناها لبعض الناس ، وقمنا بالزيارات المعتادة التى تجرى قبل الرحيل ، بل وقدمنا شكرنا واحترامنا لحاكم المدينة الزنجى الذى يدعى بلالا ، الذى كان يجلس عند باب قصره فى الكوت ، حيث كان يعقد اجتماعا عاما ، وكان يبدو عليه مهنما مثل سائر السود الآخرين . ولم يكن الأمر يحتاج منا إلى تقديم جوازات السفر كى نسافر إلى مدينة القطيف ، التى كانت من وجهة نظر الحكومة تشكل امتداداً لمنطقة الأحساء ، برغم أنها كانت تختلف عنها ، فى واقع الأمر ، اختلافا كبيرا . والطريق إلى القطيف آمن تماما ، كما أن البدو النهابين ، وكذلك قطاع الطرق ليس لهم وجود هنا بالمرّة . ومع ذلك ، فقد كنا بحاجة إلى بعض الرفاق ، لا ليرافقونا فى السفر وإنما ليردونا على الطريق . وبدأ أبو عيسى يبحث لنا ، فى المدينة ، عن مثل هؤلاء الرفاق ، إلى أن عثر على ثلاثة منهم تصادف أنهم كانوا على وشك أن يتجهوا إلى مدينة القطيف . كان واحد منهم نصف بدوى ، أو إن شئت فقل إنه واحد من تلك الطبقة التى يطلقون عليها فى سوريا اسم " عرب الديرة " ، وكان من بنى هجر ؛ أما ثانيهما فقد كان عجمانيا حقيقيا ؛ أما الثالث فكان حضرى من مدينة الهفوف ، ووافق ثلاثتهم على أن ننضم سويا لنكون جماعة واحدة أثناء سيرنا على الطريق . وقامت مضيفتنا الحبشية (زوجة أبى عيسى) بتزويدنا بجوال كامل من المؤن، وزودنا أصدقائنا فى الهفوف بالإبل . وبعد أن تزودنا ، وركبنا إبلنا ، ودعنا زوجة أبى عيسى الطيبة وداعا مؤثرا ، وقبلنا الطفل ، وقلنا لوالده "إلى الملتقى" ؛ وبدأنا المسير عصر اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر ، تاركين وراءنا كثيرا من المعارف الحلوة ، الذين تلقينا منهم رسائل وخطابات عندما كنا فى

البحرين . وفيما يتعلق بالسكان ، فأنا لا أجد من بين مدن الجزيرة العربية كلها ، مدينة مثل مدينة الهفوف ، التي حيانا تجارها بتحية صادرة من أعماق قلوبهم واستقبلونا استقبالا حارا كله ود وحب .

وغادرنا مدينة الهفوف عن طريق البوابة الشمالية الشرقية ، المؤدية إلى الرفيعة ، التي كان أصدقاءنا ، قد تجمعوا عندها ، طبقا للأعراف العربية ، على شكل موكب ، ليودعونا ويتمنوا لنا رحلة طيبة ، ثم يعودون إلى بيوتهم . كان طريقنا ، منذ البداية ، يخترق متاهة فاخرة من بيارات النخيل جيدة الري ، وكلها من صنف الخلاص ، سرنا خلال طرقها المتعرجة قرابة الساعتين وسط المجارى المائية المتدفقة ، وعبر الجسور الضيقة ، إلى ما قبل غروب الشمس حيث بدأنا نسير حول مستنقع كبير من القصب ، فيه متسع يسمح لجمل واحد بالمسير بين الأشجار والمستنقعات ؛ ثم يتجه الطريق بعد ذلك ، إلى منطقة رملية صغيرة ، تفصل منطقة الهفوف تماما عن الكلاية . والكلاية قرية صغيرة متوسطة الحجم ، تقع على مسافة سبعة أميال شمال شرقي العاصمة . وهنا عسكرنا في العراء على تلة رملية نظيفة صغيرة ، بحيث كانت الكلاية عن يميننا ، وخط غابات الهفوف الأسود عن يسارنا ، في حين كنا نسمع من أمامنا ، على بعد مسافة قصيرة ، صوت نافورة ينبعث منها ماء غزير ، كنا نسمع خريره أثناء سكون الليل ، ويروى بستانا يجدر به أن يكون في دمشق أو انتيوش Antioch . كان هواء الليل معتدلا - فلم يكن باردا مثل هواء نجد أو خانقا مثل هواء جنوبى الهند ؛ كما كانت السماء صافية والنجوم ساطعة . ومن هذا المكان الحاكم كنت أستطيع أن أرى سُهَيْل Soheyل أو كانوبس Canopus الذى بدأ يسطع الآن ؛ ومن خلف سُهَيْل ، وبالقرب من الأفق ، توجد النجوم الثلاثة التابعة لـ - صليب الجنوب Southern Cross ، ذلك الصديق القديم الذى كان يرافقنى فى الهند ؛ وبعد ذلك بشهرين بدأت أشاهد كل نجوم تلك الكوكبة أو إن شئت فقل : مجموعة النجوم .

وبينما كنا نتمتع بالراحة التي دامت بضع ساعات ، صحونا من نعاسنا على خطو بعض الإبل التي كانت تقترب منا - كانت هذه الإبل تحمل بعض المسافرين القادمين من القطيف . وتوقف هؤلاء المسافرين إلى جوارنا ونزلوا عن إبلهم حيث تبادلنا معهم الحديث مدة نصف ساعة ؛ ترى ، كيف يمر العربى على العربى دون أن يتبادل معه الأخبار ؟ وقد علمنا من هؤلاء المسافرين أنباء حادث ذلك اليوم ، وكان

حادثا غريبا لأنه يوضح عداة العرب للحكم الوهابي . إذ يقال أن واحدا ، من أهل القطيف ، استطاع أن يمسك بشاب صغير من المنطقة نفسها ، كان قد اغتصب شقيقته الصغيرة غير المتزوجة . وطبقا للأعراف العربية ، فإن هذه الفضيحة لا يمكن غسل عارها إلا بسفك دماء الطرفين المذنبين ؛ من هنا فإن القطيفي ، الذي كان يعطيه العرف ، بحكم ما تعارف عليه الأسلاف ، الحق في أن يقوم أقرب أقارب الفتاة بالتأثر لكرامة العائلة ، بأن يقوم بقتل كل من أخته وعشيقها . والوهابيون ، طبقا لنصوص القرآن ، يحددون عقابا أكثر اعتدالا للزاني غير المتزوج والزانية غير المتزوجة ؛ وبناء عليه ، عندما وصلت هذه الأنباء إلى الرياض صدرت الأوامر بإلقاء القبض على ذلك القطيفي الغيور ، وإحضاره إلى الرياض لمحاكمته على القتل العمد الذي لا مبرر له . وقد عهد بتنفيذ هذا الأمر إلى بلال ، حاكم المنطقة كلها ، الذي حول بدوره تنفيذ هذا الحكم ، إلى فرحات حاكم مدينة القطيف . وأرسل فرحات أفراد الشرطة لإلقاء القبض على المجرم؛ ولكن كل جيرانه اتحدوا فيما بينهم لإخفاء هذا القاتل والعمل على تهريبه . وأخيرا ، وبعد بحث دام عدة أسابيع ، اكتشف أمر هذا القاتل ، وعثر عليه في منزل أحد الفلاحين ، وتم القبض عليه ، وإرساله إلى مدينة الهفوف . وقد أثارت هذه العملية استياء كثيرا في كل أنحاء القطيف ، التي كان الرأي العام فيها لصالح هذا الأخ ، كما كان الرأي العام يدين الحكومة الوهابية لأنها فتحت الباب أمام التساهل في الأخلاقيات العائلية .

كنا ما نزال مشغولين بالاستماع إلى هذه الأخبار والتعليق عليها ، عندما وصل إلينا مواطن آخر من الهفوف كان مسلحا ويركب ركوبة جيدة ، جاء من الناحية الجنوبية ، وطلب إلينا أن نسمح له بالانضمام إلى قافلتنا ، وسرعان ما وافقنا على هذا العرض . وفي صباح اليوم التالي كانت جماعتنا قد زادت من خمسة أفراد إلى ست ، وبدأنا مسيرتنا ؛ ومررنا بالقرب من سفح التل الذي تقع عليه قرية الكلابية . وهذا الاسم يدل على أن سكان هذه القرية هم بنو كلاب ، وهي إحدى القبائل العربية التي انحدرت عن قيس ، واستقرت في هذه المنطقة منذ زمن بعيد . وأرجو ألا يخطئ القارئ بين كلمتي كلاب وكنب ، إذ أن بنى كلب ينتمون إلى عشيرة مختلفة من أصل قحطاني ، ومعروف أن بنى كلب أعداء ألداء لبنى كلاب من ناحية وكل ذرية قيس - عيلان من الناحية الأخرى . ومع ذلك ، فإن الإقامة الطويلة في الأحساء لم تمحو ذلك العداة القومية ، إلى حد أن سكان الكلابية ، لا يزال السكان المحيطون بهم ينظرون إليهم نظرة شك وازدراء، ويتفاخرون بنسبهم القحطاني عن طريق مضج ، وقضاعة ، وكنده .

وبعد أن تجاوزنا الكلابية ، عبرنا سهلا واسعا تربته من النوع الرملى الخفيف ، الذى يتخلله البازلت والحجر الرملى . كانت دلائل الرطوبة موجودة فى كل مكان وعلى عمق طفيف تحت السطح ؛ وعلى مسافات قصيرة كانت تتناثر هنا وهناك أشجار النخيل القزمية ، والحشائش ، بل ، والقصب ، والسَّمَار أيضا ؛ وكنا نمر بين الحين والآخر على بحيرات وبرك صغيرة فى بعض المنخفضات ، وكانت تحيط بها الأدغال التى تتدلى أغصانها على الماء ، فى حين كان هناك حطام قريتين كبيرتين ، هجرهما سكانهما ، مثلما فعل سكان أوبرن Auburn ، يشهد على اندحار هذه المنطقة تحت وطأة الحكم النجدى. وقد رحل عن هاتين القريتين مئات ومئات من السكان المهاجرين ؛ فقد رحلت بعض عائلات هاتين القريتين إلى المناطق الشمالية ، ولكن القسم الأكبر من هؤلاء السكان هاجر إلى الجزر المجاورة للبحرين ، وإلى الشاطئ الإيرانى ، وإلى أبناء سلالتهم فى الممتلكات العمانية . ولا يزال الحكم الجائر يمارس سطوته على أولئك الذين تبقوا فى هاتين القريتين ، وذلك باستعمال الأساليب التى لجأ إليها العثمانيون عندما أرادوا أن يخلقوا منطقة صحراوية بين كل من بغداد والموصل ، وعندما قلعوا عدد سكان سوريا إلى حوالى ثمن عدد السكان الأصليين .

واصلنا سيرنا طوال النهار ولم نقابل أيا من البدو ، ولكن صادفنا القليل من المسافرين . وعندما جاء المساء ، عسكرنا فى واد ضحل ، قريب من مجموعة من الآبار المترعة ، بعضها عذب ، وبعضها مالح ، وحيث كانت آثار المجارى المائية المهمة ، وبقياء جدران المنازل المهدمة تدل على وجود قرية ، من قبل ، فى هذا المكان ، ولكنها أصبحت مهجورة بعد أن تولى عنها سكانها . وأمضينا ليلة مريحة احتمينا خلالها ، بأشجار النخيل وبالأعشاب الطويلة ، التى كانت تتخللها نباتات الصبر والنباتات الزنبقية العملاقة ؛ واستيقظنا مبكرين فى صبيحة اليوم التالى لنواصل مسيرنا . ومع شروق الشمس وبينما كنا نعبّر إحدى المناطق الرملية ، شاهدنا على بعد مسافة قريبة ناحية اليسار ، قرية الهيدية Heedeyah ، ومن هذه المنطقة شاهدنا سلسلة جبال الأحساء لآخر مرة ، والتى بدأت تبدو لنا ، من هنا ، أكثر انخفاضا عما كانت عليه ، ونحن فى الهفوف ، ومع ذلك كانت لا تزال تحتفظ بشكلها الخارجى الرائع . وواصلنا المسير فى الاتجاه الشمالى الشرقى . وفى عصر ذلك اليوم ، بدأنا نرى جبل مُشَّهر لأول مرة ، وهو عبارة عن قمة هرمية يصل ارتفاعها إلى حوالى سبعمئة قدم وعلى مسافة حوالى عشرة أميال جنوبى القطيف. وجبل مشهر ينتمى إلى سلسلة من التلال ،

هو الأشهر من بينها (وهذا الاسم يذكرني أيضا بجبل آخر في مالطة له الاسم نفسه Canspicua) ، وهو أيضا الذى يسترعى الانتباه من بين هذه التلال ؛ وهذه السلسلة المتوسطة تفصل منطقة القطيف عن منطقة الأحساء ، التى ترتفع مائتى أو ثلاثمائة قدم عن مستوى سطح المحيط .

كان الريف الذى سرنا خلاله طوال ذلك اليوم مثل ذلك الريف الذى سرنا خلاله فى اليوم السابق - تلال رملية وسهول ، تتخللها الصخور من حين لآخر ، ومجموعات من النخيل ، أو القرى المدمرة ، التى كانت تقطع هذه الرقابة بين الحين والآخر ، وكانت المياه الجوفية الوفيرة تحيط بنا من كل جانب ، إذ كانت تنساب من بين حبيبات التربة ، وكانت عذبة وجيدة بشكل عام ، ولكنها عديمة النفع نظرا لعدم وجود الأيدى التى تستطيع أن تفيد منها فى إضفاء الخصوبة والنماء على أراضى هذه المنطقة . ولو قدر لحكم أفضل أن يأتى بعد هذا الطغيان الفعلى ، لأمكن أن تكون فى هذه المنطقة خمسمائة قرية أو مدينة بدلا من خمسين ، وهو الرقم الذى نقدر به عدد القرى فى منطقة الأحساء . ومن أبرز ملامح الحياة النباتية فى المنطقة المحيطة بنا هنا أشجار الصبر الضخمة ، التى سبقت الإشارة إليها ، إذ يصل ارتفاع أوراقها الشوكية وفروعها الكثيفة ، فى كثير من الأحيان ، إلى الحد الذى يمكن المسافرين والجمال بل والجميع ، من الجلوس تحتها ؛ وهذا النبات من أبرز النباتات التى تنتشر فى منطقة الأحساء ، ومع ذلك فأنا لم أشاهد هذا النبات فى داخل الجزيرة العربية أو فى الأراضى المرتفعة .

وليس من قبيل التأدب أن أترك رفاق قافلتنا دون أن أتعرض لهم بالوصف ، وبنو حجر ، وبنو خالد ، والعجمان هم أرقى الناس روحا وأكثرهم أدبا من بين جميع البدوان الذين صادفتهم خلال تجوالى قديما وحديثا ؛ فالصفات التى تلتصق بالبدو الرحل ولا تنفصل عنهم ، تجدها أيضا فى هؤلاء الناس ولكن على مستوى أكثر تحضرا وأقل فظاظة . ولعل ذلك يرجع ، من ناحية ، إلى اتصال هؤلاء الناس المستمر بأهل الأحساء المتحضرين ، الذين اقتبسوا بدورهم أساليبهم الدمثة واللطيفة . وهذه العشائر أفضل تسليحا وتهندما عن معظم إخوانهم البدو ، برغم أن الأجزاء الرئيسة من ملابسهم تكاد تكون واحدة ، إذ لا تختلف فى الشكل أو الصنعة ، اللهم باستثناء نوعية الأقمشة المستعملة والألوان البهيجة . وكل هذه العشائر مسلحة بالبنادق ،

كما أن العديدين منهم ، يعلقون فى أحزمتهم الخنجر العمانى المعقوف ، إلى جانب الرماح التى يحملونها .

وقبيل المغرب بدأنا نتسلق بالتدرج سلسلة تلال القطيف الرملية الواسعة ، بعد أن بعدنا عن جبل مشهر مسافة كبيرة فى الناحية اليمنى . ولكن البحر ، برغم أنى كنت أنظر ناحيته وأتطلع إليه بشغف يشبه شغف العشرة آلاف عندما اقتربوا من مدينة إيوكسين Euxine ، كان لا يزال محجوبا عنى بفعل استمرار سلسلة المرتفعات . وعند هذه المنطقة ، بدأنا نجوس خلال أرض صخرية يميل لونها إلى الاسوداد ، بدلا من رمال الأحساء . وكان الهواء بارداً وحاداً ؛ ولم أشعر بالندم عندما توقفنا ، عند حلول المساء ، بالقرب من مجموعة من الأشجار تقع على حدود منطقة القطيف . وتتميز هذه المنطقة أيضا بوجود قرية العازمية Azmiah ، شبه الجرداء حاليا ؛ وكانت مناظر البيوت المأهولة توحى بالتعاسة والإحباط مما جعلنا نفضل التوقف لنيل قسط من الراحة إلى جوار شجرة من أشجار الصبر ، وأن نتناول عشاغا من المؤن التى نحملها معنا . وأطلقنا ذلولينا (هذان المخلوقان اللذان يسرا الناظرين) يرعيان ، ولكن وا أسفاه ! لقد استغلا الغسق وكادا يهربان لولا أن أمسكنا بهما بصعوبة بالغة ؛ وبذلك أكدنا لنا ذلك الذى ذكرته عن الإبل فى الفصل الأول ، والذى مفاده أن الجمل عندما يستشعر أنه أصبح سيد نفسه ، فإنه لا يفكر مطلقا فى العودة إلى موطنه ، إلا إذا كان ذلك قسرا .

وفى اليوم التالى استيقظنا مع طلوع الفجر ، وعبرنا تلال القطيف سالكين فى ذلك مسارا متعرجا طويلا، إلى أن بدأنا بعد ساعات طويلة من المسير فى تلك المتاهة ، نشاهد خط المزارع المعتم الذى يطوق منطقة القطيف نفسها من ناحية الأرض . كان البحر يقع بعد ذلك الخط مباشرة ، وكنا نعرف ذلك تماما ، ولكننا حتى الآن لم نحظ بعد ولو بنظرة واحدة إلى مياهه والسبب فى تلك السقارة المخضوضره التى تمتد بيننا وبينه .

وقبيل الظهيرة أنهينا المنحدر الأخير ، الذى كان عبارة عن بقعة مرتفعة من الحجر الرملى ، يبدو أنها كانت حدا لمياه البحر فى فترة سابقة . ومستوى ارتفاع هذا المنحدر يكاد يكون نفس مستوى الخليج الذى يقع بعده مباشرة ؛ إذ أن أية زيادة فى المد بحوالى أربعة أقدام عن المستوى المعتاد تكفى لغمر هذا المنحدر بكل أجزائه المرتفعة .

ومن ثم فإن هذه المنطقة ليست صحية ، برغم خصوبتها وكثافة سكانها ؛ ولكن سكان هذا المنحدر فى معظمهم، ضعاف البنية وتميل بشرتهم إلى الإصفرار . وكان طريقنا ، أو إن شئت فقل : طريق القطيف السريع ، يمر مسير ساعة أو ما يزيد على ذلك ، عبر أرض هى امتداد لنوع من التربة يميل لونها إلى الأبيضاض ، والتي كانت حوضا جافا من أحواض المستنقعات المالحة الضحلة ؛ ولكن كانت تمتد من أمامنا ، وعن يميننا كتلة مستمرة من بيارات النخيل ، التي كانت تمتد فيما بينها أقواس ومجاري ذلك الممر المائى المتوى القديم المتعرج ، الذى أنشأته الأسرة المالكة القرموطية . وكان الهدف من إنشاء ذلك الممر المائى هو إمداد المدينة بقدر كاف من الماء وليس لمجرد أن يكون مجاوراً للمدينة ، ولا بد أن طول ذلك الممر كان يصل إلى حوالى خمسة أميال . وبعد أن كانت المياه الجارية تصل إلى نهاية مجاريها ، كانت تنطلق بعد ذلك انطلاقا عشوائيا فى هذه المنطقة ، أو تتحول إلى برك من المياه الراكدة . كان الجو فى هذه المنطقة رطبا وخانقا ، كما كانت درجة الحرارة مرتفعة، وكانت الحياة النباتية ثرية وكثيفة من حولنا ؛ وراح رفاقنا يتحدثون عن الاختناق ، وهنا طرأ على بالى الساحل الهندى . وعندما وصلنا إلى ظلال الأشجار المتجاورة ، كان لابد لنا أن نسير فى طريق مرتفع وضيق مثل ذلك الطريق الذى أطلق عليه جون بانيان اسم طريق وادى القفر والجذب ، غير أنه لم يكن مستقيما مثل ذلك الطريق ، والذى ربما تخوف " كريستيان " Christian نفسه من الدخول إلى طينه ومياهه التى تنساب على جانبيه . ومن حسن حظنا ، وبدلا من أن نلتقى العفاريت والشياطين أو ملائكة الهاوية والجحيم ، كنا نمر عند كل منعطف ، على فلاحين وحرفيين لا حول لهم ولا قوة ، كانوا يجيئون ويروحون ، ويزداد عددهم كلما اقتربنا من المدينة ؛ وبعد مسير ساعة أخرى من فترة العصر وصلنا إلى مدينة القطيف نفسها ، وإلى بوابتها الغربية ، كانت تلك البوابة ، عبارة عن قوس عال من الحجر جميل الشكل ، ويتصل بها من جانبيها الأسوار والأبراج ، ولكن كل هذه الأشياء كانت مفككة ومخرّبة . وكانت توجد على مقربة من تلك البوابة مقبرتان ، أحدهما لأهل القطيف ، والثانية للحكام والمستعمرين النجديين - وهكذا يظهر أن العداء والكراهية أديا إلى التفرقة بينهما حتى بعد الوفاة ، وهذا ، إن شئت ، هو ضرب من ضروب الحماسة ، غير أن هذه الحماسة لا تقتصر على الشرق وحده .

ومدينة القطيف نفسها مزدحمة بالسكان ، ورطبة ، وقذرة وكئيبة الشكل ، ونظرا لأننى لا أستطيع العثور على الكنية أو الوصف الصحيح الذى يمكن أن أطلقه عليها

فإننى سوف أكتفى بالقول بأنها : متعفنة Mouldy ؛ وذلك يعنى أن كثيرا من أعمال المال والتجارة كانت تجرى فى سوق المدينة وفى شوارعها ؛ ولكن نظرة الإهمال والنظرة غير العربية التى ينظرها أصحاب المحلات والعمال ، إلى هذه المدينة ، تؤكد كل ذلك الذى يرويه التاريخ عن الاستعمار الفارسى لهذه المدينة . والواقع أن سكان هذه المنطقة كلها ، وسكان العاصمة بصفة خاصة ، هم من الجنس المغولى ، الذى يجرى فى عروقه الدم الفارسى ، كما يختلط به أيضا دم البصرة وبغداد والعراق . وأثناء انتصار بنى العباس ، وطوال اضطهادهم للشيعة ، كان الشيعة يلوذون بأعداد هائلة إلى مدينة القطيف ، كى يحميهم الأمراء القرامطة ؛ وقد ساهمت هذه الهجرة إلى حد كبير فى حركة الصناعة ونشاط المدينة بصفة خاصة ؛ ولكنها ساهمت أيضا فى إفساد أخلاقيات المدينة والإخلال بشجرة نسبها . إذ نجد أن العرب من القرويين فى القطيف يشكلون الجزء الأكبر ؛ ومع ذلك فإن العرق الفارسى يظهر هنا أيضا بشكل واضح . والمعروف أن أهل القطيف جميعا من الشيعة ، أو إن شئت فقل من " الخوارج " أو " المفكرين المتحررين " ، بمعنى أنهم من أولئك الناس الذين مروا بكل مراحل العقيدة الفاسدة فى الشرق ، بدءا من محمد (ﷺ) وانتهاء بعلى (١) ، ومن على إلى الأئمة : إسماعيل ، وموسى ، وأبو القاسم ؛ ومن الأئمة : قائم الزمان ، ومن قائم الزمان إلى وحدة الوجود (٢) والمذهب المادى (٣) ، أو إن شئت فقل البيرونيه Pyrronism (٤) : وهذه المرحلة من الفكر الإنسانى تحتاج إلى مزيد من الدرس المتأنى . وأنا أحيل القراء الذين لديهم مثل هذه الرغبة فى الدرس والتقصى فيما يتعلق بالتنوير والإظلام فى الشرق ، إلى المقدمة التى كتبها المرحوم البارون سيلفستر دى ساكى Baron Sylvester de Sacy ، فى كتابه الذى كتبه عن الدروز ، إذ تحتوى هذه المقدمة على كثير من المعلومات المهمة والقيمة فى الوقت نفسه . وأرض مدينة القطيف منخفضة ، وأشجارها كثيفة . ولكن بعد أن استدرنا مرة أو مرتين أصبحنا نسير بجوار أسوار

(١) ما أفج هذا الوصف الذى يدل على فساد طوية المؤلف وحقده على دين الإسلام ، وهل ما جاء به سيدنا محمد من عقيدة صحيحة وتشريعات نشرت الأمن والعدل والرحمة فى ربوع الأرض هو أمر فاسد وعقيدة فاسدة ، إن الفاسد هو ذلك المؤلف الحاقد - (د. حلمى عبد المنعم)

(٢) المذهب القائل بأن الله والطبيعة شئ واحد وبأن الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية - (المترجم) .

(٣) كمظاهر أو نتائج للمادة - (المترجم)

(٤) مذهب الشك عند الفيلسوف الإغريقى بيرو (٣٦٥ - ٣٧٥ ق . م تقريبا) وأتباعه - (المترجم) .

المدينة ، تلك الأسوار التى تنتمى إلى قلعة القرموط الضخمة ، التى كشف لنا الوادى الفسيح الذى يقع بعدها مباشرة ، عن مسطحات الخليج الضحلة الميتة التى أصبحت تحت أقدامنا . عجبنا إن مياه الخليج مختلفة تماما عن مياه البحر المتوسط الرقراقة ، التى تنبض بالوميض والحياة ، والتى ودعناها عند غزة منذ ثمانية أشهر . كان الخليج أمامنا مثل لوح من الرصاص ، شبه ردى ، يكاد يكون مليئا بالبردى ، وكان يبدو لنا بلا أمواج ، بل وبلا حراك أيضا ؛ وعن يسارنا كانت أسوار القلعة الضخمة تكاد تصل إلى حافة الماء ، ثم كانت تنحرف بعد ذلك ، لتترك أرضا مستوية بين دائرة القلعة والخليج . كانت توجد على سلسلة الصخور هذه بعض المدافع كبيرة العيار التى علاها الصدا ، مما يدل على صلابة الدفاع الذى كان يحيط بهذا المكان ؛ ومن أمام البوابة الرئيسية ، كان هنا تحصين خارجي ، تستطيع دانة واحدة أن تسويه بالأرض ، ويضم ستة قطع من المدفعية الشبكية ، وكانت فوهات تلك المدافع موجهة إلى البحر . وأسوار القلعة مرتفعة وقوية ، وهى مبنية من الحجر والصخور ؛ وبوسع هذه الأسوار أن تقاوم موجات الهجوم الأولى ؛ ومدخل القلعة له بابان وعلى جانبيه توجد الأبراج ، والمقاعد الموجودة خارج القلعة ، أغرتنا بالجلوس عليها ، بعد أن تركنا جمالنا باركة فى الأرض المستوية ، وبعد أن حصلنا على قدر قليل من الراحة ، التمسنا إلى حاكم القطيف أن يستضيفنا مدة يوم وأن يسمح لنا بالعبور إلى البحرين .

تقع قلعة القطيف عند أقصى طرف منحنى الخليج الصغير ، والقلعة نفسها تشبه إسقلوبا^(١) صغيرا يقع داخل قاعدة اسقلوب كبير ، وفى ناحيتى الشمال والجنوب يوجد بروزان طويلان ، مثل القرنين المشهورين ، وتقع قلعة داريم عند نهاية أحدهما ، وقلعة الدمام عند نهاية البروز الآخر ، وإذا ما رسمنا خطا مستقيما فإن المسافة بين هاتين النقطتين تقدر بحوالى اثنى عشر ميلا ، غير أن المسافة أكبر من ذلك إذا ما تتبعنا المنحنى شبه الدائرى للخليج ؛ وفى هذا المنخفض الضحل تتعطن مياه الخليج ؛ وعندما يزحف المد على هذه المنطقة ، فإنه يجعلها تبدو عميقة ، ولكن الجزر عندما يحدث يتركها وفيها الكثير من الأماكن الضحلة، والجزر، وخصل من النباتات البحرية ، وشفاف من الرمال ، تتخللها مجارى مائية ضيقة ، مليئة بالوحل والطين . وشاطئ الخليج ، فى هذه المنطقة ، يذوب بطريقة تلقائية فى مياه البحر ، وذلك باستثناء بعض

(١) الاسقلوب : محار مروحي الشكل - (الترجم) .

الأماكن القليلة جداً ؛ وقد يكون الشاطئ هنا قاحلاً ورملياً فى بعض أجزائه ، وفى بعض الأماكن الأخرى تنمو أشجار النخيل ومن تحتها كثير من النباتات الأرضية . والناظر إلى هذه الأماكن يعرف ، من الوهلة الأولى ، الأسباب التى تجعل بعض أماكن هذا الشاطئ غير صحية ، وجديرة بسمعتها السيئة وتنوع أمراضها .

وفى الخليج الداخلى ، الموجود أمامنا ، يوجد حوالى عشرين أو ثلاثين بركاً^(١) عربياً ، تتراوح أحجامها بين السكونة^(٢) وقارب الصيد المفتوح ، ومع ذلك فإن كل هذه البركات لها أشربة مثلثة الشكل ، والسبب فى ذلك أن هذا هو النوع الوحيد المعروف من الأشربة فى هذه المنطقة . وهذا هو بدن إحدى السفن الكبيرة يسترعى انتباهنا إذ إنه لا يبعد كثيراً عن اليابسة ، وقد انتابنا خوف شديد عندما علمنا أنها واحدة من سفن أسطول (الملك) فيصل ، الذى تستطيع به نجد فى بعض الأحيان أن تقاوم وتهزم ، على شكل صف أو طابور (شأنها شأن الجندى الشجاع الذى يشكل مربعاً كى يتلقى طعنات العدو) كل الأساطيل المعادية مثل أسطول البحرين ، وعمان ، وإنجلترا بل وكل هذه الأساطيل مجتمعة ، إذا ما تجرأت على الهجوم على البلاد . كانت هذه السفينة المهمة ، أو إن شئت فقل الأسطول ، أو البحرية ، من حيث الحجم لا تعدو أن تكون سفينة من السفن المعتادة التى تنقل الفحم فى نيوكاسل New Castle ومزودة بمعدات للقيام بمناورات شبه عسكرية ، وقد استقيت كل ذلك من الطريقة البدائية التى بنيت بها هذه السفينة . ومع ذلك ، فتد كان أهل هذه البلاد ينظرون إلى هذه السفينة بكثير من الخوف ، ولم يكونوا يذكرون اسمها إلا همساً . كانت السفينة فى تلك اللحظة تطوى شراعها ، وتستكمل بقية تجهيزاتها بالأحرى . كان الجمرى يقع على مقربة من الشاطئ القذر وبطارية المدافع الساحلية التى سبقت الإشارة إليها ؛ كان الجمرى عبارة عن كوخ مصنوع من جريد وسعف النخيل ، وكان طويلاً وضيقاً ويطلقون عليه اسم " المعاشر " أو إن شئت فقل " العشارية " ، نظراً لأن النظام العشرى المنوى تقوم الحكومة بتطبيقه هنا على الرسوم التى تُحصل عن التجارة مثل الزراعة تماماً . ومن أمام وبالقرب من الجمرى كانت هناك بيارات نخيل شديدة الرطوبة ، ومستنقعات من المياه المالحة ؛ كان المشهد موحشاً ، وربما أوحى للشاعر شيلي

(١) البرك : مركب بثلاث صوار - (المترجم) .

(٢) السكونه : مركب شراعى ذو صاريين أو أكثر - (المترجم) .

بقصيدة أخرى من طراز قصيدته "مادالو" Madalo، ولكن فى القطيف ، بدلا من البندقية ، هذه المرة ، ولم يكن هناك سوى ضوء الشمس الساطع ، الذى بذل كل ما فى وسعه ، برغم أنه لم ينجح تماما فى ذلك ، فى سبيل توضيح الموقع .

وجلسنا أنا وبركات بلا حراك نحملق ونطيل النظر إلى ما هو أمامنا ، ونتأمل مليا اختلاف جزئى الجزيرة العربية . ولكن أصدقاءنا ، شأنهم شأن العرب الحقيقيين ، وجدوا أن الوقت مناسب ، للحصول على " وجبة خفيفة " ، ولذا راحوا يبحثون عن الحاكم بالقرب من بوابة القلعة ، أملا فى السلام عليه والتحدث معه ، وفجأة شاهدوا ! الحاكم المناب من صاحب الجلالة الملك فيصل ، يظهر بشحمه ولحمه من داخل قصره ليقوم بزيارة المحارب الجديد . وهنا يجب على أولئك ، من أصدقائى ، الذين يؤيدون إلغاء مبدأ الاسترقاق والاستعباد ، أن يشعروا بالرضا والارتياح نظرا لأن هذه الشخصية الموقرة ، شأنها شأن شخصية الهفوف ، كانت شخصيه زنجية أيضا ، تربت فى قصر (الملك) فيصل ، وتحولت من عفريت صغير مجعد الشعر إلى عبد أسود صدفى الشعر ، يحتل فى الوقت الراهن منصب رئيس أهم الموانئ النجدية على الخليج الفارسى ، وحاكما لمدينة كانت ، فى وقت من الأوقات ، عاصمة لأشرس أسرة مالكة قامت بتسوية الكعبة بالأرض ، وملأت القطيف بالمسروقات والمنهوبات التى أتت بها من اليمن ومن سوريا . كان فرحات وهذا هو اسم الحاكم ، ذائع الصيت بين أبناء جلدته، وكان عبدا زنجيا فارغ الطول يقدر عمره بحوالى خمسين عاما ، حسن الطبع ، كثير الكلام ، كريما ، كما كان ذكاؤه وفكره يزيد قليلا على ذكاء وفكر الشخص العادى . كان يرتدى ثيابا أنيقة أكثر من تلك التى يرتديها الوهابى الملتزم ، ولكن طبيعته كعبد أو زنجى هى التى تغفر له مثل هذا الخطأ ؛ زد على ذلك ، أن الوهابيين ، فى المواقع البعيدة، يكونون ميالين إلى نسيان قيود التعاليم المحلية. ومن حول فرحات ، كانت تقف حاشيته المكونة من نجديين سمر البشرة ، يعانون من تضخم الطحال نظرا لتكرار إصابتهم بنوبات الملاريا ، ووجوههم أكثر تجهما مما لو كانوا يتلقون ، فى الرياض ، خطابا من عبد الكريم أو عبد اللطيف ، عن انصراف الناس عن الدين وابتعادهم عنه .

كان أبو عيسى ، الذى له معارف وأصدقاء فى كل مكان ، والذى جعلته أخلاقه الدمسة محبوبا من الزوج كبارا وصغارا ، قد زودنا بخطاب يقدمنا إلى فرحات ،

ويشرح الاستقبال الرائع والمعاملة الطيبة التى لقيناها من قبل الملك فيصل فى العاصمة ، ولكنه لم يتعرض من قريب أو بعيد إلى مسألة مغادرتنا الرياض بصورة مفاجئة . كما لم تتعرض الرسالة إلى المكان الذى تنوى الوصول إليه ، ولكن خطتنا كانت تقوم على أساس أننا سوف نتوجه إلى الكويت أو البصرة ، فى حين أننا كنا ننوى فى حقيقة الأمر ، الاتجاه إلى المنامة ؛ وكان هدفنا ، من وراء كل ذلك ، تحاشى إثارة شكوك الحاكم ، عندما نتكلم عن البحرين بدون مناسبة .

ولكن طبيعة الأمور ، فى هذه المنطقة ، لم تكن تتطلب مثل هذا الحذر . وقد أقنعتنا الريح الشمالية التى بدأت تهب مصادفة على الخليج ، بعدم ركوب مركب متجهة إلى البصرة ، وإنما مركب متجهة إلى البحرين ، التى نود فى الحقيقة الوصول إليها . ومن الشائع تماما عند من يسافرون بالبحر ، ويقصدون الوصول إلى ميناء أو آخر من موانئ الخليج الفارسى ، أن يمضوا يوما أو يومين فى مينائى المنامة والمحرق انتظارا لانقضاء الريح غير المواتية . زد على ذلك ، أن فرحات نفسه ، الذى كان رجلا سهلا وبسيطا ، كان قد فض ، منذ فترة وجيزة ، رسالة (الملك) فيصل ، وطلب من أحد أفراد حاشيته أمامنا أن يقرأ له منها السطرين الأولين (نظراً لضعف بصره بسبب إصابته بالرمد) ، ومن ثم راح يرحب بنا ، على الفور ، ترحيبا حارا ، خاليا من الشك أو التحايل ، كما أصدر أوامره بإحضار متاعنا إلى داخل مبانى القرامطة ، وطلب منا الدخول كى نشرب القهوة ، ومنتظره إلى أن يعود من زيارته التفتيشية اليوم ، إلى أسطول فيصل المصغر ، لنستأنف معه الحديث .

نحن الآن داخل القصر ، تلك البناية التى تعزى إلى أبى سعيد الجنايى أو إن شئت فقل القرموط ، نفسه ، برغم أنى أكاد لا أصدق هذا التاريخ القديم ، وأعزوها إلى القرن السادس أو السابع الهجرى . وهذا يتضح من الأسلوب المعمارى السائد فى هذه المنطقة ، والذى يعد أخف وأرق من تلك الآثار التى تخلفت عن القرن الثالث بعد الهجرة ؛ كما يتضح ذلك أيضا فى استعمال الزينيات فى المبنى والإسراف فى استعمالها ، والتى تدل على سلطة مستقرة دامت طويلا ، وليس أسرة ملكية ثورية دامت سنوات قليلة ، وتهيأ لها الحصول على كل شئ وفعل أى شئ . وربما يكون جزء من أساس القرامطة والطابق السفلى منها ، من صنع أبى سعيد الجنايى ، فى حين قام من جاءوا بعده بإكمال بنائها .

وسور القلعة الخارجى مربع الشكل ، وتحيط به من الخارج تلك الأسوار العالية التى مررنا بها ونحن خارج القلعة ، كما توجد فى السور الداخلى أبراج عالية عند الأركان ، كما يوجد خندق أيضا فى الأرض ؛ والبحر هو الذى يحمى الواجهة الأمامية للقلعة . ويقع قصر الحاكم فى الطرف الجنوبى الغربى من القلعة ، وهو أبعد أجزائها عن مدخلها . والقصر بصورته الحالية ، وبخاصة إن بعضه منهار ومهدم ، وبعضه الآخر تم ترميمه ترميما بدائيا فى أزمان لاحقة ، لا يساعد على تعرف التفاصيل الدقيقة لمخططة الأساسى . فنحن نرى فى البداية رواقا مقنطرا ، من الطراز المغربى Moresco ، محمول على سلسلة من الأعمدة الخفيفة ، عمقها ثلاثة عقود ، وطولها ، إن لم تخنى ذاكرتى ، خمسة عقود ، ومن فوق هذا الرواق المقنطر ، توجد عقود متصالية ، مزينة بنقوش جصية ، وزخارف عربية ، انمحت الآن . ومن ثم دخلنا إلى ذلك الذى كان فى يوم ما ، رواقا طويلا مغطى ، برغم أنه حاليا ليس سوى مجرد حوائط ودعائم جانبية ، مع بروز كتف هنا وكتف هناك يوحى بعقد مهدم من فوقه . وبالقرب من هذا الكتف ، يوجد حوش داخلى ، توجد على جانبيه مجموعة من الشقق ، بحالة جيدة ؛ وعلى أحد جانبي هذا الحوش توجد صالة استقبال ، وهى عبارة عن غرفة صخرية ، كبيرة ، واسعة ، فى وسطها أعمدة أنيقة ، ونوافذ من الطراز الفارسى ، ومقسمة إلى كبائن بواسطة أعمدة صغيرة ؛ وفى الطرف البعيد من الصالة توجد منصة مرتفعة ، كان يجلس عليها ملك فى يوم من الأيام ، ويجلس بدلا منه اليوم عبد من العبيد . وخلف هذه المنصة توجد متاهة كبيرة من الغرف والممرات ، والصناديق ، والطرقات ؛ فى الطابق الأول ، والثانى ، والثالث ؛ وأنا أشاهد هنا درجا مهدما ، وهناك أرى بابا يفتح على الخلاء . والنوافذ فى الأجزاء السليمة منها ، مملوءة بالتعاريش الحجرية الجميلة ، التى تختلف عن سائر التعاريش الأخرى الموجودة فى سائر أنحاء القصر ، وتكشف عن عبقرية ونوق رفيع . أخيرا ، وعلى بعد ياردات قليلة من غرفة الاستقبال ، أو إن شئت فقل : القهوة ، وعلى مستوى الأرض ، يوجد شئ يبدو أنه كان يستعمل حوشا أو ميدانا للاجتماعات ، ويحتوى على أعمدة كبيرة مستديرة ، وتحمل نقوشا زينية تشبه إلى حد بعيد ، تلك النقوش التى يشيع استعمالها فى منازل بغداد ، والتى نجد فيها النقوش الضئيلة تحل محل الألوان . وقد تحول هذا الجزء من البناية إلى مسجد وهابى ، كما تم تنظيمه ليكون محرابا إضافة إلى أحداث كثير من التعديلات التى تتفق مع العقيدة المحمدية . وهذا هو كل ما أبقاه الزمن والحرب من المقر الملكى

القرموطى القديم . وكانت أول ملاحظة أبداها رفيقى تقول : " إن هؤلاء الذين بنوا هذا المكان لابد وأنهم كانوا أكثر تحضرا عما يشغلونه الآن " . واأسفاه ! إن ذلك لم ينطبق على القطيف وحدها ، وإنما على إمبراطورية كاملة تمتد من الدانوب إلى نهر دجلة .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا ، أن العقود برغم شيوع استعمالها بين أهل الأحساء ، إلا أن استعمال القناطر ليس شائعا ، اللهم باستثناء أشكالها البسيطة أو إن شئت فقل : الشكل البرميلي : والشئ نفسه يمكن أن تقوله عن الممرات المسقوفة الموجودة فى قلعة الجوف ؛ هذا يعنى أن تلك الممرات المسقوفة ، فى قلعة الجوف تستعمل فيها أيضا القناطر البرميلية فقط . كان قصر القرموطى أول المباني التى شاهدناها ، منذ أن تركنا غزة ، التى تظهر القناطر المتصالبة فى منازلها ، مما يدل على تقدم حقيقى فى فن العمارة ، وهو ما سوف نشاهده من الآن فصاعدا فى البحرين على الساحل الفارسى ، وفى عُمان . وفى كل من البحرين وعمان نجد تقدما آخر فى فن العمارة ، يتمثل فى الإكثار من استعمال القباب ، التى يجرى صنعها باستعمال الأحجار التى يجرى تشكيلها على شكل قوس مزدوج ؛ وكل هذه الأشياء تدل على تأثيرات فنية أجنبية . والسبب فى ذلك ، أن العرب لو تركوا لأنفسهم لما استطاعوا من الناحية المعمارية ، أن يركبوا قوسين بسيطين مع بعضهما ، أو أن يصنعوا قنطرة أو قبة ؛ وأكبر دليل على ذلك ، يتمثل فى بيوت العرب الموجودة فى كل من جبل شومر ، وفى القصيم ، وفى نجد ، سواء أكانت هذه المنازل قديمة أم حديثة . ولكنهم عندما تعلموا من مشاهدة المباني الاغريقية والفارسية ، أصبحوا على استعداد لمحاكاة النماذج المعمارية الراقية فى كل من إيران وسوريا ، إلى أن أصبحوا فى النهاية إنشائيين معقولين ، ولكنهم ليسوا من الطراز الأول . زد على ذلك ، أن الآثار المعمارية الحميرية فى كل من حضرموت ، ونقب الحجار ، على سبيل المثال ، بل وفى الألوان الأخرى ، تنتمى إلى عرق مختلف آخر ، هو العرق الحبشى ؛ وسوف أناقش هذه النقطة بكثير من التفصيل والتحري فى الفصل التالى .

وفى الحال أدخلونى أنا وبركات إلى القهوة ، وأجلسانا فيها ، أمام موقد أشعلوا فيه النار فى بعض أخشاب النخيل ، كى تقلل من برودة هذه الخرائب الرطبة القديمة . كان أثاث المكان معقولا ، كما كانت القهوة ممتازة . وبعد أن عاد فرحات من جولته ،

دخل معنا فى خطاب ودى عن الرياض ، وعن فيصل ، وعن عبد الله ، وعن حصار عنيزة ، ... الخ . وكان من الطبيعى أن نقول له أحسن ما لدينا وأن تتخلى عن كل ما يغير التدرج اللونى فى الزهور ، طبقا لما أوصى به كبار رجال السياسة والديبلوماسية . كان معنا فى الحجرة حوالى عشرون أو ما يزيد على ذلك ، من النجديين ، الذين ينتمون إلى حامية القلعة العسكرية ، التى يصل إجمالى عدد أفرادها إلى حوالى مائتين وخمسين أو مائتين وستين رجلا ؛ وعلى الجانب الآخر من القهوة كان هناك بعض من سكان المدينة ، لاذوا بالصمت ، وكانوا يرتدون عمائم كبيرة ، وصدریات فارسية ؛ والحب كان مفقداً بين هذه المجموعة ومجموعة العرب التى جاءت من الأراضى المرتفعة . كان فى المقهى أيضا ثلاثة من " ربابنة " المراكب ، الذين كانت لهم سفن فى الميناء ، وكان يسود بينهم ذلك النوع من المزاح ، الذى يرافق مثل هؤلاء " الربابنة " عندما يكونون على اليابسة ، ودار بينهم حديث كثير وطويل ؛ وفى خلفية كل ذلك ، كانت هناك مجموعة كبيرة من الخدم البيض والسود .

وقدموا لنا عشاء جيدا ، سمكا ولحما ؛ وبعد أن ختمنا العشاء كالمعتاد بالقهوة والطيب ، تكلم فرحات بأدب أدهش الجميع ، وأشار إلى أن متاعنا كان قد تم نقله إلى الطابق العلوى ، فى غرفة أعدت خصيصا لاستقبالنا ، وأننا بحكم إرهابنا ، ربما كنا على استعداد للحاق به . بل إنه تصرف تصرفا متحضرا وأمر لنا بإنارة الدرج ، وهذا إجراء له معناه ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا الحال الذى كان عليه الدرج ، الذى كان مصنوعا من الحجر ولكنه كان مهشما ومطحما .

وربما اندهش القارئ ، مثلنا تماما ، لهذه المبالغة فى التأدب ، من جانب شخصية من هذا القبيل . ولكن المعروف ، أن كل ما يحدث على هذه الأرض ، لابد أن يكون له سبب ، والسبب وراء كل هذا الأدب كان معروفا . كان جوهر ، مريضى القديم ، الذى كان قد غادر الرياض ، بعد أن استرد عافيته ، فى مهمته الرسمية ، قبل فترة طويلة من رحيلنا عن العارض ، وعندما كان المد داخل القصر الملكى لصالحنا تماما ، عرج على القطيف وهو فى طريقه إلى البحرين . وبعد أن استقبل فرحات جوهر استقبالا يليق بوزير الخزانة ، قام جوهر بإعطاء أخيه العبد ، فرحات فكرة طيبة عنا ، إلى حد أننا عندما وصلنا ، ومعنا التوصية التى كتبها لنا أبو عيسى ، وجدنا الجميع يرحبون بنا بشتى الطرق ، كما كان فرحات على استعداد أن يفعل كل ما يسرنا ويرضينا .

والواقع ، أن فرحات تحرك فى تلك الليلة ليقدم لنا كل ما فى وسعه من خدمات ، بأن أجرى تحريات جادة عن السفن أو القوراب التى يحتمل أن تسافر إلى البحرين خلال فترة وجيزة . وأردف فرحات قائلاً : " برغم أنى ، لو أن الرأى رأى ، أود ألا تغادرا هذا المكان قبل أن تمضيا معنا هنا ثمانية أيام على أقل تقدير " . وشكرناه على هذه المشاعر ، وسرنا خلف المصباح نصعد الدرج الملتوى ، إلى أن وجدنا أنفسنا داخل غرفة ربما كان الملك يرتاح فيها فى يوم من الأيام ، وكانت أرضيتها مفروشة بالحصير والسجاد ؛ وكان فى الغرفة نافذتان تطلان على فناء داخلى ؛ يضاف إلى ذلك أن جوانب الغرفة الخالية ، التى كانت مشغولة من قبل بحيوانات الأوانى الزجاجية ، كانت توحى بأن هذه الغرفة ، كانت ، من قبل ، مخصصة للحريم . والمعروف أن الجماع ، أو إن ذلك كذبا وافتراء عليهم ، كان شيئاً شائعاً بين الأمراء القرامطة . وأغلقت الباب خلفنا ، وأشعلنا غليونينا ، ودخنا ما شئنا (مستهدفين بذلك إبعاد البعوض عنا) ، ثم نمنا بعد ذلك .

وأمضينا اليوم التالى ، بين قهوة فرحات ، والتجوال فى القلعة ، وفى مدينة القطيف ، وفى البساتين ، وعلى شاطئ الخليج ، وكنا طوال الوقت نستفسر بطريقة عشوائية عن السفن وعن البحارة . والقطيف تشكل ما يمكن أن نعهده تناقضا تاما مع الخصائص والسمات العامة السائدة فى الجزيرة العربية . ذلك أن الحياة النباتية الفاخرة فى بساتين القطيف تفوق بكثير مثيلتها فى حدائق وبساتين الهفوف جيدة الرى ، يضاف إلى ذلك أن أوراقها النباتية الغزيرة التى تتدلى فى الهواء الرطب أثارت فى ذكريات فصل المطر فى كونكان Concan ، كما أيقظت فى أيضا تلك الأحاسيس التى كانت نائمة فى داخلى منذ سنوات طبيعية . والمياه التى تتغذى عليها أشجار النخيل طعمها مالح ، والسبب فى ذلك أن الأرض هنا ترتفع ارتفاعا قليلا عن مستوى سطح البحر ، مما يسهل على مياه المد أن تصل إلى مسافة بعيدة خلال المزارع ، وتجعل ماء البحر يختلط بمياه الينابيع الغزيرة التى تنحدر من التلال إلى ناحية الغرب . والغريب فى الأمر ، أن أشجار النخيل ، شأنها شأن أشجار جوز الهند ، تترعرع على المياه المالحة التى لا تسبب لها أى ضرر من الأضرار . وبيارات النخيل فى القطيف تمتد عدة فراسخ على شكل حزام عريض يمتد بطول الساحل ، وإذا كان إنتاج نخيل القطيف يقل جودة عن إنتاج نخيل الأحساء ، فإنه يتفوق عليه من حيث الكمية . كما تنمو فى القطيف أشجار الليمون والحمضيات ، إضافة إلى الخضروات بكل أنواعها ؛

كما ينمو القمح أيضا في القطيف ، برغم أن الغذاء الرئيسى للسكان في هذه المنطقة هو السمك والأرز . والأرز رخيص في القطيف ، والسبب في ذلك يرجع ، إلى الاتجار في الأرز الهندي عن طريق البحرين .

ومدينة القطيف ، برغم زيادة الرطوبة فيها ، غير جاذبة للزوار ، وليس فيها ما يمكن أن يضيفوه إلى ثقافتهم . وقد لاحظت شريطا من الأرض ممهدا ، كان يقع بالقرب منه عقد ، يبدو أنه كان ينتمى إلى تلك الأيام الخوالى التى كانت القطيف فيها عاصمة لهذه المنطقة . وقد ظن أهل المدينة أننا نجيئون بحكم الثياب التى كنا نرتديها ، وكانوا يأتون ببعض الحركات التى تنم عن سوء الطوية ، عندما كنا نمر عليهم ؛ وأهل القطيف نشيطون ولكنهم ليسوا بشوشين . وأنا لا أعتقد أن موقف أهل القطيف من اختيارهم . ونظرا لأن مناخ القطيف غير صحى ، ونظرا أيضا لافتقارها إلى المواصلات الجيدة مع الداخل ، فإنها تستعيز عن ذلك بميناء يملأ الطين نصفه ، ولا يستقبل سوى أصغر المراكب البحرية ، بل إنه لا يستقبل هذه السفن إلا أثناء حدوث المد فقط . زد على ذلك ، أن الضفاف الرملية ، التى تندفع فى كل الاتجاهات ، تجعل الدخول إلى الميناء عملية صعبة ومحفوفة بالمخاطر . وعلاوة على ذلك ، فإن البروزين الشمالى والجنوبى يحميان الخليج ، ومعه كلا من جزيرة طاروط وجزيرة سويق . Soweik ، وهو يناسب تماما التجارة مع البحرين ، ومع أبو شهر ... الخ . ولو قدر لهذا الميناء أن يُطَهَّر وينظم ، فربما تحول إلى مرفأ يجدر به أن يحمل مثل هذا الاسم ؛ ولكن التحسينات التى من هذا القبيل ، يندر أن تتحقق فى ظل الحكم الوهابى .

كنا فى وقت الظهيرة عندما عثرنا على ربان أحد المراكب ، التى كانت ستبحر فى الليلة نفسها ، نظرا لأن الريح والمد كانا يسمحان بذلك . وكان رجال فرحات قد تحدثا إلى ذلك الربان ، وأعرب عن موافقته على سفرنا معه . واتجهنا بعد ذلك إلى مأمور الجمرى لندفع رسوم السفر عن الأفراد والبضائع . وقد ثبت أن مأمور الجمرى ، وأنا لا أدري إن كان ذلك بتعليمات من فرحات أم بمحض إرادته وميوله هو - كان رائعا للغاية ، وأبلغنا أن تحصيل ولو فارذنج واحد على سبيل الرسوم ، من خدم مفيدى للشعب مثل الأطباء ، سيكون " شين وخطأ " . والمؤسف ، أن موظفى الجمارك الأوربيين بعيدون تماما عن هذه المشاعر الوطنية الطيبة ! وأخيرا ، قام مأمور الجمرى ، من تلقاء نفسه ، بإرسال بعض الرجال ليحملوا متاعنا وينلقوه عبر المياه العميقة وعبر

الوحد إلى ذلك المركب الصغير الذى يطلقون عليه اسم القطر ، الذى كان يبعد عن الشاطئ حوالى خمسين ياردة عن الشاطئ . ويحل المساء ، ويرسل فرحات فى طلبنا ، كى يحيينا ويودعنا ، وكله أسف لأنه عثر بمثل هذه السرعة ، على المركب المطلوب . كما أبلغنا فى الوقت نفسه ، أنه كان معزوما على تناول العشاء مع أحد تجار البلدة الأثرياء ، وأننا مطلوب منا أن نحضر العشاء معه ، وأننا يجب ألا نقلق على رحلتنا ، نظرا لأن ربان المركب كان هو أيضا معزوما على العشاء ، فضلا عن أن المركب لن تبحر قبل أن يكتمل المد عند منتصف الليل .

وبناء على ما تقدم ، اتجهنا بعد غروب الشمس ، على شكل موكب ، على رأسه حاكم مدينة القطيف ، إلى منزل المضيف . كان المسكن مكون من ثلاثة طوابق ، وكان أثاثه ، ومحتوياته ، وترتيباته ، وغرفه الصغيرة ، ونوعية السجاد الذى كان مزينا بحليات صغيرة ، تعكس نوقا فارسيا أكثر منه عربيا . وكانت الترجيلات جاهزة ومستعدة وموضوعة فى نيش جانبي لمن يريد أن يستعملها ؛ وبينما كان فرحات وكبار رجال حاشيته ، ونحن معهم ، نجلس فى الديوان المزود بالحشيات أغرقنا المضيف بماء الورد ، "أربع مرات" ، وقدم لنا الشاي فى فناجيل خزفية جميلة ، بواسطة صبية من الخدم المهندمين على الطريقة الشيرازية والإصبهانية . ومع كل ذلك ، فقد كان الحديث كئيبا إذ كان يدور حول بالات القماش وأكياس الأرز ؛ وكان أهل المدينة الذين كانوا يشكلون ثلثى الحاضرين ، غير مهتمين بما يدور فى الرياض وعنيزه ؛ الواقع أنهم كانوا مهتمين بما يمكن إخفاؤه أكثر من ذلك الذى يمكن كشفه ، فى الوقت الذى كان يراعى فيه فرحات وجماعته الالتزام بالجدية والصرامة التى تليق بالمؤمنين الحقيقيين فى حضرة الكفار أصحاب الفكر الحر . وقد استغرق العشاء وقتا طويلا ؛ إذ كان مكونا من خمسة أصناف ، إضافة إلى بعض الأطباق الفرعية الفارسية الصغيرة من الحلويات غير المعروفة فى هذه المنطقة ، علاوة على أدوار لا نهاية لها من الشاي ، ولم ننهض من على العشاء إلا عند منتصف الليل . وهنا تمنى لنا فرحات رحلة طيبة ، وأصر على أن نرسل له خطابا من البصرة نبلغه فيه بوصولنا إليها سالمين . وأنا لم أرسل ذلك الخطاب قط ، لسبب بسيط ، وهذا عار على أنا ، مفاده أننى لم أتذكر قط ذلك الطلب حتى هذه اللحظة (٢٠ يوليو من العام ١٩٦٤ الميلادى) ، عندما كنت أجلس على شاطئ إحدى البحيرات الألمانية وسط أشجار الصنوبر وأشجار الزان ، وخطر

ببالي شاطئ القطيف الطينى العامر ببيارات النخيل الكثيف . وهكذا " فإن الأزمان تتغير ونحن نتغير فيها " *Tempora mutantur et nos mufamue inillis* . وليكن الأمر كذلك ؛ ومع ذلك قد تختلف القشرة الخارجية ، ولكن جوهر الحكومة البشرية واحد فى كل مكان .

وقبل أن أغادر القطيف أود أن أضيف شئيا عن حاميتها النجدية . إن هذه الحامية شئ كئيب ، وتقل كثيرا جدا عن حاميتنا الموجودة فى عدن من حيث الأفراد والضباط . وحامية القطيف معزولة عما حولها بسبب عدااء الناس لها من ناحية ، وبسبب المخاوف التى تنتاب أفراد هذه الحامية داخل الأسوار التى يحرسونها ، فى ظل مناخ غير مناسب ، وأجور لا تختلف عن تلك التى يحصلون عليها من منتجات أراضيهم ، فى حين أن التقشف الشديد يحرم عليهم ألعاب تزجية وقت الفراغ ، ويحرمهم شرب الدخان ؛ وأنا لم أر فى حياتى مثل هؤلاء العرب الذين يعانون من الاكتئاب ومن " الضجر والملل والسأم " ، أو من الأشياء الأخرى التى تدعو إلى " التثاؤب " ، الذى لا يستطيع النوم أن يضع له حدا " . وكثير من أفراد هذه الحامية مرضى ؛ وجميعهم روحهم المعنوية متدنية . وتتراوح مدة إقامتهم هنا بين عامين ، وثلاثة أعوام ، ولكن بعضهم قد يستمر فترات أطول من ذلك . وأفراد الحامية غير مسموح لهم هنا بالزواج من إناث المدينة ، كما أنهم لا يشاركون ، فى معظم الأحيان ، فى التسلية ، التى تنجم عن الاتصالات الاجتماعية . ومن ثم ، فأفراد هذه الحامية يعدون فريسة لـ " الهموم " Heimweh ، ولا عجب فى ذلك وأنا لن أنسى مطلقا مدى الحزن الذى كان يعتصر شابا مسكينا من شباب العارض ، أنهكه الحنين إلى الوطن هو والحمى ، وهو ممدد على فراش مرضه فى قلعة القطيف . وكان حزنه الشديد ينصب على جبال العارض ، وأعلن على الملأ ، أن كل همه يتمثل فى رؤية هذه الجبال مرة ثانية ، تصبح بعدها مسألة الحياة والموت عنده أمرا واحدا ؛ غير أن فكرة وفاته فى هذه الإثارة الكريهة إليه ، كانت تسبب له حزنا لا يطاق . والواقع أن الرجل الإنجليزى الموجود فى هونج كونج لا يحس الغربة أو يشعر بها مثلما يحسها نجدى مغترب فى القطيف . وقد جلست ساعة أو بعض ساعة بجانب ذلك الصبى ، وحاولت أن أواسيه عن طريق الأخبار السارة التى كنت أحملها من الرياض ؛ ولم أقو على التخلّى عن توسله لى بأن أظل إلى جواره وأن أطيل حديثى معه عن نجد .

وعدنا بعد تناول العشاء على أضواء المصابيح إلى القلعة ؛ وكان متاعنا قد تم نقله بالفعل إلى البوابة البحرية ، التي كان يقف أمامها اثنان من رجال القبطان ينتظرانا . وهبطنا بصحبتهما إلى الشاطئ ، ثم رفعنا ملابسنا إلى وسطنا ورحنا نخوض خلال الماء نحو المركب ، وسط صعوبات بالغة ، نظرا لأن المد كان يتزايد بشكل سريع جدا ، وكدنا أن نسيح كي نصل إلى المركب . وأخيرا وصلنا السفينة ، وقفزنا على جانبها ، وشعرت بمنتهى السعادة عندما وجدت نفسي في البحر مرة ثانية وعلى الجانب الآخر من الجزيرة العربية .

الفصل الرابع عشر

البحرين وقطر

عندما تخلف الليل وراءنا
فى القرب السحيق ، معتماً وأعمى ،
وعندما يكون الظهر الأزرق فوقنا ،
والنافيخ
العديدة تهمهم تحت أقدامنا ،
حيث الأرض والمحيط يلتقيان ؛
والأشياء كلها تبدو واحداً فقط
فى هذه الشمس الكونية .

شيلى

طاقم بحارة بحرینى - البحارة العرب - ميناء القطيف - عيد الميلاد فى البحر -
مسافرون نبلاء - صورة عامة لعائلة خليفة - زنجى متعلم - جزيرة البحرين - المحرق
والمنامة - شكلهما العام - الوصول إلى المنامة - اليوم الأول فى المنامة - استئجار
مسكن - المسكن البحرينى - المنامة - المنامة من الداخل - ميناء المنامة - القلعة
الداخلية - البحرين - سكان البحرين - أهل المنامة - الغرباء - حال الجزيرة -
التغييرات التى حدثت مؤخراً - صيد اللؤلؤ - الحرف الأخرى - الثروة الحيوانية -
حال الحكومة الحالية - ملاحظات عن التسامح - عاصفة شتوية - وصول أبى عيسى -
خطة زيارة عمان - يوسف بن خميس - الفراق - الوصول إلى المحرق - قلعة المحرق

- مدينة المحرق من الداخل - رئيس من آل خليفة - مغيث القادري - مفاهيم ومبادئ القادرية - عينة من شعر القادرية - عاصفة عند منتصف الليل - الإبحار إلى قطر - الماء العذب ينبثق من البحر - شواطئ البحرين وقطر - رأس ريكان - البداع - وصف قطر - مصايد قطر - حكومتها - بدو المناصير - أبراج المراقبة - بنو ياس - آل مرة - محمد بن ثاني - مسكنه وشخصيته - الحياة في قطر - البداع من الداخل - المساجد - زيارة الدوحة - زيارة وكره - جماعة من الصقارة العرب - "أسدان" بدويان - الدهناء - اتساعها وطبيعتها - الحميريون - تاريخ الحميريين - مغادرة قطر - سفينة وطاقم بحارة من بر فارس - الكرم البحري - وصف بر فارس وسكانه - صخور هلول - عاصفة - النزول في شارك - العادات السائدة على الساحل - زيارة الرئيس - آخر أخبار عنيزة - مصير هذه المدينة ومصير التاميل - نزهة في الشارك - الإبحار إلى لنجا - شكل البحر المضيئ - التفسير الوهابي - مقدمة لتاريخ عمان .

كان مجموع أفراد طاقمنا ستة أفراد ، هم الربان وخمسة من الرجال ، وكانوا جميعا من جزيرة المحرق ، التي نتجه إليها الآن ، وكانوا جميعا لهم سمات سكان هذه الجزيرة . إذ كانوا يميلون إلى القصر ، والنحافة ولكن بنيتهم كانت قوية ، وبشرتهم داكنة ، ووجوههم من النوع المعتاد الذي يسر الناظرين ، وكانوا جميعا بلا لحى ، وبشرتهم ناعمة مثل بشرة الهندوس ، لقد كانوا عينات جيدة من ذلك العرق الغريب - الأنباط ، إذا صح ما يقوله الموروث المحلي ، ولكنهم تهجنوا مع كل من الفرس ، والعرب وكذلك الدم العمانى إلى أن أصبحت لهم سمات خاصة بهم ، مع سمة شخصية تميز كل فرد على حدة . وأفراد هذا الطاقم ملاحون أجواد ، ورجال مال وأعمال من نوعية جيدة أيضا ، والجانب الذي يهم كل من يسافر معهم ، هو أن هؤلاء الناس مؤدبون ، ومتمدنون ، وبشوشون ، ومرحون في أغلب الأحيان ، ولذلك يمكن مقارنتهم ، من الناحية الاجتماعية ، وليس من الناحية البحرية أو الملاحية ، بكثير من أطقم سفن السكّونة^(١) الشراعية الأوربية . وثياب هذا الطاقم غريبة جداً ؛ إذ تتكون من إزار كبير من القماش الملون يلف حول الوسط ، يربط بإحكام بين الرجلين أثناء أداء العمل ، ولكنه يترك فوق الركبتين في غير أوقات العمل ، ويلبسون بدلة شغل من فوق هذا الإزار ، ومنديل كبير يعقد حول الرأس ، أو قد يلبسون العمامة بدلا من المنديل عند اعتدال الطقس وأثناء فترة الراحة عندما يتجولون على ظهر المركب ؛ أخيرا

(١) السكّونة : مركب شراعى ذو صاريين أو أكثر - (المترجم) .

فهم يتشحون بمشلع كبير لونه بنى مائل إلى الإحمرار يضعونه على أكتافهم ، ويعدونهم مكملات لمعداتهم ومستلزماتهم البحرية ، وهذا الزى أخف وأسرع من الزى الذى ترتديه أطقم فان ترومب Van Tromp والذى يتكون من سبع سترات يصعب وصفها أو الحديث عنها وست سترات أخرى من النسيج الصوفى الغليظ . وأطقم هذه السفن البحرية لا تستطيع أن تفرقهم عن أهل البلاد عندما ينزلون إلى البر . وأفراد هذه الأطقم على علم تماما بكل مداخل ومخارج ، وخلجان البحر الضحلة فى البحرين ، وإذا ما خاطرت إحدى السفن الغربية بالدخول إلى متاهة الممرات ، دون عون من البحارة الوطنيين ، فإن ذلك سيكون من قبيل التهور والاندفاع .

وسوف يتضح لنا ، من بقية هذا الكتاب ، أن البحارة العرب كثيرون ؛ ولكنهم لا يشكلون طبقة متميزة من طبقات المجتمع ، ولا يمكن وضع حد فاصل بينهم وبين سكان اليابسة . وابن نبتيون^(١) Neptune هنا لا يسخر من منذور سيريس^(٢) أو من منذور مركيورى^(٣) ولا يعتبرهما عدوين له ، مهما قل شأنهما ؛ إضافة إلى أن البحار الغرب لا يسخر من الملاح العربى أو يحتقره ، نظرا لأنهم جميعا مشاعرهم واحدة وعاداتهم واحدة أيضا . والسبب الرئيسى وراء انعدام هذا الانغلاق الطبقي يرجع من ناحية إلى الفترات الطويلة التى يقضيها هؤلاء البحارة على البر وقصر المدة التى يقضونها فى الإبحار على مياه هذا الخليج ؛ وهذه الظروف هى التى تقلل من هذه النزعة الانغلاقية عند البحارة ، وتجعلهم يقتربون من أهل البر . ولو قدر للعربى أن يبحر فى المحيط الأطلسى ، أو بين مجموعة جزر المحيط الهادى ، لأصبح شبيها " ببحارتنا " وملاحينا سواء أكانوا فى البحر أو على البر . ومع ذلك فإن واقع الأمر يقول : إن سلوكيات كل منهما الثابتة ، هى التى تشكل القاسم الأخلاقى المشترك بينهما .

رحب بنا رباننا ، مُليك Moleyk ، على ظهر مركبه ، وصنع لنا على الفور دورا من القهوة . ورحنا ندخن ونحن على يقين أننا أصبحنا بعيدين عن نطاق الأراضى الوهابية ، وبعيدين أيضا عن متناول القواعد التى تقول : " ممنوع التدخين " ، ثم دلفنا بعد ذلك ، وبلغه البحارة ، إلى إحدى الكبائن بالقرب من مؤخرة المركب ، ورحنا فى ثبات عميق ؛ وفيما يتعلق بى أنا شخصا ، فأنا لم تزعجنى كل تحركات البحارة ، أو عدوهم ، أو أصوات أقدامهم ، أو صياحهم وهم يعدون المركب للإبحار .

(١) إله البحر عند الرومان - (المترجم) .

(٢) سيريس Ceres إلهة الزراعة عند الرومان - (المترجم) .

(٣) رسول الآلهة وإله التجارة والفصاحة والمكر واللصوصية عند الرومان - (المترجم) .

وفى صباح اليوم التالى ، الموافق الرابع والعشرين من شهر ديسمبر ، اكتشفنا أننا أصبحنا على بعد عدة أميال فى عرض البحر ، ونتمتع بمنظر الساحل ، وشواطئه المستوية ، وبيارات النخيل ، "ورماله الوامضة وبيضاض خلجانه " ، كما تمتعنا أيضا بمنظر الجزر الصغيرة التى تنتشر هنا وهناك ، ومنظر قلعتى دامن Damàn وداريم Dareem المتقدمتين ، ومن خلفهما الحدود الهرمية الخارجية لجبل مُشهرّ ، الذى كان يمثل الأرض المرتفعة الوحيدة ضمن هذا المنظر . كانت القطيف نفسها تقع عند قاع الخليج ، وقد بلغت من الانخفاض مبلغا تعذر معه علينا أن نراها . ومع ذلك ، فإن خطوط القلعة كان لها تأثير مشهود على رأس التنورة ، وأعادت إلى أذهاننا أيام الحملات البرتغالية والهولندية التى نزلت على هذه الشواطئ ، التى تركوها الآن لمواردها الخاصة الهزيلة .

كان مركبنا قد تجاوز تماما أطراف الخليج المستدقة ، وتمنيت مع بركات أن نواصل إبحارنا فى مرح وسرور ، إلى قناة البحرين ، وفجأة خاب أملنا ، عندما أبلغنا الربان أنه سوف يأخذ بعض المسافرين من قرية السوق . Soveyk ، التى استطعنا تمييز حدودها الخارجية البيضاء ، على الطرف الجبلى المستدق الذى تقع عليه قلعة داريم ، كما أبلغنا أيضا أننا يتعين علينا الاقتراب من البر لنقل هذه الحمولة قبل أن نواصل السير فى مسارنا المعتاد إلى ميناء الوصول . والربان فى مركبه ، هو الملك المطلق ، والقوانين البحرية كلها لا تعترض على ذلك ، سواء أكانت قوانين أوربية أم شرقية . واستسلمنا فى صمت ، وعند الظهر لفنا أشرعتنا فى عكس اتجاه السوق ، ونحن على مسافة تقدر بحوالى مائتى يارده من ذلك الذى نعتبره برا أثناء المد ، ولكنها كانت تشكل حاجزا من الطين والوحل والرمل أثناء الجذر . ورحنا ننتظر ، فى هذا المكان ، وصول معارفنا المرتقبين ، الذين حافظوا على وقارهم ، لكونهم من الشخصيات البارزة ، بأن جعلونا ننتظرهم أربعاً وعشرين ساعة ، قبل أن يتكرموا علينا بصحبتهم .

وبذلك يحل علينا عيد الميلاد دافئا وساكنا فى المكان الذى كنا فيه " بلا عمل مثل سفينة مرسومة على محيط مرسوم " ، نتطلع بين الحين والآخر إلى وصول أولئك المعارف المسافرين ، الذين يبدو أنهم قد نسوا تماما ارتباطاتهم السابقة . وفى النهاية ، نفذ صبر الربان نفسه ، ورفع ملابسه وخاض فى الماء إلى أن وصل إلى البر ،

الذى عاد منه بعد الظهر ، ومعه هذه الشحنة الإضافية من البشر ، وأصبح اللون الرمادى يرقش اللون الذى كان سائدا على المركب من قبل .

كان أول هؤلاء المعارف رئيسا شابا من أسرة آل - خليفة ، ابنا وحيدا ، ووارثا لثروة كبيرة ؛ وكان برفقته عمه الصارم المحترم ، يليه بعد ذلك خادم عبد مهندم ومتقف ؛ وكان معهم أيضا اثنان من أقارب الرئيس غير المباشرين ، وكان معهم سيدة داكنة البشرة بلغ بنا الأدب مبلغا جعلنا لا نسأل عن وضعها المنزلى ، وبذلك يصل إجمالى عدد هؤلاء المعارف إلى حوالى ستة أفراد . ولكن قبل الدخول فى المزيد من التفاصيل ، قد يكون من المفيد أن أجعل القارئ يتعرف ، بشكل عام ، على عشيرة خليفة الأرسطقراطية ، ذلك الاسم الذى يعرفه القاصى والدانى فى هذه المنطقة ، ولكنه ربما كان أقل ذيوعا فى أذان الأوربيين .

وأسرة آل - خليفة هى نفسها من أهل الأحساء ، وليست من الهفوف ذاتها ، وقد ظلت هذه العائلة طوال قرنين من الزمان على أقل تقدير (وأنا أعتقد أن الفترة كانت أطول من ذلك) ، ولكنى لم أستطع العثور على بيان دقيق يحدد ذلك التاريخ القديم (تتمتع بالسيطرة على جزر البحرين ، حينما باسم حكام القطيف من القرامطة ، وحينما آخر بدعم من السلطة الفارسية ، وحينما ثالثا باعتبارها تابعا لـ - عُمان . ولكن بغض النظر عن تبعية آل - خليفة الاسمية ، فإنهم كانوا يحكمون البحرين نفسها كما يكاد يكون مطلقا ، دون أن يتخلوا عن أراضيهم الجميلة وتراثهم الجميل فى الأحساء وعلى ساحل القطيف . وبعد حوالى عشر سنوات من الاضطراب الذى حدث بين آل - خليفة نتيجة الصراع العائلى ، الذى قام خلاله ، فرع صغير من فروع العائلة ، يتزعمه محمد الخليفة (الذى يشغل منصب حاكم البحرين حاليا) بطرد أقاربهم من الجزيرة ، بعد أن ظلوا فترة من الزمن يشغلون منصب الحاكم المناب ، وأجبروهم على الرحيل إلى الأرض الأم ، ليصبحوا فيها رعايا لـ - فيصل مع بقية سكان الاحساء . ونشبت الحرب فى أعقاب ذلك ، وتعقدت الأمور بسبب التدخل الإيرانى ، والتدخل العمانى ، وكذلك التدخل النجدى ، علاوة على الرسائل التى كانت تصل ، بين الحين والآخر ، من الحكومة التركية فى بغداد ، إلى أن أمكن فى النهاية تسوية الموقف عن طريق وضع دفعة إدارة أمور البحرين بين يدى محمد الخليفة على شكل إقطاعى تابع للسلطان الثوينى ، حاكم عمان ، والتزام بأن يدفع لـ - نجد جزية سنوية مقابل الهدوء وراحه البال .

وحصل أبناء عم محمد الخليفة ، المنهزمين ، على بعض الامتيازات من الحكومة الوهابية ، التى ساندتهم فى المعركة السابقة ، ولكنهم اضطروا ، منذ ذلك الحين فصاعدا ، إلى الاكتفاء بممتلكات الأسرة فى المنطقة المحيطة بكل من داريم وسويق ، وتنازلوا عن مطالبتهم بالمياه وبالبحرين . وقد بدأت هذه الحرب بمعركة بحرية كبيرة سبقت الإشارة إليها ، والتى تحول الوهابيون فيها إلى بحارة ، وأغاروا على البحرين وهاجموها باستعمال السفن ؛ وقد أدى انهزام هذه الحملة ، التى كانت تهدف إلى إعادة فرع ابن خليفة إلى العرش ، كذلك والاستفادة الجيدة من النصر الذى حققه محمد الخليفة ، إلى إبرام المعاهدة التى سبقت الإشارة إليها .

وعائلة الخليفة ، باستثناء بعض عادات الإسراف فى الشراب ، والتى تعزى - برغم أن ذلك لا يمكن أن يكون عذرا أو مبررا - إلى الثروة والسلطة ، عبارة عن مجموعته مقبولة من الرجال ، الذين لا تسيطر عليهم النزعات الدموية التى تسيطر على الرؤساء النجديين والوهابيين . وبناء على ذلك ، فإن آل - خليفة تحولوا ، عقب أن وضعت الحرب أوزارها ، إلى أصدقاء من جديد ، ولم يحاول أحد منهم الإخلال بالترتيبات الجديدة التى تم التوصل إليها - كانت الشخصية النبيلة التى معنا على ظهر المركب رئيسا للحزب المنهزم ، وكان يقوم بزيارة إلى عمه المنتصر محمد الخليفة ؛ الذى كان يسكن فى مدينة المحرق ، التى لا تبعد كثيرا عن مدينة المنامة ، برغم أن ذراعا بحريا ضيقا يفصل بينهما .

ومع وجود هذه الشخصيات المهمة على ظهر المركب ، تنازلنا ، من منطلق أننا كنا من المحترفين العارفين بمثل هذه الأمور ، لهذه الشخصية النبيلة ومن معها ، عن الكابينة الموجودة على ظهر المركب ، واتخذنا لأنفسنا مكانا فى وسط المركب . ولكن صديقنا الوسيم ، عروس ، لم يسمح لنفسه بالانهزام فى مباراة المجاملات هذه ، ودعانا إلى أن نشاركه المكان الذى يجلس فيه ، ونشاركه طعامه أيضا ، وقبلنا دعوته بكل سرور ، والسبب فى ذلك أن المكان الذى كان يقيم فيه والطعام الذى يأكل منه كانا أفضل بكثير مما لدينا . ودار بيننا بعد ذلك حديث طويل ، وعمنا كثير من المرح والسرور ؛ غير أن النكات والطُرف المحلية تفقد مغزاها إذا ما أعدنا إلقاءها على بعد يتردد بين أربعة أو خمسة آلاف ميل ، وبعد انقضاء عامين على إلقاءها أول مرة .

ودار بينا وبين العبد الخادم ، الذى كان يدعى ظاهر ، حديثا "مفيدا" ومهما ، ومن الواضح أن الخادم كان ذكيا ، ومتحدثا بارعا رغم هدوئه ؛ وكان ملما بكل الموضوعات التى تطرق إليها الحديث ، سواء أكان ذلك من الناحية النظرية أم العلمية ، بين الوهابيين وجيرانهم . وكان من الواضح أن ظاهر ، شأنه شأن غالبية " أبناء جلدته " ، أو إن شئت فقل الزنوج (العبيد) كان يعارض الأحكام الصارمة والمميتة معارضة شديدة ، كما أنه لم يخف انحيازه إلى مسيلمة ، الذى جزم بأنه كان رجلا " لطيفا " وكريما ، وشجاعا .. وما إلى ذلك ؛ كما أنه لم يخف أيضا استياءه من الأحكام التى سادت الرياض مؤخرا ، ونقلنا عن ظاهر ، فإن تعاليم مسيلمة كانت أساسياتها تتفق مع أساسيات أبو سعيد الجنابى القرموط ؛ وأن الحقيقة التى مفادها أن أساسيات أتباع " النبی الكذاب " (مسيلمة) ، الذين فضلوا ، بعد أن نجوا من سيف خالد بن الوليد ، النفى على اعتناق الإسلام ، والذين انسحبوا بصفة أساسية إلى كل من الأحساء والقطيف ، هذه الحقيقة ، ربما ترجح أن الثورة القرموطية التى اندلعت بعد ذلك فى منطقة الاحساء ، والقطيف ، ربما كانت امتدادا ، برغم التغيرات والتعديلات التى طرأت عليها بحكم الزمن ، لتلك الحركة التى ابتدأها مسيلمة . ومن هنا ، يتوفر لنا دليل آخر على كراهية القرامطة المريعة لكل من يحملون اسم الإسلام من ناحية ، وعلى انتقامهم الذى لا يعرف لنا ولا هواة من سكان المناطق التى كان يعيش فيها أتباع محمد ، وفى مقدمة كل هؤلاء أحفاد تميم ، الذين كان القرامطة يعدونهم مرتدين عن القضية الوطنية النجدية القديمة .

وبينما كنت أتحدث مع ظاهر ارتفع المد ، وطفى مركبنا مرة ثانية على الماء ، ولكن ربح الشمال ، أفضل صديق لنا فى طريقنا من القطيف إلى المنامة ، لم تهب ، وأعقبها عواصف عاتية ، وضقنا على امتداد أربع وعشرين ساعة فى حركة متعرجة إلى الأعلى وإلى الأسفل ، دون أن نصيب أى تقدم . أخيرا طالعنا فى عصر اليوم التالى جزيرة البحرين ، ومع دخول المساء كنا قد اقتربنا تماما من هاتين الجزيرتين اللتين تحملان هذا الاسم . والجزيرة الأكبر من هاتين الجزيرتين ، هى الجزيرة الجنوبية ، ولذلك فهى التى يطلق عليها اسم البحرين ، فى معظم الأحيان ، مع استبعاد الجزيرة الشمالية من هذه التسمية ، إذ أنها يطلق عليها اسم المحرق . والجزيرة الجنوبية يطلق عليها اسم البحرين نظرا لوقوع العاصمة على أرضها . ويفصل بين الجزيرتين ذراع بحرى ضيق يقل اتساعه عن ميل واحد ، ومياهه ضحلة تماما .

وقد شاهدت الخيالة ، وشاهدت المشاة أيضا (برغم أن الماء كان يصل إلى صدورهم فى بعض الأماكن) وهم يعبرون هذا الذراع أثناء الجذر . والبحرين هى والمحرق منخفضتان إلى أبعد حدود الانخفاض ؛ والواقع أن المحرق ليست سوى أرض منخفضة ضحلة تبرز فوق مستوى سطح البحر مباشرة ؛ وعلى كل حال ، فإن تربة المحرق من النوع الخفيف ورملية ، ومن ثم فإن تربة المحرق تعد أجف وأصح من تربة جارتها البحرين ، التى يعد الجانب الغربى منها أرضا منخفضة أيضا ، ولكنه مكون من تراب لزج داكن اللون ، درجة رطوبته عالية جداً مما يجعله يشبه الإسفنج تماما .

وجزيرة البحرين تأخذ فى الارتفاع فى اتجاه الشرق ، بل إنها قد تبدو مثل ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه من باب التأدب اسم " الجبل " أو " المرتفعات " - والواقع أن هذه الجبال والمرتفعات ليست سوى تلالا ، يقل ارتفاعها عن ارتفاع سلسلة تلال جرامبيان Grampian ، غير أن سلسلة هذه التلال منعزلة مما يجعلها تفيد من المسطحات المحيطة بها .

وقبل أن ننزل إلى البر ، يجب أن أضيف هنا أن المواقع المسيبورة فى الماء المالح فى المسافة ما بين القطيف والبحرين من النوع الضحل ، إذ لا يزيد عمقها على ست قامات^(١) إلا فى بعض الأماكن القليلة جداً ، فى حين أن السواد الأعظم من المواقع عبارة عن أماكن ضحلة جداً يظهر قاعها عند حدوث الجذر . والأمواج المتكسرة هنا لا خوف منها ، كما أن الناس هنا لا يخشون عنف الموج فى هذه المنطقة ، وإنما هم يخشون الارتطام بالأرض ، الذى يتعرض المرء له فى كل لحظة . ومن هنا جرى العرف أن تلقى السفن مراسيها أثناء الليل وتبحر أثناء النهار فقط - مما يشكل حذرا مرهقا للمسافر العجل .

ومدينة المحرق ، التى تقع فى الجانب الأيمن من الجزيرة التى تحمل اسمها ، تشبه شريطاً أبيض طويلاً على شاطئ القناة التى تفصل مدينة المحرق عن مدينة المنامة ، التى تحتل مبانيها موقعا متوسطا على الحافة الشمالية للجزيرة الكبيرة .

ومن هنا فإن هذين المرفأين البحرين يواجهان بعضهما ، شأنهما شأن مينائى دوفر وكاليه Calais ، برغم أن مشاعر الود تسود ، من حسن الحظ ، بين هذين

(١) القامة : مقياس لسبر الأعماق طوله ستة أقدام - (المترجم) .

المرفأين ، نظرا لأن الأمر لا يتطلب ، فى حالة نشوب الحرب ، من أسطول بولونيا أن يعبر قناة البحرين ، والمحرق هى أجمل المدينتين وهى التى تسر الأعين ؛ ومنازل مدينة المحرق البيضاء ، التى تبرزها أكواخ النخيل داكنة اللون (والسبب فى ذلك أن اعتدال المناخ هو الذى يجعل هذا الأسلوب من أساليب السكنى أمرا شائعا ، بل ومطلوبا) ، وكذلك قصور آل - خليفة الكبيرة المنخفضة ، والتى تشبه إلى حد بعيد أفضل أنواع الكبائن الموجودة فى ملابار يوينت Malabar Point أو بريش كاندى Breach-Candy (وأنا أضرب هذا المثل من قبيل توضيح الأمور أمام قرائى فى مدينة بومباى ، ولكى يكون ذلك من قبيل تكريمهم) ، وكذلك القلعتان أو الثلاث القريبة من شاطئ البحر ، وكذلك البطارية الساحلية الطويلة ، التى تصلح للاستعراض من مسافة معينة ؛ كل هذه الأشياء مجتمعة ، تشكل طاقما واحد يجدر به أن يكون رسما تخطيطيا ، إن لم يكن صورة . ولقد ندمت فى تلك الليلة ، لأتنبأ لم يكن معى أدوات الرسم ، برغم أنه لو قدر لتلك الأدوات أن تكون معى ، لكنت قد أسأت استعمالها فى حضرة عروس الخليفة ومرافقيه .

وترتفع على طول الخط الرملى المنخفض ، الذى يكمل الجزيرة مجموعات كثيرة منفصلة من الأكواخ المصنوعة من منتجات النخيل ، والتى يتخللها ، من حين لآخر ، منزل أبيض اللون ، أقيم وسط أشجار النخيل الطويلة ؛ والمنطقة كلها يخيم عليها الهدوء والسكون . وبعد ثلاثة أسابيع من الآن ، سوف تنزل على أرض جزيرة المحرق ، ولذلك فأنا أؤجل وصف هذه الجزيرة لحين القيام بهذه الزيارة .

ومع أن المنامة أكبر من المحرق ، إلا أن شكلها غير ملفت للأنظار ؛ والمنامة مركز للتجارة ، كما أنها مقر للحكومة أيضا ؛ ومن هنا ليس فى المنامة سوى عدد قليل من القصور ، إضافة إلى قلة المظاهر المعمارية الدفاعية فيها . وعلى كل حال ، يوجد بالقرب من الطرف الغربى من المنامة ، بناية كبيرة بيضاء مربعة الشكل ، موزع فيها بعض المدافع على شكل بطارية من أمام تلك البناية البيضاء ، توضح أن هذه البناية هى مقر إقامة على الخليفة ، شقيق محمد (الخليفة) والذى يشغل منصب الحاكم المناب فى المنامة . ومدينه المنامة ذاتها لا يشرف منها على البحر سوى جزء صغير ؛ والسبب فى ذلك أن النسق الأول من المنازل والمتاجر هو الذى يحجب بقية منازل المدينة عن رؤية البحر ؛ وباستثناء القصر ، الذى يقيم فيه على الخليفة لا توجد أية منازل

أخرى مهمة بالقرب من حافة المياه . والواقع أن منظر المنامة يوحى بالقذارة منذ الوهلة الأولى ؛ والسبب فى ذلك أن البحارة والصيادين يشغلون ثلاثة أرباع الشاطئ ، علاوة على أن منازل هؤلاء البحارة والصيادين تفتقر إلى المسحة الجمالية . زد على ذلك ، أن الشاطئ نفسه مكون فى معظمه من الحصى القذر . ومن حول مدينة المنامة ، وبخاصة فى الناحية الغربية والجنوبية من المدينة ، توجد البيارات النباتية الكثيفة ، كما تتميز هذه المناطق أيضا بالحياة النباتية شديدة الاخضرار التى توحى بخصوبة التربة ، وتحل محل البريق الخاص بمدينة المحرق ، فى حين تشكل صوارى قوارب صيد السمك الكثيرة هى والأطواق الصغيرة التى أمام المدينة شكلا من أشكال الحسيكة^(١) التى يغلب عليها اللون البنى ، مما يزيد من دكّانة Duskness منظر البحر .

ورحنا نبحر ببطئ بمساعدة ريح جانبية ، إلى أن أرسينا مراسينا أمام المحرق قبل غروب الشمس بفترة قصيرة . وفى الحال وصل إلينا من الشاطئ أحد القوارب ، وقام بنقل رفاقنا المسافرين إلى منزل قريبهم الحاكم المناب ؛ فى حين بقينا نحن ، لقضاء الليل على ظهر المركب ، نظرا لأننا لم يكن لنا أى هدف من النزول إلى البر . وفى صبيحة اليوم التالى ، استأجرنا واحدا من قوارب الصيد الخفيفة العديدة ، التى كانت تقوم بالصيد فى المياه الضحلة فى قناة البحرين ، وسرعان ما بدأنا نتراقص أمام النسيم ونحن - نتجه صوب المنامة . وبعد حوالى ساعة من شروق الشمس نزلنا إلى البر المنخفض المقابل لجمرك المعاصر .

ومسألة وصول الأغراب إلى هنا، سواء من الشمال أو الجنوب، تعد أمرا متكررا ؛ ومن ثم فإن نظرة عابرة ، أو " تحية الصباح " العابرة كانت كل ما يمكن أن يسترعى الانتباه هنا ، فى مكان النزول ، الذى يعج بالبشر . ونحن من جانبنا لم نفقد الأمل فى أن يكون أبو عيسى قد سبقنا إلى هذا المكان ، وأنه ربما كان ينتظرنا فى حى من أحياء هذه المدينة . وتأسيسا على ذلك ، وضعنا متاعنا الهزيل فى حراسة أحد موظفى الجمرك ، الذى كان عبارة عن مجرد تعريشة صغيرة ، مليئة بالتجار ، والربابنة ، وما إليهم (كل يدخل غليوننا إلى حد أن الدخان بدأ يخيم على أجواء هذا المكان الضيق ، وبدأ يتسرب متموجا من خلال فتحات السقف المصنوع من جريد النخيل) ، وبعد أن

(١) الحسيكة : بفتح الحاء وكسر السين ، سياج من أوتاد خشبية مستدقة - (الترجم) .

تجاوزنا بوابة منخفضة ، قصدنا أقرب وأكبر المقاهى الموجودة فى هذه المنطقة ، التى
يجرى فيها ، مثلما كان الحال فى دكاكين الحلاقين فى الأزمان القديمة ، تصيدُ الأخبار ،
والبحث عن الزائرين الجدد . كانت ثمانية أشهر قد مضت علينا ، منذ آخر جلسة
جلستها فى مقهى عام ، فى أحد أحياء غزة ، فى فلسطين ؛ وكنا قد أمضينا بقية
رحلتنا خلال مناطق بلغت من التخلف من الناحية الحضارية أو التقدم من حيث
التعصب الدينى ، أو الجمع بين هذا وذاك ، مبلغا جعل هذه المناطق لا تسمح بقيام
مثل هذه المؤسسات الحضارية . ولكن البحرين تقع خارج نطاق الدائرة الوهابية ،
وتشيع فيها إلى حد ما ، أجواء كل من البصرة وإيران . وجلسنا فى مرح على المقاعد
العالية المفروشة بالحصير ، وسط أهل المدينة المعممين وأصحاب المحلات الذين يرتدون
ثيابا مرحة ، حتى يتسنى لنا السؤال عن آخر من وصلوا من ميناء العجير ، الذى كان
من المفروض أن يبحر منه أبو عيسى ، وفقا لما اتفقنا عليه قبل أن نفترق عنه . وفى
هذه الأثناء ، قام النادل الذى كان يلبس صديرية بيضاء بتجهيز القهوة وتقديمها لنا ،
بعد أن قام بتعمير النرجيلات الكبيرة هنا بالدخان العمانى القوي بعبع الرياض ،
أو إن شئت فقل : مصدر الفزع والقلق فى الرياض ؛ ولكن هنا تغيرت الأمور تماما .

وعلى كل حال ، لم نستطع الحصول على أية معلومات عن ذلك الشخص الذى كنا
نبحث عنه ؛ كانت الرياح الشمالية ما تزال تهب ، تلك الرياح التى ساعدتنا فى رحلتنا
التي بدأناها من القطيف إلى البحرين ، وكانت أيضا غير مواتية لكل أولئك الذين
يودون الوصول إلى المنامة قادمين من العجير . وغادرنا المقهى ورحنا نتجول خلال
الشوارع والحارات نبحث هنا ونبحث هناك ، وكنا نقدم أنفسنا لكل امرئ من أولئك
الذين كنا نظن أنهم قادرون على تقديم أقل المعلومات التى يمكن أن تعيننا على
الوصول إلى ما نريد ، إلى أن بدأنا نشعر بالحرَج من كثرة تساؤلاتنا ، وبدأنا نتخلى
عن هذه المهمة الكاذبة ؛ والأكثر من ذلك أننا بدأنا نبحث عن مكان نمضى فيه الوقت
طوال إقامتنا المؤقتة ، إلى أن يصل صديقنا قادما من الاحساء .

ولم تكن مسألة العثور على مكان الانتظار أمرا سهلا . والسبب فى ذلك ، أن
البحرين شأنها شأن معظم مدن الشرق ليس فيها لوكاندات بمعنى الكلمة ؛ زد على
ذلك ، أن الخانات هنا ، ، مثل أى مكان آخر ، تفتقر إلى مثل هذه اللوكاندات ، علاوة
على أن مظهرها غير الآمن لا يجعلنا نسمح لأنفسنا بالسكنى أو الإقامة فى أى منها .

وأَمْضِينَا ساعات كثيرة فى البحث عن مكان ننزل أو نقيم فيه ، وندمنا كثيرا على أن اللافته المكتوبة بإنجليزية سليمة والتي تقول " للإيجار " لم نشاهدها هنا داخل فترينات المحلات . وفى النهاية دخلنا مقهى جميلا ، يشبه " بيت البحارة " إلى حد بعيد ، وبالقرب من الشاطئ ، من ناحية الحجم ، وطريقة التعامل مع الزبائن . ويتولى صاحب هذا المقهى ، والذي كان رجلا حضريا ، موضوعنا بنفسه ، ويطلب إلى رئيس العمال أن يحل مكانه فترة من الوقت ، ويخرج على إثر ذلك ، يبحث لنا عن مكان ننزل فيه ، وبصحبه بركات ، فى حين بقيت أنا أتبادل أطراف الحديث مع البحارة ، وانظر إلى البحر من خلال تلسكوب مثبت بطريقة خاطئة فى نقطة المراقبة . ويعود الاثنان عند غروب الشمس ، بعد أن عثرا على ما يمكن أن يصلح للإقامة فترة قصيرة ، وهذا هو ما كنا نتمناه . وأعقبت ذلك عقدة صعبة ، كان لابد من حلها فى الجمرى الذى كان فرض على أمتعتنا فيه خمسة ثمان فضة ، وذلك إعمالا لمبدأ "فرض الرسوم الجمركية على الأجانب" ؛ برغم أن المبلغ المستحق كان أقل من ذلك بكثير . ولعل القارئ يلاحظ أن النقود الإيرانية تحل هنا محل النقود العربية ؛ وهذا التغيير مفيد نظرا لسهولة تعرف التسلسل النقدى الشاهى (نسبة إلى الشاه) أكثر من القيم المعقدة المتغيرة لكل من الريال "والقرش" . والملاحظة الثانية ، أن الأجانب يعدون صيدا ثميناً فى كل أنحاء الدنيا . ولكننا أصبحنا الآن أكثر قوة بسبب تحالفنا مع مالك القهوة ، إضافة إلى أننا كان يدعمنا أيضا بحار شاب ، تصادف أن يكون جار لنا فى السكن الذى وافقنا على الإقامة فيه . من هنا ، وجد ذلك الجار ، إنه يتعين عليه أن يتحمل مؤنة الدفاع عنا ، ولذلك رفضنا أن ندفع أكثر من الرسوم المستحقة ؛ إلى أن تمكنا فى النهاية ، من إجبار الموظفين على التسليم بموقفنا ، لنخرج بعد ذلك متجهين إلى منزلنا قرب حلول الليل . وحملنا متاعنا على حمار ، وعبرنا مكان السوق ، ومعنا صاحب المقهى ، والشاب الذى سبق الإشارة إليه ، وتجاوزنا بعض الحارات الملتوية ، وغير المألوفة ، إلى أن وصلنا فى النهاية إلى المنزل المقصود . ثم دخلنا من باب ضيق ، لنجد أنفسنا داخل مُسَوَّر واسع كبير مصنوع من جريد النخيل يصل ارتفاعه إلى حوالى ثمانية أقدام ، والجريد مثبت فى الأرض جنبا إلى جنب ، ومجدول إلى بعضه بإحكام ؛ وكان بداخل هذا المسوَّر كوخان طويلان مصنوعان من سعف النخيل ، وتفصل بينهما مسافة قصيرة ؛ وكان أحد هذين الكوخين لنا ، والآخر للبحار الذى سبقت الإشارة إليه ومعهُ أسرته . كان طول كوخنا يصل إلى حوالى ثلاثين قدما وعرضه عشرة أقدام ، وكان

سقفه من النوع المنحدر المصنوع من القش ؛ ومن الداخل كان هناك حاجز على شكل عائق يقسم الكوخ إلى كابينتين غير متساويتين ؛ خصصنا الصغيرة منهما لتكون مستودعا ، والثانية للمعيشة . وكانت أرضية الكوخ مفروشة ، وهذا عرف عام هنا ، بطبقة كثيفة من الأصداف الصغيرة جداً ، تكاد تكون كلها من فصيل الأصداف اللولبية ، التي لا يتجاوز طول الصدفة الواحدة منها ثمن بوصة ؛ والصبية هم الذين يجلبون هذه الأصداف من الشاطئ باستعمال السلال ، لتكون بمثابة دواسات عند مداخل الأبواب فى المنازل؛ ومن فوق أرضية الكوخ كان هناك حصير كبير من القصب. وبدأنا بعد ذلك ، فى اتخاذ الترتيبات الأولية اللازمة لتجميل وترتيب المكان الذى نقيم فيه ، وسرعان ما شرفنا بحضور مالك هذا المكان ، الذى جاء إلينا من منزله الجميل المصنوع من الآجر والجص ، والذى يقع بالقرب من الكوخ ، ليطمئن علينا ، فى حين كان خدمه يحملون إلينا ، طبقاً للعرف السائد هنا ، عشاء التحية المكون من الأرز والسّمك والجمبرى والخضراوات . وكان من الطبيعى ، أن ندعو أصدقاءنا الذين سعوا كى نعثر على هذا المسكن ، إلى تناول العشاء معنا ؛ وأمضينا سويا أمسية سعيدة ، كنا نشعر خلالها بالأمان والاطمئنان ، ذلك الشعور الذى لم ننعم به منذ أن غادرنا يافا أول مرة .

وفى صبيحة اليوم التالى رحنا نبحت ، من جديد عن أبى عيسى ولكن دون جدوى . فقد قيل لنا : إن أحدا لم يصل من ميناء العجير خلال الأيام القليلة الماضية ، وكانت الرياح الشمالية لا تزال غير مواتية وتحول دون تهيئة الفرصة . كان اليوم يوافق الثامن والعشرين من شهر ديسمبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، وكان علينا أن ننتظر بين الأمل واليأس كل يوم إلى اليوم الثامن من شهر يناير من العام ١٨٦٣ الميلادى . وفى الوقت نفسه ، ونظرا لأننا لم تكن لدينا مشاغل كثيرة (إذ أعطيت لنفسى ، وأنا فى البحرين ، إجازة من العمل الطبى ، وتحولت إلى جنتلمان) فقد تعرفنا على المدينة ، وتعرفنا على الجزيرة هى والسكان ، وعاداتهم ، التى ساقوم بتدوينها هنا بشكل مختصر ، برغم أنى لا أتصور أن هذه الجزيرة تصلح لأن تكون موضوعا لرواية وصفية أقصها على القراء ، وبخاصة بعد أن قام عدد كبير من الأوربيين ، وبخاصة أولئك الذين جاؤا من بريطانيا ، بزيارة شواطئ هذه الجزيرة . ومع ذلك ، هناك أيضا الذين يزورون ، ولا يكتبون أو يصفون ، أو يصورون على الإطلاق . وفيما يخصنا ، فإن التجوال فى الشوارع والأسواق ، والثرثرة هنا ،

والجلوس هناك ، وحيناً مع صديق موال ، وأحياناً فى شجار ، كل ذلك جعلنا أقل حميمية مع المنامة وعالمها الصغير ، مما لو كنا ولدنا وترينا على أرضها .

والمنامة ، شأنها شأن معظم المدن الساحلية ، طول شاطئها أكثر من عرضه ، برغم أنه يعد عريضاً نسبياً ، وعرض الشاطئ فى اتجاه البحر يزيد على ميل وربع الميل ، فى حين تمتد المنازل إلى حوالى ثلث الميل نحو الداخل ، ويصل متوسط ارتفاع الأرض ، التى تقع عليها مدينة المنامة ، إلى حوالى اثنى عشر قدماً ، بل أقل من ذلك ، فوق مستوى ارتفاع المد ؛ والساحل بعد ارتفاعه الطفيف عند الشاطئ نفسه ، ينحدر مرة ثانية نحو الداخل ، إلى أن توحى المياه المالحة التى تترهُنا وهناك ، بأن الشاطئ ، شأنه شأن شاطئ هولنده ، لا بد أن يكون فى بعض أماكنه أكثر انخفاضاً عن البحر الذى يحيط به . والجزء الأكبر من المنازل عبارة عن أكواخ مصنوعة من جريد النخل ، كل منها له مُسَوَّرُه الخاص ؛ والوصف الذى قدمناه عن المنزل الذى نقيم فيه يصلح أن يكون وصفاً عاماً لجميع المنازل التى من هذا القبيل . وهذه الكبائن تختلف من حيث الحجم ، ويجرى إنشاؤها على شكل شوارع وصفوف دون مراعاة للقوانين الهندسية . ونصف المنازل التى من هذا القبيل ، يعيش فيها أبناء نيتون^(١) الشرقى : الصيادون ، البحارة ، الربابنة ، وما إلى ذلك ؛ ومن ثم فنحن نشاهد عند كل جملون ، وعند كل ناحية خرقة طويلة ترفرف مربوطة على سارية على شكل علم بحرى مثلث الشكل ، لتبين اتجاه الرياح ، وبالتالي يتمكن السكان من تنظيم مهامهم ومهنتهم . وتختلط بهذه المنازل الحقيبة ، أو قد تنفصل عنها ، تلك المنازل المبنية من الآجر ، أو من الأحجار ، التى أنشئت ، بدون لف أو دوران ، طبقاً لما يمكن أن أطلق عليه اسم العمارة الفارسية؛ وهذه المنازل ، تكون فى أغلب الأحيان ، أنيقة وواسعة ، وتحتوى على أقواس قوطية ، وبالكونات ، وشرفات ، وأروقة معمدة ، ونوافذ لها شعريات شبكية ؛ وفى هذه المنازل يسكن الأعيان والأثرياء ، والتجار ، والمُلك ، والعاملون فى الحكومة . ولكن نصف هذه المنازل آيل للتحلل والسقوط ، كما أن التعقيدات الحالية فى القناطر إضافة إلى النفايات ليست سوى دلائل وإشارات حزينة إلى التحلل الذى سوف أورد أسبابه ، حالاً ، فالسوق ، الذى لا يبعد كثيراً عن البحر ، والذى يشكل مكاناً فى منتصف طول المدينة ، ليس سوى متاهة من حوارى المحلات الضيقة ، بعضها مقنطر ، وبعضها محمى من

(١) إله البحار عن الرومان - (المترجم) .

أشعة الشمس بواسطة أسقف من القش ؛ وفى وسط هذه المحلات توجد ساحة مربعة الشكل مسقوفة ، يقع فيها المقهى الرئيسى فى المدينة ؛ وهناك أيضا ما لا يقل عن عشرين مقهى آخر بالقرب من الشاطئ ، وفى أجزاء كثيرة من المناطة يوجد العديد من المساجد ، القليل منها لأهل السنة وغالبيتها لأتباع المذهب الشيعى .

وفى الطرف الجنوبى الغربى من المدينة ، وعلى شاطئ الخليج مباشرة ، يقع المنزل الفاخر الفخم الذى يقيم فيه على الخليفة ، حاكم المناطة المباشر ومن حول المنازل توجد بعض الحدائق التى تحتوى على قليل من المزروعات ، والسبب فى ذلك أن التربة التى أقيمت عليها المدينة غير صالحة للزراعة ؛ ومع ذلك فإن أشجار النخيل وبياراته الكثيفة توجد بكثرة على بعد ربع ميل فقط من هذه المدينة ، ومن أمام المنازل يمتد الخليج على شكل طبق ، يستحم فى المياه المتلاطمة ، ويتحول فى بعض الأحيان إلى مسطح رملى منخفض ، وتغطيه الأمواج العميقة فى أحيان أخرى ، والذى يصل فيه الفرق بين المد والجزر إلى مستوى ينافس مستوى المد والجزر فى مدينة ووش Wash أو فى كلبى Kelpie فى "برايد لاميرموور" Bride Lammermoor . ونستطيع أن نتبين هنا كثيرا من السفن التى لا تحصى ولا تعد ، التى تتراوح بين السفن الكبيرة والسفن الصغيرة العربية الصنع ، كما نشاهد أيضا مراكب القطر ، تلك المراكب الشراعية الصغيرة وحيدة الصواري ، كما نشاهد أيضا مراكب السمك ، وهى أيضا من المراكب وحيدة الصواري ، ونشاهد أيضا قوارب صيد السمك ، وكل أنواع المركبات البحرية ، وبعض هذه المراكب مسحوب إلى البر ، وبعضها جانح فى رمل البحر ، وبعض ثالث منها يطفو فوق مياه البحر العميقة . وعلاوة على كل ذلك ، فإن المناخ هنا معتدل والسماء صافية بشكل عام ؛ والناس هنا لا يعرفون البرد ، نظرا لأن السائد هنا هو الدفء المقبول ، برغم أن ذلك يتحول فى فصل الصيف إلى أيام طويلة من الحرارة الشديدة الخانقة .

وإلى الخلف من المدينة ، يوجد سهل واسع مستو تربته مالحة ، قفر دائما تغطيه المستنقعات فى أغلب الأحيان . وعند الطرف البعيد من هذا السهل ، تقع قلعة كبيرة مستديرة الشكل ، ربما تذكر أسوارها وأكتافها ودعائمها صبيه يارموث Yarmouth بقلعة رومان بورو Roman Borough ، فيما عدا أن قلعة البحرين تعد أكثر أناقة إلى حد ما . ويبدو أن هذه القلعة كانت تستعمل فى الأزمان ، القديمة معقلا وحداً دفاعيا

ضمن خطة الدفاع عن المنامة ؛ والقلعة بالصورة التي هي عليها الآن ، مفككة ومهدمة في كل مكان ، وقد سمعت كثيرا من الأساطير التي يرويها الناس عن هذه القلعة ولكنى أرى أنها لا تستحق الإشارة إليها أو إيرادها في هذا الكتاب ؛ والموروث الوحيد الذي يستحق الإشارة إليه ، هو ذلك الذي يعزو بناء هذه القلعة إلى الأمراء القرامطة خلال فترة ازدهارهم . وتمر بذلك السهل مسارات كثيرة تتقاطع في اتجاهات مختلفة ، وتؤدي إلى القرى الصغيرة التي توجد خلف ذلك السهل ؛ وهذه القرى ليست سوى مجرد مجموعات من الأكواخ المصنوعة من القش ، ولكنها كثيفة السكان ، وتشبه إلى حد كبير الأكواخ الموجودة في كل من جزيرة سيلان وجفنبتام Jafnapatam ويطلقون عليها اسم " جنوز " Ganws . وبعيدا عن مدينة المنامة ، يرتفع الجبل الوحيد الذي ينقذ البحرين من أن يطلق عليها الناس اسم الضحل البحرى المنخفض .

والجزيرة نفسها يصل طولها إلى حوالي خمسين ميلاً ، ويصل عرضها في أوسع أجزائها إلى ثلاثين ميلاً ، وباستثناء ميناء المنامة ، فإن الغرباء لا يزورون هذه المدينة إلا قليلاً ، بالإضافة إلى أن هذه الجزيرة ليست مصدراً لجذب الغرباء . ومراعى نجد أفضل من مراعى البحرين ، ومزارع الاحساء أفضل من مزارع البحرين ، ومناخ الاثنين أفضل من مناخ البحرين أيضاً . يضاف إلى ذلك أن الخمسين أو الستين كُفْراً التي تنتشر داخل الجزيرة ليست لها اتصالات كثيرة بالسوق الرائجة التي في الشمال الغربى ، لذا نجد أن مظهر سكان هذه الكفور يوحى بالهمجية ، والذهنية غير المتحضرة ، التي تنتج عن الانعزال . وسكان هذه الجزيرة وهذه الكفور معظمهم ، إن لم يكن جميعهم ، من الشيعة ، وتعتمل في داخلهم كراهيتهم الشديدة لأهل السنة والوهابيين ، ولا يجرؤ أى شخص نجدي على العيش أو الحياة وسط هؤلاء السكان . والعمل بالزراعة وفلاحة الأرض ، يوفر لهؤلاء السكان كل ما يحتاجونه ، بل إنه يحقق لهم فائضاً يتجرون به في أسواق المنامة ، ولكن ليس لديهم ما يصدرونه إلى الأسواق البعيدة . وسكان السواحل، في هذه الجزيرة، هم من صيادى السمك ، بطبيعة الحال ؛ وقد بلغنى أن قلة قليلة من هؤلاء السكان تعيش بالقرب من سفح الجبل الذي سبقت الإشارة إليه ، وتعمل بالقنص ، الذي يعد مصدراً هزيباً في هذه البلاد ، ويقدر إجمالى عدد سكان الجزيرة بحوالى سبعين ألف نسمة أو ما يقرب من ذلك ؛ ومع ذلك فإن هذا العدد أخذ فى النقصان .

والسكان الحضر ، الذين ينبغي أن ينصب كلامى عليهم بصفة أساسية ، وبغض النظر عن حقيقة أصلهم ، سواء أكانوا أنباطا أم غير ذلك ، هم فى الوقت الحالى عبارة عن عرق مولد تماما ، ومع ذلك نجد أن لهذا العرق طابعا عاما ومميزا . ولو قدر لى أن أقول ، عن هؤلاء السكان : إنهم بين بين من السلالة العربية والجوزيراتية Guzeratee ومظهرهم ينم عن البرود - الذى هو أمر طبيعى فى تلك المخلوقات البحرية - الذى يتجلى فى ملامحهم العامة التى توحى بالهدوء التام ؛ لو قدر لى أن أقول ذلك ، فإننى ربما أكون قد اقتربت من وصف هؤلاء السكان وصفا دقيقا . وهؤلاء السكان ليسوا طوال القامة أو أقوياء الأطراف ، فضلا عن أنهم ليسوا بيضا تماما أو سمرا تماما ، ولا هم بالأصحاء تماما أو المرضى كلية ؛ ومع ذلك فإن مظهر هؤلاء السكان يدل على سرعة البديهة ، والرشاقة ، وحسن الطبع ، وقدر معلوم من الروح الطيبة مما يجعلنا نطلق على هؤلاء السكان من قبيل الاختصار اسم "العرق الصنّاع" ، المحب للزدهار ، الذى يصلح للسلام أكثر من الحرب ، وللتجارة أكثر من الزراعة ، وربما للبحر أكثر من البر . وإنها لحقيقة غريبة ، يصعب تفسيرها ، أن أهل السنة فى المنامة ، وهم يشكلون سدس سكانها تقريبا ، ليسوا من الحنابلة ، مثل جيرانهم فى الجزيرة العربية ، أو الأحناف شأنهم شأن البلوش والأفغان عبر الخليج ؛ ولا شافعية ، مثل أتباع محمد فى كل من البصرة وبغداد ؛ وإنما هم من المالكية ، ذلك المذهب المنتشر فى كل من مصر^(١) وشمالى أفريقيا . ومع ذلك فليست هناك صلة دم بين تونس والبحرين . أما الأسداس الخمسة المتبقية من سكان المنامة فهم من الشيعة طبقا للمذهب الإيرانى .

وتختلط بهؤلاء السكان المتجانسين أعداد كبيرة من الغرباء والمستوطنين ، بعضهم يقيم منذ أجيال كثيرة فى جزيرة المنامة التى جاؤا إليها من بلادهم ، بفعل الأرباح التجارية أو لصيد اللؤلؤ ، ولكنهم ما يزالون يحتفظون بسماتهم المميزة لهم ، وثيابهم التى يرتدونها فى أوطانهم . ومن هنا نستطيع أن نشاهد هنا ، فى معظم الأحيان ، الثياب القصيرة زاهية الألوان التى يرتديها الناس فى جنوبى إيران ، كما نشاهد أيضا الصديرية العمانية المرقشة باللون الأصفر البرتقالى ، كما نشاهد أيضا الثوب الأبيض النجدى ، والرداء البغدady المقلّم ، كل ذلك نشاهده مختلطا بالثياب البحرينية ،

(١) إن المذهب الشافعى هو الأكثر انتشارا فى مصر والمذهب المالكى ليس له انتشار إلا فى صعيد مصر فقط - (د. حلمى عبد المنعم) .

وعمامتها المكونة من اللونين الأزرق والأحمر ، والفوطة ذات الحواف الحريرية التى تُلَفُّ حول الوسط ويطلقون عليها اسم النبيان ، علاوة أيضا على الرداء السروالى الذى يشبه رداء الرهبان ؛ ونجد هنا أيضا مجموعة صغيرة من الهنود ، الذين يعملون بالتجارة ، والذين جاءوا أصلا من جوزيرات ، وكوتشن ، والمناطق المجاورة لهما ، ولا تزال تحتفظ بخصائصها المميزة وثيابها المميزة ، وسلوكياتها المميزة أيضا ، وتعيش وسط هذه الجماهير المختلفة ، وأنا أقول إنها "تعيش بينهم ، ولكنها لا تعيش معهم" .

وبعد اندحار الأسرة المالكة القرموطية فى القطيف تحولت البحرين إلى تابع من توابع بلاد فارس ، وظلت فترة طويلة لا تعترف بحكم أو تدخل غير الحكم والتدخل الفارسيين. ومع مطلع القرن الماضى، وبعد أن تخلصت عمان من نير الحكم الفارسى ، بدأت تتزايد أهميتها ، وفرضت على البحرين جزية وحماية مساوية تماما لتلك التى فرضتها عليها حكومة شيراز . فى نفس هذا الوقت ، كانت أسرة خليفة قد بدأت تقوى ويشدد عودها ، إلى أن استطاعت فى النهاية أن تفرض سيطرتها على البحرين ، رغم أن ذلك لقى معارضة ، فى البداية ، من الشاه ثم بعد ذلك من سلطان عمان ، وقد رأينا أيضا أن عبد العزيز بن سعود قد ضم البحرين أيضا إلى الممتلكات الوهابية ؛ وأنه لمن نافلة القول أن النجديين فرضوا بكل قسوتهم المعهودة ، وليست قسوة المذهب نفسه ، طقوسهم ومرعياتهم الدينية ، مما أدى إلى أن يبدو النجديون غرباء تماما على ذلك الشعب الذى كان التسامح - الذى يعد نتيجة طبيعية للتجارة الحرة والاتصال الحر - هو سمة العصر ، ذلك الشعب الذى كان ميالا لحب الترفيه ، واللهو ، والتمتع الاجتماعى ، بكل صنوفه ، برغم كونه شعبا ممتازا من رجال المال والأعمال . وعندما تحطم القيد الوهابى مع سقوط الدرعية ، عادت البحرين إلى سلطة آل - خليفة ومعها النظام الإقطاعى الفارسى . ولكن بعد فترة قصيرة من تولى سعيد ، الذى اشتهر بلقب سلطان عمان ، والذى راح يتحرش بكثير من الممتلكات البحرية الفارسية ، بدأ يزعم ويطالب - وربما كان ذلك أقوى طلب وأقوى زعم ، بالبحرين بل إنه اعتبر الجزيرة امتدادا لعرشه وصولجانه . وبعد سنوات قلائل من عودة النسر الوهابى إلى الحياة ، وبعد أن فرد جناحيه من جديد على منطقة الأحساء ، هجم وأحكم قبضته على البحرين من جديد . ولقد أعجبتنى تلك الروايات التى رواها لى شاهد عيان عن المعارك البحرية التى دارت بين الغازى النجدى وسكان هذه الجزيرة ؛ إن هذه الروايات ، فى نظر راويها ، تجعل معركة اكتيوم تتضاءل أمامها فى نظر بحارة الطرف الأغر Trafalgar

ومن الواضح أن الشجاعة الفائقة كانت على الجانب النجدي ، ولكن العدد والخبرة البحرية جعلت كفة الميزان ترجح لصالح الأسطول البحريني . وبعد اشتباك حاد بعيد عن داريم ، تم فيه إحراق بعض القوات النجدية ، وإصابة البعض الآخر بالأعطال ، نجحت واحدة من مفارز قوات الملك فيصل ، في خداع يقظة العدو ، واستطاعت النزول على منطقة خالية من الحراسة والحراس في أرض الجزيرة . وبعد أن نزلت هذه المفزة إلى أرض الجزيرة ، هجمت مباشرة على المنامة ، ولكن هذه المفزة وجدت نفسها ، عندما وصلت المنامة ، محاصرة كما لو كانت في شبكة ، بفضل الترتيبات الماهرة التي اتخذها على الخليفة ، كما وجدت هذه المفزة نفسها معزولة وغير قادرة على العودة إلى سفنها ، التي كان أهل الجزيرة قد استولوا عليها . وعامل على أسراه معاملة حسنة ، وبالتنسيق مع أخيه محمد الخليفة ، قام بإعادة هؤلاء الأسرى إلى الأحساء ، لا بدون أذى وإنما محملين بالهدايا ، وبصحبتهم أيضا عروضاً بالسلم والمسالمة . ونتيجة لذلك الظرف سارع آل - خليفة بالطريقة التي سبق أن أشرنا إليها إلى تسوية منازعاتهم التي اتخذها فيصل ذريعة لغزو البحرين ، ولكن محمد الخليفة ، بدأ منذ ذلك الحين فصاعداً ، يدفع جزية سنوية للرياض ، من منظور أن تلك الجزية إنما هي ثمن للتحالف والمساندة ، برغم أنه عندما يتطلب الأمر ذلك ، كان يطلب الحماية الفارسية حيناً ، والحماية العمانية حيناً آخر ، أو حتى الحماية التركية في بعض الأحيان ، عندما يضيع الأمل ويسيطر الخوف . وقد أثر التدخل البريطاني إلى حد ما ، في السنوات الأخيرة على الوضع السياسي للجزيرة ، ولكن دون أن يترتب على ذلك أية فائدة للسكان ، بل بالأحرى ، جاء ذلك في غير مصلحة السكان ، ولكن بطريقة غير مباشرة .

وشاطئ اللؤلؤ ومصايده ، تبدأ بشكل محدد ، في البحرين ؛ ويمتد هذا الشاطئ حتى شرقي جزيرة البحرين إلى أن يصل إلى الرُّعْن^(١) القطري ومنه إلى الخليج الجنوبي الكبير في الخليج الفارسي ثم يمتد بعد ذلك إلى حدود كل من الشارقة وعمان ، وصدف اللؤلؤ يغلب عليه أن يوجد في شمالي البحرين على طول سواحل القطيف والجزر المجاورة لها ، إذ يوجد في هذه المنطقة أحد مصايد اللؤلؤ غير أنه ليس وفير الإنتاج ، ولا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال ، بمصايد البحرين ، والشاطئ

(١) الرُّعْن : بتشديد الراء وفتحها هو قُنةُ الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر - (المترجم) .

الشرقى من الخليج الفارسى. ويكثر وجود مصايد اللؤلؤ حول جزيرة البحرين نفسها ، مما يوفر عملا لنصف سكان هذه الجزيرة على وجه التقريب . ويعد محمد الخليفة هنا محتكرا للؤلؤ ، فهو يحصل على ضريبة محددة من كل القوارب التى تبحر فى مياه الخليج بحثا عن اللؤلؤ، إضافة إلى نسبة مئوية يجبيها على ما تصطاده هذه القوارب ؛ وكل من يحاول صيد الأصداف دون موافقة من الحكومة يعرض نفسه للمحاكمة والمساءلة طبقا للقانون ؛ وهذا بطبيعة الحال طبقا لأهواء الحاكم النبيل . وعدد قوارب صيد اللؤلؤ التى تجوب شواطئ البحرين بحثا عن اللؤلؤ ، لا يمكن أن يقل ، بحال من الأحوال ، عن ألفى أو ألفى وخمسمائة قارب على وجه التقريب ، ومع ذلك ، فالناس لا يشكون من أن عدد الباحثين عن اللؤلؤ يفوق عدد اللآلى التى يصطادونها . وموسم صيد اللؤلؤ يبدأ فى شهر إبريل ويستمر حتى شهر أكتوبر من كل عام ؛ والعبيد والزنوج هم الذين يستخدمون بصورة خاصة ، فى عملية الغوص . إذ بوسع هؤلاء العبيد ، من منطلق أنهم ، غواصون أجواد أن يبقوا تحت سطح الماء مده تقرب من الدقيقتين ؛ ولم أسمع قط أن أى واحد منهم استطاع أن يبقى تحت سطح الماء مدة أكثر من ذلك . نسيت أن أقول إن هؤلاء الناس أصحاب البشرة الداكنة ، موجودين بأعداد كبيرة فى البحرين ، التى يقومون فيها ، بحكم تحررهم من القهر الوهابى "بالعزف على التانجو ، وعلى الناي" ، ويرمزون إلى أنفسهم بخصائص صيبانية غريبة ؛ وهذه الخصائص والخصال القريبة عزيزة إلى قلب العبد الحقيقى أكثر من حريته الوطنية .

وإذا كانت الطبقات الفقيرة تشتغل بأعمال الصيد ، فإن الطبقات الغنية عن بكرة أبيها ، تشتغل بالتجارة والاتجار ، سواء داخل حدود الجزيرة نفسها أو عن طريق التعامل مع الغرباء الذين يصلون إلى الجزيرة ، أو عن طريق الترحل إلى الشواطئ البحرية المحيطة بالجزيرة ، بدءا من البصرة إلى بومباي ، ومن كراتشى أيضا إلى زنجبار . وعلى كل حال ، فإن البحارنة (إن جاز لنا أن نسمى سكان البحرين باسمهم الجماعى ، كما هو الحال ، بالنسبة "للزحالة" نسبة إلى زحلة وكذلك "الراكنة" نسبة إلى كراك) بشكل عام لا يرقون إلى مستوى العمانيين والهنود الذين يعيشون بينهم ، فيما يتعلق بإمساك الدفاتر والأعمال المتعلقة بالمال والأعمال . أما فيما يتعلق بالحرف اليدوية فإن البحرانيين ليس لهم مثل فى كل أنحاء الشرق – وبخاصة النساجين ، والعاملين فى مجال المعادن ، والخشب ، والجلد ، والخياطين ، والصباغين ، أو إن شئت

فقل الحرفيين بكل أنواعهم ، والذين يوجدون بكثرة فى المنامة ، ويتفوقون ، إذ أنهم يصلون إلى مرتبة الامتياز فى المصنوعات اليدوية الشرقية (والتي يتفوق فيها ونوقها تفوقا كبيرا على الفن والذوق الأوربي) ، فى العديد من الحرف . وعلى كل حال ، فإن الحرف الأخرى التى تعتمد على العلم أو الدراسة فى حال يرثى له ، قياسا على الحرف اليدوية ، والزراعة ليست مهمة كلية داخل الجزيرة ، ولكن فقر التربة هو الذى يعد عائقا كبيرا ؛ وباستثناء ثمار الحمضيات الضخمة (إذ لم أر فى حياتى حمضيات بمثل هذه الأحجام فى أي مكان آخر) ، فإن إنتاج الخضراوات فى البحرين ، برغم تنوعه بحكم العمالة ، يعد دون المتوسط بشكل عام . وزيادة نسبة الرطوبة تساعد على النمو ، ولكن النوعية لا تتساوى مع الكمية ؛ من هنا فإن النخيل يكثر فى كل أنحاء الجزيرة غير أن نوعية التمر سيئة جدا .

وإذا أردنا أن نضيف شيئا عن الثروة الحيوانية فإننى أقول : إن الإبل جلبها أهل البحرين إلى بلادهم ، من ساحل الجزيرة العربية ؛ ولكن "هذه المخلوقات المسكينة تبدو عليها التعاسة والحزن" ، نظرا لأن تربة البحرين الرطبة ومناخها الرطب أيضا لا يناسبان بنية هذه المخلوقات الجسمية التى تعتمد على الجفاف . والثيران والأبقار ليست نادرة فى البحرين ، رغم أن أجسامها ، ضعيفة ، ولحومها من النوع الهزيل ، وهذا من واقع خبرتنا وتجربتنا لهذه اللحوم ؛ والضأن قليل فى البحرين ؛ ولكن الحمير أفضل من كل ذلك بكثير ، وهذا هو حالها فى كل مكان من الجزيرة . ولكن السمك بكل أنواعه القشرية ، والجلدية والصدفية يملأ أماكن العرض فى السوق ؛ وأنا أشك أن هناك أية منطقة أخرى فى العالم غير البحرين ، فيها مثل هذا القدر الوفير من الأسماك . من هنا ، يعد السمك الغذاء الرئيسى لسكان البحرين ؛ ومن ثم فإن الصوم الكبير ، الذى ورد ذكره عند بيبيو Beppo ، يستمر على مدار العام فى هذه الجزيرة . وقد اكتشفت عن طريق الحساب الدقيق ، أنا وبركات ، أن متوسط سعر السمك فى سوق المنامة يصل إلى حوالى واحد على عشرين ، ولا يزيد عن ذلك بأى حال من الأحوال ، من أسعار السمك على شواطئ البحر المتوسط فى سوريا ، أى فى كل من بيروت وصيدا ، والموانئ المحيطة بهما . ولعل هذا هو واحد من الأسباب التى ساعدت على إهمال تربية الماشية والأغنام . وخلاصة القول ، إن البحرين هى ابنة البحر ، كما أن البحر ، سيظل دوما بمثابة أمها الرعوم ؛ والواقع أن السباع الطرية التى ورد ذكرها عند القديس مارك فى البندقية هى التى تشكل المعيار الرئيسى لرفاه البحرين ومواردها .

وحكومة البحرين تستحق شيئاً من الثناء . فقبل الغزو الوهابي الأول كانت البحرين تتمتع بمستوى من الرفاه أكبر بكثير مما هي عليه الآن ، وهذا نقلا عن الموروث المحلي (نظرا لندرة الوثائق التاريخية) ، وهذا هو ما تشهد به المنازل المدمرة والخانات المنهارة . والسبب في ذلك ، أن القيود الغبية والسياسة غير المريحة التي اتبعتها الوهابيون النجديون كان يغلب عليها تدمير التجارة والقضاء عليها وطرد التجار إلى مكان آخر . وعندما تخلصت الجزيرة في العام ١٨١٨ - ١٨١٩ من الضغوط الأجنبية ، ودخلت ضمن الحركة العمانية التقدمية ، ضمن امبراطورية نشأت من عشيرة واحدة ، بدأت البحرين تستأنف جزءا من نشاطها القديم ، إلى أن بدأت الصراعات تتفاقم بين أفراد العائلة المالكة ، مما أدى إلى التدخل الفارسي ثم بعد ذلك التدخل الوهابي ، الأمر الذي بدأ يعرقل تقدم البحرين من جديد . زد على ذلك ، أن الطابع الشخصي للحاكم المناب الحالي ، محمد الخليفة ، يزيد في سوء الحال في البحرين . وهذا الحاكم من النوع السيباريسي^(١) الذي ، إن صح القول ، يتزوج بطريقة التجريب ، أي كل أسبوعين ؛ معنى ذلك أن كل أربعة عشر يوما نشهد حالة طلاق تعقبها حالة زواج ، ومن الطبيعي أن يكون كل ذلك مصحوبا بالبذخ والإنفاق والتبذير تعويضا للحب القديم وشراء للحب الجديد ؛ ناهيك عن الإعلان المشين عن هذه الأعمال : "إن لم يكن من حقنا أن نتزوج" *Nec nisi legitime vult nubere* والمعروف أن مثل هذه الأعمال تكفي لأن تجعل كلا من روم ومالينا يحمر وجهيهما خجلا . زد على ذلك ، أن محمد الخليفة ، يبدو عليه أنه لا يفكر مطلقا في رفاه رعاياه ؛ وهو يشبه شارل الثاني تماما ، فكلاهما كان مبذرا ومسرفا وأحمق ، فقد بذل محمد الخليفة قصارى جهده في سبيل الخضوع للخارج ، وراح يجبي من الداخل الضرائب والإتاوات ، والمكوث والغرامات التي كان يستعملها كلها في دعارته الخاصة والعامة ، وفي تدمير بلاده وإجبار رعاياه على الهجرة إلى خارج البلاد على غير رغبة منهم . وقد تزامنت عملية التحلل والتفسخ هذه مع النفوذ الوهابي ، الذي لم يكن له حول ولا قوة فيما يتعلق بالأخلاق وبالأخلاق ، وإنما كان جبروته قويا فيما يتعلق بالتعصب والتحلل ، وبخاصة أن هذا النفوذ كان السكان يستشعرونه بقوة في البحرين (ويرجع الفضل في

(١) السيباريسي : أحد أبناء سيبارس وهي مدينة إغريقية قديمة في جنوب إيطاليا اشتهرت بالثراء والترف ، والمقصود هنا ، هو الشخص المترف المنغمس في الملذات - (المترجم) .

ذلك إلى ضعف محمد الخليفة) وبخاصة في العاصمة في المنطقة المحيطة بالقصر ،
التي كان "الشعب المختار" يشاهد فيها بكثير من الغيرة الدينية ، تلك الأفعال الكريهة
التي تدل على الإلحاد والكفر الشيعي والهندي ، والتي كان يجرى التسامح معها
بالقرب من بلادهم وأرضهم الطاهرة . وكانت هناك مستوطنة يهودية صغيرة ، أولئك
الرجال الذين ينظر إليهم في أغلب الأحيان على أنهم مؤشر على حسن التصرف ، قام
الناس بمداهمتها ، إلى أن اضطر أولئك الإسرائيليون إلى مغادرة المنامة ، بحثا
لأنفسهم عن مكان آخر لين اللاهوت كثير الذوق . وكان البنيانيون الهنود قد اضطروا
أكثر من مرة إلى اتخاذ قرار مماثل . وفي الوقت ذاته ، كان السكان الوطنيون ، أو إن
شئت فقل البحارنة ، قد نزحوا عن بلادهم ، ولا يزالون يفعلون ذلك يوميا ، بالعشرات
بل وبالمئات ، الأمر الذي أفاد الموانئ التي رحلوا إليها واستقروا فيها فائدة كبيرة
وأضر ، في ذات الوقت ، بجزيرتهم . انتشروا في المنطقة من البصرة إلى مسقط على
شاطئ الخليج الفارسي ، (باستثناء بر فارس ، الذي كان ينتشر فيه المذهب الوهابي)
التي يسكنها بصفة أساسية أناس من البحرين ، وتجار من البحرين ، ورعاة محلات
ودكاكين من البحرين ، وحرفيون ، وصيادون من البحرين ، وعمال المياومة ، وإناس
آخرون كثيرون ؛ في حين قام مائتان أو ثلاثمائة من البحارنة خلال السنوات القليلة
الماضية بتحويل جزيرة الجعر Ge's ، التي لم تكن مأهولة بالسكان ، إلى واحدة من
أهم المناطق التجارية في هذه البحار . غير أن هذه الجزيرة تتبع الحكم العماني ، الذي
ربما يكون أرشد نظم الحكم ، في الشرق ، في هذا الصدد ، إلى حد أن المنفيين
البحارنة قد لجأوا إليها ووجدوا فيها مأوى وتشجيعا لهم .

وقد أكسب السلوك الذي سبقت الإشارة إليه ، أحمد بن الخليفة عداءً واحداً من
رعاياه وعدائين من الوهابيين . ولكن نظرا لأن مواطني البحرين من النوع المسالم
الذي يقدم التنازلات ، فإن تعبيرهم عن استيائهم يكون على شكل شكاوى من ناحية
وعن طريق الاغتراب فقط ؛ وتعد الثورات الشعبية على الطريقة الأوروبية ، أمورا قليلة ،
وذلك تمشيا مع الوجدان الآسيوي أو إن شئت فقل الضعف الآسيوي ؛ ولذلك فإن
الثائية الشعرية المأخوذة من قصيدة "الرحال" Traveller ، تعد أردأ الاستشهادات
التي تنطبق على الشرق -

يا لصغره ، بين كل ما تتحمله القلوب الإنسانية ،
ذلك الجزء الذي يتسبب فيه أو تشفيه القوانين والملوك .

والشاعر فى هذين البيتين ، اللذين يجريان مجرى الحكمة ، ربما كان يفكر فى أوربا ، أو ربما إنجلترا ، وهذان البيتان يصعب أن يصدقا على العالم الغربى . ولكن ، إذا ما نحى القارئ أوربا جانبا ، فإنه يستطيع أن يتبين بسهولة إن كانت الملوك والحكومات قادرة أو غير قادرة على "التسبب" Cause و "الشفاء" Cure ، أو كليهما معا ، إذا ما أرادت ذلك فى بلاد الشرق .

ويدور فى المنامة حديث طويل ، وكذلك أيضا فى الاحساء عن ذلك الذى يطلق عليه ديبلوماسيون اسم "الضم" إلى شكل من أشكال الحكم الليبرالى . وعلى كل حال ، فإن كلا من طهران والقسطنطينية لا تفكران فى هذا الأمل المرتقب ؛ كما أن عمان التى تعد أكثر تأهلا لذلك ، ليست ، فى الوقت الراهن ، بالقوة التى تسمح لها بذلك ؛ وربما يحدث ذلك - ولكن التحزير والتلميح لا مجال لهما هنا . وأنا أستمع القارئ ، أن يأذن لى بتقديم ملاحظة واحدة . إن كل من يصبح حاكما فى الشرق ، كائنا من كان ، ويجد نفسه بين أهل السنة ، والشيعة ، والوثنيين ، والله أعلم بما يتبقى ، يُحسِنُ صنعا إذا ما جعل "التسامح التام" معيارا له ، وشعارا يضعه على رأيه فى كل ما يتصل بالعادات الوطنية ، والأديان ، بل وحتى فى الإساءات ؛ وهذه الكلمات الثلاثة (العادات والأديان ، والإساءات) تتماثل تماما فى آسيا، تحت أى ظرف من الظروف . وأنا لا أعنى بذلك أن الأجنبى يتحتم عليه أن يُزَيِّن الـ Somnauth (الضعف والاستكانة) ، أو يكرم موكب القوة الساحقة (عند الهنود) Juggernath بتواجده ضمن هذا الموكب ، كما أنى لا أعنى بذلك أيضا ، أن يقوم الأجنبى بتقديم الشموع والورود . (فقد شاهدت بعينى بعض الناس الذين فعلوا ذلك) لتمثال جونيسوا Goneshwa الذى له بطن على شكل مزهرية ؛ ولا أعنى بذلك أيضا أن يرى الأجنبى أن من الحكمة محاكاة أولئك الذين يوجهون أموال الدولة لبناء المساجد فى الجزائر ، وأولئك الذين يضعون صيفا إسلامية على رأس التصريحات الأوربية . (إن التسامح الذى أقصده هنا هو الذى ينصب على ترك كل شئ لسبيل حاله ، وعدم التدخل ، وعدم الملاحقة والتدقيق ؛ وخلاصة القول هى ، النظر إلى فلسفة الرعايا وإلى دينهم باعتبارها أمورا لا يسعد الحكومة معرفتها أو الوقوف عليها ، وأنها لا تدخل فى نطاق اهتماماتها أو ملاحقتها . والسلوك الذى يكون من هذا القبيل يتسم بالعقلانية والسلامة . والمعروف أن التقدم الفكرى والتقدم الدينى يشقان طريقهما عندما يتحرران من كل من المعينات التى لا لزوم لها ومن المعارضة المشينة . والحقيقة شأنها شأن الفضيلة ، فى أشعار دريدن

Dryden "ليست بحاجة إلى سيف ، وإنما هي تسطع بفعل نورها الذاتي" ، فى حين نجد ، إذا جاز لنا أن نستعير تعبير اللورد ماکولى Macaulay الأقل ذيوعا ، أن "البهتان" على العكس من ذلك "برغم أنه ليس ندا للحقيقة وحدها ، قد أثبت فى أحيان كثيرة أنه كان أكثر من ند للحقيقة والسلطة مجتمعين" . الأجداد يغلب عليهم الميل إلى الخداع ؛ والحكومة التى تلتزم بذلك دوما وتحافظ عليه ، لن تحقق فقط هدفها الأول والأساس ، والذي يتمثل فحسب فى النظام ، والهدوء ، والرفاه الاجتماعى ، وإنما سوف يتعين عليها خلال فترة قصيرة أن تعود إلى هدفها الثانوى ، الذى يترتب على الهدف الأول ؛ وأنا أعنى بالهدف الثانوى هنا التقدم الأخلاقى ، والتقدم الدينى وكذلك التقدم الفكرى . ولكن الحكومة التى تخلق الأساسى من الطارئ ، والتى تحاول فرض ذلك يجب أن تشجعه ، فى أحسن الأحوال ، بطريقة غير مباشرة ؛ مثل هذه الحكومة سوف تضحي بكل من الهدف الرئيسى والهدف الثانوى ، وهذا لا يقل عن أولئك الحكام الذين يندفعون فى اتجاه معاكس تماما ، ويعتبرون ذلك نقطة سياسية حتى يمكن الحفاظ على الجهل والخطأ . وتاريخ المستعمرات الأوربية فى كل من الشرق والغرب مليئ بالبراهين والأدلة التى تؤيد هذه الفرضية المزدوجة . والواقع أن خط السلوك الذى ينبغى الحفاظ عليه ، إنما هو خط ضيق ، بل ربما يكون أضيق من الممر الموجود بين سكيلا Scylla وشارميديس Charybdis ؛ ولكن ذلك الذى يبحر بسفينته فوق الصخور ، أو الذى يدفع بها ناحية فوهة الدوامة ، يثبت أنه بحار سيئ فى الحالىن ، وأنه هو الذى سوف يتحمل مسئولية الحطام الذى سينتج عن ذلك^(١) .

كنا طوال الأيام العشرين التى انتظرنا خلالها وصول أبى عيسى ، نزجى معظم وقتنا فى المقاهى المختلفة ، وبخاصة فى ذلك المقهى ، الذى أتيناه على ذكره فى الصفحات القليلة السابقة ، والذي يطلقون عليه اسم "بيت البحار" ، الذى ساعدنا

(١) إن فكرة المؤلف وفلسفته فى طريقة تعامل الحكام مع المعتقدات والأديان وعدم ملاحقة الحكومة لمعتقدات الناس الدينية ، هى فكرة تحسب للمؤلف ، والإسلام يقرر مبدأ حرية الأديان حيث يقول سبحانه "لكم دينكم ولى دين" ويقول سبحانه "لا إكراه فى الدين" لكن فى تعامل حكومة الإسلام مع أهل الذمة من الكتابيين ومن لهم شبهة كتاب قد قيدها الإسلام بعدم تطاولهم وإيذائهم للمسلمين يقول تعالى "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين" ؛ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون" (سورة الممتحنة : ٨ - ٩) فمسألة حرية أهل كل دين مشروطة بعدم إعتداء أهل الأديان الأخرى على الدين الرسمى وهو الإسلام لأنه دين الله الخاتم لأهل الأرض جميعاً - (د. حلمى عبد المنعم) .

صاحبه مساعدة قيمة عندما وصلنا البحرين . فى ذلك المقهى ، كنا نلتقى ، فى معظم الأحيان، التجار الإيرانيين الذين كانوا يحضرون إلى ذلك المقهى لتناول قهوة الصباح ، كما التقينا أيضا فتيانا جاوا من موانئ كثيرة، فمنهم العمانيين، والبلوشيين والهنود ، وفتيانا آخرين ، الذين كان كل واحد منهم يستهلك ما يزيد على أوقية من التبغ الذى كانوا يدخلونه باستعمال النرجيلات الكبيرة التى لها أنابيب طويلة تشبه عيدان القصب ، وكانت ساعاتنا تمر بلا كثير من الملل ، عما كانت عليه مع غرباء آخرين فى مناطق أجنبية أخرى . والقارئ الكريم ، قد يستخلص من موقع البحرين البحرى ومن موقعها المتوسط أن جهل النجديين المطبق فيما يتعلق بالأوروبيين وبتصنيفاتهم المختلفة إنما تحل محله هنا ، فى البحرين ، معرفة ودراية جزئية بهذه الأمور هنا ؛ من هنا نجد أهل البحرين ، يسمون "البريطانيين" English و "الفرنسيين" Fernch : "الإنجليز" Ingleez و "الفرنسيين" Fransees ؛ وهاتان الكلمتان يشيع استعمالهما فى المنامة ، برغم أن الألمان والإيطاليين ، الذين يندر أن تزور سفنهم هذه البحار ، ليس لهم مكان فى المفردات البحرينية ؛ فى حين نجد أن الهولنديين والبرتغاليين أسدل عليهم ستار النسيان تماما .

ولكن الروس ، أو "المسكوف" Moscôp (أى أهل موسكو أو إن شئت فقل : المسكويين Muscovites) ، مشهورون هنا أيضا ويخشاهم الناس ، وذلك بفعل الاتصال ببلاد فارس . يضاف إلى ذلك ، أن سياسة كل من القسطنطينية وطهران يجرى ، فى بعض الأحيان ، الكلام فيهما بطريقة حرة ، داخل هذه المقاهى ، كما تجرى أيضا مناقشة الدبلوماسية العاصفة التى تنتهجها نجد ، كما تجرى أيضا مناقشة انتهاكاتها وتعيدياتها الخطيرة ؛ وكانت بقية الحديث تنصب على أخبار السفن ، والتجارة ، والمال والأعمال، وحكايات البلدان الأجنبية ، وعلى الأدب بين الحين والآخر ، ولم أسمع فى مقاهى البحرين مجرد كلمة واحدة عن الجدل الدينى . وخلاصة القول : إننا وجدنا فى البحرين ، بدلا من المطوعين والمتزمتين ، والجمالة ، والبدو ، شيئا يشبه "رجال العالم ، الذين يعرفون العالم بوصفهم رجالا" ، وهو ما يسبب ارتياحا كبيرا للعقل ؛ ومما لا شك فيه ، أن ذلك أراح عقلى إلى حد كبير .

وينبغى على ، أن أضيف إلى قائمة المهن التى امتنهاها ، تلك الممارسة الطبية الصغيرة التى اضطرت إليها ، بسبب الإلحاح ، والزيارات الودية ، والزيارات التجوالية التى كنا نقوم بها ، بين الحين والآخر ، إلى السهل وإلى الكفور الصغيرة فى

المنطقة المتاخمة له ، والتي شاهدنا فى واحد منها سوقا أسبوعيا ، يشبه إلى حد كبير تلك الأسواق التى تقام فى كل من الهفوف والمبرز ، والتي سبق أن تناولناها بالوصف فى فصل سابق .

وأهم الأحداث التى وقعت خلال تلك الأيام ، إن جاز لنا أن نسمى ذلك حادثا ، كان يتمثل فى تلك العاصفة الشمالية العاتية ، التى صاحبها مطر غزير ، ورعد ، فى حين بذل البحر قصارى جهده كى يصل إلى قمة غصبه فى هذه الأماكن الضحلة . وقد اقتلعت هذه العاصفة الأشجار ، وأطاحت بقمم النخيل برغم متانة جذورها وسيقانها ، كما وصلتنا أنباء عن سفن أغرقت ، وقوراب التهمها البحر ، مما جعلنا نخشى أن يكون أبو عيسى ومن معه ربما أصبحوا على عمق خمسة فراسخ تحت سطح الماء فى مكان ما بين العجير والمنامة ، وأنهم أصبحوا يمرون " بتغير البحر " الذى تغنى به أرييل Ariel والواقع ، أن صديقنا ، ومن معه كانوا قد اتجهوا ، قبل هبوب العاصفة مباشرة ، إلى ساحل البحر فى العجير ، وكانوا على وشك الإبحار ، عندما داهمتهم هذه العاصفة ؛ وبعد أن قضى أبو عيسى نصف يوم من الليل الشديد بين التلال الرملية ، على أمل أن تتوقف العاصفة ، اضطر إلى العودة إلى إحدى قرى الداخل ، كى ينتظر فيها إلى أن يتحسن الطقس . وقد عرفنا كل ذلك من أبى عيسى ومن معه بعد أيام قلائل .

ولم نشاهد الحاكم المحلى أو أحدا من رجاله إلا فى مناسبات قليلة جداً ؛ والواقع أننا كنا نتحاشى هؤلاء الناس بقدر المستطاع ، بل إننا رفضنا دعوة واصلتنا من على الخليفة ، يدعونا فيها إلى الذهاب إلى قصره ؛ ظنا منا أن آل - الخليفة فى البحرين يكفيهم أن " يسمعوا التقرير السيئ " الذى كتبناه عنهم ؛ يضاف إلى ذلك أننا كنا نتصور أن اقترابى من هؤلاء الناس لن يغير من ذلك الذى اخترنته لهم فى ذهنى .

أخيرا ، تغير فى اليوم السادس من شهر يناير من العام ١٨٦٢ الميلادى ، هبوب الرياح إلى اتجاه الجنوب ، وفى اليوم التاسع من الشهر نفسه ، وصل صديقنا أبو عيسى الذى دام انتظارنا له طويلا ؛ وكان معه سرب كامل من الخدم : ثلاثة من البيض ، اثنان من السود ، إضافة إلى صبى مولد لونه يشبه لون البن المحمص ، وكانوا جميعا يرتدون ثيابا حريرية ، ويحمل كل واحد منهم سيفاً مقبضه من الفضة ، فى حين كان أبو عيسى يرتدى مشلحا مطرزا ، ويشبه عريسا فى طريقه إلى الكنيسة لعمل الإكليل .

ولم نتمالك أنفسنا وانفجرنا فى الضحك من منظر هؤلاء الرجال الاستعراضى ، وتلك الأشياء الفارهة التى يحملونها ويرتدونها ، ولكن ذلك له ما يبرره ، وأول هذه الأسباب أن أبا عيسى كان مقررا له أن يواصل مسيره بعد توقفه فى البحرين ، إلى أبو شهر بصفته رئيسا لقافلة الحج الغربية ، الفارسية ، وبالتالي فإن المظهر الذى ينم عن الثراء والمنزلة العالية أمران ملازمان لمثل هذه المهمة ، وحتى يتمكن من المضى قدما فى مهمته بنجاح ، وبخاصة بين الإيرانيين ، وفى أرض يعد التباهى فيها هو كل شئ ، والواقع أنه بدون ذلك ، فإن كل براءات فيصل وكل أوراق اعتماد محبوب تكون قد ألقيت هباء على قطيعه الشيعى . وبدافع من حب أبى عيسى لعمليات التهريب ، الذى كان يشكل جزءا من شخصيته ، فقد أثر أن ينزل رجاله وبضائعه (إذ كان يصحب معه قدرا كبيرا من البضائع) ، ليس فى المنامة ، وإنما خلف رعن صغير لأحد الجبال على بعد مسافة قصيرة من الميناء ، وبذلك يكون قد تهرب من دفع الرسوم والضرائب ، برغم أن ذلك كان ينطوى على خطر شديد إذا ما اكتشف خفر السواحل التابعين لـ - محمد الخليفة ، أمر هذا التهريب . وما أن وصل أبو عيسى إلى الشاطئ حتى استأجر لنفسه ولخدمه سكنا فى منزل كبير فى الناحية البعيدة من المدينة ، ويبعد حوالى نصف ميل عن السكن الذى نقيم فيه ، وراح يعيش عيشة أبهة فى هذا المسكن ، الذى فتح مجلسه لاستقبال جميع الزائرين ، ليصبح مركزا مؤقتا لكل من يود شرب القهوة ولناقلي الأخبار من المناطق المجاورة . وخلال ساعات الهدوء ، كنا نرتب معه أمورنا الشخصية الخاصة بالجزء المتبقى من رحلتنا .

وتبلورت لدينا بعض الخطط التى ناقشناها ورفضنا بعضها وأعدنا مراجعة البعض الآخر ، إلى أن انتهينا إلى اتباع الخطة التى كان صديقنا قد وضعها وحدد معالمها أبو عيسى عندما كنا فى منزله فى الهفوف ، والتى كان قد اشترى من أجلها جزءاً كبيراً من البضائع التى أحضرها معه . ولم تكن هذه الخطة سيئة ، برغم أن ظروفنا خارجة عن نطاق الحسابات العادية تضافرت على عدم إنجاح تلك الخطة بالصورة التى كنا نتطلع إليها وننتظرها .

كان أبو عيسى قد أحضر معه ما يزيد على عشرين حملا من أفضل تمر الاحساء ، تمر الخلاص الحقيقى ، كانت كلها معبأة تعبئة جيدة فى زناويل بيضوية الشكل مصنوعة من السُّمار ، وكان قد اشترى لنا أيضا أربعة مشالح أنيقة من صنع الهفوف ، نسجتها وطرزتها أيادى ماهرة . كان ثلاثة منها يستحقون أن يوضعوا فى

خيوان ملابس الحكام المنايين ؛ ولكن المشلح الرابع كان فاخرا وجميلا بشكل غير عادي ، وكان يحتقر جميع الأكتاف باستثناء كتفى الملك . كان مقررا لكل هذه البضائع أن تظل في حوزة واحد من خدمه وأن تقدم باسم ابن عيسى شخصيا ، وكان أبو عيسى قد أحضر أيضا ثلاثة ثياب لعدد مماثل من الرؤساء الذين تقع ممتلكاتهم بين البحرين ومسقط ، وكان من المفروض أن يكون بصحبة كل ثوب من هذه الثياب عدد مناسب من زنايل التمر ، كي تزيد الهدية حلاوة على حلاوتها . ولكن الثوب الرابع الذى كان أغلى الثياب ، ومعه ثلث زنايل التمر ، كان مقررا له أن يكون من نصيب سلطان عمان نفسه ، وفاء لاهتمامه بأبى عيسى فى إحدى المرات السابقة . ولعل القارئ يعلم أن مسألة تقديم الهدايا ، برغم أن ذلك يكون مجرداً من الأهداف العامة والخاصة ، وإنما من قبيل الذكرى ، والتعبير عن حسن النية ، تعد أمرا عاما وشائعا فى الشرق . زد على ذلك ، أن تقديم الهدايا علاوة على نتيجته الفورية التى تتمثل فى تقديم هدية فورية للمُهدى ، من قبل المُهدى له ، فإنها تضمن للمهدى العون والمساندة المستقبلية إذا تطلب الأمر ذلك . وطبقا لحسابات أبى عيسى ، فإن الأتعاب المنتظرة كانت تكفى لمكافأة خادمه على مشقة وأخطار هذه الرحلة الطويلة . وفى الوقت ذاته ، كان يتحتم على أن أرافق هذه الهدايا وحاملها ، باعتبارى شخصية علمية غزيرة المعرفة فى مجال الطبابة ، وأننى أبحث عن أعشاب وعقاقير ، أنا لا أعرفها شخصيا ، والتى أزعّم أنها يمكن اكتشافها فى المناطق الجنوبية الشرقية ؛ وأننى تحت هذا الستار ، وفى ظل حسن النية الذى سوف يترتب على ذلك ، أكون قد نجحت تماما فى دراسة الأرض وأهلها ، على أن أعود مع رئيس الحمالين بعد ذلك إلى أبى شهر ، التى سيكون بركات قد وصلها ، منذ فترة ، بصحبة أبى عيسى . والسبب فى ذلك ، أن أبا عيسى سوف يتعين عليه أن يمكث فى أبى شهر مدة ثلاثة اشهر ، يقوم خلالها بتجميع وتنظيم قافلة الحج استعدادا للسفر إلى مكة عبر الجزيرة العربية .

وكان من رأى أبى عيسى ، أن مسألة مرافقة بركات لى كانت محفوفة بالمخاطر ؛ إضافة إلى أن بركات لا يمكن أن يحل محلى ، فى القيام بهذه المهمة ، كانت الخطة بارعة بكل تأكيد ، وربما كانت لها قيمتها ومغزاها عند أولئك الباحثين ، إذا ما سمحت ظروفهم لهم باتباع الخط نفسه ، ومع ذلك فإن الخطة تنطوى على كثير من المخاطر ، وتحتاج إلى قدر كبير من التخطيط الفكرى الناضج المسبق والحرص فى عمل الترتيبات اللازمة . أضف إلى ذلك أن صديقى السورى وأنا لم تكن تروق لنا فكرة

الانفصال برغم أن اتصالنا لم يعد يتبقى منه سوى ما يقرب من شهرين - التي ربما كانت تبدو لنا (وقد ثبت ذلك فعلا) أطول بكثير مما كنا نتوقع ؛ والواقع أن فكرة اتصالنا كانت أبدية ومستمرة طوال هذه المرحلة من الرحلة . وكنا قد قررنا أن أبدو كما لو كنت مرافقا عابرا وغير مهم لمدوب أبى عيسى ؛ وبالتالي فإن وجود شخص ثالث معنا ربما كان يتطلب منا تقديم تفسير لوجوده معنا) وأن ذلك ربما يؤدي إلى إثارة الشكوك . ورأينا أيضا أن مسألة تعرضنا نحن الاثنين لخطر تحطم المركب ، هي من قبيل التسرع والتهور ؛ نظرا لأن هذا الفصل من العام لم يكن مناسباً تماماً للملاحة ؛ وخاصة أن نصف الطريق ، يجب أن نقطعه في البحر ، علاوة على أن الملاحة في الخليج الفارسي تشكل نوعاً من الخطر إلى حد ما للسفن الشراعية الأوربية في فصل الشتاء وأوائل الربيع ؛ وهذا الخطر أيضا قد يحدق بالمراكب العربية ، وعلى كل حال ، فقد رحت أنا وبركات نشجع بعضنا بعضاً ونتمنى الخير في جميع الأحوال ، كما خطر ببالي أيضا ألا أضيع هذه الفرصة التي قد أستطيع من خلالها ، اكتساب معرفة جديدة ، أتعرف من خلالها ، إن جاز لي أن أستعمل العبارة ، على عُمان ، برغم أنني أعلم أن ذلك التصرف قد يكون سطحياً في هذه المرة ، ومع ذلك فقد يكون هذا التصرف سبيلاً إلى حميمية أكثر اكتمالاً وديمومة .

كان يوسف بن خميس ، وهذا هو اسم الشخص الذي تقرر أن نذهب إليه ، شخصيه عجيبة جداً ، ويشبه بعضاً من شخصيات شكسبير الثانوية . كان يوسف بن خميس واحداً من أهل الاحساء ، نصفه مزاج والنصف الآخر وغدا ؛ وكان ذكياً ، ومتهوراً ، وطائشاً إلى أبعد حدود الطيش ، لديه الكثير من القصص الهزلية أو إن شئت فقل الحكايات التي تستثير الشفقة ، وكان أيضا يحفظ الكثير من الشعر ، والموروثات ، وكثيراً من الطرف والظرف على اختلاف أنواعه ، سواء أكانت فظة أم رقيقة . ولكن ابن خميس كانت فيه خصلة فريدة ، تتفوق ، في مثل هذا الموقف الذي نحن بصددده هنا ، على كل ما يرجح كفة الميزان المعاكسة ، وكانت تلك الخصلة تتمثل في ولائه وارتباطه غير المحدود ، بأبى عيسى ، وإخلاصه الحقيقي له ، ولم يكن هذا الولاء أو الإخلاص يقل عن إخلاص وولاء ايفان ماكوميشن - فيرجوس Fergus ، أو ولاء وإخلاص كالب Caleb - رافنسوود Ravenswood . وعلى كل حال ، فإن أصل ذلك الشعور لم يكن يمثل في الصداقة أو القرابة أو النسب ، وإنما كان يرجع بالدرجة الأولى إلى طيبة قلب أبى عيسى وسخائه ، الذي أنقذ يوسف بن خميس من فقر مدقع ، وضمن له منزلة كريمة طوال فترة طويلة من الزمن . ولكن مسألة تعارفهما أول مرة

يطول شرحها ؛ ويكفى أن نقول هنا : إن أبا عيسى طوال السنوات الخمس أو الست التي أمضاها في الهفوف ، كان بمثابة أفضل الأصدقاء عند ابن خميس ، إذ كان بحق صديقا عند الحاجة ؛ إضافة إلى أن إسراف وتبذير ابن خميس ، الذي كان يبذل كل ما يعطيه له أبو عيسى ، لم يمنع الأخير من مواصلة العطاء والإغداق .

كان يوسف ، عندما كان صبيا ، قد حمل السلاح ، رمحا في أضعف الأحوال ، في الصراع الذي أسفر عن تفوق فيصل وهزيمته لابن الثنيان . علاوة على أنه كان أيضا ركنا أساسيا من أركان الحملة البحرية الكبيرة التي شنّها فيصل على البحرين وسبقت الإشارة إليها ، والتي فشل التجديون فيها في إنشاء امبراطورية بحرية ؛ وبعد أن حاكى ابن خميس هوراس في معركة اكتيوم Actium ، لم يستشعر عارا أو خجلا في أن يفعل مثلما فعل ذلك الشاعر عندما راح يحدث الناس ويروي لهم جبنه وخجله . وبرغم أن ابن خميس كان مقداما في نواحي أخرى كثيرة إلا أن سفك الدماء كان يصيبه بالرعب والفرع ؛ بل إنه لم يكن يجرؤ على مشاهدة شاه أثناء ذبحها . كان عمر يوسف بن خميس في تلك الأثناء حوالي ستة وثلاثين عاما ، وكان فارح الطول ، وأنيقا (برغم ملامحه المضحكة) ، كما كانت له لحية قليلة الاسوداد ، تتخللها بعض الشعيرات الرمادية التي ظهرت قبل أوانها ، نتيجة الفرع والرعب اللذين كانا ينتابانه عندما كان يرى رفيقا تعيسا يقتل وهو إلى جواره في معركة البحرين ، وذلك على النقيض تماما من مظهره الشاب ، الأمر الذي كان يجعل الآخرين يطلقون عليه الطُرف والنكات، ويجعله هو نفسه يطلق النكات على نفسه أيضا. والسبب في ذلك أن يوسف ، شأنه شأن فولستاف Falstaff قديما ، لم يكن مجرد داهية في حد ذاته ، وإنما كان سببا للدهاء عند الآخرين " ؛ برغم أنه في حالة المواجهة الفعلية ، يصبح على النقيض تماما من فارسنا الجوبيترى^(١) ، نظرا لأنه كان نحيفا تماما وشكله هزيلا .

وقد سبق لى أن تعرفت على يوسف في الهفوف ، التي كان يوسف فيها يزور منزل أبى عيسى بصورة مستمرة ، أو بالأحرى واحدا من أتباعه ، وكانت صلاتهما على أحسن ما يرام . ولذلك لم أجد صعوبة مطلقا في الموافقة على أن يكون هو مرشدا لى خلال هذه الجولة ، ولم يمانع هو أيضا في مصاحبتى ، برغم أنه لم يكن يعرف أى شئ عن هدفى الحقيقى .

(١) جوبيتر : كبير الآلهة عند الرومان - (المترجم) .

وبعد أن رتبنا أمورنا على هذا النحو ، رحنا ننتظر اللحظة المواتية التى تنهياً لنا خلالها فرصة الإبحار . ولكن الريح كانت معاكسة ، وينصرم يوم بعد يوم إلى أن وصلنا إلى اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير ، وفيه أصبحت الريح مواتية ؛ وتزامن ذلك مع سفينة جيدة حملت أبا عيسى هو وخدمه ومعهم بركات إلى مدينة أبى شهر ، فى حين تعين علىّ أنا ويوسف أن نعبر القنال فى اليوم التالى إلى مدينة المحرق ، ومنها إلى ميناء البداع على الساحل القطرى ، الذى يقيم فيه محمد بن ثانى ، أول وأقرب الرؤساء ، الذى سنقوم بزيارته ونقدم له الهدايا التى اصطحبناها معنا . وقد راودنى حدس داخلى من ذلك النوع الذى لا يمكن أن يكون له تفسير واحد ، فى معظم الأحيان ، عند أولئك البشر الذين يمرون به ، وكان يتعلق باحتمالية تحطم المركب التى سنستقلها ، مما جعلنى أعهد إلى بركات بالاحتفاظ بكل أوراقى ، ومذكراتى ، وكل ماله قيمه عندى ، ولم أحتفظ معى سوى بمبلغ صغير من النقود لأواجه به طوارئ الرحلة . وقد جاء ذلك تحوطاً حسناً ، إذ لولاه لضاع هذا الكتاب وهو ما يزال جنينا ، ومعه أشياء أخرى كثيرة ، على جزر السوادة Sowadah .

كان عصر ذلك اليوم صافيا وشمسه مشرقة ، وبعد أن تمنينا لبعضنا تمنيات طيبة وتجمعا سريعا ، وبعد أن تبادلنا التوصيات ، كما هو الحال بين الأصدقاء عندما يفترقون ، ذهب كل منا لحال سبيله - فقد صعد أبو عيسى هو وخدمه ومعهم بركات إلى ظهر سفينتهم المتجه إلى أبى شهر ، فى حين بقى يوسف بن خميس وأنا معه لنقوم على أمر المنزل ، وأمضينا فترة المساء فى وحدة وصمت نسبى . وطوال الأسبوعين اللذين تولى أبو عيسى فيهما شئون المنزل ، جعله بكرمه وعاداته المظهرية محطا مستمرا للحديث والنقاش ، ومحطا أيضا للزائرين ولمن يريدون شرب القهوة ؛ وهذا على النقيض تماما من الصمت الذى هو عليه الآن ، وهذا لا يليق ببيت كبير على العكس من الأماكن الأخرى . وتناولنا العشاء سويا على أفضل نحو مستطاع ، وتجاذبنا أطراف الحديث طوال ما تبقى من فترة المساء . كنت أشعر بالوحدة بشكل غير عادى ؛ ولكن تطلعت إلى رحلة مهمة وناجحة ، ومصحوبة بعود ناجح ، كان هو عزائى الوحيد . وراح يوسف أيضا ، برغم أنه كان حزينا مثل قط مخصى أو دب مترنح بسبب رحيل سيده ، يضلل خياله عن طريق التبشير برحلة سعيدة لأبى عيسى ، وتمنى له أن تكون خالية من دوار البحر ومن أخطاره. ولكن الأمل خدعنا نحن الاثنين ، كما ستكشف الأحداث بعد ذلك .

وفى صبيحة اليوم التالى استقبلنا قاربا صغيرا ، دون أن يضايقنا موظفوا الجمارك هذه المرة ، نظرا لأن شغلهم الشاغل هو الواردات ، ثم عبرنا إلى المحرق ، وفى المحرق ، عثرنا بعد البحث ، على تلك السفينة المتجه إلى قطر ، والتي سبق أن رتب معها أبو عيسى مسألة انتقالنا ومعنا بضائعنا ، والتي كانت تلقى مراسيها بعيدا عن القلعة فى الناحية الشرقية من مدينة المحرق . وحتى يتسنى لنا الوصول إلى تلك السفينة ، كان يتحتم علينا أن نسير مسافة ربع ميل تقريبا فى الرمال الرطبة ، وعبر رعن يشبه الهويس ، يشكل اتساعه طريقا بين الرُدْغة على الجانبين ، إلى أن وصلنا القلعة الكبيرة المربعة ، متينة البناء والمزودة بالمدفعية ، برغم أنها ليست من طراز قلاع وولوتش Woolwich ، وهذه القلعة الكبيرة المربعة تقع عند أقصى الرعن ، ويحيط بها من الخارج سور خارجى طويل . كانت توجد فى هذا المكان ثكنات حامية بحرينية ؛ ولكن المبنى يستعمل حاليا إسطبلا لخيول محمد الخليفة الأنيقة . كان هناك ذلولان يرعيان خارج السور ؛ وكان سلطان عمان قد أرسلهما قبل أيام قلائل ، هدية إلى محمد الخليفة ، اعترافا منه بسداد الجزية المعتادة . كان هذان الذلولان بمثابة عينة ممتازة من سلالة الذلول العمانية الخالصة ، زد على ذلك أن رشاقة شكل هذين الذلولين التى تشبه رشاقة الزراف ، وبريق عيونهما وذكائهما ، ووبرهما الناعم الذى يشبه لونه لون الفئران بنية اللون ، وكذلك خطوهما الخفيف والرشييق ، كل هذه الأشياء هى التى تميز هذه الحيوانات عن أية سلالة أخرى ، وتجعلها ذائعة الصيت .

كانت السفينة التى سنستقلها قد ألفت مراسيها بعيدا عن منطقة القلعة ، وكانت مركبا سيئ الصنع ، سيئ الأشرعة ، فضلا عن أن طاقمه كان شيئا أيضا ؛ ومع ذلك ، فإن هذه العيوب لم يكن يعول عليها كثيرا ، نظرا لأننا لن نستقلها إلى أبعد من قطر ، وهى مسافة قصيرة ؛ زد على ذلك أن أية سفينة ، أيا كان ضعفها أو هزالها ، تستطيع تحت قيادة الربان العليم المجرب ، أن تبحر فى مياه هذا الخليج الهادئة ، الذى أطلق العرب عليه اسم " بحر البنات " ؛ سواء أكان ذلك ناتجا عن رؤية جنّيات البحر - التى لا تقل عن " الجنّيات التى ورد ذكرها عند بريست Brest ، والتى تحظى بتصديق شعبى كبير ، أو ربما تكون هذه التسمية قد نشأت من طبيعة هذا الخليج اللطيفة المسالمة المتبسمة دائما (والتي تتمثل فى الخليج ما عدا الأماكن الضحلة منه) ، ولذلك فهم يشبهونه بصبية شابة محبوبة . ونقلنا بضائعنا وأشياءنا إلى ظهر المركب ، تحت رعاية الربان ، الذى كان "رجلا ملتحيًا كبير السن" ، وكان يمكن لهذه اللحية أن

تكون فى "بياض الثلج" لو أن صاحبها غسلها ومشطها ؛ وبعد أن أكد بقية البحارة للربان أن المركب بكل ما يحمل سيكون جاهزاً للإبحار فى صبيحة اليوم التالى ، مع شروق الشمس ، قمنا بالعودة إلى مدينة المحرق مرة ثانية .

وبصفة عامة ، فإن المحرق عبارة عن مدينة غربية تستحق الزيارة ، برغم أنها ليس فيها واحد ذو أهمية تذكر . والمدينة عجيبه من منطلق مظهرها الغربى - الفارسى ، ومنازلها الصغيرة الأنيقة ، وسوقها المعبد ، ورفوف العرض العالية التى تمتد بطول الجدران ، فى كل مكان ، مما يوحى بالحياة والحيوية خارج المنازل ؛ زد على ذلك ، أن درجة الحشد فى مدينة المحرق ، تختلف عن أسلوب الانتشار المتبع فى معظم البلدان العربية ، التى تجئ قيمه الأرض فيها ، فى آخر القائمة ، بمعنى أن الأرض فى هذه البلدان هى مجرد متسع لأسلوب الانتشار نفسه . ومن حيث التجارة ، فإن المحرق تجيئ فى المرتبة الثانية بعد المنامة ، وسوق المنامة أقل ازدحاماً ومساحة ؛ وعلى الجانب الآخر ، فإن المحرق هى أنظف وأجمل المدينتين ؛ وربما كان ذلك طبقاً للمثل الذى يقول : " الزربية نظيفة فى الأماكن التى لا يوجد فيها الثيران " . وتنتشر فى المحرق قصور كثيرة يعيش فيها أعضاء مختلفين من أسرة الخليفة . وقد اقتادنى يوسف الخميس ، اعتماداً منه على معرفة قديمة ، أقامها تحت جناح سيده أبى عيسى ، لزيارة أحد الرؤساء ، اسمه حميد ، وهو عم حاكم البحرين الحالى . واستقبلنا حميد بأدب جم ؛ ولم تختلف مراسم ذلك الاستقبال عما وصفته من قبل ، وعندما تحولت حرارة الحديث إلى ود وألفه وحب ، كنت أجد صعوبة بالغة فى انتحال بعض الأعدار المهذبة لرفض عروض الرعاية التى قدمها لى حميد ، لو أننى وافقت على البقاء فى المحرق ، والإقامة فيها بصفتى طبيباً للأسرة المالكة ؛ وهذا العرض يبلغ من التكريم ومن المنفعة حداً يصعب معه الرفض ، لو قدر لى أن أكون ذلك الذى كنت أبوء عليه . وبعد برهة من الوقت استأذنا وانصرفنا لنمضى فترة المساء ، فى منزل صغير لرجل يدعى مغيث ، هو من أصدقاء يوسف الخميس ، ومن مواطنى الأحساء . كان مغيث رجلاً أديباً ، وكان يكسب عيشه من العمل بالتدريس أو كخطاط . ومهنة التدريس والخطاط ترتبطان ببعضهما فى الشرق ؛ والنساخون يحققون أرباحاً كبيرة فى غياب المطابع والناشرين ، ومستحيل أن نجد أحداً منهم متعطلاً . زد على ذلك ، أن مغيثاً كان صوفياً ، ينتمى إلى الطريقة القادرية ، التى تحتاج مبادئها الغربية ولاهوتها الذى تدور من حوله الشكوك ، إلى كتاب آخر غير هذا الكتاب ، حتى يتسنى لى شرحها

شرحاً وافياً. ويكفى أن أقول هنا: إن عبد القادر الجيلاني ، مؤسس الطريقة القادرية ، إذا لم يكن (وهذا أكثر من محتمل) قد ادعى لنفسه مكارم مقدسة ، فإنه قد أعطى نفسه ، على أقل تقدير ، بين أتباعه ، منزلة أعلى من منزلة محمد (ﷺ)^(١) ؛ كما ترك لأتباع القادرية موروثاً عبارة عن مذهب فارسي شبيه بمذهب وحدة الوجود^(٢) ، صنع قناعاً من الاسم الإسلامي الذي أطلقه عليه .

وأعضاء هذه الطريقة العجيبة (وبخاصة أولئك الذين أسعدنى الحظ بالتعرف عليهم) يميزون أنفسهم عن طريق التحضر الكامل مع الغرباء والتعاطف معهم ؛ ولذلك فإن مضيفنا القادري كان مثلاً يحتذى فى هذا الصدد . وسرعان ما دخل مغيث معنا فى حوار ديني ؛ والواقع أننا لم تكن نتوقع غير هذا الحوار فى منزل ذلك الرجل ؛ وقد سعدت عندما اكتشفت أن صديقى الجديد كان حساساً فى أفكاره وأميناً فى قناعاته ، التى كانت تركز فى أساسها على أساس عريض من الروحية يمكن تكييفه ليناسب مختلف البلدان والعصور ، نظراً لأن هذا الأساس يقوم على تذوق معقول لكيونة الإله وكيونة الإنسان . يضاف إلى ذلك أن استنتاجاته الأخلاقية لم تكن أقل من معايير النظرية ؛ وأنا هنا ، أحيل المستشرق فيما يتعلق بهذه الاستنتاجات وهذه المعايير إلى القصيدة الشهيرة التى تحمل اسم " الطيِّعات الكبرى " ، التى كتبها الشاعر القادري العظيم عمر بن الفارض .

وعلى كل حال ، ولما كنت قد حاولت ، فى مناسبات سابقة ، تقديم عينات قليلة من الشعر العربى فى موضوعى الحب والحرب ، فأننا أرى أن القارئ يود أن يرى موزية^(٣) الشرق وهى تحلق بجناحيها فى اتجاه السماء . وبناء على ذلك ، سوف أورد هنا قصيدة قصيرة أملاها على مغيث ، خلال حوار دار بيننا عن موضوع " ذلك البلد المجهول الذى لا يعود منه من يرحل إليه " ؛ برغم أن صديقى كان له موقف أكثر استبشاراً - إن لم يكن أقل وضوحاً - من موقف كلوديو Claudio شقيق إيزابيلا Isabella ،

(١) هذه مبالغة من المؤلف ولو فعل ذلك أى مسلم على ظهر الأرض فادعى لنفسه قدراً يعلو على قدر رسول الله محمد (ﷺ) أو على قدر أى نبي من أنبياء الله ورسله فإنه يكفر ككفر بواحاً - (د. حلمي عبد المنعم) .

(٢) وحدة الوجود : المذهب القائل بأن الله و طبيعته شئ واحد وبأن الكون المادى والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية - (المترجم) .

(٣) الموزية : إحدى الإلهات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الشعر والغناء والفنون والعلوم عند الإغريق .

أو موقف هاملت نفسه . زد على ذلك ، أن الأبيات نفسها توضح تماما اتجاهها فكريا شائعا بين أتباع القادرية ، برغم أن هذا الاتجاه الفكرى يقتصر عليهم وحدهم .

وردى لى مغيث ، على عهدة الموروث القادرى ، كيف أن أحمد الغزالى ، أحد أبناء طوس الشهيرين فى بلاد فارس (لعل القارئ المثقف يعرف أن هذا الرجل هو مؤلف كتاب : " لباب الاحياء " وأن صيته قد ذاع فى العام ١١٨٠ الميلادى^(١)) ، قال لتلاميذه وأتباعه ومريديه ذات يوم : " اذهبوا وأحضروا إلى ثيابا بيضاء جديدة ، نظرا لأن الملك قد استدعانى للمثول أمامه " . وينصرف هؤلاء الأتباع والمريدون ؛ وعندما عادوا إلى أحمد الغزالى ومعهم الثياب المطلوبة ، وجدوه ميتا ؛ وكانت إلى جواره ورقة كتبت عليها المقطوعات التالية :

قل لأصدقائى ، الذين سيرونى ميتا ،
يكون ويحزنون هنيهة على خسرانى ،
لا تظنوا أن هذا الجثمان الذى أمامكم هو أنا ،
هذا الجثمان جثمانى ، ولكنه ليس أنا .
أنا حياة لا تموت ، وهذا ليس سوى جسدى ،
السنين الكثيرة دارى وثيابى التى تتغير ؛
أنا طائر ، وهذا الجسم كان قفصى ،
لقد جنحت طيرانى إلى مكان آخر ، وتركته إشارة .
أنا لأولوة ، وهذه محاربتى ،
انفتحت عنوة ، وهجرت للعدم ؛
أنا الكنز ، وهذا كان العزيمة
ألقيت على ، إلى أن دخل الكنز فى الحقيقة .
شكرا لله الذى أسلمنى ،
وحدد لى مسكنا أبديا فى الأعلى .

(١) الصواب أن اسم الكتاب الذى اشتهر به أبو حامد محمد الغزالى هو "إحياء علوم الدين" وقد توفى عام ٥٠٥ هجرية - (د. حلمى عبد المنعم) .

هناك أنا الآن أمضى اليوم فى الحديث مع السعداء ،
وأرى الإله وجهها لوجه وبلا قناع ؛
واتأمل المرأة التى أرى وأقرأ فيها
الماضى والحاضر ، وكل ذلك الذى يتبقى أن يكون .
الطعام والشراب أيضا لى ، إلا أنهما اثنان فى واحد ؛
والأسرار معروفة لذلك الذى يجدر به أن يعرفها .
أنا لا أشرب " نبيذا حلو المذاق " ،
لا ، ولا " ماء " ، حليب الأم النقى .
افهم ما أعنيه جيدا ، لأن السر
تدل عليه كلمات الرمز والمحسنات البديعية .
لقد مضيت فى رحلتى ، وتركتك ورائى ؛
كيف أتخذ مسكنا من مسرحك المتوقف
إذن حطمت منزلى ، وكسرت قفصى إربا إربا ،
واترك المحارة تموت ومعها أخدوعات نسبية ،
مزق توبى ، ذلك القناع الذى ألقى على ذات مرة ؛
ثم ادفن كل ذلك ، ودعه كله فى طى النسيان ،
لا تعد الموت موتا ، لأنه فى الحقيقة
حياه الحياوات ، هدف كل استباقاتنا .
فكر بحب فى الرب ، الذى اسمه الحب ،
الذى يفرح بالعطاء ، ويهب لتطمين الخوف .
من حيث أكون ، أراك أيتها الأرواح التى لا تموت مثلى تماما ،
وأرى أن مصيرنا واحد ، وأراك مثلى أنا^(١) .

(١) أنا أشكك فى نسبة هذا الكلام الذى سماه المؤلف بالقصيدة ، أشك فى نسبته إلى الغزالي ، لأن الغزالي كان موسوعة علمية وكان متقناً للعربية فكيف يقول هذا الكلام الذى يهبط إلى مستوى العامة أو أقل - (د. حلمى عبد المنعم) .

وينبغي أن أشير هنا أن " الماء " والنبذ " اللذين أنكرهما الشاعر في هذه الأبيات سيكونان من بين مباحج الحالة المستقبلية التي يؤكد عليها القرآن ؛ كما أن البعث الجسدى الذى يؤكد عليه محمد (ﷺ) ، لا يظهر بشكل واضح فى مقطوعات الغزالي ، الذى تبدو كل أفكاره ، بالشكل التى هى عليه فى هذه الأبيات ، معادية للإسلام تماما . وبينما كان مغيث يلقى هذه القصيدة ، فى تنكر شرقى أصيل ، دخل فى شكل من أشكال الانجذاب ، وانفجر فى البكاء ، ولقى كثيرا من المصاعب فى استكمال إملاء القصيدة على . وفى نفس هذا الوقت ، كان يوسف قد راح " يغط فى نوم عميق " شأنه فى ذلك شأن الضيف فى رواية " ماجدان من فيرونا " عندما بدأت أغاني ثوريو Thurio وخطابات سلفيا Sylvia . وفى ساعة متأخرة من الليل دخلت أنا ومغيث فى ثبات عميق أيضا .

وبعد منتصف الليل استيقظنا جميعا على أصوات الرعد المدوية التى كانت تنذر بهبوب عاصفة شديدة ومطر غزير ؛ وعندما طلع النهار ، لم يكن مجرد إنذار بضياع فرصة إبحارنا ، وإنما كان من المستحيل علينا أن نخطو خطوة واحدة خارج المنزل ، لأن العاصفة كانت مستعرة مثل وحش كاسر . كانت العاصفة تهب من ناحية الشمال . ورحت أنا ويوسف تتبادل الآمال غير المؤكدة التى مفادها أن أبا عيسى ومن معه ربما يكونوا قد وصلوا إلى أبى شهر بطريقة أو بأخرى قبل مجيئ ذلك الإعصار . ولكن الواقع ، وهذا هو ما عرفناه بعد ذلك بثلاثة أشهر تقريبا ، هو أن هذه العاصفة فاجأتهم ، قبل أن يبحروا من رأس خليفة ، على الخليج ، وأعادتهم من جديد إلى منطقة قريبه من البحرين ، وأن ذلك لم يكن خاليا من الأخطار والإزعاج . وأنهم لم يستطيعوا شق طريقهم مرة ثانية إلى أبى شهر إلا بعد أيام من التأرجح والقلق .

وفيما يخلصنا ، فقد تصرفنا تصرف العقلاء ، وبقينا فى مأوانا ، إلى أن هدأت العاصفة ، بعد أربع وعشرين ساعة ، وطلعت الشمس من جديد ، وهنا استدعينا الربان واقترحنا عليه أن يبحر بالسفينة . ولكن الربان العجوز جزم أن البحر كان ما يزال هائجا على نحو لا يسمح لسفينته بالإبحار (وأنا أعتقد أنه كان على حق فيما ذهب إليه) ، واقترح علينا أن ننتظر إلى اليوم التالى . ولم يكن أمامنا شئ نفعله سوى التجوال فى الشوارع ، والجلوس فى المقاهى والسير على الشاطئ الرملى ، وزيارة قرية صغيرة بالقرب من مدينة المحرق ، والتى سمحت تربتها الهزيلة لواحد من

أهل المحرق بإقامة مزرعة عليها ، إلى أن عدنا فى النهاية إلى المنزل ودخلنا فى خطاب عميق مع مضيفنا الفيلسوف الزاهر . كان مغيث يكره الوهابيين من أعماق قلبه ، والواقع ، أن مجيء الوهابيين إلى الاحساء كان السبب المباشر فى تركه لها ؛ فقد اعتبره الوهابيون مهرطقا ، فى حين كان ينظر هو إليهم ، باعتبارهم متعصبين متشددين لا يرحمون ؛ وهذه الاتهامات يفترض وجود أى منها وجود الآخر فى كل بلاد الدنيا .

أخيراً ، ظهر الربان من جديد ، فى اليوم السادس والعشرين ، ودعانا إلى ركوب مركبه الذى كان يقف عند رعن الجبل الذى كانت القلعة مقامة عليه . وأعربت لـ - مغيث عن أملى فى أن ألقاه مرة ثانية عندما نعود من عمان . ورد على مغيث قائلاً : " دعنا نتطلع إلى اللقاء فى عالم آخر ؛ إذ ستكون هناك الديمومة الأكبر " . وبعد أن قال لى ذلك شد على يدى ثم افترقنا .

وحملنا قارب خفيف إلى السفينة . وبالقرب من السفينة شاهدنا تلك الظاهرة العجيبة غير الفريدة ، فقد شاهدنا نبع مياه عذبة ينبثق من بين مياه البحر المالحة . كان ذلك النبع يبعد حوالى ستين ياردة عن علامة الجذر ، وشاهدنا نساء المحرق وهن تخضن وجراهن على رؤوسهن إلى أن تصلن إلى صخرة صغيرة ، أو إن شئت فقل العلامة الأرضية . (أو العلامة البحرية إن شئت) التى تدل على النبع ، الذى كان ينبثق من الأسفل إلى الأعلى بقوة كانت تطرد الماء المالح من جميع النواحي ، تاركة حولها دائرة كبيرة من المياه الصالحة للشرب ، كانت النسوة تغمرن جراهن فيها ، وتعدن محملات بذلك الذى يظنه المشاهد الجاهل مقدارا من الماء المالح ، الذى عادت به هذه النساء إلى أحد الحمامات المالحة على البر . كانت سفينتا التى كانت تتساوى ، من حيث الحجم ، مع السفينة الشراعية ذات الصاريين ، محملة بالثروة الحيوانية ؛ كما كان على ظهرها أيضا مسافرون من الجنسين ، ومن مختلف الأعمار ، غير أن حالهم كان متدنيا ، وكانوا جميعا مسافرين إلى قطر ، وكان على ظهر المركب أيضا ست أو ثمان من البحارة ، كما كان بصحبتنا على ظهر السفينة عشرات من الغنم . (لم يكن لهذه السفينة كابينة على الإطلاق) . وشغلت مع يوسف أعلى الأماكن وأكثرها احتراما ، وكان ذلك الموقع على ظهر المركب بالقرب من مؤخرتها ، ثم بدأنا نحس ، قبيل الظهر ، بتثاقل المركب . كان البحر لا زال هائجا ، وشعر رفيقى بدوار البحر ،

ومبلغ علمى أن نيلسون Nelson ، كان يصاب بدوار البحر من حين لآخر ؛ ولكنى كانت لدى مناعة ضد هذا المرض ، وقد اكتسبت هذه المناعة من الرحلات البحرية الكثيرة ، ومن الطقس السيئ الذى واجتهه على سطح المحيط .

ومضينا فى إبحارنا " ، وتجاوزنا كثيرا من الأماكن الضحلة ، وكثيرا من الحيويد^(١) البحرية ، التى كنا نلاحظها عن طريق تغير اللون على صفحة الماء أو حدوث تموج خائن طويل . وقرب حلول الليل بدأنا نشاهد الطرف الغربى من قطر ، والذى يطلق عليه فى كثير من الخرائط اسم بحران Bah.ran ، وأنا لا أعرف الأساس الذى اعتمدوا عليه فى إطلاق هذا الاسم على هذا الطرف الغربى ، والمؤكد أن الناس هنا لا يطلقون هذا الاسم على هذا الجزء ، والمعروف أن " بحران " هى صيغة الرفع ولكن "بحرين" هى صيغة الإضافة أو صيغة المفعول ؛ ولذلك فأنا أرى أن جغرافيينا ربما يكونون قد تجاوزوا الصواب نتيجة وقوعهم فى خطأ نحوى . كان ساحل قطر يبدو صخريا من أمامنا ، ولكنه لم يكن مرتفعا ؛ كان يبدو لنا قفرا تماما ، وكنا نرى على بعد مسافات أبراجا للمراقبة ، من قبيل تلك الأبراج التى شاهدناها فى مناطق مختلفة من الشاطئ السورى ، والتى يعزوها الموروث الشعبى إلى الإمبراطورة هيلينا ، زوجة قسطنطين الأعظم .

وصحونا منزعين أثناء الليل، على صوت احتكاك الكيلة^(٢) بأحد الحيويد البحرية ، الأمر الذى ترتب عليه كثير من الاضطراب والفوضى والصراخ، وارتباك عمل البحارة ، إلى حد أن خروجنا من ذلك الحيد كان من قبيل المصادفة الحظيظة وليس بفعل مهارة البحارة . وفى اليوم التالى ، كان علينا أن نتحمل الرياح غير المواتية والمطر المتساقط بلا أى شئ نحتذى به ، فى حين كانت السفينة تشق طريقها أسفل رأس ريكان Ras Rekan ، أو إن شئت فقل : الرأس الموجودة عند أقصى شمال الرعن القطرى ؛ وهذا الرعن عبارة عن لسان جرىء يمتد داخل البحر ويتردد ارتفاع صخوره بين ثلاثين أو أربعين قدما ؛ وقد استغرقنا وقتا طويلا فى الدوران حول هذا اللسان . وقد لاحظت قلعة كبيرة الحجم فوق تلك الصخور ؛ وهذه القلعة تتبع إحدى القرى الواقعة على إحدى الكثر القريبة التى تسد المجرى ، ولكنى نسيت اسمها .

(١) الحيد : مجموعة من الصخور البحرية القريبة من السطح - (المترجم) .

(٢) الكيلة : بكسر الكاف وتسكين الياء ، سفينة مسطحة القعر - (المترجم) .

وفى صباح اليوم الثامن والعشرين كنا قد درنا حول رأس ريكان واتجهنا جنوباً ، ومن ورائنا العاصفة ، صوب مدينة البداع ' Bedaa' . كان الشريط الساحلى كله منحدرًا ، ولكن ارتفاعه لم يكن كبيرًا ، وشاهدنا على ذلك الشريط الساحلى خمساً أو ستاً من القرى ، أو إن شئت فقل : مساكن الصيادين ، التى تقع بين رأس ريكان والبداع ، والتى أصبحنا مقابلين لها قبيل حلول المساء . ونزل بن خميس إلى البر ، وقصد إلى منزل رئيس المدينة ليقدم له تحياته ويستأجر لنا سكناً ؛ ولكن الوقت كان متأخراً ولذلك أثرت قضاء الليل على ظهر السفينة . وفى صبيحة اليوم التالى عاد ابن خميس ليأخذنى معه ، وخضنا سوياً خلال منطقة رملية إلى أن وصلنا ، فى النهاية ، إلى مدينة البداع ، التى تعد حالياً ، المدينة الرئيسة فى قطر .

ومدينة البداع هى العاصمة البائسة لمنطقة بائسة أيضاً . وإذا أراد القارئ أن يأخذ فكرة عن قطر ، فله أن يتصور أميالاً وأميالاً من الكثبان الرملية الجرداء المكشوفة ، التى أحرقتها الشمس ، ويندر أن تجد فيها شجرة واحدة تكسر رتابة الحدود الخارجية الجافة : وعند أسفل هذه الكثبان يوجد شاطئ من الوحل يمتد قرابة ربع الميل فى اتجاه البحر على شكل وعث^(١) له حافة من الوحل والرواسب الطينية والعشب والطحالب البحرية . ونحن إذا ما نظرنا فى اتجاه البر وأسفل هذه الكثبان الرملية ، نرى ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه ، من قبيل الأدب الجم ، اسم المرعى ، الذى هو عبارة عن منخفضات جرداء تحتوى كل واحدة منها على عشرين حصوة مقابل كل عود من الحشائش ؛ ومن فوق هذا المنظر الأرضى الحزين ، وعلى مسافات متباعدة ، توجد مجموعات صغيرة من الأكواخ الطينية البائسة ، بل وشديدة البؤس ، والأكواخ المصنوعة من سعف النخيل ، الضيقة ، الكئيبة ، المنخفضة ؛ وهذا هو ما يطلقون عليه اسم القرى ، أو بالأحرى "المدن" (لأن هذا هو الاسم الذى يطلقه السكان هنا على هذه الأكواخ) ، القطرية . وبرغم فقر وجذب هذه المنطقة ، إلا أنها فيها شيئاً آخر أكثر فقراً وأكثر جدباً ، هذا الشيء يقع إلى الخلف منها ، وليس فيه من الموارد شئ سوى الشاطئ نفسه ، الذى ينشد سكانه ، عن طريق العنف ، ذلك الذى لم يستطيعوا الحصول عليه من الداخل . والسبب فى ذلك أن قرى قطر عن بكرة أبيها مسورة تسويراً جيداً ، كما أن المنخفضات التى توجد تحت هذه القرى تحيط بها

(١) الوعث : الرمل اللين تغيب فيه الأقدام - (المترجم) .

أبراج المراقبة ، وتتناثر فيها هنا وهناك قلاع "ضخمة مربعة الشكل" ، توحى نوافذها الصغيرة ، وأبوابها الضيقة بالقوة ، التى تتضاغل ، كما يبدو أمام قوة برج لندن فى القرن التاسع عشر . ولكن هذه القلاع ، هى فى واقع أمرها ، قلاع سطحية وشكلية ، والسبب فى ذلك أن ثروة قطر وفيرة ، وأن هناك لصوصاً لا بد من حماية هذه الثروة منهم .

ولكن من أين تجيئ هذه الثروة وسط كل هذا الفقر ، ومما تتكون هذه الثروة ؟ إن ما وصفته ليس ، إلى حد ما ، سوى أكوام القمامة ، وأكوخ الصيادين من حول اسطوانة العمود الرئيسى ؛ وبالقرب من هذه الأكوخ يوجد المنجم ، ذلك النبع الذى لا ينضب . هذا المنجم ليس سوى البحر ، الذى يعد جارا حانيا على سكان قطر أكثر من أرضهم القاحلة الجرداء . ففى هذا الخليج ، توجد أغنى وأغزر مصايد اللؤلؤ فى الخليج الفارسى ، إضافة إلى وفرة العطايا الأخرى التى يجود البحر بها عليهم . معنى ذلك أهل قطر إنما يعيشون من البحر وليس من البر ، معنى ذلك أيضا أنهم يسكنون بالقرب من البحر ، ويقضون على صفحات أمواجه ومياهه نصف العام تقريبا فى البحث عن اللؤلؤ ، فى حين يقضون النصف الآخر فى صيد اللؤلؤ وتجارته . من هنا فإن منازل هؤلاء السكان تتمثل فى القوارب التى لا تحصى ولا تعد التى تطفو على سطح البحيرة الهادئ ، أو التى تقف على شكل صفوف سوداء طويلة على الشاطئ ؛ فى الوقت الذى لا يلقون فيه بالاً لتزيين مساكنهم التى على البر ، المنازل التى يعيش فيها أطفالهم وزوجاتهم فى الأغلب الأعم ، وكذلك الصناديق المتينة التى لا تسر الناظرين ، والتى يخزنون فيها الكنوز التى يجمعونها . وقد حدثنى ، ذات مساء ، محمد بن ثانى حاكم البداع قائلاً : " نحن جميعا من أعلنا إلى سافلنا عبيد لسيد واحد هو اللؤلؤ " ، ولم يكن كلام محمد بن ثانى فى غير محله . إذ أن كل الأفكار ، وكل الحديث ، وكل العمالة تدور من حول هذا الموضوع وحده ؛ بل إن كل شئ آخر عدا هذا الموضوع هو من قبيل التسلية وتزجية الوقت ، ويجيئ فى المرتبة الثانية .

كنت قد أشرت إلى اللصوص واحتمال السلب والنهب . والواقع أن أهل قطر لا يخافون بعضهم بعضا . ولما كان القطريون مشغولين إلى الحد الذى لا يجعلهم يفكرون فى الشجار والتناحر ، فهم يعيشون حياة تتسم بالوئام السلبي الذى يستغنى عن الآلة الحكومية المعتادة نفسها . والواقع ، أن ابن ثانى ، حاكم البداع يعترف به

الجميع رئيسا للمنطقة كلها ، والتي تتبع بدورها سلطان عمان ؛ ومع ذلك فإن ساكن البداع ، ليست له ، فى واقع الأمر ، سلطة كبيرة على القرى الأخرى ، التى يقوم سكانها بتسوية أمورهم مع رؤسائهم المحليين ؛ وابن ثانى بالنسبة للمحيطين به ، ليس سوى محصل مُناب ، أو جاييا للدخل العام ، تتمثل مهمته فى جباية الإتاوة السنوية المفروضة على صيد اللؤلؤ . ومحمد الخليفة ، له أيضا شكل من أشكال السلطة والسيطرة أو الرئاسة فى قطر ، ولكن ممارسة هذه السلطة تقتصر فقط على أن يختار من حين لآخر فتاة جميلة (نظرا لأن الجمال العماني يمتد، ولكن بدرجة أقل ، إلى قطر) يعقد عليها مدة أسبوعين أو شهر على أكثر تقدير، ثم يطلقها ويمنحها معاشا بعد ذلك. وبينما كنت فى البداع قام محمد الخليفة المزواج بزيارة إلى مدينة الدوحة المجاورة ، وتزوج من حورية من حوريات تلك المدينة ، ثم طلقها أيضا قبل عودتي من عمان .

ولم يفرض على هذه المناسبة أى نوع من السرية ؛ فقد أحضر المأذون والشهود ، ودُفع الصداق، وأقيمت الأفراح والاحتفالات الشعبية، وانفجر الضحك الشعبى تلقائيا ؛ فيما كان محمد الخليفة يبذل الثروة التى جمعت بشق الأنفس ، فى كل من المنامة والمحرق ، على أبهة الرذيلة العلنية^(١) .

تعد زبارة Zabarah، أكبر المدن الجزيرية، المدينة الوحيدة التى لها أهمية إقليمية، وهى تعد مقرا لواحد من آل - خليفة ؛ ومع ذلك فهى لا تدعى لنفسها سيادة من نوع خاص على الأماكن الأخرى داخل هذه المنطقة .

ولكن إذا كان أهل قطر يتمتعون بالسلام فيما بينهم إلا أنهم معرضون من ناحية البر إلى الغزو الداخلى بصورة مستمرة ، من جيرانهم البدو ، أو إن شئت فقل : من المناصير وآل - مرة . والمناصير قبيلة كثيرة العدد ومحبة للحرب ، ويمتد مدى مرعاهم المفضل من حدود الأحساء إلى حدود عمان بالقرب من الشارقة . وعدد قليل من هذه العشائر المترحلة هو الذى يسبب الكثير من القلق والاضطراب للمناطق المأهولة بالسكان ،

(١) لقد أباح الإسلام الزواج بأى عدد ما دام هذا العدد فى حدود الأربعة فى وقت واحد بحيث لا يجمع الرجل تحت عصمته أكثر من أربعة فى وقت واحد ، فإذا طلق إحداهن وتزوج بأخرى فلا مانع شرعاً ، وما ذكره المؤلف من وصف الزواج الشرعى الحلال بأنه رذيلة علنية فهذا غير صحيح ، وما دام الزواج يتم برضا الطرفين ويستوفى شروطه الشرعية فلا مانع منه شرعاً ، والتعدد مباح فى الإسلام بضوابطه وشروطه - (د. حلمى عبد المنعم) .

يضاف إلى ذلك أن مجموعة قليلة أخرى ، إن صحت التقديرات ، من هذه العشائر ، جمعت ثروة طائلة عن طريق السلب والنهب وسفك الدماء . وهؤلاء الغزاة يمتلكون قطعانا كبيرة من الإبل والأغنام ، التى تقتنى وتزداد على حساب القرويين ؛ والمناصير عندما يضطرونهم الخطر إلى التخلي عن الصحراء الجرداء القريبة منهم ، ينقلون حيواناتهم ، لكى ترعى على الشريط الضيق من الأرض المرتفعة ، والذي يقع بين التلال الساحلية والدهناء . ومن هنا برزت الحاجة إلى وجود أبراج يلوذون بها على طول هذا الشريط الساحلى الضيق ؛ وهذه الأبراج عبارة عن مباني دائرية صغيرة يتردد ارتفاعها بين خمسة وعشرين وثلاثين قدما ، ولكل منها باب فى منتصف جانب البرج وحبل يتدلى ناحية الخارج ؛ والرعاة القطريون ، يستطيعون عن طريق هذا السلم المختصر ، وفى حالة خوفهم من الهجوم المفاجئ ، إلى هذه الأبراج طلبا للحماية ، وبعد أن يدخلوا الأبراج يسحبون هذه الحبال ، وبذلك يحافظون على حياتهم وحياة من معهم ، فى جميع الأحوال ، وبغض النظر عما يمكن أن يحدث لمواشيهم . والسبب فى ذلك أن مسألة تسلق حائط يصل ارتفاعه إلى خمسة عشر قدما تصعب على أكثر البدو عبقرية ومهارة . وفى بعض الأحيان ، قد يتشجع بدوى المناصير ، بحكم هذه المنعة (نظراً لأن أهل قطر ليست لديهم مظاهر قتالية كبيرة) ، على مهاجمة القرى الرئيسية ، وينقل منها كثير من الغنائم الأفضل من الماشية والأغنام . ومن هنا نشأت فكرة النقاط القوية أو إن شئت فقل المعاقل ، داخل المدن نفسها ، وفكرة الأسوار التى تحيط بهذه المدن .

وفى أقصى الساحل من ناحية الشرق ، تبدأ مستوطنات بنى - ياس Beno-yass ، تلك العشيرة سيئة السمعة، التى يتكون نصفها من البدو والنصف الآخر من القرويين ، وكلهم من القراصنة ، لصوص البحار؛ وبنو - ياس هم أنفسهم أولئك الذين أطلقوا ، فى الأزمان القديمة ، اسم " ساحل القراصنة " على هذه المنطقة . والمنبت أو المركز الرئيسى لـ - بنى - ياس هو صور S.oor ؛ وصور هذه ، كما قيل لى ، ليست سوى مجموعة من الأكواخ ، تجمعت أسفل بعض القلاع القديمة المخربة ، أو إن شئت فقل إنها أوكار للصوص . وبنو - ياس ينتسبون إلى سكان عُمان الأصليين ، ومع أنهم لم تمتد إليهم حضارتها ، إلا أنهم يشاركونها فى مشاعرها السياسية والوطنية ؛ من هنا فإن بنى - ياس ليسوا فحسب كارهين لكل المسلمين والوهابيين ، بل إنهم أعداء ألداء وغزاة أشداء إذا ما سمحت لهم الظروف بذلك . وعندما يسود السلب والنهب

تجدهم يضعون أيديهم فى أيدي المناصير ، برغم أنهم يختلفون عنهم اختلافا كبيرا من ناحية الأصل ومن حيث المظهر . والسبب فى ذلك ، أن المناصير ، بحكم الموروث والعادات والتقاليد ، وبحكم البنية البدنية ، وبحكم لهجتهم أيضا ، هم فرع من أسرة عبس الكبيرة ، التى منها "عنترة بن شداد" الشهير ، ومن ثم فإن المناصير من الناحية العرقية ، هم نجديون من قبيلة قيس - عيلان ، فى حين يرجع أصل بنو - ياس من الناحية العرقية إلى الأسرة القحطانية من قبيلة مضج ، ولكنهم رحلوا عنها فى اتجاه الشمال قادمين من حضر موت ، كما جاء فى الرواية . وعلى كل حال ، فإن الأرباح ، شأنها شأن البؤس أيضا ، توحد رفاق المضجع الأعراب . وقد قام أحمد السديرى مؤخرا بكسر شوكة كل من المناصير وبنى - ياس ، والمعروف أن أحمد السديرى ، هو المقيم النجدى فى البريمة Bereymah (وأحمد السديرى هو شقيق عبد المحسن السديرى الذى أكرم وفادتنا فى الجمعة) ؛ فى حين شحبت ، فى البحر ، حمرة بيرق قراصنة عُمان أمام صليب القديس جورج الأكثر احمرارا ، وليس هنا ، فى هذا المنعطف من الخليج الفارسي أحد يعانى من أى شكل من أشكال العنف ، سوى محار اللؤلؤ هو والأسماك .

وقد سبق لى أن تناولت العشيرة الثالثة الكبيرة فى هذه المنطقة ، وبالتحديد آل - مرة ، الذين يقيمون فى الدهناء نفسها ، ولا تزال أعدادهم كبيرة وينتشرون على مساحة واسعة ، ومع ذلك فهم أقل مشاكسة من المناصير وليسوا مولعين بالقتال أو الخصام . وبدو هذه القبيلة ، الذين يزورون قطر وعمان حيناً للتجارة ، وحيناً آخر للسلب والنهب ، لا يعترفون بالسيادة الوهابية ، ولكن بعضاً منهم ، طبقاً لعرفهم غير العادى ، يخضعون لسلطان عُمان ، فى حين يخضع البعض الآخر منهم لأمر ونهى الرؤساء المحليين فى مناطقهم .

ومناخ قطر جاف تماما ، ومع وجود الصحراء التى تحيط بقطر ، فإن هواء البحر يفقد كل ما يحمله من رطوبة على بعد أميال قليلة نحو الداخل . وتربة قطر من النوع الفقير ، وهى عبارة عن حصى ومرل مختلطين بالرمل ؛ وينابيع المياه التى تظهر بين الحين والآخر هى التى تزود بالمياه الآبار التى يجرى حفرها عن طريق اختراق قشور الطبقات العليا . وبساتين قطر من النوع الصغير غير المنتج ، وأنا لم أشاهد فى قطر ،

حقول القمح أو بيارات النخيل التي تستحق الذكر. ويقال أيضا أن هواء قطر غير نقي ؛ وربما كانت برك مياه البحر المتعفنة الراكدة التي توجد على طول الساحل ، هي السبب في ذلك .

هذا هو مخطط قطر ، بشكل عام . وعندما نزلنا في ميناء البداع اتجهنا مباشرة الواقعة القريبة، ذلك المعقل الذي يشبه البرج المحصن ، الذي له مراحيض عند سفحه ، ويصلح أميالا يكون مستودعا للبضائع بدلا من الأفراد . وفي فناء هذه القلعة ، كان يجلس تحت حصير مفروود ، وحصير معلق ، الرئيس محمد بن ثاني ، ذلك العجوز الحذر الداهية ، البدين إلى حد ما ، والذي اشتهر بحكمته وبساطة سلوكه الذي يدل على خفة ظله ، ولكنه بخيل وعنيد في المساومة ؛ وبشكل عام ، فإن مظهر محمد بن ثاني كان يشبه تاجر اللؤلؤ البخيل (وهذا هو واقعه فعلا) أكثر منه حاكما عربيا . ومن حول هذا الرجل يجلس بعض الأفراد شاحبي الوجوه ، وبشرتهم مشبعة بالماء لكثرة غطسهم في الماء ، ووجوههم متجعدة على شكل تقديرات وحسابات . وعلى كل حال ، وبرغم أن ابن ثاني كان رجلا " عمليا " في المقام الأول ، إلا أنه استطاع تحويل عاداته الجلوسية إلى أرباح ذهنية وفكرية ، فقد استطاع عن طريق الدراسة أن يجعل من نفسه خبيرا مقبولا في المعرفة الأدبية والشعرية ، وكان يجد متعة كبيرة في مناقشه الموضوعات التي من هذا القبيل. بل إنه كان يتظاهر أيضا بشيء من المهارة في الطب، ولقد كان لديه بالفعل ذلك القدر من المعرفة الطبية ، التي تتباهى بها امرأة عجوز في قرية من قرى لانكشير Lancashire أهل إيسكي Essex. يضاف إلى ذلك أن ابن ثاني كان محبا للنكتة ، ويستطيع تبادلها مع الآخرين بقدر كبير من الخفة والرشاقة .

وسألني ابن ثاني عن رحلتي . وأبلغته أنني ليس لي عمل محدد في قطر ، وأنتى كنت في طريقى إلى مسقط بحثا عن الأعشاب والعقاقير . في حين كان ابن خميس ، الذي تحول إلى شخصية مهمة ، بفضل الهدايا التي كان يحملها إلى ابن ثاني ، يجلس بكل الأبهة والعظمة مرتديا مشلحا جديدا أسود وغترة مصنوعة من الحرير ، زوده بهما أبو عيسى . وكان محمد بن ثاني يلبس عمامة بنغالية ، من أيام سراج الدولة ، وهذا من واقع شكلها الذي يشبه الناقوس ؛ أما ثوبه فقد كان عبارة عن ثوب فوقى ، أو من النوع الذي يلبس فوق ثوب آخر ، والذي يشعر معه البقال الدمشقى بالخجل إذا ما ظهر به خارج منزله .

واعتذر ابن ثانی عن عدم وجود مكان مناسب نقيم فيه فى القصر . وألقيت على القصر نظرة تجولت ببصرى خلالها فى مبانيه الضيقة ، وأسواره الحجرية التى توجد فيها مزاغل ، ووافقت تماما على العذر الذى أبداه الرجل . وكان ابن ثانی قد أصدر أوامره بإفراغ أحد المخازن القريبة من القصر من التمر المخزن فيه ، وتجهيزه على الطريقة القطرية حتى يمكن استقبالنا فيه ؛ بمعنى أن أرضيه المخزن جرى فرد الحصير عليها ليس إلا . وأعرينا ، له بطبيعة الحال عن شكرنا لهذا الكرم الذى يعتبر استقبالا رائعا بالمقاييس المتبعة هنا ، وشربنا القهوة ، وتحدثنا بعضا من الوقت ثم خلدنا بعد ذلك إلى الراحة .

عند هذا الحد كان ابن خميس قد أطلق قذيفته ، بمعنى أنه كان قدم هداياه بالفعل . ولكن المهدى له (محمد بن ثانی) صياد اللؤلؤ العجوز ، لم يعجل بدوره باتخاذ القرار المناسب الخاص بمقدار الهدية التى ستقدم ردا للهدية التى تلقاها ، ومضت مدة لا تقل عن ثمانية أيام قبل أن يتخذ ابن ثانی هذا القرار ويقبله المهدى . وكان هذا التأخير ، وبخاصة فى ظل هذا السكن غير المناسب ، مزعجا تماما لنا ، وبخاصة أننا كان أمامنا الكثير الذى كان من الأفضل لنا أن نشاهده ، نظرا لأن أربعة أيام كانت تكفى تماما لمعرفة ذلك الذى يجب أن نعرفه فى ذلك البلد الممل . وعلى كل حال ، فإن الأيام لم تمر دون فائدة ، إذ سنحت لى الظروف بالقيام ببعض الرحلات إلى المناطق المجاورة .

وسرعان ما قمت باستكشاف مدينة البداع كلها . وسوق مدينة البداع من النوع الطويل الضيق القذر ، ويمارس فيه بعض أصحاب المحلات البحرانيين Bahreyn والحرفين البحرانيين أيضا نشاطاتهم المالية والأعمالية على نطاق صغير ؛ أما الجزء المتبقى من البداع فهو عبارة عن كتلة من المنازل الضيقة الصغيرة التى تشبه النواقيس ، والتى تفصلها عن بعضها حارات ضيقة غير منتظمة . ويصل إجمالى عدد سكان البداع ، عندما يكونون على البر ، وهو ما لا يحدث فى معظم الأحوال ، إلى حوالى ستة آلاف نسمة ، ويأتى إلى البداع ، قادمين من الأحساء بعض المستوطنين كى يجربوا حظهم وهم يتذمرون من هذه البلاد . والمرء هنا يلتقى زوجات الصيادين فى كل مكان ، هن وأطفالهن المزعجين ، وهن أكثر اتساخا وضجيجا من أهل "حى جراب" Grabbe's Borough (فى إنجلترا) ، كما يشاهد المرء هنا أيضا كثيرا من الرجال

غير المهندمين الذين يرتدون ثيابا سيئة ، والذين أرهقتهم الهموم إلى حد القضاء على النزعة الاجتماعية عندهم . وعندما تقترب من الشاطئ ، نشاهد هناك صفًا بعد صف من القوارب السوداء الضخمة ، التي توضح حوافها المفرزة اتجاه حبال الغطاسين ، والسبب في ذلك أن الحبل يربط دائماً في وسط الغواص ، في حين يمسك رفاق الغواص بالطرف الآخر من الحبل ، وبذلك يستطيعون سحب الغواص ، إلى أعلى إذ تطلب الأمر ذلك . وأنا اعتقد أن القارئ ، عند هذا الحد ، أصبح قادراً على تصور منظر البداع ، والمباهج التي تسببها البداع للأعين ، والروائح التي تشمها الأنوف ، من منطلق أن البداع ميناء بحري ، مثل سائر الموانئ البحرية الأخرى . بقى أن أقول إن أهل البداع كرماء وأسخياء ، ولكن مشكلتهم الوحيدة تتمثل في أن حرفهم تستحوذ عليهم وتشغلهم تماماً ؛ زد على ذلك ، أن الغوص لفترات طويلة ، مصحوباً بكل العوائق والمصاعب المصاحبة له وعلى مدى أسابيع وشهور في عرض البحر ، يجعل الرجال يبدوون كما لو كانوا مهزومين ومدحورين كلية .

كانت مدينة البداع إلى وقت قريب جداً بلا مساجد أو أى مكان آخر من أماكن العبادة ، ونحن نتمنى أن يكون كل امرئ هنا يؤدي مناسكه على انفراد . ولكن اعتباراً من الغزو النجدي ، وتنصيب أحمد السديري على بريمة Bereymah ، حدثت "صحوة" إسلامية في بعض مناطق قطر ، وأصبح هناك مسجدان يزينان مدينة البداع . وأحد هذين المسجدين كبير ، ولكنه مسجد عادى خال من النقوش الزينية ، تمشياً مع الذوق الوهابي ؛ ويقع هذا المسجد الكبير شمال القلعة . أما المسجد الثانى فيقع في الطرف المقابل من المدينة (القرية) وهو أصغر من المسجد الأول ، ولكنه أكثر أناقة ، وله مدخل عبارة عن عقد مفتوح من الطراز الفارسي . ومحمد بن ثانى رجل متدين جداً ، وأنا لا أعرف إن كان ذلك التدين ناتجاً عن دوافع سياسية ، أو عن اقتناع تام ، أو ربما كانت دوافع هذا التدين خليطاً من هذا وذاك ؛ وهو يقوم بدور الإمام في معظم الأحوال في المسجد الكبير ، نظراً لعدم وجود الشخصية المناسبة لذلك ، في المدينة ، التي يقدم بعض أهلها القرابين للإلهة منيرفا ، ربة الحكمة عند الرومان . و"المسجد" الصغير لولده قاسم ، وارثه الأكبر وولى عهده ، وقاسم هذا شخصية متهورة أكثر من والده ، ولكنه بخيل مثل والده تماماً . وقلعة قاسم أو إن شئت فقل : مسكنه ، عبارة عن بناية بيضاء مربعة الشكل لها شرفات مفرجة ، ونوافذ مدببة ، تشبه النوافذ القوطية ، وهى تقع في الطرف الجنوبي من مدينة البداع : ومن خلف هذه القلعة توجد صخور منخفضة تغطيها مياه الخليج .

وسرعان ما سئمنا شرب القهوة السيئة ، نظرا لأن بن اليمن هنا يحل محله البن الهندي ، تلك المادة التي لا مذاق لها عند أولئك الذين اعتادوا أن يشربوا بن المخا ؛ كما سئمنا أيضا سماع أو نسج الحكايات الطويلة في ديوان بن ثاني ، وسئمنا فوق كل ذلك ، رائحة الهواء الفاسد على الشاطئ القذر الموحل . من هنا ، اتخذنا قرارا بتنويع تواجدنا في قطر وذلك عن طريق القيام ببضع رحلات قليلة إلى المناطق المجاورة . وكانت أولى الرحلات التي قمنا بها إلى مدينة الدوحة ، وهي عبارة عن قرية تقع شمالي مدينة البداع ، ويصل حجمها إلى نصف حجم مدينة البداع ؛ والدوحة كما يوحى اسمها تقع في خليج صغير ، تضيف صخوره التي يتراوح ارتفاعها بين ستين وثمانين قدما ، وتقع إلى الخلف من القرية ، منظرا فريدا إلى حد ما . ولكن منازل الدوحة ارتفاعاتها أقل من ارتفاعات منازل مدينة البداع ، إضافة إلى أن منازلها أحقر أيضا من منازل البداع ، علاوة على أن سوقها أضيق وأقذر من سوق البداع . وفي هذا المكان توجد قلعتان : إحداهما مقامة على الصخرة المجاورة للقرية ، والثانية مقامة داخل مدينة الدوحة نفسها ؛ ورئيس المدينة ليس إلا جابيا من الباطن لحساب محمد بن ثاني . وقد وصل إلى مدينة الدوحة ، قبل رحيلي عن قطر بثلاثة أيام ، حاكم البحرين صياد الزوجات بحثا عن هيلين مؤقتة ، كما سبق أن أوضحنا .

كانت رحلتى الثالثة إلى وكرة Wokrah ، تلك المدينة التي تتساوى مع مدينة البداع في الحجم ، ولكنها تقع على منطقة مرتفعة من الشاطئ ، وطبيعتها أكثر إشراقا . وقد أثبت رئيسها الشاب ، واسمه أيضا محمد ولكنه ليس ابن ثاني ولا ينتمي إلى الأسرة نفسها ، أثبت ذكاءه وأدبه ، إضافة إلى أنه كان أكرم بكثير جدا من سميّه في مدينة البداع . ومدينة وكرة مستقلة عن بقية المدن الأخرى فيما يتعلق بالحكم والشرطة . وبرعاية من رئيس وكرة ، استطاع العديد من التجار – البحرانيين الصغار والحرفيين البحرانيين أيضا ، أن يمارسوا أعمالهم في هذه المدينة ؛ وعلى كل حال فإن مظهر وكرة يوحى بالازدهار والثراء بشكل عام . والطريق الذي يربط وكرة بالبداع جذب وغير معبد ، يسير بطول الساحل . وقد قطعت هذه الرحلة على ظهر حمار استأجرته من البداع ، ومعروف أن الحمير في قطر هي وسيلة الانتقال المعتادة في مثل هذه المسافات القصيرة ؛ كان الحمار الذي استأجرته مزوداً بسرج جانبي ، مما جعلني لا أبدو مثل رجل كريم المحتد ، وإنما مثل سيدة من السيدات على أقل تقدير ، في حين كان قميصي العربي الطويل يوحى بأنني معتاد على مثل هذا الركوب . زد على ذلك ،

أننى لم اصطحب معى رفيقا فى هذه الرحلة ، والسبب فى ذلك هو توفر الأمن فى الطرق الساحلية علاوة أيضا على كثرة الغادين والرائحين فى هذه المنطقة التى تطفى فيها نشاطات المال والأعمال أو إن شئت فقل ترجى فيها نشاطات المال والأعمال كل الأعمال المخلة بأمن وسلامة الناس .

ولكن رفيقى بن خميس ، الذى كان يبحث عن الفائدة أكثر من المتعة ، تخيل أن قاسم أكبر أبناء محمد بن ثانى يمكن أن يقبل بضع زناويل قليلة من التمر ، ولذلك أراد أن يجرب حظه فى هذا الاتجاه ، برغم أنى ذهبت إلى عكس ما كان يتخيله . كان قاسم ، فى ذلك الوقت ، خارج مدينة البداع فى رحلة الصيد بالصقور فى منطقة تبعد اثنى عشر أو أربعة عشر ميلا فى اتجاه الجنوب الغربى . واستأجرنا ذلولين ، وركبناهما ، ومضينا فى طريقنا ، عبر أراض صحراوية مرتفعة ومدقات كلها من الحصى . ومررنا ببعض النسوة اللائى كن يُحضرن الماء من الآبار البعيدة ؛ وشاهدنا أيضا قطعان الأغنام ، أو بالأحرى قطعان الماعز ، نظراً لأن هذه السلالة من الماعز كان لها شكل خادع ، ويقوم على رعيها عدد كبيرة من الرعاة ، وكنا نلتقى بين الحين والآخر مسافرا كان يحمل رمحه على كتفه تحسبا لأخطار بدو الحدود . ولم نشاهد أى نوع من الأشجار ، اللهم باستثناء بعض الأعشاب الصغيرة ، كما هبت علينا أيضا ريح صرصر شديدة من ناحية الشمال .

وأخيرا وصلنا إلى الموقع المقصود ، وكان عبارة عن واد مليئ بالحشائش وسط أمواج الرمال والكثبان الرملية على حافة "البرية الجرداء التى يكثر فيها العواء" . كان الرئيس الشاب ومعه حاشيته، يقيمون هنا فى الخيام ، خلال رحلة تستمر يوما واحدا ، يصطادون فيها الحبارى والسمان ، الذى لم يصطادوا منه سوى أعداد قليلة جدا ؛ كما أنهم كانوا يصطادون الأرانب البرية أيضا ، أو بأحرى كانوا يصطادون تلك الحيوانات التى تتشابه مع هذه الأرانب ، أو إن شئت فقل أشباه الأرانب البرية ، أو الأرانب المنزلية التى توجد بأعداد كبيرة فى الأرض العربية الأم . كان فى صحبة قاسم حوالى عشرون خيالا ، وصقارا وحوالى ستة صقور إضافة إلى كلبين من كلاب الصيد (الذى يسمونه هنا " السلاقى ") ؛ كانت جماعه المقناص مكتملة فيما عدا أنهم لم تكن معهم بندقية خفيفة لصيد الطيور . وبقينا نصف يوم ضمن جماعه سموه ، وتمتعنا "بطلعة" عربية ، حفلت بالصيد بالصقور . وإذا ما أراد القارئ وصفا لهذه الرياضة وطريقة ممارستها فى الشرق ، فأنا أحيله إلى الكتاب الشهير والدقيق الذى ألفه ليارد Layard بعنوان "تنقه" Nineveh .

وفى منطقة المقناص التقيت اثنين من البدو ، أحدهما من المناصير ، والآخر من بنى مرة ؛ وقد اشتهر هذان البدويان بأنهما عبّرا الصحراء الكبرى من هذا الجانب من الجزيرة العربية إلى اليمن ، واللذان أصبحا ينظر إليهما ، عقب ذلك ، على أنهما "أسدان" ، فى نظر أهليهما . ونقلا عن هذين البدويين ، فإن الإنجاز الذى حققاه تم بلا أى تخطيط من جانبهما ، فقد قاما بزيارة لـ "الأقحاف" Ak.h.af ، وهى عبارة عن سلسلة مختلفة من التلال الجيرية ، والوديان المعشوشبة ، والتى تشغل الموقع الذى يسمونه فى بعض الخرائط اسم " وادى جبرين " ويقع فى جنوبى اليمامة ، حيث كانت لديهم بعض الأمور المطلوب تسويتها فيما يتعلق بالعشيرة أو الإبل . ولما كانا قد ضلّا طريقهما تماما فى اتجاه الجنوب ، فقد ترتب على ذلك أن ضلّا طريقهما إلى "الأقحاف" ، وراحا يتجولان من سلسلة إلى أخرى من سلاسل الجبال الرملية ، ومن وادٍ إلى وادٍ ، ومن حسن حظهما أنهما كانا يقعان بين الحين والآخر ، بالمصادفة على بُرٍ من أبار الماء المالح ، كانا يملآن منها قريهما المصنوعة من الجلد ، كما كانا يعثران بين الحين والآخر على نخلة قرزمة يأخذان منها شيئا لم يكن "يستعصى تماما على الأكل" ، إلى أن استطاعا بعد مسير دام شهرين ، وفقا لطريقتهما فى حساب الزمن ، والحفاظ على السير فى الاتجاه الجنوبى الغربى بصورة دائمة ، أن يصلّا فى النهاية إلى مأرب على حدود اليمن .

وعندما عاد هذان البدويان إلى قطر ، رجعا باستخدام الطريق الطويل المأهول بالسكان والذى يمر عبر أراضى حضرموت ، ثم يتجه بعد ذلك إلى ساحل البحر حتى عُمان . وعندما سألت هذين البدويين بطريقة تلقائية ، وأجابونى بطريقة تلقائية أيضا (نظرا لأن الشك وسوء النية ليس لهما نصيب هنا) ، عن ذلك الخط أو الطريق الساحلى الطويل ، الذى يطلقون عليه فى أغلب الأحوال اسم "المهرا" Mahara ، وعن سكانه قالوا : إن الجزء الأكبر من ذلك الطريق خلو من المدن بل وحتى القرى ، ولم يكن فيه أى شىء سوى أكواخ مصنوعة من الطين ، وأكواخ أخرى مصنوعة من سعف النخيل ، تعيش فيها قبائل داكنة البشرة ، قالوا ، إنها تتكلم لغة حبشية . ومبلغ ظنى ، أن هؤلاء هم الحميريون ، وأنهم هم أنفسهم أول الذين دار حولهم كثير من التحريات العلمية الراقية ، والذين يبدو أنهم كانوا يشكلون ، فى واقع الأمر ، مستعمرة حبشية من زمن بعيد ، قبل الغزوة الشهيرة التى قام بها إليسبان النجاشى Elisbaan the Naja shee ، فى القرن السادس ؛ ولكنهم استطاعوا إلى يومنا هذا الحفاظ على ذلك الشكل القديم

من أشكال لغتهم الأم ، شأنهم فى ذلك شأن المستوطنة التركية القديمة فيما بين بغداد وكركوك والتي ما تزال تتكلم لهجة من لهجات اللغة التركية الأم ، التي ترققت فى الأماكن الأخرى واختلطت بعناصر أخرى غريبة ، كما هو الحال فى أناضوليا والقسطنطينية على سبيل المثال . كنت أتمنى من كل قلبى أن أزور المنطقة الحميرية ، ولكنى عجزت عن ذلك لعدة أسباب، فضلا عن أنى لم ألتق أحدا من سكانها الحقيقيين. ولكن المعلومات التى حصلت عليها عن طريق السماع فى عمان ، تؤكد فى معظمها ذلك الذى قاله البدويان . وعرب هذه الطائفة ، برغم أنهم ليسوا جيدين فى الاستنتاج والاستقراء، إلا أنهم مراقبون سطحيون ممتازون للبشر، وللعادات والتقاليد والأعراف ، زد على ذلك ، أننى لم أجد أى مبرر للشك فى كلامهم وبخاصة عندما يتعلق بالمسائل الشكلية فقط .

الموروث (ولن أقول التاريخ) يجعل من حمير ، المؤسس المفترض لهذا العرق ، حفيدا من أحفاد قحطان الكبار ، كما يجعل حمير أيضا شقيقا أصغر لـ - سبا Saba ، الملك اليمنى الشهير . ولكن فى المواقع التى يبرز فيها مثل هذا الاختلاف الواضح للعيان والذى يتجلى فى كل من البشرية واللغة ، يصبح من حقنا أن نشك فى عدم دقه الشجرة النسبية ، برغم أن حالات التزاوج (بين القبائل) قد ، بل تسد بالفعل ذلك القصور فى قرابة العصب الأولية . ويجوز لنا أن نعزو إلى هذه المصاهرة وإلى تأثير الروح التنظيمية نسبيا التى يتحلى بها الأحباش ويفرضونها على العرب الرحل ، انتشار كل من الاسم الحميرى واللغة الحميرية فى اتجاه الجنوب ، ودخول هذا الاسم أيضا إلى حد ما ، إلى كل من الصحراء الشمالية والصحراء السورية تحت اسم أسرة الغساسنة الملكية اليمنية . ويجب أن نلاحظ هنا أيضا أن العرب إلى وقتنا هذا لا يتزوجون من أى أحد عن طيب خاطر سوى من الأحباش : نظرا لأن العرقين يشتركان فى أشياء كثيرة .

ومؤلفوا الحوايات التاريخية العربية ، مدعومين بالنتائج المهمة للأبحاث الحديثة فى هذا الصدد ، يعزون للأسرة المالكة الحميرية دورا مهما فى قصة جنوبى الجزيرة العربية؛ يضاف إلى ذلك، أن الأبحاث والتقنيات التى قام بها كل من ولستد Welsted وآخرون فى منطقة حضرموت ، لا تترك مجالا لأى شك فى الطابع الحميرى الذى لهذه المنطقة . وليس هناك ما يدعو إلى العجب أو الدهشة من الحقيقة التى مفادها أن سلالة نسبية مفترضة لآبد وأن تكون قد حاولت مزج العرق الغازى ، أو رؤسائه على أقل تقدير ، بالعرق المغزو ، ولقد وقفنا بالفعل على مثال لذلك فى محاولة استقاء أو اشتقاق

السلالة العربية الشمالية ، المتمثلة فى (سيدنا) إسماعيل ، من سلالة قحطان ؛ ومن هنا ربما يكون الغرور اليمنى قد راح يعزى نفسه بالخضوع إلى الحكم الأجنبى ، وذلك عن طريق الدمج الخيالى للحكام مع الرعايا . زد على ذلك ، أن عرب الجنوب ، أو إن شئت فقل اليمن ، هم فى أساسهم ، وهذا احتمال كبير جدا ، من أصل إفريقى ، برغم أن ذلك يمكن أن نعزوه إلى تاريخ سحيق جداً؛ إضافة إلى أن التحالفات العائلية، قد ، بل لا بد أن تكون قد أسفرت فى النهاية عن شكل من أشكال المصاهرة الجزئية ، التى تعد بمثابة الأساس فى تلك الهوية الكونية التى يتباهى المؤرخون المحمديون (الإسلاميون) بتقديمها. وتأسيسا على ذلك لو قدر أن يكون هناك شخص يحمل اسم - حمير ، فإنه ربما ، بل ومن الأفضل له تدعيما لحكمه ، أن يكون قد تزوج واحدة من بنات " قيل " ، أو إن شئت فقل " ملكا " من ملوك اليمن ؛ وإذا لم يكن هو قد تمكن من فعل ذلك ، فلا بد أن يكون قد فعله واحد من أولئك الذين انحدروا من سلالته . ونظرا لأن الحميريين كانوا يتفوقون على العرب المحيطين بهم ، فى فن الحكم ، وعلم القوة المستعدة المستقرة، ونظرا أيضا لتفوقهم عليهم فى العمارة وبعض الفنون المتصلة بها ، نظرا لكل ذلك ، استطاع الحميريون أن يصبحوا فى النهاية سادة على جزء كبير من شبه الجزيرة العربية ، وأسسوا أيضا مملكة اشتهرت باتساع أصقاعها ومتانتها النسبية غير المطلقة . ونحن نجد محاولة مماثلة فى غزو حدث فى جنوبى الجزيرة العربية وقام به الأحباش المحدثون فى القرن السادس ، بقيادة أبرهة ، وأعقبه نجاح كامل ؛ بل إن الرئيس القحطاني ، سيف يزن Sefyezcn ، لم يستطع التخلص من نير الحكم الأجنبى ، إلا بمساعدة من السلاح الفارسى والأموال الفارسية . يضاف إلى ذلك أن مسألة تباهى المؤرخين العرب . بزعمهم أن المنتصر كان من أقاربهم ، وبذلك يمكنهم تحاشي عار الاعتراف بأن الأجانب كانوا أقوى منهم وأكثر تحضرا ، تصبح أمرا طبيعيا تماما . بل إن الفرس فى أيامنا هذه قد يقنعون أنفسهم أن الإسكندر الأكبر لم يكن سوى ولد من أبناء داريوس Darius الذى أطاح به فى أربيل Arbela ؛ والفرس قد يقنعون أنفسهم أيضا بأن الغازى المقدونى كان " قد ربَّته ، امراً ٢٨٠ شحذة ، سرقت " من قصره الإيرانى ، شأنها شأن جاك كيد Jack cade ، الذى سرق من منزل مورتيمر Mortimer ، ثم عاد مسلحا ليطالب بحقه ؛ كل ذلك من أجل ألا يظهر الفرس وكأنهم قد استسلموا لغير الفرس . وأنا لا أعفى المؤرخين الغربيين من مواطن ضعف شبيهة بذلك .

يكفى ما قلته عن الحميريين ، أو إن شئت فقل "الحر" ، وليكونوا من يكونوا .
ومع ذلك ، فإن الحميريين ليسوا السكان الوحيديين الذين يعيشون على الساحل
الجنوبى الشرقى ، الذى يستوطنه (كما يقول التقرير) الزوج السود المرحلين ،
سكان زنبار والمنطقة المجاورة لها ، وبخاصة فى المنطقة القريبة من جزيرة ماسورا
Massora ورأس الحوض H.ad.d. ترى كيف وصل هؤلاء الزوج إلى هذه المنطقة ،
وما هو الدور الذى لعبه هؤلاء الناس فى الأحداث العامة فى هذه المنطقة ، هذا هو ما
سوف أوضحه فيما بعد . ولقد سعدت كثيرا فى المناسبة التى نحن بصددتها الآن ،
بهذا الراوى الذى ينحدر من المناصير ، الذى زادت جرأته وجسارته بسبب مغامرة
وحيدة أقبل عليها ، وانتهى الأمر بأن عرض على ذلك المناصيرى القيام برحلة ثانية
داخل مجتمعه عبر الصحراء الكبرى ، كما عرض على أيضا أن يقوم معى ، يدا بيد ،
إلى كل من ظفار وحضرموت . ولكن يكفينى ما حدث لى بسبب الماء والرمل ، فى تلك
الأيام المرهقة التى أمضيناها فى كل من الدهناء و " النفود " ؛ من هنا فقد أجلت
القيام بالرحلة المقدمة إلى أجل غير مسمى . أن مثل هذه الرحلة لابد أن تكون متعبة
وليست خالية من الأخطار ، ومع ذلك ، فإن القيام بها ليس أمراً مستحيلاً ، وقد يسفر
عن اكتشافات مهمة .

وقدم يوسف بن خميس هداياه ، ولم يتلق فى مقابلها سوى حلو الكلام ليس إلا .
وقد رأيت فى قاسم شخصية أقل وداعة ومسالمة من شخصية والده ؛ فقد كان ضيق
الأفق ، وقليل المعرفة عن الرجل العجوز ، فى حين أنه كان أكثر تباها وتعاليا . وهو
يقلد النجديين فى الملبس وفى السلوك ، غير أنه يكن فى أعماق قلبه لحب المال ولأكثر
من ذلك الذى يكنه لأحكام القرآن . وحاشية قاسم ، شأنهم شأن أهل العدالة الضحلة
Justice Shallow ، لهم "ارتباط شبيه بروحانيات سيدهم" ، مما جعل جماعتهم تتسم
بالجفاف وغير مفيدة .

وفى صبيحة اليوم التالى استأذنا من قاسم ، وعدنا من نفس الطريق الذى
سلكناه فى الذهاب ، لناكل سمكا ونشرب قهوة سيئة مع ابن ثانى . وانتظرنا يومين
أملا فى هبوب ريح مواتية تنقلنا عبر الخليج إلى عُمان . ولو سافرنا بالبر لاستغرقت
الرحلة منا فترة لا تقل عن أسبوعين ، بل وربما أكثر من ذلك ؛ يضاف إلى ذلك أن
الأخبار الذائعة فى قطر عن جشع بنى - ياس وسلبهم ونهبهم ، وخيانتهم ، وخصالهم
السيئة ، لم تشجعنا على اختبار كرم هؤلاء الناس ، وبخاصة أننا كنا نحمل معنا

هدايا يوسف وكذلك الهدايا التي أهديت إليه . هذا فضلا عن أن الجميع أكدوا لنا أن الطريق البرى أكثر قفرا ورتابة عن قطر نفسها ، وأنتا لن نستفيد أى شئ نظير الجهد والتعب الذى سنبدله فى قطعه . ورمال الدهناء تصل إلى حافة البحر فى هذا الطريق : والقارئ إذا ما ألقى نظرة على الخريطة فإنه سوف يتمكن من فهم هذه المنطقة فهما جيدا .

وبناء على ما تقدم فقد نوبنا أن نبهر على شكل شبيه بقطر الدائرة عبر الخليج ، مفضلين ذلك على محيط الدائرة الرملية ، وبذلك نصل مباشرة إلى الشارقة ، أول مدينة لها وزنها تقع داخل المنطقة العمانية . ومن أجل هذا الغرض عرض علينا ربان بحرى شاب ، أحد مواطني شاراك Charak على الساحل الفارس المقابل ، سفينته وخدماته ، ولكن المستقبل كان يخفى لنا أشياء لم ندخلها فى حساباتنا أو نأخذها بعين اعتبارنا . وهناك مثل عربى قديم يقول : " المسافر لا يعرف سوى موعد سفره ولا يعرف موعد عودته " ؛ وهذا المثل يمكن أن يضرب فى مواضع كثيرة ، ولكنه يشيع ضربه فى الشرق .

واستعد رباننا للإبحار ومعه بحارته خلال فترة وجيزة . وبعد أن اتخذنا ترتيبات المغادرة ، وفى اليوم السادس من شهر فبراير ، وبينما كان المساء يوحى بصباح صاف مشرق ، وبينما كانت ريح غربية خفيفة توحى لنا برحلة طيبة وسريعة إلى مدينة الشارقة ، ودعنا محمد بن ثانى ، الذى زادت حميميته معنا ، كما ودعنا أيضا ثلاثا أو أربعا من الأصدقاء الذين اتخذناهم من مدينة البداع ، ثم أسلمنا أنفسنا لقارب صغير ، جاء به فارس ، وهذا هو الاسم الحقيقى لربان السفينة ، ومعه أخيه أحمد واثنان من طاقم السفينة ، لينقلونا من البر إلى السفينة . وعبرنا إلى السفينة وقطعنا مسافة تساوى تلك المسافة التى مشيتها أنا على الرمال قبل ذلك ببضعة أيام ، ولكنى قطعت تلك المسافة خلال فترة الجذر ، أما الآن فالمد على أشده ويصل عمق الماء إلى عشرة أو اثنى عشر قدما . وبعد الماء وجذره هنا يصل معدله مرة واحدة كل ثلاث وعشرين ساعة ، معنى ذلك أن الدفق وانحسار الدفق يحدث بواقع فترة واحدة بين كل فترتين ؛ ولكن المد والجذر على شواطئ كل من إيران وعمان بواقع مرة واحدة كل أحد عشرة ساعة . ولعل موقع قطر العجيب هو ومنطقة بنى - ياس فى قاع خليج عميق ، يفسر للقارئ الفاحص هذه الظاهرة من ظواهر الأرصاد ؛ والعرب يكتفون بملاحظة هذه

الظاهرة والاندھاش لها . وبعد أن أبحرنا قرابة ربع الساعة ، وصلنا إلى السفينة ، كانت السفينة من النوع الكبير جيد الصنع ، مزودة بكابينة جميلة للربان ، وكابينة أخرى عند مقدمة السفينة ، فضلا عن بعض الترتيبات البحرية الأخرى ؛ وخلاصة القول ، أن هذه السفينة كانت أفضل بكثير من تلك السفينة البائسة التي كنا قد استقلناها من البحرين . كانت السفينة مبنية على نحو تتمكن معه من الإبحار السريع ، وكان لها صاريان ، وأشرعه مثلثة الشكل ، فضلا عن شراع للسارية الأمامية ؛ وكانت مقدمة السفينة ومؤخرتها منحوتتين نحتا جميلا ، والواقع أن مقدمة السفينة كانت تركب الأمواج كما لو كانت واحدة من حوريات البحر ؛ وهذا الرمز لا يتفق مع المحرمات الإسلامية، التي تحظر تقليد أو محاكاة كل ما تدب فيه الحياة ، فى مجال فن التزيين .

وعندما ركبنا على ظهر السفينة ، استقبلنا البحارة والذين كانوا جميعا من أبناء عموم الربان وأقاربه ، استقبالا حارا جدا . وهذا عرف متبع فى غالبية سفن الخليج ، إذ ينظر البحارة إلى المسافرين ، سواء أكانوا كبارا أم صغارا ، وبلا تمييز ، على أنهم ضيوف على الربان طوال فترة الرحلة ، ومن هذا المنطق يكون لهم الحق فى الجلوس إلى مائدته والأكل من طعامه ، دون أن يدفعوا عن ذلك أية مبالغ إضافية . ولعل القارئ يكون قد لاحظ قبل الآن بفترة كافية ، أن الوضع النسبى للمسافرين فى الشرق ، سواء أكانوا مسافرين بأبر أو بالبحر ، ووضع أولئك الذين يقومون بإرشادهم ، يتسم بالحميمية الشديدة ، بل إنه يتسم بالطابع العائلى تماما ؛ والسبب فى ذلك أن الجميع يعتبرون أنفسهم كما لو كانوا أسره واحدة طوال الرحلة . زد على ذلك أن الروابط التى تنشأ بينهم وتتوطد لا يمكن أن تنفصم عراها عندما يفترقون فى نهاية الرحلة ؛ ولذلك تدوم هذه الصداقة والزمالة الخاصة سنين كثيرة ، وقد يجددها أى من الطرفين كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، وكلما أوحى النية الحسنة بذلك أيضا ، ولا أظن أن مثل هذا الطلب يمكن رفضه أو التخلّى عنه أو حتى التفريط فيه . وأسباب ذلك من السهل تفسيرها تماما ؛ ومعروف أن السكك الحديدية هى ووسائل الاتصال الجماعية الأخرى تقضى على مثل هذه المشاعر ، إذا أنها تقضى على الأسباب التى تولد هذه المشاعر فى البلدان غير المتحضرة .

ولما كنت أنا ويوسف بن خميس ، قد اتفقنا على أن الأخذ دون العطاء ، يحط من كرامتنا ، فقد احتفظنا فى البحرين بمخزون من أفضل أنواع البن لنقدمها مقابل التب والصدقة أو لبيعها بالثمن ، ولذا تمكنا إلى حد ما من تقديم شئ مقابل الأرز ، والسمك ،

والشعرية (طبق شائع فى هذه المنطقة) ، الذى كان يقدمه لنا مضيفونا البحارة . ولكن قبل أن أقدم للقارئ العزيز بر فارس هو وسكانه ، الذين ينتمى إليهم طاقم بحارة السفينة ، أجد لزاماً على أن أحاول إعطاء القارئ فكرة عامة عن هذه الأرض وسكانها .

وفى المنطقة التى تمتد من رأس نابند غرباً إلى رأس بستانة ناحية الشرق (إذ توجد هاتان المنطقتان على الجانب الشمالى من الخليج الفارسى) ، يوجد شريط ساحلى من الأرض الخصبة ، محصوراً بين الجبال المرتفعة من ناحية والبحر من الناحية الأخرى . وقد استطاعت المغامرة والشجاعة العربية ، انتزاع ذلك الشريط البرى منذ أجيال كثيرة من قبضة حكم طهران الضعيف ومن ممثل ذلك الحكم فى شیراز . وفى هذا الشريط الساحلى تأسست مستعمرة من الرؤساء العرب ، ومعهم حاشيتهم ، وكانوا فى معظمهم من شرقى نجد ، وأفلحوا عن طريق السيف حيناً ، وعن طريق التزاوج حيناً آخر ، إخضاع سكان القرية الأصليين أو دمجهم معهم . وانبثق عن هذه العناصر الموحدة نوع من أنواع الاتحاد ، وكان بين هذه العناصر تحالف متبادل ضد مزاعم حاكم شیراز ، الذى كان يبسط نفوذه وسلطته (وهذا موجود فى سجل الوحدات العسكرية الفارسية) على بر فارس والقرى الداخلة فى زمامه . وإلى جانب عدااء السكان المستمر لـ بلاد فارس ، فهم مفككون فيما بينهم فى معظم الأحيان بسبب السلب والنهب المتبادل بينهم من ناحية والصراع الدولى من الناحية الأخرى ؛ والذى تعطى القسوة الفارسية ، المستوردة من المناطق المجاورة لبلاد فارس ، والتى تبدو كما لو كانت إيران قد تشربتها من الجو العام فى هذه القارة ، تعطى اللصوصية العربية صورة أكثر اسوداداً منها فى أى مكان آخر . ومع بداية قيام الإمبراطورية الوهابية الأولى ، وإدراكاً من رؤساء بر فارس لأصولهم ، راحوا يرحبون بطلوع فجر السيادة النجدية ، التى كانوا على ثقة بأنها ستكون حليفاً قوياً فى مواجهه القهر الشيعى ؛ ومن أجل ضمان وتعزيز التعاون الوهابى معهم بدأ هؤلاء الرؤساء يتبعون مبادئ ذلك الإسلام الجديد أو إن شئت فقل الإسلام المُجدد ، بكل ما فيه من تعصب وتشدد وحشى . ولا يزال سكان هذه المنطقة إلى يومنا هذا يتمسكون بالكثير من التعاليم والمشاعر الوهابية الحقيقية ، باعتبار ذلك نقطة انطلاق فى مواجهة أعدائهم الفرس ، برغم أن الزمن نفسه قد خفف بعض الشيء من مغالاتهم فى تشددهم .

ورؤساء بر فارس يزعمون أنهم ينحدرون مباشرة من عشيرة مطير العظيمة ، أولئك الذين تعرفناهم من قبل في نجد العليا ؛ ومن بين هؤلاء الرؤساء اثنان أو ثلاثة يزعمون أنهم ينتمون إلى سلالة بنى الخالد النسيية، سادة الأحساء الذين زالت دولتهم. وإذا كانت روح الانقسام ، وروح الحقد والسلب والنهب ، وروح الأخذ بالثأر والانتقام هي الضمان الوحيد للأصل البدوي فإن هؤلاء الرؤساء لديهم الأوراق الثبوتية التي تؤكد ذلك .

يضاف إلى ذلك أن التقلب المُميّز للعرب لا يزال موجوداً هنا ، برغم مضى سنوات كثيرة من الاستقرار على هؤلاء الناس ؛ إن مشكلة هؤلاء الناس لا تزال تتمثل في لعنة الترحال وعدم الاستقرار التي عرقلت ، بل سوف تستمر في عرقلة البدو - مهما زادت أعدادهم ومهما تهيأت لهم الظروف المناسبة - وحرمانهم من التمتع بمزايا السلام ، والاستفادة من الانتصارات في الحروب .

هذا هو حال الرؤساء : أما رعايا بر فارس فيمثلون كل مراحل التدرج بين السلالة الفارسية والسلالة العربية، وهم يمثلون جنسا مولدا من حيث الشكل والسمات، إلى حد أن من ينظر إليهم يعجز عن تمييز النجدي من الشيرازي منهم . وزى هؤلاء الرعايا ، برغم كل ذلك ، يكاد يكون زيا فارسيا خالصا ، وهذا ينسحب أيضا على الجزء الأكبر من تصرفاتهم وسلوكياتهم المنزلية . ومن ذلك على سبيل المثال ، أن كرم الجزيرة العربية وسخاءها ، يتحول على هذا الساحل إلى شكل من أشكال التصرف البارد الذي يتسم بكثير من الحيطة والحذر ، يضاف إلى ذلك ، أن الحديث مع الضيف الغريب يكون مقصوراً على الشكليات ، في معظم الأحيان ؛ كما أن من يقيم إقامة مؤقتة في بر فارس ، قد يسيطر عليه ، في أى مكان يذهب إليه ، شعور بالوحدة لا يعرفه المساكين في ايه قرية من القرى العربية . والحال العام للمنطقة هنا بعيد تماما عن الازدهار . فقد أسهمت الهجمات المتكررة من إيران على جانب هذه المنطقة ، والنزاعات الداخلية المريرة ، وذلك بالتضافر مع التعصب الدينى المتزمت والضرار ، أسهمت إلى حد كبير في تدمير التجارة التي تعد المورد الوحيد المفيد على هذا الساحل . يضاف إلى ذلك أن محار - اللؤلؤ يغيب عن المياه العميقة التي تغمر الشاطئ في هذه المنطقة ، بل إن الأسماك هنا ليست وفيرة كما هي في الجزء الجنوبي ، أو إن شئت فقل الجانب العربى من الخليج ؛ في حين أن الزراعة في هذه التربة الفقيرة والصخرية

إلى حد ما ، فى ظل عدم توفر مياه الري ، لا يمكن أن تكفى الإعاشة ، ولا يمكن أن تكون مصدرا للثروة بأى حال من الأحوال . من هنا ، نجد أن كل طاقة بر فارس ، تحولت فى الأزمان القديمة إلى التجارة ، التى أصبحت مناسبة لهذه المنطقة تماما بفضل كل من الموانئ الممتازة الموجودة على هذا الساحل ، ووسائل الاتصال البرية والبحرية ؛ يضاف إلى ذلك ، أن سكان هذا البر كانوا متفوقين فى حرفة البحر والمرور البحرى ، كما أن جميع السفن التى كانت تعمل بين البصرة Bos.ra ، ومسقط هى وبحارتها ، لم تكن أجراً أو اجسر أو أكثر قبولا للمخاطر ، أو أعلى قيمة من تلك السفن الفارسية . ولا تزال هذه السفن وهؤلاء البحارة يحتفظون بشيئ من سمعتهم البحرية القديمة ونشاطهم القديم ؛ وقد أوردت بالفعل ملاحظة مفادها أن معارضة عقيدة محمد، شأنها شأن النظام الإقطاعى بكل أشكاله، للعنصر الحر ، وعدد السفن ، وكذلك معارضتها لجسارة البحارة قد بدأت فى التناقص هذه الأيام^(١) . وفى هذا المكان المناسب استطاع المذهب الوهابى أن يضرب جذوره وتتضح آثاره المؤذية . ولكن هيا بنا نعود إلى سياق رحلتنا .

كانت السفينة تبحر على ما يرام ، ولكن نسيم الصباح غير اتجاهه صوب الجنوب وأبعدنا ، إلى حد ما ، عن مسارنا المحدد ، فى حين كانت حرارة النهار الشديدة تنذر بعاصفة شديدة . كانت السماء مليدة بالغيوم فى فترة العصر ، كما كان النسيم يهب على شكل نفثات متقطعة ، عندما شاهدنا أمامنا قبل غروب الشمس ، وتحت جزيرة حالول كتلة من الصخور يبدو عليها أنها من الصخور البركانية ، وتبرز أمامنا ، من وسط الماء ، بصورة مفاجئة ؛ وكان يوجد بين كتل الصخور ، ينبوع طيب ، وأنا أقول ينبوع واحد فقط ، من ينابيع المياه العذبة؛ وجزيرة حالول Halool ، مدينة لهذا ينبوع ، بالزيارات المتكررة التى يتردد أهل قطر خلالها ، على هذه الجزيرة خلال موسم اللؤلؤ . وعلى كل حال ، فإن حشائش قليلة تنمو على صخور هذه الجزيرة السوداء ، التى لا يقيم السكان فيها بصورة دائمة . وجزيرة حالول ، إذا ما ألقى القارئ عليها نظرة فى الخريطة ، هى مجرد جزيرة واحدة ، من الجزر الصغيرة التى

(١) ما هذا الهراء من المؤلف ؟ هل عقيدة الإسلام تعارض روح الجرأة والشجاعة وتحذر منها ، إن عقيدة الإسلام تحرم على المقاتل أن يفر من المعركة وتجعله يحارب بشجاعة طلباً للشهادة ، فقد ربت عقيدة الإسلام أقواماً يحبون الموت فى سبيل الله أكثر من الحياة، فكيف بالمؤلف يقول إنها تعارض جسارة البحارة ؟ فإن هذا تحليل غير سليم واتهام لا أساس له من الصحة - (د. حلمى عبد المنعم)

تتكس في هذا الخليج ؛ وقد بلغنى أن عدد هذه الجزر يصل إلى حوالى ست وثلاثين جزيرة ، وذلك نقلا عن أحد ربابة السفن الذى أبلغنى أنه شاهد هذه الجزر ونزل عليها كلها . ولكن معظم هذه الجزر عبارة عن حيود مرجانية ، خالية من الماء والحياة النباتية ؛ وأن خمسا أو ستاً من هذه الجزر هى التى تستحق أن تسمى بهذا الاسم ، كما تستطيع أن تفى ولكن بشق الأنفس ، بضروريات شكل من أشكال الحياة البائسة التى تحياها أطقم القوارب أثناء صيد اللؤلؤ ، وذلك عندما تلقى هذه القوارب مراسيها وتنزل أطقمها إلى هذه الجزر بحثا عن الماء ، أو لإحضار عنزة هزيلة من المراعى .

ها هى الشمس وقد غربت الآن وسط كتل كبيرة من البخار ، وهبت طول الليل ريح جنوبيه شرقية ؛ ودفعتنا تلك الرياح أمامها ، وعندما طلع الفجر على الأمواج المتلاطمة كنا قد ابتعدنا كثيرا جدا عن الشارقة ، ودخلنا إلى المياه العميقة التى يطلقون عليها اسم " عبّة فارس " بمعنى " العمق الفارسى " ، وهو خارج نطاق عودتنا إلى قطر ، أو وصولنا إلى عُمّان ، فضلا عن أننا ، على العكس من كل ذلك ، كنا نقرب من الساحل الشمالى . وبذل ريان السفينة ، كل ما فى وسعه ، من المناورات البحرية ، على أمل إعادة السفينة إلى اتجاهها الصحيح ، ولكن ذلك كله باء بالفشل ، إلى أن اضطر فى النهاية إلى الكف عن هذه المحاولات ، ويتجه مباشرة إلى بر فارس . قبيل الظهر ، كشفت لنا وميضة بيضاء جاءت من جهة الشمال ، عن جزيرة جعر Ge's المنخفضة الرملية ، التى أقام التجار البحرانيون فيها مستوطنة لأنفسهم ، ازدهرت لأنها كانت تنعم بالحرية . وفى الوقت ذاته ، كانت الحدود الدائرية الخارجية لـ - جبل أترنجه أو إن شئت فقل : جبل الأترج ، الذى يعلو خليج شاراك نفسه ، قد بدأت تظهر أمامنا ، وعقب ذلك اتضح لنا خط الساحل الفارسى كله .

والساحل الفارسى على النقيض تماما من الساحل العربى . وجبال الساحل الفارسى مرتفعه ، إذ يصل ارتفاعها فى معظم الأحيان إلى ألفى قدم ، وإطارها الخارجى وعر ، إلا أنها أقل جدبا من سلسله جبال الساحل العربى . وفى بعض الأماكن تصل الجروف المنحدرة إلى البحر ؛ وفى بعض الأماكن الأخرى يوجد شريط ساحلى ، حفرتة سيول الشتاء العنيفة ، ولكن لا يوجد مجرى للرى ، ويمتد مسافة ثلاثة أميال نحو الداخل ، إلى أن يختفى داخل الممرات الجبلية الضيقة . ويوجد ممر واحد شبه حالم ، يقع إلى الشرق قليلا ، وإلى الخلف من شاراك ، ويؤدى إلى شيراز ؛

وكانت جيوش فارس الغازية تصل إلى بر فارس عن طريق هذا الممر . وتتناثر على جوانب هذا الجبل أشجار التين ، وأشجار البرتقال ، والنباتات الخشبية الأخرى ؛ كما تتناثر الزراعة الخفيفة هنا وهناك ؛ كما توجد بيارات النخيل فى السهل الذى يقع إلى الخلف من هذا الجبل ، ومع ذلك فإن إنتاج هذه البيارات من التمور هزيل ، كما توجد بعض الزراعات الأخرى التى تحمى السكان من الموت جوعاً .

كانت شاراك ، ذات يوم ، مدينة معقولة الحجم ، وهذا مما يؤكد امتداد أسوارها المهدمة ، غير أنها تحولت الآن إلى ما يشبه الكفر الذى لا يصل عدد سكانه إلى ألفى نسمة أو ما يقرب من ذلك . وكفر شاراك هذا يقع عند أسفل خليج شبه دائرى محمى حماية جيدة ، وتشكل الرُّعن البارزة ، من حوله سوراً ؛ وهذا الخليج بحد ذاته يعد فجوة عميقة ضمن تجويف كبير ، تصل قمته الجبلية المستدقة إلى مدينة شيرو **Chiro**، فى حين يشكل طرفه الشرقى رأس بستانة **Ras Bostanah** ؛ ومَطْلُهُ العام ينحصر بين الجنوب ، والجنوب الشرقى . ومدينة شاراك ، نظراً لأن سكانها يصرون على تسميتها بهذا الاسم ، مكونة من منازل صغيرة ولكنها أنيقة ومطلية بالجص ؛ وهذه المدينة ترجع إلى تاريخ الأسرة الملكية الوهابية الأولى . وعلى بعد مسافة قريبة نحو الداخل ، يرتفع مرقب أو أن شئت فقل برج ، مقام على تل صغير منعزل ؛ وقد كانت تتمركز هنا ، فى الأيام الخوالى ، حامية من البلوش . والبلوشيون هم سويسريي هذه المنطقة ؛ ولكنى سوف أتحدث عنهم كثيراً فيما بعد .

وقبل غروب الشمس بساعتين تقريبا دخلنا الميناء وأشرعة السفينة مفرودة أمام العاصفة الجنوبية ، ونزلنا بلا أية صعوبة على الشاطئ الرملى المنحدر . ودعانا ريان السفينة ، الذى كان له منزل وأسرة فى المدينة ، أن ننزل عليه ضيوفاً فى منزله مثلما كنا ضيوفاً عليه على ظهر سفينته . ولكن أعراف شاراك ، التى تخف فيها تقاليد الكرم العربى بفعل الشح الفارسى الممزوج بالفظاظة الوهابية ، لا تسمح بإدخال الغرباء تحت سقف الأسرة بصورة مباشرة . وتمشياً مع هذه الأعراف أمر فارس بكنس وفرش غرفة صغيرة كانت تجاور المسجد ، ومخصصة لاستقبال المسافرين من أمثالنا ؛ وبعد أن فرشوا الغرفة بالحصير أحضروا لنا الوسائد والقهوة ، ثم أرسل لنا فى النهاية ، على أيدي إخوته الصغار ، عشاءً طيباً يحتوى على كثير من المطبوعات الفارسية . والتدخين محظور تماماً فى بر فارس كما هو محظور فى نجد ، وقد اضطررنا ،

على إثر ذلك، أن نبحت عن أركان وأماكن منعزلة حتى يتسنى أن نتمتع فيها بالتدخين. ولم يحضر أحد من أهل المدينة لزيارتنا ؛ ولكن العيون كانت "تتفحصنا" فضولا عندما كنا نجلس عند بوابة المسجد ، أن لم يكن "حبا ، فإلى أعين كانت ترد الكلام" ؛ وكنت أنا وبركات ، تدور بخلدنا أفكار كثيرة عن الفرق بين أرض وأرض والفرق بين بشر وبشر آخرين .

وفى صبيحة اليوم التالى كانت الريح ما تزال غير مواتية ، وحالت بيننا وبين الإبحار . ولتزجيه الوقت ، اصطحبنا فارس معه للقيام بزيارة مجاملة للرئيس المحلى ، عبد العزيز المطيرى ، ورحنا نتجول خلال جزء من المدينة ، إلى أن وصلنا إلى بقعة معشوشبة من الأرض ، فيها بعض الأشجار العالية ، لا اعرف لها نوعا (كانت تشبه أشجار الزان ، غير أن مجموعها الخضرى كان مختلفا عن المجموع الخضرى لأشجار الزان) ، وكانت لها ظلال تسمح للزائرين أن يستظلوا بها . وفى هذه المنطقة توجد قلعة عبد العزيز ، وهى عبارة عن مبنى صغير ولكنه قوى ، وله فناء على شكل رباعى الأضلاع ، وبوابة عالية قوطية الشكل .

وعند بوابة القلعة وجدنا العديد من القبعات المدببة المصنوعة من اللباد وكثيرا من الثياب الفارسية الحقيقية التى يرتديها سكان المناطق الداخلية فى إيران ؛ وكان لابسوا هذه الثياب وتلك القبعات عبارة عن وفد من شيراز أرسل إلى شارك ، قبل يوم أو يومين، لتحصيل أو جباية جزية متعثرة عن ولاء مشكوك فيه من جانب حاكم المنطقة، وسيده الشاه . وقد أصاب هذا الوفد ، طبقا لما قيل لى بعد ذلك ، قليلا من النجاح ، نظرا لأن عبد العزيز ، رئيس شارك ، كان وهابيا متصليا ، كما كانت تبعيته بحكم كونه نجديا أقل مما لو كان نجديا خالصا ، ورفض رفضاً قاطعا أن يسمح " لأعداء الله " بالمشاركة فى خيرات الأرض . وطلبنا الدخول إلى القلعة وأجابونا إلى طلبنا . وفى ديوان قريب من البوابة ، تعرض فيه السيوف ، والرماح ، والبنادق ، شاهدنا رئيسنا ، ذلك الشاب شديد الأناقة ، الذى كان يرتدى ثيابا نجديه الطراز ؛ وهو يزعم أنه ينحدر عن سلالة نسبىة نقية تنتمى إلى بنى تميم وطابخة T. abikhah ، وقد همس لى ابن خميس ونحن على انفراد قائلا : " أبدا ، إنه مثلى ومثلك تماما ، لا علاقة له بهذه القبيلة أو تلك". وبغض النظر عن أسلافه، فقد كان عبد العزيز ملتهب الحماس، ومنفعلا تماما بالأخبار الجديدة التى جاءت من عنيزة. وهذه أول مرة، منذ أن غادرنا الرياض ،

نسمع فيها أشياء مهمة عن تلك المدينة المنكوبة . وسوف أروى هنا ذلك الذى حكاه لنا عبد العزيز ، ثم أنتهز الفرصة بعد ذلك لأروى باختصار تلك الأحداث التى وقعت بعد ذلك ؛ وإذا كانت هذه الأحداث محزنة فى حد ذاتها ، إلا أنها تنذر بكثير من الأذى والإزعاج .

عندما وصلت فرقة الاحساء إلى الرياض ، وبصحبته المدفعية ، كان عبد الله ، نجل فيصل ، قد جهز نفسه ليكون على رأس هذه الفرقة على وجه السرعة ، وأن يتجه بها مباشرة إلى عنيزة . ولكن والده العجوز الحصيف والحريص ، أجبر الأمير المتعجل ، على انتظار وصول عبيد من جبل شومر . وكان طلال قد استدعى ليحضر بشخصه ، ويحتل مكانه بين القادة النجديين ؛ ولكن عبد الله رفض الانصياع لأوامر والده من ناحية ، وأنه كان لا يود ، من الناحية الأخرى ، أن يترك مسألة ، هو ، حسب تصوره ، أستاذ فيها ، كى يقوم غيره بالبت فيها ، فى حين أنها من اختصاصه هو ، أو إن شئت فقل " عندما يزهو الأقرب " *Tua res agitur paries cum proximus ardet* . ولم يكن عبيد معارضا لذلك ؛ ونظرا لأنه كان فرحاً بالفرصة الجيدة التى تهيأت له كى يذبح من خلالها أتباعه باسم خالقهم ، فقد سارع إلى تجميع رجاله وذخيرته ، وحضر إلى القصيم فى حوالى منتصف شهر ديسمبر . وأصدر فيصل أوامره ، إلى عبد الله ببدء التحرك ، الذى اصطحب معه قوة الأحساء عن بكرة أبيها ، إضافه إلى قوات العارض ، فضلا عن البقية الباقية من القوات التى جاءت من المنطقتين الوسطى والجنوبية ؛ وبذلك أصبح تحت قيادة عبد الله حوالى خمسة عشر ألف مقاتل أو ما يقرب من ذلك ؛ وهذه القوة ، إذا ما أضفناها إلى قوة الجيش الذى كان يحاصر المدينة بالفعل نجد أن إجمالى عددها يصل إلى حوالى ثلاث وعشرين أو أربع وعشرين ألفا ، على أقل تقدير ، من القوات النظامية ، علاوة على أربعة أو خمسة آلاف من البدو ، الذين قرروا بعد كثير من التردد ، أن ينضموا فى النهاية إلى المنتصر الأكيد . وهكذا تركت عنيزة لحال سبيلها ومواردها الخاصة ، التى قد تصل إلى حوالى أربعة آلاف مقاتل على أكثر تقدير .

وبعد كثير من المناوشات والمصادمات دارت معركة حاسمة فى شهر يناير . ويقال إن الزامل والخياط قاما بأعمال شجاعة ، وأنهما أوشكا أن يطوقا عبد الله هو وقواته ويقتلانه ، وبخاصة ، ويا للأسف ، أنه لم يكن جاداً أو متحمسا لهذه المعركة .

ولكن عندما تكون نسبة المقاتلين خمسة إلى واحد ، فإن المعركة المتعادلة أفضل من الهزيمة ، عند الطرف الأقل عددا ؛ ونظرا لأن رجال عنيزة ، أصبحوا على علم كاف بتفوق قوات العدو عليهم تفوقا ساحقا ، وأنهم لا طاقة لهم بخسارة رجل واحد ، فقد حبسوا أنفسهم داخل أسوارهم ، وبذلك كانوا فى عرف المحاصرين من حيث الشكل .

كان هذا هو الحال عندما روى عبد العزيز آخر الأنباء التى وصلتته . أما بقية الأحداث ، التى وقعت بعد ذلك ، فقد وصلتني فى شهر أبريل ، عندما كنت على وشك مغادرة حدود الجزيرة العربية إلى بغداد . وبعد أكثر من شهر من الحصار المحكم ، انهارت الأسوار الخارجية ، ثم بعد ذلك الأسوار الداخلية أمام المدفعية الوهابية ، وأمكن الاستيلاء على المدينة عن طريق الاقتحام . وحارب أهل المدينة حتى النهاية ؛ وعندما تبددت الآمال ، شق كل من الزامل والخياط طريقهما وسط المهاجمين ، ولذا بالفرار إلى ملجأ فى الجنوب فى وادى نجران ، يقال إنهما اختبأ فيه خوفا من ثأر المنتصر منهم . ولكن الغازي قتل ، فى الحال ، حوالى سبعمائة رجل ، من بين مواطني عنيزة البارزين ، فضلا عن إقامة مذبحة دامية لأهل البلد العاديين ؛ وجرى فى النهاية سلب المدينة ونهبها وتخريبها تاربا تاما ، على ألا تقوم لها قائمة بعد ذلك ، طوال حكم الوهابيين لهذه المدينة . وبذلك تكون جميع العوائق قد أزيلت من أمام الجيوش الوهابية فى الطريق إلى مكة ؛ وهنا بدأت الاستعدادات اللازمة لتحقيق الحكم الكبير للطموح النجدى ، والذي يتمثل فى فرض السيادة النجدية على المدينة المقدسة . هذا الهدف الذى طال انتظاره ، هو وعظمة ودمار عبد الله الأول ، ربما يكون من المحتمل تماما ، تنفيذه الآن بواسطة عبد الله الثانى . كان السلطان العثمانى قد أهدر الفرصة الممتازة التى تهيأت له وكان يستطيع من خلالها وقف المتشددى النجدى ، عن طريق مساعدة عنيزة وتقديم يد العون لها ، ولم يكن أمام شريف مكة من شىء يفعل ، بالتعبير العام ، سوى أن يغلق باب الاصطبل بعد أن سرق اللصوص الحصان ، اللهم إلا إذا تدخلت مصر ، أو أية قوة أخرى ، فى محاولة منها لإنقاذ شبه الجزيرة العربية من الدمار والتخريب الوهابى ، ذلك الدمار الذى بدأ يخيم على كل شواطئ البحر الأحمر وشواطئ الخليج الفارسى . وسوف يتعين علينا الانتظار كى نرى ما سيحدث ؛ والسبب فى ذلك أنتنى ومعنى القارئ العزيز يتعين علينا أن نعود الآن إلى شارك ، التى تركنا فيها عبد العزيز هو وحاشيته وهم يفرحون بانتقام الله من كفار القصيم ، ويعيدون ويكررون أمجاد مذهب محمد بن عبد الوهاب الدينى .

وشربنا القهوة وغادرنا المجلس . وعرض على فارس ، بكثير من الأدب وإحساس أكيد يدل على الفهم ولا يعد شائعا في الشرق ، عرض على أن يصحبني في نزهة سيرا على الأقدام يطلعني فيها على كل ما يستحق أن أراه . ولم تكن هذه النزهة كبيرة ؛ وعلى كل حال ، فقد أشار لي فارس ، خلال هذه النزهة ، إلى آثار السور الخارجى المهدم ، كما أشار لي أيضا إلى اتجاهات هذه الأسوار بين الحقول والأشجار ، وكان يبدو عليه الاهتمام كما لو كان خبيرا من خبراء شراء العاديات والآثار يقف أمام آثار الحرس البريتورى الإمبراطورى الرومانى القديم . ومن ثم فقد اقتادنى فارس إلى سفح مخروط صغير من الرمل كان يقع على قمته ذلك البرج المدمر الذى سبق أن أشرت إليه ، والذى يعد منافسا لقلعة كيستور فى نورفك فى بريطانيا ، من حيث الحجم والشكل . وهذا البرج موجود خلف التحصينات القديمة ، التى تمتد على شكل شبه دائرة محيطها حوالى ميل ونصف الميل ، فى حين يشكل شاطئ الخليج أساسا لهذا المحيط : وهذا الأساس عبارة عن مجرى للسيول ومختزن للأمطار الشتاء التى تنساب إليه من جبال فارس ، وتخرق وسط هذا الفراغ ، اختراق السهم وهو يمر خلال قوس مفروود . والمسافة فيما بين سور مدينة شارك ومنازلها تنمو فيها أشجار التين ، وأشجار البرتقال ، والليمون فضلا عن الأشجار البستانية الأخرى ؛ وخارج سور المدينة توجد بعض بيارات النخيل غير الكثيفة ، كما لو كانت رجالا تجمعوا للتدريب على استعمال السيف ؛ ومن خلف هذه البيارات توجد بعض الحقول القليلة التى تتناثر خلالها قطعاً من الصخور إلى أن تصل إلى سفح الجبل . وتتناثر فى هذه المنطقة الأكواخ التى يراها الرأى هنا وهناك ، ولكن الريف هنا مغلغل السكان ، والقرى الوحيدة التى لها حجم يذكر هى تلك القرى التى تقع على شاطئ الخليج نفسه . والآبار ليست قليلة فى شارك وهذه ميزة تنفرد بها هذه المنطقة عن سائر مناطق بر فارس ، ومع ذلك فإن طعم الماء هنا يميل إلى الملوحة . وأمضينا مع فارس ، فى هذه النزهة ، مدة تتراوح بين ساعتين أو ثلاث ساعات ، عدنا بعدها إلى المنزل وأمضينا بقيه اليوم فى البحث عن وسائل تمكنا من مواصلة رحلتنا . وحركة المرور صغيرة بين بر فارس والشارقة ، التى نريد أن نيمم مسيرنا إليها ، والتى نصحبنا ، إن أردنا أن نصل إلى الشارقة ، أن نستقل السفينة شيرو Chiro ، التى كانت راسية فى ميناء شارك ، والتى كانت على وشك أن تبحر إلى ميناء لينجا أو إن شئت فقل لينيا ، إن أردنا أن نطلق عليها الاسم الذى يطلقه عليها أهل شارك ، وهذا يعنى أن الناس هنا

يرققون الجيم العربية الجافة ويحولونها إلى "ياء" ؛ وهو خطأ محلى فى النطق يترتب عليه أن تتحول كلمه " مسجد " إلى "مَسِيد" Masyid وكلمة "عجمان" إلى "عيمان" Ayman وهلم جرا . ويقع ميناء لينجا على بعد مسافة تقدر بحوالى عشرين ميلا على نفس ساحل شاراك ، وأننا عندما نصل إلى لينجا فلن نجد صعوبة فى العبور إلى الشارقة . وفى نفس الليلة قام ريان سفينة الشيرو ، ذلك البحار صاحب البشرة الداكنة ، بزيارتنا فى المكان الذى كنا نقيم فيه بالقرب من المسجد ، وساومناه واتفقنا معه على أن نعبر معه إلى الشارقة فى اليوم التالى .

وفى صبيحة اليوم التالى ، الموافق لليوم العاشر من شهر فبراير ، ذهبت للاستحمام فى مياه البحر الرائقة ، والسبب فى ذلك أننى لم أخاطر بالاستحمام بعيدا عن شاطئ قطر . ولكنى فى هذه المرة ، كنت على وشك أن يقع لى حادث نتيجة اندفاع واحدة من أسماك الرأى اللساع ناحيتى ، والتى كانت قريبة جدا منى لحظة إفلاتى منها . وفى هذا الخليج يعيش ويتزعرع كثير من الوحوش البحرية مثل البولب ، الذى هو شكل من أشكال الحياة المائية البسيطة ، والقُرأص البحرى ، والرخويات ووحوش بحرية أخرى كثيرة ، كما تشيع هنا أيضا أسماك القرش ؛ إلى حد أن من يسبح بعيدا عن الشاطئ من ناحية بر فارس يتعين عليه أيضا أن يتأكد من خلو المكان الذى يسبح فيه من سمك القرش .

وعند الظهر ، ركبنا على ظهر السفينة ، وسرعان ما فردت السفينة أشرعتها متجهة إلى لينجا ، وكان بصحبتنا على ظهر المركب بعض أماجد مدينة شاراك ، الذين كانوا يرتدون ثيابا جيدة ، والذين كان يبدو عليهم أنهم أغنياء بالمال أكثر من الكلام ؛ وينبغى علىّ هنا أن أضيف أن أهل هذا الساحل تصل صرامتهم إلى حد الكآبة ، فهم من النوع قليل الكلام ، وليس لديهم ما يقولونه ؛ وغادرنا الميناء ، ومع غروب الشمس كنا لا نرى من رأس بستانة سوى لسان يمتد داخل البحر، مع قريرتين أو ثلاثة فى المنطقة المجاورة لها ؛ فى حين كانت الحدود الخارجية الداكنة والحاملة لجزيرة فارور Faroor ، وذلك الحيد المرجانى الذى لا يختلف عن حيد حائل ، تقطع عن بعد حافة البحر من الناحية الجنوبية . ومع حلول الليل تجاوزنا رأس بستانة . كان لون البحر فسفوريا ساطعا ؛ إذ كان كل تموج مصحوبا بومضة ضوئية ؛ وكنا نشاهد أيضا كتلا كبيرة

وهى تضيئ ، ورخويات أيضا من النوع المضيئ ، وهى تطفو كما لو كانت كرات من الحديد الساخن ، على أعماق صغيرة تحت سطح الماء . ومن باب الاستطلاع سألت أصدقاء الوهابيين الذين كانوا معنا على ظهر المركب، عن سبب هذا المظهر الناري ، وقالوا لى بكل ما لديهم من جد ، أن ذلك إنما يرجع إلى الوميض المنعكس من جهنم ، التى يفترضون وجودها أسفل الخليج مباشرة . وبجدية مماثلة سألتهم أيضا إن كانت مناطق جهنم شفافة أم لا ؟ وهل هذه الشفافية يمكن أن تكون من قبيل الحجر الزجاجى ؟ وأوحيت إليهم أنه فى غياب مثل هذا الوسيط فإن الماء الموجود فى الأعلى قد تشتعل فيه النار . ولكنهم أجابونى أن القدرة الإلهية قادرة على تحاشي كل ذلك ، وأن إرادة الله تكفى الإنسان كى يتوقف عن المزيد من التقصى والبحث . وزاد هؤلاء الوهابيون على ملاحظتى الثانية عن درجة الحرارة الطفيفة الناتجة عن ذلك التوهج الأبدى الذى يبدو وكأنه ليس له أى تأثير ، من أى نوع كان ، على تسخين مياه البحر الفوقية ، ردوا على هذه الملاحظة بنفس الرد المقتضب أيضا ؛ وقالوا لى أيضا أن هذه الظاهرة إنما هى أيضا ناتجة عن قدرة الله وإرادته ، وأن هذه الحرارة لا وزن ولا قيمة لها ، ولا تساوى شيئا أمام نار جهنم . وهنا وجدت من الأفضل ومن الحرص ألا أوصل الخوض فى هذا الموضوع . وأنا أتمنى لأولئك الذين يجدون متعة فى إعلاء أو تنزيه المفاهيم المحمدية الروحية والدينية أن يمضوا شهورا قليلة بين الوهابيين فى كل من بر فارس أو فى نجد^(١) : لأن الحميمية سوف تلعب دورا كبيرا فى تعديل مثل هذه الآراء .

(١) أنبه هنا إلى ملاحظة هامة عن الإسلام والمسلمين ، فالإسلام كدين بنصوصه الشرعية من كتاب وسنة والتطبيقات الفعلية فى عهد رسوله وأصحابه الأكرمين له كل الإكبار والإجلال لأنه قوام الحياة الصحيحة ، ولا يوجد خلل ما فى تعاليم الإسلام يتنافى مع العقل السليم والفطرة السليمة كما قال تعالى "إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم" وينبغى أن نفرق بين الإسلام كدين وبين المسلمين ، فقد يوجد من بين المسلمين من لا يفهمون هذا الدين ، ويجهلون أحكامه وقواعده فيطبقونه خطأ . وهذا ليس عيبا فى الدين وإنما هو عيب فى سلوك المسلمين وإذا كنا نريد أن نحاكم المسلمين على سلوكهم فهذا أمر لا خلاف عليه أما أن يهاجم الدين ويزدري به بسبب سلوك المسلمين فهذا أمر لا يجوز ، وهذا شأن المؤلف دائما فهو يصب جام غضبه وازدراؤه بدين الإسلام بسبب ما يراه من سلوك بعض المسلمين حكاما ومحكومين ، وهو هنا يتندر بالإسلام بسبب إجابات بعض المسلمين عن ظاهرة الوميض الضوئى فى البحر وهل جهل الناس ببعض الأمور وعدم قدرتهم على تفسيرها تفسيراً صحيحاً فى ضوء الإسلام يعد عيباً فى الإسلام - كما قلت سابقاً - ينبغى على من يتناول هذا الدين أن يفرق بين الدين كدين وبين التطبيقات له على أيدي المسلمين - (د. حلمى عبد المنعم) .

وعند منتصف الليل ، كنا قد وصلنا إلى خليج لينجا أو لينيا ، حيث راحت
الأضواء العديدة المتلائة الصادرة عن الشاطئ ، تقشع الظلام ، مما جعلني أتوق
شوقا إلى اكتشافات الفجر . ويطلع النهار لنرى أن سفيتتنا قد رست على بعد حوالى
مائتى ياردة من البر ؛ وأن ما يفصل بيننا وبين البر هو عبارة عن سفن ، من الأنواع
الصغيرة والأنواع الكبيرة ، كما رأينا أيضا مدرجا من المنازل البيضاء وسط الأشجار
والبساتين التى كانت تنتشر إلى مسافة طويلة على الشاطئ على جانبى الميناء .

ولينجا تتبع الحكومة العمانية فى الوقت الراهن - وهذا ظرف طيب ، ومصدر من
مصادر ازدهارها المرموق . وساحل الخليج كله فى المنطقة من رأس بستانة إلى حدود
جسك Djask يتبع الحكومة العمانية . أما كيف حدث ذلك ، وما هى الظروف التى
ساعدت عليه ، وما هى النتائج التى ترتبت على ذلك ، فتلك أمور لا يفهمها إلا أولئك
الذين لديهم ، على أقل تقدير ، فكرة عامة عن تاريخ عمان وأسرتها المالكة . وأنا
بدورى هنا سوف أسرد هذا التاريخ ، أو أرسم له صورة عامة ، وذلك على سبيل
التقديم لتلك المرحلة الأخيرة من روايتى . إن الموضوع مهم ، ويحتاج منى إلى
فصل مستقل .

الفصل الخامس عشر

عُمان

أنا أصف باستفاضة الشاطئ السعيد
الذى أتوق إلى الوصول إليه قبل فترة طويلة ؛
التربة تبدو جميلة من بعد ، ومملوءة بالمخزون
بكل ما هو حى وعزيز ولذيذ .

سبنسر Spencer

حدود عمان الجغرافية - طابع عمان العام - تاريخ عمان القديم والمصادر
السكانية - المستعمرات اللاحقة - السبئيين من منظور المصادر العربية - سبئي
عُمان - عقيدة محمد فى عمان - انحرافها خلال القرن الأول - النبض القرموطى -
المرحلة اللاحقة من مراحل العقل فى عمان - البياضية - أصل أسم البياضية - النجم
القطبى - الصيام السنوى - الظروف الاجتماعية والنساء - ممارسة التخفى - نيبور
فى مسقط - مدى الخطأ فى معلوماته - الطابع العام للسكان - التسامح - السحرة
والمشعوذون العمانيون - قصة ساحر بأهله - الزوج فى عمان - عدد الزوج ،
أحوالهم ، ونفوذهم - تاريخ القرون الثلاثة الأخيرة فى عمان - البرتغاليون -
الهولنديون - الفرس - استعادة عمان لاستقلالها - أسرة ابن سعيد المالكة - اعتلاء
السلطان سعيد للعرش - سياسته ونجاحاته الأولى - الغزو الوهابى - قمع القراصنة -
الهزائم التى وقعت بعد ذلك وحكومة السلطان سعيد - زيارة السلطان سعيد إلى مكة -
وفاة السلطان سعيد - الانقسام الثلاثى للمملكة - الحرب بين الثوينى وماجد - الحرب
بين ثوينى وأمجد - التدخل الإنجليزى - الثورة الشعبية - استدعاء ثوينى للنجديين -

حملة عبد الله بن سعود - خالد بن صاقار - تاريخه - سلبه ونهبه في باطنة - وصول عبد الله إلى بريمة - الحملة على جبل أخضر بقيادة زامل العطية - التقدم - النتيجة - الهدنة العامة - الأحوال المفروضة - تصرفات ثويني اللاحقة - "إمام مسقط" - مدى خطأ هذا الإمام - إدارة المملكة - تصرفات أحمد السديري هو ونجديون آخرون - الساحل الفارسي - النزول إلى أرض لينجا - مدينه لينجا - ميناء المدينة ، التجارة ، والسكان - الأديان - الإدارة العمانية - الدعيج ومنزله - لينجا من الداخل وسوق لينجا - النيابة الفارسية - الرحيل إلى الشارقة - عاصفة - يومين في أبي موسى - الوصول بعيدا عن الشارقة .

عَمَان كما ينطقها العرب ، أو عُمان حسب نطقنا المغلوط لها نحن الإنجليز ، عبارة عن اسم مستقر بلغ من الشيوع والذيعوع حدا يصعب معه ألا نقول عنه شيئا ؛ وهذا الاسم من واقع السواد الأعظم من الخرائط ينطبق على المنطقة الساحلية المحصورة بين رأس سندان ورأس الحض ، أو إن شئت فقل أقصى الكتف الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية . والعرب ينسبون إلى عمان ، برغم كل ذلك ، مساحة أكبر من تلك التي ذكرناها ، وتمتد من أبي ظبي ، تلك القرية التي تقع على الحدود الشرقية للمنطقة التي يحتلها بنو ياس في الوقت الحالي ، إلى حدود منطقة ظفار نفسها ، عند أقصى الساحل الجنوبي ، كما يتبع عمان أيضا جميع الأراضي الواقعة بين هاتين النقطتين . وبذلك نجد أن عمان ، على هذا النحو ، تشتمل على منطقة المهرة وهذا نقلا عن علماء الجغرافيا الإنجليز ورُغن راس الحض ، ثم كامل المنطقة التي تمتد إلى "ساحل القراصنة" ، علاوة على جميع الأماكن التابعة لـ - رأس مسندم على الجانبين . وعمان الجزيرة العربية ، تلامس ، في ضوء ذلك ، كلا من حضرموت من ناحية الجنوب ، ثم قطر ، أو المنطقة المجاورة لها منها على أقل تقدير ، من ناحية الشمال ، وبذلك نجد أن عمان تشكل هلالا ضخما ، يقع البحر أمامه ، وصحراء جنوبي الجزيرة العربية الشائعة من خلفه . ولكن من منظور المغزى السياسي السائد ، فإن عمان لها امتداد أوسع من ذلك ، نظراً لأنها تشتمل علاوة على ما ذكرناه ، على تلك المنطقة أيضا التي تضم كلا من بنى - ياس ، وقطر ، والأقحاف ، وكل جزر الخليج الفارسي التي تقع شرقي البحرين ، وهي على وجه الحصر ، جشم ، وأرموز (أو إن شئت فقل هرمز كما يسميها أهلها) ، وجزيرة لارج Larej ، وجزر أخرى كثيرة قليلة الأهمية ، علاوة على الساحل بكامله من ناحية بر فارس في المنطقة ما بين رأس بستانة وجسك Djask .

وأخيرا ، فإن الحكم العماني يمتد أيضا ليشمل شريطا طويلا من الشاطئ الأفريقي المقابل لـ - زنجبار ، في حين أن الجزيرة التي تحمل اسم سوقطرة أيضا ، هي وكل الأماكن المجاورة لها ، تخضع أيضا للصولجان العماني .

والقارئ إذا ما ألقى نظرة خاطفة على الخريطة سوف يتبين أن عمان هي بالضرورة مملكة بحرية ، وأنا أعني بذلك ، أن عمان مملكة من تلك الممالك التي يتحتم على التجارة والتجارة البحرية أن تلعبا دورا مهما فيها ، وربما أهم الأدوار كلها . إلا أن الممتلكات البرية في هذه المملكة تفتقر في جميع الأحوال إلى الثروات التي تكمن في باطن الأرض . ولكن عمان الأصلية ، نظرا لأن هذا الاسم أصبح يطلق على كل أنحاء الإمبراطورية كلها ، كما يبدو ، هي أغنى جزء من أجزاء شبه الجزيرة العربية ، من حيث الإنتاج الزراعي والكنوز المعدنية ، في حين أن امتدادات هذه الإمبراطورية الداخلية تعد مصدرا سخيا من مصادر العمالة الصناعية على اختلاف أنواعها . ويقال أيضا أن ممتلكات الإمبراطورية العمانية ، في أفريقيا ، شديدة الخصوبة أيضا ، في بعض أجزائها على أقل تقدير ؛ ولكني فيما يتعلق بهذه النقطة ، أحيل القارئ الكريم ، إلى الاعتماد على مصادر أخرى غيري ، والسبب في ذلك أني لم أعبر قط هذا الخط في اتجاه الجنوب . ولكن أيا كانت ثروة عمان البرية ، فإنها تتمثل أصلا في ذلك الساحل البحري الطويل ، والموقع المهم بهذا الساحل نفسه ، وبخاصة أن هذا الساحل الطويل يحتوى على مفاتيح الخليج الفارسي ، علاوة على مرافئه الممتازة التي تتخلل هذا الشاطئ مما يضيف على كل من الشعب والحكومة طابعا فريدا ومحددا .

كان هذا الجزء من الجزيرة العربية ، قد استقبل ، منذ زمن بعيد جدا ، أول المستعمرين الذين وصلوا إليه من اليمن . ويبدو أن أولئك المستعمرين لم يكونوا ينتمون إلى القبائل الحميرية وإنما إلى القبائل القحطانية ، وذلك قبل أن يختلطوا بأي عنصر من العناصر النسيبية الأجنبية . ونقلنا عن الموروث العماني فإن الأسرة الرئيسية التي ترأس رؤسائها المستوطنة أو إن شئت فقل المستعمرة الرئيسية ، كانت من اليعاربة ، وأن أحفادهم استطاعوا الحفاظ على سيادتهم المستمرة وغير المحدودة بطبيعة الحال ، على عمان حتى مطلع القرن الثامن عشر إلى أن استطاع أحمد بن سعيد ، في النهاية ، أن يطيح بآخر هؤلاء الحكام ، والذي كان يدعى سيف بن سلطان . وأحمد بن سعيد هذا من أسرة الغفاري ، ولكنه تحالف ، عن طريق المصاهرة ، مع اليعاربة الذين خلعهم واستأصل شأفتهم ، وبذلك يكون قد استطاع بهذا العمل الشجاع أن يخلص بلاده من نير الفرس الذي فرضه عليها تقى الدين ، وترتب على ذلك ، أن بايعه إخوانه

المواطنين الذين احتشدوا فى مسقط ، ملكا عليهم لقاء شجاعته ومهارته . وتلت ذلك معركة لم تدم كثيرا ، دارت بين أحمد بن سعيد وأتباع الأسرة المالكة المخلوعة ؛ وانتصر ابن سعيد فى تلك المعركة ، ودانت له فى النهاية السيادة على المملكة كلها ؛ فى حين رضى اليعاربة لأنفسهم بالحكم المحلى على ممتلكاتهم الأسرية ، التى كانت فى جبل أخضر ، الذى لا يزالون يتمتعون فيه بسلطاك اقطاعية لا ينازعهم أحد فيها ، شبيهة بتلك السلطات التى يتمتع بها أهل كامبل فى الأراضى الغربية المرتفعة ، بوصفهم رؤساء أقوياء لعشيرة من العشائر .

والغفاريون شأنهم شأن اليعاربة ، يدعون أنهم ينحدرون مباشرة من قحطان نفسه ، أو إن شئت فقل من أودين^(١) Odin الجزيرة العربية ؛ وسكان عمان الحقيقيين يتباهون بصلتهم النسبية من ناحية الأم ، برغم أنهم ليسوا من أصل ملكى . ويبدو أن قبائل جيلاندى ، وثوعال، عذرا، ويشجار، هى وقبائل أخرى من الأسرة القحطانية قد التجأت إلى هذه المنطقة فى زمن بعيد جدا ؛ ومن الجيلاندى تفرع بنو- ريام Banoo - Ryam ، الذين يسكنون المرتفعات الموجودة فوق نزوة Nezwah . ولكن علاوة على هؤلاء السكان الأول لهذه المنطقة ، كانت هناك أيضا قبائل أخرى شمالية أو إن شئت فقل من سلالة إسماعيل ، انصهرت وتكاملت ، بمرور الزمن ، مع هذه السلالة القحطانية . من ذلك مثلا ، أن عشيرة الفزارة Fezarah كثيرة العدد ، والتى طردت من نجد بسبب الحروب والاشتباكات والصدامات المستمرة التى كانت تدور بين كلاب وتميم ، اتخذت لنفسها من هذه المنطقة مقاما أساسيا ، وقد انحدر عنهم عدد كبير من هؤلاء السكان الذين يعيشون على ساحل البحر . يضاف إلى ذلك أن كلا من كنانة وحيدال Hedai ، سارا على الدرب نفسه ، إلى أن أصبح حوالى ربع سكان عمان العرب من أولئك الذين لا ينتمون إلى سلالة قحطان ؛ وهذا التحذير يؤكد ذلك الاختلاف الطفيف فى اللهجة وفى الملامح ، مع تباين طفيف فى المفاهيم والأسس الدينية ، وهذه كلها أمور كافية لتأكيد هذا الفارق وهذا الاختلاف الذى لا يكفى أن يكون الموروث الشفهى وحده دليلا عليه ومؤكدا له . كما يسود العرق الزنجى والحبشى فى الجنوب الشرقى .

وفى الجانب الشمالى - الغربى من رأس مسندام ، أى ابتداءً من عجمان إلى شعام ، هناك مستعمرة فريدة تحتوى على سلالة نجدية نقية ، يرجع إنشاؤها إلى تاريخ قريب نسبيا ، هم الجواسمة . والجواسمة شأنهم شأن سكان بر فارس يرجعون

(١) أودين : رب الأرباب فى الميثولوجيا الجرمانية - (المترجم) .

أصلهم النسبى إلى المطير ؛ ويبدو أن مستوطناتهم أقيمت خلال القرنين الماضيين . والجواسمة هم وهابيون من الوهابيين، وبالتالي فهم أعداء ألداء بكل من يحيطون بهم ؛ يضاف إلى ذلك أن العداء الفطرى الذى يزيد التشدد من حدته ، وكذلك المتاريس والاستحكامات الموجودة فى الجرف الصخرى الذى يعيشون فيه ويضعب الوصول إليه ، فضلا عن تحالفهم الجزئى مع نجد ورعايتها لهم أيضا ، هو الذى يمكن هؤلاء الجواسمة من الدفاع عن منطقتهم ضد أولئك الذين يريدون الهجوم عليها من البر أو البحر .

وبخلاف هذا الاستثناء المحلى ، وقلة قليلة أخرى قليلة الأهمية سوف نلاحظها طوال استمرارنا فى سرد تفاصيل هذه القصة ، نجد أن مبادئ ومفاهيم ابن عبد الوهاب ، بل ومفاهيم العقيدة المحمدية نفسها ، تواجه مقاومة ضئيلة فى عمان ، إذ نجد أن هذه العقيدة الدينية التى تمتزج فى عمان ، أكثر من الأحساء ، بحياة الناس المدنية والأخلاقية ، لها طابع غامض ومتعدد الأشكال ؛ وهذا يرجع إلى عقائد جديدة لا يجرى اتباعها بصورة كاملة ويجرى أيضا تطعيم المعتقدات القديمة شبه المهمة بهذه المعتقدات الجديدة . وهذا الأمر له شبيهه أيضا يمكن أن نلاحظه فى بعض الأمم الأخرى ؛ والواقع أن هناك قلة قليلة فقط هى التى لم تُرَقَّع الثوب القديم برقعة من قماش جديد . ولكن مسألة الترقيع هذه تتجلى بشكل أكثر وضوحا فى الركن الشرقى من الجزيرة العربية ، أى فى المنطقة التى تمتد ما بين أبى ظبى ورأس الحض ، بل أن هذه المنطقة تمتد إلى أبعد من ذلك لتصل إلى حضر موت نفسها .

من المعروف أن دين عمان القديم ، كان دينا سبئيا ، بل إنه كان من الطراز الذى كان سائدا ذات يوم لا بين الكلدانيين وإنما فى بلاد فارس أيضا ، ومعروف أيضا أن نظرية الإثنيينية^(١) كانت قد أفسدت بساطة النظرية القديمة . وأنا لست بحاجة إلى أن أورد هنا أن هذه العبادة الشمسية والنجومية التى ترمز النار إليها ، على الأرض ، فى بعض الأحيان ، مع استبعاد كل الأشكال الفنية ، كانت مختلفة تماما عن عبادة تآليه الفرد عند الآشوريين ، ومختلفة أيضا عن عبادة السَّبَّاع 'Sabba' المندى ، أو إن شئت فقل عبادة "المسيحيين أتباع القديس جون" ؛ برغم أن كثيرا من المؤلفين الأوربيين ، يشاركون المؤرخ العربى، شمس الدين الدمشقى، فى إطلاق مصطلح "سبئى" على كل

(١) الإثنيينية : نظرية تقول بأن ثمة مبدئين أساسيين ليس غير ، كالعقل والجسد ، أو أن الكون خاضع لمبدئين متعارضين أحدهما خير والآخر شر ، أو أن الإنسان ذو جسد وروح - (المترجم) .

هؤلاء الذين سبقت الإشارة إليهم وغيرهم أيضا . والسبئية التي يتعين على أن أتطرق إليها هنا كانت أكثر قديما وأبسط شكلا من السبئية الحالية .

وعن هؤلاء السبئيين ، الذين عاشوا في أجزاء من اليمن ، وعمان ، وفي أجزاء أخرى من الجزيرة العربية ، هذا إن لم يدعوا أنهم ملكوا الجزيرة العربية كلها في تاريخها الأول الضارب في القدم ، عن هؤلاء السبئيين يورد المؤلفون العرب المعلومات الشحيحة التالية . إن السبئيين عبدوا الكواكب السبعة السيارة ، والشمس بصفة خاصة ؛ وأنهم كانوا يصومون صياما مقداره ثلاثون يوما ، وأن ذلك الصيام كان يحدث في مطلع الربيع ، أى قبل حدوث الاعتدال الربيعي^(١) ، وإن عيد السبئيين السنوي يصادف دخول الشمس برج الحمل (وهذه الحقيقة تفترض أن السبئيين كانوا ينتهجون الحساب الشمسي وليس الحساب القمري في الأشهر) ؛ وإن السبئيين كانوا يوقرون الهرمين الكبيرين في مصر ، اللذين اعتقد السبئيون أنهما ضريحان لكل من سيث Seth وإدريس Idrees ؛ كما أخبرونا أيضا أن صلاة السبئيين كانت سبع مرات في اليوم (برغم أن هناك بعض المصادر التي تقول إن هذه الصلوات كانت خمسا فقط - وهذا التجاوز في العبارة يمكن تفسيره بسهولة) ، وإن السبئيين أثناء صلاتهم وتضرعهم كانوا يولون وجوههم شطر الشمال ؛ أخيرا ، أن السبئيين كان لهم كتاب ، أو مجموعة قوانين ، كانت تعزى إلى سيث Seth نفسه (ولكن أحدا لم يذكر أى شئ عن اللغة التي صيغت بها هذه القوانين) ، وأنهم كانوا يعتقدون أن تلك القوانين إنما كانت تحتوى على معتقدات وقوانين الأب الأول . وهناك أيضا بعض النقاط الأخرى الأقل أهمية ، وأصالة ، ونجدها أيضا في كتب المؤلفين المسلمين ؛ منها على سبيل المثال ، أن السبئيين كانوا يوقرون الحرم المكي ، كما إنهم يقولون أيضا : إن السبئيين بشروا أيضا بمحمد ؛ والقراء الذين يعرفون أحلام أولئك الذين يجدون متعة في اكتشاف مسيحية متوقعة في كل من أضرحة يوكتان Yucatan واللغة الهيروغليفية في الأقصر ، بوسعهم أن يتخيلوا أيضا كيف يمكن لمثل هذه الأفكار أن تشق طريقها إلى أذهان أتباع محمد (ﷺ) ، فيما يتعلق بأولئك الذين لهم دين مختلف عن دين محمد وأقدم منه أيضا . والمثل الذي يقول : " من يصاب بالدوار يشعر بأن الأرض تدور به " له تطبيقات كثيرة جدا .

(١) المقصود هنا اعتدال الليل والنهار ويكون ذلك حوالى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس - (المترجم) .

والواقع أن هناك نقطتين ، هما سلبيتان فى واقع الأمر ، ولكن لهما أهمية كبيرة ، نظرا لأنهما تميزان الشكل القديم من السبئية : وأول هاتين النقطتين ، أن السبئية خالية من عبادة الأصنام ؛ والنقطة الثانية ، هو خلو السبئية من التسلسل الكهنوتى . ويبدو أن التراس فى العبادة، كان دائما للسن الأكبر أو أن شئت فقل: لرئيس العائلة ، وأن هذه الرئاسة الدينية لم تكن تتطوى على تمييز فطرى بين من يترأس هذه العبادة والمحيطين به . وعبادة النار ، بالطريقة التى يمارسها البارسيين^(١) فى الهند وفى غيرها ، فى وجود كهنوت منتظم وطقوس مقدسة ، يبدو أنها اختراع حديث العهد أو تم إدخاله حديثا ؛ والمعلومات والمصادر التى لدينا عن السبئيين الأولين لا تشير إلى وجود مثل هذه الممارسات بينهم .

أخيرا ، فإن الموروث العربى كله يخص للسبئيين شرقى شبه الجزيرة العربية على أنه كان مقرهم ومعقلهم الأساسى ، فى الوقت الذى كان غرب شبه الجزيرة العربية وبعض أجزاء فى وسطها ، قد اعتنقا دينا أكثر تعقيدا يقوم على عبادة الأصنام أو ما هو شبيهه بعبادة الأصنام . أخيرا ، فإن انتصار الإسلام الدائم والحاسم الذى تحقق فى اليمن ، وفى ضوء الحال الأخير الذى كان اليمن عليه ، لابد أن يكون قد اقتلع من هذه المنطقة كل أثر من آثار السبئية ، فى شكلها القديم على أقل تقدير. أما مدى استيعاب عمان لهذه العملية أو مدى مراوغتها لها ، وأيضا مدى حفاظها على عاداتها وأعرافها القديمة فيمكن توضيحه فيما يلى .

أدعت عمان خلال حياة محمد (ﷺ) للدخول فى الدين الجديد الذى جاء به النبى ، برغم أن المؤرخين العرب ، عندما يدونون هذه الحقيقة يكادوا لا يقولون شيئا عن وسائل هذا الإذعان أو عن اللون الذى تلون به . وبرغم أن هذا الجزء من الجزيرة العربية كان منفصلا أو معزولا عن بقية القارة بتلك الصحراء التى تقع بينهما ، وبالتالي يصعب الوصول إليه عن طريق البحر ، وذلك المسار الذى لم يطرقه المقاتلون الإسلاميون الأوائل إلا قليلا ، بالرغم من كل ذلك فإن سكان عمان كانوا يفضلون ، أكثر من إخوانهم فى الأماكن الأخرى ، الهروب من المضايقات التى تنتج عن التحرش العسكرى ، كما كانوا يهربون أيضا من المضايقات التى تنتج عن استجوابهم

(١) البارسيين : أولئك الذين انحدروا من أصلاب اللاجئيين الفرس المقيمين فى بومباى وغيرها - (المترجم) .

استجابا دقيقا فيما يتعلق بإيمانهم وتقواهم ، وذلك عن طريق إذعانهم فى الوقت المناسب " للقوى الكائنة بالفعل " ، والجزية التى كانوا يدفعونها كلما طُلب إليهم ذلك ؛ وكان هذا الحل الوسط مرضيا للطرفين . والأحداث المدونة خلال حكم عمر ، تدل على أن سريان الدين الإسلامى فى عمان ، طوال حكم ذلك الخليفة ، كان سريانا شكليا - وحدث بعد ذلك الصراع الكبير الذى دار بين عثمان وعلى^(١) وترتب عليه أن الجزيرة العربية كلها ، ومعها جميع البلدان القريبة التى كانت فى ذلك الوقت ، قد انصهرت وذابت فى الامبراطورية المحمدية (الإسلامية) ، ترتب على ذلك أن انقسمت كل هذه الامبراطورية إلى جزئين بينهما عدااء مميت ، مما أسفر عن نشوء صراع دموى طويل ، لم تستطع اثنا عشر قرنا من الزمان أن تضع له حدا . فقد وقف شرقى الجزيرة العربية مع على ؛ أما غربها فقد كان معظمه يساند عثمان^(٢) . وفى نفس هذا الوقت كان أهل عمان ، هادئين مرتاحين فى ركنهم الذى تحيط به الصحراء ، ولم يتعبوا رؤوسهم أو أيديهم بكل ذلك الذى يدور من حولهم، ولم يرسلوا مقاتلا واحدا لتدعيم هذا الطرف أو ذاك . وهنا أرسل كل من عثمان وعلى رسولا إلى رئيس جبل أخضر ، والباطنة ، يطلبان إليهما ، أن يعلمانهما بالجانب الذى يساندانه ، وما هو الجانب ، من الجانبين المتصارعين الذى يمكن أن يتطلع إلى عون ومساعدة قواتهما الكبيرة له . وأنا هنا يجب ، وهذا بين قوسين ، أن أقرر وأذكر القارئ أننى هنا لا أجزم بأنى أورد حقائق تاريخية ممحصّة ، أو إن شئت فقل ، حقيقة ترتكز على روايات حقيقية أو برهان أكيد يعتمد على الوثائق ؛ وإنما كل ما أفعله هنا هو رواية ذلك الذى يسجله الموروث المحلى ويتناقله عن طريق المشافهة ، ومن واقع كتابات جرى تجميعها مؤخرا ؛ وأن هذه الكتابات تروى هذه الحكاية كما سمعتها من أفواه سكان هذه البلاد ، وبالتالي فإن أى زعم يربط هذه الحكاية بالظروف العقدية المحيطية لا يزيد على زعم أهمية الذين رووا

(١) ما هذا الهراء الذى يذكره المؤلف ؟ ومن أين استقى هذه المقولة ؟ إن العلاقة بين عثمان وعلى رضى الله عنهما كانت على أحسن حال ، وقد بايع على لعثمان ، وكان محل مشورته حتى قتل ، ثم بويع على بالخلافة بعد مقتل عثمان على أيدي الخوارج ولم يحدث أبداً بينهما صراع - (د. حلمى عبد المنعم) .

(٢) عجباً لأمر هذا المؤلف ، رغم أنه مؤرخ ولكنه قد فاتته أبسط قواعد التاريخ وهو التوثيق ، فمن أين جاء بهذه المقولة ؟ ومتى حدث هذا التكتل ، لقد أمضى عثمان فترة خلافته وعلى جند من جنوده ويقيم الحدود بين يديه ، ولم يخرج على طاعته حتى قتله الثوار - (د. حلمى عبد المنعم) .

هذه الحكاية أنفسهم . ولو طلب منى أن أقول رأيي الشخصي ، فإننى أقول إن الإطار العام لهذه الأحداث ربما يكون صحيحا ، وذلك بغض النظر عن البنية الزينية الفائقة التى ربما يكون الخيال العربى قد أضافها إلى المخطط الأخير الضيق . لقد سبق أن أوضحت فى إحدى الملاحظات التى أوردتها فى صدر تاريخ الأسرة المالكة الوهابية ، الأسباب التى تجعلنا ، دون أن نسيئاً إلى تقييمنى الذاتى ، نعزو للموروث المحلى والشعبى هنا قيمة أكبر عنه فى أى مكان آخر .

واستمرارا لحديثنا ، فإن رسولى الخليفتين المتنافسين ، والذين قطعاً هذه المسافة الطويلة فى رفقة هادئة مسالمة ، وبأدب جم يليق بكل من استولفو Astolpho وبرادامانتى Bradamante نفسيهما ، جرى إحضارهما سوياً أمام المجلس الوطنى الأعلى فى مدينة باهلة العاصمة القديمة لـ عمان . وأمام المجلس سلم الرسولان رسالتيهما ، وتلقيا عليهما ، من أعيان عمان أعقل الردود التى يمكنهما الحصول عليها ، أعنى أن المجلس لعن الحزبين وزعيميهما معا ، وأعلن أن عمان لا علاقة لها بأى منهما أو منازعاتهما^(١) .

وعلى كل حال ، فإن مثل هذا الرد العادل والسريع ، لم يحظ من على أو عثمان بالثناء المطلوب . وعلى كل حال ، فإن عثمان ومعه قادته ، العسكريون وأتباعه فى هذه القضية ، معاوية وأقاربه ، كانت تفصل بينهم وبين عمان ، مسافة كبيرة ، وظروف ملحة جعلتهم لا يلقون بالا كبيراً لمثل هذه الإهانة . ولكن عليا ، الذى كان مركز قوته وعمله العسكرى لا يبعد كثيراً عن هذه المنطقة المرتدة ، كان لديه متسع من الوقت مكنه من إرسال حملة عسكرية إلى حدود عمان ، وإذا كان على لم ينجح فى أن يفرض بقوة السيف ، الولاء الكامل لحقه ، سواء أكان سماوياً أم نبوياً ، فإنه أنزل بهذه البلاد أذى أكسبه جرعة مضاعفة من الكراهية لم ينسها الناس فى عمان ، إلى يومنا هذا ، التى يحظى فيها اسم على بأولوية الكراهية على اسم غريمه ، حتى يومنا هذا .

(١) مازال المؤلف مصراً على تصوير هذا الهراء وإضفاء الحقيقة عليه ، وهذا خطأ فادح ، ولا يوجد فى كتب التاريخ ، ولا فى أية رواية من الروايات أن عليا وعثمان تنازعا أمر الخلافة وتصارعا حولها وكما يقول أهل العلم إذا كنت ناقلًا فالصحة ، وإذا كنت مدعيًا فالدليل وما أدعاه المؤلف لا أساس له من الصحة ، ولا دليل أو برهان عليه فهى دعوى ساقطة وهى من خيال المؤلف وحده ومن جملة أحقاده وسمومه التى يبيثها على الإسلام والمسلمين - (د. حلمى عبد المنعم) .

وعلى كل حال ، فإن انتصارات بنى أمية ، وتأسيس الخلافة الدمشقية بعيدا عن بلدان الشرق الأقصى هذه ، حرر اليعاربة ومريديهم من على ومن تحرشاته . وتذكر حوليات التاريخ فى هذا البلد ، أن عمان شهدت عقب ذلك فترة من الهدوء الكبير . ويقال ، وهذا صحيح بدرجة كبيرة ، أن الأمم شأنها شأن العائلات ، تكون فى أسعد أحوالها عندما لا تعترض مسار تاريخها أحداث كثيرة . وإذا ما صدقت هذه المقولة على عمان ، فإننا ينبغى أن نقرر هنا أن أى جزء من العالم وذلك بدءا من خط طول ١ إلى خط طول ٢٦٠ ، لم ينعم بفترة السعادة التى نعمت بها عمان . وعلى امتداد ثمانية قرون ، لم تحدث حروب أو ثورات ، أن صد غزو أو محاولة غزو ، حتى نقول إن ذلك أدى إلى التمويه على صفحات عمان أن تلطيخها ، ونعمت البلاد بالهدوء ليس طوال أربعين عاما وإنما على امتداد عشرين ضعفا من هذا الرقم . وبعد أن اعتزل العمانيون إجراء المزيد من الاتصال مع العالم المحمدى (الإسلامى) الذى كثرت فيه المتاعب والاضطرابات ، وبعد أن ألغوا أيضا الذهاب إلى مكة للحج ، وبعد أن ألغوا الشريعة الإسلامية ، ظلوا بعيدين عن العالم الإسلامى ، أحرارا فى اتباع الشكل الحكومى والشكل الدينى الذى يروق لهم ، دون أن يصيبهم أى أذى أو إزعاج من جراء التدخل الأجنبى أو فرض المعتقدات عليهم^(١) .

وثمة حادثة واحدة ، حقبة لا تنسى فى تاريخ الإسلام ، عاصفة واحدة أثارت غضب كل من حولهم ، هذه العاصفة هى التى أثارت الاضطراب فى سطح عمان الهادئ وغيّرت حوليات تاريخها . لم يكن سكان جبل أخضر وسكان الباطنة غرباء على مناطق الاحساء المجاورة ، أو على اندلاع حركة الباطنية ، أو إن شئت فقل المذاهب السرية ، التى انتشرت على نطاق واسع فى الاحساء ، مع انها تبعت فى أساسها من عمان ، تلك المنطقة التى سادت فيها قبل وقت طويل تعاليم القطرى وأتباعه . ومن ثم ، فإن حركة القرامطة عندما هزت وزلزلت الجزيرة العربية ، لم تكن عمان بريئة تماما من التقلبات التى غمرت شبه الجزيرة العربية بالدم ، وجعلت من جبالها ملاذا كبيرا لقوات أبو سعيد الجناي وابنه أبو طاهر سليمان سعيد الجناي . وبعد أن تم إخضاع

(١) إن المؤلف هنا يتكلم عن الإسلام فى عمان وكأنه فصل من مسرحية هزلية ولم يكلف نفسه عناء التحقيق التاريخى لما يبيته من ترهات . ومن المعلوم أن النبى (ﷺ) قد أرسل بعد صلح الحديبية عمرو بن العاص بكتاب من النبى إلى حيفر وعبد بنى الجلندى ، وكانا يحكما عمان فأسلما وأسلم أهل عمان وكانوا من أحسن الناس إسلاما إلى يومنا هذا - (د. حلمى عبد المنعم) .

القرامطة ، بدأت عمان ترتجف خوفا من انتقام الطرف المنتصر ، ذلك الانتقام الذى نجوا منه بفضل قوة موقع بلادهم . ووجهت إليهم حملة بقيادة واحد من الخلفاء العباسيين (أنا لا أذكر اسمه) ، الذى قام بتدمير قرى قطر ، ومنطقة الشارقة إلى جبل عقدة ، الذى لم يستطع الغزاة أن يتخطونه .

وقد أوحى هذه العداوات من جانب الإسلام ، إلى العمانيين المنشقين ، بالتعجيل باتخاذ إجراءات جديدة ، واتخاذ شعار ، قبل كل شئ ، يكون بمثابة شعار شعبى فى زمن الحرب والخطر . وتحقيقا لهذا الهدف ، فإن رجال عمان ، شأنهم شأن الدروز فى الشرق الأدنى ، جعلوا العمامة البيضاء شعارا خاصا لهم ، ومن هذه العمامة اشتقوا الاسم "أباضية"^(١) Abád.eeyah أو إن شئت فقل "بياضية" Biad.eeyah التى تعنى "الأولاد البيض" طبقا للترجمة الايرلندية ، وبذلك يمكن تمييز "البياضية" عن العمامة الخضراء التى يلبسها الفاطميون ، والعمامة السوداء التى يلبسها العباسيون . ومعروف أن لقب "البياضية" كان فى بدايته مقصورا على القرامطة فقط ، وسرعان ما بدأ يشيع بين سكان عمان كلهم ، بل ما يزال هذا اللقب مقصورا عليهم إلى يومنا هذا . والمقريزى يحدد أصلا آخر لهذا اللقب ، ويقول إن هذا الاسم تحريف لكلمة "البيضانية" ، أو إن شئت فقل اتباع بيدان Beydan ، ذلك المهرطق الفارسى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى . ولكن إذا أردنا تجنب الاعتبارات الأخرى ، التى من قبيل عدم وجود الدلائل التاريخية التى من قبيل أن ذلك البيدان لم يزر الجزيرة العربية قط ، وأنه لم يكن ذائع الصيت فى بلده فارس كى يطلق اسمه على ذلك المذهب، فإننا نقول : إن قوانين الاشتقاق فى اللغة العربية لا تسمح بالتسليم الذى أورده العلامة تاج الدين المقريزى فحرف "الدال" فى كلمه بيدان Beydan الفارسية ، لا علاقة له ، كما انه يختلف تماما عن "الضاد" فى كلمة "بياضية" ، زد على ذلك أن حرف "النون" الأخير فى كلمه "بيدان" Beydan أو فى كلمه بيضانية " لا يمكن تجاهله بمثل هذه السهولة . ومعروف أن أبحاث العرب فى نطاق علم أصول الكلمات فى لغتهم لها وزنها تماما مثل الأبحاث التى قام بها المؤلفون اللاتينيون فى لغتهم ، بل إن الأبحاث العربية

(١) الإباضية هم إحدى فرق الخوارج وأجمعوا على القول بإمامة عبد الله بن أباض ، وربما كان اسم الإباضية راجع إلى إمامهم عبد الله بن أباض ، وافترقت الإباضية فيما بينها إلى أربع فرق وهى الحفصية ، والحارثية ، والزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها (راجع فى ذلك كتاب الفرق بين الفرق ص ٨٢ لعبد القادر البغدادي وغيره من كتب الملل والنحل للشهرستانى والفصل لابن حزم - (د. حلمى عبد المنعم) .

أقوى من الأبحاث اللاتينية، ولم يحدث قط أن تخلفت أوروبا عن الشرق في هذا المجال ، بما في ذلك الفترة الراهنة .

وفى ظل التذكارات المتبقية عن العبادة السبئية ، وفى ظل أسس التفكير القرموطى الحر ، نجد أن البياضية ، شأنهم شأن الدروز ، والاسماعيلية ، والنصيرية ، والطوائف المشابهة الأخرى ، يمزجون مذهبهم ببعض التعديلات المستقاة من الشريعة الإسلامية ، كى تمكنهم من التستر بها إذا ما اضطروا إلى ذلك ، أو لتكون لهم بمثابة شكل من أشكال الاعتذار فى حال وجود المسلمين على أقل تقدير . "ومزارات البياضية" ، أو إن شئت فقل المباني التى يخصصونها للتوقير الدينى ، تسد العجز فى مسألة "المساجد" ، أو أن شئت فقل "الجوامع" العادية ، غير أن البياضية أنفسهم يندر أن يجتمعوا لأداء أى شكل محدد من أشكال العبادة ؛ وهم فى صلاتهم يتمتمون بصوت خفيض غير مسموع ، وتكون هذه التتممات مصحوبة بتغييرات فى مقام الصوت وسجود مختلف عن الركوع والسجود فى عقيدة محمد (ﷺ) . وكثير من البياضية ، يتجهون ، عند أداء صلواتهم ، صوب الشمال ، وآخرون منهم يوجهون وجوههم صوب اتجاهات أخرى غير عابئين تماما بالقبلة أو الكعبة . وأنا لا أستطيع أن أقطع بأن الاسم "ياح" Yah أو "ياحى" Yahee (فقد سمعت هذا الاسم يتردد مرة وذاك يتردد مرة أخرى) الذى لا يستعمله البياضية وحدهم ، كما يبدو لى ، أنهم يطلقونه على النجم القطبى ، وله علاقة بإيمانهم أو تعبدهم . يضاف إلى ذلك أننى لم أستطع التوصل إلى مغزى هذا الاسم أو دلالة أو حتى المصدر الذى اشتقه البياضية منه ؛ وهذا الاسم يشيع استعماله فى عمان ، كما يشيع استخدامه على جميع سواحل الخليج الفارسى التى يتردد عليها البحارة العمانيون . والنجم القطبى ، يحظى بين العرب فى المناطق الأخرى بلقب "الجدى" أو إن شئت فقل : (ذكر) "العنزة" ؛ كما يطلق عليه ، فى بعض الأماكن الأخرى اسم "المسمار" وذلك طبقا لشكله الحقيقى ونوعيته المستقرة "وهو" لا نظير له فى السماء" . وإذا كان العرب يطلقون على "فينوس" اسم "الزهراء" فإن البياضية يسمونها "فرقد" ؛ واسم "فرقد" هذا يطلق فى بعض الأماكن الأخرى على نجم السَّمَاء الرامح Arcturus فى مجموعة راعى الشاء Bootes الفلكية ، والبياضية ، فى بعض الأحيان ، يطلقون اسم "السَّمَاء" Semak على نجم من النجوم الساطعة فى مجموعة العُيُوق Capella الفلكية ، أو على اركتورس Arcturus نفسه فى أحيان أخرى ؛ والبياضية يطلقون صيغة المثنى "السَّمَاءان" على الجوزاء Gemini ،

أو قد يطلقون هذا الاسم على النجمين الكبيرين من كوكبة الدجاجة Cygnus .
وهذان الاسمان الأخيران من الأسماء الثابتة المستقرة ؛ والعرب لا يهتمون كثيرا بالدقة
فى استعمال الأسماء الفلكية شأنهم فى ذلك شأن جميع الأشياء الأخرى .

وصيام البياضية السنوى يستمر شهرا ؛ وصيام البياضية أكثر صرامة من
صيام أهل عقيدة محمد (ﷺ) ؛ فهم لا يأكلون أو يشربون إلا بعد ظهور النجوم
والبياضية هنا يشبهون اليهود) ، وهم لا يتناولون سوى وجبة واحدة فى الأربع
والعشرين ساعة) . وقد أبلغنى الرواة ، أن مدة الصيام تتحدد بناء على رغبة وإرادة
الحاكم ، الذى يتمثل هنا فى السلطة الدينية العليا ، والذى يطلق عليه الأوربيون اسم
الإمام ، بطريق الخطأ . ومن بين مدن المملكة كلها ، هناك ثلاثة مدن فقط هى التى لها
حق إقامة احتفالات الصلاة العامة ؛ والمدن الثلاثة هى العواصم الثلاث : صوحر ،
ونزوى ، وباهلة ، ولكن مسقط ، التى ترجع أهميتها إلى عهد قريب نسبيا ، لا تدخل
ضمن قائمه هذه المدن .

وتعدد الزوجات ، برغم كثرته فى عمان ، يتخذ شكلا مختلفا عن شكل التعدد فى
الدول التى تعتنق العقيدة المحمدية ؛ إذ أن واحدة فقط من الجنس اللطيف هى التى
تحمل لقب "الزوجة" الشرعى وهى أيضا التى تنعم بالحقوق المترتبة عليه؛ أما الباقيات،
كثرن أم قلن ، فهن عبارة عن خلائل ومحظيات . يضاف إلى ذلك ، أن قوانين الميراث
تختلف هنا عن أحكام المواريث الواردة فى القرآن ؛ إذ يتساوى نصيب الأنثى بنصيب
الذكر، وليس النصف كما هو وارد فى القرآن . وفى مجال العلاقات المجتمعية أيضا ،
فإن النساء تتساوى بالرجال فى عمان وذلك على العكس من المناطق الأخرى ؛ يضاف
إلى ذلك أن النساء هنا لا تلبسن الحجاب الإسلامى . وهذه ميزة حقيقية ، نظرا لأن
جمال الإناث فى عمان لا مثيل له فى أنحاء الجزيرة العربية ، بل وربما فى آسيا كلها ؛
وعلى كل حال ، فأنا لم أر قط بين أعراق الشرق الأخرى ، أشكالا يمثل هذه الرشاقة
والجمال ، أو يمثل هذه الملامح المتناسقة والجميلة . ومن المؤكد أن الذين تعجبهم
العيون السود الواسعة ، والحواجب الهلالية ، والشعر الحرير ، والقوام الممشوق ،
والخصور النحيلة ، والسلوك والتحركات الفخمة ، يجدون منهم فى عمان أعدادا أكبر
بكثير ممن يوجد منهم فى نجد ، أو فى سوريا ، أو فى مصر ، أو ، وأنا على يقين مما أقول ،
فى بلاد فارس أيضا . بل إن الرجال العمانيين أيضا ، برغم نحافتهم وبشرتهم الداكنة ،

تبدو عليهم الأناقة بشكل عام ، وملامحهم تنم عن الذكاء فضلا عن أن مشيتهم مفعمة بالحيوية والنشاط . ويجب أن أضيف هنا أن النبيذ يشربه الناس هنا بمنتهى الحرية وبلا أى قيود ، وبخاصة فى المدن الداخلية ؛ والكروم التى تنتج هذا النبيذ تزرع فى جبل أخضر .

ولو قدر لى أن أكون فى ذلك الوقت ، على معرفة بتلك الملاحظات التى وردت عند المؤلفين المحمديين (الإسلاميين) الذين أشرت إليهم من قبل ، والتى أصبحت على علم تام بها بعد عودتى من رحلتى ، لكنت دهشتى أقل من تلك التساؤلات الكثيرة التى وجهها إلى العمانيون فيما يتعلق بأهرام مصر ، تلك الذكرى التى لا تزال سائدة فى عمان ، والتى استقوها من الأزمان السبئية القديمة . ولو استطعت أن أطيل مقامى قليلا ، واستفيد من الود الذى نشأ بينى وبين أهل هذا البلد هنا وهناك ، فلربما تعلمت شيئا مهما عن كتب ست Seth ، أو عن الوثائق الأخرى التى لها مغزى دينى ومغزى شرعى . ولكن الأحداث هى التى جعلتنى أتعجل ، كما أنها هى التى حجمت وسائل حصولى على المعلومات ؛ زد على ذلك ، أن الحرص الذى يكمن داخل المتمردين على عقيدة محمد (ﷺ) فى هذا الجزء من الشرق ، هو الذى يجعل سكان عمان يرفضون أن يطلعوا أى شخص غريب على عقيدتهم وممارساتهم العقدية الحقيقية ؛ ولا يزال هؤلاء السكان أقل تحفظا فى ممارساتهم إلى أن يضعوا بين يدى الغريب دليلا مكتوبا عن كود أو نحلة تختلف عن القرآن . وهذا الشعور أقل تجليا بين بدو الأدغال ، وبين أولئك الذين تؤمنهم أوضاع بلدانهم الداخلية وفى المنطقة الوسطى ضد الزيارات المتكررة التى تستهدف القيام بالمزيد من التقصى والتحري ؛ ولكن هذا الشعور يتجلى تماما هنا فى المناطق الساحلية التى تجذب ، هى والتجارة المستمرة ، إلى عمان كل يوم وكل ساعة ، بعضا من السنة ، والشيعة ، ومن الوهابيين ، وبعضا من أهل اليمن وأهل مكة أيضا . وفى ضوء كل ذلك ، هناك نوع من التشابه بين ما يفعله الناس هناك وبين ما يمارسه ويقول به أتباع عقيدة محمد (ﷺ) ؛ ومن هنا فإن البياضيه ، وهم خليط من السبئيين ، والباطنية ، والقرامطة ، وأتباع المُنَقَّع وأبو طاهر ، يتصرفون فى بعض الأحيان ، كما لو كانوا من أتباع محمد المتسامحين . ولكن من يحاول أن يتعرف هؤلاء الناس عن قرب يجدهم من الكفار ، بل انهم يعدون أبشع أنواع الكفار فى نظر جيرانهم الوهابيين ، وأهل السنة ، بل وحتى الشيعيين ؛ واعتبارا من هذه المنطقة إلى مدينة البصرة لا تجد واحدا من أتباع محمد (ﷺ) يقول أو يتحدث عن

البياضى أو العمانى إلا من منطلق انه "خارجى" أو إن شئت فقل " واحد خارج عن نطاق الإسلام وحدوده " ، ولفظ "خارجى" هو اللفظ الذى يدل على الازدراء والاحتقار لكل من يخرج عن عقيدة نبي الإسلام .

ونيبور Niebur ، الذى لم يزر سوى مسقط فقط عندما كان يجوب سواحل عمان ، والذى تشتمل روايته الأمانة والدقيقة على كثير من التفاصيل المهمة والدقيقة التى استقاها عن طريق الاستماع ، عن هذه المملكة ، التى كانت تعاني من قمع شديد فى ذلك الحين ، وقع نيبور فى خطأ عجيب فيما يتعلق بعبادات البياضية وشخصيتهم ، ويبدو من كتاب نيبور ، أنه بعد أن تعرف إلى بعض النجديين الذين كانوا يقيمون فى ميناء مسقط - نظرا لأن هذا الميناء يضم دائما عددا كبيرا من التجار وصغار الحرفيين الذين يأتون إلى مسقط من المناطق الداخلية فى ممتلكات ابن سعود ، أو من المناطق الساحلية التى تعتنق الدين الإسلامى ، يبدو أنه وقع فى ، وهذا شئ طبيعى فى ظل مقام نيبور الذى لم يدم طويلا فى هذه المدينة ، خطأ جعله يعزو قسوة السلوكيات الوهابية ، وامتناعهم عن التدخين ، ومدوامة حضورهم الصلاة ، وبساطة ملابسهم ، أو إن شئت فقل كل الخصائص المميزة للمذهب الوهابى ، إلى السكان الوطنيين فى هذه البلاد ، وبذلك ينتهى إلى الحكم على البياضية بأنهم ليسوا مسلمين ملتزمين وإنما هم أيضا زهاد متحمسون . والواقع ، أنه فيما يتعلق بالتبغ (الدخان) فإن كل شعوب الدنيا تقريبا ، ولا يستثنى من ذلك أترك استامبول ، تستهلك كميات جنونية من هذه المادة أكثر مما يستهلكه أهل عمان المستقيمون ؛ بل إن سكان عمان قد يستهلكون كمية أكبر ، من منظور أن التبغ منتج ثابت ومستقر من المنتجات العمانية ، من حيث الاستهلاك المحلى والتصدير ، علاوة على جودة نوعيته ورخص ثمنه . أما فيما يتعلق بالصلاة : فواقع الأمر أن مسقط يوجد بها ثلاثة أو أربعة مساجد مخصصة للعبادة المحمدية (الاسلامية) ، ويرتادها المسلمون ؛ ويجرى فى هذه المساجد إقامة الصلاة والمداومة عليها بصورة منتظمة ، وبخاصة من قبل النجديين ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نجد بياضيا واحدا فى أى من هذه المساجد أو فى أى مسجد آخر ، والبياضية هم أهل مسقط الحقيقيين ، وليسوا الأجانب الذين يداومون على الصلاة خمس مرات فى اليوم . أخيرا ، وفيما يتعلق ببساطة الثياب ، وتحاشى التباهى بالزينات ، فأنا أخشى ألا يجد العمانيون زعما أفضل من ذلك الذى ورد ضمن توصيات نيبور ، والذى يقول فيه إن ملابس العمانيين المزينة أفضل من ملابس سكان فيينا وباريس ؛ وسوف يقف القارئ بنفسه على ذلك بعد صفحات قليلة .

ويبدو من رواية نيبور ، انه هو ورفاقه ، كانوا يرتدون الثياب التركية ، وكانوا يدعون أنهم جاءوا من القسطنطينية . وهذا التصرف كفيل بأن يضمن للرحالة أن يجد العقيدة المحمدية في كل مكان ، حتى بين أولئك الذين يعادونها في واقع الأمر . وفي الوقت الراهن فإن المواطن التركي ، أو أى مواطن آخر يعمل عميلا للحكومة التركية يلتقى في أغلب الأحيان اعتناقاً مظهرياً فرضياً للإسلام في المناطق التي تكاد تكون مقصورة تماماً على الدروز ، والإسماعيلية ، وما شابههما ، بل إنه قد يجد ذلك الاعتناق الظاهري المرضي بين السكان المسيحيين في المدن الداخلية . كان هذا هو الحال السائد في منتصف القرن الماضي ، أى في الفترة التي قام خلالها نيبور برحلته أى في الفترة التي كان الاسم التركي له تأثير أبلغ وأقوى مما هو عليه الآن . ومعروف أن النفاق إنما يكون نتيجة حتمية من نتائج التعصب في الحكومات ، وأن هذا النفاق يظل مصاحباً لسلوكيات الأعراق الرعايا ، حتى بعد أن تزول أسبابه الحقيقية والخاصة . ولكن دعونا نعود مرة أخرى إلى نيبور : لابد أن يكون نيبور قد وقع في شرك مستوطنة نجدية حقيقية في مسقط ، وربما كانت هذه المستوطنة وهابية خالصة ، وكانت لا تزال في بداية نشأتها ؛ وأن هذا الرحالة الألماني العظيم ، ربما يكون قد اعتبر هؤلاء النجديين أنفسهم ، والذين رأهم في زيارته العابرة ، مجرد عينة لشعب لا يشترك معهم في أى شئ سوى محل الإقامة والكراهية المتبادلة . وأنا لا أقول ذلك استهدافاً للإساءة إلى نيبور ؛ نظراً لأن الظروف لم تسمح له باكتشاف خطأ محتمل تماماً ، وقع فيه أناس كثيرون آخرون غيره .

وهناك علاقة سرية وحميمة ، واتصال قائم واسع الانتشار بين الباطنية (وأنا أظن أن القارئ أصبح على علم بدلالة هذا المصطلح) في كل من الأحساء وعمان ؛ ومعروف أن الباطنية في الأحساء تفرعت عن باطنية عمان . ويمكننا الوقوف على ميول واتجاهات هذا التنظيم الماكر المخادع ، وأولئك الذين يقومون على أمره ، وعدائهم اللدود للإسلام ، ومعارضتهم الشديدة للإسلام ، وبخاصة في شكله الوهابي ، كل ذلك يمكن الوقوف عليه ، إلى حد ما ، فيما سبق أن أوردناه عن هذا التنظيم .

وفيما يتعلق بالشجاعة والتشبث بالهدف فإن أهل عمان لا يقلون في ذلك عن أفراد العرق العربي ؛ كما أن سكان جبل أخضر وجيلان يشتهرون بشجاعتهم العسكرية بصفة خاصة . ولكن التجارة والزراعة تشكل عندهم جاذبية خاصة بحيث

لا تسمح لهم بأن يبدنوا هباء ، مثلما يبدد النجديون طاقتهم فى الحرب والسلب والنهب . ومن واقع خبرتى وتجربتى فإن أهل عمان من حيث الميول هم أحسن أفراد العرق العربى طبعاً ، وأكثرهم كرماً ، بل إنهم أكثرهم أنساً . والتسامح المحدود فى أوربا مطلق هنا مع جميع الأعراق والأديان ، ومع جميع التقاليد والأعراف ، فاليهود والمسيحيون ، وأتباع محمد (ﷺ) ، والهندوس ، كلهم هنا يعبدون الله بطريقتهم الخاصة ، ويلبسون ما يفضلون ، ويتزوجون ويرثون بلا أية قيود ، ويدفنون أو يحرقون موتاهم بالصورة التى يرسمها لهم خيالهم ؛ إذ لا تجد من يتساعل عن هذا أو ذاك ، أو يتحرش أو يزعج ، أو يقف عقبة أمام أحد . وإذا كان الوهابيون يستثنون ، فى بعض الأحيان ، من ذلك الصبر وهذا التَّجَمُّل ، الذى ينظرون إليه من منطلق الاستياء الفعلى والحقيقى ، ويحاولون إحباطه بأفعالهم وتصرفاتهم ، بل أنهم يلعنون هذا الصبر والتجمل ويقتلونه كلما سنحت الظروف لهم بذلك ، فإنهم يتعين عليهم أن يعزو هذه المعاملة إلى روح التعدى على الحرمات المتأصلة فيهم ، وإلى أساليب السيطرة والغطرسة التى يتبعونها . إن هؤلاء النجديين أعداء سافرون للدولة ، وبالتالى لن يكون لهم حق الجأر بالشكوى إذا ما عاملهم الآخرون من هذا المنطلق .

وعمان ، فى المقام الأول ، بلاد للتسلية واللهو ، والرقص والفناء ، والاستعراض والحياة الحلوة . وعلى كل حال ، فإن ذلك له جانب مظلم فيما يتعلق بالتراخى الخلقى ، الذى يشارك فيه أيضاً جمال النساء العمانيات وخفة ظل رجالها . زد على ذلك أن التشدد فيما يتصل بالفضيلة العذرية أو الوعد بالزواج لا يعد ملمحاً أساسياً فى عمان . ومن بين الوصمات التى توصم بها عمان أيضاً ، وصمة انتشار الفن الأسود (السحر) سواء أكان حقيقة أم ادعاء ، والإيمان إيماناً خرافياً بالسحر ، أو إن شئت فقل الشعوذة ليس إلا ، ومع ذلك فالناس يعتقدون فيها ويمارسونها علانية . وهذا بحد ذاته عرض أو مظهر سيئ . والسبب فى ذلك ، أن هذه الممارسات هى التى دفعت الآخرين أن يطلقوا على عمان ذلك الاسم الشائن المدوى " بلاد السحرة " والأجانب هم الذين يطلقون هذا الاسم على عمان؛ وإن كان البعض يفسرون ذلك على أنه نوع من التحوط، الذى يلجأ إليه السحرة العمانيون ليواجهوا به ، الأسحار التى تقد إلى شواطئ بلادهم من حين لآخر ، برغم أن هذا الزعم خال من الاستقامة والحكمة . وليكن هذا السحر ما يكون ، وبغض النظر عما هو عليه ، فهو يمنع كثيراً من النجديين من المخاطرة بالسفر إلى عمان تخوفاً من أن تمسخهم عيون امرأة شابة، أو العصا السحرية لامرأة عجوز ،

إلى شياه محبة أو أحياء مرتبكين حائرين ، وهناك قصص الرجال " المترجمة " ، التى تمسخ ، بمقتضى عملية السحر هذه ، " الحيوان إلى إنسان " إن صح ما يقوله فولستاف Falstaff ؛ " وتمسخ الرجل إلى حيوان فى أحيان أخرى " ، وهناك أيضا الروايات المخيفة التى تتردد عن سحرة غير منظورين ، وعن عمليات مسخ تحدث عن طريق السحر ، وعن أنواع من الشراب ، السحري تفوق تلك التى ورد ذكرها فى ألف ليلة أو فى " قصص جريم " Grimm ، كل هذه الأشياء تنتشر فى هذه البلاد ؛ ولو قدر ل - أوفيد ، ذلك الشاعر اللاتينى العظيم ، أن يعاصر تلك الفترة فلربما أضاف اثنى عشر كتابا آخر إلى مؤلفه الكبير الذى أطلق عليه اسم " الأتمساخات " Metamor Phoses ، مستقيا مادة تلك الكتب الجديدة من سجلات عمان التاريخية وحدها .

ولكن الناس يعززون قوى أكبر وأقضع من تلك القوى التى تحول الإنسان إلى شاه ، أو التى تمسخه إلى حمار جسدا وعقلا ، لا إلى عجائز عمان من النساء فقط ، وإنما يعزونها أيضا إلى حواة وسحرة رجال ، يقال إنهم من أخطر من يمارسون هذا الفن الأسود . وقد استمعت إلى كثير من هذه القصص التى كان أصحابها يروونها بصوت خفيض ينم عن اقتناع مخيف ؛ ومع ذلك ، فأنا أخشى ، أن يظن القراء أن المكان المناسب لمثل هذه القصص والروايات هو كتاب كروكر المعنون " أساطير الجن " ، بدلا من إدراجها ضمن رحلة جادة قام بها صاحبها فى القرن التاسع عشر . ومع كل ذلك ، فإن هذه الروايات توضح تماما عقيدة واتجاهات عادات وسلوكيات تلك الأمم التى تضيف على هذه القصص وتلك الروايات " طابعا محليا واسما محليا أيضا " . وسوف أورد هنا ، على سبيل الحادث العارض ، رواية من تلك الروايات بلغت غرابتها الذاتية ، وغرابة الظروف المصاحبة لها مبلغا يضيف عليها شكلا من أشكال الأصالة التى لا يمكن اكتسابها فى أمور أخرى مشابهة . ويزعم من يروون هذه القصة ، أنهم كانوا ، أو قيل إنهم كانوا ، موجودين أثناء التحقيق القانونى ، الذى سوف أورده فى سياق الرواية ذاتها .

حدد راوى القصة مسرح أحداثها بحوالى أربعة عشر عاما مضت ، وبالتحديد خلال حكم السلطان سعيد ، ملك عمان ، الذى اشتهر بنجاحه الكبير فى السلاح ، وفى مهارة الحكم ، وفى ذلك التاريخ ، كان تاجر شاب ، من مواطنى مدينة مسقط ، والذى كان قد تزوج مؤخرا من فتاة جميلة من المدينة نفسها ، كان قد أبحر على ظهر إحدى السفن فى مهمة تجارية فى ساحل زنجبار ، وبعد رحلة بحرية موفقة وصل ، ذلك

الشاب ، إلى السوق الذى كان يقصده ، وبقي فى ساحل زنجبار ثلاثة أو أربعة أشهر ،
يبيع بضاعته ، ويشترى حمولة جديدة يعود بها إلى بلده .

و ذات مساء ، وعندما كان ذلك التاجر الشاب يقيم فى قرية تقع على الساحل
الإفريقى الرئيسى المقابل لساحل زنجبار ، كان يجلس فى أحد الأيام على سطح منزله ،
وكان إلى جواره أحد معارفه ، الذى تعرف عليه فى هذا البلد ، وكان عمانيا أيضا ،
ولكنه كان من مواطنى باهلة ، وإنه كان يقيم منذ زمن فى منطقة صواهيل S.owah.il ،
التي أطلق العرب عليها هذا الاسم نونا عن سائر الساحل الإفريقى . وقد جمعت
المصادفة بين هذين الشابين ، يضاف إلى ذلك أن أخوة العرق فى البلد الأجنبى أدت
بطبيعة الحال إلى قدر معين من الحميمية بين هذين الرجلين . كانت الشمس قد غربت
بالفعل ، وكان الصديقان فى شرفة المنزل يدخان غليونيهما فى متعة هادئة ، وفجأة
لاحظ التاجر الشاب تعبيرا خطيرا وغريبا على وجه رفيقه ، وسأله عن سبب ذلك
التعبير . ورد عليه الساحر ، لأن هذه كانت طبيعته ، قائلا : " لو رأيت ذلك الذى أراه
أنا حاليا ، لبدوت أكثر منى تجهما " . وكان من الطبيعى أن يعقب ذلك الرد مزيداً من
التساؤل ، الذى أعقبه الساحر الباهلى ، بشئ من التردد : تخوفا من الأخبار السيئة
التي سيذيعها ، ثم قال : " لقد شاهدت فاسقا " ثم سماه بالاسم من بين فسقة مسقط ،
" وهو يدخل منزلك فى هذه الساعة ، وعلى وجه التحديد فى الوقت الذى لا يوجد فى
المنزل أحد سوى زوجتك ، التي رحبت بزيارته ترحيبا حارا " .

وهنا جاء نور التاجر الشاب المتزوج كى يبدو أكثر تجهما . وبشدة طلب أوثلو Othello
من إياجو Iago ، وهو يطبق على حلقه بيده ، ذلك " الدليل العينى " ، الذى يؤكد له هذه
الخيانة ، وهنا حصل التاجر من الساحر على سرد دقيق على كل ما سيدور بين زوجته
المجرمة وعشيقها . ويصمت الساحر لحظة ، ثم يحملق فى الفضاء ويقول : " انهما
يجلسان الآن وقد تشابكت أيديهما ويتبادلان كلام الحب ؛ " ثم استطرد الساحر
ليصف بعد ذلك ، مشهدا من قبيل تلك المشاهد التي يتركها دانتي Dante لخيال
القراء ، وذلك عندما كان يروى عملا غير شرعى على لسان فرانسيسكاريميني " . إنها
حكاية قديمة حكاها الناس مرارا " .

ويصل استياء الزوج المصاب إلى ذروته . ويتعجب متسائلا : " ليس هناك من
وسيلة لإحباط ، أو للتأثر ، على أقل تقدير من هذه الجريمة ؟ " ويرد الساحر على الفقرة

الأخيرة من السؤال أن لديه بالفعل الوسائل الفعالة التى تحقق هذا الهدف ، وأنه سوف يستعملها . وهنا يقول له التاجر الشاب : " افعل ذلك إذن " . ويرد الساحر عليه قائلاً : " ليس بهذه السرعة " لابد أولاً من استبعاد النتائج السيئة التى قد تصيبنا من جراء ذلك " . وهنا اقتاد الساحر الزوج ليوقع ، فى الحال ، وثيقة تخول لصديقه ، الساحر الباهلى ، سلطة الثأر من الزوجة الزانية هى وعشيقتها . وسرعان ما يوقع الزوج تلك الوثيقة ، ويؤرخها ، ويوقعها ، ويضع عليها خاتمه . ويردف الساحر قائلاً : " نادى كل أفراد الأسرة التى تسكن فى هذا المنزل ، ودعمهم يوقعون ويختمون على هذه الشهادة الأصلية ، وسوف أقوم بالتوقيع عليها بعد ذلك ، وعلى الفور " . وأجاب التاجر الشاب الساحر إلى طلبه ؛ وإلى هنا كان الليل قد أرخى سدوله ، وكانت الجماعة كلها تجلس ، فى صمت على سطح المنزل تحت سماء نصف الكرة الجنوبي التى تسطع فيها النجوم ؛ وكانت الوثيقة الممهورة والموقعة فى وسطهم . وهنا نادى المواطن القادم من باهلة ذلك المواطن القادم من مسقط قائلاً : " ناولنى خنجرك " . وهنا تناول الرجل المسقطى خنجره المعقوف ذو المقبض الفضى ، الذى كان معلقاً فى وسطه ، ويلبسه العمانيون الأحرار ، ثم أعطاه لذلك الساحر الباهلى . ويأخذ الباهلى الخنجر ، ويوجهه صوب الشمال ، وبعد أن يتمتم ببضع كلمات قليلة ، يطعن الهواء بالخنجر مرتين . ويردف الباهلى ، بعد ذلك قائلاً للزوج الذى كان يطيل النظر إليه : " نم قرير العين ، الآن ؛ فقد أخذت بثأرك الآن ، إذ مات المجرمان " .

وغادر التاجر زنجبار خلال فترة وجيزة عائداً إلى مسقط . وبعد أن نزلت قدماه على أرض مسقط أبلغوه أن أخاه الوحيد قد أدخل السجن ، وأنه ما يزال موجوداً فى السجن ، بسبب الاشتباه فى قيامه باغتيال أحد الأفراد . وأبلغنى الرجل أن هذا الشقيق قال لأخيه : " إن زوجتك مع فلان الفلانى " (وذكر اسم الشخص الذى اتهمه الساحر فى زنجبار) " وجداً مقتولين فى غرفة النوم فى منزلك ذات صباح ؛ إذ أن خنجرا قد اخترق جسد كل منهما من ناحية الجنب . ولم يتمكن أحد من العثور على القاتل أو السلاح ؛ ولكن نظراً لأن أخيك هو أكثر الناس احتمالاً لارتكاب مثل هذا العمل ، فقد ألقى القبض عليه ويجرى استجوابه أمام القضاة . ولم يتوصل القضاة إلى شئ يدين أخاك ؛ وعلى كل حال ، فقد رأت الحكومة احتجازه لحين وصولك ، وإن التحقيق فى هذا الأمر قد يبدأ من جديد " .

وذهب التاجر على الفور إلى السلطات المدنية وروى لهم حكايته . وبدأت هذه الحكاية لي غريبة على نحو لا يمكن تصديقه ؛ وأحيست هذه الحكاية من محكمة إلى أخرى ، إلى أن أعلن السلطان سعيد أنه يحتفظ لنفسه شخصيا بالبت في هذه القضية .

وأصدر السلطان أوامره بإحضار التاجر وشقيقه إلى مدينه نزوة ، مقر إقامته المعتاد ، واحتجزهما في ظل معاملة طيبة ، على ألا يغادر المدينة . ثم أرسل بعد ذلك رسالة إلى زنجبار ، مؤداها أن كل أولئك الذين وقعوا على الوثيقة أو الذين شهدوا التجمع على سطح المنزل ، لابد من إرسالهم إلى عمان على وجه السرعة . وفي الوقت نفسه تم إحضار الأطراف كلها إلى مدينه نزوة - رب البيت الأفريقي ، أسرته ، وكذلك الساحر . وأمر السلطان بعقد جلسة محاكمة علنية ؛ وأحضرت الوثيقة ؛ وأقر جميع الحاضرين بتوقيعاتهم وصحتها ، وأكد التحقيق صدق أقوال التاجر . وهنا أعلن السلطان سعيد أنه غير قادر على تحديد توجيه قرار الاتهام أو العقاب الذي يمكن توقيعه في مثل هذه الحالة ، وهنا أفرج السلطان سعيد عمن جاءوا من مسقط ومن جاءوا من زنجبار ، بعد أن أعطاهم تعويضا ماليا طيبا عن وقتهم الضائع وعن المتاعب التي سببها لهم . ولكنه نصح الساحر نصيحة مشددة بأن يحرص من الآن فصاعدا وهو يستعمل قواه الخارقة للطبيعة ، وهي الوصية التي جرى تمريرها ، على وجه السرعة ، بعد ذلك إلى كل السحرة والحواة والمشعوذين العمانيين . وإذا كان السلطان سعيد لم يفعل أكثر من ذلك ، فإن الشائعات الشعبية تعزو امتناعه عن ذلك إلى سبب خاص ؛ هو أن زوجته هو شخصيا ، أم السلطان الحالي ، كانت رئيسة للساحرات العربيات ، وأنها كانت تشرف وتحضر اجتماعات العرافة والكهانة والسحر والشعوذة الخاصة بالقطط السوداء ، وعصى الكانس ، وإثاث الماعز وغلايات السحرة^(١) .

وإلى هنا نتوقف عن الكلام عن السحرة العمانيين وعن أفعالهم . ولكن المصدر الذي استقى العمانيون منه هذه العلوم الغامضة يستحق منا أن نقول شيئا عنه ،

(١) لقد حارب الإسلام السحر والكهانة والشعوذة بكل صورها . وجاء في الحديث النبوي (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما قال فقد كفر بما أنزل على محمد) وفي رواية أخرى (لم يقبل له صلاة أربعين ليلة) وحرّم جمهور العلماء السحر وحرّموا تعلمه ، وحكموا على الساحر الذي يستعين على سحره بالشياطين حكموا عليه بالكفر بالإجماع والساحر الذي يضر الآخرين سحره يهدر دمه ويجب قتله . وبهذا حمى الإسلام الأمة من كل عبث أو خلل بها - (د . حلمي عبد المنعم) .

لا من قبيل أهمية ذلك للموضوع الذى نحن بصدده هنا ، وإنما بسبب مصادفة هذا العمل لبعض الظروف المماثلة ، التى تكاد تجعلنا نصل إلى مرحلة التعميم . هذا المصدر يتمثل فى السكان العبيد ، الذين جرى جلبهم إلى هنا من كل أنحاء أفريقيا ، وقد سبق أن تعرضت لتجارة الرقيق التى كانت تجرى بين سواحل أفريقيا الشرقية والموانئ العمانية . وأنا هنا لن أدخل فى تفاصيل هذه التجارة ، ولا فى وسائل الإبقاء عليها ؛ كما لن أصف سفن تجارة الرقيق العمانية أو حمولاتها ؛ برغم أن تجارة الرقيق (وأنا أقول ذلك مواساة وعزاء لأولئك المعادين للعبودية - أو إن شئت ، فقل : إن ذلك مواساة للجميع) من بدايتها إلى منتهاها ، وبالطريقة التى تجرى ممارستها بها منذ قديم الأزل ، لا علاقة بينها وبين النظام الجنهمى ، الذى يقوم على القسوة والغلظة فى نصف الكرة الغربى ، الذى أوشك على الانتهاء بفضل من الله . والموضوع الذى أتناوله هنا هو السكان السود بالشكل الذى هو عليه ، بعد أن استقر هؤلاء السكان فى عمان ، والتأثير الذى يحدثه هؤلاء السكان فى ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، ذلك التأثير الذى يعجز عن فهمه هؤلاء الأنجلو - سكسونيين المتفرقين ، ولكنه واسع الانتشار بين السكان القحطانيين الذين يسهل التأثير عليهم . وأنا أقول هنا القحطانيين ، ولا أقول العرب ، وذلك على سبيل المقابلة بين أعراق الشمال وأعراق الوسط ، وكلاهما لديه خليط من الألياف الحديدية التى تجعل الأوربي ، وبخاصة السكسونى يعمل Machine (إذا جاز لى أن أفترض عبارة هاملت) بعيدا تماما عن التأثيرات الخارجية . ومن هنا فإن الزوج ، مهما بلغ عددهم ، بين عرب شومر ، أو بين عرب نجد ، ليس لهم ثقل فى ميزان العادات أو المشاعر الوطنية شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من العبيد عندما يكونون فى نورفولك Norfolk أو فى يوركشير Yorkshire . ولكن الحال فى عمان مختلف تماما .

وإذا ما قلنا أنه يجرى كل عام فى عمان استيراد ألف من الزوج ما بين رجل وامرأة وطفل ، فإن ذلك الرقم سيكون أقل بكثير من الرقم الشائع فى هذه البلاد نفسها . ومن بين كل هؤلاء الزوج الذين "يُسحبون قسرا من أوطانهم ، وينتزعون من كل مباحجها" أو قد نقول بدلا من ذلك ، إنهم ينتزعون من حياة لا تناسب سوى الخنازير البرية والنمور التى تحيا فى الغابات ، إلى حياة تشبه حياة الأدميين إلى حد ما - لا يتبقى منهم سوى نصفهم أو ثلثهم كما يقول البعض ، كى يقضوا ما تبقى لهم من حياة داخل حدود عمان والمناطق المجاورة لها . يضاف إلى ذلك ، أن الغالبية العظمى من هؤلاء ، أو بالأحرى كل أولئك الذين لا يموتون فى مطلع شبابهم

(وهذا أمر نادر الحدوث فى ظل مناخ صحى من هذا القبيل ، وفى ظل وجود أسياد احتمال القتل من فرط الإحسان عندهم أقرب من العكس) ، يحصلون على حريتهم إن أجلا أم عاجلا ، وبذلك يضيفون عنصرا جديدا يختلط اختلاطا حرا مع السكان الأصليين أو إن شئت فقل : السكان البيض ، ومع أن الزنجى قد يكشف وهو ينفذ أوامر سيده ، عن كثير من الصفات الحسنة ، وتصبح له أهمية خاصة ، فإنه يندر أن يتكيف مع أى مركز فى المجتمع باستثناء المراكز المتدنية مقاما وفكرا . من هنا ، فإن السود الذين يتحررون يعملون خدما فى معظم الأحيان ، وسقائين ، وبستانين ، وفلاحين ، وبحارة ، وغطاسين ، وما إلى ذلك من هذه الحرف ؛ وبرغم كبر عدد هؤلاء العبيد ، الذى يقدر بحوالى ربع عدد السكان تقريبا ، فإنهم لا يضيفون شيئا إلى مسألة الثقافة والتقدم الاجتماعيين . وهؤلاء الزوج يتفوقون بشكل قاطع فى مجالين فقط ، ولكن هذا التفوق له مغزى سيئ ؛ وأول هذين المجالين هو مجال الخرافات ، والمجال الثانى هو الانحلال . والزوج بحكم أنهم كانوا فتشيين^(١) فى بلادهم ، يظلون على حالهم هذا فى البلاد العربية ؛ وهم يضيفون إلى الفتشية كل مصاحباتها اللبية من الشعوذة ، والسحر ، والعزائم ، واستعمال السموم ، وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى ، إلى حد أن هذه الممارسات المشينة انتقلت إلى المجتمع الأبيض وشاعت بينه إلى حد ما ، يضاف إلى ذلك ، أن المدرسين ذوى البشرة الداكنة أصبح تلاميذهم من البيض يتساوون معهم أو يتفوقون عليهم . وخلاصة القول : إن انتشار الخرافات المحلية والمشينة على نطاق واسع ، والتلاعب بالآثار الكونية الضارة والمؤذية ، أيا كانت هذه الآثار ، فتشية الأشجار ، وفتشية الحيوان ، والزواحف ، وما لا يعلمه إلا الله - أو باختصار السحر بكل أنواعه وأشكاله ، إنما يعزوه السود الأعظم من العمانيين (وهذا منطقى تماما) إلى تدفق السكان الزوج على البلاد ، والعدوى التى تنتقل منهم إلى السكان الأصليين . ومع ذلك فإن الإشارات التى وردت عند بعض المؤلفين الإسلاميين ربما تقودنا إلى أن نتصور أن بعضا من ذلك الضلال والإفساد والتحريف والانحراف إنما يرجع ، فى حقيقة الأمر ، إلى ذلك النمو القطرى الذى طرأ على شرقى شبه الجزيرة العربية ، وأن هذا الإفساد كان موجودا قبل جلب الزوج الأفارقة ومستقلا عنهم ، برغم زيادته وتعمقه بعد جلب الزوج .

(١) الفتش : شئ كانت الشعوب البدائية تعتبر أن له قدرة سحرية على حماية صاحبه أو مساعدته - (المترجم) .

والمجال الثانى ، أو إن شئت فقل الانحلال ، لن يدهش أحدا ممن يفهمون ميل السكان العبيد إلى تشجيع انتشار الرذائل الكبرى بين أسيادهم ، فضلا عن العواطف الحية القوية الموجودة فى العرق الأفريقى . والمستوى الأخلاقى المتدنئ والذى تسوء سمعته فى الولايات الجنوبية من الاتحاد الأمريكى أصدق مثال على ذلك ، فى نظر المراقبين الأوربيين ، وهو يوفر على مشاكل الدخول فى سرد المزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع السيئ تماما .

ولدينا الكثير الذى نود أن نقوله عن الخصائص الطبيعية لهذه البلاد وعن إنتاجها ، وهذا موضوع واسع ومليئ بتشكيلة متنوعة من المعلومات ؛ وسوف أوضح هذه الخصائص توضيحا تاما فى ثانيا هذا السرد . ولكن قبل أن أعود إلى استئناف خيط تسلسل الأحداث ، فإننى سوف أثقل قليلا على صبر القارئ ، بأن أضع أمامه مخططا مختصرا عن تاريخ هذه المملكة السياسى وعن أحوالها : لأن حذف مثل هذا المخطط سوف يجعل قدرا كبير مما سأورده غير مفهوم بل وغير مفيد أيضا . والترحال ، سواء أكان عن طريق الخيول والجمال ، أو عن طريق كتاب يقرؤه القارئ وهو يجلس إلى جوار المدفأة ، يصبح بلا فائدة فى غياب تاريخ وحكومة البلاد التى يتجول القارئ خلالها . من هنا فإن البحارة الذين يشاهدون الدنيا كلها لا يعرفون شيئا ، وإذا جاز لى أن أستعير التشبيه الذى ورد عند أحد الكتاب الخاملين ، أقول : إن مثل هؤلاء البحارة يكونون مثل أولئك الذين ينظرون إلى الوجه الخطأ من القماش المطرز - الذى يشاهدون عليه كل العقد ، والعيوب وارتباك الألوان ، الذى ليس له مغزى أو معنى .

بعد فترة طويلة تقرب من ثمانمائة عام ، نشأت خلالها بعض الحركات بين القبائل البدوية ذات الصلة بـ - عمان ، نجد أن التاريخ العمانى لا يسجل سوى عدد قليل من الأحداث غير المهمة ذات طابع فردى أكثر منه طابع قومى ، وقدر معين من الجرائم التى ترتبت على التمرد الذى أعلنه القرامطة فى منطقة الاحساء ؛ وقد وضعت الاكتشافات البرتغالية ، وأعمال البوكيرك Albuquerque ، وغزو هرمز ، ثم غزو مسقط بعد ذلك ، مملكة عمان على مسرح التاريخ العام . ويبدو أن عمان لم تستول خلال الفترة السابقة ، على أى من تلك الممتلكات الاجنبية التى تضيف على عمان نصف أو كل الأهمية التى تتمتع بها حاليا ؛ إذ ما تزال بلاد فارس تحتفظ بساحلها وخليجها ، كما امتد حكم القرامطة فى القطيف إلى رأس مسندم؛ فى حين أن أفريقيا ، وزنجبار ،

وسوقطرة ، كانت تعرف العمانيين، فى القرن السادس عشر ، على أنهم تجار بسطاء ، وربما كانوا يعملون فى تجارة الرقيق . ويبدو أن الحكومة ، داخل البلاد ، كانت تحتفظ بشكلها الأساسى ، الذى كان على شكل اتحاد إجمالى أكثر منه ملكية مطلقة ، كان اليعاربة يحتلون فيه المركز الأول واللقب الملكى ، كما هو الحال بالنسبة لأسرة سعيد حاليا .

ولكن ذلك كله تغير مع حدوث الغزو البرتغالى . لقد جاء الغزو البرتغالى بمثابة إيدان بسلسلة طويلة من الغزوات والحروب البحرية والبرية ، التى شارك فيها البدو وشاركت فيها كل من البرتغال ، وهولنده ، وبلاد فارس ، وحصلت كل منها على مزايا مؤقتة ، فى حين أن أيا منها لم تجن أرباحا موثوقة . فقد كانت عمان ، هى وجزرها وسواحلها ، فى بدايه الأمر ، مسرحا سلبيا للصراع الأجنبى ، إلى أن صحت على مشاهد الخراب والدمار الذى أصابها ، وتحولت هى الأخرى إلى دولة محاربة ، مما ساعدها على اكتشاف قوتها ، وجعلها تحول خسائرها إلى مكاسب دائمة .

كانت عمان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، تبدو وكأنها ضاعت تماما . فقد استولى البرتغاليون على مسقط ، مع بعض النقاط المهمة الأخرى على الساحل . كما استولى البرتغاليون أيضا على هرمز ، مع الجزر الأخرى التابعة لها ؛ وقام الأسطول البرتغالى ، الذى كان سيد البحار فى ذلك الحين ، بتدمير التجارة وقطع المواصلات مع شرقى الجزيرة العربية . ثم ظهر الهولنديون بعد البرتغاليين ، وقد كانوا بالطبع أعداء للبرتغاليين ، كما كانوا أعداء أيضا للسلطان والقوى الوطنية ، وبذلك يكونون قد أضافوا عدوا جديدا ، عندما قاموا بإفشال خطط العدو القديم . أخيرا ، فقد استفاد الفرس من العداء الذى نشب بين الأوروبيين ، وأعادوا من جديد ، ترسيخ أقدامهم فى هرمز ، التى نزلوا منها إلى عمان ، التى كانوا يعتبرون أهلها رعايا من رعاياهم ، وراحوا يستبدون بهم مثل الأجانب .

والجميع يعرفون الأحداث الرئيسية التى وقعت خلال ذلك الصراع الذى دام فترة طويلة . فقد تم فى النهاية ، بعد صراع على الممتلكات دام إلى قرن ونصف القرن من الزمان ، طرد البرتغاليين تماما وإلى الأبد من شواطئ عمان والخليج الفارسى ؛ وغنم الهولنديون ، قلاعا ، ومحطات ، وجزرا ثم خسروا ذلك كله بعد ذلك ؛ فى حين استطاع سعيد ، حاكم صوحر ، بشجاعته وحنكته ، أن يطرد الفرس من الأرض الرئيسية ،

ووضع على رأسه تاج الملك . وقد سجل كثير من مؤرخى الشرق هذه الأحداث وجسدوها فى مدوناتهم ورواياتهم . وتعد مدونة نيبور وروايته واحدة من أوضح وأفضل تلك المدونات ، برغم أنها تعد مقتضبة إلى حد ما ؛ يضاف إلى ذلك أن المؤلفين الفرنسيين الذين رجعت إليهم لم يكونوا دقيقين تماما ، كما أن المؤلفين البرتغاليين الذين تناولوا هذا الموضوع كانوا غاية فى الجهل لتماديهم فى المديح الذى لا مبرر له .

وقد نُصِبَ أحمد بن سعيد سلطانا على عُمان فى العام ١٧٥٩ الميلادى ، وجلس على العرش إلى العام ١٧٨٠ الميلادى على وجه التقريب . وأصبح حكمه يتسم بالسلام والأمن والازدهار ، بعد قليل من المنازعات المبدئية التى دارت بينه وبين منافسيه بسبب اعتلاء العرش ، والتى يقال إنها كانت محفوفة بقليل من سفك الدماء . وخلال حكم أحمد بن سعيد امتدت حدود مملكة عمان ناحية الغرب حتى وصلت إلى الأحساء والبحرين ، كما وصل نفوذ أحمد وسلطته أيضا إلى منطقة ظفار على الساحل الجنوبى . ولا تزال ذكرى أحمد بن سعيد راسخة فى أذهان أهل هذه البلاد ، برغم أنها خبت قليلا أمام ذكرى حفيده السلطان سعيد ، الذى كان رعاياه يحبون أن يضيفوا أداة التعريف إلى لقبه .

وبعد أن توفى أحمد ترك تاجه لولده ، الذى نسيته اسممه . يضاف إلى ذلك أن مدة حكمه لم تقع فيها أحداث مهمة ، كانت فترة حكمه حافلة بالسلام والتقدم برغم أنها لم تكن فترة مجيدة ، إن صح أن نربط المجد بالغزو . وعلى كل حال ، فقد كانت أهمية عمان تتزايد من الناحية التجارية ؛ وكانت فترة حكم ولد أحمد بن سعيد تمتاز بالهدوء الذى مكنها من تنمية مواردها الكبيرة . ومات ابن سعيد هذا ، إن جاز لنا أن نطلق عليه لقب الأسرة ، فى سن مبكرة نسبيا ، خلال العقد الأول من القرن الحالى ، وخلفه ابنه سعيد ، الذى يعد أعظم العظماء الذين حملوا هذا الاسم فى أسرته .

وبرغم أن سعيد كان صغير السن عندما اعتلى العرش إلا أنه كان محنكا . فقد أدرك من البداية أن قوة مملكته تكمن فى البحر وليس فى البر ، ولذلك بدأ على الفور تشكيل بحرية قوية تضمن له السيادة على الخليج الفارسى . وخلال فترة قصيرة استطاع أن يحصل على حوالى ثلاثين فرقاطة ويسلحها ، وقد بنيت هذه الفرقاطات على النمط الأوروبى ، وفى الموانئ الغربية الموجودة فى الهند ، وزودت بالمدافع ؛ وكان يرفرف عليها البيرق الأحمر العمانى ، الذى استقى من البيرق اليمنى . واستطاع

سعيد بفضل هذا الأسطول أن يستولى على جزيرة ساحل زنجبار ، وعلى الصواويل ، وعلى سوقطرة ، كما استطاع فى النهاية ، عن طريق الحصار البحرى الطويل ، أن يجبر الحكومة الفارسية على التنازل عن ذلك الشريط الساحلى الذى أصبح الآن ملكا لـ - عمان ، كما استولى أيضا على جزر هرمز ، وجشم ، ولارج ، إلى أن استولى فى النهاية على البحرين . وقد زار سعيد كل هذه المناطق ، وشجع تجارتها ونظمها ، وفتح خطوط جديدة للمواصلات ، وجعل مملكته أغنى الممالك وأكثرها ازدهارا ، إن لم يكن فى آسيا كلها ، ففي الجزيرة العربية على أقل تقدير .

كانت الإمبراطورية الوهابية ، فى ذلك الوقت ، فى بداية قوتها ، يضاف إلى ذلك أن أخبار الثروات الضخمة التى جمعها جيرانهم الكفار الأقل منهم فى فنون الحرب ، بدأت تستفز فى أبناء سعود المتدينين الجشع وحبهم للمال . وأعقب ذلك الغزو الكبير الذى قام به عبد الله ثم استولى على مسقط ، وبقيت عمان على إثر ذلك ، تابعا من توابع نجد على امتداد بضع سنوات قلائل . وبعد ذلك بفترة وجيزة حدثت تلك المناوشات المحلية فى المناطق المجاورة لـ - رأس الحى والساحل المقابل لـ - ماسورا Massora ، وذلك فى الوقت الذى حدث فيه صدام بين القوات الإنجليزية - الهندية من ناحية والمواطنين الذين يعيشون فى تلك المناطق من الناحية الأخرى ؛ وقد أعقب ذلك الصدام مباشرة ، القضاء تماما على القراصنة الذين رغم أنهم لم يكونوا يعملون بأوامر مباشرة من السلطان سعيد ، إلا أنه كان على علم بذلك ، جعلوا الملاحة فى الخليج الفارسى مسألة صعبة بل وخطيرة على السفن الأوربية .

وقد أعادت إطاحة إبراهيم باشا بالوهابيين الاستقلال إلى سعيد مرة أخرى ؛ واستطاع خلال المدة المتبقية من حكمه ، الذى دام من بدايته إلى نهايته حوالى خمسين عاما تقريبا ، أن يستعيد كل ازدهار ورفاه مملكته السابق ، بل أنه دعم ذلك الازدهار وقواه . وتحولت عمان إلى مركز للتجارة الإفريقية ، والفارسية ، والهندية ؛ فى حين بدأت مجموعات كثيرة من التجار ، وبخاصة الهنود ، تقيم فى كل من صوحار ، وبركا Bark.a ومسقط وفى الموانئ البحرية الأخرى ، وجلبوا معهم خبرات وصناعات يندر أن نجدها بين العرب أنفسهم .

كانت عمان عندما كانت خاضعة للوهابيين ، تدفع كل عام مبلغا كبيرا من المال تحت مسمى التبعية والجزية لحكومة مكة ، ذلك المنصب الذى كان يشغله ، أو إن شئت فقل اغتصبه ، عبد الله بن سعود . وكان من الطبيعى تماما ، على السلطان سعيد ،

بعد أن تحرر من نير نجد ، أن يتوقف عن دفع تلك الجزية التى كانت قد فرضت عليه تحت مسمى صيانة وإعمار المدينة المقدسة . وعلى كل حال ، فإن شريف مكة كان له رأى آخر ، وهدد بإثارة الكثير من المتاعب مع سلطان عمان ، إذا ما استمر على إصراره على عدم دفع ذلك الذى يمكن أن نسميه مشروع قرش - بطرس العربى . وجرى تبادل الرسائل بين شريف مكة وسلطان عمان ؛ إلى أن استنفدت دبلوماسية المراسلات جهودها ، وقرر السلطان سعيد ، الذى يبدو أنه من المغرمين بالحركة ، ويرغب فى مشاهدة عجائب العالم الخارجى ، أن يقوم بزيارة شخصية إلى شريف مكة يتم خلالها تسوية الأمر .

وأبحر السلطان سعيد ، ومعه حاشية كبيرة فى رحلة بحرية إلى مدينة جدة ، ثم وصل إلى مكة ، التى سبقته إليها ، كما يقول المؤرخ العمانى ، أبهة موكبه وعظمته . وكشف شريف مكة عن أدبه وكياسته ، وسارت الأمور سيرا حسنا ؛ ولم يتبق أى شئ سوى تسوية المطالب المكية تسوية مناسبة ، وهنا التمس السلطان سعيد من شريف مكة أن يصنع فيه معروفا بأن يرافقه إلى البيت الحرام ، أو إن شئت فقل الكعبة ، كى يرى بنفسه البيت الحرام ، الذى طُلب إليه أن يساهم فى زيادة ثروته من ذلك الحين فصاعداً . ووافق شريف مكة ، وذهب ومعه السلطان سعيد إلى البيت الحرام . وسأل السلطان سعيد عن المكان الذى يؤدى فيه المؤمنون ، من المذاهب الاربعة ، صلاتهم ، وأجيب السلطان سعيد إلى طلبه وأوصلوه إلى أماكن الشافعية ، والحنابلة ... الخ . وهنا تساءل السلطان سعيد قائلاً : " وأين مكان البياضية ؟ " وهذا سؤال يسهل طرحه ولكن ليس من السهل الإجابة عنه ؛ وفى النهاية ، أبلغه شريف مكة أنه لا يوجد مكان للبياضية . وهنا أبلغه السلطان سعيد أنه لا يجد مبرراً للاشتراك فى عبادة لا نصيب أو دور له فيها ، ثم غادر مكة على الفور ؛ وهنا توقف الحديث عن موضوع الجزية هذه ، طوال المدة المتبقية من حكم السلطان سعيد . وسوف نرى بعد ذلك ، كيف تجددت هذه المطالبة بعد ذلك فى عهد ولده الثوينى .

قسم السلطان سعيد ، وهو فى فراش مرضه ، ممتلكاته بين أولاده الثلاثة . وقد أعطى الثوينى ، ولده الأكبر ، منطقة عمان اعتباراً من البركا Barka وما بعدها فى اتجاه الشرق ، كما أعطاه أيضاً جبل أخضر والمناطق المجاورة له ، علاوة على التوابع الموجودة فى الخليج الفارسى . وحصل ماجد ، ولده الثانى ، على الممتلكات الأفريقية ، فى حين حصل أمجد ، ولده الأصغر على الجانب الغربى من عمان والذى كان يمتد من

بركا Barka إلى قطر ، على أن تكون مدينة صوهار عاصمة له . وقد مهد ذلك القرار غير الحكيم ، الذى يعزى صدوره إلى نفوذ الملكة الأم ، وحقدتها على أبنائها ، الطريق لنشوب حروب طويلة. وحدثت كوارث كثيرة ، إن لم يكن اندحار الامبراطورية العمانية اندحارا كاملا .

ولم يكن توقع النتائج التى ترتبت على ذلك الإجراء الثلاثى ، تحتاج إلى مزيد من التبصر ، وبخاصة أنها بدأت تظهر للعيان ، بعد فترة وجيزة . وبدأت تلك النتائج بالصراع الذى نشب بين الثوينى وماجد ؛ فقد بدأ الأول يطالب بالجزية والولاء ، فى حين رفض الثانى هذا وذاك . وأعقب ذلك ، نشوب حرب بحرية بين الشقيقين استمرت عامين أو ثلاثة أعوام ، إلى أن وضع التدخل الإنجليزى ، وربما أيضا بعد المسافة بين المنطقتين ، حداً لتلك الحرب البحرية . وتحددت بعد ذلك ، جزية سنوية ، حصل ماجد لقاء الوفاء بها ، على سلطه مطلقة وسيادة مستقلة على كل من زنجبار وصواحيل فيما يتعلق بالحكومة والتجارة والسياسة .

أما الصراع الثانى الذى ترتب على تقسيم الملك العجوز مملكته بين أبنائه الثلاثة، فقد كان مؤذيا فى ذاته وفى نتائجه . ولم يقنع ثوينى ، الذى حصل بمقتضى وصية والده على ثلثى الأرض الأم فى عمان ، وفيها أهم المراكز الحكومية والمواصلات ، علاوة على تسيده أيضا أهم الموانئ البحرية أيضا على ضفتى الخليج الفارسى ، وفضلا أيضا عن سيطرته على ثلثى التجارة الوطنية ، لم يقنع ثوينى بكل ذلك ، ولم يكن راضيا عن تقسيم الحكم ، وفكر وسعى فى حرمان شقيقه الأصغر أمجد ، من نصيبه فى هذه التركة ، حتى يخلو له الجو ويصبح حاكما وحيدا لا منازع له فى حكم عمان كلها . ولكن أمجد ، الذى كان أضعف من ثوينى ، من حيث الموارد المادية ، كان يتمتع بسند قوى لقضيته كان يتمثل فى تعاطف كل السكان معه ، فى المنطقة التى تمتد من الشارقة إلى رأس الحضر ؛ وقد اكتسب أمجد هذه المساندة بفعل تصرفاته الودية وإدارته الجيدة للمناطق الداخلية . وترتب على ذلك ، أن اكتشف ثوينى ، بعد أن نشبت الحرب بينه وبين أمجد ، أن المسألة أصعب مما كان يتصور ، والسبب فى ذلك أن باطنة ، أكبر مدن المملكة وأكثرها كثافة سكانية ، وقفت ، عن بكرة أبيها ، إلى جانب أمجد فى مواجهه ثوينى ؛ وحذت كل من نزوة ، وباهلة ، وجبل أخضر حذو باطنة ؛ ولم تحقق سيادة ثوينى البحرية شيئا فى مواجهة عدو يمتلك الجزء الأكبر من الأرض الأم بكل عواصمها الثلاثة ، بل إن أمجد هدد بمحاصرة ومهاجمة مدينة مسقط .

وهنا بدأ التدخل الإنجليزى يعلن عن نفسه من جديد ؛ والمؤسف أن ذلك التدخل الإنجليزى كان لصالح الطرف الذى لا يستحق المعونة ، وهو الثوينى . وهنا ، وجه ثوينى ، الأخ الأكبر ، الدعوة إلى شقيقه أمجد ، الذى كان لا يزال يسيطر على الجزء الأكبر من البلاد ، لحضور اجتماع سيجرى عقده فى مسقط ؛ وفى مسقط ، وبرغم كل التعهدات والوعود ، خان الثوينى شقيقه أمجد ، واحتجزه أسيرا ، فى قلعة مسورة من قلاع المدينة ، وما يزال أمجد أسير إلى يومنا هذا . وبذلك أصبح الثوينى ملكا وحيدا على كل من البر والبحر ؛ ولكن خيانتته لأخيه الذى وثق به ، إضافة إلى سلوكه وتصرفاته المستهترة ، أغضبت رعاياه وجعلتهم يواصلون القتال ضده حتى بعد أن خسروا زعيمهم أمجد ، ولم يستطع السلطان إجبارهم على الخضوع إليه . وبعد أن فشلت محاولات ثوينى لإخماد الثورة ، وفى ساعة جلبت الشر على عمان ، طلب إلى الوهابى أن يقدم له يد العون والمساعدة .

ولم يلق فيصل بالاكثيرا لمسألة من يحمل التاج من الشقيقين ، إضافة إلى أن طلب الكافرين على مساعدته لهما لم يجعله يرجح أحدهما على الآخر . غير أن طلب الثوينى قدم لـ - فيصل الذريعة التى كان يشتاق ويتطلع إليها منذ زمن طويل ، والتى يمكن أن يستغلها للتدخل الذى يسفر فى النهاية عن وضع مفاتيح أغنى أجزاء الجزيرة العربية بين يدي ذلك النجدى ساكن الجبال . يضاف إلى ذلك ، أن الثورة فى عمان نفسها كان لها طابع غريب . لقد كانت هذه الثورة بمثابة حركة بياضية ، برئاسة أمجد ، نفسه الذى كان بياضيا خالصا ، وكان الهدف الرئيسى لها لا يتمثل فى تنصيب رجل بعينه على العرش ، وإنما فى كونها مبدءا شعبيا من ناحية ، وتأكيدها ، من الناحية الأخرى ، على الممارسات القرموطية القديمة والممارسات المعادية للعقيدة المحمدية . ومن هنا كانت تلك الحركة تبدو قمينة وقيحة عند فيصل ، الذى اعتمد صعوده ورفعته داخل مملكته وعلى حدودها ، على قمع العنصر الوطنى وقهره . ومن ثم سارع فيصل إلى تلبية ذلك المطلب السيئ الذى تقدم به الأخوان إليه ؛ وتم على الفور تشكيل جيش كبير فى الرياض ، وقامت منطقة نجد كلها بدءا من القصيم إلى الاحساء بتقديم القوات المجنّدة ، كما وصل أيضا متطوعون من شومر للإنضمام إلى هذا الجيش ، وأسندت القيادة العليا إلى (الأمير) عبد الله ، ولد الملك فيصل .

ويتقدم الجيش الوهابى سالكا طريق قطر الساحلى إلى أن يصل الشارقة ، التى كان الحليف صاحب المصلحة ينتظره فيها . كان ذلك الحليف ، هو خالد بن صقر ، وهو نجدى من القواسمة بحكم مولده ، وقد سبق أن تناولت هذه العشيرة ،

التي استوطنت واستقرت على الجانب الشمالى الغربى من رأس مسندم . وقد استطاع خالد ، عن طريق الصراع الدموى الطويل الذى دار بينه وبين شقيقه وعمه ، أن يصبح فى النهاية سيدا على المدينة وعلى منطقة الشارقة بكاملها ، على شكل إقطاعية له من سلطان عمان . ولعل القارئ يستطيع أن يكون فكرة عن هذا الرئيس من حقيقة هي التي أشعلت نار الحرب الأهلية بين خالد وأقاربه . فقد استطاع خالد ، أيام صباه ، أن يطرد عمه بالقوة من الشارقة ، واحتل القصر ليعيش فيه ولكن المالك الشرعى للقصر ، استطاع خلال أسابيع قلائل ، أن يعود ومعه من القوات ما يكفى لتحقيق مطلبه ، وأدرك خالد أنه لن يستطيع الصمود أمام الحصار . ويتراجع خالد ؛ ولكنه أراد أن يثأر من عمه ، فى المقام الأول ، ولذلك أضرم النار فى المدينة ، وأحرق أكثر من ثلث المدينة ، تصميمًا منه على تخريب ذلك الذى لم يستطع أن يحتفظ به .

ولما كان خالد كارها للحكم العمانى والبياضية، من منطلق كونه وهابيا متشددا ، ولأن الوهابية كانت مذهبه برغم أن فسقه الذى لا يعرف الحدود وذرائله الشخصية حولته إلى فاسق تماما من الناحية الشهوانية والعملية فقد رسم خطته ، منذ زمن طويل ، لفصل منطقته عن جسم المملكة الرئيسى، وبذلك يصبح مستقلا ليس استقالا - لأنه أصبح بالفعل مستقلا استقالا اسميا خلال سنوات الفوضى التي أعقبت وفاة السلطان سعيد وإنما استقالا حقيقيا أيضا . وتنفيذا لهذه الخطة كان من رأيه أن يعتمد ، بكل الثقة والاطمئنان ، على أقاربه الأشداء الذين يسكنون ساحل الجواشمه ، ويشكلون فرقا وهابية خالصة ؛ ولكن هذه الفرق لم تكن كافية لتحقيق الخطة التي وضعها خالد . وهنا أمكن سد العجز عن طريق القوات التي وصلت وعلى رأسها (الأمير) عبد الله ، حليفه الطبيعى من ناحية ، الدم ، والطبيعة ، والدين . وجرت مناقشة خطة عمان والموافقة عليها مع ذلك الأخ النبيل . وهنا عهد عبد الله إلى خالد بإخضاع كل من باطنة وصوحر ، فى حين قام (الأمير) عبد الله نفسه ، ومعه القوة الرئيسية ، بالهجوم مباشرة على جبل أخضر ، وفرض سيطرته على المنطقة الجبلية ؛ وقد حدث كل ذلك باسم الثوينى ، الذى كان يبحث ، مثل الحصان فى الأسطورة ، عن حليف فعثر على طاغية .

وبعد ذلك بأيام قلائل ، قام خالد ومعه قواته الهمجية ، المعززة بقوات نجدية ، بالهجوم على باطنة ، التي أعدم فيها ، بالسيف ، كل أولئك الذين اعترضوه أو وقفوا فى وجهه ، وأحرق القرى ، وخرب المدائن ، ونشر المذابح فى كل مكان باسم الله

إرضاء لنفسه . وقام خالد بسلب ونهب وتخريب كلا من الفجيرة ، وشيناز ، وصوحار ، وبعض المدن الساحلية الأخرى الأقل أهمية ؛ وواصل خالد مسيرته مكتسحا كل ذلك الذى كان يعترض طريقه ، إلى أن وصل بالقرب من السويق التى أنزل فيها بالسكان الوطنيين ، الذين كانوا قد اتخذوا تشكيل المعركة حتى يتمكنوا من وقف تقدمه ، هزيمة مروعه ترتب عليها أن أصبحت باطنه بكاملها تحت رحمته ، أو بالأحرى تحت رحمة قسوته الضارية .

وفى الوقت نفسه كان عبد الله ، ومعه جيش كبير العدد ، قد وصل إلى بريمة ، التى تبعد مسير أربعة أيام عن الشارقة ، عند سفح جبل عقدة ، التى ترتفع عندها أولى قمم سلسلة جبال الظاهرة ؛ ويمتد الطريق إلى البريمة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى ، موازيا لسلسلة جبال أخضر ، ولكنها تمتد إلى الداخل مسافة أطول . وهنا يكون ولى عهد (الملك) فيصل قد وصل إلى مشارف المعقل العمانية ، ولكنه وجد أن من الحرص ألا يخاطر بحياته وسط شعاب الجبل ؛ من هنا فقد أثر البقاء فى بريمة ، فى حين أرسل أمامه قوة استكشافية كبيرة بقيادة الزامل ، وهو الشخصية نفسها التى سبق أن تعرضت لتاريخها فى عنيزة ، والذى أصبح الآن على ود واضح ويبن مع حكومة نجد .

كانت الحملة ، شأنها شأن كل الحملات الأخرى الوهابية التنظيم ، تحمل اسما دينيا هو " الغزو " ، وكانت موجهة بطبيعة الحال ضد أعداء الله . وفى الاحساء أقيمت أمامى مقطوعة جميلة من الشعر النبطى ، ألفها واحد من المقاتلين الذين يكتبون الشعر ، وتنصب كلها على مقابلة تقوى نجد وورعها بكفر عمان ومروقها ؛ ولو أراد محمد (ﷺ) أن يحرص أصحابه لما استطاع بشئ غير هذه المقطوعة . ولكن اختيار الزامل - أل - عطية ليشغل رتبة المشير أثناء غياب (الأمير) عبد الله ، أطفأ الشعلة المقدسة وثنى حد سيف الإسلام . وكان السبب الرئيسى وراء اختيار هذا الرئيس الشاب هو صفاته العسكرية الفريدة ، وشعبيته الكبيرة ، لا فى القصيم وحدها وإنما فى نجد أيضا ، وكذلك أيضا بين أولئك الذين ليسوا من الغلاة أو المتشددين . ولكن الزامل ، فى داخله ، كان أيضا معارضا للمعتقدات الوهابية والحكم الوهابى على حد سواء ، وكان ينظر بمزيد من التعاطف والإشفاق على هؤلاء الذين سيقوم بغزوهم ، أكثر من أولئك الذين جهزوه للقيام بهذا الغزو . ومن هنا كان الزامل لا يطمع فى أى

شئ أكثر من الوصول بالأمور إلى بر السلام ، وبذلك يمنع العارض من اكتساب المزيد من القوة ، ويجعل عمان في مأمن من السلب والنهب والمذابح ، يضاف إلى ذلك أن سلوك الزامل كان ينكر التعصب وكذلك التعصب الدينى ؛ وكانت خيمته الحربية الواسعة تغص من الصباح إلى الليل بكبار الضباط وكبار الرؤساء ، الذين كان يضرب أمامهم مثلاً واضحاً ، بعد التشاور والنقاش العسكرى ، لا فى المحاضرات القرآنية والإكثار من الصلاة ، وإنما فى المرح الذى يكاد يكون فسقاً وانغماساً فى الملذات ، وفى اللهو والضحك ، بل وفى الرقص والسُّكر فى بعض الأحيان . ومن الطبيعى أن يسير الجسد فى الاتجاه نفسه عندما تكون له رأس لها مثل هذه الميول . وهنا بدأ الجميع ينظرون إلى سكان هذه البلاد ، التى كانوا يتقدمون خلالها ، نظرة كلها ود ، لأن ذلك يناسب مصالحتهم ، ولم يواجه الزامل أية صعوبة فى تحقيق ذلك الذى كان يصبو إليه ، ألا وهو ، زحف غير ملطخ بالدماء ، يفضى إلى سلام فى الوقت المناسب . وبرغم أن عبد الله استشعر وفهم الخطة التى استطاع مشيره أن يحبط بها سياسة الرياض ، فإنه لم يستطع مواجهة هذه الخطة أو القضاء عليها ، فى وقت كانت فيه تسعة أعشار الجيش على استعداد لرفع أسلحتهم فى وجه عبد الله دفاعاً عن الزامل ، لو تطلب الأمر ذلك . وعلى كل حال ، واستبقاً للأحداث ، شوهد رأس الزامل على رمح فى البلاط الوهابى ، وكان فيصل ، الذى أحيط علماً بما جرى فى عمان ، ينتظر الفرصة المناسبة التى يصب فيها جام غضبه على عائلة آل - عطية كلها . وقد حكى لى كل هذه التفاصيل ، كل من رفيقى يوسف بن خميس وآخرون ، الذين حملوا السلاح تحت قيادة الزامل فى هذه الحملة .

ويجتاز الغزاة ، بقليل من المقاومة ، وادى العُبرى ، ويصلون إلى المخنث ، تلك القرية الكبيرة التى تقع إلى الخلف مباشرة من سلسلة جبال أخضر ، التى يتفرع الطريق عندها إلى نزوة ناحية اليسار ، وإلى الباهلة فى الناحية اليمنى . وخلف المخنث توجد مضائق أخضر ، التى يصعب اجتيازها ، على الغزاة بصفة خاصة ، والتى يحتلها الآن بعض من سكان الجبال الأشداء فى دفاعهم . كان الزامل طوال هذه الحملة يتحرك بطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة التى تحرك بها خالد فى باطنه ؛ فقد كان الزامل ، على امتداد طريقه ، يضمن للسكان الأمن والسلام ، شريطة أن يعترفوا بالثوينة سلطاناً عليهم ؛ وانطلاقاً من هذه الخطة راح الزامل يعامل القرويين معاملة الأصدقاء ، كما منع أتباعه من ممارسة السلب والنهب . وعندما وصل الزامل إلى

المخنث ، وبعد أن عرف العمانيون ذلك الذى يتعين عليهم أن يتعاملوا معه ، رحّبوا به وبجيشه ترحيباً حاراً ؛ وتقدّم رؤوساء اليعاربة ومعهم رؤوساء آخرين من الجبل للقاء الزامل . وفى المؤتمر الذى انعقد بعد ذلك اللقاء ، أكد الزعماء العمانيون للزامل رغبتهم فى إخضاع أنفسهم لحكم الثوينى بشروط مناسبة ، وبالتالى يمكن تحاشى حدوث كثير من أعمال العداء والتحرشات من الجانبين ؛ واحتج العمانيون علاوة على ذلك ، على التدخل الأجنبى ، واندروا الزامل هو وضباطه ، أنهم إذا ما خاطروا بعبور مضايق باهلة ، فإن قلة قليلة منهم هى التى ستعود لتحكى للناس ذلك الذى حدث .

وفى الوقت الذى بدأ يأفل فيه نجم مارس (إله الحرب عند الرومان) ، بدأت فينوس فى الظهور . ولم تكن عيون الجميلات العمانيات الكبار ، أو خصورهن التحيلة ، وتصرفاتهن الأسرة ، وحديثهن الذى يفيض رقة ، أقل تأثيراً ، ويا حسرتاه على ذلك اليوم ! فى القضاء على نزعات الحرب عند النجديين ، من الإنذارات المقنعة التى صدرت عن الرجال الشجعان أو مفاوضاتهم التى اتسمت بقدر كبير من الدبلوماسية . بل إن الزامل نفسه ، اللهم إن كان ذلك لا يتناقض مع شهرته ، وقع عن طيب خاطر ضحية لواحدة من الجميلات الوطنيات فى ذلك البلد ؛ الذى وضعته ممارسة الحب فيه ، فوق كل اعتبارات الفضيلة الثانوية ؛ فى حين أن عزيمة أخرى فعلت فعلها مع مقاتليه الذين يأكلون النار أكلاً ، واضطرتهم إلى أن يحولوا عقدة كيوبيد (إله الحب عند اليونان) غير المحكمة ، إلى رباط قوى من أربطة هيمان ، (إله الزواج عند اليونان) ؛ بل إن الكثيرين من الضباط الشجعان بقوا فى عمان ليلعبوا دور الرجال المسالمين فى قرى الجبل الأخضر الهادئة .

وقصارى القول ، إن الحملة انتهت ، شأنها شأن السواد الأعظم من الروايات ، بالزواج والاستيطان ، إلى أن وصلت الأمور إلى مرحلة أصبح من الصعب معها ، على الزامل أن ينتزع نفسه من براثن كليوباترات Cleopatras (جميلات) المخنث ، وأن يعيد إلى البريمة أتباعه الذين استمالهم الإغراء أو إن شئت فقل القوة الرئيسية ، إلى السير ضمن حركته العكسية .

كانت مناورة الإغواء الذى يمكن اغتفاره ، الرائعة والتى سبقت الإشارة إليها من تدبير الثوينى وبأوامر منه ، نظراً لأنه كان قد بدأ يصحو فى ذلك الوقت ، على الخطر الذى جلبه على نفسه وعلى مملكته بسبب طموحه غير المحسوب ؛ وسعياً من الثوينى

نفسه إلى تحاشي ذلك الخطر أو التقليل منه في أضعف الأحوال، قبل أن يفوت الأوان. وعندما استطاعت المفاوضات أن تحبط ، بالشكل الذي وصفناه ، الهجوم الذي كان موجها إلى قلب مملكة الثويني ، سارع إلى وقف عمليات السلب والنهب التي كان خالد يقوم بها في مدينة باطنه . ولكن خالد وقواته كانت تسري فيهم روح مختلفة تماما عن تلك التي كانت تسري في الزامل هو وجنوده ؛ كان هدف خالد وجنوده يتمثل في السلب والنهب وسفك الدماء ، وليس في المسالمة والولاء ، يضاف إلى ذلك أن الثويني لم تكن لديه القوات الكافية التي تمكنه من الوقوف في وجه تحركات الغزاة الذين استدعاهم هو بنفسه . كان المصدر الوحيد الذي تبقى أمامه هو أن يطلب إلى عبد الله أن يتدخل في الأمر . وتدبر الثويني أمره ، ولم يكن مخطئا في تدبره ، وأدرك أن الذهب ربما ينهي مع الأمير الوهابي ذلك الذي بدأه الجمال والكلام الحلوم مع مشيره ؛ وعليه اصطحب الثويني معه مقدارا مناسباً من ذلك "المذيب الكوني" ، واتجه مباشرة إلى بريمة ، حيث كان عبد الله يقيم في مركز الرئاسة .

وعن طريق الهدايا السخية التي كانت معه ، وعن طريق العروض السخية بهدايا أخرى مُسْتَقْبَلِيَّة ، استطاع الثويني أن يقنع ولي عهد نجد أن عمان قد عادت عن طيب خاطر إلى الولاء لملكها الشرعي ، وأن الحرب والعنف لم يعد لهما ما يبررهما . ومن هذا المنطلق طلب من عبد الله أن يستعيد خالد ويأمره بالرجوع . وهنا "عاد ابن صقر" (وهذا اسم مناسب) ، وتخلّى عن فريسته التي كان قد ابتلع نصفها ، عاد إلى بريمة على غير رغبة منه، وهو في غاية الاستياء من القيد الذي فرض على نجاحه . ومع ذلك ، فقد كانت أوامر عبد الله موضوعية ، علاوة أيضا على سبب آخر كان له الطابع نفسه كان يستحوذ على تفكير أمير الرياض ، وقد ساعد كل ذلك ، في إقناع حليف عبد الله من القواسمة بالتعجيل بالسلم . وفي نفس هذا الوقت كان سكان مملكة عمان ، من أقصاها إلى أقصاها ، قد نسوا مشاحناتهم الأهلية ، وبدعوا يتحدون مكونين بذلك جيشا دفاعيا قويا ؛ وهنا رأى عبد الله ، الذي كان فيه شيئا من حنكة والده ، رغم شراسته وتشدده ، أن من الأفضل أن يتراجع عن الدخول في صراع مميت في منطقة بعيدة جدا عن بلاده . وتم بناء على ذلك إقرار السلام ، شريطة أن يتم انسحاب الجيش الوهابي من البلاد ، وأن يسحب خالد قواته من مدينة باطنه ، وأن يرضى لنفسه بمناطق الشارقة وقلحاط ، وجبال الرأس ، على أن يدفع جزية سنوية لـ - ثويني ، الذي أصبح الآن ملكا على كل ممتلكات والده في الجزيرة العربية .

ومن جانبه تعهد الملك العمانى بأن يقدم هدية سنوية للرياض ، تحت مسمى المساهمة مع شريف مكة ؛ وأن يسمح بإقامة حامية نجدية دائمة فى البريمة ، بغرض قمع وإخماد المناصير وآل - مرة ، الذين زاد صلفهم خلال الاضطرابات التى وقعت مؤخرا - على أن يقوم الثوينى بدفع مرتبات هذه الحامية وأن تكون تحت أوامره مباشرة ؛ وأخيرا ، وافق الملك العمانى على السماح لعدد محدد من النجديين (حوالى ثلاثمائة ، حسب اعتقادى) ليكونوا فى خدمته هو شخصيا وفى حراسته . وتم التوقيع من الطرفين على هذه الشروط ضمن المعاهدة التى أبرمت بينهما ، وجلى عبد الله بعد ذلك هو وقواته عن عمان ، وخلفوا وراءهم دينا متراكما من الكراهية ، لا تستطيع أن تفى به الأجيال . لقد حدث كل ذلك منذ عشر سنوات مضت .

واعتبارا من ذلك التاريخ لم يحدث المزيد من الصراعات الأهلية التى تثير الاضطراب فى عمان . ونظرا لأن الثوينى كان سببا رئيسيا فى حياته الخاصة ، ونظرا لأنه كان مستهترا جدا فى حياته العامة ، برغم أنه لم يكن غيبا بأى حال من الأحوال ، فإنه يهتم بحياته وذلك عن طريق إعطاء الرؤساء المحليين فى البلاد كامل سلطاتهم القديمة التى كانوا يتوارثونها ، وبذلك يتمكن من حكم البلاد من خلالهم ، بدلا من حكمها بصورة مباشرة . وينصب اهتمام ثوينى بصفة خاصة وكذلك إدارته على كل من الموانئ البحرية والتجارة ، ولكن مجتمع الخلائل الحبشيات، والمهرجين المرخصين ، وفرق المرح ، وأبهة الخيالة ، وحفلات المتعة ، هى الشغل الشاغل فى حياة الثوينى .

ولن يكون من قبيل الخطأ هنا أن نورد ملاحظة مفادها أن لقب : "إمام مسقط" لا يستعمل فى عمان نفسها ، وأن هذا اللقب ينتمى إلى الأسماء الأوربية وليس إلى الأسماء العربية . والثوينى لا يعد إماما بالمفهوم المحمدى المتعارف عليه ، علاوة أيضا على أن مسقط ليست عاصمة له . وكلمة "إمام" هنا تشير إلى أى شخص تكون له الأولوية والصدارة وبخاصة فى الحروب وفى الصلاة ، وفى العلم وفى الأدب فى بعض الأحيان . وفى نجد ، قد يكنى فيصل بالإمام ، فى بعض الأحيان ، ولكن هذه مسألة نادرة الحدوث ، وقد سمعت هذا اللقب مرتين أو ثلاثا ، يطلق على عبد الله من قبل رعاياه . ولكن لقب "سلطان" يشيع استعماله فى نجد ؛ فى حين يطلق هذا اللقب أيضا على الثوينى أيضا . ومن ثم يمكن القول إن لقب الثوينى الحقيقى هو "سلطان عمان" . وعاصمة الثوينى الرسمية تتمثل فى الخيار بين المدن الثلاثة باهله ، أو صوحار ، أو نزوة ، ونزوة هى الأكثر ترجيحا بين المدن الثلاث .

وثمة ملاحظة أسوقها هنا عن الطابع الغريب لهذه الحكومة ، وقد يقول القارئ : إن هذه الملاحظة سطحية ولا تتسم بالعمق . ولعل القارئ يكون قد لاحظ أن الملكية العمانية محدودة ، وأنا لا أقصد إنها محدودة بالقوانين والعهود والمواثيق ، وإنما أقصد أنها محدودة بتواجد طبقة أرستقراطية قوية قادرة على التعايش مع بعضها ، ومحدودة أيضا من منطلق الامتيازات الوراثية ، وتحديد الحقوق العامة . وعمان مملكة أقل منها مجموعة من البلديات ؛ إذ أن كل مدينة وكل قرية تتمتع بوجود مستقل ومجلس بلدى مستقل أيضا ؛ فى حين تخضع كل من هذه المدن والقرى إلى رئيس أو آخر من أولئك الرؤساء السلفيين ، الذين يحكمون هذه المناطق بسلطة تكون محدودة فى أحد جوانبها بالحصانات التقليدية التى يتوارثها الإقطاعيون الذين يعيشون فى هذه المناطق ، ومحدودة فى الجانب الآخر بالامتيازات المقصورة على التاج . وتتمثل تلك الامتيازات الملكية فى حق التعيين والعزل (بناء على شكوى) ، فى المناطق الخاصة بالحكام المحليين ، برغم أن هذا المنصب يظل مقصورا على العائلة نفسها ؛ كما تتمثل هذه الامتيازات أيضا فى تحديد وفرض الضرائب والرسوم الجمركية ؛ وفى الاستقلال بإدارة البحرية ؛ وفى الاحتفاظ بجيش عامل صغير ، قوامه حوالى ستمائة أو سبعمائة رجل ؛ كما تتمثل هذه الامتيازات أخيرا ، فى تصريف الشؤون الخارجية وإبرام التحالفات والمعاهدات ، وشؤون الحرب والسلام . والإدارة القضائية هى والبت فى القضايا الجنائية لا تندرج هنا ، كما هو الحال ، فى كل من نجد وشومر ، تحت صلاحية المحاكم ؛ وإنما تترك هذه المسائل للقضاة أو القضاة الملكيين المحليين ؛ وخلاصة القول ، هى أن القضاء كله يعد مستقلا تماما عن الملك ، اللهم باستثناء الظروف شديدة الاستثناء . يضاف إلى ذلك أن الضرائب التى تفرض على الأراضى وعلى البضائع (يستثنى من ذلك تجارة الموانئ البحرية) تعد ثابتة ولا يجوز المساس بها إلا من قبل السلطة المحلية أو البلدية ؛ معنى ذلك أن السلطان يستفيد من هذه الضرائب ولكنه لا يستطيع إلغاؤها أو تغييرها . ونحن نستخلص من كل ذلك ، أن الدعم الرئيسى والمساندة الرئيسة للسلطان إنما تنبع من حرصه على رفاهية شعبه وازدهار التجارة البحرية ورواجها ؛ أما إن قدر للحاكم ، أن يكون ، كما هو الحال بالنسبة لـ - ثوينى فى هذه الأيام ، مستهترا ، فإن الشرور التى تترتب على ذلك تكون غير مباشرة أكثر منها مباشرة ، فى حين تسير الأمة فى معظمها على هذا النهج بغض النظر عما يكون على رأسها ؛ وهنا يجوز لنا القول إن الأمة تحكم نفسها

بنفسها . من هنا نجد أن عمان تقترب من ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه اسم الحكومة المختلطة أو الحكومة الدستورية أكثر من أية حكومة أخرى فى الجزيرة العربية ، بل وربما فى الشرق كله .

يتبقى بعد ذلك أن نقول شيئاً عن وضع الوهابيين الحالى فى عمان . لعل القارئ يكون قد أصبح مدركاً الآن أن الغزو الأجنبى ، وبخاصة إذا كان من النوع الذى قام به خالد بن صقر ، وتابعه المطيرى ، قاطع الطريق مثل سيده ، لم يفعل الكثير من أجل إيجاد نوع بين المصالحة بين البياضية ومعتقدات ومرعيات ابن سعود . كانت كراهية ألفا Alva شديدة فى هولندا ، كما كانت كراهية كورتز Cortez شديدة أيضاً فى المكسيك . وقد بدأ النفوذ الوهابى الذى كان شائعاً بين القواسمة من ناحية الغرب ، وبين حامية البريمة ، وبين الأتباع والجنود الآخرين الذين كانوا يساندون هذا النفوذ وينتشر فى المدن الرئيسة مثل باطنه ، وصوحر ، وبركا ، أو الذين كانوا ينتسبون إلى حرس الثوينى الخاص ، هذا النفوذ بدأ يتناقص شيئاً فشيئاً ، إلى حد أننى أثناء زيارتى لـ - عمان اكتشفت أن هذا النفوذ يكاد لا يذكر وغير ذى بال . وقد ساعدت على ذلك عوامل كثيرة .

وترتيباً على ذلك ، فإن أحمد السديرى ، الذى عينه فيصل حاكماً على البريمة ، وثبته فى هذه المنطقة كى يفصله عن بقية أسرته ، طرد كل حاشيته النجدية بصورة ، متدرجة ، فرداً إثر آخر ، وهو يعيش الآن عيشة الحاكم العمانى أكثر منه حاكماً نجدياً ؛ ويحيط بأحمد السديرى مجموعة من المواطنين من أهل هذا البلد ، الذى راح أحمد يراعى فيه مشاعر ود هؤلاء المواطنين على حساب سياسة سيده ، ومبادئه وجزيته التى كان يحصل عليها ؛ فقد أهمل أحمد السديرى سياسة سيده وتجاهلها ، ولم يلتزم أيضاً بمبادئ سيده ، وبدد الجزية أو حصل عليها لنفسه بدلاً من إرسالها إلى خزينة الرياض . وأثناء مقامى فى عاصمة العارض سمعت كثيراً من الأقوال الجارحة التى قالها بعض رجال البلاط وهم ينتقدون أحمد السديرى وأنغماسه فى المعاصى ؛ ولكن بعد المسافة ، وخطر الافتراق عن أحد الرعايا الأقوياء (نظراً لأن أحمد السديرى هو عميد العائلة ، التى تعد واحدة من العائلات الرئيسة فى نجد) ، إضافة إلى احتمال أن يعلن أحمد عصيانه ويجاهر به ، كل هذه العوامل هى التى جعلت فيصل يمتنع ، عند هذه المرحلة ، عن استدعاء أحمد السديرى وإعادةه إلى نجد . بعض آخر من

النجديين انطبق عليهم نتيجة أعمالهم المؤسفة ، المثل العربى الذى يقول : "من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم" . فقد تولى بعض هؤلاء المتدينين المتشددين ، علانية عن الشخصية الوهابية ، داخليا وخارجيا ؛ وارتدوا الثياب المرحية ، وراحوا يدخنون مثل البراكين ، ويتكلمون بحرية مطلقة ، ويبتعدون تماما عن العبارات الدينية التقليدية ، شأنهم فى ذلك شأن أى بياضى من جبل أخضر ؛ فى حين راح بعض آخر من هؤلاء النجديين يضعون ذاتهم القديمة وذاتهم الجديدة حاجزا إضافيا ، وذلك عن طريق إبرام تحالف " كافر " مع سيرانة^(١) جميلة ولكن شريفة من سيرانات هذه البلاد . وبالرغم من ذلك ، استوطن التجار المسلمون مدينة مسقط ، ولا تزال الموانئ الكبيرة تحتفظ بكثير من الزينات المعقولة ، بحكم علاقة هؤلاء التجار بمسقط رأسهم من ناحية ، وبحكم احترامهم لذاتهم المفروض عليهم من قبل الجماعة ، من الناحية الأخرى .

يضاف إلى ذلك ، أن السنيين من الأسر النجدية القديمة ، الذين استوطنوا هذه البلاد منذ أجيال مضت ، والذين ينتشرون فى كل أنحاء باطنه ، وبين القواسمة الذين يعيشون فى رأس مسندم ، لا يزالون يتمسكون بمبادئهم الخاصة بهم بكل ما فى ذلك من إلحاح وتعصب . إن ما أوردته هنا هو عبارة عن أمثلة شاذة ، والواقع أن عمان ، بشكل عام ، لا تميل إلى انتهاج أى مذهب بعينه من المذاهب الإسلامية ، وبخاصة المذهب الوهابى .

وعلى الجانب الآخر من الخليج الفارسى ، الذى نوشك أن ننزل عليه الآن ، ينتشر المذهب الشيعى . والحكومة العمانية ، تترك فى هذا المكان ، كما هو الحال فى الأماكن الأخرى ، لرعاياها الحرية الكاملة فى هذه الأمور ، طالما أن ذلك لا ينطوى على متاعب أو أخطار محددة ؛ ويجرى فى هذه المنطقة الالتزام بأسلوب الصلاة الفارسية ، والخطبة الفارسية ، وكل ما يتعلق بالشئون الدينية الأخرى ، ويجرى كل ذلك بصورة علنية دون تعليق أو تدخل . وسوف أتناول بعض الأشياء الغريبة على هذا الشاطئ أثناء فترة مقامى - ومن حسن حظى أن هذه الفترة لن تطول - الذى سيكون فى مدينة لينجا .

وفى صباح اليوم الحادى عشر من شهر فبراير وصلنا إلى الشاطئ فى قارب من قوراب السفينة . وعلى طول الرصيف الأوسط ، يوجد حوض صغير ، يكون جافا

(١) السيرانة : واحدة من مجموعة كائنات أسطورية (عند الإغريق) لها رؤوس نسوة وأجساد طيور ، كانت تسحر الملايين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك ، والمقصود هنا امرأة مغوية أو خطيرة - (الترجم) .

أحيانا ، وفى أحيان أخر ، يحتوى على مقدار من الماء يكفى لتعويم السفن التى من العيار والمقاييس العربية ، ويتسع هذا الحوض لحوالى ستين أو ثمانين سفينة من هذه السفن ، ويحمى هذا الحوض من الأمام حائط بحرى مرتفع جيد الإنشاء ، وبالقرب منه يوجد كاسر أمواج على الجانبين . والسفن التى لا تستطيع أن تجد لها مكانا على هذا الرصيف ، ترسو فى عرض البحر فى الخليج الرملى الواسع . وقد أحصيت حوالى مائة شراع داخل الميناء عندما وصلت إليه . والميناء بكامله ، تحميه من ناحية الغرب رأس بستانه ؛ ومن ناحية الشرق رُغْنٌ مماثل وجزيرة جشم ؛ ومن الناحية الشمالية توجد الأرض الفارسية الأم هى وجبالها ؛ والعاصفة الوحيدة التى يمكن أن تثير الاضطراب فى مياه ميناء لينجا لا تأتى إلا من الجنوب فقط .

ومدينة لينجا نفسها تقع بالقرب من حافة الماء الذى يفصلها عنه شاطئ ضيق من الرمال الجافة البيضاء . ومن هذا الشاطئ تبدأ الأرض فى الارتفاع إلى عشرين أو ثلاثين قدما ، مما يجعل المنازل فى مأمن من الرطوبة إلى حد بعيد ، ويجعلها تتمتع بتجدد هوائها من السهل الواسع الكبير الذى يوجد إلى الخلف منها . ومدينة لينجا القديمة ، وهذا هو الاسم الذى يطلقونه عليها - أى تلك المدينة التى كانت موجودة قبل انتقال حكمها المحلى من شيراز إلى عمان - عبارة عن مدينة صغيرة ومحكمة ، وتتسع لعدد يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف نسمة ، ونصف مساحة هذه المدينة عبارة عن أسواق ، ضيقة ولكنها أنيقة ومنظمة - كما تحتوى أيضا على مقاهى ومنشآت أخرى مماثلة ، علاوة أيضا على مسجد كبير أقيم بالقرب من شاطئ البحر . ومنازل المدينة القديمة مبنية بطريقة متينة ، وبعضها مبنى من الحجر والبعض الآخر من القرميد ، وهى مدهونة باللون الأبيض ؛ وشكل هذه المنازل حسن وعليه بعض النقوش الزينية ، وذلك من منظور شخصى وصل إلى هذه المدينة ، منذ فترة وجيزة ، قادما من قطر . والذوق الفارسى توحى به المنحوتات ، التى نراها على أبواب المنازل ، وعلى النوافذ والشرفات ، والعقود المدببة والمزدوجة فى معظم الأحيان ، والشُعْريّات الشبكية ، والمكونات الزينية من حول المتاريس والزوايا . وهذا الجزء من مدينة لينجا تحيط به أسوار منخفضة ، أو هكذا كانت فى يوم من الأيام ، والسبب فى ذلك أن هذا السور قد أنهار واختفى تماما ، فى أجزاء كثيرة من هذه المدينة .

واعتبارا من الفترة التى اتخذ خلالها السلطان سعيد مدينة لينجا مقرا له ، وحولها إلى ميناء حر ، معفى من كل أشكال الرسوم الجمركية ، باستثناء رسوم مينائية طفيفة ، بدأت أهمية لينجا تتزايد بشكل سريع كما تزايدت مساحتها فى

السنوات الأخيرة إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه أيام أن كانت تحت الحكم الفارسي السيئ ، وثمة سبب آخر من أسباب ازدهار مدينه لينجا ازدهارا حقيقيا ، يتمثل فى ذلك التسامح الحكيم ، الذى حل ، طبقا لمبادئ الإدارة العمانية ، محل التعصب وضيق الأفق الشعبى ، وجذب إلى مدينة لينجا كثيرا من السكان لا من البحرين وحدها وإنما من القطيف ومن الاحساء ، ومن البصرة ، وأيضا من بلوخرستان ، ومن لوديانه Loodianah ، ومن الهند ذاتها . ونتج عن ذلك ، أن المنازل الجديدة ، التى يوحى انشاؤها السريع ، بالرواج الذى حدث مؤخرا ، بدأت تنتشر فى أقصى الشرق وأقصى الغرب على طول الخليج ، أو تتجه إلى الخلف فى اتجاه الأرض الأم ، إلى حد أن الانتقال من طرف فى المدينة إلى الطرف الآخر أصبح يستغرق حوالى ساعة أو أكثر . ومقابل الحوض أو إن شئت فقل الهويس ، توجد صخرة عالية ، هى الصخرة الوحيدة الموجودة فى هذه المنطقة ؛ وعلى هذه الصخرة توجد قلعة وبرج قديم يبدو أنهما من العصور الوسيطة ، وهما خاليان الآن من القوات ؛ والسبب فى ذلك أن ثوينى يعتمد على الأسوار الخشبية بدلا من الأسوار الحجرية فى الدفاع عن موانئه البحرية . وفى أقصى الشرق ، يوجد قصر الحاكم العمانى ، ذلك الشاب الذى يبلغ من العمر عشرين عاما أو ما يقرب من ذلك ، واسمه سيف ، وهو من أهل باطنه ، وقصر الحاكم عبارة عن مربع كبير ، يصل ارتفاعه إلى أربعة طوابق ، ونوافذه من طراز القوس القوطى ، وتحتوى على كثير من الزينات الفارسية ؛ وقد ذكرنى الشكل العام لهذا القصر ببعض أسوار المدن القديمة فى القارة الأوربية وبخاصة فى كل من بلجيكا وبعض البلدان الأخرى . وعلى مبعدة من ذلك القصر توجد بعض أحواض السفن ، التى يجرى فيها إنشاء السفن على قدم وساق ؛ بعض هذه السفن من الحجم الكبير ، وتصل حمولتها طبقا لحسابات هذه البلاد ، إلى حوالى مائة وخمسين أو مائتى طن . والعاملون فى بناء السفن هم فى أغلب الأحيان من الهنود ، أو إن شئت فقل من نواحي بومباى . وعلى جانبى هذه المدينة ومن خلفها يوجد كثير من الحدائق الخضراء ، ولكن معظم هذه الحدائق للعرض وليس للإنتاج ، والسبب فى ذلك هو عدم خصوبة التربة ، وزيادة نسبة الأملاح فيها ، ولأنها تربة رملية فى المقام الأول ، فضلا عن أن شح الماء يجعل الرى مسألة صعبة . وبطبيعة الحال ، فإن لينجا ليس فيها عيون أو آبار كى تفخر وتتباهى بها ؛ والمصدر الرئيسى الذى تحصل منه لينجا على الماء ، يتمثل فى الخزانات الضخمة التى تتجمع فيها المياه التى تنتج عن سيول الشتاء ، والتى تصل من خلال مجارى السيول فى السهل ،

قادمة من الجبال البعيدة الموجودة فى الشمال ، لتصل إلى شاطئ البحر ، حيث يجرى تخزينها كي ينتفع الناس بها على مدار العام . وهذه الخزانات تكون دائرية فى أغلب الأحيان . ويتراوح قطرها بين ثلاثين وستين قدما ، كما يتراوح عمقها بين اثني عشر وعشرين قدما ، أو أكثر من ذلك فى بعض الأحيان ؛ وهذه الخزانات تحيط بها أسوار حجرية عالية ومن فوقها قباب للحفاظ على محتوياتها من الجفاف بفعل الشمس والرياح . ومن حول الحافة الداخلية للخزان توجد سلسلة من الأحجار العريضة تحت الماء ، برغم أن هذه الصخور لا توجد فى بعض الخزانات فى بعض الأحيان ، كي تساعد على رفع الماء ليصل إلى القبة ، ولا يمكن الحصول عليه إلا من خلال باب أو أبواب ، وعن طريق سلم يؤدي إلى قاع الخزان ، كما هو الحال فى الآبار المغطاة فى كل من الجزيرات ، وفى الهند ، بل وفى الشرق بصورة عامة ، وكل قبة فيها خمسة أبواب ، وذلك تيمنا بالشخصيات الخمسة العزيزة على الشيعة - على ، ومحمد (ليس محمد النبی المشهور ، وإنما هو ، إن صحت الرواية واحد من أبناء على) ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين - ومن هذه الأبواب يدخل أولئك الذين يأتون لجلب الماء ؛ ولا يستبعد أحد من الدخول إلى هذه القباب ، لجلب الماء ، ولا تُحصَلُ أية رسوم ، والمنفعة عامة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة - وبعض هذه الخزانات على شكل مستطيل ومغطاة بقبو إسطوانى ؛ وهذه الآبار المستطيلة ليس لها سوى باب واحد . والماء الذى فى هذه الآبار أفضل مما كنت أتوقع ؛ وربما كان للبطانة الجيرية فى هذه الآبار ، دخل فى نقاء مياهها .

يضاف إلى ذلك ، أن مدينة لينجا تعد واحدة من المدن كثيفة النشاط فى البر وفى البحر ؛ فهذه سفن تلقى مراسيها ، وتلك سفن ترفع مراسيها ، وهذه قطرات ، أو إن شئت فقل مراكب شراعية صغيرة وحيدة الصواري ، وتلك سكّونات ، مراكب شراعية نوات صاريين أو أكثر ، وهذه لغر ، مراكب شراعية نوات أشرعة رباعية الأضلاع أو أكثر ، وتلك قوارب ، وهذه سفن تجارية ، وتلك مراكب صيد ؛ وهؤلاء بحارة جاءوا من سواحل مختلفة ، ملابسهم مختلفة وملامحهم مختلفة أيضا ، ويتشابهون فى سميتهم التى لا يخطئها أحد ، شأنهم فى ذلك شأن النحاس الأحمر ، والفضة ، وكذلك الذهب عندما تدمغ كلها بالخاتم الذى يحمله رأس الملكة . وهذه بضاعة من شيراز ومن أصبهان ، وهذه بضاعة أيضا من السند ومن بومباي ، وتلك بضاعة من عمان ومن زنجبار وهذه بضاعة من الحيرة ومن خراسان . وهؤلاء من الفرس ، وأولئك من التتار ،

وهؤلاء من الهنود ، وأولئك من البلوش ، وهؤلاء عرب ، وأولئك عمانيون (نظرا لأن العمانيين يتميزون في الحديث العام عن العرب ، كما أن بلادهم تتميز أيضا عن سائر بلدان الجزيرة العربية : من هنا نجد أن مصطلح "عربي" يدل في عمان على شخص غريب ، كما أن أهل عمان يتحدثون عن السفر إلى الجزيرة العربية مثلما يتحدث المواطن الإنجليزي عن السفر إلى الدانمارك أو إلى أيرلنده) ، والزنوج يوجدون هنا بأعداد كبيرة ، قد تشاهد بين الحين والآخر ، سوريا ، أو أرمينيا ، أو مصريا ، علاوة على طائفة يهودية مزدهرة الحال ، هنا أكثر من البحرين ، كما نشاهد هنا أيضا أعدادا كبيرة من البحارنة ، الذين يفضلون حكم الثويني على حكم الخليفة . إن مدينة لينجا مثال طيب على مدن الشرق التجارية ، فضلا عن كونها أيضا مكانا ممتازا لدراسة رجال وسلوكيات نصف آسيا .

وينصرف يوسف يبحث عن مسكن لنا نحن الاثنين ، في حين بقيت أنا فترة من الوقت ، جالسا عند سفح البرج القديم المخرب الذي سبقت الإشارة إليه ، وأنا أتأمل المشهد الأول من الازدهار الحقيقي الذي لم أشهده منذ سنوات ، كما رحت أتأمل أيضا فضائل الحكومة التي ترضى لنفسها بمجرد تأمين الأمن والسلامة لرعاياها دون أن تتدخل في أحوالهم الاجتماعية أو شؤونهم الفردية ؛ أو إن شئت فقل جنون إتيان الكثير من الأعمال - التي من قبيل القواعد المنظمة ، الاحتكار ، المركزية ، الدين الحكومي ، التعليم الحكومي ، السيطرة الحكومية ، والوصاية ؛ أو باختصار المنظومة "الحمائية" - التي تتغلغل في كثير من البلدان ، شرقا وغربا ، كي تشمل حيوية الأمم وتعرقل تقدمها ، وتخرب رفاها الحقيقية ، ثم تتدخل في النهاية بأعمال الحلول الوسط في حياة هذه الأمم . وقد شاهدنا مثلا فريدا لذلك ، بالمقاييس العربية ، في نجد ، كما يمكن أن نقف على شيء مماثل في التاريخ الماضي والتاريخ المعاصر لكثير من الأمم نوات الأسماء الأكبر والمزاعم الأكبر من المزاعم العربية . في هذه الأمم بدلا من الطاقة غير المقيدة ، وبدلا من الحرية ذاتية النمو ، وبرغم وفرة النعم التي لديها ، نشاهد جيشا عاملا كبيرا ، وسكانا ينوء كاهلهم بالضرائب ، وعاصمة هائلة ، وأقاليم فقيرة ، وكثيرا من الزخارف والتباهي في أمة من العبيد ، أو تتحول بسرعة لتكون كذلك ؛ كما نشاهد أخيرا تناقص عدد السكان وانحلالهم الذي ينتهي إلى انهيار لا يؤسف عليه . ويجوز لنا أن ننقش على قبور كثير من الحكومات ، وعلى قبور كثير من السُّقَمَاء

الشعار الذى يقول : كان الحال على ما يرام ، ولكنى هنا للأحسن *Staca bene; ma per star meglio, sto qu ?* من الطبيعى أن يتكلم المنظرون عن الواجبات الأبوية ، وعن الحقوق المقدسة ، وعن بنية الحكومات ، ومن حق المنظرين أيضا أن يقارنوا الحكومات بالآباء ، وبالمدرسين ، وبالأله على الأرض ، وما إلى كل ذلك ، ألا يصح لنا أن نقول إن أول مهام الحكومة ، بل ومهمتها الوحيدة تتمثل فى القضاة ؛ أليست مهمة الحكومات الأساسية هى أن تضمن لرعاياها التمتع الهادئ بذلك الذى يسميه العرب بطريقة خاطئة " الأشياء الثلاثة الثمينة " ، وهى على وجه التحديد ، الحياة ، والعرض والمال^(١) ؟ والحكومات مسئولة أمام المحكومين عن هذه الأشياء الثلاثة؛ وفيما عدا ذلك ، يجب أن يترك للأفراد ، وللمجالس البلدية ، والقرى ، والمدن ، والاقطاعات ، والاقاليم ، حرية تنظيم شئونها على النحو الذى تراه مناسبا لها . والمثل الأسباني الصادق يقول : " الأحق يعرف الكثير عن منزله أكثر مما يعرفه العاقل عن منزل جاره " ؛ يضاف إلى ذلك أن البشر ، فى أغلب الأحيان ، يعطون أحلى ما عندهم إذا لم يتدخل أحد فى شئونهم . والمطلوب من الملوك ، والأباطرة ، ومن البرلمانات ومن الدول ، بغض النظر عن مسميات الحكم ، أن تبلغ من الرشد والحكمة مبلغا يمكنها من معرفة نفسها معرفة حقيقية – إن مهمة الحكومات هى أن تلعب دور القضاة فى البلاد ، ولا شئ غير ذلك ؛ والتعزيز مطلوب ، والتدخل مرفوض – ولكن النظام مطلوب ؛ يجب أن يكون الواقع شعارا للحكومات ، وهنا تربح جميع الأطراف ، ويتحولون إلى رابحين كبار .

وعلى أى حال ، فقد كان ذلك (من وجهة نظرى) ، وذلك باستثناء قلة قليلة من الحالات الشاذة ، هو حال الإدارة العمانية ، ولذلك فقد حظيت هذه الإدارة بالنتائج التى تستحقها ، ففى منطقة تصل مساحتها على وجه التقريب ، إلى نصف المساحة التى يحكمها الوهابى ، نجد أن عدد السكان يكاد يكون ضعف عدد سكان المنطقة الوهابية ، كما أن ثروة عمان ودخلها يقدران بعشرين ضعف من ثروة نجد ودخلها . وإذا كانت صفحات العمانيين لا تشتمل إلا على القليل من حملات الشجاعة العسكرية ، وإذا كان عدد أولئك الذين قتلوا فى ميدان الشرف قبل الأوان أقل من أمثالهم فى نجد ،

(١) إن ما يشير إليه المؤلف هو ما يعرف فى الإسلام بحفظ الضروريات الخمس وهى : حفظ الدين ، وحفظ النفس ، وحفظ العقل ، وحفظ العرض ، وحفظ المال ، وهى الأمور التى لا تستقيم الحياة إلا بالحفاظ عليها وصيانتها من كل اعتداء ، وقد شرع الإسلام من الحدود والزواج ما يحفظها من كل معتد عليها وهى : حد الردة ، وحد القصاص ، وحد شرب الخمر ، وحد الزنى والقذف ، وحد السرقة والحراة - (د. حلمى عبد المنعم) .

وإذا كان عدد الأحداث البراقة أو إن شئت فقل الدامية أقل من مثيلتها التي ترمز إلى السلطة المركزة في يد فرد واحد ، فإن ذلك يعطى ، في المقابل ، قرونا من العمل الجيد الهادئ ، ومدنا مزدهرة ، وأرضا كثيفة السكان ، وأمراء يحبهم رعاياهم ، ورعايا يتسبب أمراؤهم في ازدهارهم - وهذه الحقائق سوف تتأكد أكثر طوال استمرارنا في سرد وقائع هذه الرواية ، أو بالأحرى عندما نختتم هذه الرواية التي بدأت تتضاغل ؛ والسبب في ذلك أنني في محاولتي تلخيص التاريخ العماني في هذا الفصل وجدتني أقلد كتاب القضاة Judges ، الذي تقرأ فيه إن " الأرض التي استراحت أربعين عاما " ، تأخذ خطأ تصعب ملاحظته بين العصور ، لأنه يكون أوجز في واقع الأمر ، برغم أنه يكون أطول عند حكيه من جديد ، لأننا في هذا الحكى نقرأ بالتفصيل عن الصراع الذي دار بين كل من جيفثا Jephtha وأفرايم وعن الغزوات التي قام بها سياسيرا Sisera وميديان Midian .

الخاطر الثانى الذى فرض نفسه على وأنا أتأمل الأمور والأحوال عندما شاهدت ذلك البرج المهدم ، الذى كان معقلا لحامية مسلحة فى يوم من الأيام ، والذى ترك الآن فريسة للبلى والتحلل . التوسع فى استعدادات الدفاع العسكرية عبارة عن ترمومتر حقيقى ودقيق ، يسجل ويقيس ضعف هؤلاء الذين يقومون بمثل هذه الاستعدادات ؛ التحصينات هى التى تخون وهن الحكومات الفطرى والحقيقى ، شأنها فى ذلك شأن العكاز الذى يوحى بوهن الساقين والرجلين . وفى الأمم التى تفتقر إلى الطاقة والشعور الوطنى ، نجد أن الأعمال المادية التى من قبيل الإنشاءات الحجرية والمنشآت القرميدية تحل محل هذه الطاقة وذلك الشعور الوطنى ؛ فى مثل هذه الأمم نجد أن راتب الجندى يكون فى أغلب الأحيان دليلا على فتور شعور المواطن ، وإشارة إلى أن الحكومة نفسها ليست وطنية ، أو علامة على تضخم الحكومة وإهمالها لأمتها . وهذا لا يعنى أننا يجب أن نغفل أو أن نتغافل عن كل هذه الأمور كلية ؛ وهذا لا يعنى التسطح والسطحية إذا ما احتفظنا بمثل هذه الأمور لتكون فى إطار الحدود المناسبة ، إذ أن ذلك يجنبنا المزيد من الشرور . ولكن إذا جاز لى أن استطرده فى الاستعارة السابقة (برغم أن مقصدي من ذلك هو الوصف وليس الإثبات ، كما يقول برايور Prior) فإننى أقول : إن العكاز شئ مختلف تماما عن الساق الخشبية ؛ والرحالة ، قد يفعل خيرا إذا ما حمل معه طوقا محملا بالمسدسات يلفه حول خصره ؛ ولكن ما رأينا فى بلد يتحتم على كل واحد فيه أن يتمنطق بمثل هذا الطوق حتى عندما يكون جالسا إلى جوار المدفأة فى منزله الخاص ؟

ولكنى أتطلع أنا والقارئ - بعد أن قرأ هذه التعميمات ، إلى مجيئ يوسف ومعه أخبار المسكن وطعام الإفطار ، وهاهو يوسف قادم من حسن حظنا ، ولكنه لا يسير وحده ؛ ومعه صبي أفطس الأنف ، غليظ الشفتين ، حلو الطبع ، تدل يديه المتسختين ، وثيابه المملوطة بالسناج على أنه حداد . دعيج ، وهذا هو اسم ذلك الصبي (وهو يتطابق مع اسم دوئيغ Doeg فى زمن سيدنا داود (عليه السلام) ، ولعل القارئ يرى أن اختلاف الشرق عن الغرب طفيف جداً) من أبناء الاحساء ، ولكنه استقر هنا فى لينجا ، ليتعيش من مهنته الشريفة المربحة . ودعيج جاء ليقتراح علينا أن نسكن عنده ونقيم معه ، ولذلك فقد جاء بنفسه ليقدم لنا التحية ، ويدعونى لمرافقته إلى منزله الفلكانى^(١) . وكان منزل دعيج جيداً تماماً ، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا وضعه فى الحياة ؛ إذ كان المنزل يشتمل على عدة غرف ، تفتح كلها على حوش واسع ؛ وبالقرب من المدخل الرئيسى للمنزل ، كانت توجد ورشة الحدادة بمختلف أجزائها ، والسبب فى ذلك أن صناعة السفن التى كانت تجرى فى الأحواض القريبة من الورشة كانت تسند إليها كثيراً من الأعمال .

كان شقيقا دعيج يعيشان معه فى هذا المنزل ؛ يضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من البحارنة ، والعمانيين وما إلى ذلك كانوا يترددون على هذا المنزل ، ولكن الفرس لم يكونوا يترددون على هذا المنزل نظراً لأنهم يندر أن يخالطوا السكان العرب . وأمضينا ثلاثة أيام فى منزل دعيج ونحن ننتظر هبوب ريح مواتية تنقلنا إلى الشارقة . ولم يكن هناك مبرر أو ضرورة تجعلنا نزور سيف ، حاكم المدينة ، ولينجا مدينة تجارية ، وميناء بحرى قلباً وقالبا من العالم الكبير الذى يفد إليه ويخرج منه منفرداً ، ولا يبحث فيه أحد عن التعرف إلى الآخرين ، اللهم إلا إذا كان ذلك من أجل سبب أو مصلحة خاصة . وفى دوائر الجزيرة العربية المسحورة ، التى يستمر الرقص فيها منذ أربعة آلاف سنة على أقل تقدير ، داخل دائرة السحر نفسها ، بحيث لا يخرج منها ولا يتخطى حدودها ، أو يسمح حتى بتوسيع تلك الدائرة كى تسمح بدخول بعض الإجراءات الأجنبية ؛ فى هذه الدوائر نجد أن الرؤساء ، والسلاطين ، والحكام ، ودونات " الأرض الآخرين ، لا يمكن المرور عليهم دون أن نلقى عليهم التحية ، ودون أن

(١) فُلْكان : هو إله النار وصانع الأدوات المعدنية عند الرومان ، والتشبيه هنا جميل لأن دعيج يعمل حداداً ويصنع الأنوات الحديدية - (المترجم) .

يسبغوا على من ألقى التحية الدلائل التي توحى بعظمتهم على شكل كرم ؛ وهذا العمل بحد ذاته عمل " أبوى " أكثر منه إجراء شبيها بإجراءات رجال المال والأعمال . ذات مرة وخارج نطاق هذه الدائرة السحرية ، ركبنا ، مثل الآخرين ، من هذا العالم ، الذى يحمل كل إنسان على السير فى الخط الذى سار عليه سواء أكان مستقيما أم منحنيا ، ولكن ذلك الخط لا يختلط بخطوط أولئك الذين يجاورونه ، إلا إذا جمعتهم المتعة والريح إلى بعضهم فترة معينة . والواقع أن الرحالة إذا ما قام بزيارة حاكم لينجا بدون سبب وجيه أو خاص ، فإنه سيصبح مثل ذلك الذى يزور عمدة لندن لأنه تصادف أن سكن مدة ثلاثة أيام فى فليت ستريت Fleetstreet .

ولينجا مكان جميل بمنازلها البيضاء التى تنتشر على طول الشاطئ المفتوح ، الذى تظله أشجار النخيل ، والذى يضيف عليه جده رشاقة فى بعض الأحيان - أسواقها المزدحمة - والقباب الكبيرة المتلائة التى تغطى خزانات المياه ، وصفوف الصبايا اللاتى تحملن جرائهن ومنهن الغاديات والرائحات - والورش الخاصة بمصنوعات سعف النخيل - وأحواض السفن التى تسمع فيها ضربات المطارق ، والتى تفوح منها رائحة بخار الزيت والقار - والقوراب التى تصطف على الشاطئ البراق - وهوائها النقى وشمسها الساطعة . وفيما يتعلق بنا ، فقد أمضينا وقتنا نتجول فى المدينة ، ونتحدث إلى بناء السفن ومع التجار ، وفى زيارة القرى أو بالأحرى ضواحي لينجا ، والسبب فى ذلك أن الوادى ، فى لينجا ، يزدحم بالسكان ، إذا ما أخذنا فى اعتبارنا مسألة افتقار لينجا إلى العيون المائية أو المجارى المائية الدائمة - وأنا أستطيع تعليل ذلك الافتقار إلى العيون المائية ، نظرا لأن جبال فارس العالية تبعد مسيرة نصف يوم نحو الداخل، يضاف إلى ذلك أن الأمطار الموسمية هنا غزيرة جدا . وربما تكون التربة الخفيفة هنا هى التى تتشرب المياه التى تنساب عليها من الأراضي المرتفعة . ومن على شاطئ البحر ، نستطيع أن نرى ، عبر الأمواج فى اتجاه الجنوب الشرقى مرتفعات جشم فوق مدينة باسيدوع Basido ، ونرى بعيدا عنها الشكل الخارجى لمدينة رأس مسندم ، وهذا المنظر الجميل ، الذى يسر خاطر ، يقول : إننا وصلنا إلى مصب الخليج . ومن بين الجولات التى قمنا بها أيضا تلك الجولة التى تجولنا خلالها فى سوق المدينة وتعرفنا خلالها على البضاعة المعروضة للبيع : السجاد العجمى بكل مقاساته ، وأشكاله ، وألوانه ، ورخص ثمنه وتوفره بأعداد كبيرة ؛ والمشالح المنسوجة ، والثياب المصنوعة فى خراسان ؛ وتوفر الأسلحة المصنوعة فى لينجا ،

والأواني الزجاجية ، والأواني الفخارية ومثيلاتها من الصناعة الأوروبية والأمريكية ،
والتي جاءت عن طريق الهند ، وقبل كل ذلك كانت هناك الأقمشة الإنجليزية ، والكتان
الإنجليزي ، مختلطا بالمصنوعات الثانية Tanna ، تلك المدينة القريبة من بومباي ؛
وشاهدنا أيضا مستلزمات الثياب العربية التي جاءت من عمان ومن الأحساء ؛
وشاهدنا أيضا المصنوعات النحاسية التي جاءت من بغداد ؛ وشاهدنا الأحزمة التي
جاءت من طرابلس ؛ وشاهدنا أيضا الأرز ، والنيلة ، والتوابل ، والبن ، والعقاقير
المغشوشة ، والثمار المجففة ... الخ ؛ وهذه الأشياء تغري المشتري ، وتفيد البائع .
والزحام في هذه الخلية البشرية يشبه إلى حد ما زحام بابل . وعلى كل حال ، فإن
النظام والأمن يسودان في الحضر وفي الريف ؛ وفرس الساحل ، إذا ما تركوا لحال
سبيلهم ، يتحولون إلى عرق هادئ تماما ؛ وبرغم أن الحكومة أجنبية إلا أنها تحظى
بشعبية بين الجميع .

وبيئنا كنا في لينجا وصل إليها وفد من شيراز لإجراء مفاوضات بشأن إنشاء
جمرك فارسي في الميناء . وجاءت مناسبة هذه السفارة غير المرغوب فيها بمثابة شيء
غريب تماما . إذ كان حاكم شيراز ، قد أرسل قبل ستة أشهر ، مطالبه ببعض
متأخرات الجزية المقررة ، التي يقول حاكم شيراز ، إن السلطات العمانية قد امتنعت
عن إرسالها . وأنكر سيف أيضا هذه المطالبة ، وأعاد الوفد إلى شيراز خالي الوفاض .
وتلى ذلك تلويح شيراز بالثأر والانتقام . وعندما وصلت الأمور إلى هذا الحد ، قام
اثنان من أثرياء تجار لينجا ، واللذان كانا حاضرين ضمن مجلس سيف ، قاما بإبلاغ
زملائهم التجار بذلك الخطر المحدق . وبناء على ذلك ، عقد أعيان مدينة لينجا اجتماعا ،
وافقوا فيه على أن يدفعوا المبلغ المطلوب من أموالهم الخاصة ، بشرط أن تقوم شيراز
بسحب هذا الإنذار الرسمي . وتحددت حصة كل واحد من هؤلاء التجار ، وأعدت قائمة
بذلك ، وتم جمع المبلغ المطلوب ، وأرسل التجار مبعوثا إلى أصدقائهم في شيراز كي
يتوسطوا لهم عند حاكم المدينة الفارسي وأن يبلغوه أن مطالبه سوف تتحقق ، على أن
يتتركهم ينعمون بالسلام والهدوء . ولكن سيف عندما علم بذلك ، استدعى أهل المدينة
ليمثلوا أمامه ، وأبلغهم أنه لن يوافق أو يسمح بذلك بأي إجراء من هذا القبيل ، وأن
المبلغ ، إن قدر له أن يُدفع ، فلا بد أن يدفع من خزانة الحكومة ، وليس من أموال
الناس الخاصة ؛ وبذلك يكون سيف قد عارض إرسال المبلغ المطلوب . وانتظر الفرس فترة
من الوقت على أمل أن يصلهم شيء من سيف أو من رعاياه ، ولكن انتظارهم باء بالفشل ؛

وهنا ينطبق مثل المقعدين القديم والنتائج السيئة التي ترتبت عليهما . وعلى كل حال ، فإن الفرس كانوا مصرين على عدم الخروج من اللعبة بمثل هذه البساطة ؛ واستهدافا من الفرس لستر ثوب الابتزاز بإضفاء لون جديد عليه ، تفاضوا عن مسألة الجزية ، وطالبوا بدلا من ذلك بإعادة إنشاء المنظومة الجمركية القديمة ، لصالح الخزانة في شیراز ، ولكن سيفاً ومستشاريه لم يكونوا ميالين إلى الموافقة على ذلك أيضا ؛ وحدثت بعد ذلك تغييرات وأنا لا أعرف كيف انتهت هذه المشكلة ، لأننا غادرنا لينجا قبل إنهائها . وأنا هنا أجد أن من المفيد إضافة ملاحظة هنا مفادها ، أن هذا الشريط الساحلي برغم ضمه إلى عمان وبرغم أنه ظل تحت الحكم العماني ثلاثين عاما تقريبا ، إلا أن البلاط الفارسي لا يزال يؤكد أن له شكلاً من أشكال السلطة العامة على الأراضي التي كان غير قادر على الدفاع عنها؛ في حين ترى مملكة عمان، من جانبها ، الحفاظ على وجود تفاهم قوى بينها وبين طهران يحول دون رفض مطالب طهران ويمنع تدخلها من حين لآخر في الشؤون العمانية . ومن ثم يتم في مثل هذه الحالات اللجوء إلى الحلول الوسط ، والالتزام بها - بمعنى ، طوال فترة تواجد المبعوثين الفارسيين ، كانت الأحداث التي من هذا القبيل ، هي والحديث الكثير الذي دار عن تجارة الهند وتجارة خراسان ، والاستيراد والتصدير، والشحن البحري ، والمغامرات البحرية بمثابة المادة الرئيسية في كل الأحاديث التي سمعناها في لينجا أو شاركنا فيها. وفي الشرق، حيث يتم النقل والاتصالات البرية عن طريق الإبل بطيئة الخطى ، وحيث تنتقل أخبار البحر عن طريق الرياح المواتية ، فإن عشرة أميال في الشرق تساوي مائة ميل في أوروبا بسبب المسافات التي بين المواقع المختلفة ، كما أن المائة ميل في الشرق تساوي ألف ميل أو أكثر في أوروبا . من هنا أرجو ألا يتعجب القارئ إذا ما قلت إننا لم نسمع على هذا الشاطئ شيئا عن نجد أو عن شومر أكثر مما لو كنا في جلوسستر شاير - Gloucester shire - بل وربما أقل من ذلك . والسبب في ذلك ، أن الصحف موجودة فعلا في جلوسستر شاير، ولكنها ليست موجودة في لينجا . يضاف إلى ذلك ، أن نشاط المال والأعمال الحالي، والشراء والبيع ، والتهريب، يشغل بال الناس جميعا ، ولا يترك للفضول الأجنبي . زد على ذلك ، أن المسجد برغم كبر حجمه وأناقته ، وكذلك المباني الأخرى في المدينة ، لا تسترعى اهتمام الناس . بل إن المناظر في المناطق المحيطة بالمدينة والمجاورة لها تكاد تكون مألوفة تماما برغم أن سلاسل الجبال تشكل ، عن بعد ، إطارا خارجيا أزرق جميلا ، ولكنه يوحى بالجفاف . وأنا لم أندم مطلقا على

الأيام الثلاثة التي كنت أنتظر خلالها هبوب ربح مواتية ، إلى أن هبت فى اليوم الرابع عاصفة من الربح الشمالية ، حضر على إثرها ربان المركب إلى مسكننا ليعرض علينا السفر على مركبه المتجه إلى الشارقة ، وأن سفينته جاهزة للإقلاع .

والأغنام ، من بين السلع التى يجرى نقلها فى لينجا ، وهى تنقل بأعداد كبيرة من إيران إلى عمان ، التى يندر فيها وجود المراعى ، وأن ما يوجد منها يخصص لتربية الذلول . وهذا هو عباس ، تاجر الأغنام الذى جاء من الشارقة وتربطه قرابة مع الاحساء من خلال جده السابع ، يشحن مجموعه من الأغنام يصل عددها إلى حوالى مائتى رأس بهدف الاتجار فيها . وإلى جانب عباس كانت هناك مجموعة أخرى من الأصدقاء ، جاءوا من الشارقة أيضا ؛ وكان عباس صاحب قلب كبير عامر بالحب ، بمعنى أنه كان عمانيا خالصا ، والواقع ، أننا واجهنا مشقة كبيرة عندما حاولنا منعه من أن يدفع عنا أجرة انتقالنا إلى ربان المركب .

وفى اليوم السادس عشر من الشهر أبحرت السفينة بعد دخول وقت الظهر بفترة وجيزة ، وكان بصحبتنا بعض من سكان جزيرة جشم ، أولئك الرجال الذين يلوذون بالصمت ولا يتواصلون مع الغير ، وقد لفوا أنفسهم بثياب فارسية سميكة ؛ وكان طاقم السفينة كله من الزنوج ، كما كان من بين المسافرين إلى الشارقة ذلك القصاب ، الذى يشهر سكينه تحسبا لما يمكن أن يصيب الأغنام . كانت الربح عالية وسرعان ما تركنا الميناء وبدأنا نمخر عباب الخليج . وأثناء الليل تغير هبوب الربح إلى ناحية الشرق ، وهاج البحر وماج ، ونظرا لأن الأغنام كانت محصورة فى عنبر المركب الذى كان يضيق بها ، فقد مات منها حوالى عشرين رأسا وكان لابد من التخلص منها عن طريق رميها فى البحر . وعند طلوع الفجر كنا قد بعدنا تماما عن جزيرة أبو موسى الصخرية (التى يختصر اسمها على كثير من الخرائط إلى أبى موسى وهذا مثال واضح على ما يعتور الكلمات العربية من تغيير على السنة ربابنة البحر الإنجليز) ، وهنا تقرر أن تلقى مركبنا مراسيها ، نظرا لارتفاع الموج ، إضافة إلى أن مواصلة الرحلة يعنى نفوق المزيد من الأغنام . وبحثنا عن خليج صغير ، ألقينا فيه مراسينا انتظارا لتحسن الطقس ؛ وأنزلنا الأغنام إلى الشاطئ ، كى تنعم بشئ من الحرية المؤقتة ، وتأكل من المرعى الموجود على الجزيرة .

وجزيرة أبى موسى عبارة عن قمة مخروطية يتردد ارتفاعها بين خمسة وستة آلاف قدم ، يوحى مظهرها وشكلها بأنها من الصخور البركانية ، وسلسلة من الصخور البازلتية ، أما بقية الجزيرة فهي عبارة عن مرتفعات ومنخفضات تغطيها الحشائش وأشجار الأراك ؛ ويصل طول هذه الجزيرة إلى حوالى خمسة أميال ، ويتراوح عرضها بين ميلين وثلاثة أميال ، وفى الطرف الجنوبى الغربى من هذه الجزيرة توجد بعض آبار المياه المالحة ؛ من هنا فإن جزيرة أبى موسى تعد ملجأ وملأذا مستمرا ، ومقاما مؤقتا تلوذ به أطقم السفن فى ظل الظروف التى نحن فيها الآن ، ومع ذلك فإن السكان الرئيسيين فى هذه الجزيرة هم الأوز البرى والأرانب الأوروبية . يضاف إلى ذلك ، أن جزيرة أبى موسى ، تعد فى فصل الشتاء مرعى إضافيا ترعى فيه خيول وإبل خالد بن صقر ، حاكم الشارقة ، الذى يرسل ، فى معظم الأحيان ، إلى جزيرة أبى موسى ، جزءا من ثروته الحيوانية كى ترعى هناك طيلة شهرين أو ثلاثة أشهر . وعندما وصلنا إلى أبى موسى ، كان يوجد عليها بالفعل عشرين جواداً من خيول خالد بن صقر ، كانت تتجول فى أنحاء السهل عند سفح الجبل ، فى حين كان هناك العديد من إبل الذلول التى كانت تتجول هنا وهناك بلا أية ضوابط أو قيود . وكان يرافق هذه الحيوانات ، حوالى نصف دزينة أو أكثر من الرعاة والخيالة ، بصفتهم حرسا ورعاة لهذه الحيوانات؛ كما كانت هناك أيضا سفينة صيد عمانية صغيرة من طراز السماك ، اضطرت مثلنا إلى اللجوء إلى جزيرة أبى موسى ، نظرا لارتفاع الموج ، وكانت ترسو فى خليج آخر بعيد عن الخليج الذى رست فيه سفينتنا . والجانب الشرقى من الجزيرة ، الذى رست عليه سفينتنا ، فيه الكثير من الخلجان التى يمكن اللجوء إليها ؛ ولكن الجانب الغربى من الجزيرة وعرة وتكتنفه الصخور ، وتتكرر عليه الأمواج الآن على شكل زبد أبيض . وعلى مرمى البصر فى البحر وفى اتجاه الجنوب الغربى نستطيع أن نرى صخورا رائعة الجمال قليلة الظلمة تتبع جزيرة صير Seer ، تلك الجزيرة التى تقع فى خليج اللؤلؤ .

وقد أحدثت وحدة هذا المكان النسبية ، تأثيرا كبيرا فى خيال رفيقى يوسف ، الذى لم يتعود على هذا النوع من العزلة ؛ وأبدى ملاحظة ، بضحكة تنم عن الحزن قائلا : "لو قدر لكل أصدقائنا الموجودين على البر أن يخمّنوا المكان الذى نحن فيه الآن ، فهل يخطر ببال أحد منهم أننا فى جزيرة أبى موسى ؟" أبدى يوسف هذه الملاحظة وهو يقف على الشاطئ ؛ والسبب فى ذلك ، أننا بعد أن اكتشفنا أن مقامنا قد يطول على الجزيرة ،

اتفقنا بعد أن تشاورنا على أن نسبح إلى البر ؛ بعد أن نبحر بمركبنا إلى أقرب مسافة من الشاطئ ، والتي لا يفيد عندها استعمال القارب الملحق الذى يسميه الناس هنا جاليبوت ، محدثين بذلك تغييرا طفيفا فى تسميته الإنجليزية . وهذا التغيير لا يقتصر على هذا الاسم وإنما ينصرف أيضا إلى بعض الأسماء الأخرى ، فشراع السارية الأمامية الذى يقال له Jib-Sail بالإنجليزية يقولون له "جيب" Djeeb ، والصارى الرئيسى الذى يقول له الإنجليز Main mast يقولون له : ميانة ، والشراعية ذات الصارين التى يقول لها الإنجليز Brig يسمونها Brek ... الخ هذه الأسماء . وحملنا على رؤوسنا الأشياء التى تخصنا ، فهذا واحد يحمل على رأسه سجادة ، وآخر يحمل دلال القهوة ، وذاك ثالث يحمل أوانى الطهى ... الخ إلى أن أصبح ما نحمله يكفى لإقامة مخيم برى على الشاطئ المقابل للسفن . أما نحن : أى أنا ويوسف ، والعمانيين ، الذين غالبيتهم من السباحين المهرة ويتمتعون بهذا النوع من المرح فقد وافقنا على السباحة ، ولكن فيما يخص رفاقنا المتجهمين الذين جاؤا من جزيرة جشم ولا يستطيعون السباحة أو بالأحرى رفضوا أن يسبحوا ، فقد خلفناهم وراغنا كي يحرسوا السفينة من القراصنة ولصوص البحار .

واتخذنا من أبى موسى مقرا لنا على امتداد يومين ، انتظرنا خلالهما أن تهدهدنا الريح ، التى أصبحت مواتية الآن ولكنها شديدة جدا ولتمضية الوقت ، رحنا نتسلق الصخور ، وتصادقنا مع الرعاة والصيادين ، الذين كانوا يتشوقون مثلنا إلى من يبادلهم الحديث ، كما استكشفنا الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ؛ فى حين راح يوسف ، الذى لم يكن يعرف أن كل ما يلمع ليس ذهباً ، يجمع قطعاً كبيرة من السَّبَّار^(١) ، الذى يوجد هنا بكميات كبيرة ، ظنا منه أن هذه القطع من الأشياء الثمينة جداً . بل ، إن اعتدال الطقس ، برغم أننا كنا فى منتصف فبراير ، شجعنا على معاودة السباحة ، مع أننا لم نكن نتوقع أن الفرصة ستسنىح لنا خلال أسابيع قليلة ، بتكرار هذه المحاولة .

" يا للعجب لقد أمضى ثالبا Thalaba أياما حلوة ، فى مجتمع عامر بالحب ، ووسط أشكال متباينة من التسلية والترفيه ! وفيما يخصنى ، لم يكن لدى ما أفعله هنا ، على الصعيد الطبى أو غير الطبى ، وكنت أشعر بسعادة بالغة وأنا أسمع زئير الأمواج

(١) السَّبَّار : بتشديد السين والياء ، معدن لَمَّاع ينقشر بسهولة إلى رقائق - (المترجم) .

وهي تتكسر معلنة ، بين ساعة وأخرى ، استحالة مغادرتنا لهذه الجزيرة العربية . وعلى كل حال ، فإن كل ما هو على الأرض ، وكل ما هو على البحر لابد أن تكون له نهاية ، وفي مساء اليوم السادس عشر من شهر فبراير ، هداً البحر وتحول إلى أمواج مترققة ، يعلوها نسيم غربي ، وسحبت الأغنام والرجال إلى الساطعة مرة أخرى ، وقبل غروب الشمس بدأت أبو موسى تختفي عن أنظارنا ، وربما إلى الأبد ، من منظورنا الشخصي . وهنا ، يتعين على القارئ بل ، علينا جميعاً أن ننال بضع ساعات من الراحة والنوم الهادئ قبل أن ندخل إلى مشاهد جديدة وأقاليم جديدة أيضاً .

الفصل السادس عشر

سواحل عُمان

نعم ، أنا أذكر جيداً
أرض التلُّونات الكثيرة
التي مفاتنتها هي كل ما يقوله الثناء
ثناء من ذا الذى يرفضه القلب ؟
سامية ، ولكنها مكشوفة أو جرداء ،
وليست ضبابية الجبال هناك ؛
سامية فى رقة ، وجميلة بعمق ،
مكسوة بالخضرة حتى قممها ،
ومثمرة مثل الوديان التى بينها ،
تتسامق فى خفة
وتطاول السماوات ،
والبيارات والبساتين تستمر فى الزيادة ؛
لأنه حيث لا توجد البادرات
هناك الآخر الذى يضرب الجذور
القمم رفوف ومحاطة بالشرقات .
هـ - تيلور

الوصول إلى الشارقة - خور الشارقة أو ميناؤها - نظرة مركزية على الساحل
وعلى المدينة - ياقوب الإنجليزى العميل المعادى للاستعباد - تأملات - مدينة
الشارقة - الأعراف العمانية - المسجد - ميول الناس - تجارة الشارقة - المعادن فى

عمان - الكرم - خالد بن صقر وحاشيته - القيسارية والسوق - بقية المدينة - القلعة والبرج - رحلة إلى الداخل - المنظر في اتجاه جبل عقدة - ضبيع - قصة بحرية ونجاة غريبة - الإقلاع على سفينة من السوق إلى صوحار - طاقم السفينة والمسافرين - الساحل وقراه - رأس الخيمة - ساحل الجبل ورؤوس الجبال - أغاني المراكب العمانية - زيارة شاعام وخبب - طبيعة السكان - أسيعيد - مطوط - رأس مسندم وصخور سلامة - عاصفة - لارج - وصولنا إلى هرمز - الجزيرة - القلعة البرتغالية - برج فاروس - أسباب ازدهار واندحار هرمز - مزيد من التفاصيل عن الجزيرة - أسماك القرش - معنى كلمة "أوال" - اللغة المختلطة المنطوقة - المرور على رأس مسندم - روبة - ليمة - شخص حقير - ميناء ليمة - المناظر الطبيعية والقرية - مخاوف السكان - معبد - خليج ظبي - قلحاط - قطع اللحي - الباطنة - طبيعتها وإنتاجها - الفجيرة - شيناز - آثار الحرب - فرقة - الأبرار في صوحار - حاكمها فخار - مضيفنا عيسى - منزله - العمارة المنزلية في عمان - الظروف الحقيقية للباطنة - الشرطة - قلعه صوحار - الحامية البلوشية - القيسارية والسوق - السكان - البساتين - الأعراف المنزلية والكرم - الميول العامة للناس - مأوه - ميناء ومسمك صوحار - الإبحار إلى مسقط .

في صبيحة اليوم السادس عشر من شهر فبراير من العام ١٨٦٣ الميلادي ، شاهدنا الساحل العماني المحصور بين أبي ظبي ودبي ، وهو طويل ومنخفض، ورملي ، ولكن تتخلله بيارات النخيل والقرى التي كانت تتناثر على طول الشاطئ المتلألئ ، وشاهدنا من بعد أيضا قمم البريمة أو إن شئت فقل جبل عقدة وهي ترتفع مثل السحاب ؛ وفي يوم صافٍ آخر شاهدنا قمم رؤوس الجبال ، هي ورأس مسندم . كنا قد يمينا مسيرنا صوب الشارقة ؛ وبعد شئ من الف وتغيير الاتجاه استطعنا الوصول إلى مدخل ميناء الشارقة أو إن شئت فقل خورها، وهو عبارة عن خليج ضيق، ينفتح على البحر على شكل زوايا قائمة ، ثم يتجه بعد حوالي أربعين ياردة ، بزاوية حادة صوب الداخل ، موازيا للمحيط الذي تفرع منه ، ليمتد بعد ذلك إلى مسافة فرسخ أو ما يزيد على ذلك ، وذلك على غرار الخط الذي يسلكه نهر ياري متجها من جورلستون إلى يارموث - ولكن وجه الشبه يتوقف عند هذا الحد . وعند مدخل الميناء توجد عقبة يحتاج تجاوزها إلى الخبرة والتجربة ؛ والمنطقة فيما وراء الماء هادئة تماما ، وليست عميقة تماما ؛ وهي تناسب ، في واقع الأمر ، قوارب الصيد ، والأطواف التي تسير بحذاء الشاطئ ، ولكن السفن الكبيرة لا تجد ذلك الذي تستعين به على الطفو .

والشارجة Sharjah (بمعنى "الشارقة" Sharkah ؛ ولكن حرف الـ لهو خطأ في نطق القاف K. ، وقد ترسخ هذا الخطأ في الاسم ، إلى الحد الذي أعجز معه على التدخل في تدوينه بطريقتي ، وسوف أكتفى هنا بأننى لاحظت هذا الخطأ وحسب) تقع إلى الخلف من الخور مباشرة ، والمدينة مسورة ، ولكن أسوارها ليست من النوع القوي ، من ناحية البر ؛ أما من ناحية البحر ، أو إن شئت فقل من ناحية الخليج ، فالمدينة مفتوحة وبلا أسوار . وفى مقابل العقبة مباشرة توجد قلعة صغيرة محكمة ، يقيم فيها خالد ؛ ومدينة الشارقة القديمة مكونة أصلاً من منازل مبنية من القرميد أو الحجر ؛ فى حين تمتد على طول الشاطئ صفوف لا حصر لها من الأكواخ التى صنعها أصحابها من الخشب وسعف النخيل ، ويسكنها بصفة أساسية الصيادون ، والبحارة ، ومن فى حكمهم ، و صفوف هذه الأكواخ تمتد فى اتجاه الشمال ، لتشكل مع مدينة الشارقة نفسها مساحة إجمالية تكاد تزيد على مساحة لينجا بحوالى الثلث . وإجمالى سكان المدينة يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف نسمة .

واستطعنا " تجاوز حاجز الميناء " ، ودخلنا الخور ، ثم نزلنا إلى البر بمساعدة أحد القوارب ، أحضره واحد من معارف عباس لخدمتنا ، وقد شاهدنا هذا العباس ، ونحن على ظهر المركب وتبادلنا معه التحية . وعند هذه اللحظة مرق من جانبنا يخت بريطانى الصنع ، وراح يتراقص عند كاسرات الأمواج عند مدخل الميناء فى الجهة الشمالية . وعلى ظهر هذا اليخت كان يجلس رجل متين فى مقتبل العمر ، يرتدى الملابس البغدادية، وقد تعرفت فى وجهه ، عندما مر اليخت بجانبنا ، الملامح الأرمينية . وعندما سألت عن شخصية فرد يختلف عن بقية أولئك الذين يحيطون به ، أجابونى أن ذلك هو ياقوب ، الممثل البريطانى فى الشارقة ، للقضاء على تجارة الرقيق ، وأنه ربما يكون الآن فى طريقه لزيارة واحدة من زوجاته الكثيرات الموجودات فى قرية مفراز Mefraz الساحلية التى تبعد عدة أميال قليلة ؛ والسبب فى ذلك أن ياقوب كان يتمتع بخليط كبير ومتنوع من السعادة المنزلية ، إذ كانت له زوجة فى الشارقة ، وأخرى فى مفراز ، وخيارات أخرى فى أماكن أخرى .

ودارت بخاطرى فكرة مفادها أن أهل بلدى ينبغى أن يجدوا وسيلة أفضل يستغلون فيها أموالهم بدلا من أن يملأوا بها جيوب مثل هذا الرجل " ؛ وقد شعرت بسعادة بالغة فى ذات الوقت لذلك الحظ السعيد الذى أبعد هذا الرجل عن مدينة

الشارقة فى نفس اللحظة التى دخلتها ، والسبب فى ذلك ، أن عينين متمرستين مثل
عينى ياقوب يستحيل أن تفشل فى كشف أمرى خلال يوم أو اثنين على أكثر تقدير ؛
فى حين كنت أنا ، على النقيض من ذلك ، أود الحفاظ على تنكرى بكل ما أوتيت من
قوة . وليس معنى ذلك ، أن انكشاف أمرى فى عمان كان سيعرضنى لأى شكل من
أشكال المخاطر ؛ وإنما كل ما فى الأمر هو أن ذلك سيحرمنى من حرية التواصل
والحركة التى أنا عليها الآن . وفيما يخص ياقوب نفسه فقد سمعت عنه الكثير ، برغم
أن ارتباطاته المنزلية عطلته فى مفران إلى ما بعد رحلى عن الشارقة . فقد اقتنعت من
اسمه ، ومن قسّمات وجهه ، ومن سلوكه أنه لابد أن يكون من أصل أرمينى ، وبالتالي
لابد أن يكون مسيحياً فى الأساس ، برغم أنه ينتحل هنا صفة واحد من أتباع محمد
(مسلم) ، ومن المؤكد أنه أراد أن يؤكد ذلك فأخذ بمبدأ التعدد فى الزوجات ؛ وأنا
أعتقد أن البصرة ، هى بلده الأصلية . وتتمثل مهمته الأصلية فى منع استيراد وتصدير
العبيد . ولكن ياقوب ، وهو يحتفظ لنفسه بالمال الذى أعطى له لينفق فى أغراض
الإحسان ، يرى أن من الحكمة ، ولأسباب كثيرة ، أن يبقى على صداقته مع جميع
الأطراف ؛ من هنا ، فهو يبلغ تجار الرقيق - لا بعبارات فيها لبث أو غموض ، وإنما
بعبارات عربية واضحة ومحددة - أنهم إذا باعوا الرقيق أو اشتروه فى الأسواق
العامة، فإن ذلك سوف يدفعه بالضرورة إلى التدخل فيما يصنعون ، أو بالأحرى فإن
مرؤسيه قد يتدخلون معه ليساندوه . وأنهم إذا ما مارسوا هذه التجارة فى أى مكان
آخر - المنازل الخاصة على سبيل المثال ، أو الأماكن المستترة ، التى لا يكون مطلوباً
منه مراقبتها - فإنهم يجب أن يتأكدوا أنه سوف يتظاهر بأنه لا يدري شيئاً عن ذلك ،
وإلا يخشوا أو يخافوا أى شئ من جانبه . وهذا السلوك الملزم يقابل بطبيعة الحال
بنفحات مناسبة ، وهو ما يؤدى إلى زيادة اليقين والتأكيد ؛ ومن هنا يحقق ياقوب
مكسباً مزدوجاً ، كما يواصل التجار أعمالهم بصورة منتظمة ومربحة ، برغم وجود
ممثّل بريطانيا العظمى فى الشارقة .

وهل يحق لى أن أضيف هنا ، أنه من أجل عيون بريطانيا ، فإنها إما أن تتخلى
كلية عن هذا الأمر ، أو أن تلجأ إلى أساليب أخرى أفضل فى تنفيذ هذه الأهداف ؟
وأنا على يقين ، أن بعد المسافة هى وظروف أخرى ، سوف تمنع نشر هذه السطور
خوفاً من أن يكون لها تأثير ضار على وضعية ياقوب ؛ ومع ذلك فإن ياقوب هذا مجرد
عينة واحدة من طبقة كاملة - واحد من بين خمسمائة ، أو من بين خمسة آلاف ،

يجتمعون فى الشرق الأقصى حول الراية البريطانية ليقتطفوا ثمارها الذهبية ،
ويسخرون من الأشجار التى تحمل هذه الثمار . وربما كان الأمر غير ذلك ، وهوراس Horace
يؤكد لنا "المنزل يكون حيث لا تبقى أشياء ، ويحيون السيد ويتقدمون صوب الخارج "
Exilis domus est ubi non et multa supersunt, Et Dominum Fallunt et Prosunt Furibus,

ومعروف أن بيتنا كبير على نحو يصعب معه القيام على أمره كله فى البر والبحر .
وعلى كل حال ، لابد لى هنا أن أبدى ملاحظة مفادها أن بريطانيا فى الوقت الذى
اكتسبت فيه لنفسها شرفا واحتراما كبيرين فى هذه المناطق ، لا بسبب الخوف منها
فقط ، وإنما بسبب المعروف أيضا ، وبسبب القضاء على أفة القرصنة البحرية التى
استشرت ذات يوم فى هذا الخليج ، فإنها جرت على نفسها أيضا قدرا كبيرا من
الخرى والعار (ويؤسفنى أن أقول) والسخرية ، والاستهتار ، عندما راحت تعارض
وتعارض على تجارة الرقيق الموجودة فى هذه البلاد بالفعل ؛ بل والأكثر من ذلك طريقة
تنفيذها لتلك المعارضة وذلك الاعتراض . أنا لست مدافعا ، يشهد الله ! عن العبودية
والاستعباد ؛ برغم أن القارئ ربما يكون قد لاحظ من العبارات التى أوردتها فى
الفصل السابق ، أن السادة أنفسهم هم فى النهاية أكثر معاناة من العبيد أنفسهم ،
فى عمان على أقل تقدير ، وربما فى الأماكن الأخرى أيضا . أما مسألة إن كان
التدخل نفسه حكيما أم لا ، فهذه قضية أخرى . ولكن إذا جاز لى أن أتدخل ، فأنا
اقترح أن ستة من الطرادات المحكمة تفيد فى تنفيذ هذه الأهداف أكثر من ستين
ياقوبا ، وأن الطلقات ستكون أفضل من الجنيهاات .

وبينما دارت فى داخلى كل هذه الخواطر والتأملات ، كان ياقوب قد غادر الخور ،
ونزلنا نحن إلى البر . وهنا أصبحنا لأول مرة ، فى ذلك المكان الذى يسمونه عمان ،
تماما مثل من يعبر حدود القصيم ليجد نفسه داخل حدود نجد . وما أن وطئت قدماى
أرض شاطئ الشارقة حتى ذكرنى ذلك بالهند ، وبأكثر من جانب . ومناخ الشارقة
اللطيف المعتدل يختلف تماما عن الهواء الخانق فى الطويق أو شومر ، كما يختلف
أيضا عن الجو الرطب فى كل من الإحساء والقطيف ؛ وطران البناء فى الشارقة يشبه
طران البناء فى كل من بارودا وكامبائى ؛ والسكان هنا يلبسون فوطة عريضة من
القماش الأبيض يلفونها حول وسطهم وتندلى إلى ما تحت الركبتين ، ويلبسون على
رؤوسهم عمامة خفيفة أو منديلا هنديا ملونا يلفونه ويعقدونه حول رؤوسهم ؛ وبشرة

السكان هنا داكنة ، وأجسامهم نحيلة ، وهم يمشون بطريقة سهلة ، ليست رسمية تماما ولكنها أكثر رشاقة من مشية بنى الطائى وبنى تميم - وكل هذه الأوصاف ، وكل هذه التفاصيل ، أوحى لى بفكرة أنهم من الجزيرات أو من المتنصرين أكثر منهم من الجزيرة العربية ، كما أسهمت كل هذه الخصائص وكل هذه السمات فى تفسير التمييز الذى يسرى بين العمانيين ويميزون به أنفسهم عن بقية مناطق شبه الجزيرة العربية . وكان عباس ، تاجر الأغنام ، قد أصر على أن ننزل ضيوفا عليه ؛ وكان منزل عباس يقع وسط متاهة من الحارات والطرق الفرعية ، وبرغم أن منزله كان فى وسط المدينة إلا أنه كان مبنيا من الخشب والقش فقط . ولكن المنزل من الداخل كان مؤثثا تأثيثا جيدا ويسر خاطر ، وإذا كان هناك ، أى شئ من النواقص فذلك كان يستره كرم عباس الحاتمى . ومن المؤكد أن نيبور لو كان معنا ، وتمتع بما تمتعنا به ، لما وسم البياضية بالامتناع عن شرب الدخان والقهوة ، اللذين كان تناولهما مستمرا ولم ينقطع طوال الأيام الثلاثة التى أمضيناها فى الشارقة . والمصطلحات الوهابية غير معروفة فى الشارقة ، أو لا تستعمل فى أضعف الأحوال ، والمصطلح الدينى " سم " ، أو إن شئت فقل "سم باسم الله " الذى يصاحب تقديم فنجال القهوة النجدية ، يستبدل هنا بمصطلح آخر أكثر ابتذالا هو "دوك" أو "دوك" ، الذى هو اختصار لمصطلح "دونك" أو إن شئت فقل : "فى خدمتك" ؛ فى حين أنهم هنا يردون على طرق الباب باستعمال مصطلح "حود" ، الذى يساوى من حيث المعنى " ادخل " ، أما من أين جاءت هذه المصطلحات فهذا هو مالا أعرفه .

وعلى كل حال ، فإن خالد بن صقر ، باعتباره حاليا حاكما للشارقة ، يدين بالإسلام ، وقد أنشأ مسجداً كبيراً بالقرب من السوق ؛ وأنا أشهد أن هذا المبنى (المسجد) يناسب تماما التأمل الدينى ، بحكم السكون والهدوء الذى يسيطر على أركانه المختلفة ، التى لا تضار من الضوضاء مطلقا فى أوقات الصلاة أو فى غير أوقاتها . وقد دخلت ذلك المسجد أكثر من مرة عند رفع الأذان لأرى أولئك الذين ينبغى أن أراهم هناك ؛ وكان يتعين على أن أسارع بالخروج من المسجد تخوفاً من أن توجه إلى مسئوليهِ واتهام مزدوج من كل من الإمام وجمهور المصلين . وسبب ذلك واضح تماما : إذا أن خالد ابن صقر هو وكل قبيلة القواسمة عن بكرة أبيهم مكروهين فى الشارقة من السكان العمانيين ، أى من أكثر من تسعة أعشار سكان المدينة ، الذين يعدون غرباء قلبا وقالبا ، عن الإسلام ، ومنشأته ، ومريديه .

ووضع مدينة الشارقة بالنسبة لغربي عمان ، هو نفس الوضع الذي أصبحت عليه مدينة لينجا في السنوات الأخيرة ، بالنسبة للساحل الفارسي المقابل - أى مركزا للاستيراد والتصدير ، أو إن شئت فقل نقطة تمر بها وتلتقى عندها خطوط كثيرة من خطوط التجارة البرية والبحرية . ثم تتفرع منها فى اتجاهات مختلفة . والمنطقة من البداع إلى رأس مسندم ، بل وحتى إلى ما وراء رأس مسندم إلى أن نصل إلى ظبيع 'D.obey' ، لا يوجد فيها أى ميناء آخر ذو أهمية تذكر ، كما لا توجد فيها أية أسواق أخرى تستحق الذكر . ومدينه الشارقة تأتى إليها كل مصنوعات غربى عمان ، الصوفية ، والقطنية ، والمعدنية ؛ كما تباع هنا أيضا إبل الذلول وكذلك الحمير ، كما توجد هنا أيضا سوق العبيد الرئيسة فى المنطقة الداخلية من الخليج الفارسي. يضاف إلى ذلك ، أن المناطق المجاورة للشارقة ، تستطيع أن تحصل من خلال الشارقة ، بصفة أساسية على البضائع الفارسية والبضائع الهندية ، التى يتم إنزالها فى الشارقة ، ويجرى توزيعها منها ، بعد ذلك ، على نطاق واسع . وهذا الانسياب التجارى المستمر ، يضيف على الشارقة طابع النشاط والثراء الذى لا يتوافر لأى ميناء آخر من موانئ الجانب الجنوبى ، ويجذب إليها غرباء من بلدان كثيرة ومن أعراق مختلفة ، مما يجعلهم يشكلون مجموعة سكانية خاصة بهم ؛ برغم أن الطابع العماني هو الطابع العام والبارز بشكل قاطع تماما . ولو قدر لهذا الميناء أن يظهر تطهيراً جيداً ، ولو قدر لهذه الحكومة أن تكون فى يدى شخص آخر غير خالد بن صقر ، لزادت أهميه الشارقة زيادة كبيرة ؛ ولكن بالشكل التى هى عليه الآن ، فقد بدأت هذه الأهمية تتناقص طوال السنوات الأخيرة الماضية .

وأهل الشارقة بشكل عام عرق أمين ، حسن الطبع ، كريم ، وناجح ؛ والخنجر ، الذى يلبسه الناس هنا ، وفى كل أنحاء عمان حتى رأس الحوض هو لمجرد الزينة وليس للاستعمال . وفى الشارقة شاهدت لأول مرة عينات جميلة من تلك الزركشات الفضية والذهبية الجميلة التى تستعمل فى تزيين هذه الأسلحة علاوة على بعض أنواع من الأوانى التى من قبيل الأحزمة ، والفناجيل ، والغلايين ؛ وهذه الزركشات تصل من الكمال والدقة حداً يصعب أن تراه فى أى مكان آخر . وهذا النوع من الحرف اليدوية يعيش منه عدد كبير من الأسر فى المدن الكبيرة . والذهب الذى يستعمل فى هذه المشغولات ، يشتري أصلاً ، إن لم يكن كلية من الهند ، أو بالأحرى عن طريق الهند ؛ برغم أن هذا المعدن الثمين يقال إنه موجود فى المناطق الداخلية من عمان نفسها ،

أو بالتحديد ، فى جبل أخضر خلف مدينة باهلة ؛ ولكن أحدا ، لم يستطع ، أو ربما لن يستطيع ، أن يصرح بالأماكن التى يوجد فيها الذهب وكمياته على نحو دقيق وبالصورة التى كنت أتمناها وأتطلع إليها . ومناجم النحاس موجودة فى عمان ، ويجرى استغلالها بصورة منظمة ؛ كما يجرى أيضا استخراج الرصاص من المنطقة المجاورة لرأس الحضض ؛ وأنا بنفسى لاحظت آثار الحديد فى كثير من المناطق ؛ ولكنى لم أر المعادن الأخرى ولم أسمع عنها شيئا . ولكن تشيع فى عمان مناجم الملح ، ويجرى استغلالها على نطاق واسع ، لتلبية الاستهلاك المحلى وللتصدير ؛ أخيرا ، فإن البحر يلفظ الكهرمان بكميات كبيرة ووفيرة تجعله مصدرا رئيسيا من مصادر الدخل الملكى . ومادة الكهرمان ، هى واللؤلؤ ، والملح والذهب – إذا ما كان الذهب موجودا بحق ، وهذه النقطة أنا أعتمد فيها على روايات الرواة – هى بمثابة الأشياء التى تحتكرها الحكومة فى عمان ، التى لم تحقق السياسة الرومانية فيها سوى تقدم قليل ، بل ربما لا تكون بحاجة إلى أن تندم عليه .

ولكن هيا بنا نعود إلى الشارقة ، التى استطردنا بعيدا عنها . كانت ساعاتنا ترمى هنا بطريقة ودية عجيبة ، إذ كنا نمضيها فى الزيارات ، وحفلات الغداء ، وحفلات العشاء ؛ والسبب فى ذلك ، أن أهل الشارقة كانوا ينطلقون إلى أن يجعلونا نخبر الحقيقة التى سمعتها مرارا فى أماكن أخرى ، عن سلوكهم وميولهم الاجتماعية . والضيف فى مدينة الشارقة ، يجد أمامه تشكيلة من الطعام قل أن يجدها فى الجزيرة العربية كلها أو بين العرب ؛ فهم يضعون أمام الضيف السمك ، واللحم ، والجمبرى ، وشرطانات البحر ، والبيض ، والشعيرية ، والأرز ، والطحى بكل أنواعها ، والعسل ، والزبد ، والتمر ، والخبز المخمر ، وكثيرا من المأكولات الأخرى – وهذه الأشياء لا تُكوم فى طبق واحد كبير كما هو الحال فى نجد ، وإنما يوضع كل منها فى طبق مستقل ؛ وتتزايد دعوات الإلحاح على تناول الطعام بشكل يزيد كثيرا على حاجة من يكاد يموت جوعا . يضاف إلى ذلك ، أن الأمر فى كل من الشارقة وفى كل أنحاء عمان لا يحتاج إلى مقدمات من نوع خاص ، ونظام البيت المفتوح هو النظام السائد هنا ؛ وهو ما يقول عنه جوته : لك أطيب تمنياتى اليوم Viel Gäste Uünsch'ich heut ؛ ومجرد الإشارة ، أو نظرة ، أو مجرد قول صباح الخير ، أو مجرد السؤال عن الطريق هنا أو هناك ، كافية لأن يوجه إليك الطرف الآخر الدعوة ، التى يعقبها استعراض للكرم الذى يتناسب مع الوقت المحدد لهذه الدعوة ، هذا يحدث فقط بين العمانيين ؛

والسبب فى ذلك أن أصدقائى من القواسمة كانوا قليلين وكان ارتباطى بهم سطحيا ، إضافة إلى أنى لم يقم بينى وبين خالد بن صقر أى نوع من التعارف ، فيما عدا التحية العابرة التى كنت أحييه بها ويردها عندما يكون جالسا ومجتمعاً بالناس أمام باب قلعتة . ووجهه الداكن وساقاه الغليظان كانوا يجعلونه يبدو من حيث الشكل مثل ديرك هاتريك Dirk Hatteraick ، وهو مؤيد تماما فى حياته العامة والخاصة بجمهور هو صورة طبق الأصل منه . ولقد أوردت بالفعل عينة من تصرفاته وسلوكه عندما كنت أتحدث عن حملته التى قام بها على مدينة باطنة ، ولكن هذه مجرد عينة فقط . ويقال إن خالد بن صقر يجد متعة خاصة على طريقة جسر فى التسلية ، عندما يضع ليمونة على رأس أو فى يد واحد من أتباعه ويصوب إليها بندقية ليطيح بها من مكانها ؛ يضاف إلى ذلك أن قسوته المتقلبة التى لا تثبت على حال ، تجعل خطره على أصدقائه لا يقل عن خطره على أعدائه . وعلى كل حال ، فهو لكونه واحداً من إقطاعى السلطان الثوينى ، فهو يخضع لشيء من السيطرة المحددة ، فى بعض النواحي ، ولا يستطيع أن يغير شيئا فى النظام التجارى ، أو الرسوم ، أو الجمارك ، أو فى الامتيازات الممنوحة للمقاطعات . وقد جرت عدة محاولات لإبعاده عن منصبه ؛ ولكن حلفاءه النجديين مكنوه من الاحتفاظ بهذا المنصب ، متحدين بذلك كراهية الجميع له .

وفى الطرف الجنوبى من مدينة الشارقة يقع السوق الكبير ، المقسم إلى عدة أسواق ، أو إن شئت فقل أحياء ، وذلك طبقا للعرف الشرقى الموروث . وفى منتصف ذلك السوق توجد القيسارية ، وهى عبارة عن مبنى طويل فخم تعلوه قبة ، مشيد تشييدا قويا ، وله بوابات مصنوعة من الحديد ، تغلق عند حلول الليل لحماية الثروات الموجودة بداخلها . والخزانة الحكومية ، موجودة فى برج مصنوع من الحجر السميك يوجد داخل هذه القيسارية . والمحلات الموجودة فى القيسارية من النوع الأنيق جيد البناء ، وكل المحلات تبدو عليها المتانة والثروة . وبدلا من المتاجر العربية التى نشاهد فيها كلا من البضاعة وصاحبها على مستوى واحد على الأرض ، أو حتى على انخفاض قليل منها ، نشاهد فى القيسارية المحلات المعتادة ، التى تحتوى على مقاعد مرتفعة ، ومناضد ورفوف، مثل تلك التجهيزات المعتادة فى كل من بومباى أو مدراس ، إضافة إلى خزانة متينة ، خاصة بالعملات ، ودفاتر تشبه دفاتر رجال المال والأعمال من حيث الحجم والشكل . والتجار ، وهم هنا أصلا من الهندوس أو اللوثيرانيين (نسبة إلى سكان لوديانة) ، يقدمون عروضاً فخمة من شيلان الكشمير ، والمصنوعات

البنغالية ، والأسلحة الفارسية ، والمجواهرت على اختلاف أنواعها ، وذلك على العكس تماما مما كنت أنتظره فى الجزيرة العربية ؛ والزبائن هنا كثيرون أيضا . كما أن تجارة الرقيق ما تزال مستمرة هنا ، ولكن قلة قليلة من تجار المدينة هى التى تعمل فى هذه التجارة ؛ وهى تجرى هنا داخل المنازل ، التزاما بتوصيات ياقوب .

والحى الشمالى من المدينة به عدد كبير من منشآت النساجين التى تجرى فيها صناعة المشالح الحمراء الخفيفة التى يشيع استعمالها فى عمان ؛ وتجرى فيها أيضا صناعة الثياب القطنية الطويلة التى تختلف إلى حد ما عن الثياب النجدية ؛ كما تجرى فى هذه المنشآت صناعة السجاجيد ، والستائر اللازمة للأغراض المنزلية . وفى بلاد خالية من المصانع ومن الآلات التجارية . نجد أن هذه الأعمال تكون مربحة ، وهى تستخدم كثيرا من الأيدي العاملة . وصناع المشغولات الذهبية والمشغولات الفضية يمارسون هنا عملهم الصبور الدؤوب ، والحدادون تراهم هنا عند كل منعطف والشوارع هنا نظيفة ولكنها لا تعرف شيئا عن التوازى ؛ وفى المناطق التى تغلب عليها المنازل المصنوعة من سعف النخيل تجد أن الحارات ضيقة ومتعرجة . ومن الطبيعى أن يكون الفراغ الضيق المتروك على شكل رصيف يفصل المنازل عن الخليج أو إن شئت فقل الخور ، من الطبيعى أن يكون ذلك الفراغ مملوءاً بالقوارب والسفن الصغيرة ، وبعض من هذه القوارب ، حتى هنا فى الشارقة ، جوانبها محززة بفعل تأثير حبال الغواصين ، وبالتالي يمكن القول إنها من القوارب التى تستعمل فى صيد اللؤلؤ . والواقع أن هذا الرصيف هو نهاية الحد الشرقى لساحل اللؤلؤ ، وهو قليل الإنتاج فى المنطقة ما بين أبى ظبى والشارقة ، عنها فى المنطقة الخلفية من الخليج .

وبعد أسوار المدينة مباشرة من ناحية البر يوجد برج حجرى ثمانى الزوايا ، وقلعة مجاورة له ؛ وأنا اعتقد ، أن مسألة وضع اسم "برج الشارقة" على الخرائط ، مستقاة من هذا البرج ، وذلك بدلا من الاكتفاء باسم الشارقة . ومبنى هذا البرج ، اللهم إلا إذا كنت أخط بينه وبين ما شاهدته فى هرمز التى تبعد مسافة قليلة عن الشارقة ، جميل وأنيق ومزين بأنماط مختلفة من عظام سمك الرنجة ، وتخرقه مزاغل هنا وهناك ، ويصل ارتفاع البرج إلى حوالى سبعين قدما . والقلعة التى توجد بجانب البرج غير منتظمة الشكل ، وهى تشبه ثكنة عسكرية أكثر منها معقلا أو نقطة قوية ، ولكنها أيضا مبنية من الحجر ؛ ويبدو أنها بنيت فى مرحلة متأخرة عن البرج .

ولم أَعثر على أحد يحكى لى عن تاريخ البرج أو القلعة ، أو عمن تعهدهما . ولكنهما يستعملان الآن مستودعين عسكريين أو ترسانة ، وأبوابهما تغلق بحرص وعناية بالغين ، وهذا هو السبب الذى حال بينى وبين زيارتهما من الداخل .

وأسوار الشارقة الخارجية مبنية من الحجر - ليست من الجرانيت أو الحجر الجيرى ، ولكنها مبنية من الحجر الرملى الذى يضرب إلى الصفرة والاحمرار الذى يوجد بكثرة فى المنطقة المجاورة للمدينة . وهذه الأسوار مكسرة ومهدمة فى كل مكان ، ونقاطها المحصنة صفراء اللون مملوءة بالرمال ، والمسافات التى بين الأبراج فى هذه الأسوار تتخللها الثقوب والفتحات التى يتسلل منها الصبية الأشقياء إلى الداخل وإلى الخارج ، فى جميع الاتجاهات .

ومن خلف هذه الأسوار توجد مساحة كبيرة من الرمال ، يتزايد ارتفاعها تدريجيا إلى مسافة نصف ميل تقريبا . والمنحدر تتخلله بيارات النخيل ، كما تتناثر هنا وهناك أدغال الصُّبِير، كما تنبت بعض الأشجار الشوكية فى بعض البساتين أو الآبار المهجورة ، ولكن تربة الشارقة من النوع الخفيف جداً الذى لا يصلح للإنتاج . وفى بعض الأحيان ، قد توجد بعض الأدغال المتشابكة الهندية الأصل ، مكونة بذلك هضابا من الخضرة ؛ ومناخ الشارقة مدارى ولو كان معى ترمومتر لقياس درجة الحرارة ، لسجل ٨٠ فهرنهيتيه فى الظل ، برغم أننا فى اليوم السابع عشر من شهر فبراير . والمشهد يتباين هنا بفعل وجود بعض الخيام البدوية فى عامير Aamir ، ذلك الحى الهادئ المسالم .

والحمير توجد هنا بأعداد كبيرة وهى معروضة للإيجار ، وهى وسيلة نقل جيدة فى المسافات القصيرة . وعلى ظهرى اثنين من هذه الحمير - الأقل جودة من سلالة الحمير المصرية - قمت مع يوسف برحلة لنشغل بها اليوم الثالث من مقامنا فى الشارقة . وكان بصحبتنا فى هذه الرحلة حضرى شاب كان يرتدى ثوبا خارجيا مرحا أصفر اللون ، ويلف حول عنقه منديلا بنغاليا أرجوانى اللون ، فى حين كان يزين حزامه بخنجر مقبضه من الفضة . وسرنا خلال هذه الرحلة فى الطريق الداخلى الذى يؤدى إلى البوريمى ، أى فى الاتجاه الجنوبى - الشرقى ، وسط بيارات من النخيل البرى القزم، والذى تنتشر على طوله البساتين المسورة ومجموعات من أكواخ الفلاحين، إلى أن وصلنا إلى أرض مرتفعة ، يتسنىُّها برج صغير للمراقبة ، من قبيل تلك الأبراج

التي أتينا على وصفها في قطر ، وأصبحنا نرى من أمامنا السهل الداخلى الواسع . وفى هذا السهل الداخلى الواسع كانت هناك فى اتجاه الشرق ، قرية يطلقون عليها اسم الحوطة ، فى حين كانت توجد فى الناحية الجنوبية مراعى واسعة ، كان ينبعث من أحد مخيمات بدو المناصير المقام فيها ، دخانا خفيفا أزرق اللون ومن خلفه السماء المتألثة. ومن خلف ذلك المخيم كانت هناك سلسلة من التلال المنخفضة ، التي تحتوى ، كما يقول مرافقنا ، على عدد كبير من القرى والكفور الصغيرة ، وتتبع المنطقة التي يسمونها الشَّعَاب Sha'ab ؛ ومن بعد كانت هناك سلسلة أخرى من التلال الأكثر ارتفاعا ، والتي تشكل أول جبال جبل عقدة ، الذي يقع البوريمى فى وسطه تماما .

كنت قد عقدت العزم على السير فى ذلك الطريق بدافع من الفضول وحب الاستطلاع ، وبذلك أعبر عمان من الداخل . ولكن تنفيذ مثل هذا العمل يحتاج إلى فترة أطول مما تسمح به الظروف التي أنا فيها الآن ؛ والواقع أنني لو قمت برحلة برية طولها شهر من الزمان فإن ذلك سيوصلنى بالكاد إلى مدينة مسقط ، أو إلى رأس الحوض على أكثر تقدير . ولذلك رأيت أن أوجل ذلك إلى فرصة قادمة ، ربما تنهيا لشخص آخر غيرى وغير يوسف ، واكتفينا باستطلاعنا حى الشارقة إلى أبعد مسافة ممكنة ، وعندها ، وبعد انقضاء فترة الظهيرة ، أدرنا رأسى حمارينا فى اتجاه البحر ، إلى أن وصلنا إلى الساحل بالقرب من دبی قبل غروب الشمس بهنياهات قصيرة .

ودبی شأنها شأن الشارقة لها خور خاص بها ، وخور دبی كبير جداً ، يبدو كما لو كان بحيرة داخلية ، ويفصله عن عرض البحر حزام عريض من الرمل الأبيض . ومدينة دبی ذاتها كثيفة السكان ، ولكنها غير محصنة ، ومبنية بطريقة غير منظمة تماما ، وفيها كثير من البساتين والآبار ، فضلا عن احتوائها على أسطول كامل من القوارب ، ليس الهدف الأول هو العمل فى صناعة صيد اللؤلؤ الهزيلة ، وإنما للعمل فى الخليج الجنوبى الغربى الواقع خلف أبى ظبى . وشببنا نارنا تحت مجموعة من النخيل التي كانت تُظِلُّ بعض المنازل بالقرب من مدخل القرية ، وأخذنا قسطا من الراحة التقطنا خلاله أنفاسنا كما التقطت الحمير أنفاسها أيضا ، فى حين راح جيراننا يسلوننا بكثير من القصص التي كانوا يروونها عن بنى - ياس وعن أفعالهم . وكنا قد التقينا جماعتين أو ثلاثة من بنى - ياس ؛ وبنى - ياس ، رجال متأنقين ، داكنى البشرة ، توحى نظراتهم بأنهم من القراصنة ، مدججين بالسلاح ، كما يقول المثل ،

وبالبنادق ، وبالرماح القصيرة ، ومسلحين بالخناجر أيضا . وشعرهم الأسود الطويل ، المتدلى على أكتافهم ، يضيف عليهم مظهرا رومانسيا متوحشا . ويقال أن بنى - ياس ، هم ألد أعداء الإسلام ؛ وأن الدافع وراء حملاتهم القرصانية التى كانوا يقومون بها فى الخليج كان نابعا من كراهيتهم الشديدة للربابنة النجديين وللسفن النجدية ، أكثر منه رغبة فى الاستفادة وجنى المنافع . وأنا أورد هنا واحدة من هذه الحملات التى كانوا يقومون بها .

أراد ستة من النجديين ، الذين كانوا قد وصلوا إلى ساحل قطر فى رحلة تجارية ، أن ينتقلوا إلى رأس - الخيمة ، التى لا تبعد كثيرا عن رأس مسندم . وعرض عليهم سلّوب^(١) يملكه بحارة من بنى - ياس ، ينقلهم إلى رأس الخيمة . ولم يكن النجديون يحملون معهم شيئا ذا قيمة ، وكانوا أيضا مسلحين تسليحا جيدا ؛ وركب النجديون على ظهر السلّوب الذى فرد شراعه قاصدا البر الشرقى من الخليج . ولكن طاقم السلّوب كان قد وافق على نقل النجديين لمجرد أن تتاح له فرصة فش غليله فى المسلمين ، وأنه كان يتحين مثل هذه الفرصة . وعند الظهيرة فى أحد الأيام ، عندما كان بعض النجديين ، نائمين على ظهر السلّوب ، فى حين غفل البعض الآخر عن القيام بدور الحراسة ، هجم أفراد الطاقم على النجديين وأخضعوهم لسيطرتهم . كان من بين الوهابيين خمسة رجال يافعين ؛ فى حين كان السادس صبيا . وقيد بنو ياس الخمسة من أيديهم ومن أرجلهم ، ثم ألقوا بهم فى مياه البحر ، الذى سرعان ما لقوا فيه حتفهم ؛ أما فيما يتعلق بالصبى ، وسواء أظنوه غير قادر على السباحة ، أم ربما إحساسا منهم بالتعاطف مع سنوات عمره الأخضر ، ورغبة منهم فى إعطائه فرصة الحياة فقد ألقوه غير مقيد فى ماء البحر ، ثم جمعوا كل متعلقات النجديين ، من سلاح ، وبضاعة ، وملابس ، وألقوا بها فى البحر كى لا يكون أى منها شاهدا عليهم أو يدينهم ، ثم عادوا إلى مدينتهم صور Soor .

ويستمر الصبى فى السباحة بكل ما تبقى فيه من قوة ، برغم أنه كان يسبح بحكم الغريزة أكثر من الأمل ، والسبب فى ذلك أنه لم يكن يرى أمامه برا أو سفنا ، اللهم باستثناء سفينة القراصنة إياها ، التى كانت تختفى بسرعة كبيرة أثناء تراجعها ، وأخيرا عجز الصبى عن الاستمرار فى مواصلة السباحة ، وخارت قواه وغاص فى الماء .

(١) السلّوب : قارب وحيد الصارى - (المترجم) .

ولكن معروف أن الأطفال خفيفي الوزن ، وسرعان ما طفى على سطح الماء من جديد ،
برغم أنه كان فاقد الوعي تماما ، وظل طافيا على سطح الماء الليل بطوله ، ونهار اليوم
التالى حتى وقت العصر ، لأن البحر كان هادئا ، إضافة إلى أن دفء الجو بفعل درجة
الحرارة جعله يتحمل البقاء وقتا طويلا فى الماء وذلك على العكس مما هو متصور فى
أوربا . أخيرا ، تصادف أن سفينة من الشارقة كانت تمر بالقرب من المنطقة التى فيها
ذلك الصبى ؛ وشاهد طاقم السفينة الصبى ، وحاولوا انتشاله من الماء ، ولكن هذا
الصبى لم يستطع استعادة عقله أو حركة لسانه قبل مضى فترة طويلة ، وأحضروا
الصبى إلى الشارقة ، التى حكى فيها حكايته ؛ وشمله بعض المواطنين الأثرياء
برعايتهم . وبقي فى مدينة الشارقة ليكون واحداً من أهلها . وعن طريق المصادفة
العجيبة التقيت ذلك الصبى فى الشارع ، فى نفس اليوم الذى استمعت فيه إلى رواية
مغامراته ؛ وهو الآن شاب بهى الطلعة يبلغ من العمر اثنين أو ثلاثة وعشرين عاما ؛
وعندما وقع له ذلك الحادث كان فى الثانية عشرة من عمره . وقد روى لى هذه القصة
من لحظه غوصه فى الماء إلى لحظة انتشاله منه ، وقال لى : إنه لم يكن يحس سوى
بشعور واحد فقط - هو بالتحديد ، تخوفه من أن يهيج البحر ، وأنه لم يكن يعرف أو
يفكر فى شئ غير ذلك ؛ لم يكن مدركا أو واعيا فى تلك اللحظة لما أودى به إلى هذا
الوضع الحرج ، ولم يكن لديه أى أمل أو فكرة عن الطريقة التى سيخرج بها من ذلك
المأزق الحرج .

وبعد استراحة قصيرة فى ظل التعريشة التى كنا قد توقفنا عندها ، استأنفنا
مسيرنا ووصلنا إلى الشارقة بعد حلول الليل . وفى الشارقة ، شاهدنا ربانا بحريا من
مدينة السويق فى مدينة باطنة ، كان يجلس فى غرفتنا ويتحدث مع عباس مضيفنا .
كان الربان ينوى الإقلاع فى اليوم التالى ، واتفقنا معه على الإبحار على ظهر مركبه -
كان المفروض أن أقول قاربه ، نظرا لأن مركبه لم تكن ذورقا أكبر قليلا من اليخت
متوسط الحجم - ونستفيد من الرياح المرسلة فى الدوران حول رأس مسندم ثم
الوصول إلى باطنه .

وفى صباح اليوم التالى اقتادنا رباننا إلى مدخل الميناء ، الذى كانت السفينة
ترسو فيه . كان طاقم هذه السفينة مكوناً من خمسة من العمانيين ؛ وكان المسافرون
على ظهر هذه المركب غيرنا ، رئيس شاب من سلالة الفزارة ؛ وبرغم أن أسرة هذا

الرئيس الشاب كانت من أصل نجدى ، إلا أنها تحولت بحكم العشرة والإقامة الطويلة فى عمان ، إلى البياضية ، شأنهم شأن من يحيطون بهم، وهم يحكمون مدينة صوحام S.oh.am الساحلية الصغيرة . وقد زاد زيد ، إن قدر لنا أن نسميه باسمه ، أو إن شئت فقل زويد ، على سبيل التدليل - على كرم المحتد والثروة (إذ أنه كان واحداً من الأثرياء) ، زاد فضائل الأدب والعلم الذى أتيح له فى عمان . ولما كان زيد موهوباً بذاكرة الحفظ ، وهى موهبة تشيع فى الأماكن التى تندر فيها الكتب ، فهو يستطيع أن يلقي عن ظهر قلب مئات الأبيات الشعرية التى تعزى إلى امرئ القيس وإلى شعراء آخرين من فترة ما قبل الإسلام ، وشعراء آخرين معادين للإسلام ، ومن بين هذه الأبيات باروديا^(١) مقفاة عجيبة لـ "سورة" "الساعة"، وباروديا أخرى عنوانها "هل أتى"، وهاتان المقطوعتان ساخرتان ، ولكن شعرهما عالى الجودة ، كما أن كل واحدة منهما تشكل وحدة واحدة مؤلفة من المتخيل والمحاكاة الخيالية الساخرة ، وهذا يشبه أشعار بعض مؤلفى المدرسة الإيطالية . يضاف إلى ذلك ، أن زيدا لديه الكثير من القصص التى يرويها وتدور موضوعاتها عن الأرض وعن حكامها ؛ ولقد حصلت منه على أكبر قدر من المعلومات ، أيا كانت قيمتها ، والتى أوردتها فيما يتعلق بالأعراف والمدونات التاريخية العمانية ، أو التى سوف أورها فيما بعد . كان هذا الرئيس الشاب اجتماعياً ومتحدثاً ، ومستعداً للإجابة عن أى سؤال مباشر . وكان برفقته خادمان أو إن شئت فقل اثنان من حاشيته ؛ وإكمالاً لمجموعتنا ، كان بيننا أيضاً ، على ظهر المركب ، وهابى متشدد من رأس الخيمة ، تلك القرية التى ظلت حتى السنوات الأخيرة شهيرة بالأعمال القرصانية التى كان يمارسها أهلها - هؤلاء الرجال الذين يتحينون الآن الفرصة المواتية التى يتمكنون من خلالها أن يجعلوا الحاضر مساوياً للماضى ، إذا ما سمح لهم علم المملكة المتحدة (بريطانيا) بذلك . ولم يضع هذا الشاب فرصة مناقشة المسائل الدينية ، مما ذكرنى بشخصية جفتد جلفلان Gifted Gilfillan فى رواية "ويفرلى". ولولا الخوف من خالد بن صقر ، ومن القواسمة لكانوا قد ألقوا هذا الوهابى فى البحر ، كى يقللوا من سخونته واحتراره ، ليلقى نفس المصير الذى لقيه كثيرون من أبناء مذهبه عندما يقعون فى أيدي البحارة البياضية .

(١) الباروديا : أثر أدبى أو موسيقى يُحاكى فيه أسلوب أحد المؤلفين على نحو يثير الضحك والهزء - (المترجم) .

وودعنا عباساً وكل من كانوا بصحبتنا إلى أن وصلنا إلى حافة المياه، وداعا وديا، ثم ركبنا المركب . وساعات الإبحار تعتمد على المد ؛ والسبب في ذلك أنه يصعب حتى على أصغر المراكب العربية ، أن تتجاوز خلال ساعات الجزر العائق الموجود عند مدخل الخور . كان الوقت يقترب من ظهر اليوم العشرين من شهر فبراير ، وكان الماء مرتفعاً بفعل المد ؛ وكانت تهب من بوابات الجنوب ريح خفيفة " ، وتراقص مركبنا ونحن نتجه إلى عرض البحر الأخضر . ورحنا ، أثناء إبحارنا ، نقترّب من الساحل ، نظراً لأن الماء عميق هنا على بعد ياردات قليلة من الشاطئ ، وبينما كنا نبحر على طول الساحل ، كنا نشاهد الغادين والقادمين على الطريق الساحلي . وسرعان ما ابتعدنا عن مفران ، تلك القرية متوسطة الحجم ، التي تقع على بعد مسافة تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أميال شمالي الشارقة ، والتي كان يوجد بها بعض القصور الأنيقة مربعة الشكل المملوكة لبعض أفراد أسرة ابن صقر ؛ وكانت المزارع التي تحيط بهذه القصور أكبر من حيث المساحة ، ومن حيث الخصوبة ، عن مزارع الشارقة . وفي فترة العصر هدأت الريح ، ومع حلول المساء رفعنا مراسينا وأبحرنا من عجمان Ajman التي يطلقون عليها بصورة عامة اسم عيمان Ayman ؛ وعجمان مدينة صغيرة من مدن القواسمة . وفي عجمان نزل صديقنا الوهابي إلى البر لقضاء الليل ، ولكن أحداً من الركاب لم يحذو حذوه ، والسبب في ذلك أن أهل عجمان هم من المتشددین الذين لا يعرفون الحلول الوسط . وفي اليوم التالي تراخى النسيم ، واتجهنا ببطء صوب الشمال ، ومررنا بكل من الحميرية Homey Reeyah ، أم الغوين el - Ghowyen (وأنا أجد هذا نطقاً شعبياً خاطئاً للاسم أم الأخوين) وحواره Howarah (وكلمة حواره Howarah تعني الابيضاض مثلاً تعني الحميرية Homeyreeyah الاحمرار) ، كما مررنا أيضاً بحوالى ست من الكفور أو القرى الصغيرة التي زرعها أهلها على الشاطئ ؛ وعدد كبير من هذه الكفور والقرى الصغيرة لكل واحد منها خور أو ميناء ، أما بقية هذه الكفور فكل واحد منها عبارة عن مكلاً^(١) . وهذه البلاد من الأمام ومن الخلف ليست قفراً كما هو الحال في قطر ؛ كما إنها ليست خصبة تماماً أيضاً . وأهل هذه المنطقة بعد أن حرمت عليهم القرصنة البحرية ومنعوا منها أصبحوا يمتنون صيد الأسماك بصفة أساسية . ونشاهد هنا وهناك قلعة أو برجاً قديماً يقع على أرض مرتفعة، أو مقام

(١) المكلاً : موضع قرب الشاطئ تستطيع السفن الرسو فيه - (المترجم) .

على صخرة منعزلة . يضاف إلى ذلك أن سلسلة الجبال التي تعرف باسم رؤوس الجبال ، التي هي بمثابة العمود الفقري من الرُّعْن ، تقترب من الساحل بصورة متدرجة بكل عظمة وعورتها ، وتمتدُ أمامها صخور الجرانيت وكتل البازلت ، إلى أن تضيق ، في النهاية ، الأرض على قرى القواسمة ويتعذر عليها أن تجد لنفسها مكانا بين الجبل والبحر . وفي صباح اليوم التالي ، أى في اليوم الثاني والعشرين من شهر فبراير ، أبحرنا من رأس الخيمة ، أكبر المستوطنات الوهابية وأسوأها سمعة ، ولكن هي ، لحسن الحظ ، آخر المستوطنات الوهابية على هذا الساحل . ونظرا لأن رأس الخيمة تقع في خليج (خور) مستور ، يشبه خور مسينا Messina من حيث الشكل الدائري تقريبا ، فهي تبدو للرائي ؛ كما لو كانت كتلة من الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل ، معدومة التنظيم والجمال ؛ كما نشاهد أيضا على الجروف المجاورة بعضا من المحاولات الباهتة لإقامة بعض التحصينات ؛ وعدد سكان رأس الخيمة يقدر بحوالى خمسة آلاف نسمة أو ما يقرب من ذلك ، ولكن هؤلاء السكان يعوضون قلة عددهم بشجاعة يبالغ الناس في وحشيتها وقسوتها .

وهنا غادر الواعظ الوهابي المركب ونزل إلى البر لصالحه وصالح الآخرين ، مما أراح الربان وأفراد طاقمه ، الذي أتبع الواعظ الوهابي بسيل من اللعنات يكفى لإغراق محارب في عرض البحر^(١) . وبعد أن تخلصنا من صحبة هذا الرجل غير المرغوب فيه ، واصلنا إبحارنا في مرج وسرور ؛ إذ كان الطقس ، صحوا ، والسماء صافية ، والريح لطيفة ، ولكنها مرسلة ، كما كان الساحل فخما ، ولا يقل روعة عن ساحل كالابريا Ca-labria وأبروزى Abruzzi . وهنا بدأ ذلك السور الجرانيتي يتلاشى ويختفى تدريجيا تحت مياه المحيط الزرقاء ؛ وراح ينتشر على شكل شقوق وتصدعات تجرى خلالها سيول الشتاء وتتخللها قرى صغيرة كانت تشبه أعشاش النسور ؛ وبالقرب من تلك القرى ، كانت هناك بقع وأماكن خضراء تنتشر فوق السلاسل الجبلية لتكشف عن واحد من الوسيلتين اللتين يعيش منهما سكان هذه الأوكار ، في حين كانت المراكب والقوارب الكثيرة الأخرى المبنية بطريقة الرمث الشهيرة في مالابار ، والتي تعمل كلها

(١) إننى أتقرّز من هذا المؤلف ، الذى يصب جام لعناته على الوهابيين فى كل موضع يأتى ذكرهم فيه ، بمناسبة وغير مناسبة وكأنه يحمل فى داخله حقداً دفيناً على دعاة الإسلام وعلى رجال الإصلاح الدينى الذين تمثّلوا أعظم ما يكون فى الحركة الوهابية ، والدعوة الوهابية كان لها الأثر الكبير فى تصحيح التوحيد وتنقية الإسلام فى الجزيرة العربية كلها - (د. حلمى عبد المنعم) .

فى صيد السمك لتبين لنا الوسيلة الثانية . وفى عصر اليوم نفسه وصلنا إلى شعام Sha'am ، تلك القرية الضخمة ، التى تحاذى الشاطئ كثير الحصى أسفل الصخور التى تحيط به من ناحية البحر . وهنا أنزلنا القارب وقصدنا إلى الشاطئ ، وطاقم البحارة يغنى فى فرح وسرور ، وكانت المياه هادئة مثل مياه البحيرة . وجدفنا فترة طويلة قبل أن نصل إلى البر ، وسمعت لأول مرة ، شيئاً كنت أسمعته كل يوم تقريباً طوال هذه الرحلة البحرية الشاطئية ، سمعت ذلك الذى يمكن أن أسميه "الترانتيل"^(١) العربية ، أو إن شئت فقل : أغنية هجائية عربية مرتجلة ، مثل الأغاني الإيطالية المرتجلة ، والترستفيرينى بصفة خاصة . وأثبت بحارة المركب أنهم يضارعون النظامين الغربيين من حيث الخيال والألمعية ؛ وكان الإيقاع متوافقاً مع ضرب المجاديف ، وكان كل بيت شفعى يردد كورسا يقول : " يا صباح الخير دائم " . وكانت المقطوعات الأولى من الأغنية عبارة عن تعبيرات مرحة عامة ، وتشجيعاً للقائمين بالتجديف ؛ ثم يلى ذلك صورة كاريكاتورية لكل من هم فى القارب ، بدءاً بالربان الذى يقبل الكلام على سبيل المزاح ومحملة الحسنى ، ثم يلى ذلك استعراض مضحك لطاقم البحارة والمسافرين . وعندما جاء دورى كرمونى بمقطوعتين ، فى حين كان الوغد الذى يغنى ، يكشر عن أنيابه وهو ينظر ناحيتى ، وهنا دفعنى البحار الذى كان يجلس بجوارى على المقعد ، ليلفت انتباهى إلى ما يقوله المغنى ، وأضاف قائلاً : " لا ضير من هذا ، وليس المقصود به الإساءة إلى أحد ؛ وسوف ترى أن كلاً منا سيجبى دوره " . وقد سمعت الكثير من هذه الأغاني والمحفوظات من أهل صوحار والمدن الأخرى ، فى باطنة ؛ وواقع الأمر ، أن هذه الأغاني شائعة الانتشار فى كل أنحاء عمان . ويبدو أيضاً أن هذه الأغاني والمحفوظات تقتصر على عمان وحدها ؛ إذ لم يحينى أهل شومر أو نجد بمثل هذه الأغاني .

وسكان شعام ورؤوس الجبال يشكلون مجموعة غريبة بشكل عام . ولما كان هؤلاء السكان ينحدرون من أصول قحطانية ويمنية ، فقد عاشوا وسكنوا منذ عصور كثيرة فى هذه الجبال ، وعلى هذا الساحل الصخرى ، الذى لا يغادرونه مطلقاً لزيارة أية منطقة أخرى . ولغة سكان شعام ورؤوس الجبال هى فى واقع الأمر لهجة عربية ، ولكن العزلة جعلت هذه اللهجة تتسم بالهمجية والبدائية ، إلى حد أن أى غريب من عمان

(١) الترانتيلا : رقصة شعبية إيطالية - (المترجم) .

نفسها ، ناهيك عن غريب من نجد أو الاحساء ، لا يستطيع التنقل فى هذه الأماكن دون أن يكون معه مترجما وبخاصة فى رؤوس الجبال . وقد أطلق يوسف على اللهجة السائدة هنا اسم " لسان الطيور " أو إن شئت فقل " لغة الطير " ، وأعلن أنه لا يعرف كلمة واحدة من بين كل عشر كلمات من هذه اللهجة . والكل هنا من البياضية المتشددين ، وهم هنا لا يخشون جيرانهم الخطيرين من القواسمة الوهابيين ؛ وتشبثهم بالجبال يشبه تشبثهم بالبياضية ؛ وفقرهم يشكل لهم نوعا من الحماية التى لا تقل عن تشبثهم بالجبال وبالبياضية . وهذا الجزء من رأس مستدم ، من أقصاه إلى أقصاه ، يشكل مقاطعة (منطقة) رؤوس الجبال ، وهو أكثر أجزاء عمان قفرا وبوارا ؛ والناس ينظرون إلى سكان هذا الجزء باعتبارهم أناسا غير متحضرين ، والواقع أنهم غير ذلك تماما ؛ وهم يزودون الحكومة المركزية بالبحارة المهرة ؛ وقد قدموا خدمات قيمة فى الحرب . وكل قرية من هذه القرى لها رئيسها ، علاوة على أن أحداً لا يتظاهر بأن له سلطة على أى أحد آخر ؛ والواقع أن انعدام الاتصالات الجيدة بين هذه الجبال الوعرة يكفى وحده لعدم وجود أى شكل من أشكال التنظيم الفاعل بينها وبعد أن أمضينا عدة ساعات فى شعام ، عدنا لقضاء الليل على ظهر المركب ، والسبب فى ذلك أن صيادى القرية المحترمين لم يكن لديهم ، فى بيوتهم ، ما يقدمونه لنا ، اللهم إن كان ذلك أحط وأدنى من المؤن التى كانت معنا على ظهر المركب - التى كانت بدورها طعاما سيئا أيضا . وواصلنا إبحارنا صباح اليوم التالى ، ودرنا حول اللسان ، وحول الصخور ، وكنا نمر حيناً عبر أعماق خضراء ، تحت ظلال الجدران الصخرية العالية ، وكنا نندفع حيناً آخر فى ضوء الشمس الساطع ، والمياه المتلائية ؛ فى الوقت الذى كانت فيه قوارب الصيد القرية منا والبعيدة عنا تمخر عباب البحر ، أو تقف على سطح الماء وهى تلقى شباكها ؛ وكنا نشاهد فى بعض الأحيان سفنا كبيرة فردت أشرعتها وراحت تتجه صوب لينجا أو البحرين ؛ ومن فوقنا كانت تمتد الصخور التى تفصل الخليج الفارسى عن البحر الهندى . وقبل حلول الظهر ، دخلنا خليجا جميلا ، عميقا ومعزولا ، ويقع بين صخور مرتفعة على الجانبين ، وله مدخل ضيق واحد متروك للمياه الواسعة الموجودة داخل الخليج ، واستطعنا أن نرى من خلال الماء شديد الصفاء فى هذا المدخل أن فى أسفله ، قاع الخليج الصخرى ؛ والعواصف هى والأمواج لا تصل إلى هذا الخليج الهادئ . وفى الطرف البعيد من الخليج كان هناك سهل صغير يروى من مجارى المياه الجبلية ، وكان نخيله وبساتينه توحى بجذ واجتهاد القرويين الذين

يسكنون قرية خبب Khabb ، لأن هذا هو الاسم غير المتناسق الذى يطلق على هذه القرية الصغيرة التى يشبه موقعها موقع قرى الجن والحوريات ، وفى قرية الخبب نزلنا إلى البر وأمضينا فيها ساعتين على الشاطئ ؛ ولم يكن فى القرية ما نتفرج عليه ، وإنما كانت كبائنها مصنوعة من القش ، كما أن سكانها كانوا لا يرتدون ملابس كاملة أو إن شئت فقل كانوا شبه عراة . وكان من قبيل الابتذال أن نقول : إن المساجد - تلك الأشياء التى لا تغيب مطلقاً عن أصغر المواقع الوهابية - لا توجد فى أية قرية من قرى رؤوس الجبال - ولكن فى معظم الأحيان ، توجد بدلا من المسجد ، قبة صغيرة ، مسورة تسويراً جيداً ، ومحاطة ببيارة زراعية صغيرة ، وتشكل شيئاً من أشياء الولاء المحلى ؛ والسكان المحليون هنا يطلقون على هذا الشئ اسم "مزار" ، أو إن شئت فقل "مكان للزيارة" ، وفى بعض الأحيان يسمونه "سيد" ، فى حين أن النجديين المستاعين يسمونه "صنما" . وهذه المباني ، شأنها شأن "المزارات" المماثلة فى كل من المطاولة والناصرية فى سوريا ، تقام فى أغلب الأحيان لتكريم مثنوى ، أو على الأقل ، ذكرى راع أبو كريفى^(١) ، لم يرد ذكره فى السنة المحمدية . كان ذلك هو حال "سيد" أو "صنم" الخبب ، الذى كان عبارة عن ضريح صغير جداً ، يتوج مُنشأً مربعاً ؛ وكان اسم ساكنه سواء أكان حقيقياً أم وهمياً هو عباس ؛ وقد روا لى عنه قصة طويلة ، لم أستطع أن أتبين لها بداية أو نهاية ، بل إن ما استطعت أن أفهمه من هذه الحكاية ، أنها كانت من أصل فارسى .

ويجرى صيد السمك بشكل كبير جداً على طول هذا الساحل ؛ وينصب الصيد بصفة أساسية هنا على بعض أنواع الأسماك الصغيرة التى يطلق عليها اسم المطوط وهذا النوع من السمك يشبه البلَم^(٢) إلى حد كبير أو الانشوقه الصغيرة الحجم والشكل ولكنه ليس له الطعم نفسه . وهذا النوع من السمك يأكله الناس بلا طهى ، وذلك بعد تمليحه وتجفيفه فى الشمس ، بلا أى تجهيز بعد ذلك . وكان رباننا يود أن يحمل معه حمولة من المطوط إلى السوق ، حيث الطلب شديد عليها جداً ؛ ولكن بعد قدر كبير من المساومة لم يتفق مع القرويين على السعر ؛ وبعد الظهر بفترة قصيرة

(١) الأبوكريفا : أربعة عشر سفرأً تلحق أحياناً بـ "العهد القديم" من الكتاب المقدس ولكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها . والمقصود هنا أشخاص لم يرد ذكرهم فى السنة المحمدية - (المترجم) .

(٢) البلَم : كل صغير من الأسماك - (المترجم) .

بدأنا نبحر من جديد دون أن نحصل على شحنة السمك المزعومة ، ثم أبحرنا على أمل أن ندور حول رأس مسندم فى الليلة نفسها . ولكن القدر كان يخبئ لنا زيارة بعض الأماكن الأخرى عن طريق المصادفة . كان الوقت متأخرا فعلا عندما وصلنا إلى اللسان ، وشاهدنا أمامنا الممر البحرى الضيق الذى يجرى بين الصخور البعيدة فى رأس مسندم والأرض الرئيسة التى يقع عليها الرأس . وهذا المضيق يسمونه هنا "باب" ؛ وهذا يمثل منظرا ساحرا ، وتوجد جروف مرتفعة على جانبيه ، والماء ينساب من خلفه عميقا أسود ؛ والصخور هنا جرداء تماما ، وصالحة جداً لشطر المراكب سيئة الحظ بك أنواعها إذا ما اصطدمت بها . ومن هنا ومن اندفاع الموجات السوداء التى لا تنتهى جاء الاسم مسندم أو إن شئت فقل السندان ، والاسم المناسب الذى يطلق على هذه الرأس فى بعض الأحيان . ولكن هذا ليس هو كل ما فى هذا الأمر ، نظرا لأن هناك صخرة مربعة ضخمة من البازلت تبرز من وسط المياه ، فى عرض البحر ، ويزيد ارتفاعها على مائة قدم أو أكثر ، وتقف وحيدة وسط الماء ؛ وهذه الصخرة يطلق عليها اسم " سلامة " ، وهى طريقة لطيفة فى التعبير عن " الخطر " ، كما هو الحال فى الـ " الأيومينات " Eumenides ، فى علم اللاهوت عند الإغريق . هذا الصخرة تشهد وتتسبب فى كثير من حالات تحطم السفن - والواقع أن حالات تحطم السفن هنا بلغت من الكثرة حدا جعل الناس هنا يظنون أن الشيطان هو الذى وضع هذه الصخرة فى هذه المكان عامدا متعمدا ، وأن هذه الصخرة شأئها شأن صخرة الانشيب Inchape ، ما يزال يسكنها محطمون من الشياطين الذين لا يراهم الناس . وهناك العديد من القمم المثلمة الصغيرة ، التى تبرز فوق سطح الماء ، على شكل مجموعات بالقرب من هذه الصخرة الأم؛ ومجموعات الصخور هذه يطلق عليها اسم "بنات سلامة" . أخيرا ، فإن ما بين صخور الرأس نفسها ، وقمم رأس مسندم المخيفة ، وسلامه صاحبة الفأل السيئ ، هى وكل أسرتها الخائنة ، التى تستحق بك المعايير أن يطلق عليها هذا الاسم ، علاوة أيضا على جزيرتى لارج Larej وهرمز الصخريتين ، واللتي لا تبعدان مسافة كبيرة عن صخرة سلامة الأم ؛ فى كل هذه المسافة فإن المضيق بعيدا كل البعد عن الانفتاح أو السلامة ، وبخاصة عند الملاحين العرب . يضاف إلى ذلك أن التيارات القوية والمتقلبة التى تكتسح ذلك المدخل الضيق ، وكذلك العواصف المتكررة التى تنشأ وتتولد فوق مرتفعات رؤوس الجبال ، وفى عمان ، أو التى تندفع هابطة من سلسلة مرتفعات الخليج الجبلية الموجودة خلف بندر - عباس على الجانب المقابل من المضيق ، تزيد من أخطار هذه المنطقة .

وهنا جاء دورنا فى التعلم ، لا من خلال الخرائط ، وإنما عن طريق التجربة الشخصية . فقبل غروب الشمس بفترة وجيزة ، وعندما كنا نقترّب من الباب الذى سبق أن أشرنا إليه ، هدأت الرياح ؛ وتلى ذلك هدوء مميت ، دام قرابة الساعة ، حملنا التيار خلالها إلى مكان قصى فى اتجاه الغرب ؛ ثم هبت بعد ذلك ريح جنوبية - غربية - عنيفة ؛ والبحر فى هذه المنطقة عميق جدا حتى فى المنطقة القريبة من الشاطئ ، وبدأ يرتفع على شكل موجات تشبه المنفاخ ، جعلتنا نتجه مباشرة إلى سلامة ، وكنا على وشك أن نتعرف ، خلال فترة وجيزة ، ولولا بضع ياردات ، على هذه الأم وعلى بناتها . وأخذ الريان وطاقمه أقصى حذرهم ؛ وصاح يوسف كما لو كان طفلا ؛ وبدى الوجوم على وجه سيف ؛ أما أنا ، فقد دلفت بين خشبتين تحاشيا منى للتدحرج من هنا إلى هناك ، ثم تصرفت بعد ذلك مثلما فعل (سيدنا) يونس ، ودخلت فى نوم عميق لأنى لم يكن لدى ما أفعله . وطوال الليل كنا نتحرك ، هنا وهناك وفقا لمشية العاصفة^(١) ، تحت سماء مظلمة وخالية من النجوم ، فى حين كانت الأمواج العاتية تلمع بقممها المتقدة وهى تتلوى وتتحطم من حولنا . ويطلع النهار علينا ونحن وسط السحب ، والضباب ، والعاصفة ؛ وهنا وجدنا أنفسنا أسفل جزيرة لارج وقريبين منها ، تلك الجزيرة الموحشة ، الصخرية التى لا يوجد فيها سوى قلة قليلة جدا من السكان . ولم نعثر فى هذه الجزيرة على بر آمن ننزل عليه أو مرسى آمن نرسو فيه ، ومن هنا حاول طاقم المركب أن يدور حول جزيرة لارج ، وهنا بدأت الرياح تدفعنا بسرعة فى اتجاه هرمز ؛ وكشف البحارة عن مهارتهم الفائقة فى السيطرة والتحكم فى القلع Canvas الصغير أكثر مما كنت أظن .

وأنا لم أندم مطلقا على الفرصة التى تهيأت لى لزيارة جزيرة بلغت شهرتها التجارية ، التى تحدث عنها البرتغاليون الذين احتلوها ، مبلغا لو قدر للعالم معه أن يكون خاتما من ذهب ، فإن جزيرة هرمز ستكون فص الماس الذى يحلى هذا الخاتم . والشكل العام لجزيرة هرمز يوحى بأنها عبارة عن بركان خامد ؛ وأنا أرى أنها كذلك ، ومحيط الجزيرة يتكون من جدار بيضاوى عريض كونه صخور مثلمة شديدة التحدر أحرقتة النيران ؛ وتحيط هذه الجروف بحوض مركزى تنمو فيه الأدغال والحشائش ؛

(١) المشية لله وحده ، وليس للعاصفة مشية ، وإنما هى سبب من الأسباب التى أقام الله عليها حركة الحياة يقول تعالى " وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين " - (د. حلمى عبد المنعم) .

وهذه المنحدرات البازلتية التى فى الحاجز الخارجى تنتهى فى أجزاء كثيرة منها إلى البحر ، وسط مجموعات على شكل قمم عالية ومثلّجات رائعة مختلفة الألوان ، شبيهة بتلك المثلّجات التى تبدو عليها الحمم البركانية بعد أن تبرد . وفيما بين الشمال والغرب يوجد رعن مثلث الشكل ، منخفض ومستو ، يمتد مسافة طويلة داخل الماء ، ويضيق ليشكل عنقا من اليابسة ينتهى ببعض الصخور القليلة ، وقلعة حصينة ، بناها البناؤن البرتغاليون ، ولكنها لها مكانتها بين الآثار الرومانية ، وجدران هذه القلعة تبلغ من الصلابة حداً ، وبناؤها بلغ أيضاً من الأحكام حداً ، وكذلك الأعمال الاسمنتية ، كل ذلك بلغ من المتانة ومن الإحكام ومن الجودة حداً استطاع أن يصمد على امتداد ثلاثة قرون لتتكسر عليه عواصف البحر دون أن تصيب القلعة بأى أذى ؛ والجزء الأكبر من هذا الرعن يغطيه الحطام ؛ فى هذا المكان كانت تقوم واحدة من المدن المزدهرة ، التى تحولت الآن إلى أكوام مهجورة مشوشة ، من بينها العديد من بقايا المنازل الراقية والحمامات ، وبقايا كنيس كبير . وهناك منارة (قاروس) منعزلة ثمانية الأضلاع ، تشبه برج الشارقة ، ولكن أسلوبها الإنشائى من النوع الراقى وترتفع إلى حوالى مائة ياردة فوق مستوى نهاية البر ؛ وهذا البرج مبنى من الصخور ومن الحجر المرصوص على شكل أنماط مختلفة من عظام سمك الرنجة ؛ وداخل هذا البرج يوجد سلم حلزونى يوصل إلى قمة البرج ؛ ولكن الدرج مهدم ومكسر على ارتفاع اثنى عشر أو أربعة عشر قدماً من الأرض ، مما يجعل الوصول إلى الجزء العلوى من البرج أمراً مستحيلاً فى غياب السلم النقالى ، تلك الأداة التى كان من الصعب الحصول عليها فى هرمز فى تلك الأيام . وأنا أستطيع ، من واقع المنشآت المماثلة ، التى شاهدها فى كل من بغداد وكركوك ، أن أقول : إن ذلك البرج كان عبارة عن مئذنة لواحد من المساجد الفارسية ، وأن البرتغاليين استخدموه فيما بعد ليقوم بدور المنارة . وبالقرب من القلعة توجد مجموعة من الأكواخ تقدر بحوالى مائة كوخ مصنوعة من اللبن ، يسكنها الصيادون والرعاة الذين ترعى قطعانهم فى المراعى الموجودة فى فوهة البركان ؛ ولا توجد سوى تعريشة واحدة يباع فيها التمر ، والزبيب ، والتبغ ، ودارت فى خاطرى خواطر معادة فرضت نفسها على فكرى عندما شاهدت ذلك التحلل الموحش . لقد شاهدت إذلال تير Tyre ، واندحار سوريات Sufat ، كما شاهدت أيضاً انحطاط جوا Goa ؛ ولكن ما أصاب هذه الموانئ الثلاثة يقل بكثير جداً عن الدمار والخراب الكامل الذى حل بميناء هرمز .

وسبب اندحار هرمز نابع من داخلها ، ومعروف أن تجارة هرمز كانت تعتمد من ناحية على التجارة الهندية ، ومن الناحية الأخرى ، على الأهمية المؤقتة التي كانت لهذه الجزيرة باعتبارها محطة برتغالية يوم أن كانت البرتغال من بين أوائل البحارة والتجار فى العالم ، يضاف إلى ذلك أن الطريق الذى فتحه البحر الأحمر ومصر أعطى التجارة الهندية اتجاها آخر ، فى الوقت الذى أدى فيه أفول نجم المشروع البرتغالى والقوة البرتغالية إلى انحطاط التجارة فى هرمز إلى أدنى مما كانت عليه فى القرن السادس عشر . كانت أهمية هرمز تتركز ، بدرجة كبيرة ، على النشاط الأوروبى الذى تم تعديله ليلبى احتياجات المحطات الأوربية فى الشرق ، أكثر من اعتماده على أسباب ثابتة وبالتالي يكون لها صفة الدوام والرسوخ . ولما كان البرتغاليون أقوياء فى البحر ، وعاجزين عن التعامل على نطاق واسع ، مع الحكومات الوطنية فقد فضلوا أن يكون لهم جزر بحرية بدلا من الدور القارى البرى ، نظرا لأن هذا الدور الجزرى البحرى يضمن لهم ولبضاعتهم الأمن والسلامة ؛ ومن هنا ، فإن ميناء هرمز ، الذى كان بطبيعته ميناء كبيرا ، كان يناسب احتياجات البرتغاليين أكثر من الموانئ الساحلية فى كل من لينجا ، وبندر عباس ، وصوحر ، وبقية الموانئ الأخرى التى يصل إليها مد التجارة فى هذه الأيام ، بل أن هرمز كانت أنسب وأهم عند البرتغاليين من مسقط ، التى بدأ وجودهم يتأرجح فيها ، كما بدأ الناس هناك يعطلون ويعرقلون إلى حد كبير ، المصالح والتصرفات البرتغالية بدرجة كبيرة . ومن وجهة النظر العسكرية والسياسية ، فإن جزيرة هرمز ، بحكم قربها من مدخل الخليج ، وبحكم سهولة تحصينها فى مواجهة أى هجوم عليها ، يجعل لهذه الجزيرة قيمة خاصة . ولكن فى الوقت الراهن ، ونظرا لأن الشاطئين الفارسى أو العربى ، يتبعان حكومة وطنية واحدة . فى حين أن كلا من مسقط ، وصوحر ، ولينجا وحوالى عشرين ميناء آخر يقدم كل منها مزايا مساوية أو تفوق تلك المزايا التى يقدمها ميناء هرمز لحركة الملاحة والتجارة ، ومع عدم وجود تجارة برية نجد أن أهمية هذه الجزيرة بدأت تتناقص بشكل كبير ؛ ولولا مناجم الملح الموجودة فى الجانب الشمالى الشرقى ، والتى يستطيع القاصى والدانى أن يقطع ويحمل منها ما يشاء شريطة أن يدفع مبلغا تافها للخزانة العمانية ، لولا هذه المناجم ، لتحولت جزيرة هرمز إلى شبه صحراء أو إن شئت صحراء خاوية . ولا يسكن فى القلعة الآن سوى حاكم عمانى صنيع ومعه بعض أفراد حاشيته ليحافظ عليها بالشكل التى كانت عليه ؛ ولتكون ملجأ تلوذ به السفن ، مثل سفينتنا ، عند هبوب العواصف ، طلبا للحماية من الطقس السيئ ؛ كما أشاهد أيضا قليلا من قوراب الصيد التى تتجول فى المياه الشاطئية .

وجزيرة هرمز لا توجد بها عيون مائية دائمة ، ومع ذلك فإن مياه الأمطار تزود مستجمعات المياه ذوات القباب ، التي أنشئت هنا على نمط المستجمعات المقامة في لينجا ، بالماء الذي يفي باحتياجات السكان القليلة منه ، طوال العام . وهناك خندق عميق يحيط بالقلعة من ناحية البر ؛ ولا تزال بوابات القلعة تحتفظ منذ أيام البرتغاليين بأبوابها المجلدة بالحديد ؛ وجدران القلعة ما تزال بحالة جيدة ، إذ لم تصب العقود سوى بقليل من الأضرار ، يضاف إلى ذلك أن القلعة من الداخل لم تتغير كثيراً عما كانت عليه في الأزمان القديمة . ويبدو أن قهوة حاكم الجزيرة ، أو إن شئت فقل غرفة استقبال الحاكم ، كانت في يوم من الأيام ، الكنيسة الداخلية ، لحامية القلعة ؛ وهذه القهوة تتسع لحوالي ثلاثمائة شخص . والجزء الأكبر من القلعة غير مأهول الآن ، علاوة على أن حاكم الجزيرة الحالي هو وكل حاشيته يعيشون داخل ركن واحد فقط من أركان هذه القلعة الفسيحة ؛ أما بقية القلعة - الغرف ، والأروقة ، والمخازن ، ومخازن الذخيرة ، فهي متروكة ، كما تقول العبارة المغربية لمشيئة السماء تفعل بها ما تريد .

وميناء هرمز نفسه مكون من خليجين ، كل منهما على شكل هلال ، أحدهما ناحية الغرب والثاني في شرقي الرعن . والمرسى من النوع الجيد الآمن ؛ وفي الوقت الذي يتعرض أحد الجانبين لهبوب العواصف ، يكون الجانب الآخر في مأمن منها ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا الركن من المضيق ، الغائر على نحو يجعله يعانق الساحل الفارسي ، تقل فيه قوة العواصف المعتادة عنها في أي مكان من الأماكن الأخرى البعيدة عنه . ومقابل الميناء الشمالي - الغربي يوجد جبل مرتفع ، وعند سفحه توجد مدينة بندر - عباس . والمسافة البحرية بين هرمز والأرض الرئيسية تقدر بحوالي عشرة أميال ؛ وجزيرة جشم توجد في غربي هرمز ، أما جزيرة لارج Larej فهي في الناحية الشرقية ، وهما واضحتان للجميع ؛ وتظهر عند الأفق كل من رأس مسندم وسلسلة جبال رؤس الجبال .

دامت العاصفة التي دفعتنا إلى جزيرة هرمز ثلاثة أيام ، كان من المستحيل علينا أن نبحر خلالها . وأمضيت مع يوسف الجزء الأكبر من وقتنا على البر ؛ ولكن نظراً لأن تسعة أعشار السكان لا يتكلمون سوى الفارسية ، لم أستطع التحدث طويلاً معهم . كان حاكم الجزيرة مؤدباً جداً ، ولكنه كان كثير الكلام ؛ وأكرمنا في ضوء الفاقة التي تعاني منها الجزيرة ؛ وكان طبق لحم الضأن على مائدة هذا الحاكم ، يبدو نوعاً من

الترف والرفاهية بعد لحم سمك القرش الذى اعتدنا أن نتخذه طعاما لنا ونحن على ظهر المركب . وأسماك القرش توجد بكثرة فى مياه الخليج ، وليس هناك أحد يمكن أن يتمنع عن أكل لحومها ؛ برغم أن المتخيل المأخوذ عن هاملت الذى مفاده أن الملك يحدث له نوع من الارتقاء من خلال أكل لحوم أسماك القرش ، يمكن اختصاره بمعدل مرحلة واحدة هنا . ولحوم أسماك القرش مغذية ، ولكنها فى أفضل الأحوال لا طعم أو نكهة لها ؛ والناس يطلقون اسم الأول هنا على أسماك القرش ، وهذا الاسم هندي الأصل ؛ أما الاسم العربى الذى يطلق على سمك القرش فهو "كلب البحر" . وقد سعدت كثيرا عندما علمت أن نيبور نفسه ، ومعه بعض الرحالة الآخرين ، ونظرا لقلة تواصلهم مع السكان المحليين والمصطلحات الفنية المحلية ، اعتبروا كلمة "أوال" Awwāl اسما لمكان ، وترتبا على ذلك سموا جزيرة البحرين بهذا الاسم الذى يشيع ، بصدق ، بعيداً عن هذه الشواطئ ، ولكنه لا ينطبق عليها . من هنا فإن البحرين يطلق عليها فى بعض الخرائط اسم "الأوال" أو إن شئت فقل "القرش" ، تماما مثلما يحدث عندما يزور أحد الأجانب ساحلنا الشرقى ، ثم يدون إنجلترا فى ملاحظته تحت اسم "الرنجة" أو "الماكريل" . وليست هناك جزيرة ، كبرت أم صغرت ، داخل الخليج تحمل اسم "الأوال" .

ومن الأمور شديدة الوضوح التى لا تحتاج إلى أن نشير إليها ، ومع ذلك فإننا يجب ألا نتركها تمر مر الكرام ونسكت عنها تماما ، مسألة لهجة ، أو إن شئت فقل لُغِيَّة ربانة البحار والبحارة الذين يحيطون بعمان وبر فارس ؛ هذه اللهجة عبارة عن خليط من اللغة العربية ، واللغة الفارسية ، واللغة الهندوستانية ، واللغات الأفريقية أو الزنجية من حين لآخر ، إلى جانب قدر معين من الانجليزية الفصيحة ، التى شوهوها كى تكمل قائمة مفرداتهم . وهؤلاء الربانة والتجار يقضون حياتهم وهم ينتقلون خلالها فى رحلات بحرية إلى الشواطئ التى يتكلم الناس فيها اللغة الفارسية ، أو كراتشى ، أو بومباي ، أو منجالور ، أو كنانور ، أو إلى بعض الموانئ الهندية الأخرى ، وأحيانا إلى زنجبار وإلى صواويل ؛ وأطقم البحارة نفسها فى مجملها عبارة عن خليط عجيب من الرجال ، الذين يحملون معهم إلى ظهور المراكب لغات غير اللغة العربية . وفيما يتعلق بالكلمات الانجليزية ، فإن القارئ يستطيع أن يقف بسهولة على انتشار "قسم التجارة البريطانية ولهجة الوفرة والثراء" اللذين شقا طريقهما إلى هذه المنطقة . من هنا ، فإن الرحالة الذى لا يحرص حرصا تاما ، ولا يعرف الكثير عن هذه اللغات

حتى يستطيع أن يميز الواحدة عن الأخرى ، وأن يُقَيِّم ويتعرف التطبيقات والاستعمالات المشوهة لهذه المسميات غير المشروعة ، مثل هذا الرحالة يمكن أن يقع فى أخطاء كثيرة ، ويخطئ أيضا فى كثير من المفاهيم من حيث الاستماع ومن حيث التدوين أيضا .

وعلى طول ساحل هرمز الشمالى والشرقى توجد بقايا القلاع الصغيرة القديمة ، التى بناها البرتغاليون أثناء تواجدهم فى هذه المنطقة ؛ ولكن التحوطات التى من هذا القبيل تقل ناحية الجنوب نظرا لأن الطبيعة فى هذا الجزء من جزيرة هرمز هى التى تلعب دور الدفاع بدلا من المهندس نفسه . وتجولت فى الجزيرة ، وتفحصت المنشآت المهدمة ، وتسليقت أسوار الطريق ، وألقيت نظرة على مناجم الملح ، وحاولت (بقليل من النجاح) أن أجعل الإيرانيين يتواصلون معى ، كما حاولت شد حاكم الجزيرة إلى التكلم والثرثرة ، ولكنى لم أفجح فى ذلك ؛ إذ يبدو أن حاكم الجزيرة كان قد اتخذ الموقف الذى مفاده " لا تطرح على أسئلة ، وأنا من ناحيتى لن أكذب عليك " وجعله شعارا له ؛ وقد تنفس هذا الحاكم الصعداء عندما علم أن الجو قد تحسن وأن ريحا شمالية مرسلة بدأت تهب مما سيجعلنا نبتعد عن طريقه .

وأخيراً بدأت النسمات تهب ، وفى صباح اليوم السابع والعشرين بدأنا نبحر من جديد ، وبدأنا نتجه جنوبا ، إلى أن تجاوزنا سلامة وبناتها مرة ثانية - ولكن بلا خوف فى هذه المرة ، ومن الجانب الشرقى - ثم اتجهنا لنكون مقابلين للمدخل الخارجى لما يسمونه الباب أو إن شئت فقل باب مسندم ، الذى لم نعد بحاجة بعد إلى المرور منه . وواصلنا إبحارنا ببطء أسفل صخور تشبه الأعمدة (التى ذكرتنى بنقوش قديمة منذ عهد كهف فينجال Fingal وممر المار Giant) ، وفى صباح اليوم التالى توقفنا مدة ساعة أو ساعتين فى خليج من الخلجان المحمية ، الذى كان عبارة عن بحيرة داخلية باستثناء شريط المياه الضيق الذى يصل هذا الخليج بالبحر . وعلى الجانب البعيد من هذا الخليج كانت توجد قرية روباه Roobah ؛ وهذه القرية تتبع منطقة رؤوس الجبال - وهو اسم على مسمى .

كان الهدف من زيارتنا كما هو لم يتغير ، إذ كان يتمثل فى الحصول على حمولة من أسماك المطوط ؛ ولكننا لم نحصل على هذه الشحنة ، واضطررنا إلى أن نخرج من الميناء الصغير ، وقصدنا ميناء ليمة Leymah الذى لا يبعد كثيرا عن الشاطئ .

واسم ليمة يطلق على خليج صغير ، والقرية نفسها هي أكثر القرى ازدحاما بالسكان وهي أهم القرى الموجودة في منطقة رؤوس الجبال ؛ وهذه القرية هي أقرب القرى التي تقع على الجانب الشرقي من حدود المنطقة . وخلف هذه القرية تبدأ منطقة قلحاط ، أو قلحوط كما يسمونها في أغلب الأحيان ، وهذا الاسم يوضع ، في معظم الخرائط ، على الجزء الجنوبي الشرقي من مسقط ، بالقرب من رأس الحوض . وأنا في استكشافاتي لم أذهب إلى هذا المكان ؛ وعليه فأنا أزعّم أنه لابد أن تكون هناك قرية أو مدينة تحمل هذا الاسم ؛ ولكن القلحاط الوحيدة التي سمعت عنها في عمان ، كانت هي المنطقة التي تقع حدودها الشمالية عند رأس ليمة، وتقع مدينة الباطنة في جنوبها .

ودخلنا الخليج ؛ ولكن الليل كان قد بدأ يرخي سدوله ، وكان أوان النزول إلى البر قد فات ، وبناء على ذلك ، ألقينا مراسينا عند سفح بروز من بروزات الساحل ، كان مكونا من صخور بارزة تتدلى فوق الماء ، وقررنا أن نبقى في ذلك الماء إلى أن يطلع النهار . ولكن قبل منتصف الليل بفترة قصيرة هبت ريح عنيفة ، من نوعية الرياح التي يشيع هبوبها على هذا الساحل ، جاءتنا من الجبال وتحطمت علينا بشكل اضطرب مركبنا أن ترفع مراسيها واندفعت بين الصخور ، وكان البحارة قبل ذلك ، قد استيقظوا مفزوعين من نومهم ، وراحوا يقومون بالمناورات اللازمة للخروج من هذا المكان . وفي الوقت الذي كان الجميع يجرون ويتصايحون خلاله ، اصطدمت مقدمة المركب ، وتلى ذلك الاصطدام ، اهتزاز وارتعاش ، وبعد ذلك بلحظة حدث لقص^(١) المركب وقيدومها^(٢) الشئ نفسه . وعلى كل حال ، فقد أمكن بفضل الجهود الخرافية ، غير الموفقة ، التحكم في السفينة والاستفادة من هذا التحكم فيما بعد في إعادة المركب إلى داخل الخليج ، لتكون في وضع أفضل تتمكن معه من إلقاء مراسيها مرة ثانية ، وتكون أيضا في موقع محمي من العواصف والأنواء .

وطلع علينا الصباح بمنظر غاية في الجمال . كان المنظر عبارة عن شاطئ حصيب ، من خلفه وادٍ تنمو فيه أشجار الغابات في المسافات ما بين الجبال ، وكان ينتهي بممرات ضيقة ، تكسوها الأشجار أيضا ، برغم أن الجروف الجرانيتية المنحدرة

(١) القص : بتشديد الصاد وضمها ، هو العارضة الرئيسية التي تمتد على طول قعر المركب - (المترجم) .

(٢) القيدوم : بفتح القاف وتسكين الياء وضم الواو ، هو مقدم المركب - (المترجم) .

كانت تنتشر هنا وهناك ؛ وعن يميننا كانت توجد قرية ليمة ، على شكل منازل الواحد منها فوق الآخر ، وصف فوق صف ، بصورة متدرجة على جانب التل ، شأنها فى ذلك شأن كثير من القرى التى شاهدها أيام صباى السعيد ، داخل كانتون تسينو السويسرى ، أو - ولكن فى مرحلة لاحقة وأقل وردية - على منحدرات لبنان . وكانت أكواخ ليمة مبنية من الحجر ، ولها شرفات وأسوار بستانية - كانت تلك الأكواخ تبدو أنيقة ومريحة ؛ وذلك من منظور عدد المنازل ، وإجمالى عدد السكان الذى يقدر بحوالى ألفى نسمة . وفى أعالى هذا التل كانت توجد قطعان الماعز التى كانت تنتشر على حيود الجبل، وكنا نشاهد الرعاة وهم ينتقلون بين هذه القطعان؛ وأسفل هذه القطعان ، كنا نشاهد فى الوادى جماعات من الفلاحات اللاتى كن ترتدين ثيابا زرقاء وهن تتحركن بحثا عن الماء ليجلبنه من الآبار ؛ فى حين كنا نشاهد على الشاطئ زوارق بعضها كبير وبعضها صغير ، موضوعة على الشاطئ أو جاهزة لصيد السمك ؛ وأخيرا - منظرا بهيجا ل - ربان مركبنا هو وطاقمه - وهذه أكوام كبيرة من أسماك المطوط الطازجة تتلألأ على الحصباء ، فى حين نشاهد أكواما أخرى من هذا السمك يجرى تجفيفها على الصخور فى ضوء الشمس .

ونزلنا جمعيا إلى البر ؛ ودخل رباننا هو وأفراد طاقمه فى مساومة على شراء حمولة من أسماك الانكوكا الشرقية ، فى حين راح كل من زيد ويوسف وأنا معهم ، نتجول طوال ساعتين فى أنحاء الوادى ، الذى كان يحتوى على حياة نباتية وفيرة مختلفة الأشكال والأنواع - أشجار البلوط ، النخيل ، وأشجار اللوتس ، وأشجار السنط ، وأشجار لها أوراق لامعة خادعة ، تنتمى إلى الفصيلة التى يسمونها هنا المقساة Mok.sah ، وتحمل نوعا من التوت المستدير الذى يعطى مادة لزجة غروية يستعملها صيادوا الطيور ؛ وهذا المنظر على النقيض تماما من الجذب الذى شاهدناه فى كل من رأس الخيمة وهرمز . والسكان الذين التقيناهم هنا معظمهم من الرعاة أو صيادى السمك ، وهم من النوع الودود جداً ؛ وقد استدرجت بعضا منهم للكلام عن الإنجليز ، الذين يتجسسون عليهم وعلى سفنهم وبواخريهم من الأوكار الموجودة فى أعالى الجبال. ولكن المسئولين شأنهم شأن المستمعين ، لا يسمعون خيرا عن أنفسهم ، وهذا هو ما حدث لى عندما استدرجت هؤلاء الناس إلى الحديث عن الإنجليز . وبالرغم من كل هذه المزايا التجارية ، والحضارية ، والحمائية ، وغير ذلك من المزايا الأخرى ، إلا أنها لا تفوق العداء الوطنى ، الذى يزداد عمقا ، بفعل التخوف من استيلاء الأجانب

على هذه الأراضي - وهذا الخوف له ما يبرره ، إلى حد ما ، من منطلق أن سكان هذه البلاد يرون ويشاهدون الغزو الأجنبي للهند ، وممتلكات الأجانب في الهند ، والغزو الأجنبي للبنجاب ، والحروب الصينية ، فضلا عن كثير من الامثلة الأخرى لذلك الذى يحدث إن أجلا أم عاجلا عندما يصطدم الحديد بالصلصال - أو عندما تصطدم أوربا بأسيا ، وهذه الأحداث التى سبقت الإشارة إليها ، لم تتم فى الخفاء ، ولا تعد من قبيل الأسرار فى عمان ، لقد نشرت هذه الأحداث الخوف ولم تفعل سوى القليل من أجل الحب . ومن هنا فأنا أخشى أن يرضى أهل بلدى ، من الجيل الحالى على أقل تقدير ، فى منطقة ليمة بما يسميه تاسيتوس "دعهم يكرهون طالما يخشوننى" Oderint Dum Metuant Tacitus - وهذه الكلمات تلخص الموقت تلخيصا دقيقا .

وقد كان أصدقائى الصيادون يبدون خائفين ومذعورين ، تخوفا من أن الإنجليز إذا ما عرفوا خيرات رؤوس الجبال وليمة بشكل خاص ، فإنهم ربما يتركون جزيرتهم ، ويعودون كلهم - ملكا ، وملكة ، بل وجميعهم (هذا هو ما رواه لى واحد من أهل هذا المكان) ليستعمروا رأس مسندم . وأنا ليس من حقى أن أعترض على المخاوف التى من هذا القبيل ؛ يضاف إلى ذلك أن بشرتى الشقراء ووصفى كغريب ربما جعلانى محطا للشك وأنا أدافع عن المسألة البريطانية . من هنا ، رحت أتنهد فى شئ من القلق التعاطفى ، وإلى وقتنا هذا فإن قلوب أهل ليمة ترتجف من فكرة رؤية قصر باكتجهام ، ووستمنستر هول ، وهما ينتقلان فجأة إلى رؤوس الجبال .

وبعد أن عدنا من تمشيتنا قمنا بزيارة القرية . وبحثنا ، دون جدوى ، فى كل حاراتها وطرقنا كل أبوابها ، بلا طائل أيضا ، بحثا عن كرم الظهيرة ؛ ولم نصادف فيها رجلا واحدا ؛ إذ كان الرجال كلهم " خارج منازلهم " - ليس هروبا من المنازل ، وإنما فى أعمالهم الشاقة - التى كانت تتمثل فى صيد السمك ، ورعى الأغنام ، وتجفيف المطوط أو بيعها وما إلى هذه المهن . وقد دعتنا امرأة طيبة كانت فى أحد المنازل ، لنشاركها بعضا من الخبز الجاف ، الذى كانوا يرشون عليه شيئا من الماء حتى يلين قليلا ، وكان ذلك يمثل نوع الترفيه الذى يحق لقرية ليمة أن تتفاخر به ، أما القهوة فكانت مسألة لا نقاش فيها . وبالقرب من مجرى السيل خلف القرية كانت هناك قبة صغيرة، تحظى بكثير من التوقير والتقدير ، وكانت تتصل بهذه القبة حكاية طويلة ، حكاها لى رجل عجوز، بلغة عربية ركيكة جداً ، إلا أننى لم أفهم شيئا من هذه القصة ،

فيما عدا أن نارا مقدسة كانت قد أوقدت فى ذلك المكان ، فى يوم من الأيام ، ولكنها اختفت بعد فترة من الوقت ، عندما سمعت هذه الحكاية أشعلت غليونى ، ورجوت صديقى العجوز أن يفيد من هذا الغليون ، فى الاستعاضة به عن نار "القبة" التى أطفئت . وقد ضحك صديقى كثيرا ، وقبل هذه الدعوة .

وفى فترة العصر عدنا إلى المركب من جديد ، وقضينا فترة المساء فى الإبحار على طول ساحل قلحاط أو إن شئت فقل قلحوط ؛ وهذا الساحل صخري أيضا ولكنه أقل وعورة من ساحل رؤوس الجبال . وفى صبيحة اليوم التالى أبحرنا من خليج ظيبى D.ebee ، ذلك الخليج الرائع ، الذى لا يقل جمالا عن خليج نابلس ؛ وتنتشر على شواطئه مجموعة كبيرة من القرى الصغيرة ، ومن خلف هذا الخليج توجد بانوراما جبلية مثل بانوراما صقلية . وقد راودتنى رغبة كبيرة عن النزول إلى البر والتمشى على الشاطئ ؛ ولكن ريان المركب كان راضيا تماما عن حمولة المطوط ، ولم يكن لديه أو لدى أحد من طاقم المركب سببا أو مبررا يجعله يلقي مراسيه فى ظيبى D.ebee . ومن هنا واصلنا إبحارنا على طول الساحل ، الذى تزداد خصوبته وكثافة أشجاره فى هذه المنطقة ، فى حين تقل الجبال أكثر فأكثر كلما اتجهنا إلى الداخل ، لتذوب بعد ذلك مع سلسلة مرتفعات جبل أخضر خلف مدينه باطنة . وهذه المنطقة ، تتبع ، إلى حد ما ، منذ الحرب التى دارت مؤخرا ، خالد بن صقر الذى يقوم بجمع الإيرادات ، ولكنه ليست له سلطه إدارية ؛ وسكان هذه المنطقة كلهم من البياضيه . ويعيش السواد الأكبر من السكان ، فى هذه المنطقة ، على ساحل البحر ، فى الأماكن التى تسمح فيها الأراضى المستوية بالزراعة ، ويحفز البحر السكان على صيد السمك والتجارة ؛ وهذه هى أهم الحرف عند الرجال العمانيين . وظيبى D.ebee هى المدينة الرئيسية فى قلحاط ، وفيها يسكن الحاكم المحلى ؛ والحدود الداخلية لمنطقة قلحاط الذى يحددها هو سلسلة الجبال التى تفصل قلحاط عن مدينة الشارقة . وعند الظهر تجاوزنا مدينة زبارة ، وهى مدينة صغيرة ، ولكن تحيط بها بساتين مثمرة ؛ وهناك بعض القرى الصغيرة الأخرى التى تشكل سلسلة بطول الساحل ، والسبب فى ذلك أن كثافة السكان فى قلحاط أعلى منها فى رؤوس الجبال، إضافة إلى أن سكان قلحاط أكثر تحضرا من سكان رؤوس الجبال.

وقبل حلول المساء كنا قد أصبحنا مقابلين لواحدة من القمم العالية شديدة التحدر ، التى تبعد حوالى عشرة إلى اثنى عشر ميلا عن الساحل ؛ وهذه القمة تمثل النقطة الجنوبية التى تلتقى عندها سلسلة مرتفعات رؤوس الجبال ، ويطلقون عليها اسم

قَطَّاع اللُّحى ، برغم أنى لا أعرف من أين جاءوا لها بهذا الاسم ؛ ووادى الحمم يمر أسفل قطاع اللحي ، ومن وادى الحمم ، فى هذه المنطقة ، يتفرع طريق يصل مباشرة إلى الشارقة . التى تقع مقابله لهذه النقطة على الجانب الآخر . ومن قطاع اللحي وفى اتجاه الجنوب ، تبدأ منطقة باطنة التى تمتد بطول الساحل إلى أن تصل إلى برقا ، ثم تتجه نحو الداخل إلى منحدر جبل أخضر .

ومنطقة باطنه هى أغنى مناطق عمان ولكنها ليست أهم هذه المناطق . ولما كانت منطقته باطنه يحدها البحر من جانب وسلسلة جبال جبل أخضر العالية من الجانب الآخر ، فإن سقياها بالماء أفضل من أى منطقة أخرى فى الجزيرة العربية كلها ؛ وتربة باطنه رطبة بفضل العيون المائية من ناحية ، كما تبللها ، خلال شهور الشتاء مياه الأمطار الغزيرة من الناحية الأخرى ، يضاف إلى ذلك أن مجارى السيول الجبلية تخترق منطقة باطنه فى كثير من مناطقها ، برغم أن أى مجرى من هذه المجارى لا يمكن أن نسميه نهرا من ناحية الحجم أو الدوام ، أو يستحق أن يجد له مكانا على الخرائط . وهذه المنطقة عبارة عن سهل كبير ، يصل طوله إلى ما يقرب من مائة وخمسين ميلاً ويتردد عرضه ما بين ثلاثين وأربعين ميلاً ؛ ومنطقة باطنه من الداخل ، ترتفع تدريجياً على شكل منحدرات وتلال خضراء ، فى حين أنها ترتفع من ناحية البحر إلى مستوى أعلى من مستوى سطح المحيط مما يجعلها فى مأمن من المناخ غير الصحى الذى تعاني منه القطيف والمناطق الساحلية الشبيهة بها . والحياة النباتية فى باطنه تنافس مثيلتها فى منطقة الكنكان الهندية من حيث الثراء والتنوع ؛ يضاف إلى ذلك أن طابع الحياة النباتية فى باطنه لا يختلف عن طابع الحياة فى منطقة كنكان أيضاً . ففيها أشجار المانجو ، وأشجار جوز الهند ، ونخيل التَّنْبُول ، إضافة إلى العديد من الأحراج الأخرى التى ألم إلاما تاما بأسمائها الهندية أفضل من العربية ؛ ومن بين هذه الأحراج مثلاً دغل الأليع Aaley ، وشجرة الكاثول Kathol التى يقول لها الإنجليز Jack - Fruit ؛ وثمره الجامبلو Jamblu يزينونها هنا ويطلقون عليها اسم "الخوخ" Khowkh ؛ كما توجد هنا أيضاً ثمار الباباي Papay التى تشيع فى المنطقة المحيطة بمدينة بومباي ؛ ناهيك عن كثير من الأدغال القصيرة والنباتات التى تنمو على سطح الأرض والتى تنتمى إلى الحياة النباتية الاستوائية ، وهذه الأدغال كلها تختلط بأشجار النخيل وأشجار الأثل ، التى ترفض إلا أن تبقى شاهدة على طبيعة التربة العربية . والإنتاج الزراعى هنا متنوع أيضاً . وهم هنا يزرعون القطن الأبيض والأحمر -

والواقع أن القطن الأحمر هو الأكثر شيوعا هنا ، ويكثر الطلب عليه محليا ؛ كما يزرع البن هنا أيضا رغم أنه يشبه البن الهندي ولا يصل إلى نوعية البن اليمنى ؛ وهم يزرعون هنا أيضا النيلة ، وقصب السكر ، والبطاطا أو إن شئت فقل اليام ، والقمح ، والذرة ، والدخن ، وكثير من النباتات البقلية ، علاوة على أشجار المشمش ، والخوخ (الخوخ الفارسي) ، وأشجار المكسرات ، وكذلك التفاح ، على ما أعتقد - برغم أنى غير متأكد إن كان التفاح يجرى استيراده من إيران ؛ والناس هنا يطلقون على التفاح اسمه الفارسي " سيب " ، والبساتين المثمرة تكسو جوانب جبل أخضر ، وهذه البساتين تنتج أنواعا ممتازة من الأعناب والنبذ ؛ وسكان منطقة باطنه سعداء لأنهم من القرامطة ، وليسوا مسلمين ، أو لأن الطبيعة أعطتهم أحلى ما عندها . وأخيرا ، هناك أيضا أشجار السنديان ، وأشجار البلانيرة المائية^(١) ، وأشجار النبق ، التي تجود ويكثر نموها هنا ، وهم يستعملون أخشاب هذه الأشجار فى بناء السفن ، والمنازل ؛ كما يجلبون خشب الساج من الهند .

ويقال أن عدد القرى والمدن فى منطقة باطنه يزيد على مائة قرية ومدينة ؛ وأنا من واقع ما شاهدت أوافق وأتفق مع من يقول بذلك . والساحل فى باطنه عبارة عن خط متصل من البساتين والمنازل، ابتداء من قرناه K.ornah ، التى تبدأ منها منطقة باطنه ، إلى منطقة برقا Bark.a ، التى تنتهى عندها ؛ وعلى مرمى البصر لا ترى سوى زراعات ومنازل ، لها خلفية منخفضة من الخضرة والنباتات . وصوچار هى عاصمة باطنه؛ وبرقا هى ثانى المدن من حيث الأهمية؛ واللواعوا Lw'wa ، والسويق، والفاجرة Fajirah ، وصوحام ، ومضاع ، عبارة عن مراكز سكانية مهمة . ولعلنا نعود الآن إلى سياق رحلتنا ، ونتناول كل جزء منها ، طبقا لترتيبه وتسلسله.

وعند حلول الليل ضعف هبوب النسيم ، واقتربنا كثيرا من الشاطئ . ومع سطوع الزهرة ، التى رحب بها البحارة تحت مسمى الفرخد ، بدأت ريح البر فى الهبوب ، وهنا واصلنا إبحارنا بلطف وانتظام بجوار الساحل ، فى حين راح ريان المركب هو وزيد يشيران إلى قرية إثر قرية ، ومدينة إثر مدينة . هذه هى الفاجرة Fajirah ، مسرحا دمويا من مسارح خالد بن صقر ؛ وهذه شيناز Shinaz ، التى حدثت فيها

(١) شجرة أمريكية صغيرة الأوراق ذات ثمر بيضى الشكل - (المترجم) .

أيضا مذبحة كبيرة ، ولم تمر هاتين المدينتين بلا تعليق من البحارة : وهاتان المدينتان من واقع شكلهما البحرى ما تزالا تبدوان كبيرتان ومزدهرتان ، والحرب ، شأنها شأن الطاعون ، يندر أن تترك أثرا على عالم الأحياء ؛ إذ لا يوجد مفيستوفليس Mephistophles قادر على عرقلة " الدم الجديد " من التدفق أحمر قانيا ؛ يضاف إلى ذلك أن الربيع العائد إذا لم يحمل معه " عمل السعادة " فإنه سرعان ما يستبدل نفس " أعمال السعادة " التى جناها الخريف بأخرى مماثلة تماما ، ولا يقل وفرة ، أو تهورا عن تلك التى جاءت قبلها . وتصارع الزهور لم يقض على الزهور التى تنبت فى إنجلترا بعد ذلك بسنوات قلائل ، إضافة إلى أن الحروب لم تجرد فرنسا من إمبراطوريتها ؛ إن جيلا واحدا ، بعد الحرب الأهلية الأمريكية ، كفىل بأن يزيد من كثافة السكان فى الولايات الأمريكية الشمالية ، أكثر مما كانت عليه قبل أن يصبح لينكون رئيسا للولايات المتحدة . والمعروف أن الحكم السيئ المتدرج يساعد أكثر من الطاعون على تخلخل السكان ، وخلال فترة قصيرة . كان منظر شيناز من أمامنا يوحى بمنظر من المباني الجميلة ، التى كل واحد منها عبارة عن نصف قلعة ونصف قصر ، وهذا الطراز مقصور على عمان وحدها ، وواجهات المباني كلها واحدة ومطلية باللون الأبيض ، وعلى جانبى كل منها مزاريب لتصريف مياه المطر ، وفوق كل منها مزاغل ، ولكل منها بوابة رئيسة ، وخلف كل مبنى يوجد برج مستدير ، وكل هذه الأشياء من الطراز القوطى ، وقد أنشئت بغرض المنظر الجميل والدفاع عن المبنى . والواقع ، أن الاعتقاد على جو "السلام العريق" والأمن ، يعد ملمحا أساسيا من ملامح الحياة العمانية . من هنا فإن زيدا وأهل بلده كانوا يتكلمون عن الغزو الوهابى الأخير بكلمات وعبارات مختلطة من الفزع ، والدهشة ، والاستياء ، والتى يستعملها الناس عندما يصفون شيئا لم يتعودوا عليه بالمرّة : زد على ذلك أن الحرب ، فى عمان ، تعد شيئا خارقا للعادة وغير طبيعى بالمرّة ، وذلك على العكس من نجد وغربى الجزيرة العربية اللتين تعدان الحرب أمرا طبيعيا . وعند حلول المساء رفعنا مراسينا وأبحرنا من فرقة ، بالقرب من سلسلة طويلة من المنازل، وسط مجموعة من البيارات كثيفة الأشجار الممتدة إلى شاطئ البحر- وهذا المكان عربى جيد السقيا ، ولا يختلف كثيرا عن سواحلنا الجنوبية ، ولكنه أجمل منها ؛ وبعد غروب الشمس بساعة سمعنا فى البحر دوى مدفع المساء ينطلق من مدينة صوحر .

وفى صباح اليوم التالى، كنا قد وصلنا، قبل شروق الشمس ، إلى مكلا صوحر ، التى قررت أنا ويوسف أن ننزل فيها ، وأن نواصل المسافة المتبقية عن طريق البر .

وأنا نادم لأننا لم نتمسك بقرارنا - وسوف يعرف القارئ حالا أسباب ذلك الندم . ولكن العبد فى تفكير والرب فى تدبير ؛ وعلى لوح ترد الحياة ، نجد أن الفرصة والظروف لا تقلان تدبيرا عن التعقل والتروى والمهارة . وهنا افترقنا عن زيد ، وودعناه ، هو ورفاقه على غير رغبة منا ، بعد أن قدموا لنا كثيرا من الدعوات ، وبعد كثير من الوعود من جانبنا ، بأننا سوف نتصل بهم من صوحام S.oh.am ، ثم نزلنا إلى الشاطئ فى قارب المركب ، الذى يسميه العمانيون "جاليبوت" Jaliboot . وصَحَبْنَا الرِّبَانَ إِلَى الشَّاطِئِ ، واستطاع عن طريق وضع الكلام فى موضعه الصحيح أن يقنع موظفى الجمارك بأن يفرجوا عن أمتعتنا بلا رسوم . وينبغى أن أشير هنا إلى أننا كنا نحمل معنا القسم الأكبر من هدايانا ؛ أو إن شئت فقل كنا نحمل معنا تلك الهدايا التى كانت ستقدم لكل من ثوينى وحاكم صور S.oor .

كان مقصدنا الأول هو رئيس المدينة ، الذى كان اسمه فخار Fakhar ، وكان رجلا مهما . ولكن لسوء حظنا ، لم يكن هناك ، إذ كان مع السواد الأعظم من أسرته ، فى زيارة للسلطان ، ولم يكن هناك من ينوب عنه فى استقبالنا . وانتظرنا لحظة ، لم نكن نعرف خلالها إلى أين نذهب ، وهنا ظهر شاب صغير ، عرف أننا فى ورطة ، فجاء يسألنا عن المكان الذى سنقيم فيه . وتذكر يوسف بن خميس صديقا عمانيا قديما من أصدقائه ، كان قد نزل عليه ضيفا قبل عدة سنوات ، عندما كان فى رحلة تجارية مع أبى عيسى فى هذه المنطقة ، وسأل ابن خميس ذلك الصبى عن هذا الصديق العمانى . ورد عليه الصبى أنه يعرف ذلك الرجل العمانى ، وعرض علينا أن يدلنا على بيته ، الذى كان فى وسط المحمية .

وذهبنا إلى منزل ذلك الصديق العمانى ومعنا الصبى . كان الوقت لا يزال مبكرا ، وكان عيسى ، ذلك الصديق العمانى ، ما يزال نائما يتمتع بسنة من نوم الصباح ؛ كان حصانه ، ذلك المخلوق الجميل ، يقف مربوطا بالقرب من بوابة منزله ، وصهل الحصان وعندما وصلنا إلى الباب الخارجى وبدأنا نطرقه . وهنا ظهر أحد جيران ذلك الصديق ، وأيقظنا كلنا صاحب المنزل ، الذى استقبلنا استقبالا حارا ، واعتذر عن نومه ، وشرع على الفور فى تجهيز طعام الإفطار ، بعد أن أخذ بعين اعتباره أننا بحكم عودتنا من البحر ، لابد وأن تكون شهيتنا مفتوحة على غير العادة .

كان منزل عيسى مبنياً من القرميد ، ولكنه كان مزوداً بغرف خارجية مصنوعة من الخشب والقش ، وهذا بحد ذاته ترتيب جيد لتمضية ساعات النهار الحارة ، إضافة إلى أن هذا الترتيب من الأشكال الشائعة في عمان ، وبخاصة أن الطقس يكون حاراً في عمان ، في مثل هذا الوقت من العام : بل الواقع أن المناخ هنا يشبه مناخ بومباي من جميع الجوانب ؛ وبرغم أن دائرة العرض تنحرف بضع درجات ناحية الشمال ، فإن درجة الحرارة ، لا تقل عن درجة الحرارة في بومباي وذلك راجع إلى أسباب محلية . ومنازل باطنه متينة ، ولكن الناس هنا يهتمون اهتماماً كبيراً بانسياب حركة الهواء ؛ ولذلك يستعمل الناس هنا الأبواب الكبيرة ، ويكثر من أعداد النوافذ المزودة بالشعريات ، ومن الغرف الواسعة . والطلاء الأبيض يحل هنا محل الطلاء النجدي البني اللون ، وأرضيات المنازل هنا من الطين المضغوط ، الذي يخلط بالرمل في بعض الأحيان . ومن السمات الخاصة بالعمارة المنزلية في عمان ، والتي لها قيمتها ، أن الخصوصية لا تراعى في هذه العمارة المنزلية ، وأنا أعني بذلك أن الحريم في المنزل العماني ليست لهم خصوصية . وقد شاهدنا في كل من نجد ، وفي الأحساء ، وفي شومر وفي الجوف ، أن هناك نوعاً من التمييز بين أماكن الرجال وأماكن النساء - وأن هذه الخصوصية ليست صارمة كما هو الحال في مصر وسوريا ، وإنما هي تشير إلى شئ من الغيرة ، أو هي على أقل تقدير ، عدم الرغبة في السماح للضيف بالاطلاع على الحياة العائلية ، أو حتى مجرد إطلاعه ولو بطريقة عابرة على أسرار الأسرة الخاصة . والعرب بطبيعتهم من النوع الغيور ؛ كما أن عقيدة محمد أضفت على هذا الشعور السيئ حرمة الدين^(١) . أمّا في عمان ، فإن التعامل بين الجنسين والاختلاط بينهما يتخذ الطابع الإنشائي ، ويندر أن يُمنع الضيف من زيارة الحريم مثل سائر بقية المنزل ؛ في حين تتحرك النساء ، خلال الحياة اليومية بلا أية قيود ؛ وتكشفن عن أنفسهن ، وتتكلمن ، مثل بقية المخلوقات المعتادة ، وذلك على النقيض تماماً من تماثيل نجد والرياض الصامته الملفوفة . ومن هنا نجد أن الطابق الأرضي في المنزل العماني يختلف اختلافاً كبيراً عن منزل الشخص المسلم ، بل وحتى عن المنزل العربي المعتاد ، من منطلق أن الغرف كلها تكون على صف واحد ، وتتصل ببعضها ، ولا تكون هذه

(١) هل غيرة الرجل على أهل بيته يُعدّ شعوراً سيئاً ؟ وهل مكارم الأخلاق أصبحت عيباً ؟ اللهم إلا عند من فسدت فطرته - شأن هذا المؤلف - وقد عانت بلاده ، وبلاد الغرب كلها من تهتك المرأة وإباحة المخادنة مما أفسد طبيعة الحياة ، وفشت الأمراض المعدية كالإيدز وغيرها - (د. حلمي عبد المنعم) .

الغرف معزولة على شكل أحواش مستقلة ؛ كما أن القهوة فى المنزل العمانى ، لا تكون قريبة من بوابة المنزل ، كما هو الحال فى نجد ، وإنما تحتل مكانها فى الجزء الداخلى من المنزل ، أو قد تكون فى وسط المنزل تماما .

كان صديقنا عيسى ، أو عويسا على سبيل الإعزاز والتقدير ، من طائفة التجار ، ولكنه كان يشغل قبل كل ذلك منصباً فى خدمة الرئيس ؛ ومن ثم كان بوسعه أن يحدثنا عن الأمور الصغيرة فى الحكومة المحلية . وطبقاً لرواية عيسى ، فإن الأسرة الحاكمة التى ينتمى إليها فخار Fakhar ، أسرة عريقة ومن أصول عمانية حقيقية ، وأنها انحدرت من اليعاربة فى جبل أخضر . ومع ذلك ، فإن الحاكم الحالى لم يكن يحظى بشعبية بين رعاياه ؛ الذين تقدموا إلى ثوينى بكثير من الشكاوى فى حقه ، عن طريق مجلس المحمية ، أو إن شئت فقل كبار صوحرار؛ وخلاصة القول أن فخارا Fakhar اضطر إلى القيام بالرحلة التى هو قائم بها الآن كى يكشف عن تواجده أثناء وجود السلطان . وقيل لحاشية فخار إنه جواد تماما ، ولكن جوده يكون على حساب مواطنيه وعلى حساب التجار أيضا ؛ وخلاصة القول ، أن عيسى كان من رأيه أن وضع الحاكم فخار سوف يزداد سوءاً فى الاجتماع الذى سوف يعقده ثوينى ، اللهم إلا إذا أنقذته الرشاوى من ذلك الموقف الصعب ، وهذه مسألة لم تنتهياً الفرصة لها بعد . وقد هيا هذا الظرف الأخير الجو لكثير من الشكاوى المتعلقة بإهمال السلطان فى معالجة المظالم التى حلت بالبلاد ؛ فى حين كان نظام السلطان سعيد وأيامه الزاهرة وحكومة النشطة موضوعا خصباً للحديث والتأسى .

وبالرغم من حدوث شئ من التدهور فى الإدارة العامة ، إلا أن الشرطة التى تأسست منذ زمن قديم فى كل أنحاء عمان ، ما تزال جيدة تماما . وعلى العكس من "المطاوعة" النجديين فإن هؤلاء الحراس ، إذا ما سميناهم باسمهم العربى ، الذى يساوى "الحراس" (البريطانيين) ، يقتصر دورهم ببساطة على الحفاظ على النظام العام ، ومنع الشغب والمضاربات ، وإلقاء القبض على الجانحين ، وما إلى ذلك ؛ والحراس ليس الهدف منهم التجسس ، سواء أكان رسمياً أم غير رسمى ، والمخالفات لا يعتد بها إلا إذا كانت تهدد الأمن العام . والحراس ، أثناء خدمتهم النهارية ، يمكن الالتقاء بهم فى الأسواق ؛ إضافة إلى أن ثيابهم تتسم بالطابع العسكرى بدلا من الملابس المدنية ، كما أن الخناجر التى يحملونها ثرية الزينة ، وقد يحمل الواحد منهم بندقية أيضا ، وبذلك يتميزون بملابسهم عن سائر المحيطين بهم .

وأثناء الليل يسير الحراس فى الشوارع جيئةً وذهاباً ، ويعارضون باسم السلطان كل من "يشكُّون فيهم" ، والسرققات ، والسطو على المنازل ، أو القتل كلها أشياء نادرة الحدوث فى باطنة ، يضاف إلى ذلك ، أن انتشار المسافرين العزل الذين لا يحملون سلاحاً فى كل أنحاء البلاد يعطى انطباعاً بالنظام وكثافة السكان . والمسافة بين جبل أخضر والبحر خالية من القبائل ؛ ولكن البدو الرُّحَّل القلائل الذين ينتمون إلى عمان ، يعيشون فى الناحية الجنوبية من الجبال ، فى المنطقة التى يطلقون عليها إسم الظاهرة D.áhirah ، كما يعيشون أيضاً فى الطرف الشرقى من سلسلة الجبال الموجودة فى منطقة جيلان . ومنطقة جيلان مشهورة بأفخر أنواع إبل الذلول التى يذيع صيتها فى سائر أنحاء الجزيرة العربية كلها ؛ ويشيع فى منطقة باطنه استعمال الحمير فى نقل الأحمال ، أو فى الركوب ؛ ولكن الخيول ، برغم إنها أصغر ، وأدنى منزلة من الخيول النجدية ، تستعملها الطبقات الثرية .

وبعد تناول الإفطار ، وتجاذب أطراف الحديث عن وصولنا أول مرة ، أصبح عيسى ، هو وبعض رجال المدينة الذين حضروا لتحيتنا ، على ودِّ مع يوسف ومعى ، وعرضوا علينا أن يفرجونا على المدينة ، التى يعرف القراء ، أنها واحدة من أهم المدن العمانية . وقبلنا العرض بكل سرور ، وبدأنا هذه الفرجة بزيارة قصر رئيس المدينة ، الذى كان عبارة عن قلعه من قلاع النبلاء ، لها أسوار على شكل دائرة ثلاثية ، ومزينة بزينات تشبه تلك الزينات التى ربما يكون القارئ قد شاهدها فى جامع قصاب الكبير فى بومباي - وهذا الأسلوب المعمارى مكون بصورة أساسية من عقود مدببة ، وأعمدة مستديرة ورفيعة ، وقناطر مستعرضة ، وشرفات بارزة ، ومزاريب ؛ فى حين يعتمد هذا الأسلوب أيضاً على الجص أو الجص الكثيف فى استكمال بقية التفاصيل الأخرى . وقلعة صوحر مقامة على قطعة صغيرة من الأراضى المرتفعة داخل المدينة ؛ ومدخل هذا القلعة عبارة عن قنطرة أو جسر ، يمر من فوق خندق ، ويؤدى إلى بوابة داخلية كبيرة ؛ وعلى أسوار هذا الملجأ توضع قطع صغيرة من المدفعية ، أو إن شئت فقل مدافع قديمة ، إذا ما استعملنا العبارة العتيقة ، كما توجد أيضاً أربعة مدافع موضوعة أمام مدخل القلعة . والحراس هنا ، وفى سائر المدن الكبيرة الأخرى فى عمان ، وبخاصة مدينة مسقط ، هم من البلوش ؛ وهؤلاء الحراس مشهورين بولائهم لسادتهم ؛ يضاف إلى ذلك أن دين هؤلاء البلوش السنيين ، والذى يحول بينهم وبين الاختلاط الحر مع البياضية فى هذه البلاد ، علاوة أيضاً على اختلاف لغتهم وأعرافهم

عن لغة البياضية وأعرافهم ، كل ذلك يؤمن هؤلاء البلوش ضد التآمر وارتكاب الأعمال غير المشروعة . يضاف إلى ذلك ، أن البلوش لا يخشى من تأخيرهم ، من ناحية أخرى ، مع الوهابيين ، برغم أنهم سنيون أيضا في مذهبهم ، وهناك عدااء وطني شديد يفصل البلوش عن عرب الشمال الأصليين ، أو إن شئت فقل النجديين . فقد تم خلال الغزو الوهابي الأول ، محاصرة صوحر والاستيلاء عليها ؛ ولكن بعد سقوط المدينة ، صمدت القلعة هي والحامية البلوشية صمودا قويا ، إلى أن نفذت جميع المؤن الموجودة داخلها ، ثم حاول الحاكم العماني ومعه حاشيته الهروب عبر أسوار القلعة ، وتحقق ذلك لهم أثناء الليل . وفي صباح اليوم التالي ، وبعد أن يئست الحامية البلوشية لعدم تقديم العون والمساعدة ، فتحت أبواب القلعة على مصراعيها ، واستلوا سيوفهم استعدادا للموت ، ولكن بعد أن تأروا لموتهم مقدما ، من محاصريهم . والحاكم الفعلي ثرى جدا ، ويقال أيضا إن الملجأ الداخلي الذي لم يسمحوا لنا بالدخول إليه نظرا لغياب الحاكم ، يحتوى على كنوز كثيرة .

وكما سبق أن قلت فى كل من نجد والأحساء ، أن النقوش هنا لا تزين مدخل القلعة أو جدرانها ، وذلك تأيينا لباني القلعة ، أو تاريخ إنشائها أو المناسبة التي أدت إلى إنشائها . وهذا ليس راجعا إلى عدم وجود المواد أو العمالة المناسبة لذلك ، والسبب فى ذلك ، أننى أرى هنا حجرا يميل لونه إلى الاصفرار ، ومنحوت بعناية ، ينتشر على نطاق كبير بين الأحجار المستعملة فى بناء هذه القلعة ، علاوة على أن زينات المبنى تكشف عن مهارة طويلة فى النحت . وهذا يمكن أن يكون برهانا إضافيا على أن الحميريين ، الذين كانوا مصابين بجنون النقوش ، لم يحتلوا قط ذلك الجزء من الجزيرة العربية ؛ وربما نجد شيئا من هذه النقوش فى المنطقة الخلفية من جبل أخضر وفى جيلان .

ويوجد أمام القلعة مكان واسع مزروع بالأشجار ويمتد إلى أن يصل إلى أسوار القلعة من جهة البحر ؛ ومتاريس المدينة هنا بحالة جيدة ، ومزودة ببعض قطع المدفعية فى هذا الجزء من المدينة ؛ ولولا كبر حجم صوحر نسبة إلى القوة المدافعة لاستطاعت أن تصمد أمام الحصار الطويل . وغادرنا القلعة إلى السوق والسوق هنا أكبر من سوق السلامة وأكثر تنظيما ؛ والمحلات هنا وكذلك محتوياتها تشبه محلات وبضائع لينجا ، ولكن عدد المسافرين الذين يزورون مدينة صوحر عن طريق البر والبحر يزيدون من أهميه أسواق الخضراوات واللحوم . والقيسارية هنا ، لها قبو كالعادة ، ولها أيضا

أبواب كبيرة تفتح وتغلق ، وهى أيضا مكان واسع ، وفسيح وطويل ، ويتساوى من حيث الحجم مع أى سوق من أسواق بغداد ؛ ولكن محلات كثيرة من السوق كانت خالية وشاغرة . وقيل لى ، أن هذا الوضع قائم منذ أن قام خالد بن صقر باحتلال هذه البلاد ، والذي أحدث ضررا كبيرا ، برغم أنه لم يدم طويلا ، فى التجارة ، وأخاف كثيرا من البنيانين المسلمين . وقد أحدث الوهابيون بعض التعديلات ، فقد أنشأوا مسجداً بالقرب من القلعة ؛ وهذا المسجد مهجور تماما الآن ، وتخيم عليه وحدة كئيبة . وتزدحم بقية السوق بالحرفيين وأصحاب المحلات ؛ والممرات الموجودة بين صفوف المحلات مسقوفة بالقش منعا لحرارة الشمس .

والعمال الذين يغلبون على هذا السوق هم الصاغة الذين يعملون فى المشغولات الذهبية والفضية ، وكذلك الحدادون ، والنحاسون ، ومن حيث الصناعة فإن مهارة الحرفيين فى هذا السوق أرقى وأعلى بكثير عن مثيلتها فى الأحساء ، مثلما يتفوق حرفيو الأحساء على حرفى نجد . وقد شاهدت ولاحظت بين المتواجدين فى الشوارع بعض الرجال أقوياء البنية وبشرتهم داكنة ، ويلبسون ثيابا تشبه الكتنيات^(١) ويضعون على رؤوسهم غترا بيضاء اللون ؛ وكان كل واحد منهم يحمل رمحا قصيرا فى يده ، ويعلق سكيناً فى وسطه علاوة على الخنجر المعتاد . وعندما سألت عن هؤلاء الناس ، قالوا لى : إنهم من جبل أخضر من المنطقة المجاورة لمنطقة عبّري Obree وأنهم ينتمون إلى أعيان اليعاربة فى هذا الجبل . وعندما مررنا خلف القيسارية ، ودخلنا فناء مربع الشكل تحيط به منازل طويلة ، ومزروع فيه شجرتان أو ثلاثة ؛ وشاهدنا فى هذه المنطقة زوج من ثيران البrahamينى ، يمتلكه بعض البنيانين العاملين فى السوق ، ومدينة صوحار لا يسكنها يهودى واحد؛ وقد سمعت عن البارسيين ، ولكنى لم ألتق أيا منهم .

وخرجنا من السوق ، وواصلنا مسيرنا بين المنازل التى يترواح ارتفاع كل منها بين طابقين وثلاثة طوابق ، وتحت عقود كثيرة توجد على بعد مسافات متقاربة على طول الشارع الرئيسى ، إلى أن وصلنا إلى بوابة المدينة الشرقية ، ومن هذه البوابة الشرقية ؛ عبرنا أرضا رملية واسعة تحيط بأسوار المدينة ، ودخلنا إلى البساتين ، التى جلسنا فيها برهة من الوقت فى ظل الأشجار الوارفة وبجوار المياه الجارية . كان كل

(١) الكتية : تنوره ذات ثنيات طويلة (يرتديها الرجال فى اسكتلنده وأفراد الفرق الاسكتلندية فى الجيش البريطانى) - (المترجم) .

شئ هنا استوائيا - الشمس ، الأشجار ، الأعشاب ، الزهور ، وكذلك الرجال ؛ بل إن الآبار والمجاري المائية نفسها ؛ المزينة " بالشونام " ، إن جاز لى أن استعمل الكلمة الإيطالية هنا ، كانت تبدو كما لو كانت منقولة من جوزيرات ؛ وكل ما يعكر الصفو كان عبارة عن مجرد ارتفاع قليل فى كثافة الهواء ؛ يضاف إلى ذلك أن الفلاحين الذين يقومون على أمر هذه الحداثق كانوا أقوياء البنى، مفتولى العضلات، ويتدفقون حيوية ، مما جعلنى أحس أننى لم اكن فى حمام بخارى هندوستانى، وأنا أقف على تربة عربية. وعدنا من البساتين إلى المدينة ، ودرنا حول أسوارها ، مسافة ربع ميل فى طريق يحيط بالخدق ؛ ثم عبرنا بعد ذلك إلى منزلنا فى النهاية . ومحيط المدينة يصل إلى حوالى ميلين ؛ وتحصينات هذا المحيط تشمله بالكامل ، ولكن الخندق لا يمتد ناحية البحر .

كنت أنا ويوسف قد قررنا مغادرة المدينة فى هذه الليلة نفسها ، أو فى الصباح على أكثر تقدير ، إلى مدينه مسقط ؛ وهذا يعنى أن أمامنا مسيرا يقدر بحوالى ثمانية أو تسعة أيام . ولكن ، من حسن حظنا كما تصورنا ، ولسوء حظنا فى واقع الأمر ، أننا فى اللحظة التى كنا نتناقش خلالها مع أبى عيسى ، فيما يتعلق بمسارنا وغداؤنا ، دخل علينا ربانا بحريا كانت مركبه متجهة إلى مسقط ، ووعد أن يأخذنا معه فى سفينته ، وقال لنا : إن رحلة بحرية مقدارها يومين سوف تجعلنا نصل إلى الميناء المطلوب ، كما أبلغنا أيضا أن الريح كانت مرسله ومواتية ، وأن كل شئ كان يوحى برحلة طيبة وسريعة . كنا بالفعل قد أمضينا كثيرا من الوقت فى الدوران حول كل من رأس مسندم وهرمز ، الأمر الذى جعلنا ندرك أن الوقت المتيسر لنا لم يكن يحتمل أى شكل من أشكال الإهدار ، ولذلك أيقنا أن هذه الفرصة المتاحة لم تكن تحتل الضياع مطلقا ؛ يضاف إلى ذلك أن الممر الساحلى من صوحار إلى مسقط ، لم تكن له أهمية خاصة ، علاوة على أننى كنت أتطلع إلى توفير المزيد من الوقت الذى سوف أنفقه فى زيارة جبل - أخضر ، الذى هو محط اهتمامى ، بعد أن التقى الثوينى شخصيا ، الذى قيل لى أنه فى مسقط ، وشاركنى عيسى الرأى نفسه ، وانتهينا إلى قبول العرض المقدم من ربان السفينة .

وبقينا يومين آخرين فى صوحار . وطوال هذين اليومين زرنا العديد من أهل المدينة الطيبين ، وأمضينا ساعات حلوة بصحبتهن ، وسط مسليات متباينة وأكثر رقيا من تلك التى شاهدها عيناى فى كل من السلامة أو البحرين . والنجيلة هنا ،

فى صوچار ، تتفوق تماما على الغليون ؛ كما يجرى أثناء الحفلات المسائية توزيع الكعك والمكسرات على جميع الحاضرين ، من حين لآخر ، وهذا يشبه إلى حد كبير ذلك الذى يدور فى غرف الاستقبال الإنجليزية بعد تناول الغداء . ولعل القارئ يذكر أن رفع مائدة الغداء أو العشاء فى كل من شومر ونجد يعد إيذانا ، أو إشارة إلى الضيوف بالانصراف أيضا ؛ وهذه الإشارة ليست سوى إجراء عملى لإبلاغ الضيوف بأنهم جاعوا لمجرد الأكل فقط ، وأنه نظرا لأنهم قد فرغوا من تناول الطعام ، فإنهم طبقا لعبارة الرقيب نيم Nym ، يجوز لهم أن "ينصرفوا". والنظام السائد فى عمان على العكس من ذلك ، لأن الضيوف يتناولون الطعام أولا ، ثم تطول بعد ذلك الأحاديث إلى منتصف الليل ، أو حتى الساعات الأولى من الصباح ، والسبب فى ذلك أن مسألة الفكك من هؤلاء الضيوف الاجتماعيين ، ليست أمرا سهلا . يضاف إلى ذلك ، أن مباهج الحديث تزداد أنسا عن طريق الغناء، الذى يندر أن يغيب عن الحفلات العربية ؛ والأصوات العربية جيدة بشكل عام ، رغم أن مساحتها ليست كبيرة ؛ يضاف إلى ذلك أن الوزن النبطى هو السائد هنا ، وهو يسمح بكثير من التنوع ، وذلك على العكس من الموسيقى العمانية، ومع ذلك، فهذا الوزن لا يستعمل فى إلقاء أو إنشاد الشعر العربى . وأهل صوچار يتفاخرون ، ويتباهون بصناعة الحلوى والمربى ، وهم يستعرضون منتجات هذه الصناعة ، فى مثل هذه المناسبات ، بأن يواظبوا على توزيع هذه الحلوى على الحاضرين ، بين الحين والآخر ، طوال الوقت ، تحسبا منهم ألا يكون استرضاء الأذن غير كاف .

وتحول حديثنا إلى الكلام عن حال البلاد ، وفاجأنى الحاضرون بأمرين : الولاء الكبير ، الذى يصل إلى حد الولاء التام ، من قبل هذا الشعب ، للأسرة الحاكمة ، ولأعيانهم بشكل عام ؛ والأمر الثانى هو كراهية هؤلاء الناس الشديدة للوهابيين ، وكراهيتهم الشديدة ، وهذا شئ غريب ، للأتراك ؛ والغريب فى الأمر ، أن الناس هنا فى صوچار ، ليست لهم تجربة شخصية كبيرة مع الأتراك ، ومع ذلك فإن ما لديهم كاف لأن يجعلهم يكرهون العثمانيين ، سواء أكانوا حكاما أم أفرادا . وقد زار كثير من تجار صوچار الهند ، وتعرفوا الشئون الإنجليزية تعرفا تاما . وقد سعدت كثيرا عندما سمعت رجلا من صوچار يقول ، فى لحظة من لحظات الألفة والود : " إذا وصلت الأمواج إلى حد حتمية الاختيار بين المسلمين أو الإنجليز كى يحكموا بلادنا ، فإننا سوف نفضل الآن بلا قيد أو شرط ، أو قد نفضل الشيطان نفسه ، ليكون حاكما لنا ،

بدلاً من المسلمين". وفى الوقت نفسه فإن كل إهمال الثوينى لم يفسد الولاء الوطنى لأسرة سعيد ، برغم أن تسعة من بين كل عشرة يريدون أن يكون أمجد هو الحاكم بدلاً من السلطان .

والبساتين والزراعة خارج المدينة، تمتد إلى أن تصل إلى القرى المجاورة لها. وقد دخلت اثنتين من هذه القرى : واحدة منهما إسمها مأوه Ma'awh وتبعد مسافة ميلين نحو الداخل ؛ والثانية - التى نسيتم اسمها - كانت تقع فى الناحية الجنوبية . ويعيش فى قرية مأوه حوالى خمسة أو ستة آلاف نسمة ، ولكن السواد الأعظم من منازل هذه القرية عبارة عن تعاريش - تفى بالغرض المطلوب نظراً لاعتدال المناخ . ورئيس الغرفة ، هو وقلة قليلة من الأثرياء ، هم فقط الذين يعيشون فى بيوت مبنية من القرميد . وأغلب الناس ، الذين التقيتهم ، كانوا متحضرين وملتزمين ؛ والغريب سرعان ما يجد أنه ليس غريباً فى هذه القرى . واللهجة التى يتكلمها الناس هنا ، ليست عربية خالصة ، ولكنها تنتمى إلى اللغة الفحطانية التى سبقت الإشارة إليها ؛ يضاف إلى ذلك ، أن نطق هذه اللغة ليس حلقياً وأقل تأكيداً عن لهجة نجد ، ولكن هذه اللغة سليمة من حيث نطق " القاف " و " الجيم " أو " الجا " - وهذا يريح المتلقى تماماً . وفى المنطقة الواقعة خلف مأوه فإن المنطقة كلها بما فى ذلك جبل أخضر تنتشر فيها الزراعة ومأهولة أيضاً بالسكان ؛ والأرض هنا ليست قفراً أو صحراوية . وسلسلة الجبال تظهر عند الأفق البعيد ، وتبدو من حيث الشكل ، والطبيعة ، والارتفاع مثل جبال أبيننايز Appennines فى وسط إيطاليا . وهناك طريق واسع يوصل بين صوحر والبريمة والظاهرة ؛ كما أن هناك طريقاً آخر يسير بحذاء الساحل إلى مسقط ؛ وطريقاً ثالثاً يتجه شمالاً إلى طيبى Debee .

وقبل أن نغادر صوحر ، ينبغى أن أضيف هنا أن عدد السكان الحقيقى لا يزيد ، حسب اعتقادى ، على أربع وعشرين ألف نسمة ، وهناك أيضاً العديد من المنازل الخالية ، كما أن هناك أيضاً منازل أخرى عديدة مدمرة منذ الحرب الأخيرة . والتجارة أيضاً ، التى تعد النشاط الرئيسى فى هذا الساحل المكتظ بالسكان ، انتقلت ، على نطاق واسع ، إلى المناطق المجاورة لمدينة مسقط ، يضاف إلى ذلك ، أن الازدهار ، الذى أضفاه مقام أمجد ، الحاكم الملكى المُناب ، على مدينة صوحر ، كان قد ولى بعيداً عن هذه المدينة ، إلى حد أنها تبدو الآن نصف ما كانت عليه من قبل . ولا تزال

مدينة صوحار تحتوى على بعض التجار ، وربما استطاعت ، فى المستقبل ، أن تستعيد بسهولة ، ذلك الذى سلبه منها سوء الطالع الذى حدث لها مؤخراً . وافتقار مدينة صوحار إلى خور ، أهمية ميناء محمى ، يعد نقيصة بكل تأكيد ، ومع ذلك فإن مكلاً ومرسى مدينة صوحار ، جيدان ، ومحميان من ناحيتى الشمال والغرب بواسطة رُعن فرقصة Fark.as.ah ، ومن جهة الجنوب بواسطة رُعن سواره Sowarah . وأثناء مقامى فى صوحار ، لم أر قط سوى أقل من عشرين سفينة من الحجم المعقول على الأرصفة ، وربما أكثر من هذا العدد فى بعض الأحيان . والصيد فى المناطق البعيدة عن الشاطئ ممتاز ؛ فالشاطئ تغطيه القوارب ؛ يضاف إلى ذلك ، أن سوق السمك المزدهمة تضارع سوق بيلنجزجيت Billing Sgate مطروحا من ذلك سمعتها السيئة . هذا هو الشاطئ الرملى المنخفض ، وهاهم أبناء البحارة يلعبون على الرمال ، وهذه هى القوارب سحبها أصحابها بعيداً عن علامة المد ، وهاهم الصيادون يتجولون على الشاطئ ، أو يصيحون عندما يلقون أدوات الصيد فى البحر استعداداً للقيام برحلة جديدة ، وهذه مجموعة أخرى من الصيادين ، تخوض فى الماء الذى يحاذى صدورهم ، بحثاً عن المحار ، كل ذلك أعاد إلى ذهنى ذكريات بعض الأماكن التى تقع على شواطئ بريطانيا الشرقية - ولكن شتان بين الاختلاف فى المناخ وفى البشر .

وفى اليوم الثالث ، حضر إلى منزل عيسى ، الربان الذى كان قد حمل متاعنا ، منذ اليوم الأول لارتباطنا معه ، إلى ظهر مركبه (مما حال بيننا وبين الفكاك منه ، برغم أننا فكرنا فى فك الارتباط هذا مرات كثيرة) جاء ليبلغنا بموعد إبحار سفينته . وكان اليوم ، الذى أبحرنا فيه ، يوافق اليوم السادس من شهر مارس . كان يراودنى إحساس بأن أمراً سيئاً سيحدث ، برغم أننى لم أكن أعرف سبباً لذلك الإحساس ؛ وهذا هو ما جعلنى " حزيناً مثل الليل " وأنا أودع أصدقائنا فى صوحار ، هؤلاء الأصدقاء الذين رافقونا إلى أن وصلنا إلى الشاطئ ؛ وكان الشعور نفسه يسيطر على مضيفنا عيسى ، الذى كشف عن ذلك الشعور بأن راح يلح علينا بأن نخبره بسلامة وصولنا إلى مسقط وأن نبغفه بأخبارنا الطيبة . ومع ذلك ، لم يكن هناك أى سبب يدعو للخوف ، فقد كانت الرياح مرسله ومواتية ، وكان البحر هادئاً ، كما كانت السفينة من النوع الكبير - لقد بلغت هذه السفينة من الكبر حداً اضطرت معه أن تلقى مراسيها على بعد مسافة كبيرة فى عرض البحر ، واضطرتنا مع ذلك إلى أن نجذف فى قارب السفينة ما يقرب من نصف الساعة ، قبل أن نصل إليها .

الفصل السابع عشر

خطم السفينة - مسقط

ثم صاح ريان مركبنا الشجاعة ،
وكان رجلا حسن السمعة :
« نظراً لافتقارنا إلى قارب - طويل فسوف نفرق جميعاً ،
ونغوص إلى قاع البحر » ،
- أغنية شعبية قديمة

ساحل باطنة - طاقم البحارة والمسافرون - تفاصيل خاصة بالظاهرة ، جبل
أخضر ، سكان الظاهرة والجبل الأخضر - بارقا - قلعة بارقا - جزر سواده -
عاصفة مفاجئة - الاندفاع أمام الريح - بناء السفن - هروب البعض في القارب وعلى
لوح من الألواح - مزيد من أحداث الليل - غرق المزيد من البشر - تجنب قرار بائس -
الاتجاه صوب الشاطئ - ضياع القارب - سباحة شاقه - وصول تسعه إلى البر -
سلوك هؤلاء التسعة - الأماكن التي ترددنا عليها - صباح موحش - الاتجاه إلى قصر
السلطان في بطحات - الفرازة - تأملات - قصر البطحة - ثويني وحاشيته -
الاستقبال - المعاملة الجيدة - مسيرة صباحية - المطيري - قاربنا - تلقى الصداقات -
لقاء الألبانيين - قصة الألبانيين - تفاصيل خاصة بالثويني - وضعنا الخاص -
الرحيل عن البطحة - وادي الفرازة - خيب - مسكن لقضاء الليل - مطرح ، ميناؤها ،
سوقها ، تجارتها ، سكانها - نورق عماني - الوصول إلى مسقط - مضيفنا -
صديق بحق - وصف عام لمسقط وسكانها - الدين - القنصل الإنجليزي - المناخ -
التشابه بين مسقط وعدن - الشرطة - تغيرات الطالع - الهندوس - خطاب بين نجدى

وبانيانى- السوق خارج المدينة - جولة فى اتجاه الجنوب- التقاء رجال زاقى - جولة -
البلاد فى جنوب - شرقى مسقط - سلسلة جبال أخضر - قرية بشير - الاستقبال -
أمسية مع الرئيس - إدارة القرية - رقصة - العودة عن طريق الكاملى - الحر -
التحمم - مزيد من التفاصيل عن مملكة عمان - مناطق المملكة ، سكانها ، قوتها
العسكرية ، المتحصلات ، مصادر المتحصلات ومقدارها - الحكومة الحالية - سفينة
الكويت - الكويت - مغادرة مسقط - النجوم والأجرام السماوية - العودة إلى أعالي
الخليج الفارسي - بندر عباس - شيرو - حمى التيفود - الوصول إلى أبو شهر -
فى البصرة - استقبال طيب على سفينة تجارية بريطانية - الوصول إلى بغداد -
التقاء بركات - العودة إلى سوريا - الخاتمة .

كان طريقنا يتمثل فى ذلك الجزء المتبقى من ساحل باطنة فى المنطقة من صوحر
إلى برقا ، وقد سعدت جدا لأننى اكتشفت أن الريان ، شأنه شأن بقية الملاحين
الآسيويين ، كان يحافظ على بقاء السفينة دائما قريبة ما أمكن من الشاطئ وهى تبحر
محاذية له ، وكان الهدف من ذلك أن نتمكن ، برغم وجودنا على صفحة الماء ، من
ملاحظة كل ما يستحق الملاحظة على الساحل نفسه ؛ والواقع أن منظر الطريق
الساحلى بالكامل بما عليه من رجال ، وحمير ، وراكبى خيول ، وراكبى ذلول ، وكذلك
المسافرين سيرا على الأقدام على اختلاف أنواعهم وأوصافهم ، كان واضحا جليا
أمامنا ، فيما عدا المناطق التى كان النخيل فيها يحجب عنا الرؤية فى بعض المناطق ؛
وكذلك أيضا القرى التى كانت منازلها البيضاء وتعاريشها المورقة بيننا وبين الطريق .
كان طاقم البحارة من النوع المسلى تماما . إذ كان ذلك الطاقم مكونا من الريان ،
وابن أخيه ، وبعض الرجال ، وكان إجمالى عدد أفراد الطاقم يصل إلى حوالى تسعة
أفراد ، كان معظمهم من مدينة السويق ، أما بقية أفراد الطاقم فكانت من القرى
المجاورة - ومن الطبيعى أن يكونوا جميعا من البياضية ، وإلى جانب هذا الطاقم ،
كان معنا عشرة مسافرين آخرين : اثنان من جبل عقدة ، من السنه ولسا وهابيين ؛
وكانا ينتميان إلى إحدى العشائر النجدية التى سبق أن قلت : إنها كانت تنتشر فى
أجزاء مختلفة من عمان ، وتكثر أعدادهم فى الظاهرة . وكانت سلوكياتهما من النوع
المحبوب كما كانا قارئين جيدين وبخاصة فى مجال الشعر العربى ؛ وكانا على
استعداد دوما لعقد صداقات مع كل المحيطين بهما ؛ كان هدفهما هو الوصول إلى
مكة ، التى كانا ينويان الوصول إليها عن طريق البحر إلى جدة ومنها إلى مكة ، وبذلك
يكونا قد دارا حول ثلثي شبه الجزيرة العربية . وقد كان القدر يحتفظ لواحد منهما
برحلة قصيرة .

كان المسافر الثالث نجديا ، من مواليد منفوحة (لعل القارئ يذكر تلك المدينة التي سبق أن قلت إنها تقع بالقرب من الرياض) فى العارض ؛ كان شاباً سيئ الأحوال ، وهو طبقاً لما قاله ، تشاجر مع والده ، وهرب من كنف أسرته ، وأصبح الآن مثل المشردين فى أى مكان ، يبحث عن حظه فى هذه الدنيا الواسعة . أما المسافرون السبعة المتبقون فكانوا من أبناء مدينة باطنة ، وكلهم كانوا من الطبقات الدنيا ، ومع ذلك فقد كانوا بشوشين وكثيرى الكلام شأنهم شأن بقية أبناء بلدتهم . كان النجدي وحده ، كئيها وحاد الطبع ؛ وأنا لا أعتقد أن أسرته ذرفت عليه دمة واحدة لغيابه عنها . وفى أقل من ساعة " مرحباً أيها الرفاق ، لقد سعدنا بلياقكم ! " أصبحنا على ألفه وود مع كل من كانوا معنا ؛ كانت السفينة كبيرة ومتسعة ، ولها صاريان ؛ كما كانت على ظهر المركب أيضاً أعداد وفيرة من النرجيلات ، وكثير من المؤن تحت تصرف كل من كانوا على ظهر المركب ؛ وطمئنا أن تكون رحلتنا سريعة وبهيجة .

وكنت قد تعلمت من أهل عقدة كثيرا من المعلومات والتفاصيل عن كل من البريمة والظاهرة ، والتي يجوز لى أن أوردتها هنا . قالوا لى : أن بريمة نفسها موجودة وسط ممرات جبل عقدة ، وتحيط بها عدة قرى يعيش فيها سكان بعضهم من السنة والبعض الآخر من البياضية ؛ وقالوا لى أيضا : إن أحمد السديري ، الحاكم النجدي ، كان قد اتبع منذ وقت طويل كل عادات وأعراف هذه المنطقة ، وأنه لم يعد يود مغادرتها ، بأى حال من الأحوال ، ومهما كانت الاستدعاءات التى تصله من الرياض . كما قالوا أيضا : أن جبل عقدة نفسه عبارة عن جبل مرتفع ، يصل ارتفاعه إلى ارتفاع رؤوس الجبال ، وأن التربة حول جبل عقدة من النوع الخفيف ، كما أن الحياة النباتية ، فى جبل عقدة أقل ثراء من الحياة النباتية فى مدينة باطنة . كما تمتد ، فى المنطقة الواقعة خلف جبل عقدة ، ناحية الشرق وناحية الجنوب ، سلسلة من التلال التى تسير موازية لجبل عقدة نفسه ؛ وأبلغونى أيضا أن الظاهرة تقع بين هاتين السلسلتين ، وأضافوا أيضا أن الظاهرة عبارة عن رقعة من الأرض تكثر فيها المراعى أكثر من الأراضى الصالحة للزراعة ، ولكنها تحتوى على عدد لا بأس به من السكان . وأردفوا قائلين : إن سكان الظاهرة أقل ارتباطا وولاء للحكومة العمانية من السكان الآخرين ؛ وأن نصف سكان الظاهرة من أهل السنة ، أما بقيه السكان فمن البدو ؛ وقالوا أيضا إن ميول أهل السنة الدينية ، وعادات السلب والنهب لدى البدو ، تجعلهما (السنة والبدو) أكثر تعاطفا مع نجد عنهما مع البياضية وحكامهم . من هنا ، فإن عددا كبيرا من عشائر

الظاهرة ، انحازت خلال الغزو الوهابى إلى جانب الغزاة ، وحملوا السلاح لمواجهة إخوانهم المواطنين فى السهول ، وإبل الذلول فى الظاهرة من النوع القوى الصبور ؛ يضاف إلى ذلك أن أغنام هذه المنطقة تنافس السلالات النجدية .

واعتبارا من شرقى المخنت تبدأ متاهة من الممرات الصخرية الضيقة التى تنمو فيها الأشجار الكثيفة ، التى تقع بينها مدينتى نزوة وباهلة ؛ وقد وصفوا لى مدينه باهله ، على أنها مدينة محصنة تحصينا جيدا ، يحيط بها سور مزدوج ، ولها بوابات عالية ومنها منازل تتراوح ارتفاعاتها بين طابقين وثلاثة طوابق ، وإذا صحت الرواية التى أوردها أهل هذه البلاد عن باهلة فذلك يعنى أن هذه المدينة يصل حجمها إلى ضعف حجم كل من الرياض والهفوف مجتمعين ، ومن ثم فهى تستحق الزيارة .

وحكوا لنا أيضا حكايات كثيرة عن بدو المرة ، الذين يترددون على الظاهرة ؛ وحكايات أخرى عن برغاش ، الرئيس الحالى لباهلة ، كما رووا لنا كثيرا من الأساطير عن الدجالين والسحرة والمشعوذين . وحكى لنا البحارة البيضاء أيضا الكثير مما عندهم ؛ فمنهم من اشترك فى الحملات البحرية التى قام بها السلطان سعيد ، ومنهم أيضا من شاهد كثيرا من المعارك البحرية التى دارت فى هذه البحار . وأحلى أو أفضل ما لدى الحكومة العمانية هو البحرية ؛ وبرغم الفرع الذى تمثله أو توحى به الفرقاطات والمدافع الإنجليزية ، فأنا أشك فى إمكانية تنازل البحارة الطبيين والبرقيين عن هذه السواحل دون مقاومة أو كفاح . وفى الحرب الضروس التى دمر خالد فيها مدينة باطنة ، كان أول من عارضه ووقف فى وجهه هم أهل قلحاط ورؤس الجبال الذين هم بحارة أصلا ، وتحولوا إلى مشاة خدمه لقضية بلادهم ؛ وبرغم أن عددهم لم يكن كافيا لوقف حدة الهجوم الوهابى ، فقد استطاعوا وقف هذا الهجوم فترة من الوقت ويتباهون بأنهم قتلوا عددا كبيرا من الغزاة .

كنا نمضى الوقت فى مثل هذه الأحاديث ، فى حين كانت سفينتنا تمخر عباب البحر ، متجاوزة كلا من صوحار ، وسويق ، ومضاع ، إلى أن ابتعدنا تماما فى اليوم الثامن من شهر مارس ، عن مدينة برق . والساحل من المكان الذى أبحرنا منه إلى هذا المكان الذى نحن فيه الآن ، كان مستويا وعلى شاكلة واحدة ، كما كانت تحف به أشجار النخيل ، وأشجار جوز الهند ، كما كانت تتلأأ عليه القرى البيضاء ، التى كانت تبرز من خلالها قلاع الرؤساء المحليين الجميلة كى ينعكس عليها ضوء الشمس .

ولكن بالقرب من برقا توجد سلسلة من الصخور الجرداء التى لها حمرة الحديد ، والتى تبدأ منخفضة ، ثم يتزايد ارتفاعها بعد ذلك ، وتحف بالشاطئ وتمتد بطول الطريق إلى أن تصل إلى مدينة مسقط. كانت برقا تبدو من منظرها البحرى مدينة متوسطة الحجم، لا تقل كثيرا عن صوحار ؛ وبرقا فيها قلعة كبيرة الأجزاء على غير العادة ، وتبدو من بعد ، كما لو كانت منيعة تماما . أنا لم أر منظرا أحلى من هذا المنظر : فأنا أرى أمام القلعة خضرة الربيع الباكرة ، ومن خلفها ، أرى جبال أخضر ، التى يصل ارتفاعها إلى ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح المحيط ؛ والتى تسقط عليها الثلوج فى بعض الأحيان ، كما يقول النقيب ولستد Welsted ؛ ولكنى لا أرى الآن أى أثر لهذه الثلوج . ومن جبل أخضر تصل سلسلة مستعرضة إلى ساحل البحر ، لتنتهى منطقة باطنة ، فى حين تبدأ أيضا ذلك الذى نطلق عليه فى أيامنا هذه منطقة مسقط ، تلك المنطقة الأقل إثمارا ، ولكنها كثيفة السكان . وقيل لى أن قلعة بارقا كان يسكنها أخ غير شقيق من إخوان ثوينى ، وأن هذا الأخ كان من أمة حبشية تزوجها السلطان سعيد ؛ وأن هذا الشقيق مات منذ فترة غير طويلة ، وهب نسيم برى فى ذلك اليوم ؛ ودفعنا إلى عرض البحر ، إلى أن وصلنا عصر ذلك اليوم إلى منطقة جزر سواده - وهى عبارة عن حيود منخفضة جرداء ، تبعد مسافة ثلاثة فراسخ عن البر ؛ وبقينا فى هذه المنطقة بضع ساعات قلائل ، فى هدوء مطبق ومغزى ينذر بالسوء .

ومع حلول المساء هب نسيم جنوبى غربى خفيف، وفرد البحارة أشرعة سفينتنا ، أملأ منا، رغم أن الريح لم تكن مرسلّة أو مواتية تماما، فى أن نشق طريقنا الصحيح ، بعد شئ من المحاولة والجهد ، إلى ميناء مسقط . ولكن ذلك النسيم تحول إلى عاصفة شديدة ، ثم تحول خلال نصف ساعة فقط إلى عاصفة هوجاء ، أفسدت كل المحاولات ، التى قمنا بها . وتقطع واحد من أشرعتنا إربا إربا ، وطوى البحارة بقية الأشرعة بصعوبة بالغة ، وعندما أرخى الليل سدوله كنا نندفع بعد طى الأشرعة ، أمام ريح جنوبية غربية عاتية فوق بحر هائج ، فى حين أن السماء ، برغم خلوها من السحب ، كان يغطيها سديم عام ، مثل ذلك السديم الذى يصاحب العواصف العاتية فى معظم الأحيان . وسرى الخوف بين المسافرين ، ولكنى أنا والبحارة كنا نتمتع بهذه المغامرة ، لأننا كنا نعلم أننا بعيدين تماما عن ساحل البحر ، وبعيدين أيضا عن كل أنواع الصخور، وأننا كنا نتوقع أن نمضى يوما أو يومين على أكثر تقدير، فى عرض البحر ، قبل أن نصل إلى ميناء مسقط . ويطلع القمر ، وكان فى تربيعة الثالث ، ويكشف لنا

نوره عن مياه متلاطمة ، كنا نندفع خلالها أمام الريح وحدنا ؛ وها هي السفن التي كنا نراها عند الأفق عند غروب الشمس قد اختفت تماما . أما المسافرون ، ومن بينهم ابن خميس ، الذين أصابهم الفزع من جراء اهتزاز السفينة ، التي لم تعد ثابتة لأننا اضطررنا إلى طي أشرعتها ، والتي كانت تتأرجح أيضا بفعل اندفاع الموج ، وبفعل الفوضى والارتباك اللذين ينجمان عن العواصف ، هؤلاء المسافرون ومعهم ابن خميس جلسوا متكديسين في المنطقة الواقعة خلف كابينة السفينة ، في حين أمسك الربان وأنا معه بحبال سطح مؤخرة السفينة ، وحاولنا البقاء في أماكننا بقدر المستطاع ؛ أما السنيان ومعهما النجدي فقد راحوا يقرؤون آيات من القرآن ؛ ولكن البحارة العمانيين راحوا يضحكون ، أو حاولوا أن يضحكوا ، نظرا لأن البعض منهم بدأ يعتبر الأمر خطيراً ؛ وعلى كل حال ، لم يكن أحد يتوقع حدوث الكارثة المفاجئة التي كانت على وشك أن تقع .

وفي ضوء ارتفاع القمر الذي كان فوق الأفق ، فلربما كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلا أو ما قبل ذلك بقليل جداً ، لاحظنا أن السفينة بدلا من تراقصها وصعودها وهبوطها فوق الماء مثلما كانت تفعل من قبل ، بدأت تغوص في الماء أكثر وأكثر ، وكان ذلك مصحوبا بترنج شديد غريب الشكل . وهنا اقترب أحد البحارة من الربان وهمس في أذنه بشيء ، وردا على هذا الهمس طلب إليه الربان أن يذهب لاختبار جوف السفينة . وقام اثنان من البحارة بهذا العمل . واكتشفا أن الجزء السفلي من السفينة كان مملوءاً بالماء . وبدءا بعد ذلك في رفع بعض ألواح الجنب ليكتشفا سيلا كبيرا ينساب داخل عنبر السفينة من ناحية المؤخرة ؛ لقد خرج لوح تخين من مكانه .

وانتفض الربان واقفا وصاح قائلا : " ارموا " ، أو إن شئت فقل " ارموا الأشياء من على ظهر المركب " ، طمعا في أن يؤدي تخفيف حمولة المركب إلى إنقاذها . وفي لحظات قام البحارة بفتح الأبواب المسحورة المؤدية إلى عنابر السفينة وكذلك الأبواب المسحورة التي في وسط السفينة ، وانهالت الأيدي كلها تعمل في تنفيذ تلك المهمة الأخيرة اليأسية . ولكن بعد أن ألقيت ثلاث بالات فقط في أعماق البحر حتى شاهدنا موجة من الضوء الفسفوري الأزرق تمر عبر الجزء الرئيسي من السفينة ؛ وهنا كان البحر قد ركب ظهر المركب بالفعل . وضاعت منا جميع الخيارات ، ولم يعد لدينا ما نفعله . ويصيح الربان قائلا : " اقموا " ، أو إن شئت فقل " ألقوا بأنفسكم في الماء " ،

وضرب للباقيين مثلاً بأن كان أول من قفز من سطح المركب إلى وسط الأمواج . حدث كل ذلك ، فى أقل من دقيقة واحدة ؛ ولم تسنح الظروف لأى واحد منا أن يحافظ أو يحاول إنقاذ أى شئ .

وأول ما خطر ببالى ، كان طريقة النجاة ، أو إن شئت فقل طريقة التخلص من الدوامة التى سوف تعقب غرق السفينة إلى أعماق اليم . وهنا حاولت الوصول إلى سطح مؤخرة السفينة الذى كان يرتفع قليلاً فوق قمة الأمواج الهادرة ، ودعوت الله الذى ينقذ من فى البر ومن فى البحر ، ثم قفزت فى الماء غاطساً إلى أبعد حد ممكن . وبعد أن سبحت إلى مسافة قصيرة أدت وجهى ناحية السفينة ، التى وصلت إلى مسامعى منها ولآخر مرة أصوات البكاء والعيول وشاهدت فى اتجاه السفينة وسط الأمواج الجزء العلوى من المزين^(١) الرئيسى قبل أن يختفى تحت الماء بحركة حلزونية بينما كنت لا أزال انظر إليه . وغرق مع السفينة خمسة من المسافرين ويحار واحد . وبعد ذلك بدقيقة واحدة بدأت الألواح ، والحصير ، والصواري والقوائم ، تطفو على الماء من جديد وسط الأمواج العاتية ، كما بدأت تظهر أيضاً رؤوس الناجين الذين كانوا يسبحون ، ثم اختفوا بعد ذلك فى ضوء القمر والظلال الناتجة عنه .

لقد حدث كل ذلك فى عجالة عجزت معها عن التخلص من أى قطعة من ملابسى التى كنت أرتديها ؛ ومع ذلك فقد خلصتني صدمات الموج من العمامة والحزام . يضاف إلى ذلك أننى لم يكن لدى متسع من الوقت كى أترك الخوف يملكنى ؛ برغم أنى أعترف أننى تملكتنى قشعريرة رعب غريب عندما شاهدت تلك الموجة الفسفورية الزرقاء وهى تصل إلى ظهر المركب ، وبرغم مشاهدتى العابرة لها ظلت تملكنى عدة أشهر بعد ذلك . ولكن الصراع من أجل الحياة والبقاء لم يترك لى حرية النظر إلى الخلف ، إذ كنت أحاول بالفعل الوصول إلى قطعة من الخشب كانت تطفو قريباً منى ، وهنا شاهدت قارب السفينة على مسافة بعيدة منى ؛ إذ كانت السفينة تقطر ذلك القارب ، على الطريقة العربية ، خلفها بحبل طويلة ، وعلى بعد مسافة كبيرة منها ؛ وكان حبل قارب النجاة هذا قد انقطع قبل أن تغرق السفينة ، ودون أن يلاحظه أحد منا . كان القارب قد انجرف إلى مسافة حوالى ستين ياردة بعيداً عن السفينة وكان يتراقص مثل صدفه الجوز الفارغة فوق صفحه مياه المحيط .

(١) المزين : بتشديد الزاى وكسرهما ، شرع منصوب على الصارى الأقرب إلى مؤخرة المركب - (المترجم) .

ولما كنت كما يقول البحارة الأسبان فى رواية " دون جوان " ، "أعرف تماما أن القارب المحكم يصمد أمام البحر الهائج ، اللهم إلا إذا كانت الأمواج العاتية المتكسرة تصطدم بجانبه المحمى من الريح " ، فقد تخلّيت عن لوح الخشب ، ورحت أسبح فى اتجاه أمل السلامة الجديد . وعندما وصلت إلى القارب ، كان ثلاثة من البحارة قد سبقونى إلى الاستقرار فيه ؛ وعاونونى فى الصعود إلى القارب ؛ وتبعنى آخرون ، وقبل مضى وقت طويل أصبح على ظهر القارب تسعة رجال ، علاوة على ابن شقيق الربان ، كانوا كلهم متلاصقين إلى جوار بعضهم البعض . وسرعان ما خطر ببالى ، وأنا فى هذا الملاذ ، شعور غريب لا يتعلق بالسلامة والأمن ، وإنما بزميلى يوسف الذى لم أراه منذ تحطم السفينة ، لم يكن يوسف من بين أولئك الذين كانوا فى القارب ؛ ولكن بينما كنت أفقد الأمل ، صحت مناديا باسمه فى عرض البحر كيما يكون ذلك الصياح إشارة له . ورد على ندائى صوت يقول : " ها أنذا ، الحمد لله ! " وانتشلناه من الماء إلى القارب .

وصل عددنا فى القارب إلى اثنى عشر رجلا - هم بالتحديد، الربان، وابن أخيه ، ورئيس البحارة ، وأربع من البحارة ؛ أما الخمسة المتبقين فكان من بينهم مسافر من جبل عقدة ، فى حين غرق المسافر الآخر مع السفينة ، وكان معنا أيضا الصبى الهارب من والده فى منفوحة ، وواحد من أهل السويق علاوة على يوسف وأنا أيضا . ووصل إلينا فى تلك اللحظة ثلاثة كانوا يسبحون فى اتجاه القارب ؛ وحاولوا الصعود إلى القارب ، ولكن لم يكن يتسع إلا لثمانية أو تسعة أفراد على أكثر تقدير ، وبخاصة فى هذا البحر المائج الهائج ، كما أن مسألة عدم وضع حمولة إضافية فى القارب لا تقبل الجدل أو النقاش . وعلى كل حال ، فقد تشبث هؤلاء الرفاق التعساء بطرف من أطراف عارضة الشراع الإضافية التى كانت تطفو من السفينة الغارقة ؛ وربطنا ذلك الطرف ربطا شديدا فى القارب بواسطة حبل ، وبذلك نكون قد قطرنا فى القارب ثلاثا من ركاب السفينة ، هما اثنان من المسافرين ومعهما واحد من البحارة .

كان القارب يحتوى على أربعة مجاديف وعلى الدفة أيضا ، وكان فيه أيضا مرساة حديدية صغيرة علاوة على لوح ثخين أو لوحين . وهنا قام رئيس البحارة وأنا معه بالتخلص من المرساة باعتبارها وزنا زائدا وألقينا بها فى البحر ، كما ألقينا اللوحين أيضا فى الماء . وفى الوقت ذاته اقترح بعض البحارة أن نفعل الشيء نفسه

مع المسافرين ، وأبدوا ملاحظة ، منطقية من جانبهم ، مفادها أنه مع مثل هذا العدد الكبير فى القارب ، فإن أمل الوصول إلى الشاطئ يتضاءل أكثر وأكثر ؛ وقالوا أيضا : إن القارب من حقهم أصلا ، وأن البقية يجب أن تستفيد إلى أبعد حد ممكن من عارضة السفينة الرئيسية . ومن حسن الحظ أننى استطعت خلال الرحلة أن أصبح صديقا خاصا من أصدقاء الربان ورئيس البحارة ، علاوة على أننى كسبت أيضا ود بحار شاب قوى كان معنا أيضا فى القارب . وبناء عليه ، قدمت نفسى لهم أولا ، ثم إلى بقية البحارة ، وقلت لهم إن مسألة الطرد ظالمة تماما وأثمة ، ولا يمكن طرحها وبخاصة عندما نكون جميعا بحاجة ماسة إلى عون الله وفضله؛ وقطعا للأخذ والعطاء ، قمت بمساعدة رئيس البحارة ، الذى كان يساندنى بشدة طوال حديثى ، بتوزيع المجاديف على البحارة ، وبخاصة أننا كنا فى ميسيس الحاجة إلى العمل على الفور حتى نتمكن من تثبيت القارب واستقراره ، وبخاصة أن الأمواج كانت تتكسر على القارب ، الأمر الذى كان ينذر بغرق القارب ليلحق بالسفينة فى عمق البحر . وتولى الربان عمله عند دفة القارب ، فى حين بدأت أنا ورئيس البحارة فى تفريغ الماء الذى دخل القارب ، مستخدمين فى ذلك دلو من الجلد ، حرص أحد البحارة على إحضاره معه من السفينة (بأن وضع مقبض الدلو بين أسنانه بمهارة لا تقل عن مهارة قيصر وهو يبعد سيفه عن فاروس السكندرى) ، أو باستعمال مغرفة القارب ، ورحنا نستعمل هاتين الأدوات بصورة مستمرة ، نظرا لأن كل مغرفة أو دلو كنا نرفعهما من المياه التى دخلت القارب ، كانا يستعوضان بضعفهما بفعل الموجه التالية ، إذ كانت العاصفة تستعر من حولنا .

ووقف السنن الذى جاء من جبل عقدة فى وسط القارب وهو يقرأ بعض آيات من القرآن ، وكان يهتف ، فى بعض الأحيان ، طالبا العون من الله ، وكان يؤذن فى بعض الأحيان الأخرى ، مرددا آذان الصلاة ، الذى يعزو إليه أتباع محمد (ﷺ) فضيلة سحرية كبيرة^(١) . وكشف ابن شقيق الربان عن روح معنوية عالية وغير عادية قياسا على عمره ؛ وراح البحارة يستعملون مجاديفهم بمهارة وشجاعة كبيرة ، مما جعلنا

(١) نعم إن الأذان فيه فضيلة كبيرة حيث يعبر عن كبرياء الله وعزته ويعبر عن ضعف الإنسان واحتياجه إلى ربه ، فوق أنه يطرد الشيطان ، وليس - كما يقول المؤلف - أنه عمل سحرى فقد ثبت فى الحديث الصحيح أنه (إذا نودى للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ...) ألخ الحديث - (د. حلمى عبد المنعم) .

نتحاشى الاهتزازات الناتجة عن البحر ؛ أما باقى من كانوا فى القارب ، ومن بينهم يوسف بن خميس ، فقد انتابهم الخوف والفرع ، إلى حد أنهم فقدوا وعيهم تماما ، واستلقوا مثل الأموات وسط الماء الموجود فى قاع القارب ، ولم يحرك أحد منهم رأسا أو يقول كلمة .

وواقع الأمر ، أن الحال التى كنا عليها ، والتى لم تكن خالية من بارقة أمل ضعيفة ، كانت تدعو إلى اليأس والإحباط . كنا جميعا فى قارب مفتوح ، يحمل حملا أكبر من طاقته ، إضافة إلى أن تحركات القارب لم تكن على ما يرام نظرا للدعامة التى كانت مقطورة به ، وتمشى من ورائه فى عرض البحر ، علاوة على المسافة الكبيرة التى تفصل بيننا وبين الشاطئ ، برغم أننا كنا نرى الأجزاء العالية من الشاطئ ، عن بعد ، فى ضوء القمر، وكانت الريح تعوى من حولنا ، ويزداد عواؤها لحظة بعد أخرى ، كما كانت الأمواج الشرسة الضخمة تندفع نحونا مثل الوحوش كما لو كانت ستبتلعنا - ترى ، ما هى فرص احتمال وصولنا إلى الشاطئ ، وسط كل هذه الأنواء ؟ الكل كانوا يعلقون آمالهم على التجديف ، وعلى التوازن والعون والمساندة المتمثلة فى استعمال المجاديف ؛ بل إن اعتماد الجميع كان ، فى المقام الأول ، على الله الذى خلق هذه الأعماق ؛ ولم يخطر ببالى أن الله الذى أرسلنى إلى هذا المكان يمكن أن يتخلى عني ويفرقني فى نهاية رحلتى، وبهذه الطريقة غير المقنعة تماما ؛ ولو قدر لنا أن نفرق هنا ، فكيف كانت أخبار هذا الحادث الذى وقع بعيدا عن سواده ، ستصل إلى بلادى ؟ أو متى كانت ستصل ؟ - من هنا فقد كنت أشعر بالثقة ، أنتى سوف أصل إلى الشاطئ بصورة أو بأخرى ، ولكنى لم أكن أعرف شيئا عن الوسيلة التى سيتم بها ذلك ، كان المسلمان اللذان كانا معنا فى القارب - اللذان كانت تصرفاتهما توحى بأنهما لا حول لهما ولا قوة - يصليان مثل أناس فقدوا كل الأمل ، وكانا يبدوان كما لو كانا مقتنعين تماما بأن صلاتهما لن يكون لها أى تأثير على تلك الإرادة القاهرة التى يعبدانها تحت اسم الله . أما البياضية فقد لزموا الصمت ، أو كانوا يتبادلون بضع كلمات تتعلق بإدارة القارب ، فى حين راح البحار الصغير ، الذى سبق أن أشرنا إليه ، يلقي النكات والطرف ببرود شديد كما لو كان جالسا فى كوخه على الشاطئ ، مجبرا من هم فى القارب على الضحك رغما عنهم ، وبذلك كان يرفع من روحهم المعنوية - وكان ذلك أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف ؛ والسبب فى ذلك أن فقدان الشجاعة يعنى فقدان كل شئ .

وهنا أوكّل لى كل من كانوا فى القارب مهمة تحديد مسارنا الخطير ، وكانت هذه الوكالة نابعة من فكرة مؤداها أن رجلا مثلى على هذا القدر من العلم (فى نظر العربى)، إضافة إلى بعض المكتسبات الأخرى ، لابد أن يكون على دراية بالخريطة أكثر من أى إنسان آخر ؛ وربما جاءت هذه الوكالة أيضا من منطلق أنى لم افقد صوابى مثل السواد الأعظم من الآخرين . واستطعت عن طريق النجوم ، التى حجب ضوء القمر والضباب بعضا قليلا منها، أن أحدد اتجاه الشاطئ. كان الشاطئ فى اتجاه الجنوب ؛ ولكن الإعصار كان قد تغير الآن وبدأ يهب من بين الغرب والشمال ، ومن هنا كان لابد لنا من اتباع مسار جنوبى شرقى ، وذلك تحاشيا منا لتعريض القارب للدمار الكامل بتعريض جانبه للأمواج . وبعد أن تأكدت من هذه النقطة ، جعلت البحارة يحافظون على مقدمة القارب فى نفس ذلك الاتجاه ، واصلنا التجديف مدة ساعة كاملة فى ذلك الاتجاه، واصلنا خلالها تفريغ الماء من القارب إلى البحر ، وكان كل منا يشجع الآخر ؛ على أمل أن البر لا يمكن أن يكون بعيدا عنا . وأخيرا رأيت فى ضوء القمر صخرة تذكرت أنى شاهدها فى عصر اليوم السابق ؛ كانت تلك صخرة جين ، وهى عبارة عن نقطة بعيدة عن مجموعة صخور سواده ، وأصبحت الآن على بعد مسافة من لوح مأوى السفينة الفارقة . وصحت قائلا : " هيا ، يا رجال ، تشجعوا ! " ، "هاهى جين" . وتعجبوا كلهم صائحين : " قلها ثانية ، قلها ثانية ؛ بارك الله فىك ! " . كانوا يحسبون أن تكرار العبارة سيجعل منها فعلا حسنا ؛ ولكنى كنت أدرك أن أحدا منهم لم تدر بخلده فكرة رؤية تلك القمة السوداء ، التى بدأت تلوح لنا الآن فوق سطح الماء . ويسأل المسافر الذى جاء من جبل عقدة : " أهى قريبة ؟ " ورددت عليه ، بشئى من المبالغة ، التى كانت ضرورية لزيادة همة البحارة ، قائلا : " إنها قريبة " ، " هيا يا رجال ؛ واصلوا التجديف وسوف نتجاوزها حالا " . ولكنى أنا نفسى ، كنت أشك فى ذلك ؛ ويمتلئ القارب بالمياه التى كانت تتناثر من حولنا ، ولو حدث خطأ فى مسارنا لكنا قد أصبحنا جميعا فى قاع البحر .

وبعد ساعة أخرى من النضال والتصارع مع الماء : كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ، أو ما يزيد عن منتصف الليل بقليل ، وبدلا من أن تنحسر العاصفة ازدادت شدة على شدتها وعنفا على عنفها . وشعر واحد من المسافرين الثلاثة الذين كانوا يتعلقون بدعامة عارضه المؤخرة ، بالخدر فى جسمه ، وعدم قدرته على الإمساك بالدعامة ؛ ويترك الرجل الدعامة ، ثم راح يسبح يأسا فى اتجاه القارب ، واستحلف

من فى القارب بالله أن يأخذوه معهم . وقال البعض بقبول توسله ، وقال بعض آخر يرفض هذا التوسل ؛ وفى النهاية تحرك اثنان من البحارة بدافع الشفقة ، وأمسكا بذراعيه فى المنطقة التى كان يتعلق بالقارب عندها ، ورفعاه إلى داخل القارب . كان إجمالى عددنا الآن ثلاثة عشر ، وغاص جزء كبير من القارب فى الماء ، وبطؤت حركته وزاد تعرضنا للخطر على إثر ذلك ؛ وأصبح الفاصل بين الحياة والموت عبارة عن قبضة يد . وبعد ذلك مباشرة حاول مسافر آخر اسمه إبراهيم ، الشئ نفسه على أمل أن نسمح له بالركوب فى القارب . وأصبحت مسألة الاستجابة لرجائه ضربا من ضروب الجنون ؛ ومع ذلك تعلق هذا الشقى المسكين بشفير القارب وحاول أن يتسلق القارب ، إلى أن قام أقرب البحارة إليه ، بعد أن رجاه مرارا أن يرفع يده عن القارب ، قائلا : "هذه هى فرصتك الوحيدة فى النجاة ، فلا تضيعها" ، ورفع يده وأبعدها عن شفير القارب ، طارحا الرجل فى البحر ، حيث اختفى إلى أبد الأبد . وينادى الربان على البحار الذى كان يتعلق بدعامة العارضة قائلا : "هل وصلك إبراهيم ؟" ويرد عليه البحار قائلا : "لقد غرق إبراهيم" وكرر الجميع فى صوت خفيض "ونحن أيضا سنغرق حالا" . والواقع أن هذا الحادث كان بمثابة النهاية المحتملة والوحيدة لكل ما جرى من محاولات . ونظرا لتضاعف عنف العاصفة ؛ فإن عملية رفع الماء من القارب لم تكن تتواءم مع معدل دخول الموج إلى القارب ، وترتب على ذلك دخول كمية كبيرة من الماء إلى القارب ؛ وبدأت المياه تتدفق من كل جانب ؛ فقد بدأ القارب يغرق ونحن مازلنا فى عرض البحر .

ويصيح الربان مرة أخرى قائلا : "أقحموا" . وخطر ببالى الخاطر التالى : "ليقفز من يقفز ، أما أنا فسوف أبقى فى القارب طالما بقى على سطح الماء" . ومن حسن حظ يوسف ، أنه كان يرقد جثة هامدة لا يستشعر خوفا ولا يحرك ساكنا ؛ ولكن أربعة من الجماعة ، بحار وثلاثة من المسافرين ، إيماننا منهم بخيبة أملهم ورجائهم فى القارب ، وأنهم لم يعد أمامهم من شئ يفعلونه سوى التعلق بعارضة المؤخرة ، أو إن الله هو أعلم بذلك الذى سيتشبثون به ، قفزوا فى الماء . وأدى قفز هؤلاء الثلاثة فى الماء إلى إنقاذ حياة الباقين . وخفت حمولة القارب وبدأ يرتفع قليلا من داخل الماء ، فى حين رحت أنا ورئيس البحارة ننتشل الماء من قاع القارب : كان كل من فى القارب الآن عبارة عن تسعة أفراد ثمانية رجال وصبي صغير ، ابن شقيق الربان .

فى ذات الوقت كان البحر يرتفع مثل الجبال ؛ بينما كنا فى ذروة مصارعة مياه البحر ، فى حين كان القارب يسير بصعوبة بالغة ، انقطع الحبل الذى كان مربوطا فى مؤخرة القارب ويقطر دعامه المؤخرة. لم يكن على لوح دعاية المؤخرة سوى رجل واحد. ولكن بعد فترة وجيزة كشف لنا ضوء القمر عن رؤوس السباحين الخمسة وهم يحاولون العودة إلى القارب ؛ ولو قدر لهم أن يصلوا إلى القارب لغرقنا جميعا ؛ ثم جاءت موجة عاتية عزلت هؤلاء الرجال عنا . ويصيح الربان قائلا : " لعل الله يطف بهؤلاء المساكين الذين يغرقون: الذين طرد البحر جثثهم إلى البر بعد ذلك بأربعة أيام فى منطقة سيب Seeb . وأصبحنا نحن الناجين الوحيدين - إن جاز لنا أن نقول ذلك .

وداح رجالنا يجدفون بسرعة وجد ، وأرخى الليل سدوله علينا ؛ وهنا بدأنا ، ثم بدأنا بعد ذلك نرى الشاطئ رأى العين . كانت أمامنا صخرة سوداء كبيرة عالية تنبثق من وسط المياه المزبدة ، كما لو كانت جدارا أو قلعة ؛ وعن يسارنا ، كنا نرى عن بعد وميضاً عجيباً وخطاً أبيض طويلاً من كاسرات الأمواج مما أكد لى وجود شاطئ رملى مستوي . وكان من رأى البحارة الثلاثة الذين كانوا يجدفون ، هم والرجل القادم من جبل عقدة ، والذي حل محل البحار الرابع ، وبعد أن خارت قواهم بفعل التعب والشقاء الكبير الذى عانوه فى ظل انتظارهم الموت بين حين وآخر ، ونظرا أيضا لأنهم كانوا يتطلعون لوضع حد لهذا الشقاء المقيم ، كان من رأيهم أن يتجه القارب إلى الصخور ، لأنها تمثل اليابسة الوحيدة الأقرب إليهم ، وبذلك ينتهى كل شئ على وجه السرعة . لو حدث ذلك لترتب عليه دمارنا كاملاً وأكيدا . ولما كان الربان ورئيس البحارة قد قاسيا كثيرا مما مر بهما ، فقد وافقا على ذلك الرأى ولم يعترضا عليه . وكان من رأى أن نبذل المزيد من الجهد ؛ ولذلك أمسكت بكل من الربان ورئيس البحارة وجعلتهما يفهمان ويعيان تماما ذلك الذى يقوله البحارة الذين يجدفون ، وأردفت قائلاً أننا لو تصرفنا كما يقول البحارة فذلك هو الانتحار بعينه ، ولن يغتفر لرجال أنقذهم الله إلى هذا الحد ، وأبلغتهم أيضا أن أمل النجاة الوحيد أمامنا يتمثل فى الاتجاه مباشرة إلى الخليج الرملى الذى أشرت إليه ، وكان يبتعد مسافة قصيرة .

وبعد أن أيقظتهما من غفوتهما وأوهامهما ، نهضا وانضما إلى فى مجادلة البحارة وهنا قال البحارة : انهم لا يستطيعون أن يواصلوا إلى أبعد مما نحن عليه الآن ، وانهم سوف يتجهون إلى الأرض القريبة مهما كانت ، وليحدث ما يحدث ، وبعد ذلك بدأوا يتجهون صوب الصخرة مباشرة .

وهنا وضع الريان الدفة بسرعة فى يد رئيس البحارة ، وقفز على واحد من البحارة ، وأمسك منه المجداف ، فى حين فعلت أنا الشئ نفسه مع بحار كان على الجانب الآخر من القارب ، ثم وجهنا مقدمة القارب صوب الخليج . وهنا طلب إلينا البحارة المترددون ، الذين استشعروا خجل جبنهم ، أن نسامحهم ، كما وعدوا أيضا بأنهم سوف يمتثلون لأوامرنا من الآن فصاعدا . وأعدنا إليهم المجدافين ، ونحن فى منتهى السعادة ، لإنهاء صراع خطير كهذا ، خلال فترة وجيزة ؛ وجدّف الرجال بهمة صوب الجهة اليسرى ، برغم أن المسافة بيننا وبين كاسرات الأمواج كانت تقدر بنصف ساعة تقريبا ، إضافة إلى أن المسار الذى يتبقى أمامنا يعد أكثر خطورة عن ذى قبل ، نظرا لأن هذا المسار كان يحتم أن يسير القارب بمحاذاة انحدار الماء واندفاعه ؛ ولكنها نصف ساعة ليس إلا ؛ ومع كل ذلك لم يخطر ببالى قط أننا سنصل إلى المكان المقصود .

واقتربنا أخيرا ، من المكان المقصود ، ولكن برز أمامنا خطر جديد . كان الصف الأول من كاسرات الأمواج ، الذى كان يتدحرج مثل الشلال ، ما يزال بعيدا عن الشاطئ ، بمسافة لا تقل عن مائة ياردة ؛ وظهر فيما بين هذا الصف الأول والشاطئ رغوة بيضاء من المياه المائجة ، والتي كان عمقها لا يقل ، بأى حال من الأحوال ، عن عشرة أقدام أو اثنى عشر قدما ، وكنت أشك تماما فى أن قوانا ستساعدنا على اجتياز هذه الرغوة ، نظرا لأننا كنا متعبين ومرهقين ، وكان الخدر يسرى فى أجسادنا بسبب برودة الليل ورذاذ الماء الذى لم يتوقف عنا لحظة واحدة . ولكن لم يكن هناك بد مما ليس منه بد ؛ ولكننا عندما اقتربنا من الخط الأبيض الذى تلامس نيران العرافين والسحرة أثناء الليل ، ناديت على كل من يوسف والصبى الصغير ، اللذين كانا يغطان فى ثبات عميق يشبه الموت ، وطلبت منهما أن يستعدا للسباحة التى أصبحت الآن أمرا لا مفر منه . ونهض يوسف ، هو والصبى ، وتخلّى البحارة عن المجاديف، وإن هى إلا لحظة أو تكاد حتى ضربت القارب موجة جعلته يغوص إلى القاع كما لو كانت أصابته قذيفة مدفع ، فى حين رحنا جميعا نصارع الموج طلبا للحياة .

ولما كنت واثقا من قدراتى السباحية ، ومتشككا فى قدرات يوسف ، فقد نظرت إلى الخلف كى أرى ما حدث ليوسف ، ولكنى وجدته خلفى فى الماء ، وأمسكت به وطلبت إليه أن يبذل كل ما فى وسعه ، وأتبنى سوف أساعده على الوصول إلى البر . ولكنه طرح يدى ، وهو فى كامل قواه العقلية وصاح قائلاً : "انقذ نفسك أنت ، فأنا

سباح جيد ، ولا تخف علىّ مطلقاً . وكان الربان هو والبحار الصغير قد أمسكا بالصبي الصغير ، ابن شقيق الربان ، من جانبه، وراحا يسبحان به صوب الشاطئ . كان الجهد الذى نبذله محبطاً ، نظراً لأن كل موجة كانت تغلبنا على أمرنا مع اندفاعها وتسحبنا إلى الخلف مع تراجعها ، فى الوقت الذى شربت فيه ، من الماء المالح ، مقدار أكبر بكثير مما هو مطلوب . وأخيراً ، وبعد بضع دقائق ، مرت كما لو كانت ساعات ، لمست قدمائى الأرض ، وراحتا تزحفان فوق الشاطئ الرملى ، كما لو كان منتقماً يطاردنى كى يثأر منى . وبدأ باقى الناجين يصلون إلى البر تباعاً الواحد إثر الآخر - كان بعضهم عارياً تماماً ، بعد أن تخلصوا من ملابسهم أو انتزعت منهم بفعل سحب الموج لهم أثناء تراجعها ؛ وكان البعض منهم ما يزالون يحتفظون ببعض قطع من الملابس التى كانوا يرتدونها . وراح الجميع ينظرون حولهم ، ليتأكدوا من وصول رفاقهم ؛ وعندما أصبح الناجون التسعة يقفون على الشاطئ ، سجدوا جميعاً على الرمل شكراً لله ، الذى منحهم الحياة من جديد بعد المخاطر الكثيرة التى مروا بها ، والأصدقاء الكثيرون الذين وافتهم المنية غرقاً .

وبعد أن فرغ الجميع من ركوعهم وسجودهم ، نهضوا يعانق كل منهم الآخر ، ويضحكون ، ويصرخون ، ويبكون ، ويرقصون . لم أر فى حياتى قط أناساً خرجوا عن شعورهم تماماً مثلما حدث لهؤلاء الناس خلال هذه اللحظة الأولى من لحظات نجاتهم المفاجئة . وأمسك أحدهم التراب بيديه وهو يصيح قائلاً : " أهذا فعلاً الذى نقف عليه هو البر؟ " وقال آخر : " أين بقية رفاقنا؟ " وقال ثالث : " رحمة الله على الموتى ؛ ولنحمد الله ونشكره لأنه أنجانا "؛ وهذا شخص رابع وقف مشدوهاً ؛ وفشلوا جميعاً فى تمالك أنفسهم . وكان يوسف قد فقد كل ملابسه التى تستتره ولم يتبق عليه شئٌ منها ؛ ولكنى كنت لا أزال ارتدى اثنين من من قمصانى (كان أحدهما ما يزال إلى جوارى) ويغطى طوله القدمين على الطريقة العربية . وأعطيت يوسف واحداً منهما ، واحتفظت بالثانى لنفسى ؛ أضف إلى ذلك أن غطاء رأسى الأحمر كان قد تعلق برأسى تماماً إلى حد أننى كنت أفضل من كل من هم حولى . وقال البحار العمانى الشاب : " يجوز لنا أن نعتبر هذا اليوم ميلاداً لنا ؛ إنه بعث لنا من الموت " . ويردف رئيس البحارة قائلاً ، بعد أن خطر بباله أسرته وأطفاله : " هناك آخرون فى بيوتنا يصلون من أجلنا ، وقد نجانا الله من أجلهم " . ورددت عليه وأنا أتذكر أولئك البعيدين عنى : " هذا صحيح ، وربما هناك آخرون غيرك يعرفون ذلك " .

وبينما كنا نتحدث على هذا النحو ، وعندما بدأنا ننظر حولنا لنتبين المكان الذى وصلنا إليه ، سمعنا صوت أحد المدافع الذى انطلق من مسافة بعيدة ناحية اليمين . وقال الربآن : " لابد أن يكون ذلك هو صوت مدفع الصباح فى سيب " . ولما كانت مدينة سيب ، واحدة من المدن المحصنة ، ومقرا يقيم السلطان فيه فى أغلب الأحيان ، فمن الطبيعى أن تمتاز عن بقية المدن بوجود حامية ومدفعية بها ؛ ويبدو أننا ، وذلك من واقع المنطقة التى تحطمت فيها سفينتنا مقابل سؤادة ، أننا لسنا بعيدين عن هذه المدينة . وبينما كنا نناقش هذا الموضوع ، سمعنا طلقة مدفع أخرى تنطلق من الداخل . ويرد شخص آخر قائلاً : " هذه الدانة لابد أن تكون صادرة عن قصر بطحة - فارزة " (أو إن شئت فقل وادى فارزة) . " من المؤكد أن ثوينى موجود فى القصر ، والسبب فى ذلك أن المدفعية لا تطلق إلا عندما يكون السلطان فى القصر ومعه بلاطه " .

كانت بشائر الفجر الكاذب قد بدأت فى الظهور ، إضافة إلى أن الريح الكاسحة التى كانت تهب على الشاطئ استلزمت منا أن نبحت لنا عن مكان نأوى إليه ؛ والسبب فى ذلك أن أجسادنا كانت تقطر ماء وكنا نشعر بقشعريرة وبرودة شديدة . من هنا دلفنا لنحتمى بمجموعة من الأدغال ، التى راح كل واحد منا يحفر لنفسه حفرة طويلة بجوارها؛ وبعد أن أويئنا أنفسنا بهذه الطريقة ، بقينا فى ذلك المكان إلى أن طلع النهار ، الذى ظننا أنه لن يطلع علينا مطلقاً . وأخيراً بدأ نور القمر يخبو قليلاً قليلاً ، ثم طلعت الشمس ، برغم أن أشعتها لم تصل إلينا بالصورة التى كنا نتطلع إليها ، والسبب فى ذلك أن الخليج الذى وصلنا إليه كانت تحفه من الجانبين تلال مرتفعة ، تحجب عنه الأفق . كانت تلك التلال تنتهى بمنخفضات من ناحية البحر ؛ وعلى الناحية اليسرى ، كانت توجد تلك الصخرة نفسها ، التى كاد تسرع البحارة اليأس أن يدفعنا إليها فى الليلة السابقة ؛ كان منظر تلك الصخرة مريعاً حقاً . كانت الريح ما تزال شديدة ، وكنا بدورنا نرتعد من البرد فى ظل الملابس التى كنا نرتديها . وهؤلاء من أمثالى الذين وصلوا إلى البر وعليهم من الملابس ما يزيد على ستر عوراتهم ، قاموا باقتسام ما زاد عن حاجتهم ، مع أولئك الذين لا يرتدون أى شئ من الملابس . وعندما بدأت أشعة الشمس تسقط على جانب التل الأيمن ، سارعنا جميعاً إلى تدفئة أنفسنا وتجفيف ملابسنا - وهذه مهمة سرعان ما أنجزناها لأن خوان ملابسنا كان صغيراً جداً . وبدأنا بعد ذلك نستطلع المكان ، الذى اكتشف بعض البحارة أنهم لا يعرفونه تماماً ، كان ذلك المكان يقع فى ناحية الشرق من مدينة سيب ؛ ولكننا كانت تفصلنا عن هذه

المدينة سلسلة عالية وعريضة من الصخور ، التي لم تجرؤ أقدامنا الحافية على الاقتراب منها ؛ ومن ناحية الغرب كان هناك أيضا حاجزا مماثلا ، ولكن الوادى ، من ناحية البر ، كان كله من الرمل فى المنطقة ما بين التلال ، وبدا لنا الطريق سهلا فى ذلك الاتجاه ، وأنه يؤدى ، كما قال البحارة ، إلى قصر السلطان الموجود فى هذه المنطقة الريفية - وهو المكان نفسه الذى سمعنا دانة المدفع تنطلق منه الليلة الماضية ، وأن هذا القصر لا يمكن أن يكون على بعد مسافة كبيرة من هنا . وأننا إذا ما وصلنا إلى القصر ، ونظرا لأن الجميع يعلمون مدى كرم ثوينى وسخائه ، فإننا سوف نحصل على عونه ومساعدته لنا . وقررنا الذهاب إلى القصر ؛ ومع ذلك ، وقبل أن ننطلق إلى هدفنا ، استدرنا لننظر إلى البحر من ورائنا ، الذى كان ما يزال هائجا ومائجا . ولم نر أثرا للقارب الذى أنقذ حياتنا ، ولا أى شئ من شراعه ، برغم أننا فى اليوم السابق (اليوم الذى يبدو لنا كما لو كان عاما مضى) كنا نرى الكثير من بقايا ذلك القارب . لقد غرقت بالقرب من صخور سوادة ، فى هذه الليلة نفسها ، عشر سفن كبيرة ، بعضها ينتمى إلى الساحل الفارسى والبعض الآخر ينتمى إلى الساحل العماني ؛ وكما عرفت بعد ذلك ، أن ثلاثا من هذه السفن غرقت بكل من كانوا عليها ؛ وأن هناك سفينة واحدة لم ينجو منها سوى طاقم بحارتها ، أما بقية السفن فقليل أن قله قليلة ممن كانوا عليها ؛ ونحن بدورنا ، أصابنا النحس فى بعض رفاقنا . ونظرنا إلى المحيط ، وأطلنا النظر إليه ، وأعلن كل واحد منا القرار المعتاد الذى يتخذه البحارة الذين تتحطم سفنهم ، ألا يعودوا إلى ذلك العنصر الغادر مرة ثانية ؛ هذا القرار ، الذى لم يدم - كما يحدث فى معظم الأحيان - سوى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع .

وعقب ذلك بدأنا نشق طريقنا فى اتجاه الجنوب عبر الرمال والمنحدرات سعيا إلى القصر الذى يقيم فيه السلطان ، وقلت لـ - يوسف : " إنه لتحطم مؤسف ، أن نمثل أمام جلالته ونحن على هذا الحال ؛ ولو كانت هدايانا معنا ، فلربما كانت زيارتنا أحسن وأوقع " . وتنهد يوسف ؛ إذ تقع مسئولية ذلك الجزء من مغامرتنا الفاشلة على عاتقه . أما فيما يتعلق بى أنا شخصيا ، فقد ضاع منى كل ما تبقى معى ، منذ أن افترقت عن أبى عيسى فى المنام ، علاوة على بعض الأشياء التى كنت قد اشتريتها ، بدافع من الفضول المحلى - ومن بينها خنجر أنيق ، ومشلع من الصوف الراقى ، وسجادتين عجميتين جميلتين ، بالإضافة إلى بعض التذكارات التى اشتريتها من كل من لينجا والشارقة . والذى أقلقنى كثيرا هو فقدانى لكل ملاحظاتي التى كنت قد بدأت

فى تدوينها اعتبارا من اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير ، إلى يومنا هذا ، أو إن شئت فقل إلى اليوم العاشر من شهر مارس ، وأنا هنا ألتمس العذر على الحذف وعدم الاستيفاء الذى قد يلاحظه القارئ ، فى ذلك الجزء من القصة ، والذى يقع بين هذين التاريخين ، وربما يلاحظ القارئ أيضا بعض الأخطاء غير المقصودة . وأنا لم أهتم كثيرا بضياغ النقود التى كانت معى ، برغم أن الأمر قد يبدو طريفا إذا ما وجد الإنسان نفسه مفلسا مع رفيق شبه عار ومفلس أيضا ، وفى بلاد غريبة ، وبعيدا عن الأصدقاء والموارد . ولكن كل ذلك كان تافها إذا ما قارناه بما حدث للريان - الذى خسر السفينة ، وحمولتها ، بل وخسر كل شىء باستثناء القميص الذى كان يرتديه ؛ ولم يكن باقى أفراد الطاقم أحسن حالا ، قياسا على ما نحن فيه . وعلى كل حال ، فقد فقد الكثيرون منهم ما هو أهم من كل ذلك بكثير - أرواحهم ، وبالتالي فنحن عندما نقارن أنفسنا بهم ، نجدنا أوفر حظا ؛ من هنا بدأنا نشعر بالارتياح ، واتفقنا جميعا على أن نشكر الله ونحمده على ما مضى ، وأن نوكل إليه أمرنا ، ونثق به فيما نحن مقبلون عليه .

ولم ألاحظ سوى من خلال هذه الأحداث ، الفرق بين المسلمين وغير المسلمين (وهذه الحقيقة لم ألاحظها من قبل ، ولكنها اتضحت لى تماما من خلال هذه الأحداث) فى طريقة نظرهم إلى تلك الكينونة العليا ، التى يشيع اسمها بين الجميع ، باعتباره محطا للتأليه . فالبياضية الذين كانوا معنا يتكلمون عن الله مثلما يتكلم عنه المسيحيون العاقلون، يتكلمون عنه باعتباره الحاكم الأحد والموجه الأحد ، ولكن حكمه لخير البشر ، والتى شاعت مشيئته الحياة وليس الموت ، والغوث والرحمة بدلا من المعاناة ؛ وبهذا الفكر راح البياضية ، يفعلون ، عن طيب خاطر ، ذلك الذى ينبغى عمله ، تاركين كل ماعدا ذلك بين يدى الله ، وهم يحدوهم أمل طيب فى النتيجة . أما المسلمون ، هؤلاء المساكين ، الذين غرقوا جميعا إلا واحداً منهم ، فإن رؤيتهم للأمور كانت أقل بشراً ، وكانوا على قناعة كاملة أنهم بين يدى قوة عرفيه مطلقة ، هى القدرة على إنقاذهم إن شاعت وإغراقهم إن شاعت ، وأن صلواتهم واحتياجاتهم لا تؤثر على هذه القوة من قريب أو بعيد . وليس هذا هو حال كل أتباع محمد ؛ فقد شاهدت بنفسى حالات كثيرة لفكر مناقض لذلك ، ناتجة عن ذلك التضارب السعيد الذى لا يُعملُ البشر بمقتضاه مبادئهم النظرية أو ينصرفون طبقا لها . يضاف إلى ذلك ، أن المسلمين فى البلدان المشتركة مثل تركيا ، وسوريا ، ومصر يقترضون الكثير ، فى معظم الأحيان ،

وبلا وعى من النحل والنظم المختلفة المحيطة بهم . ولكن النجديين بحكم انعزالهم عن التأثير الأجنبي ، ومن واقع تمسكهم ، نتيجة لذلك ، بالفكرة التى تقوم عليها كل حياتهم وروحهم ، يرون نفس الإله أمامهم فى الفعل وفى القول ؛ من هنا فقد راح رفاقنا التعساء فى السفينة ينتظرون مصيرهم مثل حيوانات الذبح ، عندما يتم إحضارها أمام القصاب وسكينه مشهور فى يده^(١) .

أرجو أن يغفر لى القارئ ، هذا الاستطراد القصير . وأنا (من منطلق ثقته بنفسى) لا أركز هنا ، على هذه النتيجة الأزتيكية Azote الغربية ولكنها طبيعية ، لا أركز عليها من منطلق العداء اللاهوتى ، أو الوطنى ، أو حتى من منطلق العداء الشخصى ، وإنما من منطلق الاقتناع الناشئ عن ما شاهدته من الممارسات الإسلامية الطبيعية فى كثير من البلدان وبين كثير من الأعراق والأجناس .

وواصلنا المسير وبعض منا سعيد ، وبعض آخر حزين ، وبعض ثالث دب فيه الوهن والضعف إلى ما قبل ساعة أو نحو الساعة ، من حلول وقت الظهيرة . وأخيرا بدأنا نعبّر سلسلة من الجبال بدأت الأشجار تختلط فيها ، مع الأدغال الشاطئية المنخفضة ، ثم بدأنا نرى فجأة ، البطحة Bat.hah من أمامنا . كانت تلك البطحة (الوادى) عبارة عن تجويف عامر بالأشجار ويقع وسط تلال قممها من الجرانيت ؛ فكان قاع أو الجزء الأسفل من ذلك الوادى ، شديد الاخضرار ، اللهم باستثناء جزء واحد من الوادى ، الذى كان جزء منه عبارة عن رقعة من الرمل النظيف . كان قصر السلطان يقع إلى جانب هذا الجزء من الوادى ، وكان يشبه ، بصورة واضحة تماما ، قصرا من القصور التى أنشئت فى عهد لويس الثالث عشر ، مثل تلك القصور التى شاهدتها فى وسط فرنسا . والقصر مكون من مقصورة مركزية ، لها أجنحة جانبية مرتبة ترتيبا متناسقا ، والطابق الأول من القصر تحيط به شرف مفتوحة ، وله سلم يؤدي إلى مدخل القصر الرئيسى؛ وخلاصة القول ، إن هذا القصر يعد أكثر المنشآت ، التى شاهدتها اصطبغا بالصبغة الأوربية فى الجزيرة العربية . والذى شيد هذا القصر هو السلطان سعيد ، وفى اعتقاده أن الذين بنوه هم البناعون الغربيون بناء

(١) إن دين الإسلام يحث الإنسان على الأخذ بالأسباب ، إلى آخر نفس فى الحياة ، ولكنه مع ذلك يعلق آماله على الله القادر الذى خلق الأسباب والمسببات ، فإن نجح فهذا فضل الله ، وإن خسر فهذا قدر الله ، وليس الأمر - كما وصفه المؤلف - بأن المسلمين فيهم سلبية نتيجة هذا الدين وتمسكهم به ، كلا - فسلوك الناس شئ وتعاليم الدين شئ آخر - (د. حلمى عبد المنعم) .

على أوامر من السلطان سعيد نفسه . وتحيط بالقصر سلسلة طويلة من الإسطبلات والمراحيض . وفى هذا المكان ، ومن أسفل أحد أجنحة القصر ، وبالقرب من أحد مداخله الخاصة ، كان يجلس السلطان ثوينى نفسه ، وسط حاشيته ، ليستتشق نسيم الصباح المنعش وهو جالس فى الظل ؛ وكان يقف أمامه حوالى ثلاثمائة خيال كانوا جميعا منهمكين فى مسير وتطورات إحدى المعارك الهيكلية . وكانت الخيام منصوبة ، بين الأشجار ، هنا وهناك ؛ كانت الحياة تدب فى كل شئ ، وكان الجميع يشعرون بالحيوية ، والبشر والأمان ؛ وهذا مشهد مختلف تماما عن ذلك المشهد الذى شاهدناه مؤخرا وشاركنا فيه .

وتوقفنا خلف ستار أوراق بعض النباتات ، استطعنا منها أن نرى السلطان نفسه ومعه أفراد حاشيته . وينتهى العرض بعد فترة قصيرة ، ثم ينصرف الخيالة بعد أن يحيوا سلطانهم ، عائدين إلى ثكناتهم التى تبعد عن القصر مسافة قصيرة . وهنا واصلنا المسير من جديد ؛ وبعد أن سرنا خطوات قليلة رأنا بعض الواقفين ، الذين اتجهوا إلينا مباشرة . وقالوا لنا : " أكيد ، أنكم من بين أولئك الذين تحطمت سفنهم الليلة الماضية ؛ لقد كنا نتحدث عن احتمالية تحطم عدد كبير من السفن فى تلك العاصفة ، وها أنتم تشهدون بصحة ما توقعناه " . وبعد هذه التحية ، اقتادونا على الفور وبلا أية مقدمات لنمثل أمام السلطان ثوينى .

وأنا لم أتمالك نفسى من الضحك من الشكل الذى كنت عليه فى ذلك الوقت ؛ ولكن هذا من حسن حظى فيما يتعلق بمسألة تنكرى أمام السلطان ثوينى ، الذى لا بد أن تكون عيناه الملكيتان قد شاهدتا مرارا أعدادا كبيرة من الأوربيين من مختلف الفئات ، والذى ربما استطاع أن يتعرف فى الرحالة الإنجليزى لو أننى كنت متنكرا فى زى افضل من الذى ارتديه الآن ، وفى ظل ظروف تلعب الشكليات فيها دورا أكبر . أما مسألة التقاط رجل إنجليزى من بين مجموعتنا عارية السيقان فتحتاج إلى واحد من الحواة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ثوينى نفسه ، بغض النظر عما تكون أمه ، لا يمكن أن يكون ذلك الحاوى . ومثلنا أمام ثوينى . كان السلطان يرتدى ملابس أنيقة ، بل وغاية فى الأناقة ، وبيضاء اللون ، ومطرزة تطريزا خفيفا بما يشبه الورود ، بينما كان يضع على رأسه عمامة كبيرة بيضاء من الكشمير ، تعلوها ماسة ، ويتدلى من حزامه الذهبى خنجر رائع مذهب . وجسم السلطان ثوينى ممتلئ إلى حد ما ، وملامح وجهه

تدل على الأناقة؛ وقسمات وجهه تدل على الحذق والمهارة ولكنها توحى أيضا بالتشقت ، وشكله بالصورة التي هو عليها يوحى بأنه واحد من أتباع أبيقور^(١) ، ولكنه كان يمكن أن يكون أفضل مما هو عليه لو أنه أراد ذلك . وهو تبدو عليه الحصافة ، وحسن الطبع ، وحبه للمتعة يظهر على وجهه ، وفي سلوكياته ، بل يبدو إنه يشكل جزءا من شخصيته أيضا . وكان يجلس إلى جانب السلطان ثويني صبي غامق الملامح ، ولكنه كان يرتدى ملابس رائعة ، وكان غطاء رأسه مرصعا بالأحجار الكريمة ؛ هذا الصبي ، هو أكبر أبنائه الذي أنجبه من خلية^(٢) حبشية . وبالقرب من السلطان كان يجلس رئيس الوزراء ، الذي هرب اسمه من ذاكرتي ، وكان يجلس معه أيضا العديد من أصحاب الجاه والمناصب العالية ، الذين كانوا كلهم متشحون بالبياض والذهب ؛ في حين كان هناك حراس عديدين ، مسلحين بالسيوف والخناجر جالسين أو واقفين من حول السلطان .

كان من الطبيعي أن يقوم الربان بدور الناطق باسمنا - واستقبلنا السلطان استقبالا فيه كثير من الود والتعاطف ، وسألنا عن الميناء الذي تنتمي إليه سفينتنا ، وسألنا أيضا عن الحمولة التي كانت تحملها السفينة ، وعن الميناء الذي كانت تنوى الوصول إليه ؛ كما سألنا أيضا عن طريقة غرق السفينة ، وعن عدد الذين لقوا حتفهم ، وكيف استطعنا نحن أن ننجى أنفسنا ، ثم أصدر أوامره ، بعد أن وعد بتعويض صاحب المركب التعيس عن سفينته ، بتسكيننا والاعتناء بنا في القصر .

وتمنيت لو أن يوسف هو الذي تكلم بعد الربان ، ولو أن يقول شيئا عن الهدايا التي كان يحملها معه ، وعن الشخص الذي عهد إليه بهذه الهدايا ، ولكن يوسف كان يحتاج إلى من يشجعه كي يتقدم لمثل هذا العمل ، من ناحيتي أنا ، فقد كنت أرى أنه ليس من الحصافة والحرص أن أ جذب إلى الاهتمام ، وبخاصة أنني لمحت بين أفراد الحاشية بعضا من الناس الذين تشبه وجوههم وجوه أهل الشمال . من هنا أ بقيت نفسي في خلفية الصورة ، ورحت أنتظر النتائج . وفي ذات الوقت ، تقدم أحد الحراس

(١) الفيلسوف الإغريقي الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى ، ونادى بالانغماس في الملذات الحسية - (المترجم) .

(٢) ليست خلية ، ولكنها قد تكون أمة ، فليس في الإسلام خلائل ولا أخدان ، وإنما زوجات وإماء ، وأما الخليلات فلا تعرف إلا في الغرب المتحلل من القيم والقضائل - (د. حلمي عبد المنعم) .

ناحية يوسف وناحيتي وعرض علينا أن يستضيفنا ؛ وجرى التعامل بالطريقة نفسها ، مع بقية البحارة . وسرنا مع مضيفنا إلى منزله ؛ الذى كان يقع ضمن المنازل التى تقع خارج نطاق مبانى القصر ؛ كان المنزل عبارة عن مبنى جيد وكبير يسكن فيه حوالى ستة من حملة السيوف الملكيين . وفى هذا المبنى بدأ الجميع يعملون على راحتنا . وسرعان ما قدموا لى بنطلونا خفيفا وعمامة . وارتدى يوسف أيضا ثيابا جيدة ؛ وشب أهل البيت النار التى بعثت فينا الدفء ، وأشعلت الغلايين ، وأعدت القهوة ، فى حين راحوا يجهزون لنا كميات إضافية من الغذاء . وأثناء قيام هذه العمليات على قدم وساق ، كنا نعيد قصتنا ونكررها مرة بعد مرة ، وتعاطف الجميع معنا وواسونا ، وتمنوا لنا الخير ، وقالوا لنا ، كل ما يمكن أن يقال فى مثل هذه المناسبات . وتناولنا وجبة طيبة شهية من اللحم والأرز الملون بالزعفران ، ومعه الزبيب ، والتمر ، وكل ذلك الذى استطاعت أيدى المضيف الوصول إليه ، ثم خلدنا إلى الراحة لنأخذ سنة قصيرة من النوم ، - وهى المرة الأولى التى ننام فيها بعد أن تحطمت سفينتنا ، والسبب فى ذلك ، أن البرد لم يسمح لنا بأن نغمض أعيننا عندما كنا على الشاطئ فى فترة الصباح .

كان وقت العصر ، عندما استيقظت ، قد دخل منذ فترة طويلة . ولكننى وجدت يوسف مستيقظا ، واقترح على أن نقوم بتمشية نتفرج خلالها ، على القصر والمنطقة المجاورة له . وبالقرب من القصر كانت هناك عين جارية ، ماؤها دافئ ويستعملها السلطان حماما له أثناء إقامته فى منزله الريفى ؛ بل إن هذا الماء نفسه ، بعد أن يجرى تبريده فى قنوات مفتوحة من الجص ، يروى بستانا كبيرا من أعشاب الطعام ، تنتشر على اتساع الوادى وتشغل مساحة كبيرة منه ؛ وخلف هذا البستان يمتد هذا النهر ليروى مزارع مختلطة من أشجار النخيل وجوز الهند . وفى المساء يمتلئ هذا الوادى عن آخره بالمتنزهين ، الذين يبرز من بينهم الضباط الخيالة ، وضباط المدفعية وهم يرتدون زيا شبيها بالزى الأوربى ؛ وعلى كل حال ، لم يكن فى البطحة أحد من الحراس البلوش . وقبل الغروب بوقت قصير شاهدنا مجموعة كبيرة من الخيالة ، وهى تتجه صوب الوادى ، إلى أن توقفت أمام باب القصر . كان قائد هذه الجماعة رجل عريض المنكبين ، غليظ العنق ، كبير الرأس ، متين يلبس مشلحا أحمر ، ويركب جوادا رائعا ، بل إنه واحد من أحسن الخيول التى شاهدتها فى الجزيرة العربية ، ويكفى وحده للتدليل على أهمية راكبه . لم يكن هذا الرجل ، غير المطيرى الشهير ، أو إن

شئت فقل المطيرى سبى السمعة ، الذراع اليمنى لـ - خالد بن صقر بكل عنفوانه وقسوته ، والذي اشتهر بأنه أعظم رجال العصابات فى عصره ، وبينما كان ينزل من على ظهر الحصان ، استثار من حوله فيضا من الكراهية ، وسارع خدم القصر كى يرافقه وهو يصعد السلم ، كما أنه وكل الذين كانوا يقفون إلى جوارنا انسحبوا قليلا إلى الخلف وراحوا يتمتمون باللعنات والشتائم . كان ثوينى نفسه يتمنى ، كما يقول الناس ، وحسب اعتقادى أنا شخصا ، أن يرى حليفه الخطير على بعد مسافة كبيرة ، ولكن السياسة هى التى تضطره إلى مسايرة الظروف : ويبقى المطيرى ثلاثة أيام بطولها ضيفا على السلطان ، يعود بعدها إلى قائده (سيده) المباشر خالد بن صقر فى الشارقة . وأنا لم أستطع أن أعرف شيئا عن المهمة الخاصة التى كان مكلفا بها أو النتيجة التى انتهت إليها هذه المهمة ؛ وربما كان هدفه الرئيسى هو الروغان والتمويه .

ومن منطلق الفضول الطبيعى ، فى مثل هذه الأحوال ، قام اثنان من البحارة بزيارة الشاطئ فى اللحظة نفسها ، حيث عثرا على ألواح قاربنا المكسرة بعد أن تحطمت إلى قطع صغيرة بفعل ماء البحر . ولم تر أو نسمع أى شئ عن السفينة - فى المكان الذى غرقت فيه ليس على عمق خمسة فراسخ ، وإنما على عمق سبعين أو ثمانين فرسخا تحت الماء ، إذا ما صحت الأعماق المسبورة عند صخور سواده .

ورحت أنا ويوسف نتسكع فى البطحة إلى أن بدأت الشمس فى الغروب ، وعندها قدم لنا ولأصدقائنا واحد من حاشية القصر مبلغا صغيرا من النقود لتلبية احتياجاتنا الضرورية ، ووعدنا بالمزيد إذا ما فضلنا البقاء فى ضيافة السلطان يوما أو يومين آخرين . وتسلم ابن خميس وأمسك كل منا ثمانا ذهبيا فى يده ، والذي تقل قيمته قليلا عن عشر شلنات إنجليزية ، وهذا الثمان يكفى للمغامرة بالمضى قدما فى الرحلة ، وقررنا البقاء انتظارا للمزيد من كرم ابن سعيد ، وفجأة وقع ظرف حتم على مغادرة القصر والمنطقة المحيطة به على وجه السرعة .

كنا قد انتهينا من تناول العشاء ، وكان الليل قد أرخى سدوله علينا ، فى حين كنا كلنا ضيوفاً ومضيفين نجلس حول النار نحتسى القهوة ، وفجأة يدخل علينا زنجى مهندم ، وبعد تبادل التحية ، أبلغنى تحيات سيده ودعوته لى بتشريفه بصحبتي . ونهضت من مكاني ، وسرت مع دليلى الأسود ، الذى أوصلنى إلى خيمة أنيقة منصوبة على بعد مسافة قصيرة . وفى الخيمة شاهدت اثنين كانا من قبل ضابطين تركيين

سابقين ولكنهما الآن يعملان في خدمة السلطان، وأنهما لأسباب تتعلق بهما شخصيا ،
وجدا أن سخونة الجيش العثماني وكذلك الأراضي العثمانية ، بلغت حداً لم يطيقانه ،
وأنهما بلغة إنجليزية واضحة ، تخليا عن الجيش . فقد وصل أحدهما مباشرة إلى
عمان ؛ أما الثاني فقد تجول في العالم إلى أن وصل إلى بومباي ، وكلكتا ، بل إنه
وصل أيضا إلى سنغافورة وملقا ؛ وقد تعرف خلال ارتحالاته على كثير من الإنجليز ،
والهنود ، والملايين وعلى تشكيلة كبيرة من البشر . بل إنه هو نفسه كان ألباني الأصل ،
برغم أنه كان يشغل منصبا قياديا في الجيش العثماني . قال لي هذا الرجل ، بلغة
عربية مكسرة تقتصر على هذه الفئة من الناس ، والتي يمكن تعرفهم عن طريقها : " لقد
لاحظناك ، وعرفنا من مظهرك ، أنك على العكس من رفاقك ، لست من هذه البلاد ."
قال الرجل لي هذا الكلام بمنتهى الأدب ، وأعقبه بتقديم نرجيلة مفضضة ، مصحوبة
ببعض مظاهر الأدب الشرقي الآخر ، مما جعلني أستشعر الارتياح التام ، برغم
ملاحظة أبدت كان الهدف منها أن تكون مقدمة لمزيد من التحري والاستفسار .
ودخلنا بعد ذلك في حديث طويل اتسم بالحيوية ، قلت له فيه ذلك الذي ينبغي على قوله ؛
وراح هذا الرجل بعد أن أنعش نفسه بشئ أفضل من القهوة ، كان يتمثل في
مشروب الكونياك Cognac ، الذي كان يحتسيه من زجاجة سوداء ، التي كان يتناوب
الشرب منها هو وزميله ، والتي لابد أن أعترف أنني لم أرفض تناوبها معهم في هذه
الظروف ، راح هذا الرجل يحكي لي عن تاريخه الماضي وعن مغامراته في البر والبحر
كما حكى لي أيضا عن ظروف دخوله في خدمة السلطان ثويني ، وما إلى ذلك من هذه
الأمور ، بقليل من الطلاقة وقليل من الدقة أيضا . " وللحقيقة " أقول : إن العكس قد
يكون صحيحا في بعض الأحيان . ونقلنا عن أقوال هذا الرجل فإن السلطان الحالي
لديه حوالي ستمائة خيال ، إضافة إلى عدد معقول من رجال المدفعية الذين يعتمد
عليهم اعتمادا كبيرا ، وأنه في حالة نشوب الحرب يمكن أن يعتمد تماما على الضرائب
التي يجبيها من الرؤساء المحليين في بلاد صور ، وبلاد جيلان ، وجبل أخضر ، بل
وحتى من الجزء الأكبر من باطنة ، رغم أنه ما تزال هناك بعض البلاد التي لا تنصاع
لمثل هذا الأمر . كما أبلغني هذا الرجل أيضا أن السلطان ثويني لديه وتحت إمرته
ما يزيد على ثلاثين سفينة كلها إنجليزية الصنع ، وإن بعضا من هذه السفن يحمل
ما لا يقل عن خمسين مدفعا ؛ وإنه في المحصلة الأخيرة ، يمكن اعتباره مساويا لوالده
من حيث القوة والموارد ، إذا ما أولى التجارة والمال والأعمال المزيد من اهتمامه ووقته ،
وقل من اهتمامه بظرفاء البلاط والخليلات .

وبدلاً عن هذه المعلومات ، كان يتمنى أن يعرف المزيد عن شئوني ، وكان ميالاً إلى أن يوحى إلى بأنه يعرف أن رحلتى إلى هنا كانت لها أهداف أخرى غير جمع الأعشاب أو التحرى الطبى . ولكن القيل والقال وكذلك الوقت المتأخر إضافة إلى التعب والإرهاق كل ذلك أعطى مبرراً لاستئذانى وانصرافى إلى حال سبيلى ، ولذلك استأذنت من مضيفى الذى أكد لى أنه سوف يرد الزيارة فى اليوم التالى ، وأنا سوف ندخل فى المزيد من الحديث .

ومع كل ذلك ، فقد كنت بعيداً جداً عن مطامح تلك الراحة الموعودة ، وليس معنى ذلك أننى كنت أهتم كثيراً بما إذا كان ثوينى ، أو وزيره (الذى عرفت فيما بعد أنه بدأ يثير شكوكه من حولى ، وربما يكون هو الذى أعطى الألبانى أمراً بأن يستقصى ويتحرى كل شئ عني) ، بل وعمان كلها بدءاً من رأس مسندم إلى رأس الحضض ، قد عرفوا من أكون وما هى مهمتى ، وكنت على يقين أيضاً من واقع ما رأيت وما سمعت ، أن هذا التعرف لن يتسبب لى فى أى ضرر أو عرقلة . ولكن المطيرى هو والنجديين الذين كانوا معه ، كانوا ما يزالون فى حضرة البلاط الملكى ، ولذلك خشيت أن تنتقل الأخبار ، فى ظل التضخيم العربى ، الواسع النطاق ، إلى البريمة ومنها إلى نجد ، وتتمخض عن نتائج سيئة ، لأبى عيسى على أقل تقدير ، والذى يمكن أن يعدونه ، فى مثل هذه الحالة سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أم غير مباشرة ، أو عن طريق رجاله شريكا لذلك الشبح المخيف الذى يطلقون عليه اسم جاسوس . يضاف إلى ذلك ، أننى كان ما يزال أمامى موعد سوف ألتقى فيه أبا عيسى على ساحل الخليج الفارسى ؛ علاوة على أن بركات كان ما يزال مع أبى عيسى ، وأن النتائج التى قد تترتب على انكشاف أمرى قبل الأوان ، قد تكون وخيمة تماماً .

من هنا ، وبدون أن اشرح لـ - يوسف أمورا لا تهمه ، أبلغته أننى يسعدنى أن أترك ثوينى هو وبلاطه وحاشيته لحال سبيله ، وأن أواصل السفر فى صبيحة اليوم التالى إلى مسقط ، التى ربما نجد فيها ما يخدمنا ويكون لصالحنا ؛ وزدت على ذلك أشياء كثيرة عن وهم الثقة بالأمرء وما إلى ذلك ، واقتنع يوسف اقتناعاً سهلاً ؛ والواقع أن يوسف ، لم يشده ما حدث فى الليلة السابقة مما جعلنى أحركه هنا وهناك كما لو كان طفلاً صغيراً .

وفى صبيحة اليوم التالى بحثنا لى عن حذاء نظرا لأن قدمى لم تتعودا السير على حبات الحصى الحادة وكذلك القواقع التى كانت تنتشر على الأرض فى معظم أنحاء

مسقط . ولكننا لم نعثر على الحذاء الذى كنا نبحث عنه ، ولذا واصلنا مسيرنا ونحن حفاة الأقدام ، تاركين مضييفينا خلفنا وقد انشغلوا بمهام الاستعراض الصباحى ، بل وربما كان السلطان ثوينى ما يزال نائما . وقام فلأح من قرية الفرازة المجاورة بإرشادنا إلى المسار الذى يصل بين البطحة وهذه المنطقة . وبعد أن تجاوزنا حافة الجبال فى الناحية الجنوبية الشرقية ، سرنا فترة من الوقت ، خلال مدق ضيق يقع بين الصخور التى يميل لونها إلى الاحمرار ، التى كانت أشجار السنط والبلوط دائمة الخضرة ، تنمو فى الفجوات التى تتخللها ؛ إلى أن وصلنا إلى طريق عريض واسع بدأ يتفرع إلى قسمين قسم منهما يتجه يمينا إلى فرازة والقسم الآخر يتجه إلى مسقط . وكل ما كان يحيط بنا ، كان عبارة عن متاهة من التلال البرية ، وأنها فى معظمها كانت مكونة من صخور الجرانيت ، وتوجد فيما بينها وديان مخضوضرة ، تتناثر فيها هنا وهناك مجموعة من المنازل ، علاوة على حديقة ، وقليل من الحقول المنزرعة ، التى وصل ارتفاع المزروعات فيها إلى منتصف طول الإنسان ، نظرا لأن حصاد هذه المحاصيل يكون فى شهر أبريل . وينساب بطول وادى فرازة ، خلال شهور الشتاء ، مجرى مائى واسع ، ولكنه كان شبه جاف فى ذلك الوقت من العام ، وأنه لابد أن يجف تماما فى شهور الصيف .

وبعد أن توقفنا فترة قصيرة سرنا فى الطريق المؤدى إلى مسقط وواصلنا مسيرنا الشجاع فوق الحصى ، والقواقع والصخور المدبية ، إلى أن تجاوزنا ، قبل دخول وقت الظهر ، قلعة الخبب البيضاء . وقلعة الخبب ليست سوى مبنى زينى فقط - وخلاصة القول ، هى عبارة عن فيلا وليست قلعة كما يعتقد البعض ، وهى تقع فى وادى منخفض بالقرب من هذه القلعة ، وفيها كثير من الماء وتحيط بها الزراعة من كل جانب . ولكننا لم نكن نود التأخير ، ولذلك واصلنا مسيرنا بلا توقف ، إلى أن أنفقنا ثلاثة أو أربع ساعات فى المسير وصلنا بعدها إلى ريعان ، ذلك الكفر (الهجرة) الذى يصغر خبب ، والذى اضطررنا إلى الجلوس فيه لنأخذ قسطا من الراحة . بعد أن تورمت أقدامنا وهدأ التعب ، وفى الرعان Ri'án تكرم القرويون علينا بهدية يقبلها الجوعان تماما - كانت عبارة عن بعض عيدان من قصب السكر وملء حجر من النبق الذى يوجد هنا بكميات كبيرة وأحجام كبيرة شبيهة بحبات التفاح البرى ؛ وأكلنا هذه الأشياء مع شئ من الخبز الجاف ، الذى حملناه معنا على سبيل المؤن ، عندما كنا فى بطحة .

وبينما كنا نستلقي إلى جوار البئر ، أرجو أن يسمح لى القارئ بأن أبدى قليلا من الملاحظات عن نظام الرى ، الذى يختلف هنا وفى أجزاء كثيرة أخرى من عمان عن نظام الرى المتبع فى وسط الجزيرة العربية . والماء فى وسط الجزيرة العربية يجرى رفعه هناك باستعمال الجمال أو الحمير ، وغالبا ما يجرى رفعه من أعماق كبيرة وبخاصة فى كل أنحاء جبل شومر . وفى الأحساء ، التى تكثر فيها الآبار ، التى تمتلئ عن آخرها بالماء ، يشيع وجود تلك الآبار التى تسمى فى بعض أجزاء الشرق ، باسم "الجعّة" Swipes ، كما يمكن أيضا عن طريق البشر رفع الماء لرى حقل من الحقول أو لاستعماله فى الأغراض المنزلية . وفى عمان ، ما تزال الجمال والحمير تستعمل فى عمل من هذا القبيل ؛ برغم توفر الماء وقُرْبِهِ من سطح الأرض . كما نصادف هنا بين الحين والآخر الروافع الطويلة التى يطلق عليها اسم "سوايب" Swipe ، ولكنهم هنا يستعملون ، فى هذه الروافع الحبال الطويلة ، والبكر Pulleys كما هو الحال فى الأماكن التى يتعذر فيها استعمال المضخات فى بلادنا . وعمان هى أفضل مناطق الجزيرة العربية رىاً ، وهى أولا المكان الوحيد الذى تكثر فيه آبار المياه وعيونها - وهذا سبب من أسباب وجود الجبل الأخضر وارف الظلال وسلسلة الجبال الداخلية التابعة له ، كما يرجع السبب الآخر إلى الرياح الموسمية السنوية التى تهب من المحيط الهندى على سواحل عمان . ومع ذلك ، فإن زيادة مسامية الأرض فى هذه المنطقة تتسبب فى منع تكون الأنهار؛ إذ تتسرب سيول جبل أخضر خلال المسایل الصغيرة شديدة الانحدار ، ثم تعود إلى الظهور مرة أخرى على شكل نوافير وعيون عند سفح هذه الجبال ، ثم تنساب إلى مسافة قليلة بعد ذلك ، ثم تتشربها التربة مرة ثانية ، لتظهر فى النهاية بالقرب من الساحل ، ومع ذلك لا يتخذ الماء لنفسه مساراً منتظماً فوق سطح الأرض . وثمة ملاحظة أخيرة تتصل بهذا الموضوع هى أن الآبار نفسها جيدة الإنشاء ، وجيدة الصيانة أيضا .

ومن الكفر (الهجرة) الذى أخذنا عنده قسماً من الراحة ، تفرع الطريق إلى قسمين . القسم الأول يؤدى إلى مسقط ، التى تبعد حوالى خمسة عشر ميلاً ؛ ولكن هذا القسم يمر عبر أرض صخرية ووعرة ، كنت أخشى السير عليها حافى القدمين ، وبخاصة أن قدمي لم تكونا تصلحان للطريق الذى قطعناه بالفعل . أما القسم الثانى ، وهو القسم الأيسر ، والذى يؤدى إلى مدينة مطرح Matrah ، ذلك المرفأ البحرى الذى يقع ناحية الغرب من مسقط ؛ ويمر هذا الطريق الشمالى عبر أرض رملية مستوية .

وكنا قد قررنا بالفعل السير فى الطريق الشمالى ؛ وبناء على ذلك ، وبعد أن رفضنا الدعوات المتكررة التى وصلتنا من القرويين ويطلبون منا فيها قضاء الليل معهم فى منازلهم ، واصلنا مسيرنا ، برغم التعب الشديد ، إلى أمسكت وصلنا إلى مجموعة صغيرة من المنازل تقع داخل خط التحصينات الذى يمتد بطول خمسة عشر ميلا ، أو ما يزيد على ذلك قليلا ، من الشرق إلى الغرب ، ويستعمل للدفاع عن المنطقة الواقعة بالقرب من مسقط مباشرة من ناحية البر . وفى هذه المنطقة تنتشر ، من قمة إلى أخرى ومن جرف إلى جرف ، الأسوار والأبراج الدائرية ، متينة الإنشاء ، التى تستطيع الصمود أمام المدافع الثقيلة بفضل مزاغلها ؛ وهذه الأسوار والأبراج تمتد على طول نقاط الاقتراب من هذا الميناء البحرى الكبير ؛ والذى أنشأ هذه الأسوار وتلك الأبراج هم البرتغاليون ، الذين حصنوا ذلك الجزء من الساحل أثناء احتلالهم له ، مثلما فعلنا نحن البريطانيون فى ميناء عدن عندما كنا نحمله ؛ مع أن خطوط مسقط ، برغم روعتها من حيث المنظر ، تعد غير كافية من منظور مبادئ الدفاع العسكرى الحديث . وهذه الأبراج والحصون تبدو ، فى بعض الأحوال ، بيضاء اللون على القمم الطبيعية ، كما تختبئ فى بعض الأحوال ، بين المسایل السوداء ، والصخور الطبيعية الرائعة ، يضاف إلى ذلك أن منظر هذه القلاع والحصون الرائع هو الذى جعلنى اتمتع بهذه الأشياء برغم تعبى الشديد . ومن ناحية البر ، التى كان البرتغاليون مستبعدة منها تماما ، نجد أن الأرض لها طبيعة جيدة ؛ وتغطيها النباتات ، ولكن من ناحية البحر نجد أن الصخور جرداء وحدودها الخارجية تتسم بالطابع البرى .

ومن خلال ممر ضيق دخلنا إلى منطقة التحصينات ؛ ولو كانت هناك حاميات متمركزة فى هذه الحصون والأبراج لما كان دخولنا إلى هذه المنطقة أمراً سهلاً . كانت الشمس قد غربت على قمم هذه الجروف قبل أن نصل إلى المنازل ، تلك الضاحية الطويلة من مطرح ، أو إن شئت فقل : مطرح بعينها ، والسبب فى ذلك ، أن هذه الوديان والجروف تزدهم بالسكان إلى الحد الذى ، يصعب معه تعيين الحدود التى تفصل المناطق عن بعضها . وصفوف الأكواخ تمتد من منطقة إلى أخرى ؛ وهذه الصفوف هى التى تصل المناطق بعضها إلى بعض ، وذلك على العكس تماما من الهجر التى سبق أن شاهدناها فى كل من شومر ونجد . وما أن توقفنا هنا ، وبعد أن شاهدنا أمامنا منزلاً جميلاً الشكل ، مبنياً من الحجر ، ويشتمل على طابقين ، وله مدخل كبير ، استأذنا وذهبنا لنقدم أنفسنا لأهل ذلك المنزل على أننا اثنان من الذين تحطمت

سفينتهما التي كانت متجهة إلى مسقط . ورأى صاحب المنزل ، الذى كان تاجرا ثريا ، فى الملابس التى كنا نرتديها ما يؤكد صدق أقوالنا ، ولذا بادر إلى إعطائنا الملجأ والمأوى الذى كنا نبحث عنه ، كما قدم لنا أولا عشاء جيدا ، تحدثنا بعده عن التجارة فى هذا المكان وأحواله الراهنة . وتجارة العبيد هنا تقوم على قدم وساق وهى فى أوج رواجها ؛ وبرغم أن تجارة العبيد هنا تعد شبه مشروعة مع أنها تشيع فى العالم كله ، برغم كل ذلك ، فإن قرون وحيد القرن وجلوده ، وكذلك العاج ، والأخشاب ذكية الرائحة ، يجرى إحضارها بصورة مستمرة من الساحل الأفريقى ؛ فى حين يجلب الناس من الهند تلك السلع والبضائع التى سبق أن أشرنا إليها عندما تكلمنا عن تجارة كل من الأحساء والبحرين ، ولكن على نطاق كبير جدا . وفى مقابل ذلك يجرى تصدير الخيول ، والحمير ، والجمال ، والتمور ، والأسلحة ، والمشالح والسجاد ، والياقوت ، والنحاس الأحمر ، وخام الرصاص إلى أنحاء كثيرة . وكان مضيفنا يشعر بالقلق إزاء واحدة من سفنه التى كان يتوقع يوميا ، وصولها قادمة من بومباي ، وكان يخشى أن تكون العاصفة المميتة التى تقضى على كثير من السفن فى خليج عمان ، قد هبت أيضا على المحيط الهندى . والواقع أننا سمعنا بعد ذلك عن كثير من الخسائر التى حدثت فى ذلك المكان ، فى تلك الليلة .

وفى صباح اليوم التالى أستاذنا من مضيفنا ، ويمنا مسيرنا إلى بلدة مطرح نفسها . وإذا حكمنا على هذه البلدة من واقع ما كتبه نيبور عنها ، وأنها عبارة عن قرية قذرة صغيرة ، نجد أن هذه المدينة قد طرأ عليها كثير من التحسن خلال السنوات الأخيرة ؛ فهى تشتمل حاليا على صفوف كثيرة من المنازل ، وأن هذه الصفوف تتساوى من حيث الطول ، والانتظام ، ومن حيث التجميل أيضا مع صفوف المنازل فى الموانئ البحرية الإنجليزية - الهندية ؛ والسوق فى مدينة مطرح واسع وفسيح ، ولكنه يزدحم كثيرا جدا عن أسواق كل من الشارقة أو لينجا ، فى حين تنتشر من حول الخليج منازل التجار ، وربابنة البحر ، وأصحاب الأملاك الأثرياء والتى يطل بعضها مثل منازل مرسيليا على أرض مرتفعة ومفتوحة ، فى حين ينخفض البعض الآخر من هذه الصفوف نحو حافة الماء ، وتختلط بأكواخ البحارة ، والصيادين ، وأصحاب القوارب ، والزنوج وما إلى ذلك ، كما تتوغل إلى مسافة طويلة نحو الداخل . وأنا لا أستطيع القطع بالعدد الحقيقى لسكان مطرح ، ولكن من وجهة نظرى ، فهم لا يقلون عن خمس وعشرين ألف نسمة ، وقد يزيد عددهم عن ذلك . والميناء آمن ولكنه ضحل

إلى حد ما ، ولكنه تحيط به من الجانبين ، الأيمن والأيسر ، صخور بركانية عالية ، تقع على قممها أبراج الحراسة ؛ ولا يوجد فى هذه المنطقة ممر برى يؤدى إلى مسقط مباشرة ، وهذه ميزة كبير لهؤلاء البحارة كثيرى العدد الذين يدورون حول الرأس الشرقية التى تمتد إلى مسافة طويلة بين الميناءين وتفصل بينهما . وبينما كان يوسف وأنا نتجول فى السوق ، وبينما كنا نشترى بعض السلع الغذائية وبعض الملابس (إذ أن مضيفنا فى الليلة السابقة ، قد أعطانا بعض الصدقات علاوة على تلك التى كنا قد حصلنا عليها من باطنة) ، التقينا حاكم المدينة ، ذلك الشاب الوسيم جدا ، الذى كان يرتدى الثياب البيضاء التى يشيع استعمالها فى هذه البلاد ، وكانت معه حراسة جيدة تماما ولكنهم جميعا كانوا من المشاة والراجلين . لم يكن هذا الرئيس ينتمى إلى العائلة الجعفرية ، أو إلى فرع ابن سعيد ، الذى لا يعد كثير العدد ، وإنما كان ينتمى إلى اليلقيين Yelek.s من أهل باطنة ، واليلقيين هم عشيرة عريقة من العشائر القحطانية .

ومطرح ، أكبر من مسقط ، من منطلق أنها سوق للمصنوعات الداخلية ؛ فمن يريد الحصول على مشلح عمانى الصنع ، أو خنجر عمانى الصنع ، أو سجادة عمانية الصنع لا يجد صعوبة فى الحصول عليها من مدينه مطرح . وفى يوم الإثنين من كل أسبوع ينعقد اجتماع عام للقادمين من الريف ومن القرى الداخلية ، ومعهم الفواكه والخضروات ، والبطاطا ، والباذنجان ، والشمام ، والفرع ، والمشمش ، والخوخ ، والمانجو ، أو إن شئت فقل فاكهة وخضروات الموسم . والمانجو الذى يزرع هنا من النوع الذى يطلق الهنود عليه اسم " الجنجلى " . كما يباع هنا أيضا وعلى نطاق واسع نوع كبير من المكسرات ، يصل طول الواحدة منه إلى بوصتين أو ثلاثة بوصات ، وهو مثلث الشكل ، وبني اللون ؛ وأنا لم استطع التعرف عليه أو تحديد نوعه . والتمور ، فى عمان ، تجيئ فى المرتبة الثانية على قائمة المأكولات ؛ وجودتها أقل بكثير من جودة التمور النجدية أو تمور الأحساء . ومن هنا فإن العمانيين يستوردون كميات كبيرة من تمور الخلاص من منطقة الأحساء ، لتوضع على موائد الأغنياء فى عمان ضمن ترف وأبهة لا مثيل لها فى هذه البلاد . ومسقط تتفوق على مطرح فى تجارة المنسوجات الهندية والأرز الهندى .

وبعد أن شاهدنا ذلك الذى ينبغى أن نشاهده ، وبعد أن ابتعنا بعض الأشياء ، قصدنا شاطئ الخليج ، حيث يوجد العديد من القوارب ، التى يتكون كل واحد منها من

جذع شجرة تم تشكيله على شكل قارب ، بطريقة أنيقة ، وتجويفه أيضا من الداخل ، وجرى تشكيل مقدمته مثل مؤخرته تماما حتى يمكن التجديف منه في اتجاه الأمام أو الخلف ، شأنه في ذلك شأن الإسكفات^(١) الشهيرة في مدينة أكسفورد ، وجاهز لنقل التجار وأصحاب الأعمال إلى مدينة مسقط . وهذه القوارب نظيفة من الداخل ومفروشة بحصير من النوع الخفيف، من النوع الشائع في الهند، الذي يسمونه فيها "التاتيز" Tatties . وأبحرنا في واحد من هذه القوارب ومعنا رجل فارسي ، واثنان من البنانيين ، مع كل واحد منهم "شاني" Chatti أصيله ، أو إن شئت فقل مظلة من تلك التي يستعملها أهل بومباي ، كما كان معنا أيضا حوالى أربعة أو خمسة مسافرين آخرين ؛ وكان المجدفان زنجين .

وأنا هنا لأبد أن اعترف بمسئوليتي عن ضعفى وترددى فى إسلام أمرى إلى البحر مرة ثانية ، حتى وإن كانت الرحلة قصيرة مثل تلك التى نحن بصدها هنا ؛ كان يبدو على يوسف بن خميس أنه لم يكن راضيا أيضا عن مثل هذه الرحلة البحرية القصيرة . وبرغم كل ذلك ، لم يكن لدينا سبيل آخر يوصلنا إلى مسقط غير هذا السبيل ؛ من هنا فقد أكملنا حمولة القارب وبدأ الزنجيان يجدفان إلى أن درنا حول الرأس الطويلة الأولى واتجهنا ناحية الشرق ؛ ومن خلف هذا الرأس الطويل شاهدنا خليجا صخريا صغيرا ، شيدت عليه بعض المنازل ؛ ثم شاهدنا بعد ذلك رعنا جرانيتيا أطول من تلك القمة الصخرية ، يمتد إلى مسافة طويلة داخل البحر . وتجاوزنا ذلك الرعن ، ثم دخلنا بعد ذلك إلى ميناء مسقط مباشرة . كان الميناء مليئا بالحركة الملاحية ، ويعج بالقوارب والبحارة ؛ وكانت فى الميناء أيضا أربع فرقاعات معقولة الحجم ، ومسلحة بالمدافع ، والتحصينات ، ومجهزة ، تجهيزا أوربيا كاملا ، مما جعلنى أحسب أنها سفنا أوربية خالصة ؛ ولكن علم ثوينى الأحمر اللون ، ذلك البيرق السليل اليمنى الأصيل ، الذى كان يرفرف فوق ساريات تلك الفرقاعات ، كان يدل على أن هذه السفن مملوكة للحكومة العمانية . وجدفنا إلى أن وصلنا إلى مكان قريب من النقطة الجمركية؛ ونظرا لأننا لم يكن معنا أية أمتعة، فقد أعفينا من كثير من الرسوم، علاوة أيضا على أن جوازات السفر لم تكن شيئا ضروريا فى هذه المنطقة .

(١) الإسكف : يتسكين السين وكسر الكاف ، قارب صغير ذو مجاديف - (المترجم) .

وقد سبق أن وصفت كلا من مسقط ، أو مينائها ، وقلاعها ، ومبانيها ، على أقل تقدير ، وصفا مستفيضاً في كثير من المواضع . زد على ذلك أن كلا من نيبور ، وولستد Wolsted وآخرون قضوا في هذه المنطقة أوقاتاً طالت أو قصرت ؛ ناهيك عن البواخر الإنجليزية التي كانت تمر بهذا الميناء وهي في طريق ذهابها وعودتها بين كل من بومباي ، والبصرة ، بمعدل مرتين في الشهر الواحد ، برغم أنها كانت ترسو في ميناء مسقط بضع ساعات قليلة . وأنا استميت القارئ عذرا بأن يعفيني من الدخول في المزيد من التفاصيل الخاصة بالمكان ، نظرا لأن اهتمامي بالدرجة الأولى ينصب على كل ما هو حي ، ويتحرك أكثر من المدن المبنية من الصخور والأحجار ، إضافة إلى تسجيل الأحداث (وهي ليست كثيرة) العامة المهمة التي وقعت لي هنا ، هي وتفاصيل تلك الرحلة الصغيرة التي قمت بها هنا في المنطقة المحيطة بميناء مسقط .

وقد أسفر كرم أستار Astar ، ذلك التاجر الحساوي ، الذي استوطن مسقط منذ زمن طويل ، عن توفير المأوى والطعام والكساء لكل من يوسف بن خميس وأنا معه . وبقيت طيلة ثلاثة أيام متعباً وغير قادر على التحرك هنا أو هناك ؛ زد على ذلك أن انشغال مضيفنا هو وأصدقائه الذين كانوا يترددون على منزله ، لم يترك له متسعاً من الوقت الذي يسمح لنا بالتحدث معه في الأمور العامة . الأهم من ذلك أن أستار كان مسلماً ، ولم يكن من حسن الحظ وهابياً ، وكان شهر رمضان قد حل على المسلمين ، الذين يصومون هذا الشهر ويبدو عليهم الوجوم خلاله ، أو إن شئت فقل : يغلب عليهم الصمت والسكون . وفي اليوم الرابع من وصولنا ، وبعد أن حصلت على رداء خارجي وقور أحمر اللون ومصنوع من القطن ، ومن الطراز العماني ، وحزام كبير أبيض ، وعمامة ، وحذاء ، وعصا نباعية Nebaa ، نتوكاً عليها ، وتعد من مستلزمات الوقار والاحترام ، شرعت في زيارة الأسواق ، والميناء ، والأماكن والأشياء الأخرى التي استرعت فضولي في تلك المدينة . وخلال جولتي الأولى التقيت أحد معارفي القدامى من مدينته بومباي ، والذي قدم لي خدمات جليلة أثناء مقامي هنا ، برغم أن دوافع الحرص اضطررتنا أن نحافظ على قدر من السرية نستتر به المقابلات التي كانت تجري بيننا . ولو هيأت الفرصة لذلك الصديق الهندي مسألة الاطلاع على ما في هذه الصفحات ، فانه قد يتأكد أن اعترافي بالجميل إنما هو محدود أيضاً بتلك الإشارة الضمنية السريعة التي تمثل كل ما هو متاح لي في مثل هذه المناسبة .

وسكان مسقط هم سكان أصل من شرقي بابل ، الذى يقوم فيه البانيانيون من غربى الهند ، بحكم كثرة عددهم ، بالدور الرئيسى فى مجال التجارة والمال . وفى مسقط أيضا ، هناك بعض التجار العمانيين الأثرياء أصحاب المشروعات التجارية الكبيرة ، وهم يتساوون مع التجار الهنود الذين جاؤا من كل من بومباى ومنجالور . وأغنى سكان هذه المدينة ، فى اعتقادى ، هو ذلك الرجل الذى يدعى سيف Seyf ، الذى شرفنى بمعرفته أثناء مقامى هنا . ومنزل هذا الرجل ، الذى يقع بالقرب من الشاطئ ، قد يبدو جميلا ، حتى عندما يكون فى بريش كاندى Breach-Candy أو ملبار بوينت Malabar - Point ؛ زد على ذلك ، أن مائتته الممتازة العامرة بما لذ وطاب تتفق تماما مع طراز منزله . وفى هذه المنطقة ، وبصورة أكبر من المناطق الساحلية الأخرى ، نجد أن المنازل من الداخل ، تتطبع بالذوق الفارسى ، فى معظم مكوناتها ، برغم أن أهل هذه البلاد يعتبرون الفرس أغرابا عليهم ، وهم لا يحظون بشعبية بين السكان ، والأكثر من ذلك أن حب الناس هنا للأزياء الأجنبية ، والأوبرا الأجنبية ، وكذلك الطهى الأجنبى والمطبخات الاجنبية يتزامن أيضا مع كراهية حقيقية من طراز كراهية جون بولش John Bullish ، للأعراق وللبلاد الأجنبية .

ومن حيث دماثة الخلق والتحضر بشكل عام ، ومن حيث جمال الأثاث وجمال الملبس ، فإن أهل مسقط يتفوقون بدرجة كبيرة على كل سكان الموانئ العربية الأخرى التى زرتها ؛ يضاف إلى ذلك أن أهل مسقط لا تنقصهم صراحة العرب وكرمهم الحاتمى ، برغم أن ذلك يكون مصحوبا بذلك التحفظ الطبيعى من قبل أناس اعتادوا رؤية الغرباء وألفوها إلى الحد الذى يجعلهم لا يستقبلونهم بمثل الحيوية أو الاهتمام اللذين يبديانهما أهل حائل أو أهل الرياض عندما يستقبلون الغرباء . ومع ذلك ، فمن العجيب أن نلاحظ كيف أن كل طبقة من الطبقات التى يتكون منها السكان - العمانيون ، العرب ، اللوثيانيون ، الفرس ، اليهود ، الهندوس ، تكون جالية مستقلة ، يندر أن تختلط بها الجاليات الأخرى؛ وبرغم أن الاختلاط فى الأسواق يعد أمرا شائعا، إلا أن الحميمية المنزلية تعد شيئا نادرا . وأهل البحرين وحدهم ، والذين تكثر أعدادهم هنا ، هم الذين لديهم ذلك الامتياز المولد الذى يمكنهم من الاختلاط بجميع الطبقات ، فى حين أن طبيعة البحرينيين السلسة ، غير العرقية والتى لا تعرف التفرقة تسهل لهم الاتصال ببقية الطبقات ، فى حين نجد أن ضيق صدر الفرس ، وشذوذ الهنود ، وتعصب النجديين ، وانعزال اليهود لا يسمح لهم بالاتصال والاختلاط ببقية

الطبقات : وسكان مسقط ، يمكن أن نسميهم مالطي الشرق ، ومع ذلك فهم أكثر أنسا ولطفا من سكان جزر البحر المتوسط ، وربما كانوا أكثر منهم أمانه وولاء ، والزنوج هم والقبيلة المولدة يشكون خمس سكان المدينة ، ولكنهم يحتلون أدنى مراتب المجتمع ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الإهانات الخاصة أو التعالي من أولئك الذين يحيطون بهذه الفئات لا تمنعهم من أن يكونوا أصحاب جاه أو مال ، وإنما الذي يحول بينهم وبين تحقيق ذلك هو الكسل والتواكل ، وعدم الكفاية والفسق والفجور . وهذا هو حال الزنوج الأحرار ؛ أما هؤلاء الذين يعيشون في كنف أسيادهم ، فيتفوقون على إخوانهم الأحرار من جميع النواحي ، شأنهم في ذلك شأن التلميذ المدرب عندما يتفوق على ابن الشوارع المتشرد المهلهل .

والدين في مسقط مختلف الأنواع ومختلف النحل أيضا ؛ ولكن ، مبلغ ظني ، أن العجل الذهبي ، يحصل في مسقط ، على أكبر عدد من العباد المخلصين ، عن أي معبود آخر مهما كان . وعلى كل حال ، ومنذ بداية الاحتلال الوهابي ، فقد أنشأ الوهابيون ثلاثة مساجد كبيرة ، كي يذهب إليها ويتعبد فيها أولئك الذين لديهم الوقت أو الميل إلى الصلاة خمس مرات في اليوم . والذين يرعون أماكن العبادة الإسلامية هذه ، هم التجار المسلمون الذين جاؤا من مختلف نواحي الخليج الفارسي ، ومن البصرة ، ومن اليمن ، بل ومن نجد نفسها ثم استقروا في مدينته مسقط ؛ ولكني لم أرقط عمانيا أصيلا داخل جدران هذه المساجد^(١) . والسكان السنة من أهل مسقط ، عن بكرة أبيها ، لا يزيد عددهم على عشر سكان هذا البلد ؛ والمذهب الشائع بينهم هو المذهب الشافعي برغم أن هناك بعض الوهابيين المتشددون الذين يتبعون المذهب الحنبلي . أما الفرس والبحارنة فهم يتمسكون بشعائره الشيعة ؛ غير أن "التقية" ، أو إن شئت فقل : ذلك الاتفاق الظاهري مع أولئك الذين يختلف المرء معهم في باطنه ، والتي يلجأ إليها الشيعة كلهم بما فيهم الدروز والإسماعيلية وكل إخوانهم ، لا من منطلق كون هذه التقية مسألة شرعية وإنما باعتبارها شيئا مرغوبا ومطلوبا ؛ هذه التقية تضيف على جزء كبير من هؤلاء الشيعة مظهر السنيين ؛ وهم في أغلب الأحيان

(١) هذه مبالغة من المؤلف ، وكونه لم ير بنفسه ، فليس معنى ذلك أن أهل عمان لم يصلوا ، ولكنها عادة المؤلف دائما في الهجوم على الإسلام واللمز به على أنه عدو للناس ، وأنه أمر ثقيل عليهم ، يتمنون أو يجاهدون أنفسهم للفرار منه ، وهذا غير صحيح - (د. حلمي عبد المنعم) .

يقفون إلى جانب البياضية من الناحية الشكلية على أقل تقدير . ويجب علينا أن ندرج ضمن أهل السنة كلا من المواطنين الذين جاؤا من بلوخستان (البلوش) ، والمواطنين الذين جاؤا من بخارى ، وكذلك البلخ ومن المناطق المجاورة : والسبب في ذلك أن هؤلاء المواطنين كانوا أحنافا في بلادهم ، وتحولوا هنا إلى شافعية ، تمشيا مع أو مسايرة لأولئك التجار الأكثر منهم ثراء الذين جاؤا من البصرة ومن الغرب . من هنا فإن العنصر الإسلامي في مسقط ، بما في ذلك الشيعة والسنة أيضا لا يقل ، بحال من الأحوال ، عن خمس إجمالي السكان في هذه المدينة ؛ في حين يتكون الخمس الثاني من الهندوس ، واللوثيانين ، والسيخ ، مع قليل من اليهود والبارسيين ؛ ولكن الأحماس الثلاثة الأخرى من البياضية ومن الزنوج .

وسوف يلاحظ القارئ من هذه الحقائق ، ذلك الذي يوحى به القياس ، قبل كل شيء ، وهو أن مسقط ، من بين جميع الأماكن الداخلة في دراسة عمان ، هي أبشع وأردأ هذه الأماكن كلها ، نظرا لأن نصفها من الدخلاء عليها ، كما أن الجزء المتبقى منها يقع تحت فعل التأثير اليومي لهؤلاء الدخلاء . والشخص العاقل لا يمكن أن يرسم صورة لفرنسا من زيارته لمدينة بولونيا Boulogne التي تقع على البحر ، أو يرسم صورة لإنجلترا من زيارته لمدينة سوتهامبتون Southhampton ، أو صورة للهند من زيارته لقلعة بومباي . ومع ذلك فإن مسقط لا تعد عينة للقارة التي تنتمي إليها أكثر من الأماكن التي ذكرناها ؛ زد على ذلك ، أن من يعرف ذلك الميناء والمناطق القريبة منه ، ما يزال خارج أبواب عمان ، وبوسعه أن يكون فكرة كاملة عما يدور خلف هذه الأبواب ، سواء فيما يتعلق بالرجال أو الأشياء .

ومسقط يسكن فيها قنصل إنجليزي ، يبدو أنه يحيا حياة منعزلة وغير مريحة ؛ ويسكن فيها أيضا شخص أوروبي آخر يعمل فيها وكيلا بحريا وهو أيضا يلقي مصيرا لا يحسد عليه . ومن المعروف أن عدن قريبة جدا من مسقط بشكل لا يجعل حكومة مسقط بلا مخاوف مؤكدة فيما يتعلق بالمخططات الأوربية المحتملة في هذا الساحل ؛ إضافة إلى أن إنجلترا ، دونا عن سائر أوربا كلها ، هي المصدر المحتمل للقلق . من هنا فإن الناس ، في مسقط ، ينظرون إلى الإنجليزي نظرة شك وارتياب ، الأمر الذي يضيق مجال الاحترام واللباقة ، ومع ذلك فهو لا يمنع المعاملات التجارية والمالية . زد على ذلك ، أن مناخ مسقط لا يناسب الأوروبيين . ومع أن مدينه مسقط تقع على حافة المنطقة الاستوائية ، إلا أنها أكثر حرارة من المناطق الأخرى الأكثر قربا من خط الاستواء .

ويقال إن الصيف لا يطاق في هذا البلد ؛ وأنا أشهد على أن مسقط في شهر مارس تضارع بومباي من حيث الحرارة في شهر أبريل بل وفي شهر مايو أيضا . ولا يقضى الصيف داخل هذه الدائرة من الصخور ، سوى أولئك الذين تضطربهم ظروفهم ، من بين هؤلاء السكان غير المتجانسين ، إلى القيام بالأعمال المالية والتجارية الملحة ، أو أولئك الذين يحتجزهم الفقر داخل هذه المدينة ، أو الزوج الذين يجدون في مناخ هذه المدينة تشابها لذيذا مع مناخ أفريقيا الحارقة التي جاؤا منها . وما أن يدخل شهر مايو ، حتى يعهد التاجر بمكتب حساباته إلى كاتب بانياني ، ويواصل التاجر أعماله عن طريق المراسلات عن بعد ، كما أن الحكومة كلها هي وأعيان البلدة ، ومعهم الكثير من أصحاب المحلات والحرفيين ، ينطلقون تاركين المدينة خالية نسبيا إلى منازلهم الريفية العديدة التي أقاموها فوق مرتفعات سماعيل ، ونزوة ، وجبل أخضر ، تاركين مسقط مهجورة إلى أن يدخل أكتوبر حيث تعود إليها حياتها وبرادها من جديد . ويمكن للقارئ أن يأخذ فكرة عن الحرارة هنا في شهرى يوليو وأغسطس ، من مسألة بيع المشمش الناضج (أول الفواكه التي شاهدها أنا بنفسى هنا) في أواخر شهر مارس ؛ هذا في الوقت الذي أصر فيه أصدقائى العمانيين على تمديد إقامتى شهرا واحدا فقط كي أتمتع بالعنب الذى ينضج هنا فى النصف الثانى من شهر أبريل .

والتشابه بين ركنى الجزيرة العربية القصيين واضح تماما ؛ وهذان الركنان هما مسقط وعدن . فكلاهما عبارة عن مجموعة من الصخور البركانية ، التي ألفت بها إلى ساحل البحر بعض التقلبات القديمة التي حدثت فى جوف الأرض ، وكلاهما أيضا عبارة عن فوهة بركان قديمة ومجوفة ، تحيط بها قمم سوداء تضرب إلى الحمرة ، وكلاهما أيضا عبارة عن صدع ، وهما أيضا عبارة عن جدران عمودية لجرف من الجروف . والحرارة فى هذين الركنين توحى للإنسان بأن اللهب الذى انبثق من جوف الأرض وتسبب فى وجودهما ، قد انتقل منذ ذلك الحين إلى طبقه الهواء فوق هاتين المنطقتين . ومنظر هذين الركنين من ناحية البحر طارد وقطل وخال من الحياة النباتية ، وإذا كانت هذه القحولة أمر حقيقى وفعلى فى عدن فهى فى مسقط ظاهرة فقط ، إذ توجد خلف هذه الجروف أفضل أراضى الجزيرة العربية وأكثرها إنتاجا وخصوبة - ففيها البيارات ، والعيون الجارية ، والقرى كثيفة السكان ، والبساتين الخضراء . أما فيما يتعلق بمدينة مسقط نفسها ، فهى ليست مدينة صحية ؛ والواقع ، أننى عندما كنت فى هذه المدينة، كانت حمى التيفود تنتشر بين سكانها، مما جعلنى أصاب بهذه الحمى؛

كما أبلغنى السكان أيضا أن الأوبئة التى من هذا القبيل يشيع انتشارها فى مدينة مسقط ، والتجارة وحدها هى التى تجذب الناس إلى مسقط وإلى مينائها الممتاز ، وهى أيضا التى تتسبب فى زيادة الكثافة السكانية فى هذه المدينة ؛ والتجارة هى أيضا التى تزيد من أهمية مسقط ؛ ولكن قرى الصيد الصغيرة ، كثيرة العدد التى تنتشر على الساحل ، تتفوق على مسقط فى كل ما لا يتصل بالتجارة .

ومن بين الخصائص التى تنفرد بها مدينة مسقط ، من المنظور الأخلاقى ، أن شوارعها من النوع الآمن تماما ، وأيضا نظامها الشرطى الممتاز ؛ والمرء ، فى هذه المدينة ، يستطيع أن يسير ليلا أو نهارا ، فى حاراتها وأزقتها بلا حراسة ، ودون أن يتعرض لأى خطر من الأخطار ، برغم أن الخرائب المسورة داخل محيط أسوار هذه المدينة الواسع ، قد تبدو مكانا مناسبا لإيواء الأشقياء واللصوص ، والأشقياء يندر وجودهم فى مسقط ، كما أن عادة لبس الخنجر التى تشيع بين أهل مسقط ليس لها من هدف سوى الزينة والاستعراض . ولكن يستثنى من ذلك أن أهل مسقط إذا كانوا لا ينشلون كيس النقود فهم يعرفون كيف يفرغونه من محتواه ، والسبب فى ذلك ، أن أهل مسقط مهرة تمامًا فى المساومة وإبرام الصفقات .

وقله قليلة من مدن الجزيرة العربية ، بخلاف مسقط ، هى التى تكشف عن التغيرات التى تطرأ على الثروات . وبقايا الكنيسة الكبيرة ، التى تقف الآن داخل حدود منطقة القصر ، تعد شاهدا على الفترة التى قضاها البرتغاليون فى هذه المنطقة ، كما تشهد أيضا على أن كثيرا من التحصينات التى تحرس الميناء والتى توجد على قمم المناطق المرتفعة المحيطة به ، وإنما يرجع تاريخها إلى الوجود البرتغالى فى هذه المنطقة . هناك صفوف طويلة من المنازل الجيدة ، التى بدأ التحلل ينخر فى عظامها ، وتشهد على الاحتلال الفارسى وعهد تقى الدين ؛ فى حين تشهد الخانات الكثيرة وكتل الأبنية التى تشبه الأديرة ، والتى أهملت ويبدو عليها الخراب والدمار ، على مقام البنيانيين ، واللوتيانين ، والتجار الآخرين الذين من أصول هندية أو شبه هندية ، الذين حضروا إلى هذه المنطقة فى عهد السلطان سعيد ، ثم بدعوا ينسحبون منها ويرحلون عنها فى ظل الآثار التى ترتبت على التشدد الوهابى حينما ، وعلى إهمال ثوينى حينما آخر ، وعلى الظلم الجائر الذى كان يمارسه بعض الرؤسسين ، ويبدو أن العصر الذهبى الذى شهدته مسقط هى وكل سكانها كان منذ حوالى عشرين أو ثلاثين عاما ؛

كما يبدو أيضا أن عدد سكان مسقط فى تلك الفترة ، بما فى ذلك الزوج ، ربما كان يصل إلى ستين ألف نسمة أو أكثر . وعدد سكان مسقط ، خلال زيارتى لها ، كان يقدر بحوالى أربعين ألف نسمة كانوا يعيشون داخل المدينة نفسها ؛ يضاف إلى ذلك أن الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل وتحيط بمدينة مسقط تأوى عدة آلاف أيضا . والقيسارية الكبيرة ، ذلك المبنى الفخم الذى تعلوه خشخاشة ، والذى يضم عددا من الصفوف المقنطرة ، وعددا من الدكاكين والمحلات ، لا تقل عن مثيلاتها فى كل من بومباي أو مدراس ؛ هذه القيسارية هجرها ثلث العاملین فيها تقريبا ، برغم أن الأسواق ، وأماكن البيع والشراء التى تحيط بهذه القيسارية ، والتى يعيش فيها عدد كبير من أصحاب المحلات والدكاكين العاديين ، وكذلك الأعمال التجارية الوضيعة والصغيرة ، ما تزال تزدهم بالسكان . وكان السلطان سعيد قد أدرك ، أن طاقة رعاياه المالية هى ومعاملاتهم التجارية ، لا يمكن أن تكون لها أهمية حقيقية إلا من خلال التعاون مع التجار الهنود وبقيادتهم ، ولذلك راح السلطان سعيد يبذل كل ما فى وسعه كي يجذب البنانيين من كل من كوتك Cutch ، وجوزيرات والكنكان إلى مدينة مسقط، وذلك عن طريق التسامح الكامل ، والحصانات الخاصة ، ورعايته الدائمة لهم ، مما حوّل الميناء إلى مستعمرة شبه هندية . يضاف إلى ذلك أن البنانيين اثبتوا للحكومة العمانية أنهم محميون نافعون ، ومسالمون ، ومنتظمون فى عملهم ؛ إذ كانوا لا يتدخلون فى شئون أحد من الناس ، ولا يسعون إلى أى شئ سوى ما يخصهم مباشرة ، ولم يكونوا فضوليين ، بل كانوا من النوع المؤدب ؛ وفوق كل ذلك ، كان هؤلاء البنانيون فى فنون القيود والحسابات أمهر من العرب ، مما جعلهم يجمعون ثروات طائلة فى مسقط ويصبحون عبقريتها المفضلة . ولما كان هؤلاء البنانيون قد طردوا من مسقط طوال سنوات الاستبداد ، أيام حكم الأميرين عبد العزيز وعبد الله ، فقد عادوا إلى الظهور فى مسقط مرة أخرى بعد أن تخلصت من هذا النير الكريه ، وبدأوا يزدهرون أكثر من ذى قبل . ولكن منذ أن اعتلى ثوينى العرش ، بل وقبل كل شئ ، منذ الحملة التى قادها عبد الله بن فيصل ، فإن شجرة ازدهار البنانيين ، إن جاز لى أن أقترض هذا التشبيه الشرقى ، كانت قد توقفت عن النمو ، وتحولت مدينة مسقط إلى "ورقة صفراء ذاوية " ، برغم أن هذه المدينة مع قليل من الرعاية والحكمة يمكن أن تورق من جديد ، وتعود مرة أخرى إلى ربيعها السابق .

وفى اعتقادي أن القارئ لن يمانع فى أن أورد هنا قصة صغيرة حدثت لواحد من هؤلاء البنيانيين فى مدينة مسقط ؛ وقد سمعت هذه القصة من واحد من البياضية المحترمين ، كان يملك محلا فى القيسارية ، وقد حكى لى هذه القصة أثناء حديث دار بينى وبينه عندما كنت أشتري قطعة من قماش ألتنا Tanna ، بينما كنا نجلس سويا ونعلق على المارة . حكى لى بالـ Bálìh ، ذلك الصديق التاجر ، أنه خلال فترة الهيمنة النجدية ، التى أعقبت الغزو الذى قام به الأمير عبد الله بن فيصل ، كان يتمشى ذات يوم فى القيسارية ومعه ثلاثة أو أربعة من معارفه ، الذين كان من بينهم رجل وهابى متشدد كان قد وصل لتوه قادما من نجد . وأثناء مسير هذه الجماعة وصلوا النقطة أحد المحلات الذى كان يجلس أمامه رجل بنيانى فى مقتبل العمر ، كانت بدانته ، كما هو شائع بين الهندوس ، تنبئ عن ثروته ، كان مشغولا بسجل قيوده وحساباته . ولما كان النجدى غير متعود على رؤية أصحاب الأجسام البدينة أو منظر الهندود ، فقد وقف يحملق فى البنيانى ويطيل النظر إليه ، ثم قال لرفيقة بصوت عالٍ : "يا لها من كتلة تصلح لنار جهنم ! " كان البنيانى يعيش فى مسقط منذ فترة طويلة ، ولذلك كان يفهم العربية ويتكلمها ، ولكن على نحو متكسر كما هو الحال بين عامة الهندوس فى المدينة ، والذين يبدو أنهم لا يتسودون هذه اللغة مهما كانت الظروف . ورفع البنيانى رأسه ونظر إلى الوهابى ثم قال : " ولماذا ، كتلة تصلح لنار جهنم ؟ " ورد عليه النجدى قائلا : " لأنك كافر " . ورد عليه البنيانى قائلا : " حقا ! ألهذا تظن أن كل من ليسوا وهابيين فهم كتل تصلح لنار جهنم ؟ " ويرد عليه الوهابى بتوكيد لا يقبل الشك . ثم يرد الهندوسى ، دون أن يلقى بالا لغمزات بالـ أو البياضية ، الذين كانوا يخشون أن يسفر الحديث عن نتيجة غير طيبة من جانب هذا المسلم الغاضب - " تقول أن هذا من قرآنكم ؛ تقول إن هذا من قرآنكم ؛ ولكن انتظر قليلا حتى أقول لك كيف ستسير الأمور فى يوم القيامة ، وأخبرك أيضا بالكتل التى تصلح لنار جهنم . هل لك أن تنصت وتستمع إلى فى هدوء ؟ " . قال البنيانى ذلك ، فى الوقت الذى امتدت فيه يد النجدى إلى مقبض سيفه . وتدخل الواقفون لى يمنعوا وقوع العنف ، فى حين واصل البنيانى حديثه بلغة عربية مكسرة ولكنها مفهومة من كل الحاضرين قائلا : " سوف أخبرك بما سيحدث يوم القيامة . سوف يجلس الله (سبحانه وتعالى) على عرشه ، وسوف يُحْضَرُ الخلق أمامه (سبحانه وتعالى) قبائلا وشعوبا ثم ينادى (سبحانه وتعالى) قائلا: "من هؤلاء ؟ " عندما تعرض عليه مجموعة من الوهابيين . ويُقال : "هم مسلمون" .

ويرد الحَكَمُ (سبحانه وتعالى) قائلا : أتدرون ، بعضهم قتلة ، والبعض الآخر سلاَّبون ونهابون ، وبعض ثالث منهم لعن جيرانه ؛ وهذا سارق ، وذاك زانٍ : ألقوا المذنبين منهم في جهنم ؛ وإن تبقى بريئا منهم فادخلوه جنتي ، وبالطريقة نفسها سوف يجرى غريلة اليهود ، والمسيحيين ، والبارسيين ، بل وكل الأجناس الأخرى ، كل سوف يُنْتَحَلُ بدوره ؛ ومنهم من سيدخل النار ، ومنهم من سيدخل الجنة . وفي الوقت ذاته سوف نجلس نحن البنيانيين على شكل مجموعة ، فوق تلة صغيرة على جانب من الجانبين دون أن نشغل أنفسنا بشئون غيرنا . وهنا سوف يرانا الله ، ويقول لأولئك الذين هم قريبون منه (سبحانه وتعالى) : "من هؤلاء الذين يجلسون وحدهم ويبدو عليهم الهدوء ؟" ويُقالُ له (سبحانه وتعالى) : "إنهم البنيانيون" . ويقول الحكم (سبحانه وتعالى) : "آه ! حسن ؛ يا هؤلاء البنيانيين المساكين الذين لا حول لهم ولا قوة ! إنهم لم يَقْتُلُوا قط ، ولم يسلبوا أو ينهبوا ، ولم يسبوا جيرانهم قط ؛ أدخلوهم جميعا الجنة - بلا حساب !" وهنا سوف ندخل ، وأنا معهم ، الجنة ، أما أنت ومن هم مثلك فسوف تنالون جزاءكم في ذلك اليوم" . وهاج النجدي وسبَّ ولعن ، وتجمع البياضية الذين كانوا في الشارع وضحكوا وصفقوا ، بينما استأنف البنياني حساباته التي كانت قد توقفت بسبب هذا الحديث .

وخال الثويني ، واسمه حسن ، إذا لم تخنى ذاكرتي ، يشغل منصب الحاكم المحلي في مدينه مسقط . وقد التقيته ذات يوم في واحد من شوارع المدينة - وهو رجل مسن ، يبدو عليه الوقار ، ولحيته بيضاء ، كما يلبس ملابس بيضاء أيضا ، وهو تحيف ومنحنٍ إلى حد ما بفعل السن ؛ وخنجره الذي صنع جرابه من الذهب هو وحده وبكل ما فيه من زينة ، الذي يوحى بمكانة هذا الرجل ، الذي كان يتجول سيرا على الأقدام وبصحبته بعض أفراد حاشيته وخدمه ؛ وكان الجميع يفسحون الطريق من أمامه ويحيونه ، باحترام يصل إلى حد التقديس ، نظرا لأنه كانت له سلطة دينية عجيبة بين البياضية في هذه البلاد . والثويني يزور مسقط طبقا لظروف المال والأعمال أو حسب ما يصور له خياله ، ولكنه غالبا ما يقيم في منزل من منازل الموجودة في سيب ، أو برقا ، أو نزوة ، والقنصل الإنجليزي الذي يتخذ من مسقط مقرا له ، من المقرر له أن يكون شغله شاغل هو منع تجارة الرقيق ، ولكن المهام الخيرية التي تقوم بها بلادنا هنا لم تلق سوى القليل مع النجاح ؛ وعلى كل حال ، فإن سوق العبيد قد انتقل ، على سبيل الأدب والاحترام ، من مسقط إلى مدينة مطرح ، التي تفي بالغرض نفسه .

ويقام كل يوم خارج مدينه مسقط ، وبالقرب من بوابتها الجنوبية سوق عامة ، شاهدت فيها ، من بين الأدوات العمانية الصنع والأدوات فارسية الصنع ، كثيرا من الصناديق المصنوعة من الخشب الأسود والبضائع الهندية الأخرى التي كانت معروضة للبيع عن طريق المزايدة . وذات مساء وبينما كنت أتجول بين صفوف دكاكين السوق ، بحثا عن خنجر أكثر أناقة من ذلك الذى كنت أزين به وسطى ، التقيت برفاقنا القدامى فى السفينة ، الريان ومعه اثنان من طاقم السفينة ، الذين كانوا يرتدون ملابس جيدة وفى روح معنوية عالية ، بعد أن حصلا من السلطان على ما يكفى لتعويض خسارتهم الفادحة ؛ كانوا على وشك أن يعودوا إلى السوق ، ليبدأوا من جديد العمل فى حياة البحر بكل مكاسبها وأخطارها ؛ ولكنى على ثقة أن ذلك سيكون فى ظل رعاية وعناية أفضل .

وبعد أن أمضيت حوالى أسبوع فى مسقط بدأت أفكر جديا أنا ويوسف فيما ينبغى أن نفعله بعد ذلك . ولكن صديقى كانت لديه فكرة واحدة فقط ، هى كيف يعود ، على وجه السرعة ، إلى عمه فى أبى شهر ؛ فالرحلة لم تعد بعد جذابة ، لا من ناحية الفائدة أو المتعة ؛ فى حين أن حادث تحطم المركب والمصاعب التى ترتبت على ذلك جعلته يبدو كما لو كان أكبر من عمره بعشر سنوات . أما أنا فقد بدأت أحس أننا فعلاً قاسينا بما فيه الكفاية ، وأنا ينبغى أن نترك الباقي للظروف المستقبلية ؛ وهذا هو ما ينبغى أن نفعله ، نظرا لأن مجرد العودة إلى بغداد ثم منها إلى سوريا ، تعد مسالة طويلة تماما ، وبخاصة أن فصل الصيف أو شك على الدخول . زد على ذلك ، أنتى كان يتملكنى إحساس غامض بالإرهاق والروح المعنوية المتدنية ، ولا أستطيع تحديد أسبابه ، إلا أنتى فى واقع الأمر كنت أدرك أن ذلك هو 'فترة الحضانة' (إن جاز لى أن استعمل المصطلح الطبى هنا) التى تسبق حمى التيفود اللعينة ، التى كانت تحوم حولى ، وجعلتنى أكثر رفضا للقيام بالمزيد من الرحلات ، أخيرا ، فإن كل الاقتراحات التى عرضتها للقيام برحلة إلى مدينة باهلة ، أو حتى إلى صور لم تحظ سوى برد واحد لا رجعة فيه ، وهو الرفض القاطع من جانب ابن خميس ، والأكثر من ذلك أنه رفض حتى أن يتحرك حتى ولو لخطوة واحدة خارج المدينة . وعلى الجانب الآخر ، كان ابن خميس دائم السؤال والبحث عن سفينة متجهة إلى أبى شهر ، ولكن ربح الشمال كانت عنيفة ومستمرة ، بل كانت تبدو وكأنها ستظل على هذا الحال إلى ما بعد ظهور القمر ، أى فى الحادى والعشرين أو الثانى والعشرين من الشهر .

ولم يتبق لنا عندئذ سوى الصبر المشوب بالقلق ؛ وهنا بدأت أحس بكل القلق فى مسقط . ومدينة مسقط ، شأنها شأن عدن ، تعد سجنًا إلى حد ما من الناحية البدنية ومن الناحية المعنوية . فهى يحدها البحر من أمامها ، وتحيط بها من الخلف ومن الأجناب أيضا سلسلة من القمم الصخرية شديدة الصلابة ، ومناخ مدينة مسقط من النوع الخائق ، ووسط سكان اقترضوا واستعادوا الكثير من كل شئ إلى أن أصبحوا هم أنفسهم لا شئ ؛ من هنا فإن الغريب الذى لا تكون له مصلحة مالية أو تجارية ، أو هدف معين ، قد يشعر بالقلق والضيق بعد أن يمضى عشرة أيام خلف بوابات هذه المدينة . وتمضية للوقت كنت أقوم كل يوم برحلة سيرا على الأقدام تستمر ساعة أو ساعتين أقضيها خارج أسوار المدينة ، أزور خلالها الضواحي ؛ والقرى الصغيرة الضائعة وسط مناظر الصخور ، إلى أن جعلتنى المصادفة البحتة أتوغل داخل المنطقة الريفية ، إلى مسافة أبعد من تلك التى كنت أنوى الوصول إليها ، بسبب حمى التيفود التى أوشتك أن تصيبنى . وقد حدث ذلك على النحو التالى .

فى اليوم العشرين من شهر مارس كنت قد قمت برحلة مبكرة ، غادرت خلالها المدينة عن طريق البوابة الجنوبية ، ورحت أتجول ببطئ بين البساتين والآبار التى كانت على جانب الطريق ، الذى كانت صخوره تحجب الرؤية ناحية اليمن وناحية اليسار ، وفجأة التقيت ثلاثة رجال ، أوحى لى ملابسهم القصيرة التى تشبه الكلتية^(١) ، هى وأحزمتهم الجلدية ، والتروس الصغيرة المستديرة التى كانوا يعلقونها على ظهورهم ، بأنهم ربما يكونوا من قطاع الطرق ، لولا أن الشال الأبيض الذى كان يلفه كل واحد منهم حول رأسه ، ولولا أيضا خصل الشعر الطويلة التى كانت تتدلى على جانبيه وجوههم حلوة القسمات . كانت مقابض خناجر هؤلاء الرجال مزينة بنقوش فضية جميلة، فيما عدا خنجر واحد كان مزينا بالذهب وله مقبض مصنوع من ظلف الزراف، ولونه بلون الكهرمان الغامق .

وحيا كل منا الآخر ؛ ولكن حامل الخنجر المذهب نظر إلى نظرة فاحصة ولكنها كانت توحى بالطيبة وحسن النية ، وسألنى من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب . وعندما أجبته بأننى جئت من مدينة مسقط ، وأننى كنت أقوم بمجرد تمشية صباحية ،

(١) الكلتية : تنورة ذات ثنيات طويلة يرتديها الرجال فى إسكتلنده وأفراد الفرق الاسكتلندية فى الجيش البريطانى - (المترجم) .

دخل معى فى حديث ، اكتشفت منه أنهم جميعا يعملون فى خدمة رئيس اليعاربة ، الذى يقيم فى مدينة زاقى فى جبل أخضر : وأبلغنى الرجل أنهم كانوا فى مسقط فى أمر يخص رئيسهم ، وأنهم عائدون الآن إلى منطقة زاقى . ودعانى ذلك الرجل الذى تحدث معى أول مره ، وكان اسمه زوحام Zoham إلى مرافقتهم فى طريق عودتهم ؛ وقال الرجل ، إن الحراسة جميلة ، والطريق عامر بالقرى وأماكن التوقف لنيل قسط من الراحة . وقد حرصت على تعلم شئ من حديثهم ، على قبول الدعوة ، رغم أننى انتويت ألا أتجاوز أول قرية نصل إليها ؛ والسبب فى ذلك أننى كنت قد تخلت عن فكرة القيام بزيارة للمناطق الداخلية . كان معارفى الجدد ، مثلى تماما ، من المشاة ؛ ومع أن فترة الصباح كانت حارة إلى حد ما ، إلا أنها كانت مقبولة بفضل نسيم الشمال .

وعلى امتداد ساعتين تقريبا كان طريقنا يمر عبر تلال وعرة تحيط بمدينة مسقط من ناحية البر ، إلى أن تجاوزنا القلاع المهجورة الموجودة على هذه التلال ، وبدأنا نهبط عن طريق ممر ضيق إلى الأرض المستوية الموجودة ناحية الجنوب . كانت الأرض التى أمامنا والمناظر الطبيعية تستحق أن يقوم برسمها فنان من الدرجة الأولى . فقد كانت توجد أمامنا مباشرة صخور داكنة ومدببة ، بنيت على قممها ، حصون بيضاء وأسوار تتخللها مزاغل لترسم بذلك صورة من صور التحدى والفحولة ؛ يلي ذلك ، سهل أخضر كبير ، كان يفتش أرض ذلك الصدع ، وتتخلله بيارات كثيرة تنتشر وسط تموجاته الرملية ؛ كما كانت تنتشر فى هذا السهل أيضا المنازل ، أو الكبائن المصنوعة من سعف النخيل ، والتى تنتشر على شكل مجموعات صغيرة كما هو الحال فى عمان ، وبلا أية أسوار أو أية شكلية دفاعية أخرى . ومن خلف ذلك الصدع ، وفى اتجاه الشمال ، والغرب والجنوب كانت هناك سلسلة جبال جبل أخضر - يغلب عليها اللون الأخضر الغامق الذى يذوى متحولا إلى اللون الأزرق ؛ كانت مجموعة الجبال الأولى والمنخفضة تبدو قريبة ؛ ولكن رفاقى أكدوا لى أن المسافة بين مسقط وزاقى ، تلك القرية التى تقع بالقرب من أعلى جزء فى جبل أخضر ، تحتاج إلى مسير ثلاثة أيام ؛ أى أن المسافة إذا ما كانت على شكل خط مستقيم تقدر بحوالى أربعين ميلا . كانت مدينة البشير ، التى تقع إلى اليسار قليلا ، تبعد عنا مسير ساعتين تقريبا ؛ كانت تلك القرية تبدو لنا كما لو كانت مجموعة من الأسقف الداكنة التى يحيط بها سور دائرى منخفض ؛ ولم يبرز من بين منازل هذه القرية حصن أو قلعة . ونظرا لأن

قمم الجبال المقابلة لنا عن بعد تتفق مع ذلك الذى يوقعونه على الخرائط تحت اسم "جبل هوذر" و"جبل فلاه" فقد سألت رفاقى عن هذين الاسمين ولكن أحدا لم يعرفهما ، والمصطلح الوحيد الذى أقره هؤلاء الرفاق هو أخضر ، اللهم باستثناء بعض الحالات التى تجرى فيها تعيين مكان بعينه ، من هذه الجبال ، عن طريق نسبته إلى أقرب المدن إليه ، كما هو الحال عندما يقولون : " جبل نزوة " أو " جبل صامد " .

وواصلنا المسير فى طريقنا بين أشجار السنط وأشجار المانجو ، فى حين كنا نصادف كل عشر دقائق مجموعة من الفلاحين الذين يركبون الحمير ، وبعض الناس الذين كانوا يركبون إبل الذلول ، ومجموعات أخرى من البشر الراجلين مثلنا . كان السواد الأعظم من عابرى السبيل عزلا من السلاح ، وكان البعض منهم يحمل السهم القصير الذى يشبه الرمح ، الذى لم تعد نجد تستعمله بعد ، ويحمل ترسا مستديرا ، أو إن شئت فقل " يلب " Yeleb ، مصنوع من الجلد المشدود على إطار من الخشب ومثبت فيه رؤوس معدنية . ولم أر من الأسلحة النارية فى عمان ، إلا قليلا ، إذ لم يكن يحمل هذه الأسلحة سوى البلوش ، الحراس وما إلى ذلك ؛ والحرب هنا تعد حدثا نادرا ، وليست تجارة ؛ زد على ذلك ، أن سكان الداخل يندر أن يتصلوا بالقبائل الأخرى أو حتى بالناس اللهم إلا إذا كانت هذه الاتصالات سلمية وعن طريق التجارة . كان طريقنا يمر من حين لآخر ببعض المجارى المائية الصغيرة ، التى ما تزال جارية والمقدر لها أن تجف خلال أسابيع قليلة أو شهور ؛ أما عن الآبار فقد كانت كثيرة ، إضافة إلى أننا كنا نصادف من حين لآخر بعض خزانات المياه المحاطة بالأحجار أو الجص ، والمملوءة بالماء . ولعل القارئ يذكر أننا كنا فى أواخر موسم الأمطار فى عمان وهذا بالضبط هو الوقت الذى تصل الرطوبة فيه إلى أقصى مدى لها فى هذه البلاد ؛ وفى الصيف والخريف تجف الأرض إلى حد ما . والحقول هنا تتمايل بمحصول واحد يجنيه الناس هنا قبل شهر من أوانه فى الأماكن الأخرى ، فى حين ينضج الباذنجان ، والقرع ، والشمام وما إلى ذلك قبل أوانه بوقت طويل ، وقبل نضوج هذه الحاصلات فى الأحساء بوقت طويل . ومع ذلك ما تزال أراضى هذه المنطقة أقل خصوبة من أراضى باطنة ؛ وتدخل ضمن الأرض الزراعية هنا نسبة من أراضى المراعى المخصصة لرعى الأغنام ، والثيران ، والإبل . والزراعة فى هذا الجزء تجرى فى مناطق متفرقة ، وغالبا ما تكون الأراضى الزراعية قريبة بالقرب من إحدى القرى أو أحد الكفور . والهواء هنا منعش والمناخ صحى . وسكان هذه المنطقة من النوع الشهم الصريح ،

وهم أقل تحضرًا من أهل باطنة؛ وبشرة السكان هنا داكنة ، وقامتهم متوسطة الطول ، وسيقانهم متناسقة ؛ وهم بشكل عام ، يجوز أن نقارنهم بأفضل سلالات العرق المهراتى **Mahratta** ، ومع ذلك يظل العرق العماني هو الأفضل ، الذى يتميز بقوة بدنية وقدرة على التحمل تفوق قوة وقدرة العرق الهندى .

ومع دخول وقت العصر كنا قد وصلنا إلى البشير ، تلك القرية الكبيرة التى أنشئ معظمها من الخشب والقش ؛ وشوارع هذه القرية واسعة ، ونظيفة وغير منتظمة ؛ والقرية يحيط بها سور مبنى من اللبن ، يفصل المنازل عن البساتين ؛ وينعقد كل أسبوع ، خارج أسوار هذه القرية ، سوق يشغل مساحة واسعة فى ما بين المزارع . وعلى بعد أميال قليلة فى اتجاه الجنوب توجد واحدة من مناطق صناعة الفخار فى عُمان ؛ والأوانى الفخارية التى يجرى صنعها فى هذه المنطقة تميل إلى الابيضاض ، وتشبه إلى حد ما ذلك الذى نطلق عليه اسم "الحجر" من بين الأباريق والأطباق الكبيرة؛ وهذا النوع من الخزف صلب جدا ولا يسمح بتسرب الماء وهم يطلونه فى بعض الأحيان بطبقة من الجليز . ولا توجد مصانع أخرى للخزف فى الجزيرة العربية كلها على امتدادها فى المنطقة ما بين الجوف وعمان ، والمنطقة ما بين عُمان وشومر ، ونجد والأحساء أيضا لا توجد فيها هذه الصناعة نظرا لعدم وجود المادة الخام اللازمة لهذه الصناعة ؛ وأوانى المطبخ هى والأوانى المنزلية تصنع من الخشب أو المعدن فى كل من نجد والأحساء . وعمان هى المنطقة الوحيدة التى نرى فيها الأدوات الفخارية تستعمل كل يوم ، برغم أن الأوانى المعدنية يشيع استعمالها أيضا فى هذه البلاد ، نظرا لأن الإهمال فى البيوت العربية يؤدى إلى تكسير الكثير من هذه الأوانى الخزفية أو الفخارية ، ومن ثم يستوجب الحرص فى الإنفاق المنزلى .

وفى قرية البشير بحث رفاقى عن منزل صديق لهم ، وعثروا عليه واصطحبوني إليه معهم . كان منزل مضيئنا ، واسمه عقيل الجعفرى ، يقع بالقرب من سور القرية ؛ وكان هناك بستان بالقرب من هذا المنزل ، فرش الناس الحصير والسجاد على أرضه بالقرب من خزان الماء الصغير ، فى ظلال بعض أشجار العُنَّاب ، وأمضينا ساعات العصر الحارة بطريقة ممتعة ، وانضم إلينا شقيق المضيف الأصغر منه سناكى يشاركنا شرب القهوة وتدخين النرجيلة ؛ ووضعوا أمامنا فى الوقت نفسه كمية من المشمش شديد الاخضرار، وبعضاً من الخيار، والنبق واليام النزوى (نسبة إلى مدينة نزوة)

انتظارا لتجهيز العشاء . ولو قدر لى أن أكون بحالة صحية طيبة لكنت قد تمتعت تماما بصحبة هذا المجتمع الأسرى ؛ إذ لم أكن أتصور مطلقا أن الناس هنا على هذا القدر من الود وحلاوة المعشر . ولكنى كنت قد هدنى المسير ، وكنت أميل إلى النوم أكثر من التسامر ؛ ولذلك وبعد أن دخنت نرجيلتين ، قبلت العرض الذى قدمه لى عقيل ، وكان عبارة عن سجادة عمانية حمراء اللون ومخدة ، ورحت فى النوم لحين غروب الشمس ، فى حين قام أصدقائنا ، بدافع من الأدب ، بالانتقال إلى مكان آخر من البستان كى يهيئوا لى جوا من الهدوء والراحة .

وأخير وصل واحد من الشباب وأيقظنى لتناول العشاء . كانت أطباق العشاء كثيرة ومتنوعة ، وزاخرة بالشعيرية ، إضافة إلى بعض الأصناف المعروفة للقراء السوريين ، كما كانت هناك أيضا أطباق من " الكشك " الذى هو هنا نوع من المهلبية المعطرة بماء الورد كى يضيف عليها نكهة طيبة وهو ليس من الأطعمة المكروهة بأى حال من الأحوال . وكان إبريق ماء غسيل الأيدي وكذلك الأوانى المخصصة لذلك مصنوعة من النحاس الأحمر وذات أشكال وطرز جميلة . والناس هنا لا يبدءون تناول الطعام بالبسملة، إضافة إلى أنهم هنا لم يصلوا عند دخول وقت الصلاة أو حتى بعده؛ إذ كان جميع الحاضرين من البياضية ؛ والقرية كلها لم يكن فيها مسجد أو مصلى . وعندما دخل الليل ، قال رفاقى من زاقى إنهم ينوون القيام بزيارة ودية لرئيس المكان ، ووافقت بقيه الجماعة على مرافقتهم أثناء هذه الزيارة ، وبناء على ذلك ، غسلنا أيدينا ، وسرنا على شكل وفد إلى مقر إقامة صاحب السعادة ، الذى كان يقيم فى منزل منخفض مبنى من الحجر ، هو فى معظمه منزل وليس قلعة ، ولكنه كان منزلا فسيحا . وفى قهوة ذلك المنزل التى كانت تتسع لما لا يقل عن ستين فردا ، وكان يجلس صاحب السعادة (يؤسفنى أننى نسيت اسمه) ، الذى كان رجلا فى مقتبل العمر ، ويلبس ثوبا من القطن الأحمر الوطنى ، ومن فوق الثوب مشلح خفيف مصنوع محليا أيضا ، وكانت تزين رأسه عمامة بنغالية، فى حين كان يزين وسطه خنجر له مقبض من الذهب . وكان يجلس ، من حول صاحب السعادة ، أعيان قرية البشير ، والعديد من الزنوج ، الذين ينتمى بعضهم إلى العاملين فى منزله ، وكان بعضهم الآخر ضيوفا عليه ، واستقبلنا الرئيس باحترام بالغ يليق بهذه المناسبة ، كما اهتم كثيرا بأصدقائنا من قرية زاقى ، من أجل عيون رئيس قريتهم . أما فيما يتعلق بى شخصيا ، فإن صفتى كطبيب بلا أدوية ، وبلا مشرط ، وبلا شهادة أيضا ، أكسبتنى مقعدا إلى جانب هذا

الرجل العظيم ، الذى فحصت له نبضه بدقة بالغة ، وقدمت له النصيحة التى تخلصه من "أبى صفار" Biliousness ، إن جاز لى أن استعمل المصطلح الذى قاله لى ، والذى لم يكن أكثر من مجرد روماتيزم مزمن عندما استجليت حقائق الأمر ، وقدموا لنا بدلا من القهوة مشروبا من القرفة ، ودار الحديث بيننا بسهولة ويسر ، وفى أدب يليق بالمجتمع الشرقى الجيد ، دون أن يختلط ذلك الحديث بالانفعال أو التهور الذى قد يحدث بين الحين والآخر ، فى بعض البلدان الأخرى ، مثلما يسود الصمت الزائد عن الحد فى بعض البلدان الأخرى . ومن وجهة نظرى فإن الشرقيين يتفوقون فى فن الحديث على الغرب ؛ وربما يكون ذلك ناشئا عن أن الحديث هو الوسيلة الوحيدة هنا لنقل الأخبار وللتواصل فى بلاد لا تعرف الصحف أو النشرات .

ورئيس قرية البشير هو وقريته يعتمدون على مسقط ، التى تعد المدينة الرئيسة فى هذه المنطقة . ولكن واقع الأمر هو أن هذه القرية هى ورئيسها وكذلك الرؤساء المحليين الآخرين يعتمدون على أنفسهم بالدرجة الأولى أكثر من اعتمادهم على أى إنسان آخر؛ وعندما شاهدت إطلاق أيدي هؤلاء الرؤساء فى المناقشات التى كانت تدور بينهم وبين السلطان ، وضباطه ، وأوامره المحلية ، وعندما وقفت على مدى التدخل الطفيف من قبل الحكومة المركزية فى شئون هؤلاء الرؤساء المحليين ، ذكرنى كل ذلك بالأيام الخوالى " التى لم يكن فيها ملك لإسرائيل " ، كما ذكرنى بأشياء أخرى كثيرة . والواقع أن سلطة الحياة والموت ليست فى أيدي رؤساء القرى ، ولكن فيما عدا ذلك فإن هؤلاء الرؤساء أقرب ما يكونون إلى الحكام المطلقين ، برغم أن ذلك يتم بطريقة مألوفة وبالتعاون مع المجالس المحلية . زد على ذلك أن الضرائب التى تفرضها الحكومة هم الذين يجيئونها ، بطريقتهم الخاصة ، ويجرى إرسالها بعد ذلك إلى الحكومة المركزية ، ويندر أن تتساعل مسقط عن الزيادة أو النقص فى المبالغ التى يجرى إرسالها إليها . وفى مقابل ذلك ، فإن الجميع يلتفون حول الثوينى ، الذى له حزب قوى هنا ، وجاهز للدفاع عنه والحرب إلى جانبه إذا دعى الداعى ؛ وخلاصة القول هى أن الشعب هنا سلس وسهل الانقياد ، فى ظل رؤساء سلسين أيضا ، وعلى رأس الجميع سلطان سلس أيضا ، والكل هنا قانع وراض بما قسم له فى هذه الدنيا ، إلا فيما يتعلق بالآخرة فهم يميلون إلى "عدم التفكير فيها" ، وذلك إذ ما قارناهم بجيرانهم الوهابيين .

ويمضى الليل وتُثارَ القهوة بواسطة نجفة بها خمس لمبات مستقلة من البرونز جرى وضعها فى وسط القهوة ، إضافة إلى وسيلة إضاءة صغيرة أخرى كانت موضوعة فى جزء غائر من الجدار عند أقصى القهوة . وكان الشئ المميز فى ذلك الاجتماع ،

عبارة عن رقصة ، أعجبتني جدا ، لأننى سمعت الكثير عن مثل هذه العروض فى عمان ولكنى لم أشاهد أيا منها قط . وفى هذه المناسبة ، وبينما كان يجرى توزيع الفستق على جميع الحاضرين ، ظهر عشرون من الرجال ، ملابسهـم مصبوغة بلون الزعفران ، وشعرهـم من النوع الطويل المسترسل ، فى حين كان كل منهم يحمل سيفاً أو خنجرًا فى يده . وبعد أن دخل هؤلاء الرجال إلى القهوة انقسموا إلى جماعتين قوام كل منهما عشرة أفراد ، وبدعوا يقومون بسلسلة من الابتكارات الجميلة جدا ، التى كانت إلى حد ما خليطا من معركة هيكلية والرقصة التقابلية ، يقومون خلالها بطعن أهدافهـم وبث الحياة والنشاط المحموم داخل أجسادهم . وتلت ذلك الأغاني النبطية ، التى ذهب كل منا بعدها لحال سبيله .

وفى صباح اليوم التالى استأنف أصدقائى مسيرهم إلى قرية زاقى ، وتمنوا لو أنهم أخذونى معهم، ولكنى كنت أحس بعدم مقدرتى على مواصلة رحلة من هذا القبيل. وعندما استشعر مضيقتنا عقيل عدم قدرتى وضعفى ، عرض على أن يحضر لى حمارا أركبه إلى الكاملى Kamlee ، وان يرافقتنى فى هذه الرحلة صبى من أهل قرية بشير . وبينما كنا نسير فى طريقنا عبر السهل المتموج ، الذى تتخلله البيارات الصغيرة ، والذى يشبه ، إلى حد ما ، بعض مناطق الدكان Deccan ، فى المنطقة المجاورة لـ - بونا Poonah ؛ وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى تلال الصخور الساحلية ، وسرنا خلال ممراتها فى وهج وحرارة شمس شهر مارس التى تضارع شمس وحرارة شهر يوليو فى سوريا ، فقد كانت أشعه الشمس حارقة ، وتنعكس لترتد إلينا بفعل الصخور العارية التى كانت تحيط بنا من كل جانب؛ زد على ذلك ، أن حالتى المرضية ، التى حاولت إخفاءها عن نفسى جعلت الحرارة أقسى مما أستطيع تحمله . كانت الصخور بأشكالها الخيالية من فوقنا ، ومن حولنا ، وكانت حادة مثل السكاكين ومجوفة مثل الرماح ، مما كان يشكل إطارا عجيبا لتلك الأرض الخصبة المحصورة بين هذه الجبال . وأخيرا تجاوزنا تلك الحافة التى تشبه المكلا واتجهنا صوب البحر ، ثم وصلنا مع دخول وقت الظهر إلى تلك القرية الصغيرة ، نظرا لأن قرية الكاملى لا تعدو أن تكون كذلك، أو إن شئت فقل أن قرية الكاملى ليست سوى ميناء من موانئ الصيد ، فضلا عن إنها تعد أيضا ضاحية من ضواحي مدينه مسقط ، برغم أنها لا ترى مدينه مسقط نظرا لوجود ذلك الرعن الطويل الذى يشكل الطرف الشرقى لميناء مسقط الكبير . وعندما وصلت الكاملى لم أعد أقوى على تحمل أى شىء ، وعندما شاهدت اثنين من

الزئوج وهما يسحبان الماء من بئر قريب من القرية ، تحممت تحمما عارضا بأن طلبت إليهما أن يسكبا فوقى ملء دلوين من الماء وأنا واقف بجوار البئر ؛ وقد تسبب هذا التحمم فى إنعاشى بدرجة كبيرة فى تلك اللحظة ، رغم أنى لم أكن أعرف أن كان ذلك صحيحا أم لا . وهنا ودعت الصبى القروى الصغير الذى كان يسلىنى طوال الطريق بحديثه العذب ، وسرت على قدمى وحيدا مدة ساعة كاملة ، دست خلالها فى بعض الأحيان ، على الشاطئ الملىء بالقواقع ، وسرت فى أحيان أخرى خلف الصخور ، والرعن الجبلية المدبية ، إلى أن عدت إلى مسقط مرة ثانية وذهبت إلى منزل أستار Astar ، كان يوسف بن خميس، قد اتفق أثناء غيابه ، مع أحد ربابة السفن الكويتية ، والذي تحدد موعد إبحار سفينته ، مع بداية الريح المرسلة والمواتية ، والذي عرض أن ينقلنا إلى أبى شهر ، ورفض أن يحصل على أية أتعاب مقابل سفرنا معه ، مشيرا أن من الخطأ أن يتقاضى الإنسان أتعابا من أناس ، تحطمت سفينتهم منذ وقت قريب .

ولكن قبل أن نشق طريقنا إلى ظهر هذه السفينة القطرية Cutter، يهمنى أن أعطى القارئ شيئا من التفاصيل الختامية الخاصة بسكان عمان وأحوالها الداخلية - وقد حصلت على هذه التفاصيل من الرجال الذين كانوا متجهين إلى قرية زاقى والذين سبقت الإشارة إليهم ، ومن بعض المصادر المحلية الأخرى . وأنا أورد هذه التفاصيل دون أن أشفعها بذلك التأكيد الموضوعى الذى ينبثق عن الملاحظة الشخصية ؛ وعلى كل حال ، فإن طبيعة الرواة الحقيقية التى لا مرأى فيها ، والذين هم من أبناء الأرض التى وصفوها ، إضافة إلى ما رأيته أنا بنفسى من هذا البلد عندما كنت أسير على سواحله فى المنطقة من رأس مسندم إلى برقا ، أو عندما كنت أسير على اليابسة فى منطقة صوحار ، وفى منطقة مسقط ، كل ذلك يقتعنى ويجعلنى أحسب أن البيانات التى سوف أورها هنا قريبة جدا من الصحة ؛ ولكن أرجو أن تكون الظروف والأحداث السيئة التى أشرت إليها ، حُدت من استكشافاتى وجعلتنى أختصر فترة إقامتى فى هذه البلاد ، أرجو أن تلتمس لى هذه الظروف العذر عند القارئ فيما قد يكتشفه من عيوب ونقائص فى هذه البيانات .

الممتلكات العربية والفارسية من عمان ، وهى الآن تحت حكم الثوينى ، تنقسم إلى ثلاثة عشر منطقة إدارية متميزة، بعضها يعتمد على الحكومة المركزية بصورة مباشرة، والبعض الآخر أقل اعتمادا على الحكومة المركزية ، أما المناطق الأقل اعتمادا على الحكومة المركزية ، فهى خمسة مناطق على وجه التحديد وهى : البحرين التى لم يكن

بينها وبين السلطان ، طوال فترة زيارتي ، أية صلة فيما عدا دفع جزية هزيلة ، ونوع من الولاء الغامض ؛ قطر ومنطقة بنوياس Beno - yass ، اللتان يعد اتحادهما أكثر وثاقه من البحرين ؛ ثم تجيئ بعد ذلك المناطق الثلاثة وهي الشارقة ورؤوس الجبال ، وقلحوط ، الخاضعة فعلا للسلطان ، ولكن عن طريق الوسيط المكروه خالد بن صقر ، وهذا هو حال الشارقة بصفة خاصة .

هناك ثمانية مناطق تقر وتعترف بتبعيةها المطلقة وتخضع لحكم صارم . وأول هذه المناطق الثمانية هو الساحل الفارسي اعتبارا من رأس بستانة إلى جسك Djask ، ومعها الجزر المجاورة وهي جزيرة جشم Djishm وجزيرة لارج Larej ، ثم هرمز ويصل طول هذه المنطقة إلى حوالي مائتي ميل تقريبا ، ويتراوح عرضها بين عشرة أميال وثلاثين ميلا ؛ وهي عبارة عن شريط طويل من الموانئ ، وأهميتها تابعة من طبيعتها فقط .

ثانيا ، الباطنة ، أو إن شئت فقل كل السهل المحصور بين ممر قطاع اللُحي الضيق من ناحية الشمال ، وتلال برقاً ومسقط من ناحية الجنوب ، وسلسلة جبال أخضر من ناحية الغرب . ويتساوى طول هذه المنطقة مع طول المنطقة الأولى ، أي مائتي ميل تقريبا ، ولكن عرضها يتردد بين أربعين وخمسين ميلا ، وهي أخصب المناطق العمانية وأشدّها ازدحاما بالسكان .

ثالثا ، جبل أخضر ، وهو يبدأ من قطاع اللُحي ويمتد إلى صماد S.amad ؛ وباطنة تحيط بجبل أخضر من ناحية الشمال الشرقي ، والظاهرة تحيط به من ناحية الجنوب الغربي . والمنطقة كلها جبلية ، ولكنها مأهولة بالسكان ؛ وقوة السلطة السياسية والعسكرية تقع في هذه المنطقة .

رابعا ، الظاهرة ، وقد سبق أن قلت الكثير عنها .

خامسا ، منطقة مسقط التي تمتد من برقاً إلى رأس حيران ؛ وقد سبق أن تكلمت باستفاضة عن هذه المنطقة أيضا .

سادسا ، بلاد صور ، التي تمتد من رأس حيران إلى رأس الحضض .

سابعا ، جيلان التي تقع إلى الخلف مباشرة من بلاد صور .

وفى المقام الثامن تأتى تلك المناطق التى تمتد من رأس الحوض إلى ظوفار D.ofar - وهذه المناطق مخلخلة السكان ، وسكانها أصلا من البدو أو الزنوج أو من القبائل الافريقية ؛ والأحقاف الذين يعيشون بين قطر والحريق ينتمون إلى هذه الطائفة من السكان . وهذه المناطق الثمانية ، باستثناء المنطقة الأخيرة تشكل من الناحية الجغرافية الخالصة ومن الناحية السياسية ، ذلك المسمى الذى نطلق عليه اسم عمان ، بالمعنى الحقيقى لهذا المصطلح .

وقد قدر لى الرواة عدد سكان كل منطقة من هذه المناطق وكذلك قوتها العسكرية بما يلى :

رقم مسلسل	اسم المنطقة	عدد القرى	عدد السكان	القوة العسكرية
١	البحرين	٦٠	٧٠٠٠٠	٣٠٠٠
٢	قطر	٤٠	١٣٥٠٠٠	٦٠٠٠
٣	الشارقة	٣٥	٨٥٠٠٠	٣٥٠٠
٤	رؤوس الجبال	٢٠	١٠٠٠٠	٥٠٠
٥	قلحاط	٤٠	٦٠٠٠٠	٢٠٠٠
٦	باطنة	٨٠	٧٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠
٧	جبل أخضر	٧٠	٦٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠
٨	الظاهرة	٤٠	٨٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
٩	بلاد صبور	٣٥	١٠٠٠٠٠	٤٠٠٠
١٠	جیلان	٥٠	١٤٠٠٠٠	٨٠٠٠٠
١١	الساحل الفارسى ومناطق أخرى	-	٣٠٠٠٠٠	-
الإجمالى			٢٢٨٠٠٠٠	١١٢٠٠٠

ويجب أن نضيف إلى هذا الإجمالي كل سكان الصحراء المجاورة وسكان الساحل العربى الجنوبي الشرقى ؛ وهذا عدد لا يستهان به من واقع هذا التقرير . وربما يلاحظ القارئ أننى لم أذكر منطقة مسقط فى الجدول السابق ؛ والسبب فى ذلك أن هذه المنطقة أدرجها الرواة مرة مع سكان باطنه ومرة أخرى مع جبل أخضر . وأنا أزيد هنا أيضا أن الملاحظات التى أبديتها على قائمه القرى النجدية والسكان النجديين ، وكذلك القوات العسكرية ، يمكن تطبيقها على هذا الجدول أيضا .

ومداخل ، أو متحصلات هذه السلطنة كبيرة ومضمونة . وأنا عندما حاولت أن أتعرف بأكبر قدر من الدقة المبالغ التى يجرى تحصيلها من مصادر الدخل المختلفة ، كنت أشك أن هناك خطأ ما فى حساباتى أو أن هناك مبالغة غير مقبولة فى المعطيات ذاتها . ولكنى عندما رجعت ، بناء على ذلك ، إلى البيانات الواردة عن هذه الأمور عند بعض الرحالة الذين كتبوا عن بعض المناطق المحددة فى عمان ، وعندما رجعت إلى المصادر المتوفرة لدى حكومتها ، بالإضافة أيضا إلى التصحيح الذى قدمته لى الاستخبارات الرسمية ، خارج سلطنة عمان نفسها ، اكتشفت أن حساباتى كانت أقل بكثير من تلك الحسابات والتقديرات التى وردت عند الآخرين ؛ من هنا ، فأنا لا أجد مبررا للشك ، فى أن كل هذه الأشياء ، هى والأصفار والإجمالي يمكن أن تكون اقترابا صحيحا من الحقيقة الواقعة . وعلى كل حال ، وإذا ما ظهر خطأ (إذ أننى لا يمكن أن أقطع تماما بعدم وقوع الأخطاء فيما أقوله أو فى الجدول الذى أوردته هنا عن السكان) فقد عمدت فى كل ما قلته أو أوردته عن هذه الأشياء ، أن يكون الخطأ بالناقص وليس بالزائد . وأنا على يقين أن الزمن هو ومزيد من التقصى سوف يصححان كل شئ .

وهنا يجب على القارئ أن يعرف أن مصادر الدخل العام فى عمان تنقسم إلى أربعة مصادر : صيد اللؤلؤ ؛ الضرائب والمكوس التجارية ؛ والضرائب العقارية ، ثم الاحتكارات والتجارة الخاصة التى تمارسها الحكومة . وسوف أتناول كل مصدر ، من هذه المصادر ، على حدة فيما يلى ، ثم أقوم بتجميعها فى النهاية .

قد يكون من الصعب الحصول على العدد المضبوط للقوارب التى تعمل فى صيد اللؤلؤ ، والتى تمارس هذه الحرفة طوال العام فى المنطقة من القطيف إلى الشارقة ، إضافة إلى أن الحكومة المركزية ، فى رأى ، ليس لديها بيان قاطع أو أرقام محددة فى

هذا الموضوع ، حتى ولو بشكل جماعى أو كلى . وعلى كل حال ، فإن السجلات غير الدقيقة موجودة فى كل قرية من قرى الساحل على حدة ، وإذا ما كلف الإنسان نفسه مشقة البحث عن هذه السجلات فى أماكن تواجدها فإنه ربما يصل إلى الملاحظة نفسها التى وصلت أنا إليها . ويقدر إجمالى عدد المدن ، والقرى ، والكفور التى تخرج القوارب منها لصيد اللؤلؤ ، بحوالى مائة وأربعين مدينة وقرية ، بما فى ذلك مدن وقرى البحرين ؛ فى حين يصل متوسط القوارب التى تخرج من القرية أو المدينة الواحدة ، وذلك اعتماداً على عدد القوارب التى شاهدها وعددها بنفسى فى كل المدن والقرى التى زرتها ، بحوالى أربعين قارباً . وبذلك يمكن القول أن إجمالى عدد القوارب العاملة فى صيد اللؤلؤ يصل إلى حوالى خمسة آلاف وستمائة قارب . ثانياً ، يتعين على صاحب كل قارب من القوارب العاملة فى صيد اللؤلؤ أن يدفع مبلغاً يقدر بحوالى ثلاثين شلناً إنجليزياً ، إضافة إلى نسبة مئوية مما يصطاده القارب ، وفى أغلب الأحوال لا تزيد هذه النسبة المئوية عن ريال ونصف تقريباً ، أو ما يعادل حوالى ثمانى شلنات إنجليزية ، إذ ما أخذنا بمبدأ المتوسط . وإذا ما أضفنا هذه النسبة المئوية إلى الضريبة التى يجرى تحصيلها عن القارب الواحد ، نجد أن الإجمالى يصل إلى ثمانية وثلاثين شلناً إنجليزياً عن القارب الواحد ، وإذا ما ضربنا هذا الإجمالى فى عدد القوارب فإن الناتج يكون حوالى مائتان واثنى عشر ألفاً وثمانمائة شلن ، أو إن شئت فقل حوالى عشرة آلاف وستمائة وأربعين جنيهاً إسترلينياً ، هى بمثابة دخل سنوى يذهب لصالح الحكومة المركزية ، وحدها ؛ برغم أن هناك أيضاً بعض الإتاوات الخاصة والعرفية التى يجبيها الرؤساء المحليون بصفة مستمرة ، وبخاصة فى البحرين ، ولكنى لم أسمع فى قطر شيئاً عن الشكوى أو التبرم من هذه الإجراءات .

ويتمثل المصدر الثانى من مصادر الدخل فى الضرائب والمكوس التى يتم تحصيلها من الموانئ . وقد اكتشفت أن نيبور حدد هذه الضرائب بواقع خمسة فى المائة على المسيحيين ، وستة فى المائة على المسلمين ، أى على الحمولات والأمتعة التى تكون معهم . هكذا كان الحال منذ حوالى مائة وعشرين عاماً مضت ، ولكن الأمور تغيرت تماماً الآن . وهنا يجوز لى أن اعتمد على تجربتى الشخصية ، نظراً لأننى منذ أن غادرت المنامة إلى أن تحطمت السفينة التى كانت تقلنا من سوادة ، كان بصحبتى أنا ورفيقتى أمتعة وبضائع تخضع لهذه الرسوم الجمركية ، وأتأنا أبحرنا من وأبحرنا إلى ما لا يقل عن عشرة موانئ مختلفة ، والقاعدة العامة المتبعة فى جميع المنافذ الجمركية

المقامة على شاطئ البحر في المنطقة ما بين البحرين وصور - وهي بالتحديد ، في المنامة ، والمحرق ، والبداع ، ووكره ، ولينجا ، ويندر عباس ، وأبى ظبي ، وظيفع ، والشارقة ، وبقية الأكواخ التي من هذا القبيل ، والتي يصل عددها الإجمالي إلى حوالي ثلاثين ميناء مهما تمارس هذا النشاط فعلا - تقضى بتحصيل ريال واحد ، أو ما يعادل خمس شلنات إنجليزية ، عن كل طرد كامل يجرى إنزاله ، بغض النظر عن محتوياته ؛ ويتراوح وزن الطرد أو البالة بين ستين وسبعين رطلا . وهذه الطريقة تمتاز بأنها تقلل من عدد العاملين في الدائرة الجمركية ، ولكن القارئ يعلم أن هذه الطريقة غير منصفة فيما يتعلق بقيمة البضاعة . وعلى سبيل المثال ، فإن مسألة التعريفية الجمركية المقدرة بريال واحد ، تصل إلى حوالي أربع عشر أو خمسة عشر في المئة بالنسبة للتمور ، وتقدر بحوالي واحد في المئة من قيمة الأقمشة ؛ وتقدر ، في الأرز ، بما يتراوح بين أربعة وخمسة في المئة ؛ ولكن على المدى الطويل ، يمكن القول إن شيئا يوازن شيئا آخر . وهذه التعريفية تفرض على الواردات فقط ، ولهذا فإن الحكومة العمانية ، على العكس من النظام الفارسي ، لا تحصل ضرائب أو تفرض رسوما جمركية على الصادرات - وهذا نظام حكيم في الشرق . والآن ، وبعد ملاحظتي اليومية لأعداد القادمين إلى الموانئ التي أقمت فيها فترة تسمح لي بعد هؤلاء القادمين ، توصلت إلى أن متوسط عدد الطرود والبالات التي يجرى إنزالها في الميناء الواحد لا يقل عن ستة طرود أو بالات في اليوم الواحد ؛ أما عدد الطرود أو البالات التي يجرى إنزالها في الموانئ الكبيرة مثل لينجا ، وصوحر ، ومطرح ، ومسقط ، وما إليها من الموانئ الكبيرة الأخرى ، أكثر من ذلك بكثير ؛ كما يقل هذا العدد ، عن ذلك بكثير أيضا في الموانئ الأخرى الأقل أهمية . وإذا ما ضربنا كل هذه الأرقام المختلفة في بعضها ، إذ ما خفضنا أيضا العمل في هذه الموانئ على امتداد العام ، من ثلاثمائة وخمس وستين يوما إلى ثلاثمائة يوم فقط ، وذلك تحاشيا لأيام الطقس السيئ والطوارئ المماثلة الأخرى ، نجد أن حاصل هذا الضرب يصل إلى حوالي ستة عشر مليون ومائتي ألف شلن ، أو ثمانمائة وعشرة آلاف جنيه إسترليني ، تمثل الدخل السنوي الذي تحصل عليه الحكومة المركزية من هذا المصدر .

أما فيما يتعلق بالمصدر الثالث ، وهو الضرائب العقارية ، بما في ذلك الضرائب التي تفرض على الثروة الحيوانية ، فأنا أورد المعطيات التالية . وينبغي أن أضيف هنا ، أن الضريبة المفروضة هنا في عمان ، لا يطلقون عليها اسم الزكاة ، وإنما يسمونها

"الخرج" أو إن شئت فقل "المنتج"، وهى أقل من الضريبة المماثلة فى الأراضى الوهابية بحوالى الثلث تقريبا؛ يضاف إلى ذلك، أننى لم أسمع قط فى عمان عن أية ضرائب أو رسوم إضافية أو غير عادية سواء أكان ذلك للحرب أو لأية أغراض أخرى. ونحن هنا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن السكان، فى عمان، وبخاصة أولئك السكان المستقرين أو الذين يملكون أراضى، هم الأكثر كثافة، إذ تصل كثافة السكان هنا إلى ضعف ما هى عليه فى نجد، إذا ما أخذنا هذا المصطلح بمعناه السياسى؛ زد على ذلك أن الأراضى فى عمان، هى بشكل عام وقاطع أكثر خصوبة من الأراضى فى نجد من هنا، فإن نوعية الملبس الجيد، والمسكن الجيد أيضا، والحياة الجيدة أيضا يشهد على مستوى ثروة محلية أكبر من ثروة وسط الجزيرة العربية. وفى ضوء ذلك، نجد أن الدخل الذى يتم الحصول عليه من هذا المورد فى كل أنحاء عمان لابد وأن يكون ضعف ذلك الدخل المماثل الذى يصل إلى خزانة الرياض، وأنه قد يقدر بما يتراوح بين مائة وثمانين ومائتى ألف جنيه إسترليني فى العام الواحد. وقد أبلغنى كل الرواة الذين سألتهم عن ذلك، أن هذا المورد من موارد الدخل هو، من ناحية، أقل بكثير من المورد التجارى؛ وأنه من الناحية الأخرى أكبر بكثير مما يمكن أن تحصله الدول العربية الأخرى عن طريق الضرائب الحكومية الجائرة الأخرى. وينبغى أن أضيف هنا، أن مسألة تأجير الأراضى غير معروفة هنا؛ ولكن المنتج، والماشية، والمعادن، قد تخضع للضرائب فى ظل بعض الظروف الخاصة.

رابعا، وأخيراً تأتى التجارة التى يمارسها ثوينى وعائلته، وأفراد حاشيته الخاصة الذين يمارسون هذه التجارة بأسمائهم هم شخصيا؛ وهنا يجب أن ندخل ضمن هذه التجارة بعض الاحتكارات التى سبقت الإشارة إليها، وهى تجارة الملح أو المناجم الأخرى، وكذلك تجارة الكهرمان، وأنا ليست لدى معلومات مؤكدة عن هذه الأمور، أكثر مما هو متيسر عنها لدى عامة الناس، والتى تقول إن هذه التجارة تعود على ثوينى بدخل خاص يقدر بحوالى مائتى ألف ريال، أو ما يعادل خمسين ألف جنيه إسترليني كل عام.

وقد يكون من المفيد هنا أن يلاحظ القارئ أننى دمجت تجارة الرقيق فى المورد الثانى؛ إذ تجبى على كل زنجى يتم إحضاره إلى هذه البلاد، حوالى ريالين، أو ما يعادل عشر شلنات انجليزية، يتم تحصيلها بواسطة موظفى الدائرة الجمركية - وأنا لا أظن أن هذا مبلغا كبيرا. ومن ثم، وبرغم الخوف من أن يتسبب التدخل الأجنبى،

فى بعض الأحيان - فى المزيء من المضايقات التى تنتج عن إخفاء هؤلاء العبيء المساكين فى عنابر المراكب وما إليها ، فأنا لم أسمع قط عن أية إجراءات مماثلة يتخذها ربابنة البحر العرب حتى يتسنى لهم تهريب شحناتهم من الأحياء عن طريق الرسوم الجمركية .

هيا بنا الآن نحصى سويا المبالغ التى سبق أن أوردتها ؛ والتى تصل إلى مليون وخمسة وستين ألفا وستمئة وأربعين جنيهًا إسترلينيًا فى العام . وهذا مبلغ كبير على حكومة وطنية فى الشرق ، برغم أن هذا المبلغ فى ظل حكم أفضل والظروف الأحسن ربما يزيء زيادة كبيرة. ولكن إذ ما نظرنا إلى هذا المبلغ ، فى ظل النظام القائم حاليًا ، فإنه لا يشكل عبئًا على الأراضى أو الشعب ؛ وإذا ما اعتبرنا ازدهار ورفاهية الأمة ، بأثريائها وفقرائها ، وبحرفيائها وتجارها ، ومزارعيها ، وملاك الأرض فيها ، هو الهدف الرئيس الذى تُشكّلُ الحكومات من أجله ، وهو الذى تجبى من أجله الضرائب أيضًا ، فإننا لا يسعنا ، بشكل عام ، إلا أن نحىّ سلطان عمان على أن لديه ما يكفيه ، وما يخصصه لكل الأهداف الشريفة ، دون أن يُحمل شعبه ما لا يطيق أو يعرقل الصناعة أو التجارة .

أما فيما يتعلق بالمتحصلات كائنة ما كانت ، التى تحصل عليها الحكومة المركزية من الممتلكات الأفريقية ، وبخاصة من جزيرة سوقطره ومن زنجبار ، فأنا ليس لى ما أقوله عنها على وجه اليقين . والتقارير الجارية عن الثروة التى يجرى الحصول عليها من هذه الممتلكات - والتى تتمثل فى "الذهب والفضة ، والعاج ، والنسانيس ، والطواويس " ، لا تخفى على أحد مثلما كان حالها فى الأزمان القديمة ؛ ولا يمكن إخضاعها لميعار الإحصائيات والحسابات الرياضية .

وقد يتساءل القارئ عن المصارف التى تنفق الحكومة عليها هذا الدخل السنوى . وهنا نجد أن المصارف الرسمية على النحو التالى : أولاً ، صيانة القلاع العديدة التى ما يزال يجرى الاحتفاظ بها وصيانتها ، وبخاصة الموجود منها على ساحل البحر ، إضافة إلى دفع مرتبات الحاميات البلوشية ، والمدفعية ، والذخيرة ، وكل ما يخدم هذا الهدف . ثانياً ، حرس السلطان الخاص ، الذى يتكون من الخيالة الذين سبقت الإشارة إليهم ، والذين يدخلون فى نطاق الخدمة العسكرية العاملة والمستمرة ، إضافة إلى عء قليل أيضاً من الجنود المشاة . ثالثاً ، جهاز الجمارك ، وموظفيه والعاملين فيه ،

والمحصلين ، والشرطة ، وما إلى ذلك من الفئات الأخرى . رابعا ، الأسطول - وهو ، كما شاهدنا ، كبير وفاعل ، ومصدر من مصادر الإنفاق الدائم ، وذلك على العكس من المصارف الأخرى مجتمعة . خامسا ، دخول الوزراء ، وأعضاء الأسرة المالكة ، وأبهة المنصب والدولة . أخيرا ، وليس آخرا ، إذ صح ما يقال ، يجيئ ترف ثويني وبذخه الشخصى ؛ وهو فى ذلك يشبه إلى حد كبير أجداده من الأسرة الملكية القحطانية ، كما يقول عنهم التاريخ سواء أكانوا فى اليمن أم عمان . والمثل العربى يقول : " من شابه أباه فما ظلم " ؛ وربما يستمىح ذلك شيئا من العذر لـ - ثويني ، إذ ما سار على خطى كل من ذى الرياش وتبع ، الذين يزعم أنه بينه وبينهما ارتباط وثيق .

وأنا اعتقد أنه قد آن أن نعود مرة ثانية إلى سياق رحلتنا ، التى أوشكت على الانتهاء . إذ عندما عدت إلى منزل أستار ، قدمنى يوسف لصديقه البحرى الجديد ، الذى كرر على عرضة المجانى بان ينقلنا بلا مقابل إلى أبى شهر . وبقي هذا الربان ، طوال اليومين التاليين ضيفا على ديوان أستار ، الذى أحضر إلينا كثيرا من رفاقه ومن العاملين فى البحر . وبحارة الكويت ، دونا عن سائر كل البحارة الذين يعملون فى الخليج الفارسى ، هم الذين يحتلون المرتبة الأولى من حيث الجرأة ، والمهارة وإمكانية الاعتماد عليهم والثقة بهم . ومنذ خمسين عاما لم يكن هذا الميناء الكويتى أو مدينته الصغيرة - لم أزر هذا الميناء قط ، ولكنى قرأت وصفه على لسان أولئك الذين زاروه - شيئا مذكورا ؛ ولكن هذا الميناء أصبح الآن ، أهم وأنشط الموانئ فى شمالى الخليج الفارسى ، ولا يستثنى من ذلك أيضا ميناء أبو شهر نفسه . ورئيس الميناء الكويتى واسمه عيسى ، له سمعة طيبة داخليا وخارجيا ويرجع الفضل فى ذلك إلى إدارته الجيدة وسياسته الحكيمة ؛ يضاف إلى ذلك أن الرسوم الجمركية فى هذا الميناء منخفضة ، ومناخه صحى ، والسكان من النوع الودود ، وهذه الأسباب مجتمعة ، إضافة إلى كون هذا المرفأ يعد نوعا من أنواع المكلا ، أو إن شئت فقل صلاحية هذا الميناء لرسو السفن ، وتميزه بهذه الخصيصة عن سائر الموانئ المجاورة ، هو الذى يجذب إلى الكويت مئات من القوارب الصغيرة التى يمكن لها أن ترسو فى كل من أبى شهر أو البصرة . وسكان هذا الميناء الكويتى من المسلمين ، أو من العرب ، وهم يتسامحون مع الغير ولا يتعصبون لأنفسهم ؛ والوهابية مستبعدة هنا تماما ، إضافة إلى فشل جميع الجهود النجدية المبذولة فى أن يكون لها نصير واحد فى الكويت . وهذه المدينة من الناحيتين التجارية والسياسية تعد منفذا بحريا ، بل هى المنفذ الوحيد

ل - جبل شومر ، ولذلك فهي تتشابه في ذلك مع ميناء تراستى Trieste في النمسا . والكويت لا تبعد سوى مسير خمسة عشر يوما عن حائل ؛ ومن ثم فإن الحكام من أسرة ابن الرشيد كانوا يحافظون دوما على أحسن العلاقات مع رؤساء الكويت ، بل إن هذه العلاقات ازدادت وثاقة في ظل الحكم الحالي ، في عهد طلال بن الرشيد . وربما ساعدت قرابة الدم أيضا على تقوية ذلك التحالف السياسي ، إذ يزعم حكام الكويت أن أصولهم ترجع إلى عشيرة جعفر ، وهي العشيرة نفسها التي ينتمى إليها طلال بن الرشيد . ولكن إذا ، ما نحينا كل ذلك جانبا ، نجد أن المزايا الكبيرة التي حققها ذلك الميناء البحرى ل - جبل شومر ، سواء من ناحية استيراد السلع التي من قبيل الأرز ، والأقمشة ، والبضائع الأخرى ، أو من ناحية تصدير الخيول ، والأغنام ، والصوف وما إلى ذلك من المنتجات الأخرى التي تأتي من الأراضى العالية ، تؤكد تماما حكمه طلال بن الرشيد في هذا الجانب . أخيرا ، فإن تحالف طلال بن الرشيد مع الكويت يساعد طلال بن الرشيد على المحافظة على التوازن بينه وبين الوهابيين الذين يتعدون على أملاك الآخرين ، في الناحية الجنوبية ؛ في حين يتشجع عيسى هو ومواطنوه بفضل اتحاده هذا مع شومر ، ويرفض مطالب الجزية والاستسلام التي تفرض عليه هو ومواطنيه من متأسلم البصرة ومن الباشا في بغداد ، وهذا يساعد عيسى على النجاة من التدهور والركود الذى يصيب كل الموانئ البحرية الواقعة تحت الإدارة العثمانية .

وفي عصر اليوم الثانى والعشرين من شهر مارس هب نسيم جنوبى ، وهنا أعلن رباننا عن نيته فى أن يبحر بسفينته فى صباح اليوم التالى ؛ ولكن العرب يماطلون فى البر والبحر على حد سواء ، ولكن مع حلول صباح اليوم التالى اكتشفنا أننا لن نبحر قبل غروب الشمس فى أسرع الأحوال . وكانت السفينة قد تحركت بالفعل من ميناء مسقط ، وأصبحت تقف الآن فى مطرح بالقرب من مدخل الميناء ، مقابل صخرة كبيرة يطلقون عليها اسم الفحل Fah.1 ، الذى يشيع استعماله بين العرب ويطلقونه على كل ما هو كبير الحجم . وفحل مطرح عبارة عن كتلة من الأحجار السوداء التى تنبثق فجأة من داخل مياه البحر ، شأنها فى ذلك شأن قريبتنا سلامة التى شاهدناها بعيدا عن رأس مسندم .

أخيرا ، وفى اليوم الثالث والعشرين ، استأذنا من مضيفنا أستار ، ومن أصدقائنا الطيبين الآخرين ؛ وبينما كنت أسير فى اتجاه الميناء ومعى يوسف وأربعة من معارفنا المقربين، كنت أستشعر أن خطواتى بدأت تقودنى بشغف كبير، صوب الوطن .

ولم يكن ذلك الإحساس خال من الحزن والندم ، أو بلا أمل ، مهما بعدت المسافة ، فى زيارة هذه المناطق الجميلة والغريبة مرة ثانية . واستقلينا زورقا من زوارق الزنوج ، أبحرنا به على امتداد ساعتين حول الرأس والرُّعن إلى أن شاهدنا فانوس السفينة وبدأنا نتسلق جوانبها الداكنة بعد حلول الليل . وفى نفس هذه الليلة ، وبعد أن غادرنا الميناء وأصبحنا فى عرض البحر رحلت أراقب مجموعة نجوم صليب الجنوب ، الذى يرتفع طرفه المنخفض عن مستوى الأفق ، فى هذه المنطقة بمعدل أربع أو خمس درجات ؛ برغم أنه لو كان هذا الطرف المنخفض عند حافة الماء ، لأدى صفاء الجو إلى وضوح النجوم كلها . كان صليب الجنوب صديقا قديما ، رأيت من جديد لفترة قصيرة بعد غياب دام سنوات طويلة ، وهو سرعان ما يختفى عن الأنظار ، ولكنه لا يغيب عن البال .

ولن أقول الكثير عن بقية الرحلة . فقد كان طريقنا يمر عبر الخليج إلى بندر عباس ، التى مكثنا فيها يوما واحداً ؛ ومن بندر عباس توجهنا إلى جزيرة هنجام أو إن شئت فقل هنيام الصغيرة ، التى تبعد عن جشم ، تلك المحطة البحرية الممتازة ، وإن شئت فقل أنها جزيرة بريم الخليج الفارسي ، ومن هينام أبحرنا إلى ميناء شُيرو Chiro الهادئ ، والذى يقع فوق ميناء شاراك مباشرة ؛ ومن شُيرو أبحرنا إلى أبى شهر ، وسط عواصف عاتية ورياح غير مرسلة أخرت وصولنا إلى أبى شهر إلى اليوم السادس من شهر أبريل .

وأبقى الربان وطاقمه ، من بداية الرحلة إلى نهايتها ، على ودهم وتأديهم الذى أعطونا منه عينة فى مسقط ، ولم تحدث أية شكوى أو تبرم من كثرة المسافرين معنا ، الذين كان معظمهم من الهنود الذين جاءوا من مدينة لوكنو Lucknow والمناطق المجاورة لها . كانت السفينة كبيرة ، ونظيفة ولا تسمح بتسرب الماء داخلها ؛ ومن حسن حظى أنها كانت كذلك ، والسبب فى ذلك ، أننا ونحن فى منتصف الطريق عند أعالي الخليج الفارسي ، هبت علينا عاصفة ، أقسى من تلك العاصفة التى أغرقت سفينتنا العمانية فى قاع البحر . ولكنى عند هذه المرحلة لم أكن ألقى بالا للصالح أو الطالح من حولى ، نظرا لأن الحمى التى أصابتنى فى مسقط كانت قد وصلت الآن إلى عنقوانها ، زد على ذلك ، أنتى لم أكن المريض الوحيد على ظهر السفينة ، فقد مرض أحد الهنود بهذه الحمى عندما كان على البر ، ثم مات قبل أن نصل إلى ميناء الوصول . وبذل الربان والبحارة كل ما فى وسعهم خدمة لى ؛ ولكن السفينة العربية باستثناء التعاطف

والكلمات الرقيقة ، ليس لديها ما تواجه به متطلبات رجل مريض . وفى النهاية رست سفينتنا أمام أبى شهر : وحملنى طاقم السفينة على أكتافهم ، نظرا لأننى لم أكن أقوى على الحركة ، فى حين راح يوسف بن خميس يدلهم على الطريق إلى أن وصلنا إلى المنزل الذى يقيم فيه أبو عيسى ، الذى كان قد ظن أننا قد أضفنا منذ زمن طويل إلى قائمة الرجال الآخرين الذين ماتوا ، والسفن الأخرى التى غرقت فى الإعصار الذى هب فى الليلة التاسعة من شهر مارس . وكان بركات قد غادر أبى شهر فعلا إلى البصرة ، ومنها إلى بغداد ، التى كان ينتظرني فيها ؛ أما أبو عيسى هو وفوج الحجاج الإيرانيين الذى يقدر بحوالى مائة وعشرين حاجا فقد تقرر لهم أن يغادروا ، خلال أيام قلائل ، ميناء أبى شهر متجهين إلى البحرين ، ومنها إلى الأحساء .

وفى أبى شهر وصلت آخر أخبار سقوط عزيزة وانتصارات الوهابيين ناحية الغرب . ولكن الحمى ، بحكم أنها كانت قد وصلت إلى ذروتها ، منعتنى من الاهتمام بالأحداث قريبا وبعيها ؛ والواقع ، أننى كنت دوما ، وذلك باستثناء فترات قليلة جدا ، فى حالة من الهذيان الذى يثير الكثير من التعب والإرهاق خلال حمى التيفود . ووصلت السفينة الهندية فى اليوم العاشر من شهر أبريل ، وحملتني إلى البصرة ، وفيها نقلني بعض البحارة إلى قارب بخارى نهري ، كان يقوده النقيب سلبي من البحرية الهندية . وعلى ظهر هذا القارب ، ومن خلال الكرم والحنان اللذين يعدان شعارا لكل رجل إنجليزى وكل بحار إنجليزى أيضا ، لقيت معاملة طيبة ، وحصلت على مساعدة طيبة مختلفة الأنواع ، ولولا ذلك لانتهدت رحلتى ، مثل سائر رحلات الرحالة الآخرين ، الذين رحلوا عن دنيانا . أما رحلتنا عبر نهر دجلة فقد طالت بفعل فيضانات الربيع ، واستغرقت سبعة أيام ؛ وفى اليوم الثامن نزلنا فى مدينة بغداد ، التى وصل كرم النقيب سلبي فيها هو وأصدقاء آخرون سويسريون ، وإنجليز ، وفرنسيون ، حدا جعلنى ، إن لم أتماثل إلى الشفاء تماما ، أصل إلى درجة معقولة منه . وفى بغداد ، التقيت ، بعد أيام قلائل ، صديقى الوفى القديم بركات ، مرة ثانية ؛ ذلك الصديق الذى يسهل أن نتصور مدى سعادته أكثر من وصفها ، عندما رآنى مرة ثانية بعد التقارير الخطيرة التى وصلتته ، وبعد المخاوف التى رجحت عنده كفتها على كفة الآمال . ويجب أن أشير هنا أن أنباء عاصفة شهر مارس كانت قد وصلت بغداد ، التى سبقتني إليها استفسارات كثيرة عن السفن الغارقة والسفن الناجية التى كانت لتجار بغداد فيها بعض المأرب والمصالح .

كان طريق عودتنا يمر بمدينة كركوك ، والموصل ، وماردين ، وديار بكر ، وعرفة ، ومنها إلى حلب وسوريا . كان هذا المسار جديداً علىّ ، ولذلك فقد كان مليئاً بالسحر والجمال ، غير أنه قد لا يكون كذلك عند القارئ ؛ وأنا لا أشك أن هذا الطريق قد غطاه عدد كبير من القصص والروايات التي هي أفضل من قصتي . وأنا عندما أتذكر ثراء هذه الأرض، أجد أن الدفع بالجدة هو العزاء الوحيد لي فيما أستشعر أنه أفضل، وليس أكمل ، خطوط حدود وسط وشرقي الجزيرة العربية ! وبقاء هذه الحدود دون أن يتناولها أحد بالوصف ؛ ومع التحفظ ، فأنا على ثقة ، أن رحالة حفيظاً آخر ، غير ذلك الذي يودع قارئه الآن ، سوف يقوم بهذه المهمة .

قائمة محتويات المجلد الثانى

الصفحة

- الفصل العاشر - الحياة فى الرياض 3
- الفصل الحادى عشر - تاريخ الأسرة المالكة الوهابية 47
- الفصل الثانى عشر - بلاط الرياض - الرحلة إلى الهفوف 103
- الفصل الثالث عشر - من الهفوف إلى القطيف 163
- الفصل الرابع عشر - البحرين وقطر 229
- الفصل الخامس عشر - عمان 297
- الفصل السادس عشر - سواحل عمان 351
- الفصل السابع عشر - تحطم السفينة - مسقط 395